آر. سي. سبرول

أَنَّهُ كَانَ
يُعَلِّمُهُمْ
كَمَنْ لَهُ
سُلْطَانٌ

مرقس

إنجيل مرقس: قراءة تفسيريّة

قال لي أحدهم في السبعينيّات: «آر. سي. سبرول هو أفضل مُتكلّم في عالم المُصلحين الإنجيليّين». بعد أربعة عقود من الممارسة الطويلة التي شحذت مهاراته، وتعمُّق فهمه بسنوات من الصلاة والتأمّل والاختبارات (كما نصح مارتن لوثر)، يشارك آر. سي. سبرول ثمرة ما قد أصبح بالنسبة إليه حبّه الأعظم: إطعام وتغذية رعيّته في كنيسة سانت أندرو من كلمة الله، وبنائهم في الإيمان والشركة وفي الحياة المسيحيّة والخدمة. تحتوي التعليقات التوضيحيّة للدكتور سبرول على جميع الصفات المميّزة له: الوضوح والحيويّة والفكاهة والعاطفة، والتي يتمّ التعبير عنها دائمًا في تطبيقها على العقل والإرادة والعواطف. إنّ قُدرة آر. سي. على التركيز في «الصورة الكبيرة»، وعبقريّته في عدم الإكثار من الكلام، مع جعلهم يرغبون بالحصول على المزيد، وعدم جعل كلمة الله مُملّة أبدًا، كلّ هذه الخصائص موجودة في هذه التفسيرات. إنّها هديّته للكنيسة الأوسع. عسى أن تُغذّي شعب الله جيّدًا لتكون قدوة لنوع الخدمة التي نشتاق باستمرار أنْ نقومَ بها».

الدكتور سينكلير ب. فيرجسون
مُعلّم
خدمات ليجونير

أظهر الدكتور. آر. سي. سبرول، المعروف بكونه عالم لاهوت بارع ومتكلّم غير اعتياديّ، أنّه كان واعظًا تفسيريًّا قويًّا مُفيدًا ونافذ البصيرة. لهذه المجموعة من العظات قيمة كبيرة للكنائس وللمسيحيّين في كلّ مكان».

الدكتور و. روبرت جودفري
رئيس فخري وبروفيسور فخري في تاريخ الكنيسة
كليّة وستمنستر كاليفورنيا، اسكونديدو، كاليفورنيا

هذا ما أكرّره أمام طلّابي مرارًا وتكرارًا: عليكم أنْ تشتروا كُتب تفسير جيّدة، وأنْ تفعلوا ذلك مع بعض التمييز. يجب أنْ يكونَ ضمن هذه الكتب تفاسير لأحد الوعّاظ، لأنّ كتب التفسير ليست كلّها متشابهة. قد يشرح لك بعضهم ما يعنيه النصّ، ولكنّهم لا يُفيدونك كثيرًا في الإجابة عن السؤال: «كيف أعظ هذا النصّ؟ كان الدكتور آر. سي. سبرول أسطورةً في عصرنا. لقد تركَ فينا وعظه نوعًا من الرهبة لمدّة نصف قرن، وتُمثّل هذه الصفحات ثمرة تفسيره عندما كان في ذروة قدراته الفكريّة. تمثّل سلسلة كتب التفسير للدكتور سبرول اللاهوت المُصلَح المتّقد، الصادر من قلب راعٍ

في كنيسة نابضة بالحياة. من الأساسي جدًّا قراءَة هذا الكتاب».

الدكتور ديريك و. هـ. توماس
الخادم الأكبر في الكنيسة المشيخيّة الأولى، كولومبيا، ساوث كارولينا

كان الدكتور. آر. سي. سبرول اللاهوتي الأوّل في عصرنا، وقد كان أداةً غير عاديّة بين يديّ الربّ. كان الدكتور سبرول الذي يتمتّع بنظرة ثاقبة في نصوص الكتاب المقدّس مُفسّرًا موهوبًا ومعلّمًا على مستوى عالميّ، يتمتّع بإدراك استراتيجيّ ومهارة للكلمة المُوحى بها من الله. عندما صعد إلى منبر كنيسة القديس أندرو وألزم نفسه بالانضباط الأسبوعيّ للتفسير الكتابيّ، أظهر هذا الواعظ المشهور قدرة نادرة على تفسير وتطبيق كلمة الله. أوصي بشدّة بكتب الدكتور سبرول في تفسير الكتاب المقدّس لجميع الذين يتوقون لمعرفة الحقيقة بشكل أفضل، وتجربتها بشكل أعمق بطريقة تُغيّر حياتهم. هذا الكتاب هو أداة لا غنى عنها للتعمّق في كلمة الله، ولا بدّ لكلّ مسيحيّ أنْ يقرأَه».

الدكتور ستيفن ج. لوسن
مؤسّس ورئيس
خدمات وان باشون، دالاس

كم هذا مثير! الآلاف منّا مَدينون منذ فترة طويلة للدكتور آر. سي. سبرول المعلّم. والآن، من خلال كتب تفسير الدكتور سبرول، نحن مدينون لسبرول الواعظ، الذي كانت عظاته كتابيّة تمامًا، وسليمة عقائديًّا، ودافئة من الناحية العمليّة، وقراءَتُها سهلة بشكل رائع. يُقدّم لنا سبرول ببراعة «الصورة الكبيرة» لكلّ مقطع كتابيّ بأسلوب مُحترَم وحواريّ في الوقت نفسه، بحيث يُبرز مجدَ الله ويلبّي الاحتياجات الحقيقيّة للبشر الخطاة مثلِنا. هذه السلسلة الكبيرة هي ضرورة مُطلَقة لكلّ واعظ مُصلَح وعضو كنيسة يتوق إلى النموّ في النعمة وفي معرفة المسيح يسوع. أتوقّع أنّ تكون خدمة سبرول على المنبر في شكلها المطبوع مفيدة للمسيحيّين في القرن الحادي والعشرين، كما كانت كُتب مارتين لويد جونز في عظاتها التفسيريّة مفيدةً لنا في القرن الماضي.اقرأ، واشترِ هذه المجموعة لأصدقائك».

الدكتور جول ر. بيكي
رئيس وبروفيسور علم اللاهوت النظامي والوعظ
كليّة اللاهوت البيوريتانيّة المُصلَحة، غراند رابيدز، ميشيغان

مرقس

قراءة تفسيريّة

مرقس

قراءة تفسيريّة

آر. سي. سبرول

Copyright © 2012 by R.C. Sproul. Originally published by Ligonier Ministries under the title *Mark: An Expositional Commentary*. Translated by permission. All rights reserved.

الطبعة الأولى: ٢٠٢٣

الكتاب: «مرقس: قراءة تفسيريّة»
المؤلّف: آر. سي. سبرول

تصميم الغلاف والتصميم الداخلي: kreactiv.net

ترجمة: بولس رعد

إشراف: داني برماوي

البريد الإلكتروني: info@new-nation.org
موقع إلكتروني: www.new-nation.org

ISBN: 979-8-89145-188-9

جميع حقوق الطبع باللغة العربيّة محفوظة للناشر وحده ©
ولا يجوز استخدام أو اقتباس أيّ جزء منه من دون إذن الناشر.
وللناشر وحده حقّ إعادة الطبع.

من أجل جاي وبيني ريزو،
الذين يُحبّون كلمة الله

المحتويات

مقدّمة السلسلة XIII

المقدّمة XV

١. مجيء المسيح (١: ١-٨) ١

٢. تمكين وتجربة (١: ٩-١٣) ١١

٣. «هلمّ ورائي» (١: ١٤-٢٠) ١٩

٤. سلطان ليس له مثيل (١: ٢١-٢٨) ٣١

٥. قلب مهمّة يسوع (١: ٢٩-٤٥) ٣٩

٦. قوّة لشفاء الجسد والروح (٢: ١-١٢) ٤٩

٧. الاختلاط بـ «الخطاة» (٢: ١٣-٢٢) ٥٧

٨. ربّ السبت (٢: ٢٣-٣: ٦) ٦٥

٩. دعوة الاثني عشر لاتّباع يسوع (٣: ٧-١٩) ٧٥

١٠. التجديف على الروح القدس (٣: ٢٠-٣٥) ٨٥

١١. مثل الزارع (٤: ١-٢٠) ٩٥

١٢. أمثال الملكوت (٤: ٢١-٣٤) ١٠٥

١٣. تهدئة الريح والأمواج (٤: ٣٥-٤١) ١١٥

١٤. تهدئة عجيج الجحيم (٥: ١-٢٠) ١٢٧

١٥. قوّة على الأمراض والموت (٥: ٢١-٤٣) ١٤١

١٦. نبيّ في وطنه (٦: ١–٦) ١٥١
١٧. إرساليّة تجريبيّة للاثني عشر (٦: ٧–١٣) ١٥٩
١٨. موت يوحنا المعمدان (٦: ١٤–٢٩) ١٦٩
١٩. الراعي يُطعم قطيعه (٦: ٣٠–٤٤) ١٧٩
٢٠. إظهار مجد الله (٦: ٤٥–٥٦) ١٨٧
٢١. شريعة الله وتقليد الإنسان (٧: ١–٨) ١٩٥
٢٢. نجاسة في القلب (٧: ٩–٢٣) ٢٠٥
٢٣. الفتات للـ «الكلاب» (٧: ٢٤–٣٠) ٢١٥
٢٤. شفاء الرجل الأصمّ والأعقد (٧: ٣١–٣٧) ٢٢٣
٢٥. خمير الفرّيسيّين (٨: ١–٢١) ٢٣١
٢٦. أعيُن تُفتح (٨: ٢٢–٣٠) ٢٤١
٢٧. معنى المسيح (٨: ٣١–٩: ١) ٢٤٩
٢٨. التجليّ (٩: ٢–١٣) ٢٦٥
٢٩. معونة لعدم الإيمان (٩: ١٤–٢٩) ٢٧٥
٣٠. مقياس العظمة (٩: ٣٠–٤١) ٢٨٥
٣١. مكان العذاب (٩: ٤٢–٥٠) ٢٩٥
٣٢. الزواج والطلاق (١٠: ١–١٢) ٣٠٣
٣٣. مفتاح الحياة الأبديّة (١٠: ١٣–٢٢) ٣١٣
٣٤. إله المُستطاع (١٠: ٢٣–٣١) ٣٢٣
٣٥. العظمة الحقيقيّة (١٠: ٣٢–٤٥) ٣٣١
٣٦. رجل أعمى يرى (١٠: ٤٦–٥٢) ٣٤١
٣٧. ما وراء دخول يسوع المظفّر (١١: ١–١١) ٣٤٩
٣٨. الدرس من شجرة التين (١١: ١٢–٢١) ٣٥٧

٣٩. الإيمان وسط عدم الإيمان (١١: ٢٢-٣٣) ٣٦٥
٤٠. مصير الكرّامين الأشرار (١٢: ١-١٢) ٣٧٣
٤١. سؤال عن الضرائب (١٢: ١٣-١٧) ٣٨١
٤٢. سؤال عن القيامة (١٢: ١٨-٢٧) ٣٨٩
٤٣. سؤال عن الوصايا (١٢: ٢٨-٣٤) ٣٩٧
٤٤. ابن داود هو ربّ داود (١٢: ٣٥-٣٧) ٤٠٥
٤٥. الكتَبَةُ والأرملة (١٢: ٣٨-٤٤) ٤١٣
٤٦. العظة على جبل الزيتون، الجزء ١ (١٣: ١-٨) ٤٢١
٤٧. العظة على جبل الزيتون، الجزء ٢ (١٣: ٩-٢٣) ٤٢٩
٤٨. العظة على جبل الزيتون، الجزء ٣ (١٣: ٢٤-٣٧) ٤٣٩
٤٩. يسوع، حمَل الفصح (١٤: ١-٩) ٤٤٩
٥٠. عشاء الفصح الأخير ليسوع (١٤: ١٠-٢٦) ٤٥٧
٥١. طبيعتا يسوع (١٤: ٢٧-٤٢) ٤٦٥
٥٢. قُبلة الخيانة (١٤: ٤٣-٥٢) ٤٧٣
٥٣. مُحاكمة يسوع (١٤: ٥٣-٧٢) ٤٨١
٥٤. يسوع وبيلاطس (١٥: ١-١٥) ٤٨٩
٥٥. إساءَة وسُخرية وعذاب (١٥: ١٦-٣٣) ٤٩٩
٥٦. موت يسوع ودفنه (١٥: ٣٤-٤٧) ٥٠٧
٥٧. القيامة (١٦: ١-٨) ٥١٧
٥٨. وداع يسوع (١٦: ٩-٢٠) ٥٢٥
عن الكاتب ٥٣٥

مقدّمة السلسلة

حين دعاني الله للعمل في الخدمة المسيحيّة بدوام كامل، دعاني إلى المجال الأكاديمي. دُرِّبت ورُسمت لخدمة التعليم، وقد كرّست مُعظم حياتي لإعداد الشباب للخدمة المسيحيّة ومحاولة سدّ الفجوة بين معهد اللاهوت ومدرسة الأحد من خلال وسائل مختلفة تحت رعاية خدمات ليجونير.

ثمّ في عام ١٩٩٧، فعلَ الله شيئًا لم أكن أتوقّعه أبدًا: لقد وضعني في موقع الوعظ الأسبوعيّ كقائد لرعيّة شعبه في كنيسة القدّيس أندراوس في سانفورد، فلوريدا. على مدى الاثني عشر عامًا الماضية، بينما كنت أفتح كلمة الله كلّ أسبوع أمام هؤلاء القدّيسين الأعزاء، أصبحت أحبّ عمل الخادم المحلّي. رغم استمرار دوري كمدرّس، فإنّني أبقى ممتنًّا لله إلى الأبد لأنّه رأى مناسبًا أنْ يضعَني في هذه الخدمة الجديدة، خدمة الواعظ.

في وقت مُبكّر جدًّا من فترة خدمتي في كنيسة القدّيس أندراوس، قرّرت أنّه ينبغي عليّ في وعظي تبنّي تقليدًا مسيحيًّا قديمًا يُعرف بـlectio continua، أي «القراءة التتبّعية لتفسير الكتاب المقدّس». تمّ تبنّي هذه الطريقة في الوعظ في كلّ آية من آيات أسفار الكتاب المقدّس (بدلًا من اختيار موضوع جديد كلّ أسبوع) عبر تاريخ الكنيسة، باعتبارها الطريقة الوحيدة التي تضمن للمؤمنين سماع مشورة الله الكاملة. لذلك، بدأت في إلقاء سلسلة طويلة من العظات في كنيسة القدّيس أندراوس، وهكذا أكملت تفسير العديد من أسفار الكتاب المقدّس في ممارسةٍ استمرّت معي حتّى يومنا هذا.

لقد قمت سابقًا بالتدريس من خلال أسفار الكتاب المقّدس في أماكن مختلفة، بما في ذلك صفوف مدارس الأحد، ودروس الكتاب المقدّس، ومن خلال سلسلة من الملفّات الصوتيّة والمرئيّة في خدمة ليجونير. لكنّي الآن لا أجد نفسي مُنجذبًا كثيرًا إلى أذهان مَن يستمعون إلى وعظي، بل إلى عقولهم وقلوبهم أيضًا. كنت أعلم أنّني مسؤول كواعظ عن شرح كلمة الله بوضوحٍ وإظهار كيف يجب أنْ نعيشَ في ضوئها. سعَيْت لإنجاز كلتا المهمّتين عندما كنتُ أصعدُ كلّ أسبوعٍ على منبر كنيسة القدّيس أندراوس.

إذن، ما تحمله الآن بين يدَيك هو سجلّ مكتوب لعظاتي التي ألقيتها وسط رعيّتي المحبوبة في سانفورد. شجّعني القدّيسون الأعزّاء الذين جلسوا يستمعون إلى عظاتي أنْ يسمعَها أشخاص آخرون على نطاق أوسع. تحقيقًا لهذه الغاية، إنّ محتوى الفصول التالية من هذا الكتاب مأخوذ من سلسلة عظات كنت قد ألقيتها في كنيسة القدّيس أندراوس.

يرجى التنبّه إلى أنّ هذا الكتاب هو جزء من سلسلة أوسع من الكتب التي تحتوي على عظاتي في كنيسة القدّيس أندراوس. لن يمنحك هذا الكتاب، كأيّ كتاب آخر في السلسلة، الرؤية الكاملة الممكنة لكلّ آية من آيات الكتاب المقدّس. رغم أنّني سعيت للتطرّق إلى كلّ آية، فإنّني ركّزت على الموضوعات والأفكار الرئيسة التي كانت تُشكّل «الصورة الأكبر» لكلّ مقطع قمت بدراسته. لذلك، أحثّكم على استخدام هذا الكتاب كلمحة عامّة وكمقدّمة للكتاب المقدّس.

صلاتي إلى الله أن يباركك بينما تقرأ هذه المادّة كما باركني وأنا أعظها.

آر. سي. سبرول
ليك ماري، فلوريدا
نيسان ٢٠٠٩

المقدّمة

أعتقدُ أنّه قد تمّ تجاهُل إنجيل مرقس ولمْ يحظَ بالتقدير أيضًا. فإنجيل مرقس موضوع بين أطول إنجيلَيْن إزائيَّيْن هما متّى ولوقا، وهو يفتقر إلى أسلوب البلاغة في رواية يوحنّا، لذلك نجد من النادر أنْ يتمَّ الاقتباس من مرقس أوّلًا عندما يرغب الوعّاظ واللاهوتيّون في تعزيز حُججهم المتعلّقة بحياة يسوع وخدمته. ولو سُئِلنا، فقليلون منّا يستطيعون بسرعة أن يقولوا ما الذي يجعل إنجيل مَرقُس فريدًا من بين روايات الأناجيل الأخرى.

نحن بحاجة أنْ نتعرّف إلى هذا الكتاب الصغير. إنّه كتاب موحى به من الروحِ القدس قبل أيّ شيء آخر، وقد تمّ تضمينه بين أسفار الكتاب المقدّس القانونيّة لبُنياننا. إضافة إلى ذلك، كُتب لجمهور من الأمم، ربّما كانوا موجودين في مدينة روما نفسها، ممّا يعني أنّه وثيق الصلة بالمسيحيّين الذين ليسوا اليوم من خلفيّة يهوديّة. كما أنّه كتاب قيّم بسبب براعة وجودة اختصاره؛ فهو يتحرّك بسرعة ويُشدّد على الأشياء التي حدثت ليسوع خلال سنوات خدمته.

ولعلّ الأهم من ذلك هو أنّ مَرقُس يبذل جهدًا ليُظهِر أنّ يسوع هو المسيح وأنّه ابن الله في الجسد. يستهلّ إنجيله بقوله: «بَدْءُ إِنْجِيلِ يَسُوعَ ٱلْمَسِيحِ ٱبْنِ ٱللهِ» (١: ١)، وكلّ شيء في الكتاب يؤدّي إلى اعتراف بطرس العظيم: « أَنْتَ ٱلْمَسِيحُ» (٨: ٢٩). في عصر يُصرّ فيه العالم على أنّ يسوع كان في أفضل الأحوال مُعلّمًا عظيمًا، نحن بحاجة ماسّة إلى رؤية

هذه الحقائق وتذكّرها. يبدو في الواقع أنّ مَرقُس يُقلّل من أهمّية تعاليم يسوع من أجل التركيز على القوّة والسلطان اللذَيْن أنجز خدمته بواسطتهما، موضّحًا مرارًا وتكرارًا أنّه لم يكن مثل أيّ إنسان آخر. هذا منظور لا يجب أن نتجرّأ أبدًا أن نتغاضى عنه.

صلاتي أنّه عندما تقرأ هذه المجموعة من الأفكار حول إنجيل مرقس، أنْ تنفتحَ عينَيْك على هُويّة يسوع، وأنْ يتقوّى إيمانك به باعتباره المسيح وابن الله.

١

مجيءُ المسيح

مَرقُس ١: ١-٨

بَدْءُ إِنْجِيلِ يَسُوعَ ٱلْمَسِيحِ ٱبْنِ ٱللهِ. كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي ٱلْأَنْبِيَاءِ: هَا أَنَا أُرْسِلُ أَمَامَ وَجْهِكَ مَلَاكِي، ٱلَّذِي يُهَيِّئُ طَرِيقَكَ قُدَّامَكَ. صَوْتُ صَارِخٍ فِي ٱلْبَرِّيَّةِ: أَعِدُّوا طَرِيقَ ٱلرَّبِّ، ٱصْنَعُوا سُبُلَهُ مُسْتَقِيمَةً. كَانَ يُوحَنَّا يُعَمِّدُ فِي ٱلْبَرِّيَّةِ وَيَكْرِزُ بِمَعْمُودِيَّةِ ٱلتَّوْبَةِ لِمَغْفِرَةِ ٱلْخَطَايَا. وَخَرَجَ إِلَيْهِ جَمِيعُ كُورَةِ ٱلْيَهُودِيَّةِ وَأَهْلُ أُورُشَلِيمَ وَٱعْتَمَدُوا جَمِيعُهُمْ مِنْهُ فِي نَهْرِ ٱلْأُرْدُنِّ، مُعْتَرِفِينَ بِخَطَايَاهُمْ. وَكَانَ يُوحَنَّا يَلْبَسُ وَبَرَ ٱلْإِبِلِ، وَمِنْطَقَةً مِنْ جِلْدٍ عَلَى حَقْوَيْهِ، وَيَأْكُلُ جَرَادًا وَعَسَلًا بَرِّيًّا. وَكَانَ يَكْرِزُ قَائِلًا: يَأْتِي بَعْدِي مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنِّي، ٱلَّذِي لَسْتُ أَهْلًا أَنْ أَنْحَنِيَ وَأَحُلَّ سُيُورَ حِذَائِهِ. أَنَا عَمَّدْتُكُمْ بِٱلْمَاءِ، وَأَمَّا هُوَ فَسَيُعَمِّدُكُمْ بِٱلرُّوحِ ٱلْقُدُسِ.

تخيَّل لبرهة من الزمن أنّك من مسيحيّي روما في القرن الأوّل. أنتَ مُجتمعٌ مع رعيّتك في يوم الربّ، لكنّكم لستم في الكنيسة. وكان اضطهاد

الإمبراطور نيرون مُحتدِمًا، وإنِ اكتشفتِ السلطاتُ أنّك مؤمنٌ بالمسيح، فسيتمّ اعتقالك وستتعرّض لعقوبة الإعدام. لهذا السبب، أنتَ وإخوتك المؤمنون مُجتمعون في سراديب الموتى تحت المدينة، وتحيطُ بكم الهياكل العظميّة والجثث.

عندما وصل نيرون إلى السلطة، حكم بهدوء وببعض القدرات لمدّة خمس سنوات. لكن في عام ٥٩ ميلاديًّا، تغيّر وبدأ ينخرط بشكل جذريّ في أعمال وحشيّة وغير أخلاقيّة. ثمّ، في عام ٦٤ ميلاديًّا، دمّر حريقٌ هائلٌ روما. يصعب علينا أن نُدركَ حجم الدمار الذي نتجَ عن ذلك الحريق. عندما اندلعتِ النيرانُ، امتدَّت إلى سبعة أحياءٍ في المدينة، وبقيت النيران مُستمرة لسبعة أيّام. وما إنْ بدا أنّه تمّت السيطرة عليها، حتّى اندلعت مِن جديد. أخيرًا، دمَّرتِ النيران حوالي ٨٠ بالمائة من المدينة. فالخراب الذي أحدثَه إعصار كاترينا في مدينة نيو أورليانز لا يُقارَن بالخراب الذي أحدثته النيران في روما.

عندما تقع أحداثٌ مثل هذه، يبدأ الجميع بالبحث عن شخصٍ ما لإلقاء اللوم عليه. اشتبه الكثيرون في أنّ نيرون نفسَه هو مَن أشعل النار. وحتّى يُبعدَ الشُبهات عن نفسه، اختار إلقاء اللّوم على المسيحيّين. انتشر خبرٌ في المدينة مفاده أنّ هؤلاء المتعصّبين المُعادين للمجتمع والدين، الذين يحملون اسم يسوع المسيح، هم السبب وراءَ كلّ هذا الدمار. فأرسل نيرون جيشَه، وألقَوْا القبض على كلّ مسيحيّ كانوا يجدونه. وعندما كان يَعتقلهم، كان يُلبسهم جلود الحيوانات البريّة، وفي عرضٍ عامٍ للوحشيّة والقسوة كان يُطِلق عليهم الكلاب البريّة. كانت الكلابُ تهجم على المسيحيّين المغطّاة أجسادهم بجلود تلك الحيوانات فيقتلونهم، معتقدة أنّها تهاجم حيواناتٍ بريّة. مسيحيّون آخرون كان نيرون يغمس أجسادهم في مادّة القارّ أو القطران، ثمّ يُشعلها لإضاءَة حدائقه الخاصّة. لكنّه لم يكتفِ بذلك، بل كان يُحضر

غيرهم من المسيحيّين إلى المدرّجات الرومانيّة ويُطعمهم للأسود من أجل التسلية والترفيه.

نحو عام ٦٥، مباشرةً في أعقاب ذلك الحريق العظيم ظهر على الأرجح أوّل سجلّ مكتوب عن حياة وخدمة يسوع المسيح، إنّه الإنجيل بحسب مرقس. من الثابت تاريخيًّا أنّ القرّاء الأصليّين لهذا الإنجيل هم المسيحيّون الذين كانوا يعانون من الاضطهاد في روما. ذكّرهم هذا الإنجيل بخلاصهم في المسيح، وعلّمهم عن الآلام التي تحمّلها يسوع بنفسه، وكشفَ لهم أنّ يسوع اقتيد إلى البريّة وكان عُرضة لخطرِ وحوشها.

تخيّل نفسَك إذًا قابعًا في سراديب الموتى، وأنت تعبدُ مع مجموعة صغيرة من المؤمنين. ولكن في يوم الربّ هذا، يأتي راعي كنيستك حاملًا معه وثيقةً جديدة. إنّه إنجيل مرقس المكتوب حديثًا، وأنتَ على وشك سماع كلمة الله بالقراءَة الأولى لهذا الإنجيل.

الكاتب والمواضيع

لا شكّ أنّ كاتب هذا الإنجيل هو يوحنّا مَرقُس، على الرغم من أنّ اسمَه غير مذكور في النصّ نفسه، وهو الذي كان مُرافقًا لبولس مع برنابا في بداية رحلاتهم التبشيريّة. طُرد مَرقُس من قِبَل بولس الرسول فذهب مع برنابا، بينما ذهب بولس مع سيلا (أعمال الرسل ١٣: ٥، ١٣؛ ١٥: ٣٦-٤١). لاحقًا، تصالح مَرقُس مع بولس، وأصبح رفيقًا مهمًّا له في الأيّام الأخيرة من خدمة بولس الرسوليّة (٢ تيموثاوس ٤: ١١). إلا أنّ رجالًا مُعتبرين جدًّا في كنيسة القرن الثاني مثل بابياس ويوسابيوس وإيرينيوس شهدوا دائمًا بأنّ الرسول بطرس كان يوجّه أعمال الكتابة في هذا الإنجيل إلى حدّ كبير، حيث كان مرقس يعمل سكرتيرًا لديه. هنالك بعض الشكّ حول ما إذا كان هذا الإنجيل قد كُتب قبل موت بطرس أو بعده، ولكن من

المؤكّد أنّ بطرس قد ختم بموافقته على محتواه.

من أبرزِ سمات إنجيل مَرقُس إيجازه، والوتيرة المثيرة والمُذهلة التي تُحرّكه من بدايته حتى نهايته. على سبيل المثال، هو لا يحتوي على تفاصيلَ حول ميلاد يسوع المسيح (نجدُ تلك التفاصيل في إنجيلَي متى ولوقا). ومِن ثمّ، فإنّ إنجيل مَرْقس لا يُعتبر سيرةً ذاتيّة. فهو لا يُعطينا سردًا تاريخيًّا عن يسوع، كما هو الحال في إنجيل متى. عِوضاً عَن ذلك، يُمكننا اعتباره «وثيقة شاهد،» أو شيئًا يُشبه نُبذة يوزّعها أحدهم لتقديم مُلخّص عن أعمال يسوع البارزة.

من أبرز الكلمات اليونانيّة المُستخدَمة في إنجيل مرقس هي كلمة euthus، والتي تُرجمت إلى اللغة العربيّة «للوقت» أو «حالًا». استُخدِمت هذه الكلمة ٤٢ مرّة في إنجيل مَرقُس، واثنتي عشرة مرّة فقط في باقي العهد الجديد. نشأ أعزّ أصدقائي من الكليّة والمعهد اللاهوتي في حقل الإرساليّة في إثيوبيا، وبعد ذلك خدمَ الناس في الأدغال هناك. كانت وسيلة النقل الرئيسة عندهم زورقًا سريعًا أُطلق عليه اسم euthus. سألته: لماذا أَطلقوا على الزورق هذا الاسم؟ أجابني قائلًا: «كان العهد الجديد اليوناني كتابًا مألوفًا عند والدي. وذات يوم، كان يقرأ إنجيل مَرقُس باللغة اليونانيّة حيث مكتوب: «سفينة euthus» أو «للوقت غادرت السفينة شاطئ الجليل». كانت عبارة «سفينة euthus» موجودة هناك، لذلك أَطلقتُ على سفينتي هذا الاسم. كلمة euthus هي بالتأكيد كلمة جيّدة لوصف إنجيل مرقس، لأنّه يغوص مباشرة في الرواية ويتحرّك فيها بسرعة كبيرة. يبدو أنّ مَرقُس كان على عجلةٍ من أمره ليُقدّم لنا الحقائق الأساسيّة عن يسوع وحياته وخدمته.

يقدّم لنا مَرقُس هذه الحقائق لإثبات أمرَيْن: يسوع هو المسيّا الموعود به، وهو ابن الله. يُعبّر مَرقُس عن هذا التأكيد في بداية إنجيله حيث يقول: "**بَدْءُ إِنْجِيلِ يَسُوعَ ٱلْمَسِيحِ ٱبْنِ ٱللهِ**» (الآية ١). هذه هي الفكرة الأساسيّة

للإنجيل بأكمله.

قدّم مَرقُس نوعًا أدبيًّا جديدًا للعالم القديم، من خلال تنظيم مادّته وكتابتها بهذا الأسلوب، هذا النوع الأدبيّ الذي أصبح يُعرف فيما بعد باسم «الإنجيل». لدينا إنجيل مَرقُس، وإنجيل متّى، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنّا. كما يوجد «أناجيل» أخرى غير قانونيّة، مثل إنجيل بطرس. لا يَذكر العهد الجديد اليونانيّ عناوين الأناجيل، مثلًا: «إنجيل يوحنّا»، بَل يذكر بكلّ بساطة: kata Iohannan، والتي تعني «بحسب يوحنّا». ثمّ لدينا «بحسب متى» و»بحسب مَرقُس» و»بحسب لوقا». وقد فهمنا أن هذا يعني «الإنجيل بحسب متى» و»الإنجيل بحسب مَرقُس» وما إلى ذلك. أُضيفت كلمة الإنجيل، أو كلمة «بشارة»؛ لأنّ هذا النوع الأدبيّ مُصمّم لتركيز الانتباه على شخص وعمل المسيح. لهذا السبب كتبَ مَرقُس: «بدء إنجيل [بشارة] يسوع المسيح».

لاحِظْ أنّ مَرقُس لا يقول ببساطة إنّه يقدّم لنا «إنجيل يسوع». يقودنا هذا السفر فورًا إلى اعتراف قيصريّة فيلبس (٨: ٢٧–٣٠)، عندما سأل يسوع تلاميذه: «مَنْ يَقُولُ ٱلنَّاسُ إِنِّي أَنَا؟» فَأَجَابُوا: «يوحنّا ٱلْمَعْمَدَانُ. وَآخَرُونَ: إِيلِيَّا. وَآخَرُونَ: وَاحِدٌ مِنَ ٱلْأَنْبِيَاءِ». فَقَالَ لَهُمْ: «وَأَنْتُمْ، مَنْ تَقُولُونَ إِنِّي أَنَا؟» في هذه اللحظة بالذات، اعترف بطرس، بطل مَرقُس، اعترافه العظيم: «أَنْتَ ٱلْمَسِيحُ». أعلن مَرقُس عن هذا الاعتراف العظيم مُسبقًا عندما أكّد أنّ هذا هو إنجيل يسوع المسيح، والذي يعني بشارة يسوع المسيح، أو الأخبار السارّة عن يسوع، المسيّا، الذي هو أيضًا ابن الله.

المُمهّد للمسيّا

ينقلنا مَرقس بعد ذلك سريعًا إلى العهد القديم، الذي كان جزءًا بارزًا في كرازة الكنيسة الأولى. يفعل بولس ذلك باستمرار عندما يؤكّد شخصيّة

يسوع، ويعلّم أنّه هو الذي كتب عنه كتّاب العهد القديم أنّه المسيّا الآتي. وبالطريقة نفسها، يحدّد مَرقُس حالًا ظهور يسوع في سياق المسيح الموعود به في العهد القديم حين قال: **كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي ٱلْأَنْبِيَاءِ** (الآية ٢أ).

ثم يُقدّم لنا مُلخّصًا لثلاثة نصوص مميّزة من العهد القديم: واحد من سفر الخروج، وواحد من سفر ملاخي، وواحد من سفر إشعياء. يدمجها مَرقُس معًا ويكتب: "**هَا أَنَا أُرْسِلُ أَمَامَ وَجْهِكَ مَلَاكِي، ٱلَّذِي يُهَيِّئُ طَرِيقَكَ قُدَّامَكَ. صَوْتُ صَارِخٍ فِي ٱلْبَرِّيَّةِ: أَعِدُّوا طَرِيقَ ٱلرَّبِّ، ٱصْنَعُوا سُبُلَهُ مُسْتَقِيمَةً**». (الآيات ٢ب–٣). أعلنت جميع هذه النبوءات أنّ الله سيُرسل رسولًا قبل مجيء المسيّا، وسيقع على عاتقه تمهيد الطريق للمسيّا الآتي. لن يكون هذا الرسول هو المسيّا، لكنّه مُرسَل من الله ليعلن عن مجيء المسيّا.

عندما ظهر يوحنّا المعمدان، دار نقاش كثير حول هُوّيته. ظنّ كثيرون أنّه إيليّا الآتي من جديد. حتّى يومنا هذا، كلّما اجتمع اليهود لعشاء عيد الفصح، يتركون كرسيًّا فارغًا على الطاولة. وإنْ كنت ضيفًا في منزلهم أثناء احتفالهم بعيد الفصح، فقد تسألهم: «هل أحد الأشخاص المتوقّع حضوره لم يأتِ؟ لماذا هذا الكرسيّ الفارغ؟» عندها سيشرحون لك أنّ الكرسيّ الفارغ موجود لإيليّا، فهم يتذكّرون النبوءة الأخيرة في نهاية العهد القديم، في الصفحة الأخيرة من سفر ملاخي؛ الوعد بأنّه قبل مجيء المسيّا، سيُرسل الله إيليّا (ملاخي ٤: ٥). إيليا الذي صعد إلى السماء لم يَمت، بل قال الله إنّه سيأتي من جديد قبل ظهور المسيّا. ما زال اليهود ينتظرون حدوث ذلك.

لذلك، عندما ظهر يوحنّا المعمدان على مسرح إسرائيل، وعندما خرج من البريّة وبدأ يكرز بعد صمت دام مئات السنين منذ آخر نبيّ في العهد القديم، أثار ظهورُه اهتمامًا قوميًّا أكثر من أوّل ظهور ليسوع. في الواقع، أظهرت بعض الكتب الصادرة في أوائل القرن الأوّل اهتمامًا بيوحنّا المعمدان أكبر من اهتمامهم بيسوع. اعتقد الناس أنّ الله قد توقّف عن إرسال

الأنبياء، ولكن ظهر فجأة نبيّ قادم من البريّة.

كان السؤال الأوّل الذي طرحته السلطات على يوحنّا هو: «من أنتَ؟... إيليا أنتَ؟» فقال: «لا» (يوحنّا ١: ١٩–٢١). ولكن، عندما سألوا يسوع من هو يوحنّا، قال يسوع عنه إنّه إيليا (متى ١٧: ١٢–١٣). كيف يمكننا التوفيق بين هاتيْن العبارتَيْن؟ إنْ نظرْنا إلى الصورة كاملة، فستتّضح لنا هذه المعضلة. نقرأ أنّ يوحنّا جاء بروح إيليا وقوّته (لوقا ١: ١٧)، وأكّد يسوع أنّ خدمة إيليا قد تحقّقت في عمل يوحنّا المعمدان. لم يكن الأمر أنّ إيليا نفسه قد عاد ثانيةً، لذلك كان يوحنّا يقول الحقيقة عندما صرّح قائلًا: «لا، أنا لستُ إيليا». لكنّ يسوع أوضح أنّ يوحنّا كان يخدم بروح إيليّا وقوّته.

لاحظْ أنّ إحدى النبوّات التي اقتبسها مَرقُس تشير إلى «البريّة». في العهد القديم، كانت البريّة دائمًا مكان اللقاء التقليديّ بين الله وأنبيائه. رأى موسى العلّيقة المشتعلة في بريّة مديان. دعا الله لنفسه أمة عندما أخرجهم من أرض مصر إلى البريّة. كانت الغربان تخدم إيليا في البريّة. نرى هذه الفكرة الرئيسية عبر كلّ العهد القديم، والآن يبدأ مرقس إنجيلَه في العهد الجديد بهذا الشخص الغريب الخارج من الصحراء، من البريّة، باديًا للعالم كلّه كما لو أنّه إيليا.

تُقدّم لنا الأناجيل الأخرى معلومات إضافيّة عن يوحنّا المعمدان. مثلًا، يُخبرنا لوقا قصّة الحَبَلِ بيوحنّا المعمدان، وبشارة الملاك جبرائيل لزكريّا والد يوحنّا المعمدان. يَذْكُر يوحنّا تفاصيلَ كثيرة ليشرح إرساليّة يوحنّا المعمدان. لكن مَرقُس يدخل مباشرة في صُلب الموضوع، فيربط بين وعد العهد القديم بالممهّد الذي جاء ليهيّئ الطريق للمسيّا، ويوحنّا المعمدان.

إعلان رسالة يوحنّا

كتب مَرقُس: **كَانَ يوحنّا يُعَمِّدُ فِي ٱلْبَرِّيَّةِ وَيَكْرِزُ بِمَعْمُودِيَّةِ ٱلتَّوْبَةِ لِمَغْفِرَةِ ٱلْخَطَايَا. وَخَرَجَ إِلَيْهِ جَمِيعُ كُورَةِ ٱلْيَهُودِيَّةِ وَأَهْلُ أُورُشَلِيمَ وَٱعْتَمَدُوا جَمِيعُهُمْ مِنْهُ فِي نَهْرِ ٱلْأُرْدُنِّ، مُعْتَرِفِينَ بِخَطَايَاهُمْ.** (الآيتان ٤–٥). عندما ظهر يوحنّا، خرج من البريّة وخاطب الناس. وسرعان ما خرجت كلّ اليهوديّة وتجمّعت حوله. أصبح من المشاهير على الفور.

ما هو الأمر الذي دعا إليه يوحنّا؟ دعا الناس للاستعداد لمجيء المسيّا. قال لهم إنّهم بحاجة أن يتطهّروا من خطاياهم. بعبارة أخرى، كانوا بحاجة أن يعتمدوا.

اعترض الفرّيسيّون، وهم القادة الدينيّون المُحافظون، عندما بدأ يوحنّا بتعميد بني إسرائيل. أعلنوا أنّ بني إسرائيل، أبناء إبراهيم وشعب الله المختار، ليسوا بحاجة إلى تطهير. كانت المعموديّة للأمم، غير الطاهرين. فأثار هذا الأمر جدلًا كبيرًا، كما مهّد الطريق أمام تعميد يوحنّا ليسوع، الأمر الذي سنتأمّل فيه في الفصل التالي.

ثمّ أضاف مَرقُس بعد ذلك وصفًا موجزًا عن يوحنّا: **وَكَانَ يوحنّا يَلْبَسُ وَبَرَ ٱلْإِبِلِ، وَمِنْطَقَةً مِنْ جِلْدٍ عَلَى حَقْوَيْهِ، وَيَأْكُلُ جَرَادًا وَعَسَلًا بَرِّيًّا.** (الآية ٦). كان منظرُ يوحنّا بملابسه الخشنة ومظهره الجامح هذا إلى حدٍّ ما، مُطابقًا للصورة التقليدية للنبيّ.

يذكر مَرقُس أخيرًا إحدى الحقائق الرئيسة التي علّمها يوحنّا: **وَكَانَ يَكْرِزُ قَائِلًا: «يَأْتِي بَعْدِي مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنِّي، ٱلَّذِي لَسْتُ أَهْلًا أَنْ أَنْحَنِيَ وَأَحُلَّ سُيُورَ حِذَائِهِ. أَنَا عَمَّدْتُكُمْ بِٱلْمَاءِ، وَأَمَّا هُوَ فَسَيُعَمِّدُكُمْ بِٱلرُّوحِ ٱلْقُدُسِ».** (الآيات ٧–٨). كان الجميع في إسرائيل في ذلك الوقت ينتعلون الصنادل، حتى الأرستقراطيّين منهم، فكانت أقدامهم تتّسخ بسبب الطرق الترابيّة. ولكن

كان مَعيبًا على الأرستقراطيّين أن يخلعوا صنادلهم لئلّا تتّسخ أيديهم، لذلك جعلوا عبيدَهم يقومون بذلك عنهم. لكنّ يوحنّا قال إنّه لم يكن أهلًا حتّى أنْ يَفُكّ سيور حذاء مَنْ سيأتي بعده. كان يقول بشكل أساسيّ: «لا تتحمّسوا كثيرًا لي. تحمّسوا للذي أشير لكم إليه، الذي هو المسيّا، ابن الله. نعم، أنا أعمّدكم بالماء، لكن الذي يأتي بعدي سيعمّدكم بالروح القدس؛ روح القوّة. المسيّا الذي تنتظرونه قادم».

يقتبس متّى عن يوحنّا قوله: «وَٱلْآنَ قَدْ وُضِعَتِ ٱلْفَأْسُ عَلَى أَصْلِ ٱلشَّجَرِ» (٣: ١٠أ). بعبارة أخرى، كان يوحنّا يقول إنّ مجيء المسيّا لن يكون في وقت ما في المستقبل، بل إنّ مجيئَه قريب جدًّا. كان مجيئه على وشك أن يحدث. كانت المملكة ستظهر قريبًا جدًّا.

عندما سمع الجالسون في سراديب الموتى من جديد رسالة الاستعداد للمسيّا، ابتهجوا حين تأكّدوا أنّ المسيح قد جاء بالفعل. بسبب إيمانهم به، كانوا على استعداد أن يجتمعوا في الخفاء. وإن لزم الأمر، كانوا أيضًا على استعداد أن تلتهمهم الكلاب، أو أن يُحرَقوا كمشاعل لإضاءة حدائق نيرون، أو أن يُلقَوْا إلى الأسود. آه كم أحبّوا سماع قصّة مجيء المسيّا، ابن الله.

٢

تمكين وتجربة

مرقس ١: ٩-١٣

وَفِي تِلْكَ ٱلْأَيَّامِ، جَاءَ يَسُوعُ مِنْ نَاصِرَةِ ٱلْجَلِيلِ وَٱعْتَمَدَ مِنْ يُوحَنَّا فِي ٱلْأُرْدُنِّ. وَلِلْوَقْتِ وَهُوَ صَاعِدٌ مِنَ ٱلْمَاءِ رَأَى ٱلسَّمَاوَاتِ قَدِ ٱنْشَقَّتْ، وَٱلرُّوحَ مِثْلَ حَمَامَةٍ نَازِلًا عَلَيْهِ. وَكَانَ صَوْتٌ مِنَ ٱلسَّمَاوَاتِ: «أَنْتَ ٱبْنِي ٱلْحَبِيبُ ٱلَّذِي بِهِ سُرِرْتُ». وَلِلْوَقْتِ، أَخْرَجَهُ ٱلرُّوحُ إِلَى ٱلْبَرِّيَّةِ، وَكَانَ هُنَاكَ فِي ٱلْبَرِّيَّةِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا يُجَرَّبُ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ. وَكَانَ مَعَ ٱلْوُحُوشِ. وَصَارَتِ ٱلْمَلَائِكَةُ تَخْدِمُهُ.

تخيّل نفسَك خارجَ مدينة أورشليم، على ضفاف نهر الأردن، وحشود كبيرة من الناس تُحيط بك. كانوا جميعهم يتدافعون وهم يحاولون إلقاء نظرة سريعة على الرجل المعروف بالمُعمِّد. يبدو أنّ أورشليم كلّها قد خرجت لتعتمد من يوحنّا، وأنت انضممت إلى الحشود الغفيرة تنتظر دورَك لتعتمد.

كُنتَ في الأسبوع الماضي مُجرّد مراقب هنا، وسمعت يوحنّا يذكر أنّ الذي سيأتي بعده لم يكن أهلًا أن يحلّ سيور حذائه، وهو الذي سيعمّد الناس بالروح القدس لا بالماء (مرقس ١: ٧-٨). واليوم، بينما تنتظر دورك في المعموديّة في نهر الأردن، ترى يوحنّا يحوّل انتباهه عن مهمّة التعميد. إنّه ينظر إلى الجمع ويُركّز ناظرَيه على شخص واحد. عندما رآه يوحنّا، بدأ يُرنّم Agnus Dei: "هُوَذَا حَمَلُ ٱللهِ ٱلَّذِي يَرْفَعُ خَطِيَّةَ ٱلْعَالَمِ!» (يوحنّا ١: ٢٩). بينما كان يسوع يقترب من يوحنّا، تمّم يوحنّا دعوته بتوجيه الجموع نحو يسوع أي المسيّا.

ثمَّ تستدير وترى رجلًا لم ترهُ من قبل. اسمه يسوع. تراه يتقدّم ويطلبُ من يوحنّا أن يعمّده. يقول له يوحنّا: "أَنَا مُحْتَاجٌ أَنْ أَعْتَمِدَ مِنْكَ، وَأَنْتَ تَأْتِي إِلَيَّ؟» (متى ٣: ١٤). وما يقوله له حقًّا هو: «لا أستطيعُ أن أفعلَ ما تطلبه منّي. لقد أخبرتُ الجميعَ أنّ معموديّتي هي معموديّة التوبة عن الخطية، وقد أعلنتُ أنّك حمل الله، الحمل الذي بلا عيب، الذي يرفعُ خطية العالم. لستَ بحاجة أن أعمّدك، بل أنتَ مَن يجب أن يعمّدني».

تكميل كلّ برّ

كان يوحنّا بالتأكيد على حقّ في تردّده في تعميد يسوع. لماذا أرادَ يسوع، الذي بلا خطيّة، أن يخضَعَ لطقسٍ يرمز إلى التوبة عن الخطيّة؟ أعتقدُ أنّنا نجدُ تلميحًا عن سبب قيامه بذلك في وصف متّى لهذا الحدث. يُخبرنا متّى أنّ يسوع أجاب عن سؤال يوحنّا بأسلوبٍ غامض قائلًا له: «ٱسْمَحِ ٱلْآنَ، لِأَنَّهُ هَكَذَا يَلِيقُ بِنَا أَنْ نُكَمِّلَ كُلَّ بِرٍّ» (٣: ١٥). بدا كما لو أنّه يقول ليوحنّا: «اسمح بذلك. ليس لديّ الوقت الآن لإلقاء محاضرة لاهوتيّة. ثِقْ بي في هذا الأمر. يجب أن يتمّ هذا لتكميل كلّ برّ».

كان عمل يسوع بصفته المسيّا، في حياته وموته كذلك، عملًا نيابيًّا

أو بديلًا. كان، كما يقول بولس، آدم الجديد أو آدم الثاني (١ كورنثوس ١٥: ٤٥). فكما كان آدم الأوّل يُمثّل الجنسَ البشريّ بأكمله، وبسقوطه في الخطيّة أسقط البشريّة برمّتها في الفساد والموت، هكذا كان آدم الجديد أيضًا مُمَثِّلًا عن البشر، وبطاعته افتدى شعبه إلى الأبد.

ولكن، لكي يتأهّل يسوع كفادٍ لنا، لم يكن كافيًا له أنْ يتوجّه بكلّ بساطة إلى الصليب ليُصلَب عليه. لو سألتَ فتاةً أو ولدًا يبلغ من العمر ستّ سنين: «ماذا فعلَ يسوع من أجلِك؟» فستكون إجابتها أو إجابته إنْ كانَ قد ذهبَ إلى مدرسة الأحد: «مات يسوع على الصليب من أجل خطاياي». هذا صحيح، ولكن ما هذا إلّا جزءٍ يسير ممّا فعله يسوع. لو كان كلّ ما يتطلّبه الأمر لفدائنا أن يتحمّل بديلٌ ما العقوبة التي نستحقّها، لما توجّب على يسوع أنْ يولدَ من مريم. كان باستطاعته أن ينزلَ من السماء كإنسانٍ، وأن يتوجّه مباشرةً إلى الجلجثة، ويموت على الصليب، ويقوم، ويعود من حيث أتى، وهكذا تُحلّ مشكلة خطيئتنا.

لكن، لو كان يسوع قد دفع ثمنَ خطايانا فقط، لنجحَ فقط في إعادَتِنا إلى المربّع الأوّل. أي لن نكونَ مُذنبين فيما بعد، ولكنّنا لن نتمتّعَ إطلاقًا بأيّ برّ إيجابيّ نأتي به أمامَ الله. لذلك، لم يكن على فادينا أن يموتَ فحسب، بل كان عليه أن يعيشَ حياة الطاعة الكاملة. وهكذا يُمكن للبرّ الذي أظهرَه أن ينتقلَ إلى كلّ من يثقُ ويؤمنُ به. فكما وُضعِت أو نُقِلَتْ خطيئتي إليه على الصليب عندما آمنتُ به، هكذا ينتقلُ برُّه أيضًا ويُحوَّل إلى حسابي في نظر الله. لذلك، عندما أقفُ أمام الله يوم الدينونة، فإنّ الله سيرى يسوعَ وبرَّه كغطاء لي. هذا هو الإنجيل.

لم يُدرك يوحنّا كلّ هذه الأمور، لذلك أوضحَ له يسوع بشكل أساسيّ أنّ مهمّته كمسيّا هي أنْ يُخضِعَ نفسَه لكلّ كلمة تخرج من فم الله، ليطيعَ أبعادِ الناموس كاملةً، وليحافظ على كلّ مطالب الله من شعبه. لذلك، مع

أنّه كان بلا الخطيّة، إلّا أنّه خضع للمعموديّة ليشارك مع يوحنّا المعمدان وبقيّة البشرية الخاطِئة لتكميل كلّ برّ.

وهكذا، كما كتبَ مرقس: "**وَفِي تِلْكَ ٱلْأَيَّامِ جَاءَ يَسُوعُ مِنْ نَاصِرَةِ ٱلْجَلِيلِ وَٱعْتَمَدَ مِنْ يوحنّا فِي ٱلْأُرْدُنِّ**» (الآية ٩). نزل ابن الله في الماء، وأدّى يوحنّا الواجب بتعميده.

لحظة ثالوثيّة

كانت معموديّة يسوع حدثًا ثالوثيًا. كتب مرقس قائلًا: «**وَلِلْوَقْتِ وَهُوَ صَاعِدٌ مِنَ ٱلْمَاءِ رَأَى ٱلسَّمَاوَاتِ قَدِ ٱنْشَقَّتْ، وَٱلرُّوحَ مِثْلَ حَمَامَةٍ نَازِلًا عَلَيْهِ**» (الآية ١٠). أرسلَ اللهُ الآبُ يسوعَ إلى العالم، وفي الماء. ابن الآب، الأقنوم الثاني في الثالوث، مُتّحدًا بناسوت يسوع، خَضع للمعموديّة. ثمّ جاء الأقنوم الثالث من الثالوث، الروح القدس، ونزل على يسوع عند معموديّته.

هل هذا يعني أنّ يسوع حصل أخيرًا على ألوهيّته، وأنّه كان بشرًا عند ولادته فقط، وأصبح الله المتجسّد لأنّ الروح القدس حلّ عليه عند معموديّته في سنّ الثلاثين؟ لا، كان ليسوع طبيعةً إلهيّة منذ الأزل، وكانت موجودة في اللحظة التي حُبل به فيها، وسيتمتّع بها إلى الأبد.

إذن، ما هي أهمّيّة حلول الروح القدس عليه؟ مسح الروح طبيعة يسوع البشريّة. نميل إلى الاعتقاد بأنّ يسوع صنع عجائبه في طبيعته الإلهيّة. في الواقع، صنعها في طبيعتِه البشريّة بقوّة الروح القدس المُعطاة له عند معموديّته. هناك مكّن الله يسوع لتحقيق الإرساليّة التي أُعطيتْ إليه.

ثمّ كلّل الله الآب هذه المسحة بالثناء على ابنه علانيّة: "**أَنْتَ ٱبْنِي ٱلْحَبِيبُ ٱلَّذِي بِهِ سُرِرْتُ**» (الآية ١١ب). تشير سجلّات الإنجيل إلى ثلاث مناسبات سُمع فيها الله الآب وهو يتكلّم بصوتٍ مسموع. هذه هي المناسبة

الأولى. كما وتكلّم في التجلّي (٩: ٢–٧). يُخبرنا يوحنّا أيضًا أنّ الله الآب، في استجابته لصلاة يسوع، قال بأنّه سيُمجّد اسمه: «مجّدت وأمجّد أيضًا» (١٢: ٢٨).

من المثير للاهتمام ملاحظة أوّلِ أمرٍ قام به الروح القدس بعد حلوله على يسوع. فعوضًا عن دفعه فورًا إلى الكرازة أو البدء بشفاء الناس، **لِلْوَقْتِ، أَخْرَجَهُ ٱلرُّوحُ إِلَى ٱلْبَرِّيَّةِ** (الآية ١٢). لم يهمس الروح القدس في أذُنَي يسوع ليقول له: «أريدكَ أنْ تخرجَ إلى بريّة يهوذا». تكمن قوّة هذه الآية في أنّ الروح القدس ألزَم المسيح واقتاده بسرعة إلى مكانٍ مقفر ومهجور لا حياة فيه.

بدأت خدمة يسوع عند معموديّته، ولكن قبل أن تُصبح علانية، كان عليه أنْ يمرّ بفترةٍ من الاختبار. وُضِع آدم الثاني، تمامًا مثل آدم الأوّل، تحت الاختبار، حيث كان عُرضة لهجمات الشيطان. يكتب مَرقُس قائلًا: **وَكَانَ هُنَاكَ فِي ٱلْبَرِّيَّةِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا يُجَرَّبُ مِنَ ٱلشَّيْطَانِ. وَكَانَ مَعَ ٱلْوُحُوشِ. وَصَارَتِ ٱلْمَلَائِكَةُ تَخْدِمُهُ.** (الآية ١٣أ).

يسوع يُجرَّب ويُمتَحن

هنالك اختلافات كبيرة بين ظروف تجربة آدم وحوّاء، وتجربة يسوع. فأثناء تجربة الحيّة لآدم وحواء، كانا في وسط جنّة خصبة مُتاحًا لهما كلّ طعام يمكنهما تخيّله. أكلا وشبعا. كذلك كانا يتمتّعان برفقة وعلاقة وثيقة. امرأة ورجل يعيشان معًا بدون خطيّة تشوّه علاقتهما بأيّ شكل من الأشكال، أو الشركة التي كانا يتمتّعان بها مع الله.

لم يكن امتحان آدم الثاني في جنّةٍ، إنّما في بريّة مُقفَرة، وكان وحده بدون أيّ رفقةٍ أو شركة بشريّة. ليس ذلك فحسب، بل كان امتحانه في

خِضّم أربعين يومًا من الصيام دون أن يأكلَ شيئًا. كان يتمتّع بطبيعة بشريّة أنهكها الجوع. ولم يأتِ إليه رئيس الجحيم إلّا بعد أن اكتنفته حالة من الوحدة المُوحشة والضعف الشديد.

هنا ينتهي الاختلاف بين التجربتَيْن ويبدأ التشابه بينهما. كان الهدف من التجربتَيْن هو نفسه تمامًا. عندما جاءَ الشيطان إلى آدم وحوّاء، جاء بسؤالٍ وخدعة: «أَحَقًّا قَالَ ٱللهُ: لَا تَأْكُلَا مِنْ كُلِّ شَجَرِ ٱلْجَنَّةِ؟.... لَنْ تَمُوتَا [إن أكلتما من شجرة معرفة الخير والشرّ] بَلِ ٱللهُ عَالِمٌ أَنَّهُ يَوْمَ تَأْكُلَانِ مِنْهُ تَنْفَتِحُ أَعْيُنُكُمَا وَتَكُونَانِ كَٱللهِ عَارِفَيْنِ ٱلْخَيْرَ وَٱلشَّرَّ» (تكوين ٣: ١-٥). هذه كانت التجربة. سقطت حوّاء فيها وتبعها آدم. لذلك، فإنّ المسألة التي عُرضت على أوّل إنسانَيْن خلقهما الله: «هل ستؤمنان بكلمة الله وتطيعانها؟»

عندما أتى الشيطان إلى يسوع في وحدته وضعفه في بريّة يهوذا، لم يقل له: «أريد أن أختبرَ مقدار قوّتك. حوّل هذه الحجارة إلى خبز». بدلًا من ذلك، قال شيئًا أكثر دقّة: «إِنْ كُنْتَ ٱبْنَ ٱللهِ، فَقُلْ أَنْ تَصِيرَ هَذِهِ ٱلْحِجَارَةُ خُبْزًا». (متى ٤: ٣). كان يقول له بالحقيقة: «هذا المكان لا يليق بابن الله. لا أستطيع أن أفهمَ كيف يمكن أن يعاني ابن الله من هذا الإذلال والحرمان والجوع والوحدة. إنْ كنتَ ابن الله، فيجب أن تكونَ في قصرٍ. يا يسوع، أرِح نفسَك. إنْ كنتَ حقًّا ابن الله، فحوّل هذه الحجارة خبزًا».

بحسب الكتاب المقدّس، ما هي الكلمات الأخيرة التي رنّت في أذنيّ يسوع قبل مجيئه إلى البريّة؟ كانت كلمات مسموعة نطَق بها الله الآب: «أَنْتَ ٱبْنِي ٱلْحَبِيبُ» (الآية ١١). كان الشيطان يقول له بالفعل: «هل أنتَ **حقًّا** ابن الله؟ حسنًا، إنْ كنتَ كذلك، فحوّل هذه الحجارة خُبزًا».

أجاب يسوع وَقَالَ: «مَكْتُوبٌ: لَيْسَ بِٱلْخُبْزِ وَحْدَهُ يَحْيَا ٱلْإِنْسَانُ، بَلْ بِكُلِّ كَلِمَةٍ تَخْرُجُ مِنْ فَمِ ٱللهِ». (متى ٤: ٤). وباختصار، ما قاله له يسوع:

«يؤسفني أيّها الشيطان فأنت لا تفهمُ كلمةَ الله. أعلمُ أنّ الإنسان لا يُذنب إنْ تناول الطعام عندما يكون جائعًا، لكنّني الآن مُلتزم بهذا الصوم، ولا أستطيع أنْ أكسر صيامي إلى أنْ يقولَ لي أبي ذلك».

ثمّ استمرّت التجربة. أخذَ الشيطانُ يسوعَ إلى أعلى الهيكل وقال له: «إِنْ كُنْتَ ٱبْنَ ٱللهِ، فَٱطْرَحْ نَفْسَكَ إِلَى أَسْفَلُ» (متى ٤: ٦أ). كان يقول له هنا: «إنْ كنتَ حقًّا ابن الله، فاقفز من أعلى الهيكل، لأنّ الكتاب المقدّس يقول إنّه سيأمر ملائكته لئلّا تصدم رجلُك بحجر». قال يسوع للشيطان إنّ الكتاب المقدّس يقول ذلك فعلًا، لكنّه يقول أيضًا إنّه لا ينبغي علينا أن نجرّبَ الله. أوضح يسوع للشيطان أنّه ليس بحاجةٍ أنْ يقفزَ من أعلى الهيكل ليتأكّدَ أنّ اللهَ سيعتني به.

ومع هذا، لم يستسلمِ الشيطانُ، بل أخذَ يسوعَ إلى جبلٍ مرتفع وأراه ممالكَ العالم وقال له: «أُعْطِيكَ هَذِهِ جَمِيعَهَا إِنْ خَرَرْتَ وَسَجَدْتَ لِي» (متى ٤: ٩). بدا الأمرُ كما لو أنّ الشيطان يقول له: «يا يسوع، أنت تهدرُ حياتَك. لماذا لا نُصبحُ شركاء؟ أنا رئيسُ هذا العالم وسلطانُ الهواء. كلّ ما عليك فعله هو الانحناء لي هنا وحدنا دون أن يلاحظَنا أحد. لن يعرفَ أحدٌ عن هذا أبدًا. لا يجب عليك أن تتمرّغ في التراب، بل أنْ تحني رُكبتَيك قليلًا، وسأعطيك كلّ ممالكِ هذا العالم».

أستطيع أن أتخيّل ردّ فعل يسوع القويّ على عرض الشيطان: «يقول الله ألّا يكون لنا آلهة أخرى أمامَه، وإيّاه وحده نعبُد. فإنِ انحنيتُ لك، فسيُعتبر ذلك عبادة وثنيّة، وسأفقد مكانتي عند أبي. أيّها الشيطان، لا ينتفعُ الإنسانُ شيئًا إنْ ربحَ العالمَ كلّه وخسر نفسه. وعلى الرغم من الوحدة والجوع والمذلّة التي أنا فيها، فلا شيء منها يستحقّ أن أخسرَ نفسي من أجلها».

لا أظنّ أنّنا نُدرك جزءًا بسيطًا من الضغط الذي وُضِع على يسوع

في مثل هذه الحالة. لقد صمد أمام كلّ ما رماه الشيطان في وجهه. وفي حالة من اليأس والإحباط ترك الشيطان يسوع، لكن لنلاحظ أمرَيْن. أوّلًا، فارق يسوع «إلى حين» (لوقا ٤: ١٣). لن تكونَ هذه هي المرّة الأخيرة في حياة يسوع أو خدمته التي يرمي فيها الشيطان كلّ ما لديه ضدّ ابن الله. ثانيًا، حالًا بعد أن فارقه الشيطان جاءت إليه الملائكة. وكما يقول مرقس: **وَصَارَتِ ٱلْمَلَائِكَةُ تَخْدِمُهُ.** (الآية ١٣ب).

أدرك الأشخاص الذين كانوا يسمعون إنجيلَ مَرْقس وهو يُقرأ في سراديب الموتى أنّهم قد يجدون أنفسهم عاجلًا أم آجلًا في بريّة من المعاناة في ساحات المدرّجات الرومانيّة من أجل الإنجيل. لكنّهم أدركوا أيضًا أنّه في حال تمَّ جرّهم بالسلاسل إلى الحلَبة، فإنّ كلمات هذا الإنجيل معهم، وأنّ مُخلّصهم قد مرّ في ذلك واختبره؛ وقال إنّه لن يتركَهم أبدًا أو يتخلّى عنهم، لأنّه كان بطلَهم الذي قاومَ كلّ تجاربِ الشيطان وثبتَ على المسار الذي هو عليه.

٣

«هَلُمَّ وَرَائِي»

مرقس ١: ١٤-٢٠

وَبَعْدَمَا أُسْلِمَ يُوحَنَّا جَاءَ يَسُوعُ إِلَى ٱلْجَلِيلِ يَكْرِزُ بِبِشَارَةِ مَلَكُوتِ ٱللهِ وَيَقُولُ: قَدْ كَمَلَ ٱلزَّمَانُ وَٱقْتَرَبَ مَلَكُوتُ ٱللهِ، فَتُوبُوا وَآمِنُوا بِٱلْإِنْجِيلِ. وَفِيمَا هُوَ يَمْشِي عِنْدَ بَحْرِ ٱلْجَلِيلِ أَبْصَرَ سِمْعَانَ وَأَنْدَرَاوُسَ أَخَاهُ يُلْقِيَانِ شَبَكَةً فِي ٱلْبَحْرِ، فَإِنَّهُمَا كَانَا صَيَّادَيْنِ. فَقَالَ لَهُمَا يَسُوعُ: هَلُمَّ وَرَائِي فَأَجْعَلُكُمَا تَصِيرَانِ صَيَّادَيِ ٱلنَّاسِ. فَلِلْوَقْتِ تَرَكَا شِبَاكَهُمَا وَتَبِعَاهُ. ثُمَّ ٱجْتَازَ مِنْ هُنَاكَ قَلِيلًا فَرَأَى يَعْقُوبَ بْنَ زَبْدِي وَيُوحَنَّا أَخَاهُ، وَهُمَا فِي ٱلسَّفِينَةِ يُصْلِحَانِ ٱلشِّبَاكَ. فَدَعَاهُمَا لِلْوَقْتِ. فَتَرَكَا أَبَاهُمَا زَبْدِي فِي ٱلسَّفِينَةِ مَعَ ٱلْأَجْرَى وَذَهَبَا وَرَاءَهُ.

ذات صباح، بينما كنتُ أقرأ الجريدة، لاحظت مقالًا عن دورة دراسيّة يتمّ تقديمها في مدرسة في كانساس. كان عنوان الدورة كما ذكرتِ الجريدة: «التصميمُ الذكيّ والخلق والأساطير الدينيّة الأخرى». صنّف عنوانُ الدورةِ هذا الروايةَ الكتابيّة عن الله وخليقته في فئة الأساطير.

للأساطير مكانة في التاريخ الثقافي، ويمكنها أن تكون فعّالة جدًّا في توصيل الحقائق الأخلاقيّة أو الأفكار الروحيّة. ولكن العهد القديم يرفض بشكل قاطع الأسطورة كسياق للوحي الإلهيّ. بدلًا من ذلك، يجد الدين الكتابيّ سياقه للحقيقة الدينيّة في مكان وزمان حقيقيَّيْن. بعبارة أخرى، المسيحيّة مُرتبطة بالتاريخ، وإن لم تكن تاريخيّة في أساسيّاتها المؤكَّدة، فستكون قيمتها أقلّ من قيمة أيّ أسطورة. بينما يبدأ مَرقُس في تقديم تاريخ خدمة يسوع العامّة، من المهمّ بالنسبة إلينا أن نلاحظَ أنّ سياقَها ليس سياقًا أسطوريًّا بل تاريخيًا.

أشارَ العلماء إلى أنّ رواية الإنجيل لم تصلنا مُرتدية شكلًا من أشكال التاريخ العاديّ، إنّما وصلتنا بشكلٍ خاصّ يُطلق عليه العلماء تسمية التاريخ الفدائي. وبما أنّه تاريخ فدائي، فقد ادّعى البعض أنّه ليس تاريخيًّا حقًّا. ولكن مع أنّه تاريخ **فدائيّ**، إلّا أنّه **تاريخ** فدائيّ. إنّ الإطار الذي يكشف فيه الله عن عمله الفدائي هو في مكان وزمان حقيقيَّيْن، وضمن تاريخ حقيقيّ. هذه الحقيقة موجودة في صُلب الإعلان الذي أعلنه يسوع عندما بدأ خدمته العلنيّة.

إنجيل الملكوت

يُعرّف مَرقُس بداية خدمة يسوع في الجليل بهذه العبارة: **وَبَعْدَمَا أُسْلِمَ يُوحَنَّا، جَاءَ يَسُوعُ إِلَى ٱلْجَلِيلِ يَكْرِزُ بِبِشَارَةِ مَلَكُوتِ ٱللهِ** (الآية ١٤). هذا تصريح موجَز للغاية، ولكن هذه الكلمات تستحقّ شرحًا أكثر بكثير ممّا يمكنني تقديمه في فصل واحد. إنّها تفيض بالأهميّة اللاهوتيّة.

اسمحوا لي أنْ أبدأ بلفت انتباهكم إلى تصريح مَرقُس بأنّه عندما جاء يسوع إلى الجليل، كان يكرز بإنجيل ملكوت الله. قد تكون الترجمة المُستخدمة في الكتاب المقدّس الذي تقرؤونه مختلفة. فبدلًا من قول «يَكْرِزُ

بِبِشَارَةِ مَلَكُوتِ ٱللهِ»، قد تقول: «يَكْرِزُ بإنجيل ٱللهِ». لماذا توجد مثلُ هذه الاختلافات بين الترجمات المُختلفة للكتاب المقدّس؟

ليس لدينا الإنجيل الأصليّ الذي كتبه مَرقُس، لكن لدينا نُسخ كثيرة منه تمّ نسخها بعناية فائقة في أماكن مُختلفة عبر العصور؛ واليوم، قد يكون هنالك حوالي ألفي نسخة من إنجيل مَرقُس. لسوء الحظّ، ليست دائمًا متوافقة بشكل كامل بعضها مع بعض. ومع ذلك، هنالك مدارس مُختلفة تُعنى بالنسخ، وأولئك الذين يسعون إلى إعادة بناء النصّ الأصليّ، وهو عِلْمٌ في حدّ ذاته، يأخذون في عين الاعتبار العديد من النقاط التقنيّة لتحديد الكلمات المُحتمل أنّها كانت مُستخدمة في المخطوطة الأصليّة.

تُمثّل الآية ١٤ واحدة من تلك الحالات النادرة حيث لا يقدّم الدليل النصّيّ صياغة مُفضّلة واضحة. إنّ العبارتَيْن «إنجيل ملكوت الله» و«إنجيل الله» موجودتان في عددٍ متساوٍ تقريبًا من النسخ.

ولكن لا ينبغي أن يُقلقنا هذا الأمر، لأنّه لا يوجد فرق شاسع في معنى النصّ، بغضّ النظر عن أي من الترجمتَيْن تعتمد. كلتا العبارتين تنقلان حقيقةَ أنّ يسوعَ جاءَ يكرز بإنجيلِ الله، الذي هو إنجيلُ ملكوت الله. لا يوجد فرق لاهوتيّ في الترجمتيْن.

لنستكشف هذا الأمر أكثر. أوّلًا، فكِّرْ في الخيار بأنّ يسوع جاء يكرز بـ«إنجيلِ الله». تُعجبني هذه الترجمة، لأنّها الكلمة نفسها التي استخدمها الرسول بولس في بداية رسالته إلى أهل رومية، حيث أعلن أنّه يرى نفسَه مُفرزًا لإنجيل الله (١: ١). من المهمّ أن نُدرك أنّ بولس لا يتحدّث عن الأخبار السارّة عن الله، بل إنّ الصيغة القواعديّة التي يستخدمها هي صيغة المُلكيّة. ما قصده بولس هو أنّ الإنجيل يخصّ الله، فالله هو الكاتب. يُمكننا أن نقول إنّ الله يمتلكه. هو الذي أعطى هذه الرسالة، وليس يوحنّا المعمدان

ولا حتّى يسوع. وبهذا المعنى، لم يكن إنجيل يسوع، بل هو إنجيل الآب الذي أعلنه الابن.

رأينا أنّ مَرقُس طوّر نوعًا أدبيًّا جديدًا يُدعى الإنجيل. ونرى الآن أنّ كلمة الإنجيل تُشير أيضًا إلى مجيء ملكوت الله. تُشير كلمة الإنجيل في رسائل العهد الجديد إلى شخص يسوع وعمله، ثمّ أصبحت إنجيل يسوع المسيح.

ثانيًا، تأمّل في عبارة «إنجيل ملكوت الله». في بداية خدمة يسوع، عندما جاء يكرز بإنجيل الله، كان محتوى تلك الأخبار السارّة هو مجيء ملكوت الله. ما كرز به كان إنجيل الملكوت. إنّ فكرة ملكوت الله الآتي هي فكرة رئيسيّة واحدة تسري في العهد القديم كلّه، ويتمّ تحقيقها بشكل كامل في العهد الجديد.

ماذا نقصد عندما نقول: «ملكوت الله»؟ ألم يكن ملكوت الله موجودًا دائمًا؟ ألم يكن الله هو الربّ كلّيّ القدرة منذ الأزل؟ نعم، ولكن عندما يتحدّث العهد القديم عن ملكوت الله الآتي، فإنّه بذلك يُشير إلى زيارة الله الشخصيّة إلى هذا العالم الساقط ليُعلن الفداء. كان شعب إسرائيل في العهد القديم يتطلّعون إلى اليوم الذي سيظهر فيه حُكم الله هنا على الأرض من خلال مجيء مسيحه.

لذلك، أعلن يسوع إنجيل ملكوت الله، مُتّبعًا بذلك خُطى يوحنّا المعمدان الذي أعلن مجيء الملكوت.

درس في الزمان

يخبرنا مَرقُس أيضًا أنه بشّر قائلاً: «قَدْ كَمَلَ ٱلزَّمَانُ وَٱقْتَرَبَ مَلَكُوتُ ٱللهِ، فَتُوبُوا وَآمِنُوا بِٱلْإِنْجِيلِ». (الآية ١٥). عندما سجّل مَرقُس العبارة

التي قالها يسوع: «قَدْ كَمَلَ ٱلزَّمَانُ»، استخدمَ كلمة يونانيّة مثيرة للاهتمام: Kairos. يوجد كلمتان في اللغة اليونانيّة يتمّ ترجمتهما بكلمة «الزمان» العربيّة. الكلمة الأولى هي Chronos، والتي تشير إلى مرور الوقت لحظة بلحظة. الكلمة الأخرى هي kairos، والتي تُشير إلى لحظة زمنيّة مُعيّنة تكون مُهمّة جدًّا، وهي تُحدّد كلّ ما يأتي بعدها.

لا يوجد في اللغة الإنجليزيّة كلمتان للتفريق بين كلمة chronos وكلمة kairos. أقربُ كلمتَيْن هما: historical (تاريخيّ) وhistoric (تاريخ). كلّ ما يحدث في المكان والزمان هو تاريخيّ، ولكن ليس كلّ ما يحدث هو تاريخ. نحتفظ بكلمة «تاريخ» للأحداث ذات الأهميّة الكبيرة. ولكي نعتبر شيئًا ما أنّه تاريخ، يجب أن يكون مُهمًّا جدًّا وخطيرًا للغاية بحيث يُشكّل التاريخ.

بالطبع، كان أكثر الأحداث «kairotic» (أهمّية) في كلّ التاريخ هو ولادة يسوع. في الواقع، يتمّ تحديد التاريخ كلّه من خلال تلك اللحظة. نستخدم في اللغة الإنجليزيّة تسمية BC (قبل المسيح) وAD (anno Domine، أو «عام ربّنا») لتحديد تاريخ الأحداث قبل أو بعد ولادة المسيح. ميلادُ المسيح هو الخطّ الفاصل للتاريخ في العالم الغربيّ. كان موته على الصليب لحظة أخرى تُوصف بأنّها kairotic (هامّة). وبالمثل، كانت قيامته لحظة تُوصف بـkairotic (هامّة). في العهد القديم، كان خروج إسرائيل حدثًا يُوصف بأنّه kairotic (هامًّا).

وهكذا، عندما قال يسوع «قد كمل الزمان»، كان يقول إنّ زمنًا مُهمًّا جدًّا قد حلّ في تاريخ البشريّة. كان مجيء ملكوت الله بالتأكيد لحظة تُوصف بـkairotic.

الكلمة اليونانيّة التي تُرجمت إلى اللغة العربيّة « كَمَلَ» هي pleroma، والتي تعني «الامتلاء الفائق». بالعادة، عندما نملأ كوبًا بالماء أو فنجانًا

بالقهوة، فإنّنا لا نملأه حتّى حافّته، لأنّه لو فعلنا ذلك، فمن المحتمل أنْ يفيضَ منه الماء أو القهوة. نترك مساحةً صغيرة في الأعلى حتّى نتمكّن من تحريك الكوب أو الفنجان من دون أن تفيضَ محتوياته إلى الخارج. ولكن، عندما نملأ شيئًا ما باستخدام كلمة pleroma، فالمقصود بذلك أنّه امتلأ حتى الفيض. وهكذا، كان يسوع يُعلن أنّ زمن مجيء ملكوت الله كان قد كمل أو «مُمتلئًا بالكامل».

في الواقع، كان يسوع يقول: «إنّ Kairos وpleroma قد اجتمعا». الزمن وكلّ التاريخ حتّى تلك اللحظة قد أعدّه الربّ الإله كلّي القدرة، وخالق الكون الذي يقف فوق كلّ زمان ومكان. انتهى زمن انتظار ظهورِ ملكوتِ الله؛ إنّه على وشك الحدوث.

بالطريقة نفسها، فإنّ كلمة «ٱقْتَرَبَ» تعني «أصبح قريبًا»، لكنّ يسوع لم يكن يقول إنّ ملكوت الله كان قريبًا بمفهوم الساعة. بدلًا من ذلك، كان يقصد أنّها «في متناول اليد» جسديًّا. كان ملكوتُ الله في متناول اليد لأنّ الملك كان موجودًا هناك. يستطيع الناس أن يمدّوا أيديهم ويلمسوه. لقد جاء المسيح الذي طال انتظاره. كانت اللحظة التي تُوصف بأنّها kairotic تتكشّف في شخص يسوع.

لماذا دعا يسوعُ الناسَ للتوبة؟ كانت لحظة مجيء الملك لحظة أزمة عميقة. الكلمة الإنجليزيّة crisis هي ترجمة صوتيّة للكلمة اليونانيّة krisis، والتي تعني «الدينونة». عندما حلّ الملكوت وظهر المسيح، جلبَ معه أعمق أزمة واجهتها البشريّة على الإطلاق. كانت تلك الأزمة كالتالي: أولئك الذين سيقبلونه سينالون الحياة الأبديّة؛ أمّا الذين لن يقبلوه، فسينتقلون إلى دينونة الله. كان يسوع يقول لليهود: «أزمتك موجودة الآن». وهو يقول الأمر نفسه لكلّ من يسمع اسمه في العالم اليوم. لا أحدَ يستطيع أنْ يسمع الإنجيل ويبتعد عنه بلا مبالاة.

عندما يَقبل شخص ما الإنجيل، ستكون هذه أعظم لحظة في حياته. ولكن، إنْ رفضَ الإنجيل، فهو يجلب على نفسه أعظمَ دينونة. الإنجيل سيف ذو حدَّيْن. كان يسوع يقول بشكل أساسي: «أنتم لستم مستعدّون لمجيء الملكوت؛ لذلك توبوا وآمنوا». هذان العملان ضروريّان جدًّا لاستقبال المُخلّص. التوبة والإيمان أمران مطلوبان من كلّ من يسمع عن يسوع.

ما يُعتبر اليوم كرازة يُقلقني كثيرًا. يقول الناس: «إنْ أردتَ علاقة شخصيّة مع يسوع، فتقدّم إلى المنبر، أو ارفع يدَك، أو وقّع بطاقة، أو صلّ صلاة الخاطئ». كلّ هذه الأساليب مُجتمعةً تقود إلى نعمة رخيصة، لأنّ ما يغيب بشكل ملحوظ عن هذه المحاولات التبشيريّة هو الدعوة الجادّة للتوبة. لا يستطيع أحد أنْ يدخلَ ملكوت الله دون توبة ودون الهروب من الخطية والإيمان بالمسيح وحده. هكذا كان ربّنا نفسه يكرز. لقد أعلن الإنجيل، ثمّ قال بشكل أساسيّ: «يجب أن يكون تجاوبك بالتوبة والإيمان».

دعوة أربعة تلاميذ

ينتقل مَرقُس بسرعة إلى دعوة تلاميذ يسوع الأوائل: **وَفِيمَا هُوَ يَمْشِي عِنْدَ بَحْرِ ٱلْجَلِيلِ أَبْصَرَ سِمْعَانَ وَأَنْدَرَاوُسَ أَخَاهُ يُلْقِيَانِ شَبَكَةً فِي ٱلْبَحْرِ، فَإِنَّهُمَا كَانَا صَيَّادَيْنِ. فَقَالَ لَهُمَا يَسُوعُ: «هَلُمَّ وَرَائِي فَأَجْعَلُكُمَا تَصِيرَانِ صَيَّادَيِ ٱلنَّاسِ»** (الآيات ١٦-١٧). بحيرة طبريّة هي بحيرة داخليّة يبلغ طولها حوالي ثلاثة عشر ميلًا، وعرضها حوالي سبعة أميال. تتغذّى البحيرة من نهر الأردن في الشمال، وتُفرغ مياهها في جنوب نهر الأردن. كتب المؤرّخ اليهوديّ يوسيفوس من القرن الأوّل عن الجمال الرائع المحيط بالبحر، مُشيرًا إلى أنّ الأرض التي تسقيها البحيرة كانت خصبة للغاية. بحسب رأيه، كان البحر «فخرَ الطبيعة». تظهر هذه البحيرة بشكل بارز في العديد من الأحداث المسجّلة في الأناجيل، كما سنرى ونحن نتقدّم في

دراسة مرقس.

كانت بحيرة طبريّة واحدة من أكثر المسطّحات المائيّة في العالم القديم إنتاجًا لصناعة صيد الأسماك. وفقًا للمؤرّخ يوسيفوس، عندما غزا الرومان فلسطين في عام ٦٨، استولوا على حوالي ٢٥٠ قارب صيد من بحيرة طبريّة، وهذا دليل على عدد الصيّادين الذين كانوا يعملون في البحر في تلك الأيّام. كان في بحيرة طبريّة أنواعًا مُختلفة من الأسماك لم يتمّ العثور عليها في أيّ مكان آخر، وكان يتمّ صيدها وتصديرها إلى بلدان أخرى. نحن نظنّ أنّ التلاميذ كانوا صيّادين فُقراء يحاولون كسب لقمة عيشهم، لكن في الواقع، كانت مهنة هؤلاء الرجال مهنة مُربحة.

مارس العديد من الصيّادين في بحيرة طبريّة تجارة صيد الأسماك باستخدام الشباك. كان يبلغ قطر هذه الشباك حوالي خمسة عشر قدمًا، وكانَ يُعلّق على أطرافها أوزان تجعلها تغرق في المياه. كان الصيّاد يرمي شبكته بطريقة مُسطّحة على وجه الماء، وكانت الأوزان تجعلها تغوص في القاع فتجعل الشبكة تنغلق على ذاتها فيعلق فيها العديد من الأسماك. في معظم الحالات، كان يتمّ ربط حبل في منتصف الشبكة، ويقوم الصيّادون بسحبه فيؤدّي ذلك إلى إغلاق أطراف الشبكة فتتحاصر الأسماك داخلها. ثمّ يسحب الصيّادون بعد ذلك الشبكة إلى السطح، ويجمعون ما اصطادوه، ثمّ يبيعونه في الأسواق.

في إحدى المرّات، بينما كان يسوع يسير على الشاطئ، رأى اثنيْن من هؤلاء الصيّادين هما سمعان وأندراوس، وكانا يُلقيان بشبكة في البحر. دعاهما يسوع لاتّباعه، ووعدهما أن يُصبحا «صَيَّادَيِ ٱلنَّاسِ». على الرغم من أنّهما كانا يُمارسان أعمالهما التجاريّة، إلّا أنّهما **لِلْوَقْتِ تَرَكَا شِبَاكَهُمَا وَتَبِعَاهُ** (الآية ١٨).

يتابع مرقس قائلًا: **ثُمَّ ٱجْتَازَ مِنْ هُنَاكَ قَلِيلًا فَرَأَى يَعْقُوبَ بْنَ زَبْدِي وَيُوحَنَّا أَخَاهُ، وَهُمَا فِي ٱلسَّفِينَةِ يُصْلِحَانِ ٱلشِّبَاكَ. فَدَعَاهُمَا لِلْوَقْتِ. فَتَرَكَا أَبَاهُمَا زَبْدِي فِي ٱلسَّفِينَةِ مَعَ ٱلْأَجْرَى وَذَهَبَا وَرَاءَهُ** (الآيات ١٩–٢٠).

كان يسوع يدعو التلاميذ. نسمع عن التلاميذ الاثني عشر وعن اثني عشر رسولًا، لذلك يعتقد كثيرون من الناس أنّ التلميذ هو مجرّد كلمة أخرى للرسول، لكن هذا غير صحيح. كان ليسوع سبعون تلميذًا على الأقلّ (لوقا ١٠: ١)، وكثيرون منهم لم يكونوا ضمن مجموعة الرسل. تشير كلمة «تلميذ» إلى شخص يتدرّب تحت يد معلّم. التلميذ هو الطالب بكلّ بساطة. هو شخص مُتعلّم. عندما دعا يسوع بطرس وأندراوس ويعقوب ويوحنّا، كان يجعلهم تلاميذ في مدرسته كمعلّم يهوديّ. (في المقابل، كان الرسول شخصًا «مُرسلًا» فوّضه يسوع وقام بتمكينه للكرازة بالإنجيل، كما سنرى لاحقًا في مَرقُس).

ما فعلَه يسوع كان أمرًا غير اعتياديّ للغاية. في العالم اليهوديّ القديم، لم يكن المعلّم اليهودي هو مَن يختار تلاميذه أبدًا، بل كان التلاميذ يُقدّمون طلبًا للدراسة عند بعض المعلّمين، تمامًا كما يتقدّم الطلّاب للدراسة في الجامعات اليوم. كان عليهم اجتياز الامتحانات ليُثبتوا أنّهم مؤهّلون للدراسة تحت يد هليل أو غمالائيل أو أيّ معلّم يهوديّ آخر. أمّا يسوع، فقد كان مُختلفًا عن كلّ المعلّمين الآخرين في إسرائيل، فقد خرج بنفسه واختار تلاميذه.

إنّ عبارة «اتبعني» التي قالها يسوع مثيرة للاهتمام لأنّ معناها حرفيّ. في اليونان القديمة، أسّس أفلاطون مدرسته في المركز الثقافيّ العظيم في أثينا. كان أرسطو التلميذ الأكثر ذكاءً وشهرة عنده. في وقت لاحق، بدأ أرسطو مدرسته الخاصّة في أثينا تحت اسم ليسيوم (Lyceum)، لكن أرسطو يُعتبر «فيلسوفًا متجوّلًا». وكلمة متجوّل تعني «مُكرّس للمشي».

كان أرسطو يمشي وهو يحاضر. كان طلّابه يتبعونه وهم يسيرون خلفه، وكانوا يُصغون ويحاولون تذكّر ما قاله.

كان يسوع معلّمًا متجوّلًا. كان يذهب من مدينة إلى أخرى، وكان يُلقي المحاضرات في طريقه. سار تلاميذه وراءَه وكانوا يحفظون الأمثال والعبر القصيرة التي علّمها. بقيت تعاليم كثيرة ليسوع موجودة في التقليد الشفاهي بعد تجسّده قبل أن تُدوّن كلماته، لأنّ تلاميذه كانوا بارعين في حفظِ تعاليمه. كانت هذه المهمّة الملقاة على عاتقهم.

كان تلميذ المعلّم اليهوديّ أيضًا خادمًا له. كان يعتني بحذاء معلّمه ويُعدّ له وجبات العشاء المسائيّة. أينما كان يذهب المعلّم، كان التلميذ يذهب ويخدم سيّده. لهذا قال يسوع: «لَيْسَ عَبْدٌ أَعْظَمَ مِنْ سَيِّدِهِ» (يوحنّا ١٣: ١٦). إذن، كان يُعتبر الالتحاق بمدرسة المعلّم اليهودي مسارًا قاسيًا.

عندما اقترب يسوع من سمعان وأندراوس وقال لهما: «هَلُمَّ وَرَائِي»، كان يدعوهما للمجيء إلى مدرسته، ليكونا تلميذَيْه وخادمَيْه. لم يناقشاه، بل أنزلا شباكهما وتركا كلّ شيء ليتبعا يسوع. سارا معه مسافة قليلة والتقيا بيعقوب ويوحنّا وهما جالسان في قارب مع والدهما زبدي وخدمه. دعا يسوع يعقوب ويوحنّا أن يتبعاه. هل يمكنك أنْ تتخيّل دهشة والدهما زبدي عندما خرج ابناه من القارب بعد أن كان قد أسّس لهما تجارة صيد السمك المربحة هذه؟ من المحتمل أنّهما تركا والدهما وهو يحكّ رأسه مُتعجّبًا. لم يبقَ معه إلّا خدَمه. شاهدَهما يبتعدان مع معلّم يهوديّ شابّ غريب يرافقه صيّادان آخران.

في عام ١٩٥٥، تمّ عرض فيلم بعنوان A Man Called Peter. كانت أحداث الفيلم تدور حول قسّ في مجلس الشيوخ الأميركي اسمه بيتر مارشال والذي كان واعظًا مشهورًا في منتصف القرن العشرين. كانت عظاته

موسيقيّة لدرجة أنّ الناس أطلقوا عليه لقب «مارشال المغرّد كالعصافير». حين مات عن عُمر صغير، كان لدى أرملته، كاثرين مارشال، كتاب من عظاته نُشر تحت عنوان: Mr. Jones, Meet the Master. وقد كان هذا الكتاب من أوائل الكتب التي قرأتها بعد تجديدي عام ١٩٥٧.

أتذكّر بوضوح كيف روى مارشال في إحدى تلك المواعظ قصّة بائع سمك في بالتيمور يُدعى جو بوتس. أحبّ جو عمله، وكان يدرّ عليه أرباحًا طائلة. ومع ذلك، ذات صباح، بعد أن فتحَ محلّه، سمع صوت الجرس يرنّ فوق الباب. نظر جو ورأى رجلًا مُرتديًا بدلة زرقاء اللون يدخل الباب. نظر الرجل إلى جو وقال له: «يا جو، أغلق المحلّ وتعال معي». لاحظ جو أنّ هناك «أمرًا غريبًا» لا يمكنه تحديده بشأن هذا الرجل. لم يستطع أن يطرح عليه أيّ سؤال. ولم يقدر أن يعترض. بدلًا من ذلك، نزع مئزرته ووضعها على كرسيّ، وذهب وقلب اللافتة المعلّقة في النافذة ليغيّرها من «مفتوح» إلى «مُغلق». ثمّ خرج من الباب وتبع الرجل الذي يرتدي بدلة زرقاء.

كان هذا عبارة عن مَثَلٍ عصريّ قدّمه مارشال ليشرح ما حدثَ عند بحيرة طبريّة عندما قال يسوع لأربعة رجال: «من اليوم فصاعدًا، أنتم لي. أنتم تلاميذي وخدّامي». لقد كان على كلّ مسيحيّ تبع يسوع منذ ذلك اليوم أن يتّخذ الخيار نفسه أي أنْ يتركَ كلّ شيء ويتبع يسوع.

٤

سلطان
ليس له مثيل

مرقس ١: ٢١-٢٨

ثُمَّ دَخَلُوا كَفْرَنَاحُومَ، وَلِلْوَقْتِ دَخَلَ ٱلْمَجْمَعَ فِي ٱلسَّبْتِ وَصَارَ يُعَلِّمُ. فَبُهِتُوا مِنْ تَعْلِيمِهِ لِأَنَّهُ كَانَ يُعَلِّمُهُمْ كَمَنْ لَهُ سُلْطَانٌ وَلَيْسَ كَٱلْكَتَبَةِ. وَكَانَ فِي مَجْمَعِهِمْ رَجُلٌ بِهِ رُوحٌ نَجِسٌ، فَصَرَخَ قَائِلًا: آهِ! مَا لَنَا وَلَكَ يَا يَسُوعُ ٱلنَّاصِرِيُّ؟ أَتَيْتَ لِتُهْلِكَنَا! أَنَا أَعْرِفُكَ مَنْ أَنْتَ: قُدُّوسُ ٱللهِ. فَٱنْتَهَرَهُ يَسُوعُ قَائِلًا: ٱخْرَسْ! وَٱخْرُجْ مِنْهُ. فَصَرَعَهُ ٱلرُّوحُ ٱلنَّجِسُ وَصَاحَ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ وَخَرَجَ مِنْهُ. فَتَحَيَّرُوا كُلُّهُمْ، حَتَّى سَأَلَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا قَائِلِينَ: مَا هَذَا؟ مَا هُوَ هَذَا ٱلتَّعْلِيمُ ٱلْجَدِيدُ؟ لِأَنَّهُ بِسُلْطَانٍ يَأْمُرُ حَتَّى ٱلْأَرْوَاحَ ٱلنَّجِسَةَ فَتُطِيعُهُ. فَخَرَجَ خَبَرُهُ لِلْوَقْتِ فِي كُلِّ ٱلْكُورَةِ ٱلْمُحِيطَةِ بِٱلْجَلِيلِ.

بعد أن دعا يسوع تلاميذه الأربعة الأوائل، بدأ خدمته في الجليل في كفرناحوم. يكتب مرقس أنّهم دَخَلُوا كَفْرَنَاحُومَ، وَلِلْوَقْتِ دَخَلَ ٱلْمَجْمَعَ فِي ٱلسَّبْتِ وَصَارَ يُعَلِّمُ (الآية ٢١). كانت كفرناحوم واحدة من مدن وقرى كثيرة

واقعة على طول شاطئ بحيرة طبريّة. يُشتقّ اسم المدينة من الكلمة العبريّة Kfar Nahum، والتي تعني «قرية ناحوم»، إشارة إلى أنّ تاريخها يعود إلى أيّام أحد أنبياء العهد القديم الذي كان يُطلق عليه هذا الاسم. كانت المدينة على الجانب الشماليّ الغربيّ من البحيرة، وربّما كانت المدينة الأكثر تطوّرًا في المنطقة في ذلك الوقت. تُشير الكثير من الأدلّة إلى أنّه بعد أن انتقل يسوع من موطن طفولته في الناصرة، جعل كفرناحوم موطنًا له. وهنالك أدلّة تُثبت أنّه ربّما عاش لاحقًا في منزل بطرس المذكور في الآية ٢٩.

كان في كفرناحوم جدار بحريّ طوله ثمانية أقدام، وكان يمتدّ لنصف ميل أمام القرية، وكانت عدّة أرصفة مُمتدّة منه مسافة مائة قدم في الماء. كانت صناعة صيد الأسماك مزدهرة في كفرناحوم، فضلًا عن كونه مُجتمعًا مزدحمًا بالتجّار والحرفيّين والكتبة. كان فيها أيضًا مستعمرة رومانية حليفة لليهود في كفرناحوم.

لا شكّ أنّه كان في كفرناحوم مجمع لليهود. في العصور القديمة، كان كلّ ما هو مطلوب لإنشاء مجمع يهوديّ في قرية هو إيجاد نصاب قانوني لما لا يقلّ عن عشرة رجال يهود تزيد أعمارهم عن ثلاثة عشر عامًا. لم يكن المجمع مساويًا للهيكل في أورشليم، حيث كان الناس يذهبون للعبادة. كان المجمع مكانًا للتجمّع فيه يتمّ تعليم الأسفار المقدّسة التي لم يكن رئيس المجمع يُعلّمها؛ لأنّه كان في الأساس مُجرّد مدير للمجمع. بدلًا من ذلك، كان العديد من المعلّمين المقيمين والزائرين يقرؤون الكتاب المقدّس ويفسّرونه. ذهب يسوع إلى مَجمع كفرناحوم بصفته مُعلّمًا زائرًا.

أهمّية هذا الحدث الذي يريدنا مَرقُس أن نلاحظه مبكّرًا جدًّا في إنجيله كان له علاقة بطبيعة خدمة يسوع. كان يُميّز خدمته ثلاثة عناصر: التعليم والشفاء وطرد الشياطين. لذلك يبدأ مَرقُس بلفت الانتباه إلى تعاليم يسوع، وخاصّة إلى استجابة الناس لها.

التعليم بسلطان

يُخبرنا مرقس أنّهم **بُهِتُوا مِنْ تَعْلِيمِهِ لِأَنَّهُ كَانَ يُعَلِّمُهُمْ كَمَنْ لَهُ سُلْطَانٌ وَلَيْسَ كَٱلْكَتَبَةِ** (الآية ٢٢). تفاعل أهل كفرناحوم الذين كانوا في المجمع مع تعاليم يسوع بدهشة شديدة. حتّى كلمة بُهتوا لا تُعطي الكلمة الأصليّة حقّ معناها. الفكرة هي أنّهم لم يتفاجؤوا فحسب، بل كانوا مُرتعبين، لأنّهم لم يسمعوا أبدًا أيّ شخص يتكلّم مثل يسوع. لقد أظهر سلطانًا على مستوى جديد بالكامل.

بالطبع، كان للكتبة أيضًا سلطانهم الخاصّ بهم. كانوا أكثر مُفسّري شريعة العهد القديم معرفة. كان الكتبة مثل شخص حاصل على شهادة الدكتوراه في علم اللاهوت، وكان لآرائهم وزنٌ كبيرٌ عند الذين يسمعونها. لكن، عندما تكلّم يسوع، تكلّم بسلطان يفوق بكثير أي سلطان كان قد اختبره الناس مع الكتبة. يستطيع الكتبة أن يستشهدوا بعلماء آخرين وتقاليد المعلّمين اليهود. يستطيعون أيضًا جمع الحجج والبراهين لدعم ما كانوا يُعلّمون، تمامًا كما نحاول أن نفعل اليوم في العالم الأكاديميّ. لكن يسوع لم يفعل ذلك – فهو لم يضع أيّ هوامش أو اقتباسات، ولم يقتبس حججَ أشخاص آخرين. ربّما ألهمت تعاليمُه أن يضع أصحاب المركبات مُلصقات في تلك الأيام مكتوب عليها: «يسوع قال ذلك، فالأمر إذًا محسوم». عندما يقول الله شيئًا، ينتهي الجدل.

تُرجمت الكلمة اليونانية exousia في الإنكليزيّة إلى كلمة «authority» أي «سلطان». تتألّف الكلمة اليونانيّة من بادئة وجذر. البادئة ex تعني «خارج عن» أو «بعيدًا عن»؛ وفي اللغة الإنكليزيّة، كلمة «exit» تعني المكان الذي نخرج منه. الجذر ousia، هو المضارع من فعل كان، لذا فإنّ ترجمته الحرفيّة هي «كينونة». كان الفلاسفة اليونانيّون القدماء مُهتمّين جدًّا بهذه الكلمة؛ لأنّ كلمة ousia تمثّل الواقع المطلق الذي كان الفلاسفة

يبحثون عنه، أي الكائن النهائيّ والمتسامي والأعلى. لكن الكلمة مُهمّة أيضًا في التاريخ المسيحيّ. في القرن الرابع، مرّت الكنيسة بأزمة كبيرة فيما يتعلّق بفهمها لشخص المسيح. بلغ هذا الجدل ذروته في مجمع نيقية، الذي أعلن أنّ المسيح هو homoousios، أي من الكينونة نفسها أو من الجوهر نفسه الذي للآب. لذا، فإنّ كلمة ousia ليست مجرّد اسم مُشتقّ من فعل الكينونة، ولكنّها مُحمّلة بمعانٍ أخرى في تاريخ الفكر اليونانيّ والمسيحيّ.

يمكن أيضًا ترجمة ousia بكلمة «جوهر». تكلم يسوع بــexousia، أي بجوهر. كانت تعاليمه جوهريّة للغاية. لم يكن فيها أيّ شيء سطحيّ أو خفيف. كان كلامُه كلامَ الذي كان من نفس جوهر الآب، لذلك كان سلطان يسوع متجذّرًا ومتأصّلًا في الله نفسه. وهذا ما أرعب الناس فقالوا: «لم نسمع قطّ أيّ شخص يتكلّم هكذا من قبل».

يُذكّرنا السلطان في تعليم يسوع بسلطان أنبياء العهد القديم الذين لم يستهلّوا كلامهم بقولهم: «بحسب رأيي المدروس..». بل استهلّ الأنبياء إعلاناتهم بقولهم: «هكذا قال الربّ.». ولكن في مجمع كفرناحوم، قام الربّ بنفسه، كلمة الله المتجسّد، ليتحدّث في أمور لاهوتيّة. عندما فتح فمه المقدّس، تسمّر جميع الحاضرين في أماكنهم، مملوءين دهشة، واخترقهم شعور بالرهبة لسماع الحقيقة المُعلَنة بمثل هذا الحسم السامي. هكذا يجب أن يكون ردّ فعلنا في كلّ مرّة نسمع فيها كلمة الله. نحن لا نستمع إلى كلام الكتبة أو الوعّاظ أو اللاهوتيّين، لذلك يجب أن تمتلئ قلوبنا بالرهبة والخوف المقدّس عند إعلان الكتاب المقدّس.

مواجهة رجل به روح نجس

يتابع مرقس ويكتب: **وَكَانَ فِي مَجْمَعِهِمْ رَجُلٌ بِهِ رُوحٌ نَجِسٌ، فَصَرَخَ قَائِلًا: آهِ! مَا لَنَا وَلَكَ يَا يَسُوعُ ٱلنَّاصِرِيُّ؟ أَتَيْتَ لِتُهْلِكَنَا! أَنَا أَعْرِفُكَ**

مَنْ أَنْتَ: قُدُّوسُ ٱللهِ! (الآيات ٢٣-٢٤).

في العهد القديم عدد قليل جدًّا من الإشارات إلى العالم الشيطانيّ، وحالات الاستحواذ الشيطانيّ نادرة للغاية. وبالمثل، كان هناك القليل من الإشارات إليها في تاريخ الكنيسة اللاحق. ومع ذلك، بينما كان يسوع على الأرض، يمكننا بكلّ أمانة أن نقولَ: «انفتحت كلّ أبواب الجحيم». يبدو أن ّممثّلي الشياطين والشيطان نفسه كانوا يضطهدون الناس في كلّ مكان. أعلن يسوع بنفسه عن أهميّة عمله في طرد الأرواح الشرّيرة حين قال لسامعيه: «وَلَكِنْ إِنْ كُنْتُ أَنَا بِرُوحِ ٱللهِ أُخْرِجُ ٱلشَّيَاطِينَ، فَقَدْ أَقْبَلَ عَلَيْكُمْ مَلَكُوتُ ٱللهِ» (متّى ١٢: ٢٨).

من المثير للاهتمام، يبدو أنّ الشياطين كانت أوّل من أدركت بشكل كامل هُوّية المسيح المستترة في تجسّده. في الوقت الذي فشل كثيرون من الناس في التعرّف عليه في كماله، إلّا أنّ سُفراء الجحيم هؤلاء عرفوه حالًا.

كان في المجمع رجل فيه روح نجس، وعندما ركّز يسوع انتباهه فيه، بدأ الرجل يصرخ قائلًا: «أَتَيْتَ لِتُهْلِكَنَا؟» (الآية ٢٤). لماذا استخدم صيغة الجمع؟ هل كان ذلك لأنّ الرجل فيه شياطين كثيرة، أم أنّ شيطانًا واحدًا كان يتحدّث نيابة عن نفسه وعن الرجل الذي يسكن فيه؟ أعتقد أنّه كان يمثّل المملكة كلّها التي يسيطر عليها رئيس سلطان الهواء، رئيس هذا العالم، أي الشيطان نفسه (أفسس ٢: ٢).

نيابة عن الشيطان وأتباعه من الأرواح النجسة، صرخ هذا الرجل –هذا الشيطان– في وجه يسوع، قائلًا له بشكل أساسيّ: «ما علاقتك بنا؟ ما علاقتنا بك؟» كانت الإجابة على هذه الأسئلة: لا شيء على الإطلاق. لم يكن للشياطين أيّ شيء مشترك مع المسيح– كانوا يُمثّلون مملكتَيْن مختلفتَيْن: مملكة الشيطان ومملكة الله. كانت العلاقة الوحيدة بين الشياطين

والمسيح هي علاقة صراع، والآن هي تواجه الهزيمة والدينونة. أدركت الشياطين أنّها كانت تحت عقاب الله. كانت تعلم أنّه عندما يظهر ابن الله على الأرض، فإنّ هلاكها محتوم، لأنّ المسيح أتى ليربط الرجل القويّ، أي الشيطان، مع كلّ قواه الجهنميّة (٣: ٢٧).

ثمّ نطق الشيطان الموجود في الرجل بعبارة غريبة: «أَنَا أَعْرِفُكَ مَنْ أَنْتَ: قُدُّوسُ ٱللهِ». ما الذي يحدث هنا؟ نستشفّ دليلًا على ما كان يجري من رواية العهد القديم عن مصارعة يعقوب مع ملاك (تكوين ٣٢: ٢٤–٢٩). بعد أن تصارعا الليل كلّه، طالبه يعقوب ببركة، وهذا ما دفع الملاك أن يسأله عن اسمه. وعندما باركه الملاك، سأل يعقوب عن اسم الملاك، لكنّه لم يُجبه. كان يُعتبر الكشف عن اسم الشخص لخصمه عملًا من أعمال الخضوع. عندما سأل يعقوب الملاك عن اسمه، كان يطلب منه أن يخضع. لهذا كشف الشيطان عن اسم يسوع. كانت محاولة أخيرة للتخلّص منه. كشف الشيطان عن هوّية يسوع، ظنًّا منه أنّه لو ناداه باسمه الصحيح، يمكنه بالتالي أن يهزمه.

الإعلان عن القدّوس

بالطبع، كان الشيطان مرعوبًا أيضًا. لقد أدركَ أنّه كان في حضرة الله القدّوس، ولا شيء يُصيب قلب المخلوقات بالرعب أكثر من وجودها في محضر القدّوس. سنجد هذه الفكرة الرئيسة في كلّ إنجيل مرقس. عندما أُظهرت قداسة المسيح، كان الخوف والرعدة هما ردّ الفعل الفوريّ. نخاف القدّوس لأنّنا لسنا قدّيسين. عندما نأتي إلى محضر قداسة الله المكشوفة، كما حدث مع بطرس (لوقا ٥: ٨)، سنقول: «ابتعد عنّا، لأنّنا خطاة». لهذا صرخ الشيطان عندما جاء قدّوس الله إلى محضره.

رفض يسوع التسامح مع هذا الصراخ والاحتجاج، فانتهر الروح النجس

قائلًا لـه: «**ٱخْرَسْ! وَٱخْرُجْ مِنْـهُ!**» (الآية ٢٥). لا يُمكن أن يُعتبر ما قاله يسوع محادثة مُهذّبة اليوم. الترجمة الأكثر دقّة لما قاله للشيطان ستكون: «أغلق فمك. لا أريد أن أسمع أيّ كلمة أخرى منك. أُخرج منه». وكانت النتيجة وفقًا لمرقس، أنّه عندما **صَرَعَهُ ٱلرُّوحُ ٱلنَّجِسُ وَصَاحَ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ وَخَرَجَ مِنْـهُ** (الآية ٢٦). عندما أمر يسوع، أطاع الشيطان. يتابع مرقس ويقول: **مَا هَذَا؟ مَا هُوَ هَذَا ٱلتَّعْلِيمُ ٱلْجَدِيدُ؟ لِأَنَّـهُ بِسُلْطَانٍ يَأْمُرُ حَتَّى ٱلْأَرْوَاحَ ٱلنَّجِسَةَ فَتُطِيعُهُ** (الآية ٢٧). لم يكن يسوع يتصرّف مثل كاهن وثني، أو يهزّ مجموعة من الخرز أو يلعب ألعاب مُعجزات الشفاء. لم يفعل أيًّا من الحِيَل التي يستخدمها الدجّالون. تكلّم يسوع فحسب، فأطاع الشيطان لأنّه كان يعلم أنّ للمسيح سلطان عليه. لذلك لا نستغرب حين يُخبرنا مرقس: **فَخَرَجَ خَبَرُهُ لِلْوَقْتِ فِي كُلِّ ٱلْكُورَةِ ٱلْمُحِيطَةِ بِٱلْجَلِيلِ** (الآية ٢٨).

٥

قلب مهمّة
يسوع

مرقس ١: ٢٩-٤٥

وَلَمَّا خَرَجُوا مِنَ ٱلْمَجْمَعِ جَاءُوا لِلْوَقْتِ إِلَى بَيْتِ سِمْعَانَ وَأَنْدَرَاوُسَ مَعَ يَعْقُوبَ وَيُوحَنَّا، وَكَانَتْ حَمَاةُ سِمْعَانَ مُضْطَجِعَةً مَحْمُومَةً، فَلِلْوَقْتِ أَخْبَرُوهُ عَنْهَا. فَتَقَدَّمَ وَأَقَامَهَا مَاسِكًا بِيَدِهَا، فَتَرَكَتْهَا ٱلْحُمَّى حَالًا وَصَارَتْ تَخْدِمُهُمْ. وَلَمَّا صَارَ ٱلْمَسَاءُ، إِذْ غَرَبَتِ ٱلشَّمْسُ، قَدَّمُوا إِلَيْهِ جَمِيعَ ٱلسُّقَمَاءِ وَٱلْمَجَانِينَ. وَكَانَتِ ٱلْمَدِينَةُ كُلُّهَا مُجْتَمِعَةً عَلَى ٱلْبَابِ. فَشَفَى كَثِيرِينَ كَانُوا مَرْضَى بِأَمْرَاضٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَأَخْرَجَ شَيَاطِينَ كَثِيرَةً، وَلَمْ يَدَعِ ٱلشَّيَاطِينَ يَتَكَلَّمُونَ لِأَنَّهُمْ عَرَفُوهُ. وَفِي ٱلصُّبْحِ بَاكِرًا جِدًّا قَامَ وَخَرَجَ وَمَضَى إِلَى مَوْضِعٍ خَلَاءٍ، وَكَانَ يُصَلِّي هُنَاكَ، فَتَبِعَهُ سِمْعَانُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ. وَلَمَّا وَجَدُوهُ قَالُوا لَهُ: إِنَّ ٱلْجَمِيعَ يَطْلُبُونَكَ. فَقَالَ لَهُمْ: لِنَذْهَبْ إِلَى ٱلْقُرَى ٱلْمُجَاوِرَةِ لِأَكْرِزَ هُنَاكَ أَيْضًا، لِأَنِّي لِهَذَا خَرَجْتُ. فَكَانَ يَكْرِزُ فِي مَجَامِعِهِمْ فِي كُلِّ ٱلْجَلِيلِ وَيُخْرِجُ ٱلشَّيَاطِينَ. فَأَتَى إِلَيْهِ أَبْرَصُ يَطْلُبُ إِلَيْهِ جَاثِيًا وَقَائِلًا لَهُ: إِنْ أَرَدْتَ تَقْدِرْ أَنْ تُطَهِّرَنِي. فَتَحَنَّنَ يَسُوعُ وَمَدَّ يَدَهُ

> وَلَمَسَهُ وَقَالَ لَهُ: أُرِيدُ، فَٱطْهُرْ! فَلِلْوَقْتِ وَهُوَ يَتَكَلَّمُ ذَهَبَ عَنْهُ ٱلْبَرَصُ وَطَهَرَ. فَٱنْتَهَرَهُ وَأَرْسَلَهُ لِلْوَقْتِ، وَقَالَ لَهُ: ٱنْظُرْ، لَا تَقُلْ لِأَحَدٍ شَيْئًا، بَلِ ٱذْهَبْ أَرِ نَفْسَكَ لِلْكَاهِنِ وَقَدِّمْ عَنْ تَطْهِيرِكَ مَا أَمَرَ بِهِ مُوسَى، شَهَادَةً لَهُمْ. وَأَمَّا هُوَ فَخَرَجَ وَٱبْتَدَأَ يُنَادِي كَثِيرًا وَيُذِيعُ ٱلْخَبَرَ، حَتَّى لَمْ يَعُدْ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ مَدِينَةً ظَاهِرًا، بَلْ كَانَ خَارِجًا فِي مَوَاضِعَ خَالِيَةٍ، وَكَانُوا يَأْتُونَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ.

أظهرت الحفريّات في مَجمعِ كفرناحوم أنّه كان صرحًا جميلًا من الحجر الجيريّ، وبأنّه بُني في القرن الأوّل فوق أساسات مَجمعٍ سابق. من الواضح أنّ المجمع السابق كان هو المجمع الذي كرز فيه يسوع وطرد أرواحًا نجسة من أحد الأشخاص، كما هو موصوف في المقطع الذي درسناه في الفصل السابق.

وقد كشفت حفريّات أخرى عن بناء كان يقع بالقرب من المجمع يعود تاريخه إلى الجزء الأخير من القرن الأوّل وبداية القرن الثاني، ويظهر على جدران هذا المبنى زخرفات كتابيّة دينيّة. لقد كان منزلًا، لكنّه بُني بميّزة غير عاديّة بحيث كانت أبوابه تُفتح فيظهر أمامها مساحة كبيرة يمكن للناس التجمّع فيها. بناءً على أعمال التنقيب، يعتقد المؤرّخون وعلماء الآثار أنّ هذا المنزل كان يُستخدم ككنيسة في العصور المسيحيّة الأولى. استنتج المؤرّخون أيضًا بشكل شبه مؤكّد أنّ هذا المبنى الذي كُشف عن آثاره كان منزل بطرس.

يبدو أنّ هذا الاستنتاج ينسجم مع الأوصاف الواردة في الإصحاح الأوّل من إنجيل مَرقُس. يُخبرنا مرقس أنّه **لَمَّا خَرَجُوا مِنَ ٱلْمَجْمَعِ جَاءُوا لِلْوَقْتِ إِلَى بَيْتِ سِمْعَانَ وَأَنْدَرَاوُسَ مَعَ يَعْقُوبَ وَيُوحَنَّا** (الآية ٢٩). تُظهر هذه الآية بوضوح أنّ منزل بطرس كان قريبًا من المجمع.

كما رأينا في الفصل السابق، يُسلّط مَرقُس الضوء على جوانب عديدة من خدمة يسوع كالتعليم والشفاء وإخراج الشياطين. رأينا كيف أثار تعليمُه وسلطانُه على الأرواح الشرّيرة الدهشةَ عند أولئك الذين كانوا يراقبونه. يُركّز مرقس في المقطع الذي نتأمّل فيه في هذا الإصحاح في قوّة يسوع على الشفاء، القوّة التي جذبت نحوها حشودًا كبيرة من الناس ليساعدهم.

حين دخل يسوع المنزل، **كَانَتْ حَمَاةُ سِمْعَانَ مُضْطَجِعَةً مَحْمُومَةً، فَلِلْوَقْتِ أَخْبَرُوهُ عَنْهَا. فَتَقَدَّمَ وَأَقَامَهَا مَاسِكًا بِيَدِهَا، فَتَرَكَتْهَا ٱلْحُمَّى حَالًا وَصَارَتْ تَخْدِمُهُمْ** (الآيتان ٣٠-٣١). لم تكن رواية مَرقُس عن شفاء يسوع لحماة بطرس دراميّة جدًّا، فقد قام يسوع بأعمال شفاء كثيرة مُدهشة مُسجّلة في الكتاب المقدّس؛ كشفاء الأبرص، الأمر الذي سنتأمّل فيه لاحقًا في هذا الفصل. ويبدو واضحًا أنّ ما سجّله مَرقُس عن هذه الحادثة بالذات كان قد أخذه من معلّمه، أي من بطرس نفسه.

أجدُ أنّه من المثير للاهتمام عدم ذكره لوجود زوجة بطرس. ربّما كانت قد توفّيت في هذا الوقت، أو ربّما ببساطة لم يجد مرقس حاجةً لذكرها. على أيّ حال، إنّ وجهة نظر الكنيسة الكاثوليكيّة هي أنّ بطرس أصبح البابا الأوّل للكنيسة المسيحيّة، وأنّ البابويّة تأسّست على بطرس.

الأمر الذي يدعو للسخرية، هو أنّ بطرس، البابا الأوّل كما يعتبرونه، كان متزوّجًا. يُثير هذا الأمر بعض الأسئلة المُحرجة عند أولئك الذين يتبنّون وجهة نظر العزوبيّة المفروضة على رجال الدين. أنا سعيد أنّي أتّبع تقليد بطرس في كوني متزوّجًا مثله أيضًا.

بعد أن سرد قصّة شفاء حماة بطرس، كتب مَرقُس: **وَلَمَّا صَارَ ٱلْمَسَاءُ، إِذْ غَرَبَتِ ٱلشَّمْسُ، قَدَّمُوا إِلَيْهِ جَمِيعَ ٱلسُّقَمَاءِ وَٱلْمَجَانِينَ. وَكَانَتِ ٱلْمَدِينَةُ كُلُّهَا مُجْتَمِعَةً عَلَى ٱلْبَابِ.** (الآيات ٣٢ – ٣٣). يبدو واضحًا أنّ تصريح

مَرقُس بأنّ «ٱلْمَدِينَةُ كُلُّهَا» اجتمعت عند باب منزل بطرس هو تصريح مُبالغ فيه، وهي طريقة ليقول لنا إنّ حشدًا كبيرًا كان مُجتمعًا هناك. انتشرت أخبارُ شفاءِ حماة بطرس بسرعة، **فَشَفَى كَثِيرِينَ كَانُوا مَرْضَى بِأَمْرَاضٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَأَخْرَجَ شَيَاطِينَ كَثِيرَةً، وَلَمْ يَدَعِ ٱلشَّيَاطِينَ يَتَكَلَّمُونَ لِأَنَّهُمْ عَرَفُوهُ** (الآية ٣٤). يبدو أنّ يسوع أمضى بعض الوقت وهو يخدم هؤلاء الناس حتى ساعات متأخّرة من المساء، فكان يشفي الكثيرين، ويطردُ الشياطين في عرض عظيم لقوّته وسلطانه. لكنّه لم يسمح للشياطين أن تتكلّم، لئلّا تحاول السيطرة عليه من خلال تسميته. وسنرى مرارًا وتكرارًا أنّ يسوع لم يكن يريد أن تنتشرَ شهرتُه في هذا الوقت بلا داعٍ.

الصلاة في موضع خلاء

ثمّ يُخبرنا مرقس أنّه **فِي ٱلصُّبْحِ بَاكِرًا جِدًّا قَامَ وَخَرَجَ وَمَضَى إِلَى مَوْضِعٍ خَلَاءٍ، وَكَانَ يُصَلِّي هُنَاكَ** (الآية ٣٥). لقد جاهد ربُّنا لفترة طويلة في اليوم السابق، لكنّه على الرغم من ذلك، استيقظَ قبل شروق الشمس. فعل هذا لكي يقدر أن يُبعدَ نفسَه عن الحشدِ الضاغط، ويذهب إلى موضع خلاء ليُنعش نفسه بالصلاة. هذه واحدة من ثلاث حالات مُحدّدة ذكرها مَرقُس عندما خرج يسوع ليلًا بحثًا عن مكان يختلي فيه مع أبيه. الحالات الأخرى كانت في الليلة التي مشى فيها على الماء (٦: ٤٦)، وفي جثسيماني في الليلة التي تمّت فيها خيانته (١٤: ٣٢–٣٥).

يكتب مَرقُس أنّه عندما استيقظوا ولم يجدوا يسوع، **تَبِعَهُ سِمْعَانُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ.** (الآية ٣٦). تكمن قوّة الفعل المُستخدم هنا في أنّهم كانوا يلاحقونه ويبحثون عنه في كلّ مكان. لم يكن من السهل عليهم اكتشاف المكان الذي اختلى فيه يسوع للصلاة، **ولكن لَمَّا وَجَدُوهُ قَالُوا لَهُ: إِنَّ ٱلْجَمِيعَ يَطْلُبُونَكَ** (الآية ٣٧). كان كلامهم هذا بمثابة توبيخ غير مباشر. كانوا كما لو أنّهم

يقولون له: «أينَ كنت يا يسوع؟ ليس لديك وقت لتختلي بنفسك للصلاة. لديك خدمة تقوم بها. شهرتك تنتشر في كلّ مكان، والمكان يعجّ بالباحثين عن الحقّ».

كيف كان ردّ فعل يسوع؟ لم يقل لهم: «هذا أمر رائع. يجب أن نزرع كنيسة هنا. لدينا مجموعة رائعة من الأشخاص المتحمّسين لأنّني أشفيهم من أمراضهم». في الواقع، شعر يسوع بالحزن ممّا كان يحدث. كان يَعلَم أنّ الجموع تزحمه على الباب بحثًا عن الشفاء وليس عن الحقّ. لم يأتوا إليه لسماع إعلان بدء ملكوت الله. لم يتزاحموا عليه حتى يتمكّنوا من الاستماع إليه يكرز بالإنجيل أو يشرح كلمة الله. كانوا يأتون باحثين عن تحسين صحّتهم أو تخفيف معاناتهم. بالطبع، ليس من الخطأ أن يأتي الناس إلى يسوع من مُنطلق احتياجاتهم الجسديّة. ولكن لم يكن هذا الهدف الرئيس الذي جاء يسوع من أجله. لم يأتِ إلى هذه الأرض لشفاء أمراض الجميع أو صنع المعجزات لكلّ محتاج إليها. لقد جاء ليكرز بالحقّ الذي أرسله أبوه ليعلنه. كان يسوع يعرف أنّ الناس لم يأتوا بالإيمان لقبوله وقبول ملكوته، بل ليُخفّف من آلامهم الجسديّة.

نحن نُشبههم أحيانًا. نأتي لنصلّي إلى الله عندما نمرض، وعندما تتألّم أجسادنا، لكنّنا نُهمل المجيء إليه في أوقات الصحّة والسلام. نذهب إليه بسرعة عندما تكون لدينا احتياجات، لكنّنا لا نتبعه بشغف لسماع كلمته وفهمها.

لذلك، قال يسوع لتلاميذه: «**لِنَذْهَبْ إِلَى ٱلْقُرَى ٱلْمُجَاوِرَةِ لِأَكْرِزَ هُنَاكَ أَيْضًا، لِأَنِّي لِهَذَا خَرَجْتُ**» (الآية ٣٨). كان يقول لهم في الواقع: «هؤلاء الناس مُندهشون الآن من قوّتي، لكنّهم لا يريدون أن يسمعوا كلامي. فلنذهب إذًا إلى مدن الجليل الأخرى، حيث يمكنني استئناف خدمتي في الكرازة، لأنّ هذا هو سبب مجيئي». لن يُبعدَ يسوع شيء عن مَهمّته لأنّ

الجميع كان يتحدّث عن قوّته. يُخبرنا مرقس أنّه **كَانَ يَكْرِزُ فِي مَجَامِعِهِمْ فِي كُلِّ ٱلْجَلِيلِ وَيُخْرِجُ ٱلشَّيَاطِينَ.** (الآية ٣٩).

شفاء الأبرص

نصل الآن إلى ما أجده أحد أكثر الروايات المؤثّرة في إنجيل مَرقُس. كتب مرقس: **فَأَتَى إِلَيْهِ أَبْرَصُ يَطْلُبُ إِلَيْهِ جَاثِيًا وَقَائِلًا لَهُ: إِنْ أَرَدْتَ تَقْدِرْ أَنْ تُطَهِّرَنِي»** (الآية ٤٠). كان في العالم القديم اثنان وسبعون مرضًا جلديًّا مُتميّزًا، ولكنّها كلّها كانت تقع تحت اسم واحد واسع هو البرص. لا يشرح مرقس نوع البرص الذي كان يعاني منه هذا الرجل المسكين. ربّما كان مرض هانسن الذي هو أسوأ أنواع البرص، ولكن أيّ نوع من البرص كان مأساويًّا وكارثيًّا بالنسبة إلى الناس في تلك الأيّام.

بالنسبة إلى خلفيّة هذا المرض، يصف سفر اللاويّين ١٣ و ١٤ بالتفصيل الوضع البائس للمُصابين بالبرص، والشرائع المتعلّقة بهذا المرض. إنْ كنتَ يهوديًّا في العالم القديم، واستيقظتَ ذات صباح بمظهرٍ غريب على جلدِك، فسيثيرُ هذا الرعبَ في قلبك. أوّلًا، عليك الذهاب إلى الكاهن، الذي سيقرّر، بإرشاد من كلمة الله، ما إذا كان هذا التفشّي في جسدك مرضًا جلديًّا غير مؤذٍ، أو برصًا. إنْ كُنت مصابًا بالبرص، فهذا لا يعني فقط أنّك تعاني من مرض جسديّ مروّع من المحتمل أن يبقى معك كلّ أيّام حياتك، بل سيكون هذا أسوأ إعلان تسمعه فيما يتعلّق بعلاقتك مع أفراد عائلتك والمجتمع والجماعة التي تنتمي إليها. إنْ تمّ الاكتشاف بأنّك مُصاب بالبرص، فلن تُعتبر مريضًا فحسب، بل نجسًا أيضًا. لم يكن مُمكنًا شفاء مرض البرص في العالم القديم، لذلك كان الأبرص يُطرد من مجتمع العهد. لا يُسمح لك بالاقتراب من الهيكل، ولا يُمكنك دخول أبواب أورشليم. يتوجّب عليك أن تعيشَ بمفردك من دون زملائك وأفراد عائلتك والأصدقاء. عليك

أن ترتدي ملابس ممزّقة، وتُبقي شعرك أشعث. كان من الضروريّ تغطية الجزء السفليّ من فمك حتّى يستطيع الآخرون ملاحظتك من مسافة بعيدة كشخص مُصاب بالبرص. عليك أن تبقى على بعد خمسين خطوة من أيّ إنسان آخر. وإنْ رأيتَ أيّ شخص آخر يقترب، فعليك أن تصرخ: «نجس، نجس» لئلا تُعدي الآخرين. أن تكون أبرص يعني أن تكون منبوذًا بالكامل في بيت إسرائيل.

كان الكاهن قد فحص هذا الرجل المذكور في إنجيل مَرقس. تحوّلت قروحه إلى اللون الأبيض، فحُكم عليه بأنّه مُصاب بالبرص. لذلك تركَ عائلتَه وزوجتَه وأطفالَه ومنزلَه، وعاش مُشرّدًا مُنعزلًا عن أيّ اتّصال بالبشر. ولكنّه سمع بطريقة ما أنّ يسوع كان مارًّا بالقرب منه، فركض إليه مُخالفًا بذلك شريعة موسى. صرخ إلى يسوع بإيمان متوسّلًا الرحمة: «إِنْ أَرَدْتَ تَقْدِرْ أَنْ تُطَهِّرَنِي».

كتب مرقس: **فَتَحَنَّنَ يَسُوعُ وَمَدَّ يَدَهُ وَلَمَسَهُ وَقَالَ لَهُ: أُرِيدُ، فَٱطْهُرْ** (الآية ٤١). إنّ الربّ يسوع المسيح الذي هو بلا خطيّة، والذي كان طعامه أن يعملَ مشيئة الآب لتكميل كلّ برّ (يوحنا ٤: ٣٤؛ متى ٣: ١٥)، انتهك الناموس الطقسيّ. لم يكن ممنوعًا على الأبرص أن يلمسَ غير المُصابين بالبرص فحسب، بل لم يكن مسموحًا لغير المُصابين بالبرص أن يلمسوا أبرصَ. لكنّ يسوع لمسه، ولم يأبه للقادة الدينيّين اليهود الذين قد يُلاحقونه بسبب ما فعله. يُظهر لنا مَرقُس أنّ يسوع كان ربّ الناموس الطقسيّ، وأنّ لديه السلطان أن يضعه جانبًا لتحقيق عمليّة فدائه.

أحيانًا، تجد نفسك في ازدحام للسيّارات. ربّما وقع حادث بسيط وأتى شرطيّ لتنظيم حركة المرور. وصلت إلى تقاطع في الطريق وكانت إشارة المرور حمراء، لكنّ الشرطيّ لوّح لك بيده لكي تتابع طريقك. وجود الشرطيّ يحلّ مكان القانون المكتوب. لذلك، يجب أن تُطيع شرطيّ السير الذي

يُجسّد القانون بدلًا من الضوء الأحمر. يسوع هو تجسيد للناموس ومنفّذ له. فكما أنّ الله أوجدَ العالم بكلمته، بأمر إلهيّ، كذلك مارس المسيح هذا الأمر الإلهي مع هذا الأبرص.

يُمكن ترجمة ملاحظة مرقس بأنّ يسوع «تحنّن» بكلمة «غضب». لم يغضب يسوع لأنّ الرجلَ خالف الناموس الطقسيّ في مجيئه إليه؛ بل امتلأ بالغضب المقدّس ضدّ الخراب الذي أحدثه العالم الساقط كالمرض. كان يكره المرض، ولكنّه أحبّ واعتنى بالمُصابين بالمرض.

يُخبرنا مرقس أنّه **لِلْوَقْتِ وَهُوَ يَتَكَلَّمُ ذَهَبَ عَنْهُ ٱلْبَرَصُ وَطَهَرَ**. (الآية ٤٢). لا تستهينوا بقوّة كلمة يسوع. بكلمة قوّته، شفى مرضًا لم يكن له علاج معروف، وهو أحد أكثر الأمراض المُخيفة في العالم القديم.

ثمّ **ٱنْتَهَرَهُ وَأَرْسَلَهُ لِلْوَقْتِ** (الآية ٤٣). كان يتألّف هذا التحذير من عدّة إرشادات: **ٱنْظُرْ، لَا تَقُلْ لِأَحَدٍ شَيْئًا، بَلِ ٱذْهَبْ أَرِ نَفْسَكَ لِلْكَاهِنِ وَقَدِّمْ عَنْ تَطْهِيرِكَ مَا أَمَرَ بِهِ مُوسَى، شَهَادَةً لَهُمْ** (الآية ٤٤). لم يكن يسوع يرمي بشريعة موسى عرض الحائط. كان يطلب بشكل أساسيّ من الرجل أنْ يُطيعَ الناموس بما ينطبق على مرضه.

لماذا طلبَ يسوع من الرجل أن يُبقي أمرَ شفائِه سرًّا ؟ لقد قيل الكثير عمّا يُسمّى بسرّ المسيح المسياني. كثيرًا ما قال لمن خدمهم: «لا تُخبروا أحدًا». يمكننا فقط أن نخمّن سبب ذلك، لكنّني أعتقد أنّ سياق إنجيل مَرقُس يُعطينا فكرة جيّدة عن ذلك. في كلّ مكان ذهب إليه يسوع، كان الناس يسيئون فهم مهمّته بشكل كامل وما كان على المسيّا فعله. كانوا ينتظرون بطلًا ليُنقذهم من روما، وليس عبد الله المتألّم الذي سينقذهم من خطاياهم. لذلك، كان يسوع يكره الإعلان عن هُويّته الحقيقيّة، لا سيما في وقت مبكّر من خدمته. ليس هذا فقط، لكن لو خرج هذا الأبرص وأخبر كلّ شخص

في البلدة أنّ يسوع الناصريّ طهّره للتوّ من برصه، فسوف يندفع كلّ أبرص يسمع هذا الخبر إلى يسوع، ولن يكون لديه الوقت للقيام بالمهمّة التي دُعي لكي يقوم بها.

ولكن يخبرنا مرقس أنّ الأبرص الذي شُفي **فَخَرَجَ وَٱبْتَدَأَ يُنَادِي كَثِيرًا وَيُذِيعُ ٱلْخَبَرَ** (الآية ٤٥أ). هنا نرى كارزًا عاصيًا. طلب منه يسوع ألّا يفعل ذلك، لكنّه ذهب وفعل ذلك، لدرجة أنّ يسوع **لَمْ يَعُدْ يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ مَدِينَةً ظَاهِرًا، بَلْ كَانَ خَارِجًا فِي مَوَاضِعَ خَالِيَةٍ، وَكَانُوا يَأْتُونَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ** (الآية ٤٥ب).

ولكن بعد أن عُلّق يسوع على الصليب ومات وقام ورُفع إلى يمين الآب، لم يعد السرّ المسياني ساري المفعول. فالكنيسة مُكلّفة بإخبار الجميع عن يسوع. صلاتي أن يأتي إليه الناس اليوم من كلّ حدب وصوب، ليس فقط للشفاء من آلامهم، ولكن أيضًا لسماع رسالته، الرسالة التي تقول إنّ الله أتى إلى العالم وأنّه وُلد لنا مُخلّص هو المسيح ربّنا.

٦

قوّة لشفاء الجسد والروح

مرقس ٢: ١-١٢

ثُمَّ دَخَلَ كَفْرَنَاحُومَ أَيْضًا بَعْدَ أَيَّامٍ، فَسُمِعَ أَنَّهُ فِي بَيْتٍ. وَلِلْوَقْتِ ٱجْتَمَعَ كَثِيرُونَ حَتَّى لَمْ يَعُدْ يَسَعُ وَلَا مَا حَوْلَ ٱلْبَابِ. فَكَانَ يُخَاطِبُهُمْ بِٱلْكَلِمَةِ. وَجَاءُوا إِلَيْهِ مُقَدِّمِينَ مَفْلُوجًا يَحْمِلُهُ أَرْبَعَةٌ. وَإِذْ لَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يَقْتَرِبُوا إِلَيْهِ مِنْ أَجْلِ ٱلْجَمْعِ، كَشَفُوا ٱلسَّقْفَ حَيْثُ كَانَ. وَبَعْدَ مَا نَقَبُوهُ دَلَّوْا ٱلسَّرِيرَ ٱلَّذِي كَانَ ٱلْمَفْلُوجُ مُضْطَجِعًا عَلَيْهِ. فَلَمَّا رَأَى يَسُوعُ إِيمَانَهُمْ، قَالَ لِلْمَفْلُوجِ: يَا بُنَيَّ، مَغْفُورَةٌ لَكَ خَطَايَاكَ. وَكَانَ قَوْمٌ مِنَ ٱلْكَتَبَةِ هُنَاكَ جَالِسِينَ يُفَكِّرُونَ فِي قُلُوبِهِمْ: لِمَاذَا يَتَكَلَّمُ هَذَا هَكَذَا بِتَجَادِيفَ؟ مَنْ يَقْدِرُ أَنْ يَغْفِرَ خَطَايَا إِلَّا ٱللهُ وَحْدَهُ؟ فَلِلْوَقْتِ شَعَرَ يَسُوعُ بِرُوحِهِ أَنَّهُمْ يُفَكِّرُونَ هَكَذَا فِي أَنْفُسِهِمْ، فَقَالَ لَهُمْ: لِمَاذَا تُفَكِّرُونَ بِهَذَا فِي قُلُوبِكُمْ؟ أَيُّمَا أَيْسَرُ، أَنْ يُقَالَ لِلْمَفْلُوجِ: مَغْفُورَةٌ لَكَ خَطَايَاكَ، أَمْ أَنْ يُقَالَ: قُمْ وَٱحْمِلْ سَرِيرَكَ وَٱمْشِ؟ وَلَكِنْ لِكَيْ تَعْلَمُوا أَنَّ لِٱبْنِ ٱلْإِنْسَانِ سُلْطَانًا عَلَى ٱلْأَرْضِ أَنْ يَغْفِرَ ٱلْخَطَايَا. قَالَ لِلْمَفْلُوجِ: لَكَ أَقُولُ: قُمْ وَٱحْمِلْ سَرِيرَكَ وَٱذْهَبْ إِلَى

بَيْتِكَ! فَقَامَ لِلْوَقْتِ وَحَمَلَ ٱلسَّرِيرَ وَخَرَجَ قُدَّامَ ٱلْكُلِّ، حَتَّى بُهِتَ ٱلْجَمِيعُ وَمَجَّدُوا ٱللهَ قَائِلِينَ: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ هَذَا قَطُّ.

ربّما أتاك في وقت ما من حياتك زوّارًا من غير أن تتوقّعَ ذلك. كان شعورك حيال هذه التجربة يعتمد على مدى استعدادك لاستقبال الزوّار، وبالطبع يعتمد على الزوّار أنفسهم. واجه يسوع الذي كانت حشود من الناس تزحمه لتستطيع رؤيته أيضًا زائرًا غير متوقّع– ومع ذلك كان أكثر من مستعدّ لاستقباله.

بعد قيامه بجولة كرازيّة في العديد من المجامع اليهوديّة في كلّ الجليل (١: ٣٩)، عاد يسوع إلى كفرناحوم حيث كان مُقيمًا حتّى احتشدت عليه الجموع هناك. ضغطوا عليه بشدّة لدرجة أنّه أصبح من المستحيل عليه أن يتابع في المهمّة التي أرسله الآب إليها– الكرازة بملكوت الله الآتي. لذلك، انسحب يسوع من كفرناحوم، ونقل خدمته إلى قرى أخرى.

يخبرنا مرقس أنّه **دَخَلَ كَفْرَنَاحُومَ أَيْضًا بَعْدَ أَيَّامٍ، فَسُمِعَ أَنَّهُ فِي بَيْتٍ** (الآية ١). طريقة أخرى لترجمة هذه الآية هي «كان في دياره»، ممّا يُضيف مِصداقيّة إلى فكرة أنّ يسوع جعل من كفرناحوم مقرًّا له، بعد أن انتقلت عائلته بعيدًا عن الناصرة. من الممكن أيضًا أن يكون المنزل المذكور هنا هو لبطرس، وأنّ بطرس كان يشارك منزله مع يسوع.

على أيّ حال، ما إنْ دخل يسوع البيت حتّى اجتمع مرّة أخرى حشد كبير حوله لسماع تعليمه ومشاهدته وهو يقوم بأعماله الخارقة. يُخبرنا مرقس: **وَلِلْوَقْتِ، ٱجْتَمَعَ كَثِيرُونَ حَتَّى لَمْ يَعُدْ يَسَعُ وَلَا مَا حَوْلَ ٱلْبَابِ، فَكَانَ يُخَاطِبُهُمْ بِٱلْكَلِمَةِ** (الآية ٢).

رفاق على السطح

يُخبرنا مَرقُس أنّه بينما كان يسوع يعلِّم، جاء إليه أربعة رجال يحملون نقّالة أو لوحًا خشبيًّا، **مُقَدِّمِينَ مَفْلُوجًا** (الآية ٣). يبدو واضحًا أنّهم كانوا يسعون إلى أن يُشفى هذا الرجل المريض. **وَإِذْ لَمْ يَقْدِرُوا أَنْ يَقْتَرِبُوا إِلَيْهِ مِنْ أَجْلِ ٱلْجَمْعِ، كَشَفُوا ٱلسَّقْفَ حَيْثُ كَانَ** (الآية ٤أ). كان مدخلُ البيت مسدودًا بسبب حشود الناس، لذلك، وبهدف نَقْلِ هذا الرجل المعذَّب إلى يسوع، حملوه على الدرج صعودًا إلى السطح، وبدأوا يُكسّرون السقف لإحداث ثُقب فيه لإدخال الرجل منه وإنزاله أمام يسوع لكي يقدر أن يلمسَه.

كانت المنازل في العادة في فلسطين في عهد المسيح مبنيّة بطابق واحد بسقف مُسطّح. كانت أسقف المنازل مبنيّة من عوارض خشبيّة مثبّتة على جدران المنزل. كانوا يضعون بين هذه العوارض قضبانًا وأنواعًا مُختلفة من الأغصان بشكل متشابك، ثمّ ينسجونها بنوع من القشّ. ثمّ كانوا يضعون فوق القشّ سماكة معيّنة من الطين. كان هذا الطين يُرصّ بقوّة على القشّ، لأنّ البنّائين في العالم القديم كانوا يستخدمون بكرات حجريّة لتنعيم هذا الطين وضغطه حتى يصبحَ صَلبًا ومستقرًّا. كان يوضع سلّمًا خارج المنزل يؤدّي إلى السطح، وكان يصعد إليه الناس لاستنشاق الهواء النقيّ. غالبًا ما كانوا يأكلون وجباتهم على السطح ويستقبلون أصدقاءَهم هناك. إذن، كان السقف يُستخدم كأرضيّة، كما هو الحال في منازلنا اليوم.

يُخبرنا لوقا أنّ أصدقاء المفلوج الأربعة اضطروا إلى إزالة الآجر من السقف (٥: ١٩). يقول بعض العلماء النقّاد إنّ لوقا أخطأ هنا لأنّ أسقف المنازل في فلسطين لم تكن مبنيّة من آجر مثل تلك التي نجدها في جميع أنحاء أوروبا حتّى في يومنا هذا. لكن الكلمة اليونانيّة التي تُرجمت بكلمة «آجر» في لوقا يمكن أن تشير بكلّ بساطة إلى أي نوعٍ من الطين الصلب المطبوخ أو الخزف. ونعرف أيضًا أنّ كفرناحوم كانت قرية راقية على طول

شواطئ بحيرة طبريّة، وكانوا يستخدمون فعليًّا الآجر في مثل هذه الأماكن. لذلك، كان سقف هذا المنزل مصنوعًا إمّا من آجر أو من الطين الصلب المُجفّف تحت أشعّة الشمس الذي كان يُشبه السيراميك، والذي لا بدّ أنّه جعل من مهمّة مَن كانوا على السطح أكثر صعوبة.

لكنّهم نجحوا في النهاية. كما كتب مَرقُس: **وَبَعْدَ مَا نَقَبُوهُ، دَلَّوْا ٱلسَّرِيرَ ٱلَّذِي كَانَ ٱلْمَفْلُوجُ مُضْطَجِعًا عَلَيْهِ** (الآية ٤ب). يُدهشني تصميم هؤلاء الرجال على مساعدة صديقهم. لم يسمحوا للجموع أن تُعيقهم، ثمّ خرّبوا، مؤقّتًا على الأقل، سقف منزل أحد الأشخاص وقاطعوا يسوع وهو يعلّم.

الله وحده يقدر أن يغفر الخطايا

يُخبرنا مَرقُس: **فَلَمَّا رَأَى يَسُوعُ إِيمَانَهُمْ، قَالَ لِلْمَفْلُوجِ: يَا بُنَيَّ، مَغْفُورَةٌ لَكَ خَطَايَاكَ** (الآية ٥). لا يوجد في النصّ ما يُوحي بأنّ الرجل المفلوج كان يسعى أن تُغفر خطاياه، بل كان يسعى للشفاء. لكن يسوع لم يقل له: «يا سيّد، مغفورة لك خطاياك». بل خاطبه كما يُخاطب شخص بالغ ولدًا صغيرًا، أو كما يُخاطب الرئيس مرؤوسًا. دعا الرجل بـ«الابن»، وقال له إنّ خطاياه قد غُفرت. نظر يسوع إلى ما وراء الشلل الرهيب الذي أصاب جسد الرجل، ورأى حاجته الأعمق – الراحة من الشعور بالذنب.

كان كلامه راديكاليًّا لدرجة أنّه أثار ردّ فعل من الكتبة، أولئك اللاهوتيّين في ذلك الوقت الذين كانوا جزءًا من هذا الحشد المنتبهين إلى كلّ كلمة يقولها يسوع. كانوا يحاولون بالفعل أن يوقعوا يسوع في فخّ إذا استطاعوا لذلك سبيلًا. يُخبرنا مَرقُس: **وَكَانَ قَوْمٌ مِنَ ٱلْكَتَبَةِ هُنَاكَ جَالِسِينَ يُفَكِّرُونَ فِي قُلُوبِهِمْ: لِمَاذَا يَتَكَلَّمُ هَذَا هَكَذَا بِتَجَادِيفَ؟ مَنْ يَقْدِرُ أَنْ يَغْفِرَ خَطَايَا إِلَّا ٱللهُ وَحْدَهُ؟** (الآيتان ٦–٧). لماذا ذهبَ فكرهم إلى التجديف عندما أعلن يسوع عن غفران خطايا الرجل؟ كان السبب في ذلك أنّ كلّ الكتبة كانوا

يعرفون المبدأ الموجود في كتاب العهد القديم العبريّ القائل بأنّه لا يوجد إنسان، ولا حتّى المسيح، لديه سلطان لمغفرة خطايا الناس. كانوا يتمسّكون بإصرار بالموقف القائل إنّ الله وحده يمتلك سلطان مغفرة الخطايا. بدا لهم أنّ يسوع يتصرّف كما لو كان يتمتّع بسلطان الله نفسه.

تقول بعض الجماعات اليوم، مثل جماعة شهود يهوه، إنّ العهد الجديد لا يُعلّم حقًّا عن ألوهيّة المسيح. إنّهم يتجاهلون بطريقة ما تعاليم العهد الجديد الواضحة في الرسائل وفي روايات مثل هذه، حيث نرى تضمينًا واضحًا على ادّعاء يسوع بالألوهيّة. ما يفشل شهود يهوه والجماعات المشابهة لها في تفكيرها في رؤيته قد رآه اليهود في أيّام يسوع. لقد أدركوا أنّ يسوع كان يدّعي الألوهيّة، وقد كان هذا سبب دهشتهم.

عَلِمَ يسوع بأفكارهم. كتب مَرقُس: **فَلِلْوَقْتِ شَعَرَ يَسُوعُ بِرُوحِهِ أَنَّهُمْ يُفَكِّرُونَ هَكَذَا فِي أَنْفُسِهِمْ، فَقَالَ لَهُمْ: لِمَاذَا تُفَكِّرُونَ بِهَذَا فِي قُلُوبِكُمْ؟ أَيُّمَا أَيْسَرُ، أَنْ يُقَالَ لِلْمَفْلُوجِ: مَغْفُورَةٌ لَكَ خَطَايَاكَ، أَمْ أَنْ يُقَالَ: قُمْ وَٱحْمِلْ سَرِيرَكَ وَٱمْشِ؟** (الآيتان ٨-٩).

هذا مقطع صعب. من وجهة نظرنا، يبدو أنّ أسهل الخيارَيْن هو أن يُقال: «مغفورة لك خطاياك»، لأنّه لا يقدر أحد أن يؤكّد ما إذا كانت خطاياك قد غُفِرت أم لا. لم تكن هناك طريقة للتحقّق من كلام يسوع أو دحضه. ولكنّه لو قال: «قم واحمل سريرك واذهب إلى منزلك»، فسيُسلّط الضوء على نفسه، وسيتأكّد الناس ما إنْ كان لديه القدرة على شفاء الرجل أم لا. ومع ذلك، لا أظنّ أنّ يسوع نفسَه كان يعتقد أنّه من الأسهل أن يُقال: «مغفورة لك خطاياك». في تلك الحضارة، كان من الأسهل على يسوع أن يقولَ أمام أعدائه: «قم وامش». كان يسوع يعرف أنّه لو قال: «مغفورة لك خطاياك»، فإنّه بذلك يضع نفسه بتحدّ أمامهم لأنّه كان يدّعي ألوهيّته. إذن، لم يكن يسوع يختار لنفسه الطريق الأسهل.

اشتدّ الصراع، فشرح يسوع ما كان على وشك القيام به ولماذا سيفعله: **وَلَكِنْ لِكَيْ تَعْلَمُوا أَنَّ لِٱبْنِ ٱلْإِنْسَانِ سُلْطَانًا عَلَى ٱلْأَرْضِ أَنْ يَغْفِرَ ٱلْخَطَايَا. قَالَ لِلْمَفْلُوجِ: لَكَ أَقُولُ: قُمْ وَٱحْمِلْ سَرِيرَكَ وَٱذْهَبْ إِلَى بَيْتِكَ!** (الآيتان ١٠-١١). أراد يسوع أن يؤكّد أنّ ابن الإنسان له سلطان أن يغفر الخطايا. وما حدث للرجل أوضَح هذا السلطان، كما كتب مَرقُس: **فَقَامَ لِلْوَقْتِ، وَحَمَلَ ٱلسَّرِيرَ، وَخَرَجَ قُدَّامَ ٱلْكُلِّ، حَتَّى بُهِتَ ٱلْجَمِيعُ وَمَجَّدُوا ٱللهَ قَائِلِينَ: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ هَذَا قَطُّ!** (الآية ١٢).

غفران الخطايا

كثيرًا ما يستخدم العهد الجديد لقبَيْن ليسوع: ابن الله وابن الإنسان. لقد سبق واستخدم مَرقُس بالفعل لقب ابن الله (١: ١)؛ في مُعجزة الشفاء هذه، عُرِّف يسوع بلقب ابن الإنسان. إنّ اللقب الأكثر استخدامًا ليسوع في العهد الجديد هو المسيح، واللقب الثاني هو الربّ، واللقب الثالث هو ابن الانسان؛ وهو اللقب المفضّل أكثر من غيره بكثير عند يسوع. ورد لقب ابن الإنسان أكثر من ثمانين مرّة في العهد الجديد، وفي كلّ مرّة، باستثناء اثنتيْن منهما، استخدم يسوع هذا اللقب للإشارة إلى نفسه.

من هو ابن الانسان؟ يصف سفر دانيال مظهرَ وشخصيّة ابن الإنسان. إنّه كائن سماويّ عيّنه قديمُ الأيام (٧: ٩) ليكون ربّ الأرض ولكي ينال الملكوت إلى الأبد (الآيات ١٣-١٤). بعد أن نزل ابن الإنسان من السماء، عاد إلى هناك وتُوِّج في المجد. لذلك، عندما قال يسوع إنّه ابن الإنسان، لم يكن بذلك يُظهر تواضعًا، بل كان كما لو أنّه يقول: «نزلت من السماء. أنا سماويّ، ولست من هذه الأرض». كان هذا اللقب يحمل أهمّية لاهوتيّة فيما يتعلّق بألوهيّة يسوع ووظيفته. لهذا السبب استخدمه يسوع هنا؛ أراد بذلك أن يُظهر سلطانه الإلهيّ على مغفرة الخطايا.

تُعلّم الكنيسة الكاثوليكيّة أنّ أحد أسرار الكنيسة هو سرّ التوبة. الاعتراف والحلّ الكهنوتي هما جزءان من سرّ التوبة. يذهب الرجل التائب إلى كرسيّ الاعتراف ويقول: «أبي، لقد أخطأت». يذكر بعد ذلك خطاياه، ثمّ يقول له الكاهن: «**Te absolvo**» أو «أنا أحلّك».

ينزعجُ بعض البروتستانت عندما يسمعون عن هذه الممارسة ويقولون: «بأيّ حقّ يستطيع الكاهن العاديّ أن يقول: أنا أحلّك؟» كانت الكنيسة حريصة جدًّا لقرون طويلة على الإشارة إلى أنّه ليس لأيّ كاهن سلطان من ذاته لمغفرة الخطايا. الله وحده قادر أن يغفرَ الذنوب. وحين يقول الكاهن «**Te absolvo**»، فإنّه يقول ببساطة: «من خلال توبتك، أعلن حلّك باسم يسوع المسيح، الذي له السلطان أن يغفرَ خطاياك». على الرغم من أنّ المُصلحين كرهوا العديد من جوانب فهم الكاثوليك للتوبة، إلّا أنّ مارتن لوثر احتفظ بكرسيّ الاعتراف لأنّه شعر أنّ الناس بحاجة إلى كلمة تؤكّد لهم بأنّ خطاياهم قد غُفرت.

قبل خمسة وعشرين عامًا، طلب منّي طبيب نفسيّ مشهور جدًّا في جنوب فلوريدا أن أنضمّ إلى فريق عمله. عرض عليّ في ذلك الوقت راتبًا كبيرًا للانضمام إلى فريقه. قلتُ له: ليس لديّ شهادة في الطبّ النفسيّ. لماذا تريدني أن أعملَ معك؟» فقال لي: «يا آر. سي.، ٩٥ بالمائة من زبائني لا يحتاجون إلى طبيب نفسيّ. إنّهم بحاجة إلى كاهن، لأنّ حياتهم مُدمّرة بسبب شعورهم بالذنب».

هل تمنّيت يومًا لو يضع يسوع يده على رأسك ويقول: «مغفورة لك خطاياك»؟ إنّه يقول لنا ذلك في كلمته، وهذا يكفينا. بقوّة دمه، ومن خلال عمل صليبه، تُغفر لنا خطايانا.

٧

الاختلاط بالـ «خطاة»

مرقس ٢: ١٣-٢٢

ثُمَّ خَرَجَ أَيْضًا إِلَى ٱلْبَحْرِ. وَأَتَى إِلَيْهِ كُلُّ ٱلْجَمْعِ فَعَلَّمَهُمْ. وَفِيمَا هُوَ مُجْتَازٌ رَأَى لَاوِيَ بْنَ حَلْفَى جَالِسًا عِنْدَ مَكَانِ ٱلْجِبَايَةِ، فَقَالَ لَهُ: ٱتْبَعْنِي. فَقَامَ وَتَبِعَهُ. وَفِيمَا هُوَ مُتَّكِئٌ فِي بَيْتِهِ كَانَ كَثِيرُونَ مِنَ ٱلْعَشَّارِينَ وَٱلْخُطَاةِ يَتَّكِئُونَ مَعَ يَسُوعَ وَتَلَامِيذِهِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا كَثِيرِينَ وَتَبِعُوهُ. وَأَمَّا ٱلْكَتَبَةُ وَٱلْفَرِّيسِيُّونَ فَلَمَّا رَأَوْهُ يَأْكُلُ مَعَ ٱلْعَشَّارِينَ وَٱلْخُطَاةِ، قَالُوا لِتَلَامِيذِهِ: مَا بَالُهُ يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ مَعَ ٱلْعَشَّارِينَ وَٱلْخُطَاةِ؟ فَلَمَّا سَمِعَ يَسُوعُ قَالَ لَهُمْ: لَا يَحْتَاجُ ٱلْأَصِحَّاءُ إِلَى طَبِيبٍ بَلِ ٱلْمَرْضَى. لَمْ آتِ لِأَدْعُوَ أَبْرَارًا بَلْ خُطَاةً إِلَى ٱلتَّوْبَةِ. وَكَانَ تَلَامِيذُ يُوحَنَّا وَٱلْفَرِّيسِيِّينَ يَصُومُونَ، فَجَاءُوا وَقَالُوا لَهُ: لِمَاذَا يَصُومُ تَلَامِيذُ يُوحَنَّا وَٱلْفَرِّيسِيِّينَ، وَأَمَّا تَلَامِيذُكَ فَلَا يَصُومُونَ؟ فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: هَلْ يَسْتَطِيعُ بَنُو ٱلْعُرْسِ أَنْ يَصُومُوا وَٱلْعَرِيسُ مَعَهُمْ؟ مَا دَامَ ٱلْعَرِيسُ مَعَهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَصُومُوا. وَلَكِنْ سَتَأْتِي أَيَّامٌ حِينَ يُرْفَعُ ٱلْعَرِيسُ عَنْهُمْ، فَحِينَئِذٍ يَصُومُونَ فِي تِلْكَ ٱلْأَيَّامِ. لَيْسَ أَحَدٌ يَخِيطُ رُقْعَةً مِنْ قِطْعَةٍ جَدِيدَةٍ عَلَى ثَوْبٍ عَتِيقٍ، وَإِلَّا فَٱلْمِلْءُ ٱلْجَدِيدُ يَأْخُذُ مِنَ ٱلْعَتِيقِ

فَيَصِيرُ ٱلْخَرْقُ أَرْدَأَ. وَلَيْسَ أَحَدٌ يَجْعَلُ خَمْرًا جَدِيدَةً فِي زِقَاقٍ عَتِيقَةٍ، لِئَلَّا تَشُقَّ ٱلْخَمْرُ ٱلْجَدِيدَةُ ٱلزِّقَاقَ، فَٱلْخَمْرُ تَنْصَبُّ وَٱلزِّقَاقُ تَتْلَفُ. بَلْ يَجْعَلُونَ خَمْرًا جَدِيدَةً فِي زِقَاقٍ جَدِيدَةٍ.

عندما بدأ يسوع يقضي الوقتَ مع جُباة الضرائب المُحتقَرين وآخرين مثلهم، جعل من نفسه شخصًا غير محبوب لدى الكتبة والفرّيسيّين. كان سلوكُه مُنسجمًا مع دعوته، لكنّهم لم يُدركوا ذلك. أخيرًا، أثار استعداد يسوع للاختلاط والتفاعل مع هؤلاء الأشخاص مواجهة أخرى بين ربّنا والقادة الدينيّين في عصره.

استمرّ يسوع يَخدم في كفرناحوم، **ثُمَّ خَرَجَ أَيْضًا إِلَى ٱلْبَحْرِ. وَأَتَى إِلَيْهِ كُلُّ ٱلْجَمْعِ فَعَلَّمَهُمْ** (الآية ١٣). كان يسوع قد غادر كفرناحوم لبعض الوقت، لأنّ الناس كانوا مُهتمّين بالاستفادة من قوّته في الشفاء أكثر من الاستماع إلى تعاليمه وكرازته عن ملكوت الله، الأمر الذي كان محور رسالته (١: ٣٩). يبدو أنّ الناس في هذه المرحلة كانوا أكثر استعدادًا للاستماع، فاستطاع يسوع أن يعلّم حشدًا كبيرًا من الناس.

دعوة جديدة لجابي الضرائب

كتبَ مرقس: **وَفِيمَا هُوَ مُجْتَازٌ رَأَى لَاوِيَ بْنَ حَلْفَى جَالِسًا عِنْدَ مَكَانِ ٱلْجِبَايَةِ، فَقَالَ لَهُ: ٱتْبَعْنِي. فَقَامَ وَتَبِعَهُ** (الآية ١٤). جنّد يسوع تلميذًا آخر وضمّه لمجموعة أتباعه، تمامًا كما جنّد بطرس وأندراوس ويعقوب ويوحنّا قبله (١: ١٦–٢٠). يقول مرقس إنّ اسم هذا الرجل كان لاوي، لكنّه يذكره لاحقًا باسم متى (٣: ١٨). والرواية الموازية لهذا الحدث في إنجيل متّى تذكره باسم متّى، ويُعتبر على نطاق واسع أنّه هو الذي كتب الإنجيل الذي يحمل هذا الاسم.

لم يكن «مكان الجباية» الذي كان يجلس فيه لاوي عبارة عن مبنى، إنّما كان كُشكًا أو كوخًا صغيرًا أُقيم قُرب أحد الطرق الفرعيّة المزدحمة في كفرناحوم، وعلى الأرجح بالقرب من منطقة تجاريّة. كما رأينا سابقًا، كانت كفرناحوم منطقة مهمّة جدًّا كمركز لصيد الأسماك. لقد كانت مكانًا استراتيجيًّا ومُدرًّا للمال ليُقيم جابي الضرائب فيها مكانًا له لتحصيل الضرائب.

كانت الأمبراطوريّة الرومانيّة تُخضع الشعب اليهوديّ لضرائب جائرة. كان جُباة الضرائب يهودًا قدّموا مزايدات للوظائف المُتاحة، عن طريق تقديم تقديرات لمقدار عائدات الضرائب التي يمكنهم تحصيلها. إن أُعجبتِ الحكومة بعرض أحدهم، فسيتمّ تعيينه كمحصّل ضرائب ويُعطى نسبةً من الأرباح. بمجرّد استيفاء جابي الضرائب حصّة الحكومة، تُصبح الأموال الإضافيّة التي يجمعها من نصيبه. لذلك، كان يُدفع لجباة الضرائب بالعمولة.

كانت المنافسة على وظائف جباية الضرائب شرسة، لأنّ هذه الوظيفة كانت مُربحة جدًّا، لكن كان يُقابلها كلفة اجتماعيّة باهظة. كان اليهود الذين أصبحوا جامعي ضرائب يُعتبرون خونة. كان عليهم التخلّي عن هُويّتهم اليهوديّة ومكانتهم الاجتماعيّة وعضويتهم في المجمع، وكان يُنظر إليهم نظرة عار في عائلاتهم. وفوق هذا، كان يُعتبر كلّ شخص يتعامل مع جباة الضرائب شخصًا نجسًا.

وهكذا، كان أمرًا مُعيبًا أن يسير يسوع إلى كوخ لاوي جابي الضرائب ويقول له: «اتبعني». لم يكن أحد يتخيّل أنّه سيختار عشّارًا ليُصبح جزءًا من مجموعة تلاميذه. ولكن مَرقُس كان قد أظهرَ في وقت سابق أنّ يسوع شفى عمدًا الأبرص، لا بل ولمسه. ونراه هنا يُظهر يسوع وهو يتواصل مع شخص منبوذ من المجتمع. كان من العار أن يلمسَ يسوع شخصًا أبرصَ، أمّا دعوة جابي الضرائب ليُصبح من أتباعه كانت وصمة عار أكبر، ومع ذلك لم يُظهر يسوع أيّ تردّد في أيّ من الحالتَيْن.

عجرفة البرّ الذاتيّ

ممّا زاد الطين بِلّة هو ذهاب يسوع وتناول العشاء في منزل لاوي بعد أن دعاه لينضمّ إلى فريقه وقام لاوي وتبعه. يصف مَرقُس هذا المشهد بقوله: **وَفِيمَا هُوَ مُتَّكِئٌ فِي بَيْتِهِ كَانَ كَثِيرُونَ مِنَ ٱلْعَشَّارِينَ وَٱلْخُطَاةِ يَتَّكِئُونَ مَعَ يَسُوعَ وَتَلَامِيذِهِ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا كَثِيرِينَ وَتَبِعُوهُ** (الآية ١٥). نُدرك من اللغة الأصليّة المُستخدمة أنّ هؤلاء الضيوف على العشاء لم يكونوا جالسين فحسب، بل كانوا مُتّكئين أو مُستلقين. لم يكن هذا عشاءً عاديًّا، بل كان وليمةً، وربّما كان احتفالًا. كان لاوي هو المُضيف، وكان يسوع ضيفَ الشرف، ولكن كان من بين الضيوف الآخرين مجموعة كبيرة من العشّارين المكروهين ممّن لهم علاقة به، وغيرهم ممّن وصمتهم السلطات الدينيّة بأنّهم «خطاة».

انزعج الكتبة والفرّيسيّون حين رأوا هذا المشهد، و**قَالُوا لِتَلَامِيذِهِ: مَا بَالُهُ يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ مَعَ ٱلْعَشَّارِينَ وَٱلْخُطَاةِ؟** (الآية ١٦ ب). عندما كان الكتبة والفرّيسيّون ينعتون الناس بالـ«خُطاة»، كانوا يفكّرون في اليهود العاديّين الذين لم يلتزموا بدراسة متعمّقة في الأمور المُختصّة بالله، ولا سيّما شريعة الله. تبع هؤلاء الناس طريق الثقافة واتّبعوا عادات تلك الأيّام بدلًا من اتّباع الناموس بتفاصيله. أمّا الفرّيسيون فكانوا على النقيض من ذلك تمامًا. تُشتقّ كلمة فرّيسي من كلمة عبريّة تعني «المُنفصل»، لأنّ الفرّيسيّين كانوا مُلتزمين بشدّة بالحفاظ على شريعة الله، وكانوا يؤمنون أنّ خلاصهم هو بإبعاد أنفسهم عن أيّ شخص مُنحطّ من الناحية الأخلاقيّة. لذلك، كان من المهمّ بالنسبة إليهم، من أجل المحافظة على قداستهم وبرّهم، ألّا يتعاملوا مع الأشخاص الذين كانوا يعتبرونهم خطاة.

هنالك مسيحيّون مثلهم، يؤمنون في الواقع أنّه يوجد قدسيّة ما عند تجنّب أيّ ارتباط مع غير المؤمنين أو الوثنيّين. اتّصلت بي سيّدة قبل

سنوات عديدة لتقول لي إنّ زوجها يريد أن يلعبَ الجولف معي. قالت إنّها ستدفع ثمن الجولة كهديّة عيد ميلاد لزوجها، ووافقتُ أن ألعبَ معه. لعبنا ثمانية عشر حفرة من الجولف، وبعد ذلك ذهبنا إلى المطعم المُخصّص للرجال. عند مغادرته، رآني أذهب لأجلس مع أصدقائي في نادي الجولف، وكثيرون منهم لم يكونوا مؤمنين في ذلك الوقت، ولكنّهم أصبحوا الآن أعضاء في كنيستي. استاء هذا الرجل منّي كثيرًا لأنّني كنت قريبًا جدًّا من هؤلاء الأشخاص لدرجة أنّه أخذ على عاتقه الاتّصال بمجلس إدارة خدمات ليجونير، وتقديم شكوى بأنّني أخالط النوع الخطأ من الأشخاص.

لم يقضِ يسوع حياته في دير. كان يتواجد حيث كان الناس موجودين، وحيث الألم والمعاناة، لأنّه كان يهتمّ بالناس. لكنّ المؤسّسة الدينيّة في عصره لم تستطع تحمّل فكرة أنّ يسوع، الذي كان من المُفترض أن يكون معلّمًا يهوديًّا، كان على استعداد لتناول العشاء مع جُباة الضرائب المحتقَرين واليهود العاديّين. لهذا السبب، جاءوا إلى تلاميذ يسوع وسألوهم: «لماذا يفعل ذلك؟»

عندما سمعهم يسوع يتذمّرون، قال لهم: **لَا يَحْتَاجُ ٱلْأَصِحَّاءُ إِلَى طَبِيبٍ بَلِ ٱلْمَرْضَى. لَمْ آتِ لِأَدْعُوَ أَبْرَارًا بَلْ خُطَاةً إِلَى ٱلتَّوْبَةِ** (الآية ١٧). ما فائدة الطبيب الذي يتعامل فقط مع الأشخاص الذين يتمتّعون بصحّة جيّدة؟ إنّه لأمر جيّد أن يستخدم الأطبّاء الطبّ الوقائي، لكنّنا بحاجة أيضًا إلى أطبّاء أكثر عندما نمرض. بالطبع، لا يُدرك ذلك كلّ مريض مُحتاج إلى طبيب– وهكذا كان الكتبة والفرّيسيّون.

كان في كلام يسوع بعض السخرية عندما قال للكتبة والفرّيسيّين: «لَمْ آتِ لِأَدْعُوَ أَبْرَارًا بَلْ خُطَاةً إِلَى ٱلتَّوْبَةِ». كان يقصد أنّ هؤلاء القادة الدينيّين أنفسهم بحاجة أن يتوبوا عن خطاياهم. كانوا مرضى أكثر من أيّ مريض آخر، في الوقت الذي كانوا يعتقدون أنّهم ليسوا بحاجة إلى طبيب.

سؤال عن الصوم

لم تُرضِ هذه الإجابة أعداءَ يسوع. يقول مرقس: **وَكَانَ تَلَامِيذُ يُوحَنَّا وَٱلْفَرِّيسِيِّينَ يَصُومُونَ، فَجَاءُوا وَقَالُوا لَهُ: لِمَاذَا يَصُومُ تَلَامِيذُ يُوحَنَّا وَٱلْفَرِّيسِيِّينَ، وَأَمَّا تَلَامِيذُكَ فَلَا يَصُومُونَ؟** (الآية ١٨). كان الصيام أمرًا مطلوبًا بحسب شريعة موسى فقط خلال الفترة التي تسبق يوم الكفّارة. ومع ذلك، جرت عادة على مرّ القرون أن يصومَ اليهود في المناسبات القوميّة والحداد وما إلى ذلك. كما كان الصوم مُرتبطًا بالتوبة. مَن ارتكب خطأ جسيمًا وتاب، كان عليه أن يُظهر توبته من خلال الصوم. كان يوحنّا يصوم أكثر من ذلك لأنّه كان متنسّكًا؛ فقد كرّس حياته لإنكار الذات، واقتدى به تلاميذه في ذلك. لكنّ الفرّيسيّين جعلوا الصوم واجبًا عليهم مرّتين في الأسبوع، واعتبروا ذلك علامة على تقواهم. لذلك عندما رأوا أنّ تلاميذ يسوع لا يصومون، سألوه عن ذلك.

أخبرهم يسوع في إجابته بشكل أساسيّ أنّه يوجد وقت ومكان لكلّ شيء، ولم يكن هذا وقتًا للصوم. لماذا؟ استخدم استعارة العريس وذكّرهم بما كان يحدث في الأعراس في حضارتهم الخاصّة: «**هَلْ يَسْتَطِيعُ بَنُو ٱلْعُرْسِ أَنْ يَصُومُوا وَٱلْعَرِيسُ مَعَهُمْ؟ مَا دَامَ ٱلْعَرِيسُ مَعَهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَصُومُوا**» (الآية ١٩). لم تكن الأعراس في إسرائيل تنتهي بعد عشرين أو ثلاثين دقيقة، ثمّ يليها حفل استقبال يستمرّ لساعتين، وبعدها يعود الجميع إلى منازلهم، بل كانت وليمة الزفاف تدوم أسبوعًا كاملًا. كانت مناسبةً للأكل والشرب. لا أحد يريد المشاركة في صوم عندما يلوح في الأفق حفل زفاف لأنّ ذلك الوقت كان وقتًا للاحتفال والبهجة.

لا يشير العهد القديم أبدًا إلى المسيّا كعريس. العريس في العهد القديم هو الله، والعروس هي إسرائيل. ولكن العريسَ في العهد الجديد هو ابن الله، والعروس هي كنيسته. بالنظر إلى سياق الاستعارة في العهد القديم، يبدو

من الواضح أنّ يسوع كان يدّعي أمرًا أكثر من مسيانيّته حين كان يُشير إلى نفسه بأنّه العريس.

وأخبرهم أيضًا أنّ العريس لن يكون معهم دائمًا: **«وَلَكِنْ سَتَأْتِي أَيَّامٌ حِينَ يُرْفَعُ ٱلْعَرِيسُ عَنْهُمْ، فَحِينَئِذٍ يَصُومُونَ فِي تِلْكَ ٱلْأَيَّامِ»** (الآية ٢٠). كان يشير بذلك إلى صلبه وصعوده من الأرض. بعد ذلك، كما قال، سيحين الوقت ليصوم تلاميذه.

رُقع الثياب وزقاق الخمر

ثم بدّل يسوع استعاراته وقال: **«لَيْسَ أَحَدٌ يَخِيطُ رُقْعَةً مِنْ قِطْعَةٍ جَدِيدَةٍ عَلَى ثَوْبٍ عَتِيقٍ، وَإِلَّا فَٱلْمِلْءُ ٱلْجَدِيدُ يَأْخُذُ مِنَ ٱلْعَتِيقِ فَيَصِيرُ ٱلْخَرْقُ أَرْدَأَ»** (الآية ٢١). استخدم يسوع هنا تشبيهًا يمكن أن يفهمه كلّ إنسان. إنْ غُسل الثوب عدّة مرّات وتقلّص حجمه ثمّ تمزّق، فلا يمكن ترقيعه بقطعة قماش جديدة. وإنْ حصلَ ذلك، فسوف تنكمش قطعة القماش الجديدة وستتمزّق الرقعة وسيزداد وضع التمزّق سوءًا.

تابع مُقدّمًا إيضاحًا من زِقاق الخمر: **«وَلَيْسَ أَحَدٌ يَجْعَلُ خَمْرًا جَدِيدَةً فِي زِقَاقٍ عَتِيقَةٍ، لِئَلَّا تَشُقَّ ٱلْخَمْرُ ٱلْجَدِيدَةُ ٱلزِّقَاقَ، فَٱلْخَمْرُ تَنْصَبُّ وَٱلزِّقَاقُ تَتْلَفُ. بَلْ يَجْعَلُونَ خَمْرًا جَدِيدَةً فِي زِقَاقٍ جَدِيدَةٍ»** (الآية ٢٢). في العالم القديم، كان زِقاق الخمر يُصنع من جلد الماعز. عندما يوضع خمر جديدة في جلد ماعز جديد، يتخمّر، وتنبعث منه غازات تجعل الجلد يتمدّد ويتوسّع. كانوا يضعون الخمر الجديدة في زقاق جديدة لأنّ الجلود الجديدة تستطيع التمدّد وتتحمّل التوسّع. لكن كان كلّ يهودي في إسرائيل يعرف أنّه لا يُمكن وضع الخمر الجديدة في زِقاق قديمة؛ لأنّ الزقاق القديمة قد تمدّدت وتوسّعت بالفعل إلى أقصى حدودها. سوف يتخمّر النبيذ الجديد ويوسّع الجلد القديم إلى حدّ التشقّق والانسكاب، فيُتلف الزقاق والخمر معًا.

كان يسوع يقول من خلال هذه الاستعارات بشكل جوهريّ: «لا يمكنك أن تأخذ الجديد وتضعه بالقوّة في الأبنية القديمة لأنّها لا تستطيع أن تُبقيه داخلها». لم يكن بذلك يَدين شريعة الله في العهد القديم، بل كان يَدين التقاليد التي نشأت بين الكتبة والفرّيسيّين. كان يُلفت انتباههم إلى أنّ مَلكهم قد جاء، ولن يستطيعوا التعامل مع هذا الملك ما لم يتخلّصوا من الأبنية التي يستحيل لهم استخدامها لاستقباله. حدثَ شيء جديد لدرجة أنّهم لن يقدروا أن يقبلوا المسيح في حياتهم دون أنْ يتجدّدوا هم أنفسهم. من المستحيل أن تكون مسيحيًّا وتُبقي الطرق القديمة.

باختصار، كان يحذّر الفرّيسيّين من أنّهم لن يكونوا مُستعدّين عندما تبدأ الوليمة السماويّة، لأنّهم كانوا يرفضون ملكَهم. كانوا يرفضون ابن الله.

الرسالة الموجّهة إلينا هي أنّه إنْ كنّا بالفعل قد قَبلْنا المسيح مع كلّ الجديد الذي أتى به، يُمكننا أن نتطلّع بفارغ الصبر إلى المستقبل، عندما يجلس الناس من جميع أنحاء الخليقة معه في بيت أبيه، للاحتفال بوليمة عرس الحمل.

٨

ربّ السبت

مرقس ٢: ٢٣-٣: ٦

وَٱجْتَازَ فِي ٱلسَّبْتِ بَيْنَ ٱلزُّرُوعِ، فَٱبْتَدَأَ تَلَامِيذُهُ يَقْطِفُونَ ٱلسَّنَابِلَ وَهُمْ سَائِرُونَ. فَقَالَ لَهُ ٱلْفَرِّيسِيُّونَ: ٱنْظُرْ! لِمَاذَا يَفْعَلُونَ فِي ٱلسَّبْتِ مَا لَا يَحِلُّ؟ فَقَالَ لَهُمْ: أَمَا قَرَأْتُمْ قَطُّ مَا فَعَلَهُ دَاوُدُ حِينَ ٱحْتَاجَ وَجَاعَ هُوَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ؟ كَيْفَ دَخَلَ بَيْتَ ٱللهِ فِي أَيَّامِ أَبِيَأَثَارَ رَئِيسِ ٱلْكَهَنَةِ، وَأَكَلَ خُبْزَ ٱلتَّقْدِمَةِ ٱلَّذِي لَا يَحِلُّ أَكْلُهُ إِلَّا لِلْكَهَنَةِ، وَأَعْطَى ٱلَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ أَيْضًا. ثُمَّ قَالَ لَهُمُ: ٱلسَّبْتُ إِنَّمَا جُعِلَ لِأَجْلِ ٱلْإِنْسَانِ، لَا ٱلْإِنْسَانُ لِأَجْلِ ٱلسَّبْتِ. إِذًا ٱبْنُ ٱلْإِنْسَانِ هُوَ رَبُّ ٱلسَّبْتِ أَيْضًا. ثُمَّ دَخَلَ أَيْضًا إِلَى ٱلْمَجْمَعِ، وَكَانَ هُنَاكَ رَجُلٌ يَدُهُ يَابِسَةٌ. فَصَارُوا يُرَاقِبُونَهُ: هَلْ يَشْفِيهِ فِي ٱلسَّبْتِ؟ لِكَيْ يَشْتَكُوا عَلَيْهِ. فَقَالَ لِلرَّجُلِ ٱلَّذِي لَهُ ٱلْيَدُ ٱلْيَابِسَةُ: قُمْ فِي ٱلْوَسْطِ. ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: هَلْ يَحِلُّ فِي ٱلسَّبْتِ فِعْلُ ٱلْخَيْرِ أَوْ فِعْلُ ٱلشَّرِّ؟ تَخْلِيصُ نَفْسٍ أَوْ قَتْلٌ؟ فَسَكَتُوا. فَنَظَرَ حَوْلَهُ إِلَيْهِمْ بِغَضَبٍ، حَزِينًا عَلَى غِلَاظَةِ قُلُوبِهِمْ، وَقَالَ لِلرَّجُلِ: مُدَّ يَدَكَ. فَمَدَّهَا، فَعَادَتْ يَدُهُ صَحِيحَةً كَٱلْأُخْرَى. فَخَرَجَ ٱلْفَرِّيسِيُّونَ لِلْوَقْتِ مَعَ ٱلْهِيرُودُسِيِّينَ وَتَشَاوَرُوا عَلَيْهِ لِكَيْ يُهْلِكُوهُ.

رأينا حتّى الآن مدًّا مُتصاعدًا من النزاع بين يسوع والسلطات الدينيّة في عصره. ومع أنّ خدمة المسيح كانت لا زالت في بدايتها، إلّا أنّ كراهيّة الذين عارضوه كانت قد نمت بضراوة بالفعل وكذلك عداءَهم له.

بدأت المرحلة التالية من هذا الصراع ببراءَة. يُخبرنا مرقس: وَٱجْتَازَ فِي ٱلسَّبْتِ بَيْنَ ٱلزُّرُوعِ، فَٱبْتَدَأَ تَلَامِيذُهُ يَقْطِفُونَ ٱلسَّنَابِلَ وَهُمْ سَائِرُونَ. فَقَالَ لَهُ ٱلْفَرِّيسِيُّونَ: ٱنْظُرْ! لِمَاذَا يَفْعَلُونَ فِي ٱلسَّبْتِ مَا لَا يَحِلُّ؟ (الآيتان ٢٣–٢٤). عندما قطف التلاميذ بعض السنابل يوم السبت، اتّهمهم الفرّيسيّون بمُخالفة شريعة السبت. في الواقع، لم يُخالفوا وصيّة السبت، بل خالفوا تقليدًا واحدًا على الأقل وربّما اثنين من تقاليد رجال الدين اليهود.

أعطى الله الشرائع التي تتحكّم بسلوك اليهود يوم السبت عند جبل سيناء. وردت هذه الشرائع في الوصايا العشر (خروج ٢٠)، وفي إرشادات أخرى حول العيش بقداسة (خروج ١٦، ٢٠، ٢٣، ٣١، ٣٥؛ لاويّين ١٦، ١٩، ٢٣). على مرّ القرون، كما فعلوا مع الكثير من الشرائع التي أعطاها الله، كرّس رجال الدين اليهود أنفسهم لضبط شرائع السبت وإضافة محظورات مُحدّدة لحماية حفظ يوم السبت. اشتملت المحظورات تفاصيل عديدة لا نجدها في أيّ مكان في الكتاب المقدّس، لكنّ تقاليدهم أصبحت في النهاية مُلزمة لضمير الناس مثل الكتاب المقدّس نفسه.

كان أحد الأمور الممنوعة يتعلّق بما أطلق عليه رجال الدين اليهود «رحلة يوم السبت»، وهي أقصى مسافة يُسمح لليهودي سلوكها يوم السبت. حدّد رجال الدين رحلة يوم السبت بـ١٩٩٩ خطوة، أي ما يزيد قليلًا عن نصف ميل. إنْ خطا شخص ما خطوة واحدة أكثر من ١٩٩٩ خطوة، فيُعتبر شخصًا كاسرًا لوصيّة يوم السبت. يُفترض أن يكون تحريم رجال الدين مقصودًا هنا في هذه الحادثة التي سجّلها مرقس، لأنّ التلاميذ مشوا مسافة طويلة في حقول القمح بحثًا عن شيء يأكلونه، ولا بدّ أنّهم تجاوزوا

١٩٩٩ خطوة.

كما أوصى رجال الدين اليهود أنّه بما أنّ كلّ أنواع التجارة محظورة يوم السبت، فإنّ أيّ عمل غير ضروريّ في يوم السبت هو أيضًا تعدّي على شريعة الله. لذلك، منعوا جني المحاصيل الزراعيّة يوم السبت. اعتبر الفرّيسيّون أنّه عندما عبر التلاميذ الحقول لقطف الحبوب، أصبحوا مُذنبين بجني الحصاد يوم السبت – وهي مخالفة فظيعة للشريعة في نظرهم.

سابقة من التاريخ اليهودي

عندما أجاب يسوع عن هذا السؤال الموجّه من القادة الدينيّين، لفت انتباههم أوّلًا إلى الكتاب المقدّس. وكما يفعل أيّ محامٍ بارع، استشهد بسابقة لتبرير سلوك موكّليه، أي تلاميذه في هذه الحالة.

ذكّرهم يسوع بحادثة جرت في حياة داود: قال لهم: «**أَمَا قَرَأْتُمْ قَطُّ مَا فَعَلَهُ دَاوُدُ حِينَ ٱحْتَاجَ وَجَاعَ هُوَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ؟ كَيْفَ دَخَلَ بَيْتَ ٱللهِ فِي أَيَّامِ أَبِيَأَثَارَ رَئِيسِ ٱلْكَهَنَةِ، وَأَكَلَ خُبْزَ ٱلتَّقْدِمَةِ ٱلَّذِي لَا يَحِلُّ أَكْلُهُ إِلَّا لِلْكَهَنَةِ، وَأَعْطَى ٱلَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ أَيْضًا**» (الآيتان ٢٥–٢٦). بدأ يسوع بطرح سؤال بشكل أساسيّ كالتالي: «هل قرأتم كتابكم المقدّس؟» ربّما اعتبر الفرّيسيّون سؤاله هذا مُهينًا لهم، لأنّه كان من المفترض أن يكونوا خبراء في الكتاب المقدّس العبريّ. ولكن يبدو أنّهم لم يُفكّروا بهذه الحادثة المكتوبة في صموئيل الأول ٢١: ١–٦.

عندما كان داود هاربًا من شاول، جمع حوله «مجموعة من الإخوة» الذين ذهبوا معه في كلّ الأرض. ذات مرّة، عندما كانوا بلا طعام، تذكّر داود أنّه يوجد بعض الأرغفة في خيمة الاجتماع موضوعة على طاولة خبز الوجوه. فذهب إلى هناك وطلب من الكاهن أن يُعطيه الخبز المقدّس، ثمّ

وزّعه على رجاله.

استخدم يسوع هذا الإيضاح لأنّه كان يعلم أنّ داود هو بطل إسرائيل القديمة العظيم في أذهان الفرّيسيّين. كان داود بالنسبة إليهم الملك المثاليّ. لكن يسوع كان يكرز بمجيء ملكوت جديد يُتمّم مُلكَ داود. كان يسوع، ابن داود، يستند إلى أمر فعله داود بهدف إفحام مُنتقديه.

يُحبّ أولئك الذين يؤمنون بوجود تناقضات في الكتاب المقدّس الإشارة إلى أنّنا نقرأ في صموئيل الأوّل ٢١ أنّ أخيمالك كان رئيس الكهنة في ذلك الوقت، أمّا يسوع فقال إنّ هذه الحادثة كانت في أيّام رئيس الكهنة أبياثار. هل أخطأ ربّنا؟ كان في فترة من العهد القديم شخصان اسمهما أخيمالك، لكن أبياثار كان رئيس الكهنة الرئيسيّ في ذلك الوقت، وتمّ تحديد تلك الفترة من التاريخ اليهوديّ على أنّها عهد رئيس الكهنة أبياثار. لم يقل يسوع إنّ أبياثار كان حقًّا رئيس الكهنة عندما أخذ داود خبز التقدمة من خيمة الاجتماع، بل قال إن ما حدث كان خلال تلك الحقبة الزمنيّة. لذلك، أعتقد أنّنا نستطيع تبرئة يسوع من هؤلاء النقّاد الذين يهدفون إلى التشكيك في ما قاله يسوع في تلك المناسبة.

سلطان تنظيم السبت

ثمّ استخلصَ يسوعُ درسًا من قصّة داود وخبزِ التقدمة: «ٱلسَّبْتُ إِنَّمَا جُعِلَ لِأَجْلِ ٱلْإِنْسَانِ، لَا ٱلْإِنْسَانُ لِأَجْلِ ٱلسَّبْتِ (الآية ٢٧). لم يُحطّ يسوع من شريعة العهد القديم، بل من تقاليد رجال الدين التي أضافوها إلى الناموس. في الأمور التي ترك اللهُ الناسَ أحرارًا، قيّدهم رجال الدين بالسلاسل. لقد قاموا بمضاعفة الأمور المحظورة يوم السبت إلى درجة مذهلة. مثلًا، عندما حاولوا تعريف ما يعنيه تجاوز العمل الضروريّ يوم السبت، أصدروا مرسومًا بأنّ حلّ العُقد يوم السبت يُعتبر خطية. وإن قام

شخص ما بربط سيور حذائه عن طريق السهو، عليه أن يتركها معقودة حتى ينتهي يوم السبت لأنّ حلّها يُعتبر عملًا غير ضروريّ. وقالوا في مثل آخر إنّه إن مزّق شخص رداءً، يُسمح له بخياطة غرزة واحدة لا أكثر. إلى مكان مثل هذا تقودنا الناموسيّة– إلى السخافة.

للأسف، هذا النوع من الناموسيّة منتشر بشكل واسع داخل المجتمعات المسيحيّة، حيث توضع أنواع كثيرة من القوانين التي ليس لها أدنى علاقة بشريعة الله. عندما بدأتُ العملَ كأستاذ في كليّة مسيحيّة، ذهبت بنزهة قرب بحيرة في الحرم الجامعي قبل أن تبدأ صفوف التعليم. رأيتُ بعض الطلّاب يلعبون الورق فسألتهم أيّ نوع من ألعاب الورق يلعبون. قالوا لي: «إنّها لعبة Rook. ألا تعلم أنّ هذه هي لعبة الورق المسيحيّة؟ لأنّه لا يُسمح لنا بلعب أيّ نوع آخر من ألعاب الورق الأخرى». في ألعاب الورق الأخرى تُستخدم بطاقة الجوكر التي هي رمز الشيطان، لذلك منع الطلاب من استخدام تلك الألعاب. كان في داخل الحرم الجامعيّ العديد من القواعد الأخرى– كحظر مشاهدة الأفلام السينمائية والرقص وما إلى ذلك من أمور أخرى. بالطبع، لم تكن تلك الكليّة الوحيدة في فرض قواعد غير كتابيّة. نحن نشبه الفرّيسيّين، إذ نضع قواعد يُمكننا اتّباعها بدلًا من طاعة القواعد التي أوصانا بها الله والتي يصعب علينا اتباعها أكثر من تلك التي نضعها نحن.

أراد يسوع من قوله إنّ السبت «جُعِلَ لِأَجْلِ ٱلْإِنْسَانِ» أنّه هبة من الله لشعبه، هديّة تمنعهم من إنهاك أجسادهم وحيواناتهم وخدمهم وحقولهم. ومع ذلك، حوّلت تقاليد رجال الدين السبت من هبة عظيمة إلى عبء مُتعب. كان على الناس أن يحرصوا بشدّة على عدم تجاوز الحدود التي وضعها رجال الدين اليهود.

ثمّ انفجرت القنبلة حين قال يسوع: **«إِذًا ٱبْنُ ٱلْإِنْسَانِ هُوَ رَبُّ ٱلسَّبْتِ أَيْضًا»** (الآية ٢٨). بهذا التأكيد، أعلن يسوع مرّة أخرى عن سلطانه. لقد

أراد أن يعرفَ رجال الدين أنّه ليس لديه سلطان على مغفرة الخطايا فحسب (٢: ٥–١٢)، إنّما أيضًا أنّه كان (ولا يزال) ربّ السبت.

هنالك جدالات كثيرة حول يوم السبت، وأحدها له علاقة بتاريخ تأسيسه. يقول بعض العلماء إنّه لم يتمّ تأسيس السبت حتّى أعطى الله الوصيّة الرابعة في جبل سيناء من خلال موسى. يعتقد آخرون أنّ شريعة السبت تأسّست قبل وقت طويل، أي منذ الخلق. اتّبع الله نفسه نمطَ العمل ستّة أيّام ثمّ استراح في اليوم السابع. لم يسترح فقط يوم السبت، بل قدّسه (تكوين ٢: ١–٣). لقد جعله يومًا مُقدّسًا يعود إلى زمن الخلق. أنا مع المجموعة التي تؤمن بأنّ السبت تأسّس عند الخلق، قبل أن يمشي موسى على هذه الأرض بزمن طويل.

ماذا يعني أن يكون يسوع ربّ السبت؟ كان يقول إنه هو مَن وضع السبت فهو بالتالي يسود عليه. قيل لنا إنّ كلّ شيء خُلق بكلمة الله، الأقنوم الثاني في الثالوث (يوحنا ١: ٣). في الواقع، كان يدّعي أنّه هو الخالق. فلا عجب أنّ رجال الدين أرادوا الاتّحاد معًا ليجدوا طريقة لقتل يسوع.

عرض للسلطان

لم يعلن يسوع سلطانه على السبت والخلق فحسب، بل أظهر ذلك. يُخبرنا مرقس: **ثُمَّ دَخَلَ أَيْضًا إِلَى ٱلْمَجْمَعِ، وَكَانَ هُنَاكَ رَجُلٌ يَدُهُ يَابِسَةٌ. فَصَارُوا يُرَاقِبُونَهُ: هَلْ يَشْفِيهِ فِي ٱلسَّبْتِ؟ لِكَيْ يَشْتَكُوا عَلَيْهِ** (٣: ١–٢). بعبارة أخرى، كان الفرّيسيّون والكتبة يراقبونه ليروا ما إنْ كان سيكسر الشريعة مرّة أخرى، أو على الأقلّ الشريعة بحسب تعريفهم لها. **فَقَالَ لِلرَّجُلِ ٱلَّذِي لَهُ ٱلْيَدُ ٱلْيَابِسَةُ: قُمْ فِي ٱلْوَسْطِ** (الآية ٣). بالطبع، لم تكن اليد اليابسة مرضًا يهدّد الحياة. لذلك، وفقًا لرجال الدين اليهود، كان يُفترض على يسوع أن يقول: «إن أردتُ أن أصلح يدك، فعليك الانتظار حتى

الغد». لكن يسوع لم يرَ حاجةً إلى الانتظار لإظهار حنانه، فطلب من الرجل أن يقف في الوسط. ربّما كان آخر شيء يريده هذا الرجل المسكين هو أن يُستخدم على أنّه المُستند (أ) في أيّ نزاع ضدّ يسوع، ولكن بالتأكيد كان يريده بادئ ذي بدء استعادة استخدام يده، لذلك وقف في الوسط كما طلب منه يسوع.

طرح يسوع مرّة أخرى سؤالًا على أعدائه: **ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: هَلْ يَحِلُّ فِي ٱلسَّبْتِ فِعْلُ ٱلْخَيْرِ أَوْ فِعْلُ ٱلشَّرِّ؟ تَخْلِيصُ نَفْسٍ أَوْ قَتْلٌ؟ فَسَكَتُوا** (الآية ٤). لم يكن يسوع يسأل: «هل يجوز في يوم السبت أن يعمل الإنسان ما يسمح به معلّمو الشريعة؟» إنّما كان يسأل: «هل فعل الخير أمر مقبول يوم السبت؟» كانت وُجهة نظره أنّه يُمكن القيام بأمور صالحة ليس فقط ستّة أيّام في الأسبوع، ولكن أيضًا سبعة أيّام. هل يحلّ للممرّضة أو الطبيب معالجة المرضى يوم السبت؟ هل يحلّ للمزارع أن يُطعم ماشيته؟ هل يجوز للمسيحيّين العاديّين السفر لزيارة غير القادرين على الخروج من منازلهم؟ بالطبع يحقّ لهم ذلك، فكلّ هذه الأمور صالحة.

أعتقد أنّ يسوع كان يتحدّث بلهجة ساخرة لأنّه كان يعلم ما يدور في أذهان القادة الدينيّين. كانوا مستعدّين أن يتّهموه بصُنع الخير في يوم السبت بينما كانوا يضعون خطّة في يوم السبت نفسه لقتله. هل هنالك طريقة لانتهاك قُدسيّة اليوم الذي فرزه الله لراحة شعبه أسوأ من التآمر لقتل ربّ السبت يوم السبت؟

يُخبرنا مرقس أنّ يسوع استاء كثيرًا من موقف الفرّيسيّين: **فَنَظَرَ حَوْلَهُ إِلَيْهِمْ بِغَضَبٍ، حَزِينًا عَلَى غِلَاظَةِ قُلُوبِهِمْ** (الآية ٥أ). لقد استفزّته السلطات الدينيّة المنافقة ليغضب. الكلمة اليونانيّة التي يستخدمها مرقس هنا ليست الكلمة التي تُستخدم عن الإزعاج البسيط أو حتّى الغضب المقدّس، بل هي الكلمة المستخدَمة عن السخط أو الغضب الشديد. شعر يسوع بالغضب

لأنّ القادة الدينيّين كانوا مُهتمّين بتقاليدهم أكثر من اهتمامهم براحة إنسان يعاني من الألم. لكنّ غضبه كان أيضًا ممزوجًا بالألم. يُخبرنا مرقس أنّ يسوع حزن في روحه بسبب قساوة قلوبهم. بعبارة أخرى، تحنّن عليهم أيضًا.

ومع ذلك، لم يردع هذا الربّ عن إتمام مقصده في فعل الخير للرجل ذي اليد اليابسة في يوم السبت. يكتب مرقس: **وَقَالَ لِلرَّجُلِ: مُدَّ يَدَكَ. فَمَدَّهَا، فَعَادَتْ يَدُهُ صَحِيحَةً كَٱلْأُخْرَى. فَخَرَجَ ٱلْفَرِّيسِيُّونَ لِلْوَقْتِ مَعَ ٱلْهِيرُودُسِيِّينَ وَتَشَاوَرُوا عَلَيْهِ لِكَيْ يُهْلِكُوهُ** (الآيات ٥ب–٦). رفض الفرّيسيّون الاستماع إلى تعاليم يسوع، وبدأوا حالًا بالتآمر عليه مع الهيرودسيّين الذين كانوا جزءًا من مجموعة سياسيّة تدعم سلالة هيرودس الكبير الحاكمة وأبناءَه.

يُحزنني بشدّة أن أرى كيف أحزنت قساوة قلوب الفرّيسيّين يسوع. يُحذّرنا الكتاب المقدّس من إحزان الروح القدس (أفسس ٤: ٣٠). قبل أن يجلب الله الطوفان على الأرض، نظر إلى الشرّ في العالم وقال: «لَا يَدِينُ رُوحِي فِي ٱلْإِنْسَانِ إِلَى ٱلْأَبَدِ» (تكوين ٦: ٣). من الواضح أنّ الله بدأ يحزن على الإنسان منذ تلك الفترة. وما حقيقة أنّ الطوفان أتى بعد ذلك بفترة قصيرة إلّا دلالة على أنّ تحنُّن الله سينتهي في مرحلة ما، فتتوقّف رحمته وينفجر غضبه.

وإلى أن يحين ذلك الوقت، ما زال الروح القدس يستخدم كلمة الله لإحياء ضمائرنا، وليجعلنا ندرك عصياننا ضدّ الله. لكنّ قلوبنا جميعًا قاسية لدرجة ما، وبعضنا صلاب الرقبة. نحن نعلم أنّ لا شيء يكشفنا كما تكشفنا كلمة الله، لذلك لا نريد أيّ ارتباط بها. هل هذا ينطبق عليك؟ هل أنتَ مُمسك بدرع ما تستخدمه لمنع الحقّ الإلهي من اختراق قلبك؟ أناشدك ألّا تُقسّي قلبَك عندما تسمع كلمة الله.

يجب أن نحترس عند قراءة رواية مثل هذه، حيث نرى ربّنا غاضبًا

وحزينًا على خطايا البشر، لئلًا نقول لأنفسنا بكلّ بساطة: «آه، ما أسوأ هؤلاء الفرّيسيّين». عندما نفعل ذلك، نكون مثلهم تمامًا. بل يجب أن نأتي إلى الله في الصلاة ونقول: «يا الله، لا تغضب منّي. لا تدعني أعطيك سببًا بأن تغضب منّي. لا تدعني أحزنك بسبب قساوة قلبي. بل أخبرني ماذا تريد منّي. أعطني أذنًا فأسمع، وقلبًا مُنفتحًا لأحتضن كلّ ما تقوله».

٩

دعوة الاثني عشر لاتّباع يسوع

مَرْقُس ٣: ٧-١٩

فَٱنْصَرَفَ يَسُوعُ مَعَ تَلَامِيذِهِ إِلَى ٱلْبَحْرِ، وَتَبِعَهُ جَمْعٌ كَثِيرٌ مِنَ ٱلْجَلِيلِ وَمِنَ ٱلْيَهُودِيَّةِ وَمِنْ أُورُشَلِيمَ وَمِنْ أَدُومِيَّةَ وَمِنْ عَبْرِ ٱلْأُرْدُنِّ. وَٱلَّذِينَ حَوْلَ صُورَ وَصَيْدَاءَ، جَمْعٌ كَثِيرٌ، إِذْ سَمِعُوا كَمْ صَنَعَ أَتَوْا إِلَيْهِ. فَقَالَ لِتَلَامِيذِهِ أَنْ تُلَازِمَهُ سَفِينَةٌ صَغِيرَةٌ لِسَبَبِ ٱلْجَمْعِ، كَيْ لَا يَزْحَمُوهُ، لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ شَفَى كَثِيرِينَ، حَتَّى وَقَعَ عَلَيْهِ لِيَلْمِسَهُ كُلُّ مَنْ فِيهِ دَاءٌ. وَٱلْأَرْوَاحُ ٱلنَّجِسَةُ حِينَمَا نَظَرَتْهُ خَرَّتْ لَهُ وَصَرَخَتْ قَائِلَةً: إِنَّكَ أَنْتَ ٱبْنُ ٱللهِ! وَأَوْصَاهُمْ كَثِيرًا أَنْ لَا يُظْهِرُوه. ثُمَّ صَعِدَ إِلَى ٱلْجَبَلِ وَدَعَا ٱلَّذِينَ أَرَادَهُمْ فَذَهَبُوا إِلَيْهِ. وَأَقَامَ ٱثْنَيْ عَشَرَ لِيَكُونُوا مَعَهُ، وَلِيُرْسِلَهُمْ لِيَكْرِزُوا، وَيَكُونَ لَهُمْ سُلْطَانٌ عَلَى شِفَاءِ ٱلْأَمْرَاضِ وَإِخْرَاجِ ٱلشَّيَاطِينِ. وَجَعَلَ لِسِمْعَانَ ٱسْمَ بُطْرُسَ. وَيَعْقُوبَ بْنَ زَبْدِي وَيُوحَنَّا أَخَا يَعْقُوبَ، وَجَعَلَ لَهُمَا ٱسْمَ بُوَانَرْجِسَ أَيِ ٱبْنَيِ ٱلرَّعْدِ. وَأَنْدَرَاوُسَ، وَفِيلُبُّسَ، وَبَرْثُولَمَاوُسَ، وَمَتَّى، وَتُومَا، وَيَعْقُوبَ

بْنَ حَلْفَى، وَتَدَّاوُسَ، وَسِمْعَانَ ٱلْقَانَوِيَّ، وَيَهُوذَا ٱلْإِسْخَرْيُوطِيَّ ٱلَّذِي أَسْلَمَهُ. ثُمَّ أَتَوْا إِلَى بَيْتٍ.

نتج عن الأيّام الأولى لخدمة يسوع العلنيّة في الجليل مدًّا مُتصاعدًا من القبول العامّ. لم تكن هذه الشعبيّة أمرًا جيّدًا؛ إذ أصبحتِ الحشود كبيرة جدًّا لدرجة أنّ يسوع لم يستطع دخول أيّ مدينة، بل كان عليه أن يبقى خارجًا في مواضع خالية (١: ٤٥)، ولم يقدر أن يستقبل ويخدم جميع الأشخاص الذين كانوا بحاجة إلى مساعدته (٢: ٢).

للأسف، يبدو واضحًا أنّ رغبةَ الحشود العارمة لم تكن سماع رسالة يسوع، بل الحصول على لمسته الشافية؛ إذ كانوا يسعون للتخفيف من عذابهم وآلامهم. بكلماتٍ أخرى، كانوا مُهتمّين بأجسادهم أكثر من اهتمامهم بأرواحهم.

نحن نشبه هؤلاء الناس في الجليل، ففي أغلب الأحيان، نميل إلى التركيز في طلبات الصلاة على مشاكلنا الجسديّة ومشاكل الآخرين الذين نحبّهم. بالطبع، خَلَقنا الله كائناتٍ جسديّة، ونرى عبر أسفار الكتاب المقدّس أنّ الله يهتّم كثيرًا بسلامة أجسادِنا. الجسدُ ليس مُجرّد سجنٍ للروحِ، وهو ليس شيئًا مُحتقرًا. كمسيحيّين، نؤمن أنّ أجسادَنا ستقوم من بين الأموات لتتّحدَ ذات يومٍ مع أرواحنا. لذلك، من الجيّد لنا أنْ نهتمّ بصحّة أجسادِنا وأجسادِ الآخرين من حولنا.

ولكنّنا لسنا مُجرّد أجساد، لأنّ الله خلقنا جسدًا وروحًا، وجعل يسوع من رعاية أرواحنا أولويّة قصوى في تعاليمه. لقد حدّد نظام قيمه عندما قال: «لِأَنَّهُ مَاذَا يَنْتَفِعُ ٱلْإِنْسَانُ لَوْ رَبِحَ ٱلْعَالَمَ كُلَّهُ وَخَسِرَ نَفْسَهُ؟ أَوْ مَاذَا يُعْطِي ٱلْإِنْسَانُ فِدَاءً عَنْ نَفْسِهِ؟» (٨: ٣٦-٣٧). علينا أنْ نرفعَ صلوات كثيرة من

أجل صحّة أرواحنا وكذلك أجسادنا.

قال يسوع: «لِأَنَّهُ حَيْثُ يَكُونُ كَنْزُكَ هُنَاكَ يَكُونُ قَلْبُكَ أَيْضًا» (متّى ٦: ٢١). يُذهلني دائمًا أنّ استطلاعات الرأي تُظهر باستمرار أنّ المهنة ذات الأجر الأقلّ في الولايات المتّحدة الأمريكيّة هي مهنة رجال الدين. في المقابل، مهنة الأطبّاء هي إحدى المهن الأعلى أجرًا. هذا دليل على المهنة التي نقدّرها أكثر من غيرها. نحن نقدّر أجسادنا تقديرًا عاليًا، لكنّ تقديرنا لأرواحنا أقلّ بكثير. في العهد القديم، وضع الله مبدأ العشور لغرضٍ مُحدّد– لدعم خدمة الكنيسة والوعظ والتعليم والوظائف الكهنوتيّة الأخرى. بعبارة أخرى، لرعاية النفوس. كانت هذه هي الوظيفة الوحيدة التي عيّنها الله بدعم من ضريبة إلهيّة. لم يسمح الله للسوق التجاريّة أنْ تحدّد مدى دعم الخدمة لأنّه كان يعلم أنّه في عالم ساقط، إنْ تُرك القرار للناس أنفسهم، فلن يُحدّدوا أبدًا قيمة ماليّة عالية للاهتمام بأرواحهم.

بالتأكيد، سبّب اهتمام الناس الكبير بصحّتهم الجسديّة مشكلة بالنسبة إلى يسوع. ولكن حتّى عندما كانت شعبيته مُزدهرة، واجه مدًّا متصاعدًا من المعارضة من قبل السلطات الدينيّة اليهوديّة. كما رأينا في الفصل السابق، بعد شفائه يدَ رَجُل يابسة يوم السبت، غضب الفرّيسيّون والهيرودسيّون لدرجة أنّهم بدأوا يناقشون طُرقًا لقتله. يبدو أنّ هذين العاملَيْن كانا سبب انصراف **يَسُوعُ مَعَ تَلَامِيذِهِ إِلَى ٱلْبَحْرِ** (الآية ٧أ). ربّما كان يبحث عن الراحة من الجموع وأن يبقى على مسافة من الفرّيسيّين وحلفائِهم.

الشفاء من الشياطين وإسكاتها

لو كان انصراف يسوع إلى البحر محاولة منه للهروب من الجموع فإنّ خطّته لم تنجح: **وَتَبِعَهُ جَمْعٌ كَثِيرٌ مِنَ ٱلْجَلِيلِ وَمِنَ ٱلْيَهُودِيَّةِ وَمِنْ أُورُشَلِيمَ وَمِنْ أَدُومِيَّةَ وَمِنْ عَبْرِ ٱلْأُرْدُنِّ. وَٱلَّذِينَ حَوْلَ صُورَ وَصَيْدَاءَ، جَمْعٌ كَثِيرٌ،**

إِذْ سَمِعُوا كَمْ صَنَعَ أَتَوْا إِلَيْهِ (الآيتان ٧ب–٨). في الواقع، ربّما كان هذا هو الحشد الأكبر الذي رآه حتّى الآن. بالطبع، كان من بينهم الجليليّون، لكن بعضهم جاء من اليهوديّة وأورشليم وأدوم في الجنوب ومن المنطقة الواقعة وراء الأردن إلى الشرق. إضافة إلى ذلك، كان هنالك مجموعة من الأشخاص الأمميّين من حول صور وصيدا إلى الشمال الغربيّ. ليس واضحًا ما إذا كان اليهود أم الأمم أم كلاهما في هذه المجموعة، لكنّهم شكّلوا جمهورًا كبيرًا، لأنّ شهرة يسوع كانت قد انتشرت حتى إلى كلّ تلك المناطق.

من الواضح أنّ حجم هذا الحشد من الناس شغل بال يسوع. يُخبرنا مَرْقُس: **فَقَالَ لِتَلَامِيذِهِ أَنْ تُلَازِمَهُ سَفِينَةٌ صَغِيرَةٌ لِسَبَبِ ٱلْجَمْعِ، كَيْ لَا يَزْحَمُوهُ، لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ شَفَى كَثِيرِينَ، حَتَّى وَقَعَ عَلَيْهِ لِيَلْمِسَهُ كُلُّ مَنْ فِيهِ دَاءٌ** (الآيتان ٩–١٠). تحنّن يسوع وبدأ يشفي الكثير من الناس الذين أتَوْا إليه بأمراض وأسقام أخرى، لكن هذا جعل الناس يقتربون منه بشغف أكبر، على أمل أن يلمسوه فيُشفَوْا. لذلك طلب يسوع من تلاميذه كوسيلة للدفاع عن نفسه، أن يُبقوا قاربًا صغيرًا جاهزًا على شاطئ بحيرة طبرية لاستخدامه إن اضطرّ إلى الانسحاب من بين الحشود.

يضيف مَرْقُس: **وَٱلْأَرْوَاحُ ٱلنَّجِسَةُ حِينَمَا نَظَرَتْهُ خَرَّتْ لَهُ وَصَرَخَتْ قَائِلَةً: إِنَّكَ أَنْتَ ٱبْنُ ٱللهِ! وَأَوْصَاهُمْ كَثِيرًا أَنْ لَا يُظْهِرُوهُ.** (الآيتان ١١–١٢). ذكر مَرْقُس في وقت سابق قدرةَ يسوع بأنْ يأمر الأرواح الشرّيرة إشارة إلى سلطانه (١: ٢٧). في تلك الحادثة، قال الروح الشرّير إنّه «يسوع الناصري» و«قدّوس الله» (الآية ٢٤). هنا أيضًا، أرادَ مَرْقُس أنْ يُظهر كيف كانت تتصرّف الأرواح وما قالوه عندما طردهم يسوع. سقطوا أمامه في وضع الطاعة واعترفوا أنّه ابن الله. من المثير للاهتمام أنْ نلاحظ أنّ هذا هو أوّل اعتراف يذكره مَرْقُس عن بنوّة يسوع. وبما أنّه كان يسعى إلى

تقديم يسوع باعتباره المسيّا اليهوديّ لجمهوره من الأمم، فإنّ لهذا الاعتراف الصادر من الأرواح الشرّيرة وزنًا ثقيلًا.

كما رأينا عندما درسنا الحادثة السابقة للمسّ الشيطانيّ، كانت الشياطين تأمَل أن تحصلَ على سلطة عليه من خلال تسمية يسوع والكشف عن هُوّيته. مفهوم التسمية مُهمّ جدًّا في الكتاب المقدّس. كانت تسمية الحيوانات إحدى المهام الأولى التي أوكلها الله لآدم في الجنّة، لأنّه بتسميتها أظهر سلطان الإنسان على الحيوانات. بالطبع، في تدبير الله، لا يمكن لأيّ روح ساقطة أن يكون لها أيّ قوّة على الأقنوم الثاني من الثالوث، لذلك كان صراخ الشياطين وهي تُعلن هُوّية يسوع بلا نتيجة.

عندما سمع يسوع ما قالته الأرواح، وجّه إليها تحذيرًا شديد اللهجة ألّا تُظهره. لم يحن الوقت بعد لإعلان هُوّيته الإلهيّة، لذلك أمرهم يسوع أن يسكتوا. في هذه الحادثة، نرى لمحة مُستقبليّة للصراع الأخير بين المسيح وقوى الجحيم. في كلّ مرة يصطدم الجحيم بالسماء، فإنّ النتيجة الحتميّة هي السكوت. في كلّ مرّة يُسدّ فم الشرّ عند ظهوره أمام الله. يُخبرنا الكتاب المقدّس مرارًا وتكرارًا أنّ الناس الذين سيقفون أمام الله في الدينونة الأخيرة سيضعون أيديهم على أفواههم في محضره ويسكتون. ليس لدى أيّ خاطئ ما يقوله أمام الله القدّوس.

دعوة التلاميذ

أخيرًا، وبطريقة ما، انسحب يسوع من بين الجموع: **ثُمَّ صَعِدَ إِلَى ٱلْجَبَلِ وَدَعَا ٱلَّذِينَ أَرَادَهُمْ فَذَهَبُوا إِلَيْهِ. وَأَقَامَ ٱثْنَيْ عَشَرَ لِيَكُونُوا مَعَهُ، وَلِيُرْسِلَهُمْ لِيَكْرِزُوا، وَيَكُونَ لَهُمْ سُلْطَانٌ عَلَى شِفَاءِ ٱلْأَمْرَاضِ وَإِخْرَاجِ ٱلشَّيَاطِينِ.** (الآيات ١٣–١٥). على ما يبدو، صعد يسوع إلى جبل مع عدد قليل من أتباعه، ودعا البعض من تلاميذه بالتحديد إليه، ليس بهدف خدمتهم، ولكن

بهدف فرزهم للخدمة. كان هدفُه أن يُصبحوا تلاميذ في مدرسته كمعلّم يهوديّ، ليدرّبهم ويُرسلهم للقيام بالأمور نفسِها التي كان هو يقوم بها، أي الكرازة والشفاء.

لقد أظهر لنا مَرْقُس سابقًا الدعوة الأولى لبعض التلاميذ على الأقل. في الإصحاح الأوّل، أخبرنا عن دعوة أربعة صيّادين هم بطرس وأخيه أندراوس، ويعقوب وأخيه يوحنّا (الآيات ١٦–٢٠). في الإصحاح ٢، أخبرنا عن دعوة لاوي، أو متّى (الآية ١٤). كما رأينا عندما درسنا هذه المقاطع، كان اختيار يسوع للتلاميذ خروجًا جذريًّا عن العادة السائدة في ذلك الوقت. بالعادة، عندما يرغب شخص ما أن يدرس مع معلّم ما، فإنّه يتقدّم بطلب، تمامًا كما يتقدّم الطلّاب اليوم للدخول إلى الجامعات. لكنّ يسوع هو الذي قام باختيار الذين أرادَ أن يُعلّمهم.

حين كان يسوع على الجبل، «دَعَا ٱلَّذِينَ أَرَادَهُمْ». يُفترض أن يكونَ عدد الذين تبعوا يسوع أكثر من الرجال الخمسة الذين تمّ اختيارهم بعناية والذين ذكرهم مَرْقُس. من بين تلك المجموعة الكبيرة، دعا إليه بطرس وأندراوس ويعقوب ويوحنّا ومتّى وآخرين غيرهم. لم يدْعُهم إلى دراسة الشريعة أو العلوم أو التجارة؛ بل دعاهم إلى نفسه. دعا يسوع الأشخاص الذين أرادهم، وكانت دعوته بسلطان، لأنّ كلّ الذين دعاهم إلى ذلك المنصب قبلوا فيه، وجاءَوْا بإرادتهم للانضمام إلى تلك المجموعة من الرجال الذين سيكونون جزءًا ممّا كان هو عليه.

بمعنى آخر، إنّها نظرة مُصغّرة على ما يفعله يسوع لملكوت الله بأكمله– إنّه يدعو الذين يريدهم. الكلمة اليونانيّة التي تُرجمت إلى «كنيسة» في الكتاب المقدّس هي ekklesia. تتألّف هذه الكلمة من بادئة وجذر. البادئة هي ek أو ex، وتعني «خارج مِنْ» أو «مِنْ». جذر الكلمة هو شكل من أشكال الفعل kaleo، الذي يعني «يدعو». وهكذا، فإنّ كلمة ekklesia

تعني «أولئك الذين تمّ دعوتهم ليخرجوا». بكلام أبسط، إنّ الكنيسة غير المنظورة، الكنيسة الحقيقيّة، تتألّف من الذين دعاهم الله ليس فقط من الخارج ولكن من الداخل أيضًا بواسطة الروح القدس. عندما يدعو يسوع شخصًا ما إلى التلمذة، فإنّه يدعو ذلك الشخص إلى نفسِه، لكي ينتمي إليه ويتبعه ويتعلّم عنه ومنه.

صحيحٌ أنّ الإيمانَ الوحيد الذي يمكن أن يتبرّر به الإنسان هو إيمانه الشخصيّ. لا يمكن لأحد أن يتبرّر بإيمان زوجته أو زوجها، أو إيمان والدَيْه أو إيمان أبنائِه أو إيمان أيّ شخص آخر. في الدينونة الأخيرة، سيقف الجميع أمام الله وحدهم، وسيصدر حكم الدينونة بناءً على ما في قلب ذلك الإنسان وحده.

وفي كلّ مرّة يُخلّصُ فيها المسيح إنسانًا، يضمّه إلى مجموعة. هنالك بُعد جماعيّ لملكوت الله يجب ألّا نغضّ الطرف عنه. لقد تحدّثت مؤخّرًا مع امرأة كانت كنيستها قد دعت راعيًا جديدًا لخدمتها. لم تكن سعيدة بالراعي الجديد فتركت الكنيسة. عندما سألتها عن عبادتها، قالت لي إنّها تشاهد البرامج الدينيّة على شاشة التلفزيون صباح الأحد. المشكلة الواضحة في طريقتها هي أنّها ليست موجودة في الكنيسة صباح الأحد. ليست موجودة مع شعب الله ضمن عبادة جماعيّة وفي اجتماع رسميّ. الحياة المسيحيّة هي حياة جماعيّة، لأنّ المسيح يضمّ المفديّين إلى الكنيسة ليتعلّموا معًا وينموا معًا ويخدموا معًا ويعبدوا معًا.

مدعوّون أن يأتوا ويذهبوا

يكتب مَرْقُس أنّ يسوع «أَقَامَ ٱثْنَيْ عَشَرَ لِيَكُونُوا مَعَهُ، وَلِيُرْسِلَهُمْ لِيَكْرِزُوا، وَيَكُونَ لَهُمْ سُلْطَانٌ عَلَى شِفَاءِ ٱلْأَمْرَاضِ وَإِخْرَاجِ ٱلشَّيَاطِينِ». الكلمة اليونانيّة التي ترجَمَتها نسخة الملك جيمس الجديدة بكلمة «appointed» وبالعربيّة

«أقامَ» هي شكل من أشكال فعلٍ يمكن أن يعني أيضًا «يصنع شيئًا ما» أو «يخلق شيئًا ما»، وهذا هو معناها الأساسيّ في الكتاب المقدّس. إنّها بالضبط الكلمة المُستخدَمة في الترجمة السبعينيّة (العهد القديم اليونانيّ) في تكوين ١: ١: «فِي ٱلْبَدْءِ خَلَقَ ٱللهُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضَ». لم يُعيّن الله السماوات والأرض، ولم يقم باختيارها، بل خلقها. وبالطريقة نفسها، لم يُعيّن يسوع ببساطة اثني عشر رجلًا للقيام بمهمّة أو تشكيل كيان، بل جعلهم أشخاصًا مُختلفين. جعلهم مجموعته الحميمة. بمعنى آخر، صنع منهم كنيسة.

يُدهشني كيف أنّ يسوع لم يختر عشرة أشخاص أو ثمانية أو عشرين، بل اختار اثني عشر. وهذا بالتأكيد يذكّرنا ببُنية أسباط إسرائيل الاثني عشر في العهد القديم. العدد اثني عشر ليس رقمًا شائعًا في الأعداد العبريّة، ولكن باختياره اثني عشر تلميذًا ليصبحوا الرسل الاثني عشر، أسّس يسوع تطابقًا أو تناسقًا بين كنيسة العهد القديم وكنيسة العهد الجديد.

في تحليلنا الأوّل، اختارهم يسوع ليكونوا معه. مِن أهمّ العقائد التي نجدها في كتابات الرسول بولس هي عقيدة الاتّحاد السرّي بين المؤمن والمسيح. بحسب تعاليم العهد الجديد، في اللحظة التي نؤمن فيها بالمسيح نحن لا نؤمن بيسوع فحسب، بل نؤمن **في** يسوع. عندما قال بولس لسجّان فيلبّي: «آمِنْ بِٱلرَّبِّ يَسُوعَ ٱلْمَسِيحِ فَتَخْلُصَ» (أعمال الرسل ١٦: ٣١أ)، فإنّ الكلمة اليونانيّة المترجمة بحرف «بـ» هي eis، والتي تعني «في». ينقلنا الإيمان من خارج المسيح، من حالة الانفصال عن المسيح، إلى الاتّحاد معه. نحن نحتضنه وننتقل لنصبح في المسيح. عندما نؤمن في المسيح، نختبر «ٱلْمَسِيحُ فِيكُمْ رَجَاءُ ٱلْمَجْدِ» (كولوسي ١: ٢٧). الكلمة اليونانيّة المترجمة هنا إلى «في» هي كلمة مُختلفة تعني حرفيًّا «في الداخل». لذلك، فإنّ كلّ مسيحيّ يدعوه يسوع يدخل في يسوع في هذا الاتّحاد السرّي

العميق. نحن في المسيح والمسيح فينا. هذا هو أصل شركة القدّيسين؛ ونحن في هذا معًا. لدينا رباط روحيّ سيدوم إلى الأبد، لأنّ يسوع هو الذي دعانا لنكون معه.

في الليلة التي وقعت فيها خيانة يسوع، قال في العليّة: «لَا تَضْطَرِبْ قُلُوبُكُمْ. أَنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللهِ فَآمِنُوا بِي. فِي بَيْتِ أَبِي مَنَازِلُ كَثِيرَةٌ، وَإِلَّا فَإِنِّي كُنْتُ قَدْ قُلْتُ لَكُمْ. أَنَا أَمْضِي لِأُعِدَّ لَكُمْ مَكَانًا، وَإِنْ مَضَيْتُ وَأَعْدَدْتُ لَكُمْ مَكَانًا آتِي أَيْضًا وَآخُذُكُمْ إِلَيَّ، **حَتَّى حَيْثُ أَكُونُ أَنَا تَكُونُونَ أَنْتُمْ أَيْضًا**» (يوحنّا ١٤: ١–٣). يريدنا يسوع أنْ نكونَ معه. هل يوجد نعمة أعظم من أن نكون في محضر المسيح وأن نكون معه، وأن يكون هو معنا؟

كان ليسوع طبعًا هدف آخر للتلاميذ– أن يُرسلهم للكرازة والخدمة. في كلّ مرّة يقول لنا فيها يسوع: «تعالوا إليّ»، بمجرّد أن نأتي، «تعالوا» تُصبح «اذهبوا». عندما نأتي إليه، يعطينا مهمّة. علينا أن نذهبَ إلى العالم ونصنع تلاميذ. وبينما نقوم بهذه المَهمّة، يكون هو معنا. أخيرًا، يُسمّي مَرْقُس التلاميذ الاثني عشر الذين دعاهم يسوع: **وَجَعَلَ لِسِمْعَانَ ٱسْمَ بُطْرُسَ. وَيَعْقُوبَ بْنَ زَبْدِي وَيُوحَنَّا أَخَا يَعْقُوبَ، وَجَعَلَ لَهُمَا ٱسْمَ بُوَانَرْجِسَ أَيِ ٱبْنَيِ ٱلرَّعْدِ، وَأَنْدَرَاوُسَ، وَفِيلُبُّسَ، وَبَرْثُولَمَاوُسَ، وَمتّى، وَتُومَا، وَيَعْقُوبَ بْنَ حَلْفَى، وَتَدَّاوُسَ، وَسِمْعَانَ ٱلْقَانَوِيَّ، وَيَهُوذَا ٱلْإِسْخَرْيُوطِيَّ ٱلَّذِي أَسْلَمَهُ** (الآيات ١٦–١٩). سيبقى هؤلاء الرجال معه ثلاث سنوات وهم يتحضّرون ويتجهّزون ليكونوا رسلًا له. في وقت لاحق، سيرسلهم أيضًا، وسيقلبون العالم رأسًا على عقب (أعمال الرسل ١٧: ٦).

١٠

التجديف
على الروح القدس

مَرْقُس ٣: ٢٠-٣٥

فَٱجْتَمَعَ أَيْضًا جَمْعٌ حَتَّى لَمْ يَقْدِرُوا وَلَا عَلَى أَكْلِ خُبْزٍ. وَلَمَّا سَمِعَ أَقْرِبَاؤُهُ خَرَجُوا لِيُمْسِكُوهُ، لِأَنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّهُ مُخْتَلٌّ! وَأَمَّا ٱلْكَتَبَةُ ٱلَّذِينَ نَزَلُوا مِنْ أُورُشَلِيمَ فَقَالُوا: إِنَّ مَعَهُ بَعْلَزَبُولَ! وَإِنَّهُ بِرَئِيسِ ٱلشَّيَاطِينِ يُخْرِجُ ٱلشَّيَاطِينَ. فَدَعَاهُمْ وَقَالَ لَهُمْ بِأَمْثَالٍ: كَيْفَ يَقْدِرُ شَيْطَانٌ أَنْ يُخْرِجَ شَيْطَانًا؟ وَإِنِ ٱنْقَسَمَتْ مَمْلَكَةٌ عَلَى ذَاتِهَا لَا تَقْدِرُ تِلْكَ ٱلْمَمْلَكَةُ أَنْ تَثْبُتَ. وَإِنِ ٱنْقَسَمَ بَيْتٌ عَلَى ذَاتِهِ لَا يَقْدِرُ ذَلِكَ ٱلْبَيْتُ أَنْ يَثْبُتَ. وَإِنْ قَامَ ٱلشَّيْطَانُ عَلَى ذَاتِهِ وَٱنْقَسَمَ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَثْبُتَ، بَلْ يَكُونُ لَهُ ٱنْقِضَاءٌ. لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَدْخُلَ بَيْتَ قَوِيٍّ وَيَنْهَبَ أَمْتِعَتَهُ، إِنْ لَمْ يَرْبِطِ ٱلْقَوِيَّ أَوَّلًا، وَحِينَئِذٍ يَنْهَبُ بَيْتَهُ. اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ جَمِيعَ ٱلْخَطَايَا تُغْفَرُ لِبَنِي ٱلْبَشَرِ، وَٱلتَّجَادِيفَ ٱلَّتِي يُجَدِّفُونَهَا. وَلَكِنْ مَنْ جَدَّفَ عَلَى ٱلرُّوحِ ٱلْقُدُسِ فَلَيْسَ لَهُ مَغْفِرَةٌ إِلَى ٱلْأَبَدِ، بَلْ هُوَ مُسْتَوْجِبٌ دَيْنُونَةً أَبَدِيَّةً. لِأَنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّ مَعَهُ رُوحًا نَجِسًا. فَجَاءَتْ حِينَئِذٍ إِخْوَتُهُ وَأُمُّهُ وَوَقَفُوا خَارِجًا وَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ يَدْعُونَهُ. وَكَانَ ٱلْجَمْعُ جَالِسًا حَوْلَهُ، فَقَالُوا لَهُ: هُوَذَا أُمُّكَ وَإِخْوَتُكَ خَارِجًا يَطْلُبُونَكَ.

فَأَجَابَهُمْ قَائِلًا: مَنْ أُمِّي وَإِخْوَتِي؟ ثُمَّ نَظَرَ حَوْلَهُ إِلَى ٱلْجَالِسِينَ وَقَالَ: هَا أُمِّي وَإِخْوَتِي، لِأَنَّ مَنْ يَصْنَعُ مَشِيئَةَ ٱللهِ هُوَ أَخِي وَأُخْتِي وَأُمِّي.

يُخبرنا مَرْقُس أنّه حالما نزل يسوع من الجبل، **اجْتَمَعَ أَيْضًا جَمْعٌ حَتَّى لَمْ يَقْدِرُوا وَلَا عَلَى أَكْلِ خُبْزٍ** (الآية ٢٠). يبدو أنّ الحشد كان أكبر وأكثر حماسًا وشغفًا من ذي قبل، فقد احتشد الناس حولهم بشدّة لدرجة أنّ يسوع وتلاميذه لم يتمكّنوا حتى من تناول الطعام.

شيء ما حول نوبة الاندفاع البشريّ هذه أثار قلقًا عند بعض الأشخاص من أقرباء يسوع: **وَلَمَّا سَمِعَ أَقْرِبَاؤُهُ خَرَجُوا لِيُمْسِكُوهُ، لِأَنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّهُ مُخْتَلٌّ** (الآية ٢١). ليس واضحًا بالضبط مَن كان هؤلاء الناس. يظنّ بعض العلماء أنّهم كانوا أصدقاءً أو أشخاصًا مُقرّبين منه، لكن على الأرجح أنّهم كانوا أفرادًا من عائلته. يبدو أنّ الحادثة التي سجّلها مَرْقُس لاحقًا في هذا المقطع، عندما سعت والدة يسوع وإخوته للتحدّث معه، تؤكّد هذا الظنّ. أيًّا كانوا، قرّروا إعادة يسوع إلى المنزل بالقوّة، لأنّهم خلُصوا إلى أنّه شخص مُختلّ. يبدو أنّ هذه كانت محاولة تدخّل أُسَريّ ضدّ شخص أثار الكثير من الجدل والعداء.

يُذكّرنا هذا ببولس الرسول عندما وقف أمام الملك أغريباس وفَستوس، الحاكم الرومانيّ على اليهوديّة. بينما كان بولس يشارك اختبار تجدّده، صرخ فَستوس: «أَنْتَ تَهْذِي يَا بُولُسُ! ٱلْكُتُبُ ٱلْكَثِيرَةُ تُحَوِّلُكَ إِلَى ٱلْهَذَيَانِ!» (أعمال الرسل ٢٦: ٢٤ب). لا بدّ أنّ يسوع لم يكن أوّل من اعتبره الناس مجنونًا بسبب مواقفه، وبكلّ تأكيد لم يكن هو الأخير. ما حدث ليسوع هنا، حدث مرارًا وتكرارًا عبر تاريخ الكنيسة، وهو لا يحدث بشكل أقلّ اليوم أيضًا.

هل سبق أن وصفَك أحدهم بالمتطرّف الدينيّ؟ إن كانت إجابتُك على

هذا السؤال بالنفي، فسؤالي التالي لك هو: «لمَ لا؟» لأنّه في مرحلة ما، سوف يُتّهم أيّ شخصٍ يأخذ إيمانه على محمل الجدّ ويتحدّث نيابة عن المسيح وملكوته بتطرّف. ما يُثير انتباهي هو أنّ الأشخاص الذين يتابعون بحماس فرقهم المفضّلة ويظهرون ولاءَهم بوضوح لهم، يُطلَق عليهم لقب «المُعجبين»، وهي كلمة عادةً ما يكون لها دلالة إيجابيّة أو على الأقلّ مُحايدة. أمّا الأشخاص الذين يتبعون المسيح ويُظهرون ولاءَهم له، فيُطلقون عليهم على الأرجح لقب «متطرّفون»، وهي كلمة لها بوضوح دلالات سلبيّة. قرأت مرّة أنّ المتطرّف هو الشخص الذي بعد أنْ يفقد هدفه، يُضاعف جهوده لتحقيقه. بعبارة أخرى، المتطرّف هو شخص ليس لديه أدنى فكرة إلى أين هو ذاهب أو حتّى السبب الذي يدعوه للذهاب، لكنّه يذهب إلى هناك بكلّ ما أوتي من قوّة. ولكن، إنْ كان هذا هو التعريف الصحيح للمتطرّف، فهو بكلّ تأكيد لا ينطبق على المسيحيّ. أمّا إذا كان تعريف المتطرّف بشخص لديه غيرة للإيمان، فمن دواعي فخري أن أُدعى شخصٌ متطرّفٌ.

لماذا حدث هذا ليسوع؟ لماذا اعترض المقرّبون منه على أنشطته؟ حدث هذا لأنّه بدا وكأنّه يجذب إلى نفسه وإلى كلّ من حوله غضب القادة الدينيّين اليهود. كانوا قلقين من أنّه حين تُقرّر السلطات أن تلاحق يسوع، فسوف يلاحقون أيضًا كلّ المقرّبين منه. اعتبروه مُختلًّا لأنّه كان مستعدًّا أن يقف في وجه الفرّيسيّين والكتبة والمعلّمين اليهود. بالطبع، كان أساس موقفهم هذا ببساطة هو عدم الإيمان بمن هو يسوع.

ينتقل مَرْقُس من أحداث هذه الرواية في الآية ٢٢ ليشارك نظريّة أخرى عن يسوع وكيفيّة تجاوبه معها. ولكن قبل أن نتأمّل في ذلك، سيكون من الجيّد لو أنهينا الكلام عن موقف «أفراد عائلته»، والذي يبدو أنّ خاتمة هذا الموقف مذكورة في الآيات ٣١–٣٥. يُخبرنا مَرْقُس أوّلًا: **فَجَاءَتْ حِينَئِذٍ**

إِخْوَتُـهُ وَأُمُّـهُ وَوَقَفُوا خَارِجًا وَأَرْسَلُوا إِلَيْـهِ يَدْعُونَـهُ. وَكَانَ ٱلْجَمْـعُ جَالِسًا حَوْلَـهُ، فَقَالُوا لَـهُ: هُوَذَا أُمُّكَ وَإِخْوَتُكَ خَارِجًا يَطْلُبُونَكَ (الآيات ٣١-٣٢). وصَل إخوة يسوع وأمّه بينما كان يعلّم، ونقلوا إليه رسالة يطلبون فيها رؤيته. من المثير للاهتمام أنّ مصطلح «إخوة» هنا يُستخدم في كلّ إنجيل مَرْقُس للإشارة إلى إخوة من الوالدَيْن نفسهما، ممّا يوفّر حجّة قويّة ضدّ تعاليم الكنيسة الكاثوليكيّة بأنّ مريم ظلّت عذراء بعد ولادة يسوع (تُعلّم روما أنّ هذا المصطلح يُمكن أن يشيرَ إلى أقارب آخرين). على أيّ حال، يشيرُ الكتاب المقدّس مرّات عديدة إلى إخوة يسوع الأربعة، أو إلى إخوته غير الأشقّاء، وهنا نراهم يرافقون والدتهم للتحدّث مع يسوع.

ماذا فعل يسوع؟ **أَجَابَهُمْ قَائِلًا: مَنْ أُمِّي وَإِخْوَتِي؟ ثُمَّ نَظَرَ حَوْلَـهُ إِلَى ٱلْجَالِسِينَ وَقَالَ: هَا أُمِّي وَإِخْوَتِي، لِأَنَّ مَنْ يَصْنَعُ مَشِيئَةَ ٱللهِ هُوَ أَخِي وَأُخْتِي وَأُمِّي** (الآيات ٣٣-٣٥). تبدو هذه الكلمات وقحة بعض الشيء من الخارج، لكنّ يسوع لم يكن يُنكر من خلالها أمّه وإخوته، بل ما قاله هو تعليم عميق عن الاتّحاد بالمسيح. فقد أعلن يسوع أنّ الذين يؤمنون به ويفعلون مشيئة الله ستكون لهم معه رباط أقرب من رباط الدم الموجود بين الوالدَين والأبناء والأخوة. يجب ألّا نغفل أبدًا عن حقيقة أنّنا مُتّحدون بيسوع بأوتار سرّية قويّة لا يمكن قطعها.

مصدر قوّته

اعتبر «أقارب يسوع» أنّه مجنون، لكن كان للقادة الدينيّين نظريّة أخرى. يُخبرنا مَرْقُس: **وَأَمَّا ٱلْكَتَبَةُ ٱلَّذِينَ نَزَلُوا مِنْ أُورُشَلِيمَ فَقَالُوا: إِنَّ مَعَهُ بَعْلَزَبُولَ وَإِنَّـهُ بِرَئِيسِ ٱلشَّيَاطِينِ يُخْرِجُ ٱلشَّيَاطِينَ** (الآية ٢٢). كانت هذه أشرّ تُهمة تُوجّه إلى يسوع حتى هذه اللحظة، وربّما في كلّ حياته. لقد افترض الكتبة بشكل أساسيّ أنّ يسوع كان يتصرّف بجنون (مُتحدّين الوضع

الراهن) لأنّه كان مسكونًا بروح شرّيرة، الأمر الذي يوضّح أيضًا مصدر قوّته على طرد الشياطين.

اقترح الكتبة على وجه التحديد أنّ يسوع كان ممسوسًا ببعلزبوب. في القديم، كان يُعتبر بعلزبوب نصف إله أو أقلّ بقليل من إله، وأنّه كان سيّدًا حاكمًا على القذارة والجيف والذباب. كان يُطلق عليه اسم «سيّد المزبلة». وقد أُستوحي عنوان الرواية الكلاسيكيّة The Lord of the Flies من اسم بعلزبوب هذا. تُشير بعض المخطوطات إلى أنّ الكلمة التي استخدمها الكتبة لم تكن «بعلزبوب» بل «بعلزبول» في إشارة إلى الإله بعل، الذي كان يُعتبر سيّد العالم الشيطانيّ. في هذه الحالة، كان هذا لقبًا للشيطان نفسه. هذا التفسير مدعوم بحقيقة أنّ الكتبة قد افترضوا أيضًا أنّه «بِرَئِيسِ ٱلشَّيَاطِينِ يُخْرِجُ ٱلشَّيَاطِينَ». باختصار، كان اتّهامهم بأنّ يسوع كان مُتحالفًا مع الشيطان. لم يتمكّنوا من إنكار القوّة التي يتمتّع بها، وأنّه كان يستخدمها لصنع المعجزات وشفاء المرضى وطرد الشياطين. ومع ذلك، لم يكن من المنطقيّ بالنسبة إليهم أنّ الله سيمكّن نجّارًا غير متعلّم من القيام بمثل هذه الأشياء، خاصّة أنّه بحسب ما بدا لهم، لم يكن يهتمّ كثيرًا بتقاليدهم. وهكذا استنتجوا أنّ المسيح كان يعمل بقوّة الشيطان.

أعتقدُ أنّ الكتبة ارتكبوا خطأً لاهوتيًّا فادحًا بتعليقاتهم هذه. على عكس نظريّتهم –بحسب الاعتقاد السائد في العالم المسيحيّ الإنجيليّ اليوم– لا أعتقد أنّ الشيطانَ صنع مُعجزة بنيّة حسنة على الإطلاق. لا يتمتّع الشيطان بقوّة إلهيّة لأنّه مخلوق. إنّه أقوى منّا، لكنّه لا يستطيع أن يفعل الأشياء التي لا يقدر أن يفعلَها إلّا الله وحده. يقولُ الكتاب المقدّس إنّ أعماله هي بِآيَاتٍ وَعَجَائِبَ كَاذِبَةٍ (٢ تسالونيكي ٢: ٩)، أي أنّها كانت مُزيّفة. ومع ذلك، لم يقلِ الكتبة إنّ معجزات يسوع كانت مُزيّفة، بل كانوا موافقين على أنّها كانت حقيقيّة، لكنّهم أخطأوا حين نسبوها إلى الشيطان.

بالطبع، أظهر مَرْقُس بوضوحٍ أنّ يسوع كان ممسوحًا وموهوبًا للقيام بخدمته بقوّة ليست من الشيطان بل بقوّة الروح القدس. علاوة على ذلك، فإنّ الشهادة الكتابيّة الثابتة هي أنّ القوّة التي بها أخرجَ يسوع الأرواح الشرّيرة وشفى المُصابين بأمراض مختلفة والتي بها صنع معجزات أخرى كانت من الروح القدس. لكنّ أعداؤَه كانوا يُنكرون بشكل قاطع دور الروح القدس في عمل يسوع إذ قالوا: «إنّها ليست قوّة الله. إنّها قوّة الشيطان. هذا الرجل مُتحالف مع الشيطان».

سمع يسوع ما قاله الكتبة، فأخذ تُهمتهم هذه على محمل الجدّ، وردّ عليها بقوّة: **فَدَعَاهُمْ وَقَالَ لَهُمْ بِأَمْثَالٍ: كَيْفَ يَقْدِرُ شَيْطَانٌ أَنْ يُخْرِجَ شَيْطَانًا؟ وَإِنِ ٱنْقَسَمَتْ مَمْلَكَةٌ عَلَى ذَاتِهَا لَا تَقْدِرُ تِلْكَ ٱلْمَمْلَكَةُ أَنْ تَثْبُتَ. وَإِنِ ٱنْقَسَمَ بَيْتٌ عَلَى ذَاتِهِ لَا يَقْدِرُ ذَلِكَ ٱلْبَيْتُ أَنْ يَثْبُتَ. وَإِنْ قَامَ ٱلشَّيْطَانُ عَلَى ذَاتِهِ وَٱنْقَسَمَ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَثْبُتَ، بَلْ يَكُونُ لَهُ ٱنْقِضَاءٌ** (الآيات ٢٣-٢٦). دعا يسوع الكتبة إلى نفسه وتحدّث إليهم بأمثال. لم تكن هذه الأمثال طويلة ومُفصّلة كمثل الزارع، المثل الذي سنتأمّل فيه في الفصل التالي. بل كانت على شكل عبارات قصيرة مجازيّة. لكن مثل معظم الأمثال، كان لها قوّة تأثير كبيرة.

أظهر يسوع أوّلًا للكتبة سخافة منطق نظريّتهم حين سألهم: «كَيْفَ يَقْدِرُ شَيْطَانٌ أَنْ يُخْرِجَ شَيْطَانًا؟» من الواضح أنّ الشيطان لن يسمحَ أبدًا باستخدام قوّته لهزيمة أتباعه. علاوة على ذلك، كان من الحقائق البديهيّة المعروفة أنّ المملكة أو البيت المنقسِم على ذاته لا يمكن أن يصمد. إن انقسمت دولة أو عائلة إلى فصائل متناحرة، فإنّها بذلك تُعرّض وجودها للخطر. ببساطة، لو كان الشيطان يسمح ليسوع بطرد شياطينه، فهو بذلك يقاتل نفسَه بنفسِه- وهي خطوة أخرى غير منطقيّة وغير معهودة عند إبليس الداهية.

ثمّ أعطى يسوع مثلًا صغيرًا آخر وقال: «**لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَدْخُلَ بَيْتَ قَوِيٍّ وَيَنْهَبَ أَمْتِعَتَهُ، إِنْ لَمْ يَرْبِطِ ٱلْقَوِيَّ أَوَّلًا، وَحِينَئِذٍ يَنْهَبُ بَيْتَهُ**» (الآية ٢٧). إنْ أرادَ السارق اقتحام منزل رجل أقوى منه، فعلى السارق أنْ يفكّر في طريقة لإخضاع الرجل القويّ. عليه أن يقيّدَه ليُصبح غير فعّال. قد يوجّه مسدّسه نحوه أو يقوم بتخديره أو يطلب من مساعديه أن يُقيّدوا يدَيه. وإنْ لم يقوَ على مواجهة قوّة الرجل، فلن يتمكّن من نهب منزله. حين قال هذا، كان يسوع يلمّح إلى خدمته الشخصيّة، لأنّه كان قد اقتحم مملكة الشيطان وقيّده، فجعله عاجزًا غير قادر على منع نهب منزله. كانت قوّة يسوع على الأرواح الشرّيرة دليلًا على أنّه لم يكن يعمل بقوّة الشيطان، إنّما كان يعمل ضدّه.

الخطية التي لا تُغتفر

أنهى يسوع بهذه الكلمات دفاعَه ضدّ الاتّهام السخيف الموجّه إليه بأنّه مُتحالف مع الشيطان. لكنّه لم يتوقّف عند هذا الحدّ، بل تابع موجّهًا تحذيرًا شديد اللهجة إلى الكتبة والمستمعين الآخرين. قال لهم: «**اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ جَمِيعَ ٱلْخَطَايَا تُغْفَرُ لِبَنِي ٱلْبَشَرِ، وَٱلتَّجَادِيفَ ٱلَّتِي يُجَدِّفُونَهَا. وَلَكِنْ مَنْ جَدَّفَ عَلَى ٱلرُّوحِ ٱلْقُدُسِ فَلَيْسَ لَهُ مَغْفِرَةٌ إِلَى ٱلْأَبَدِ، بَلْ هُوَ مُسْتَوْجِبٌ دَيْنُونَةً أَبَدِيَّةً**» (الآيتان ٢٨–٢٩).

لا أستطيع أن أخبرَكم في مسيرتي التعليميّة عدد المرّات التي أتى فيها إليّ مسيحيّون مُضطربون جدًّا ليسألوا عن الخطية التي لا تُغتفر، وما إنْ كانوا قد ارتكبوها. أعتقدُ أنّ معظم المؤمنين قد سألوا أنفسهم عمّا إذا كانوا قد ارتكبوا خطيةً لا تُغتفر. لا أستغرب أنْ يتصارعَ كثيرون من الناس مع هذه المسألة، لأنّ الطبيعة الدقيقة لـ«الخطية التي لا تُغتفر» يصعب تمييزها. وقد تمّ طرح نظريّات كثيرة حولها عبر تاريخ الكنيسة. على سبيل المثال، قال

بعضهم إنّ الخطية التي لا تُغتفر هي القتل، والبعض الآخر قال إنّها الزنى بسبب العواقب الخطيرة لهاتَين الخطيتَين على قدسيّة الحياة والزواج. لكنّي أقول بكلّ ثقة إنّ الله يغفرهما، وذلك لسببَيْن. أوّلًا، نرى في الكتاب المقدّس أمثلة عن أشخاصٍ ارتكبوا هاتَين الخطيتَين وغُفِرت لهم. المثال الأوّل هو داود، الذي ارتكب خطيتَي الزنى والقتل معًا، ومع ذلك، بعد اعترافه بهما وتوبته، أعاده الله بالكامل إلى حالة النعمة. ثانيًا، والأهم من ذلك، عندما علّم يسوع عن الخطية التي لا تُغتفر، لم يذكر شيئًا عن القتل أو الزنى.

فما الذي كان يسوع يقوله إذن؟ بدأ كلامه بطريقةٍ راديكاليّة بقوله: «اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ». أحيانًا، يقول المسيحيّون الإنجيليّون الذين يريدون التعبير عن اتّفاقهم مع كلام سمعوه من واعظ أو معلّم كلمة «آمين». لقد تُرجمت كلمة آمين من الكلمة العبريّة amein، والتي تعني «حقيقة» أو «هذا حقّيقي». لذا، فإنّ الذين يقولون «آمين» يوافقون على ما سمعوه. ولكن يسوع، بدلًا من تقديم تعاليمه وانتظار أنْ يقولَ مَن يسمعه «آمين»، قال يسوع بنفسه «آمين» قبل أن يبدأ بتعليمه. الكلمة المترجَمة هنا بـ«الحقّ» هي ما يُعادل باللغة اليونانيّة كلمة amein. بعبارة أخرى، أعلن يسوع أنّه كان على وشك أنْ يقول الحقّ. كانت هذه طريقة ليقول فيها: «اسمعوا هذا الآن». كان يركّز بشكل كبير في التعليم الذي كان على وشك أن ينطقَ به.

ثمّ قال يسوع إنّ «كلّ الخطايا» يمكن أن تُغفر، بما في ذلك «كلّ التجاديف»– باستثناء التجديف على الروح القدس. إنّ رواية لوقا عن هذا التعليم أكثر تحديدًا، إذْ قال: «وَكُلُّ مَنْ قَالَ كَلِمَةً عَلَى ٱبْنِ ٱلْإِنْسَانِ يُغْفَرُ لَهُ، وَأَمَّا مَنْ جَدَّفَ عَلَى ٱلرُّوحِ ٱلْقُدُسِ فَلَا يُغْفَرُ لَهُ» (١٢: ١٠).

نحن بحاجة هنا إلى تعريف التجديف، وهذه الآية من لوقا تُعطينا دليلًا على ما هو التجديف. العبارتان «مَن قال كلمة على» و»مَن جدّف» متوازيتان. إذن، يتضمّن التجديف أن يُقال كلمة على الله أو ضدّ الله. إنّها

خطية تُرتكب بالكلام، أي بالفم أو بالكتابة. إنّه تدنيس لطبيعة الله المقدّسة. يمكن أن تشمل شتم الله أو الاستهزاء به أو إهانته. بمعنى آخر، أنّه عكس تعظيم الله وتسبيحه. حتّى استخدام اسم الله بشكل عرَضي كما يفعل كثيرون يُعتبر تجديفًا كقولهم: «آه، يا إلهي». نشكر الله لأنّ الخطية التي لا تُغتفر ليست مجرّد أيّ نوع من التجديف، لأنّه لو كان الأمر كذلك، لما كان لأيّ واحد منّا أيّ أمل في الهروب من الدينونة. كلّنا جدّفنا في مرّات وطُرق عديدة على اسم الله.

يبدو ما قاله يسوع بأنّ «كُلُّ مَنْ قَالَ كَلِمَةً عَلَى ٱبْنِ ٱلْإِنْسَانِ يُغْفَرُ لَهُ» صادمًا في ضوءِ الإساءَة وسوء المعاملة التي تعرّض لها فيما بعد، والتي بلغت ذروتها في إعدامه على صليب رومانيّ. لكن يجب أن نتذكّر كيف كانت نظرة يسوع وهو مُعلّق على الصليب إلى أولئك الذين سلّموه إلى الرومان واستهزأوا به وهو يموت حين قال: «يَا أَبَتَاهُ، ٱغْفِرْ لَهُمْ، لِأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ مَاذَا يَفْعَلُونَ» (لوقا ٢٣: ٣٤). رغم أنّ هؤلاء الرجال عارضوا المسيح لدرجة إعدامه، إلّا أنّ الأملَ في حصولهم على الغفران كان لا يزال موجودًا. وبالمثل، في سفر أعمال الرسل، قال بطرس للشعب في أورشليم إنّهم أسلموا يسوع إلى الرومان وأنكروه، لكنّه أضاف وقال: «أَنَا أَعْلَمُ أَنَّكُمْ بِجَهَالَةٍ عَمِلْتُمْ، كَمَا رُؤَسَاؤُكُمْ أَيْضًا» (أعمال الرسل ٣: ١٧)، ثمّ دعاهم إلى التوبة. لذلك، يوضّح العهد الجديد في مناسبتَيْن على الأقل أنّ الغفران مُمكن لأولئك الذين احتقروا المسيح لدرجة أنّهم قتلوه. تؤكّد هذه الروايات ما أكّده يسوع أنّ أيّ خطية ضدّ ابن الإنسان يُمكن أن تُغفر.

ولكن ماذا عن التجديف على الروح القدس؟ لكي نفهم هذا الكلام الصعب، نحتاج أن نرى أنّه جاء في سياق اتّهام معارضي يسوع له بأنّ ما فعله كان بقوّة إبليس بدلًا من قوّة الروح القدس. هم لم يفتروا على الروح القدس– ليس بعد. كانت تصريحاتهم موجّهة ضدّ يسوع. لذلك قال لهم:

«يمكنكم أن تجدّفوا عليّ وتُغفر خطيتكم، ولكن عندما تشكّكون في عمل الروح القدس، فإنّكم بذلك تقتربون بشكل خطير من ارتكاب الخطية التي لا تُغتفر. أنتم على شفير مُنزلق. أنتم تنظرون إلى هاوية الجحيم. خطوة أخرى ولن يكون لكم أيّ أمل بالنجاة». كان يحذّرهم ويطلب منهم أن يكونوا حريصين جدًّا على عدم إهانة الروح القدس أو السخرية منه.

من الناحية البشريّة، يستطيع كلّ مسيحيّ أن يرتكب الخطية التي لا تُغتفر. ولكنّي أعتقد أنّ ربّ المجد الذي خلّصنا وختمنا بالروح القدس لن يدعنا نرتكب هذه الخطية أبدًا. لا أعتقد أنّه يوجد أي مسيحيّ جدّف على الروح القدس في كلّ تاريخ الكنيسة. أمّا الذين هم غير متأكّدين من خلاصهم ويخشَوْن أنْ يكونوا قد ارتكبوا الخطية التي لا تُغتفر، فإني أقول إنّ قلقَكم هذا هو من أوضح الأدلّة أنّكم لم تقعوا في مثلِ هذا الذنب، لأنّ الذين يرتكبون هذه الخطية هم أشخاص قساة القلوب ولا يُبالون إنْ كانوا قد ارتكبوها أم لا. شكرًا لله لأنّ الخطية التي لا تُغتفر ليست خطية يسمح لشعبه بارتكابها.

١١

مثل الزارع

مَرْقُس ٤: ١-٢٠

وَٱبْتَدَأَ أَيْضًا يُعَلِّمُ عِنْدَ ٱلْبَحْرِ، فَٱجْتَمَعَ إِلَيْهِ جَمْعٌ كَثِيرٌ حَتَّى إِنَّهُ دَخَلَ ٱلسَّفِينَةَ وَجَلَسَ عَلَى ٱلْبَحْرِ، وَٱلْجَمْعُ كُلُّهُ كَانَ عِنْدَ ٱلْبَحْرِ عَلَى ٱلْأَرْضِ. فَكَانَ يُعَلِّمُهُمْ كَثِيرًا بِأَمْثَالٍ. وَقَالَ لَهُمْ فِي تَعْلِيمِهِ: ٱسْمَعُوا! هُوَذَا ٱلزَّارِعُ قَدْ خَرَجَ لِيَزْرَعَ، وَفِيمَا هُوَ يَزْرَعُ سَقَطَ بَعْضٌ عَلَى ٱلطَّرِيقِ، فَجَاءَتْ طُيُورُ ٱلسَّمَاءِ وَأَكَلَتْهُ. وَسَقَطَ آخَرُ عَلَى مَكَانٍ مُحْجِرٍ، حَيْثُ لَمْ تَكُنْ لَهُ تُرْبَةٌ كَثِيرَةٌ، فَنَبَتَ حَالًا إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُ عُمْقُ أَرْضٍ. وَلَكِنْ لَمَّا أَشْرَقَتِ ٱلشَّمْسُ ٱحْتَرَقَ، وَإِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَصْلٌ جَفَّ. وَسَقَطَ آخَرُ فِي ٱلشَّوْكِ، فَطَلَعَ ٱلشَّوْكُ وَخَنَقَهُ فَلَمْ يُعْطِ ثَمَرًا. وَسَقَطَ آخَرُ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْجَيِّدَةِ، فَأَعْطَى ثَمَرًا يَصْعَدُ وَيَنْمُو، فَأَتَى وَاحِدٌ بِثَلَاثِينَ وَآخَرُ بِسِتِّينَ وَآخَرُ بِمِئَةٍ. ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: مَنْ لَهُ أُذُنَانِ لِلسَّمْعِ، فَلْيَسْمَعْ. وَلَمَّا كَانَ وَحْدَهُ سَأَلَهُ ٱلَّذِينَ حَوْلَهُ مَعَ ٱلِٱثْنَيْ عَشَرَ عَنِ ٱلْمَثَلِ، فَقَالَ لَهُمْ: قَدْ أُعْطِيَ لَكُمْ أَنْ تَعْرِفُوا سِرَّ مَلَكُوتِ ٱللهِ. وَأَمَّا ٱلَّذِينَ هُمْ مِنْ خَارِجٍ فَبِٱلْأَمْثَالِ يَكُونُ لَهُمْ كُلُّ شَيْءٍ، لِكَيْ يُبْصِرُوا مُبْصِرِينَ وَلَا يَنْظُرُوا، وَيَسْمَعُوا سَامِعِينَ وَلَا يَفْهَمُوا، لِئَلَّا يَرْجِعُوا فَتُغْفَرَ لَهُمْ خَطَايَاهُمْ. ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: أَمَا تَعْلَمُونَ هَذَا ٱلْمَثَلَ؟ فَكَيْفَ

> تَعْرِفُونَ جَمِيعَ ٱلْأَمْثَالِ؟ اَلزَّارِعُ يَزْرَعُ ٱلْكَلِمَةَ. وَهَؤُلَاءِ هُمُ ٱلَّذِينَ عَلَى ٱلطَّرِيقِ: حَيْثُ تُزْرَعُ ٱلْكَلِمَةُ، وَحِينَمَا يَسْمَعُونَ يَأْتِي ٱلشَّيْطَانُ لِلْوَقْتِ وَيَنْزِعُ ٱلْكَلِمَةَ ٱلْمَزْرُوعَةَ فِي قُلُوبِهِمْ. وَهَؤُلَاءِ كَذَلِكَ هُمُ ٱلَّذِينَ زُرِعُوا عَلَى ٱلْأَمَاكِنِ ٱلْمُحْجِرَةِ: ٱلَّذِينَ حِينَمَا يَسْمَعُونَ ٱلْكَلِمَةَ يَقْبَلُونَهَا لِلْوَقْتِ بِفَرَحٍ، وَلَكِنْ لَيْسَ لَهُمْ أَصْلٌ فِي ذَوَاتِهِمْ، بَلْ هُمْ إِلَى حِينٍ. فَبَعْدَ ذَلِكَ إِذَا حَدَثَ ضِيقٌ أَوِ ٱضْطِهَادٌ مِنْ أَجْلِ ٱلْكَلِمَةِ، فَلِلْوَقْتِ يَعْثُرُونَ. وَهَؤُلَاءِ هُمُ ٱلَّذِينَ زُرِعُوا بَيْنَ ٱلشَّوْكِ: هَؤُلَاءِ هُمُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ٱلْكَلِمَةَ، وَهُمُومُ هَذَا ٱلْعَالَمِ وَغُرُورُ ٱلْغِنَى وَشَهَوَاتُ سَائِرِ ٱلْأَشْيَاءِ تَدْخُلُ وَتَخْنُقُ ٱلْكَلِمَةَ فَتَصِيرُ بِلَا ثَمَرٍ. وَهَؤُلَاءِ هُمُ ٱلَّذِينَ زُرِعُوا عَلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجَيِّدَةِ: ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ٱلْكَلِمَةَ وَيَقْبَلُونَهَا، وَيُثْمِرُونَ: وَاحِدٌ ثَلَاثِينَ وَآخَرُ سِتِّينَ وَآخَرُ مِئَةً.

القصّة المسجّلة في هذا المقطع موجودة في الأناجيل الثلاثة الإزائيّة كلّها (متى ١٣: ١-٢٣؛ لوقا ٨: ٤-١٥). يُطلِق عليها البعضُ مَثَلَ الزارع، وآخرون مَثَلَ البذرة، وآخرون مَثَلَ التربة. كلّ هذه التسميات مقبولة، لأنّنا نستطيع أن نعتبرَ الزارع والبذرة والتربة، نقاطًا هامّة ورئيسة في المثل.

يختلف هذا المثل عن مُعظم أمثال يسوع لأنّ أمثالَه، كقاعدة عامّة، لها معنى واحد أو نقطة محوريّة واحدة. نحن عمومًا لا نُفسّر الأمثال على أنّها رمزيّة، ونجدُ أهميّتها في كلّ جزء من القصّة. ولكن التفسير المجازيّ في هذا المثل مقبول. لماذا؟ لأنّ هذا المقطع يحتوي على تفسير يسوع الشخصيّ للمثل، وتفسيره مجازيّ بشكل أساسيّ.

ومع ذلك، على الرغم من حقيقة أنّ هذا المقطع يحتوي على تفسير يسوع، إلّا أنّ خلافًا نشبَ حول معنى المَثل حتّى بين أولئك الذين تأمّلوا في أهمّيته لسنوات عديدة.

بدأ يسوع المثلَ بكلمة قويّة جدًّا. إنّها الكلمة **akouete** في اللغة اليونانيّة. وهي **audite** في اللغة اللاتينيّة. في الحالتين، ذُكرت الكلمة في صيغة الأمر. تُرجمت إلى اللغة الإنجليزيّة بكلمة «**Listen!**»، وبالعربيّة «**ٱسْمَعُوا!**» (الآية ٣أ). اختار يسوع أن يبدأ بمناشدة قويّة اللهجة؛ كما لو أنّه يقول: «أريدكم أن تُصغوا جيّدًا لما يجب أن أقولَه».

يوجد في اللغة اليونانيّة أمرًا مثيرًا للاهتمام. فالفعل «سمع» هو **akouein**، والفعل «طاع» هو **hupakouein**، أيّ أنّه تمّ ببساطة إضافة البادئة **hup**، والتي تتُرجم إلى «مُفرط». إذن، بالنسبة إلى الكتاب المقدّس، الطاعة هي «فرط في الاستماع». يوجد استماع، ويوجد استماع مفرط. هذا ما يدعونا إليه يسوع هنا– إنّه نوع السمع الذي يتجاوز طبلة الأذن ويؤثّر في القلب، فيدفع الإنسان إلى الطاعة.

الله وكلمته

قال يسوع: «**هُوَذَا ٱلزَّارِعُ قَدْ خَرَجَ لِيَزْرَعَ**» (الآية ٣ب). رغم أنّ يسوع لم يقل ذلك صراحةً في تفسيره، إلّا أنّ الزارع هنا هو الله. لقد شرح يسوع معنى البذرة: «**اَلزَّارِعُ يَزْرَعُ ٱلْكَلِمَةَ**» (الآية ١٤). في نهاية التحليل، الله هو الذي ينشر كلمته في العالم.

قد يدفعنا هذا المثل إلى التساؤل عن كفاءَة الله كزارع، إذ يبدو أنه ينشر البذار بشكل عشوائيّ، بحيث يسقط بعضه على الطريق، والبعض الآخر على الصخور، والبعض بين الأشواك، والبعض على تُربة جيّدة. قد نميل إلى أن نتساءَل عن سبب عدم دقّة الله في نشره بذاره. فأيّ مزارع يخرج ويهدر بذاره برميها على الطريق أو على الصخور أو بين الأشواك؟ المزارعون حريصون جدًّا على الطريقة التي يستخدمون بها بذورهم. إنّهم يحرثون الأرضَ ويقلبونَها جيّدًا، ثمّ يزرعون بذورَهم بحرص شديد في التربة

التي تكون على الأقلّ مناسبة لإنتاج الثمار. لكنّ الزارع في هذا المثل يرمي بذاره بلا عناية، إذْ كان يُلقيها في الطريق وعلى الصخور وبين الأشواك. أيّ نوع من الزراعة هذه؟

إنّها ببساطة الزراعة التي كان يعرفها الإسرائيليّون في العالم القديم. في ذلك الزمان والمكان، لم يكن المزارعون يُنظّفون الأرض من الحجارة ويحرثونها قبل غرس البذور. كانت الطريقة الشائعة للزراعة آنذاك هي الخروج وبذر الحبوب ثمّ حراثة الأرض. في الواقع، إنّ مُصطلح المحراث ليس له علاقة كبيرة بالحراثة كما نعرفها اليوم. كان المحراث في إسرائيل القديمة مُجرّد عصا مُسنّنة لتكسير التربة قليلًا حتّى تدخل فيها بعض البذور.

يُخبر أحد العلماء أنّه ذهب ذات يوم إلى الجليل إلى المكان الذي قُدّم فيه هذا المثل، ورأى مكانًا كانت التربة فيه مرصوصة لأنّ الناس كانوا يسيرون عليها ذهابًا وإيابًا، وكانت الحمير تجوبها وما إلى ذلك. وكان على طول ذلك الطريق أشواك وأشجار صغيرة، وكان فيها أيضًا جزء تكثر فيه الصخور. قال هذا العالِم إنّه يوجد وراء الجزء الصخريّ من الطريق حقل خصب أخضر حيث ينمو فيه محصول جيّد. ثمّ قال بينه وبين نفسه: «لقد عشت للتوّ مثل المزارع. لقد سرتُ على الأرض نفسِها التي وصفها يسوع».

فحوى المثل، هو أنّه عندما يبذر الله بذارَه، أي كلمتَه، فإنّه يقوم بنشرها بشكل عشوائيّ. الله يرمي دُررَه بالفعل أمام الخنازير (متى ٧: ٦). إنّه يُقدّم كلمته لأشخاص ليس لديهم أيّ اهتمام بها على الإطلاق، والذين هم في الأساس مُعادون لها لدرجة أنّه يبدو كما لو أنّ كلمة الله، بذاره، قد ضاعت سُدًى.

لكن هل ضاعت سُدًى بالفعل؟ كان يُعتبر الحصاد ناجحًا في العالم

القديم إنْ كان الناتج يزيد عشرة أضعاف عن كمّيّة البذور المزروعة. ولكن عندما يبذر الله بذراه، ينتج عن الحصاد **«ثَلَاثِينَ وَآخَرُ بِسِتِّينَ وَآخَرُ بِمِئَةٍ»** (الآية ٨ب). لذلك، لا يمكننا ببساطة أن نستنتجَ أنّ الزارع يعمل بأسلوب طوعيّ، وأنّ الجودة الرديئة للتربة التي وقعت عليها بذاره هي التي أعاقت زراعته. يجب أن نتذكّر أنّ الله اختار أنْ يستخدمَ كلمتَه كوسيلة لخلاص شعبه. لقد منح هذه الكلمة القوّة بحيث تحمل معها الخلاص. لقد وعدَ الله الذي زرع أنّ كلمته لن تعود إليه فارغة (إشعياء ٥٥: ١١). إنّه صاحب السيادة، لذلك، عندما يرسل كلمتَه، فإنّها تحقّق ما صمّمه الله.

أنواع من التربة السيّئة

في هذا المثل، يتكلّم يسوع عن بذار سقطت على أربعة أنواع مُختلفة من التربة، وكانت النتيجة في كلّ واحدة منها مختلفة عن الأخرى. ثلاثة من هذه النتائج أتت سلبيّة. قال: «**سَقَطَ بَعْضٌ عَلَى ٱلطَّرِيقِ فَجَاءَتْ طُيُورُ ٱلسَّمَاءِ وَأَكَلَتْهُ. وَسَقَطَ آخَرُ عَلَى مَكَانٍ مُحْجِرٍ، حَيْثُ لَمْ تَكُنْ لَهُ تُرْبَةٌ كَثِيرَةٌ، فَنَبَتَ حَالًا إِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُ عُمْقُ أَرْضٍ. وَلَكِنْ لَمَّا أَشْرَقَتِ ٱلشَّمْسُ ٱحْتَرَقَ، وَإِذْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَصْلٌ جَفَّ. وَسَقَطَ آخَرُ فِي ٱلشَّوْكِ، فَطَلَعَ ٱلشَّوْكُ وَخَنَقَهُ فَلَمْ يُعْطِ ثَمَرًا. وَسَقَطَ آخَرُ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْجَيِّدَةِ، فَأَعْطَى ثَمَرًا يَصْعَدُ وَيَنْمُو، فَأَتَى وَاحِدٌ بِثَلَاثِينَ وَآخَرُ بِسِتِّينَ وَآخَرُ بِمِئَةٍ.** (الآيات ٤ب–٨).

عندما شرح يسوع المثل، تحدّث أوّلًا عن البذار التي سقطت على الطريق. أشارَ إلى أنّ الطيور جاءَت والتهمتها، لأنها كانت مكشوفة على التربة المرصوصة. على جميع المزارعين مواجهة الطيور عندما يزرعون البذار. عندما أنشأنا مركز لجيونير فالي ستادي (Ligonier Valley Study Center) في غرب ولاية بنسلفانيا، كانت وظيفتي تنسيقُ الحدائق. زرعت مساحة شاسعة من العشب في هذا الدور الذي عُيّنت فيه. جرفت الأرض، وأزلت

الحجارة، وقلبت التربة، ونثرت البذار، وغطّيتها بالقشّ، وسقيتها بدقّة. بالطبع، كان عليّ أنْ أتعامل مع الطيور التي جاءت لتأكل بذاري الثمينة، وظننت أنّني سأُصاب بالجنون لأنّني كنت أعرف أنّي سأخسر رقعة خضراء من كلّ واحدة من تلك البذار التي ستأخذها الطيور. قد تبدو الطيور بالنسبة إلينا شرّيرة في مثل هذا السيناريو. لا بأس بذلك، لأنّه عندما فسّر يسوع المثل الذي قدّمه، شبّه الطيور بالشيطان، الذي يَأْتِي لِلْوَقْتِ وَيَنْزِعُ ٱلْكَلِمَةَ ٱلْمَزْرُوعَةَ (الآية ١٥ب). حقًّا، يريد الشيطان دائمًا أن يتدخّل في تقدّم كلمة الله. ولكن تذكّروا أنّ كلمة الله لا ترجع إليه فارغة، وأنّ الشيطان يمكنه أن يفعلَ فقط ما يَسمحُ له الله صاحب السيادة المُطلقة أن يفعله.

ماذا عن البذار التي سقطت على أرض صخريّة؟ قال يسوع إنّ الأرض الصخريّة هي إشارة إلى أولئك الذين عندما يسمعون الكلمة «**يَقْبَلُونَهَا لِلْوَقْتِ بِفَرَحٍ، وَلَكِنْ لَيْسَ لَهُمْ أَصْلٌ فِي ذَوَاتِهِمْ، بَلْ هُمْ إِلَى حِينٍ. فَبَعْدَ ذَلِكَ إِذَا حَدَثَ ضِيقٌ أَوِ ٱضْطِهَادٌ مِنْ أَجْلِ ٱلْكَلِمَةِ، فَلِلْوَقْتِ يَعْثُرُونَ**» (الآيتان ١٦ب-١٧). إنّه وصف لاهوتيّ واضح للتوبة المزيّفة. نراه كثيرًا حين يُقدّم الواعظ دعوة للناس للتقدّم أمام المنبر فيسارعون إلى الجزء الأماميّ من الكنيسة، وهناك يوقّعون بطاقة الالتزام. أو يرفعون أيديهم أو يُصلّون «صلاة الخاطي». إنّهم مُتحمّسون وممتلئون فرحًا. لكن في اليوم التالي، يجدون أنفسهم في مواجهة الحياة كالمعتاد، بكلّ تجاربِها وصعوباتِها، ولا يستمرّون في الإيمان. جميعنا نعرف أشخاصًا مرّوا بتجاربَ مثل هذه.

في الليلة التي تجدّدتُ فيها، آمن أيضًا أحد أعزّ أصدقائي. قبل أن نخلدَ إلى النوم في تلك الليلة، جلسنا وكتبنا لصديقاتنا عن تجديدنا. ولكن عندما استيقظنا في الصباح، تبرّأ صديقي تمامًا من إيمانه الذي قَبِلَه بفرح الليلة السابقة، بينما تغيّرت حياتي أنا إلى الأبد. منذ ذلك الحين وأنا أتخيّل دائمًا أشخاصًا يستجيبون مع رسالة الإنجيل؛ فأجد نفسي أصلّي راجيًا أن

تثبت الكلمة في أولئك الذين أعلنوا إيمانهم.

فسّر يسوع أيضًا معنى التربة التي تنتشر فيها الأشواك: «**هَؤُلَاءِ هُمُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ٱلْكَلِمَةَ، وَهُمُومُ هَذَا ٱلْعَالَمِ وَغُرُورُ ٱلْغِنَى وَشَهَوَاتُ سَائِرِ ٱلْأَشْيَاءِ تَدْخُلُ وَتَخْنُقُ ٱلْكَلِمَةَ فَتَصِيرُ بِلَا ثَمَرٍ**» (الآيتان ١٨ب-١٩). نمت الأشواك وخنقت البذار التي سقطت في هذه التربة فلم ينتج أيّ محصول. مرّة أخرى، نرى هنا مثالًا عن تجديد زائف لشخص يؤمن، ولكنّه لا يقدر أن يتخلّى عن مُغريات العالم وسعيه وراء المال والشهرة وغيرها من الملذّات العابرة. ما اعترف به اختنق، وهكذا لا تتجذّر الكلمة فيه أبدًا.

التربة الجيّدة تأتي بثمر

نوع واحد فقط من أنواع التربة الأربعة يُنتج ثمارًا «**وَاحِدٌ ثَلَاثِينَ وَآخَرُ سِتِّينَ وَآخَرُ مِئَةً**» (الآية ٢٠ب). إنّها الأرض الجيّدة، «**ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ٱلْكَلِمَةَ وَيَقْبَلُونَهَا، وَيُثْمِرُونَ**» (الآية ٢٠أ).

كما قلت في مرّات كثيرة، لا يتبرّر أيّ إنسان بمجرّد الاعتراف بالإيمان. يجب أن نمتلك الإيمان الذي نعترف به إنْ أردنا أن نتبرّر. يجب أن تتأصّل بذرة كلمة الله في قلوبِنا إنْ أردنا دخولَ ملكوت الله. إنّ الاعترافَ السطحيّ بالإيمان ليسَ علامة على الفداء الحقيقيّ.

ستظهر الثمار عندما تتجذّر فينا بذرة الكلمة. واحدة من أكثر العقائد المروّعة التي انتشرت في الكنيسة الإنجيليّة اليوم هي فكرة المسيحيّ الجسديّ الذي يُوصف بأنّه شخص مفديّ حقًّا، ولكن لا ينتج عن حياته أيّ ثمار أبدًا. فعلى الرغم من أنّه مُخلّص، إلّا أنّه يبقى جسديًّا بالكامل. يجب ألّا نخلط بين هذه الفكرة وما يعلّمه العهد الجديد بأنّه يجب على الذي تجدّد بالفعل أن يحاربَ ضدّ الجسد طوال حياته. الفرق هو أنّ العهد الجديد يَعِد

بأنّ المسيحيّ سيختبر تقدّمًا في معركته؛ فهو لن يبقى جسديًّا (رومية ١٢: ١–٢؛ ٢كورنثوس ٣: ١٨). ببساطة، لا يوجد مسيحيّ جسديّ بالكامل. إنّ الكلمتَين متناقضتان.

ربّما دخلتْ هذه الفكرة مع المبشّرين الذين لا يُحبّون الاعتراف بأنّهم يتعاملون مع اعترافات إيمان مُزيّفة. فهم يلاحظون أشخاصًا يعترفون بالإيمان ثمّ لا يُظهرون أيّ دليل على التغيير في حياتهم، لذلك يقولون: «سنعتبرهم مُتجدّدين، لكنّهم مسيحيّين جسديّين». للأسف، هذا يُعطي الأشخاص الذين لم يتجدّدوا ثقة مزيّفة بأنّهم في الواقع قد تجدّدوا.

إذن، ما الذي يجعل التربة الجيّدة «جيّدة»؟ علينا أن نحذرَ هنا. يمكننا أن نقولَ: «لا بدّ أنّ يسوع قصد أنّ البذرة لا يمكن أنْ تتجذّر ما لم يكن الشخص الذي يسمع الكلمة شخصًا صالحًا. أنا مسيحيّ لأنّني آمنت بالكلمة، وسبب إيماني بالكلمة هو أنّني شخص صالح». إنْ كان هذا اعتقادُنا، فنحن لم نقبل الكلمة أبدًا. ليس هذا هو المغزى من هذا المثل.

يُعيدنا هذا السؤال إلى أحد الأسئلة الأساسيّة التي نتصارع معها في علم اللاهوت: لماذا يقبلُ شخصٌ ما كلمة الله في قلبه، بينما يرفضها شخص آخر؟ رأي الأغلبيّة هو أنّه يوجد برّ أكثر عند الشخص الذي يقبل كلمة الله. ويعتقد بعض الناس أنّهم مسيحيّون لأنّهم اتّخذوا القرار الصحيح بإرادتهم؛ لقد قبلوا المسيح، بينما قسّى أصدقاؤهم قلوبَهم ولم يستخدموا إرادتَهم لقبول الإنجيل. لذلك، فإنّ هؤلاء الناس لديهم شيء يفتخرون به إلى الأبد؛ فقد قالوا «نعم» لعرض الخلاص الذي قدّمه الإنجيل.

ومع ذلك، قال يسوع بوضوح: «إِنْ كَانَ أَحَدٌ لَا يُولَدُ مِنْ فَوْقُ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَرَى مَلَكُوتَ ٱللهِ... إِنْ كَانَ أَحَدٌ لَا يُولَدُ مِنَ ٱلْمَاءِ وَٱلرُّوحِ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَدْخُلَ مَلَكُوتَ ٱللهِ» (يوحنا ٣: ٣، ٥). وقال أيضًا لتلاميذه: «لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ

أَنْ يُقْبِلَ إِلَيَّ إِنْ لَمْ يَجْتَذِبْهُ ٱلْآبُ ٱلَّذِي أَرْسَلَنِي» (يوحنا ٦: ٤٤أ). يقول الرسول بولس أيضًا: «وَأَنْتُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَمْوَاتًا بِٱلذُّنُوبِ وَٱلْخَطَايَا... بِٱلنِّعْمَةِ مُخَلَّصُونَ، بِٱلْإِيمَانِ، وَذَلِكَ لَيْسَ مِنْكُمْ. هُوَ عَطِيَّةُ ٱللهِ» (أفسس ٢: ١، ٨).

التربة الجيّدة هي جيّدة بسبب عمل الله الروح القدس الفائق للطبيعة في روح الإنسان. الأشخاص الذين يَقْبلونَ كلمة الله هم فقط أولئك الذين غيَّرهم الروح القدس أوّلًا وجعلهم قادرين على قبول كلمة الله. باختصار، التجديد يأتي قبل الإيمان. يجب أن يُغيّر الروح القدس قلبَ الإنسان قبل أن يقول «نعم» ليسوع.

هذه هي قوّة الزارع. هو يهيّئ الأرض لاستقبال بذار كلمته. لهذا السبب نقول إنّ الخلاص من الربّ وله وحده المجد.

١٢

أمثال الملكوت

مَرْقُس ٤: ٢١-٣٤

ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: هَلْ يُؤْتَى بِسِرَاجٍ لِيُوضَعَ تَحْتَ ٱلْمِكْيَالِ أَوْ تَحْتَ ٱلسَّرِيرِ؟ أَلَيْسَ لِيُوضَعَ عَلَى ٱلْمَنَارَةِ؟ لِأَنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ خَفِيٌّ لَا يُظْهَرُ، وَلَا صَارَ مَكْتُومًا إِلَّا لِيُعْلَنَ. إِنْ كَانَ لِأَحَدٍ أُذُنَانِ لِلسَّمْعِ، فَلْيَسْمَعْ. وَقَالَ لَهُمُ: ٱنْظُرُوا مَا تَسْمَعُونَ! بِٱلْكَيْلِ ٱلَّذِي بِهِ تَكِيلُونَ يُكَالُ لَكُمْ وَيُزَادُ لَكُمْ أَيُّهَا ٱلسَّامِعُونَ. لِأَنَّ مَنْ لَهُ سَيُعْطَى، وَأَمَّا مَنْ لَيْسَ لَهُ فَٱلَّذِي عِنْدَهُ سَيُؤْخَذُ مِنْهُ. وَقَالَ: هَكَذَا مَلَكُوتُ ٱللهِ: كَأَنَّ إِنْسَانًا يُلْقِي ٱلْبِذَارَ عَلَى ٱلْأَرْضِ، وَيَنَامُ وَيَقُومُ لَيْلًا وَنَهَارًا، وَٱلْبِذَارُ يَطْلُعُ وَيَنْمُو، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ كَيْفَ، لِأَنَّ ٱلْأَرْضَ مِنْ ذَاتِهَا تَأْتِي بِثَمَرٍ. أَوَّلًا نَبَاتًا، ثُمَّ سُنْبُلًا، ثُمَّ قَمْحًا مَلْآنَ فِي ٱلسُّنْبُلِ. وَأَمَّا مَتَى أَدْرَكَ ٱلثَّمَرُ، فَلِلْوَقْتِ يُرْسِلُ ٱلْمِنْجَلَ لِأَنَّ ٱلْحَصَادَ قَدْ حَضَرَ. وَقَالَ: بِمَاذَا نُشَبِّهُ مَلَكُوتَ ٱللهِ؟ أَوْ بِأَيِّ مَثَلٍ نُمَثِّلُهُ؟ مِثْلُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ، مَتَى زُرِعَتْ فِي ٱلْأَرْضِ فَهِيَ أَصْغَرُ جَمِيعِ ٱلْبُزُورِ ٱلَّتِي عَلَى ٱلْأَرْضِ. وَلَكِنْ مَتَى زُرِعَتْ تَطْلُعُ وَتَصِيرُ أَكْبَرَ جَمِيعِ ٱلْبُقُولِ، وَتَصْنَعُ أَغْصَانًا كَبِيرَةً، حَتَّى تَسْتَطِيعَ طُيُورُ ٱلسَّمَاءِ أَنْ تَتَآوَى تَحْتَ ظِلِّهَا. وَبِأَمْثَالٍ كَثِيرَةٍ مِثْلِ هَذِهِ كَانَ يُكَلِّمُهُمْ

حَسْبَمَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَسْمَعُوا. وَبِدُونِ مَثَلٍ لَمْ يَكُنْ يُكَلِّمُهُمْ. وَأَمَّا عَلَى ٱنْفِرَادٍ فَكَانَ يُفَسِّرُ لِتَلَامِيذِهِ كُلَّ شَيْءٍ.

لا يوجد مثل واحد في هذا المقطع، بل ثلاثة. على عكس مثلِ الزارع الطويل والمفصّل في الآيات الافتتاحيّة لهذا الإصحاح من مَرقُس، فإنّ هذه الأمثال قصيرة ومُعبّرة جدًّا، وتُوصِل بوضوح فكرة جوهريّة واحدة، كما هي الحال في معظم الأمثال. كلّ مثل من هذه الأمثال الثلاثة يعلّمنا شيئًا عن ملكوت الله.

يجب أن أتكلّم عن جزء واحد من الترجمة الإنجليزيّة في المثل الأوّل من هذه الأمثال القصيرة. لا تضع ترجمة الملك جيمس الجديدة ومعظم الترجمات الإنجليزيّة الأخرى «الـ» التعريف في العدد ٢١ قبل كلمة سراج. تقتبس الآية ما قاله يسوع: **«هَلْ يُؤْتَى بِسِرَاجٍ لِيُوضَعَ تَحْتَ ٱلْمِكْيَالِ أَوْ تَحْتَ ٱلسَّرِيرِ؟»** (الآية ٢١أ). استُخدمت كلمة سراج بمعناها العامّ، على الرغم من أنّ العهد الجديد اليونانيّ يستخدم بوضوح «الـ» التعريف ويجعل من كلمة السراج موضوع الجملة. هنالك طريقة واحدة مناسبة لترجمة ما هو موجود في الأصل اليونانيّ: «هل يأتي السراج ليوضع تحت سلّة أو تحت السرير؟»

إنْ كان العهد الجديد اليونانيّ قد استخدم «الـ» التعريف بشكل واضح، فلماذا غالبًا ما تُحذف في ترجمات مَرْقُس؟ يمكنني التكهّن فقط وأقول إنّه يوجد احتمال يتعلّق بحقيقة أنّ هذا المثل عن السراج موجود في الأناجيل الثلاثة الإزائيّة، ومتّى ولوقا لا يستخدمان «الـ» التعريف. وأعتقد أنّ المترجمين إلى اللغة الإنجليزيّة لم يستخدموا «الـ» التعريف في مَرقُس لأنّها غير موجودة في متّى ولوقا.

ولكنّي أعتقدُ أنّ النصّ اليونانيّ لا يستخدم «الـ» التعريف فحسب، بل إنّ السياق يقتضي ذلك أيضًا. بدون «الـ» التعريف، نفقد أهمّيّة ما قاله يسوع هنا، فهو لم يكن يتحدّث عن أيّ سراج، بل كان يتحدث عن «الـ» سراج. ما هو هذا السراج؟ والأصحّ أن نسأل: مَنْ هو هذا السراج؟ في النصوص الكتابيّة، يتمّ الإشارة إلى الله نفسه (وخاصّة إلى شريعته) بالسراج. لكنّ يسوع يتحدّث هنا عن النور الذي أتى إلى العالم مع ملكوت الله، والسراج هو يسوع نفسه. إنّه يقول: لم آتِ إلى هنا لأكون مُختفيًا إلى الأبد، بل أتيت إلى هنا كسراج يُوضع على منارة، حتّى يشعّ النور الذي أتيت به ويُظهر نفسه بوضوح لجميع الذين يسكنون في الظلام. لم آتِ لتُغطيّني سلّة أو لأختبئ تحت سرير. لقد جئت لأشعّ وأنير».

إنّ استعارة السراج التي استخدمها يسوع هنا مأخوذة من التجربة المشتركة للبشر في ذلك الزمان، الذين كانوا يُضيئون منازلهم ليلًا بسروج الزيت. كان هذا السراج قطعة من الفخّار يشبه وعاء به حافتان مجموعتان معًا. كان الزيت يُسكب في هذا الوعاء الذي يخرج منه فتيل عائم من خلال الفُتحة الظاهرة عند التقاء الحافتين معًا. كان يُنقع هذا الفتيل في زيت السراج، بحيث يتمّ إشعاله ويبقى مُشتعلًا. كان هذا السراج الصغير يُنير الغرفة. وبطبيعة الحال، لم يكن أحد يضيء سراجًا ثمّ يضعه تحت سلّة أو تحت السرير، لأنّه لو فعل ذلك لحجب الضوء وفشل الغرض من استخدام السراج. لهذا السبب، طرح يسوع سؤالًا بلاغيًّا واضحًا: **«أَلَيْسَ لِيُوضَعَ عَلَى ٱلْمَنَارَةِ؟»** (الآية ٢١ب). من الجليّ أنّ السراج يُوضع في المكان الذي يُعطي فيه أكبر قدر من الإضاءَة.

طُلب منّي مؤخّرًا تقديم الخطاب الرئيسيّ في مؤتمر الإذاعات الدينيّة الوطنيّة، واخترت التحدّث عن موضوع «كسوف الله». أعتقدُ أنّنا نشهد كسوفًا لله في أيّامنا هذه، ليس فقط في الثقافة العلمانيّة من حولنا، ولكن داخل

الكنيسة أيضًا. في كسوف الشمس، يمرّ القمر بين الأرض والشمس، وحين يحدُث الكسوف، لا يدمّر القمرُ الشمسَ، بل يَخفيها فقط. أعتقدُ أنّ هذا ما يحدث اليوم– إذ يتمّ إخفاء الله أو حجبه بدلًا من الكشف والإعلان عنه.

بدا لي أنّ الله كان محجوبًا أثناء تلك الخدمة عندما كنتُ أتحدّث إلى المذيعين الدينيّين. كنت جالسًا في الصفّ الأماميّ أثناء خدمة العبادة لمدّة ساعتين، مُنتظرًا أنْ أبدًا بالعظة. كانت القاعة مُجهّزة على شكل مسرح، وتمّ الإعلان عن أجزاء الخدمة المختلفة كما لو أنّها عروض مسرحيّة. قبل أن أتكلّمَ مباشرة، عُزِف مقطع موسيقيّ لعشرين دقيقة، وقد تمّ تقديمه باعتباره الجزءِ التعبّدي من ذلك الاجتماع– كما لو أنّ الاستماع إلى كلمة الله ليس جزءًا من العبادة. بينما كنتُ جالسًا أنتظر الصعود إلى منصّة المسرح، بَقِيَت روحي مُنزعجة في داخلي. شعرتُ بعدم الارتياح أثناء الوعظ على خشبة المسرح لأنّ السياق كان ترفيهيًّا، لا سيّما أنّ رسالتي كانت بمثابة نداء إلى القادة الإنجيليّين لوقف كسوف شخصيّة الله. يُذهلني أنّنا سمحنا بحدوث ذلك في الوقت الذي قال فيه يسوع: «لم آتِ ليتم إخفائي، بل جئت لأكونَ نور العالم». ومع ذلك، نحن نسمح بأن يَحجبَ علمُ النفس اللهَ على المنبر أو يحجبه الخدّامُ الذين يُعبّرون عن آرائهم الشخصيّة حول القضايا الاجتماعيّة والسياسيّة الراهنة.

من واجب الكنيسة في كلّ جيل، ومن واجب كلّ راعي كنيسة وكلّ مسيحيّ أن يحملَ هذا السراج، ويُلقي السلّة جانبًا، ويضعَ النور في مكان بارز حيث يمكن للناس أن يرَوْا حقيقة الله وابنه.

ليشعّ يسوع

أضافَ يسوع: «**لِأَنَّـهُ لَيْسَ شَـيْءٌ خَفِيٌّ لَا يُظْهَرُ، وَلَا صَارَ مَكْتُومًا إِلَّا لِيُعْلَنَ**» (الآية ٢٢). نحن نعيش في عالم يُفضّل الظلامَ على النور، وفي

عالم من الأشخاص الذين يحبّون أن يعيشوا في السرّ حتّى لا تتكشفَ أعمالهم الشرّيرة. عندما ارتكب آدم وحواء الخطية الأولى، اختبآ حالًا (تكوين ٣: ٨). ونحن مثلهم، نخشى النور لئلّا يكشفنا. كأشخاصٍ فاسدين، نحاولُ في طبيعتنا أن نقيمَ حاجزًا بيننا وبين نور الإنجيل الطاهر. لكن يوحنّا كتب قائلًا: « وَٱلنُّورُ يُضِيءُ فِي ٱلظُّلْمَةِ، وَٱلظُّلْمَةُ لَمْ تُدْرِكْهُ [أو تغلبه]» (يوحنا ١: ٥). قال يسوع هنا في مَرْقُس بشكل جوهريّ: «من المستحيل إطفاء هذا النور. لن يبقى أيّ شيء سرّي الآن سرّيًا. سيتمّ الكشف عن كلّ ما هو مُخبّأ ومخفيّ». كان يسوع يتحدّث عن الظهور الكامل لطبيعته وملكوته في اليوم الأخير.

ثمّ تابع قائلًا: «**إِنْ كَانَ لِأَحَدٍ أُذُنَانِ لِلسَّمْعِ، فَلْيَسْمَعْ**» (الآية ٢٣). كان يقول: «هل تسمعون ما أقوله؟ هل انتبهتم لما قُلته لكم؟ أنا سراج الله وسوف أُظهر. هل تستوعبون تعليمي؟»

لماذا ركّز يسوع كثيرًا على الإصغاء السليم؟ شرح ذلك حين قال: «**ٱنْظُرُوا مَا تَسْمَعُونَ! بِٱلْكَيْلِ ٱلَّذِي بِهِ تَكِيلُونَ يُكَالُ لَكُمْ وَيُزَادُ لَكُمْ أَيُّهَا ٱلسَّامِعُونَ**» (الآية ٢٤). في هذه الآية تلاعب بالكلمات. الكيل الذي تكلّم عنه يسوع هو كيل كان يُستخدم للقياس. لذا يبدو الأمر كما لو أنّ يسوع كان يقول إنّ المكيال نفسه الذي نضعه على السراج سوف يوضع فوقنا. إنْ أخفينا نورَه تمامًا، فسيؤخَذ منّا أيّ ضوء كان معنا. وعلى العكس أيضًا، بالكيل نفسه الذي نُظهر فيه يسوع، سيُظهر مجدَه فينا.

نحن مدعوّون أنْ نكونَ أبناءَ النور لننشرَ نورَ المسيح في هذا العالم الذي يحتضر من حولنا. إنّه يَعِدُنا أنّه بالمقدار الذي نستمع ونهتمّ، وبالمقدار الذي نشارك فيه الآن، وبمقدار النور الذي نمتلكه في فترة غربتنا على الأرض، عندما يأتي الملكوت بملئه، سنُمنَح المزيد. يوجد هنا صدى لمثَل المواهب (متى ٢٥: ١٤–٣٠؛ لوقا ١٩: ١٢–٢٧). إنْ أَخَذْنا مواهبَنا وقُمنا

بدفنها في الأرض، فستؤخَذ منّا في النهاية. سيحدث الأمر نفسه مع النور إنْ قُمنا بتغطيته بسلّة.

قوّة الكلمة البسيطة

بالانتقال إلى مثل آخر، قال يسوع: «**هَكَذَا مَلَكُوتُ ٱللهِ: كَأَنَّ إِنْسَانًا يُلْقِي ٱلْبِذَارَ عَلَى ٱلْأَرْضِ، وَيَنَامُ وَيَقُومُ لَيْلًا وَنَهَارًا، وَٱلْبِذَارُ يَطْلُعُ وَيَنْمُو، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ كَيْفَ**» (الآيتان ٢٦–٢٧). لقد اختار يسوع هنا مرّة أخرى أن يستخدمَ استعارة الزرع والبذور، تمامًا كما فعل في مثل الزارع، الذي درسناه في الفصل السابق. لكن يسوع لم يتحدّث هنا عن أنواع التربة المختلفة التي تُزرع فيها البذور، ولكن عن أحد أكثر أبعاد الطبيعة الملفت للانتباه. نزرع البذور وننام، وفي الليل، تتساقط الأمطار على البذور. في اليوم التالي، نور الشمس يُدفئها. ثم بعد فترة، «**ٱلْأَرْضَ مِنْ ذَاتِهَا تَأْتِي بِثَمَرٍ. أَوَّلًا نَبَاتًا، ثُمَّ سُنْبُلًا، ثُمَّ قَمْحًا مَلْآنَ فِي ٱلسُّنْبُلِ**» (الآية ٢٨). قال يسوع إنّ انتشار ملكوت الله يشبه كثيرًا هذه العمليّة. يبدأ صغيرًا، ولكن بينما يكون اهتمامنا في مكان آخر، إنْ جاز التعبير، ينمو ملكوت الله. إنّها عمليّة غامضة تُشبه نموّ البذرة.

عندما كنتُ في معهد اللاهوت، غالبًا ما كنّا نقرأ ونناقش أفكارَ كبار علماء النقد العالي الذين هاجموا كلّ صفحة من صفحات الكتاب المقدّس بسخرية وتشكيك. كان أحد أساتذتي يُعرب باستمرار عن دهشته من «كبرياء هؤلاء الرجال». عندما سألته عمّا يعنيه بذلك، قال لي: «هم يعتقدون أنّهم يستطيعون مشاهدة العشب ينمو من ألفي عام». فهمت على الفور ما قصده. لا يمكننا أن نرى العشب ينمو هنا والآن؛ لا يُمكننا ملاحظة عمليّة نموّ العشب بالعين المجرّدة. وبالطريقة نفسها، فإنّ كبار علماء النقد العالي غير قادرين على تقديم ملاحظات فعليّة لدعم استنتاجاتهم حول نصوص الكتاب المقدّس.

أشعر بتعزية كبيرة حين أدرك أنّ هذه هي الطريقة التي يعمل بها ملكوت الله. أتعلّم من هذا المثل أنّ الأشياء التي أقولها والتي أفعلها، رغم أنّها تبدو غير مهمّة بالنسبة ليّ، إلّا أنّه قد يكون لها أهميّة أبديّة بينما يستخدمني الله في بناء ملكوته.

ذات مرّة، بينما كنت واقفًا عند باب الكنيسة بعد الخدمة، تقدّم شاب إليّ وبدأ يخبرني أنّه سمعني أتحدّث قبل خمسة عشر عامًا في كنيسة صغيرة في بنسلفانيا. أخبرني أنّه طرح عليّ سؤالًا بعد تلك الخدمة، واستطاع أن يكرّر حرفيًا إجابتي له بعد كلّ تلك السنوات. قال لي: «عندما عدتُ إلى المنزل، لم أستطع إخراجَ كلامِك من رأسي، وقد استخدم الله هذا التعليق الذي شاركتني به في ذلك اليوم لإقناعي بالذهاب إلى الخدمة». بينما كنت أفكّر في قصّته، تساءَلت عن الكلمات الأخرى التي قلتها لأشخاص آخرين واستفادوا منها– أو ربّما جَرَحَتْهم وتركتْ ندوبًا على أرواحهم ما زالت واضحة حتّى هذا اليوم. ليس لدينا أدنى فكرة عن مدى قوّة الكلمة البسيطة، سواء كان ذلك للخير أم للشرّ.

يترك آلاف الرعاة الخدمة كلّ عام في الولايات المتّحدة الأمريكية. يترك البعض لأسباب أخلاقيّة، لكن معظمهم يغادرون لأنّهم يشعرون بعدم تقدير رعيّتهم لهم. إنّهم يشعرون وكأنّهم يكدّون ويتعبون، وأنّهم يعظون من كلّ قلوبهم ولكن لا شيء يتغيّر. إنّهم بحاجة لسماع هذا المثل. أو هم بحاجة أن يسمعوا ما قاله بولس: «إِذًا لَيْسَ ٱلْغَارِسُ شَيْئًا وَلَا ٱلسَّاقِي، بَلِ ٱللهُ ٱلَّذِي يُنْمِي» (١ كورنثوس ٣: ٧). يستطيع الله أنْ يستخدمَ وعظهم الأمين بكلمته وهو يفعل هذا حقًّا، على الرغم من أنّ الوعّاظ أنفسَهم قد لا يرَوْن أبدًا تأثيرَ كلماتهم في الناس.

شعرت بالبركة لحصولي على بعض اللمحات حول كيفيّة استخدام الله لكلماتي. تحدّثت منذ فترة مع جوني إيركسون تادا (Joni Eareckson Tada).

في ذلك الوقت، كانت تعاني من ألم مُزمن، وكان وضعها سيّئًا جدًّا لدرجة أنّها لم تكن قادرة حتّى على الجلوس على كرسيّها المتحرّك. أدهشتْني حين قالت: « كنتُ أشاهد مقاطع الفيديو الخاصّة بك وأستمعُ إلى تسجيلاتك كلّ يوم لساعات، وأستمدّ القوّة منها». ووصلتني مؤخّرًا رسالة من رجل أخبرني كيف سمع لأوّل مرّة إحدى محاضراتي قبل عشرين عامًا، ثمّ قرأ بعض كتبي، وأراد ببساطة أن يشكرني على خدمات ليجونير. كتبَ تلك الرسالة رجل يتكلّم في الإذاعة الوطنيّة كلّ يوم، وهو أحد أعظم قادة الكنيسة اليوم. لم يكن لديّ أدنى فكرة أنّ ما قلته أو كتبته كان له أيّ تأثير عليه.

هكذا هو ملكوت الله، فنحن غالبًا لا نعرف ما يفعله الله من خلال خدمتنا. نزرع البذرة ثمّ ننام، وأثناء نومنا يُنبت الله البذرة لتنمو فيها الحياة وتنتج في النهاية حصادًا كاملًا. ثمّ يحصد الله نفسه لمجده. نحتاج ببساطة أنْ ننسى فكرة محاولة رؤية ثمار خدمتنا على الفور. لا يهمّ إنْ رأينا النتائج أم لا، فنحن مدعوّون لنأخذَ النور ليشعّ، بعد ذلك فليفعل به الله ما يشاء.

النموّ من بداية صغيرة

أكملَ يسوع سلسلة أمثاله القصيرة بأمثال أخرى مأخوذة من عالم الزراعة. قال: «**بِمَاذَا نُشَبِّهُ مَلَكُوتَ ٱللهِ؟ أَوْ بِأَيِّ مَثَلٍ نُمَثِّلُهُ؟ مِثْلُ حَبَّةِ خَرْدَلٍ، مَتَى زُرِعَتْ فِي ٱلْأَرْضِ فَهِيَ أَصْغَرُ جَمِيعِ ٱلْبُزُورِ ٱلَّتِي عَلَى ٱلْأَرْضِ. وَلَكِنْ مَتَى زُرِعَتْ تَطْلُعُ وَتَصِيرُ أَكْبَرَ جَمِيعِ ٱلْبُقُولِ، وَتَصْنَعُ أَغْصَانًا كَبِيرَةً، حَتَّى تَسْتَطِيعَ طُيُورُ ٱلسَّمَاءِ أَنْ تَتَآوَى تَحْتَ ظِلِّهَا**» (الآيات ٣٠-٣٢).

شاركت في الثمانينيّات في المجلس الدوليّ حول عصمة الكتاب المقدّس، الذي سعى إلى دعوة الكنيسة وعلماء الكنيسة للعودة إلى الدفاع الصارم عن وحي الكتاب المقدّس وعصمته من الخطأ. كان أحد معلّمي العهد الجديد في واحد من أكبر معاهد اللاهوت في أمريكا قد تخلّى عن

هذه العقيدة، وكان يعلّم طلّابه أنّه لا يستطيع أحد أن يؤمنَ بعصمة الكتاب المقدّس بسبب وجود خطأ واضح في هذا المقطع. كان يقول لطلّابه: «قال يسوع إنّ بذور الخردل هي أصغر البذور، لكن علماء النبات اكتشفوا بذورًا أصغر بكثير من بذور الخردل». لقد رفض هذا الرجل عصمة الكتاب المقدّس بناءً على هذه المسألة.

عندما سمعت عن تعاليم هذا البروفيسور، فكّرت: «ألا يوجد مكان للمبالغة أو للغلوّ في تعاليم يسوع؟» تأمّل في هذه العبارة التي قالها لوقا: «وَكَانَ كُلُّ ٱلشَّعْبِ يُبَكِّرُونَ إِلَيْهِ فِي ٱلْهَيْكَلِ لِيَسْمَعُوهُ» (٢١: ٣٨). هل هذا يعني أنّ كلّ رجل وامرأة وطفل في أورشليم، بما في ذلك المعوّقين منهم، جاءوا إلى الهيكل في ذلك اليوم؟ لا. إنّه يستخدم هنا أسلوب المبالغة، وهو أسلوب أدبيّ يُستخدَم للتوكيد. وفوق هذا، كان شائعًا في المصطلحات العبريّة أن يُشير اليهودُ إلى بذور الخردل على أنّها أصغر الحبوب لأنّها كانت صغيرة للغاية. يوجد حبوب صغيرة، وحبوب أصغر وأصغر، وكانت بذور الخردل من فئة البذور الصغيرة جدًّا. لهذا السبب، يُدهشني أن يُتّهم يسوع في هذا المقطع بأنّه أخطأ.

لا يُدرك الأشخاص الذين يَقدّمون مِثلَ هذه الحجج مغزى هذا المثل. حبّة الخردل صغيرة الحجم جدًّا، ولكن حين توضع في الأرض، سينبعث منها شجرة صغيرة لتنمو وتصبح شجرة كبيرة جدًّا بحيث يمكن للطيور أن تبني أعشاشها في أغصانها. يُشبه ملكوت الله حبّة الخردل، فالله قادر أن يستخدمَ أصغر الكلمات التي ننطق بها، وأصغر خدمة نقدّمها لينبثق ملكوته منها. إنّه لا يشير بكلامه هذا إلى عظمة حبّة الخردل، بل إلى عظمة الله الذي يعمل كلّ يوم لتحقيق خطته في كلّ الأزمنة.

الله يعمل حتّى الآن. إنّه يبني ملكوته، لكنّه لا يفعلُ ذلك بوسائل الترفيه ولا بالأضواء البرّاقة ولا بكلّ الإثارة التي نحاول إحداثها، إنّما من خلال

طاعة كلمته التي يرعاها بروحه، لكي ينمو الملكوت وينمو إلى ذلك اليوم الذي يأتي فيه ربّ الحصاد ليحصد ثماره.

١٣

تهدئة الريح والأمواج

مَرْقُس ٤: ٣٥-٤١

وَقَالَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ ٱلْيَوْمِ لَمَّا كَانَ ٱلْمَسَاءُ: لِنَجْتَزْ إِلَى ٱلْعَبْرِ. فَصَرَفُوا ٱلْجَمْعَ وَأَخَذُوهُ كَمَا كَانَ فِي ٱلسَّفِينَةِ. وَكَانَتْ مَعَهُ أَيْضًا سُفُنٌ أُخْرَى صَغِيرَةٌ. فَحَدَثَ نَوْءُ رِيحٍ عَظِيمٌ، فَكَانَتِ ٱلْأَمْوَاجُ تَضْرِبُ إِلَى ٱلسَّفِينَةِ حَتَّى صَارَتْ تَمْتَلِئُ. وَكَانَ هُوَ فِي ٱلْمُؤَخَّرِ عَلَى وِسَادَةٍ نَائِمًا. فَأَيْقَظُوهُ وَقَالُوا لَهُ: يَا مُعَلِّمُ، أَمَا يَهُمُّكَ أَنَّنَا نَهْلِكُ؟ فَقَامَ وَٱنْتَهَرَ ٱلرِّيحَ، وَقَالَ لِلْبَحْرِ: ٱسْكُتْ! اِبْكَمْ! فَسَكَنَتِ ٱلرِّيحُ وَصَارَ هُدُوءٌ عَظِيمٌ. وَقَالَ لَهُمْ: مَا بَالُكُمْ خَائِفِينَ هَكَذَا؟ كَيْفَ لَا إِيمَانَ لَكُمْ؟ فَخَافُوا خَوْفًا عَظِيمًا، وَقَالُوا بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَنْ هُوَ هَذَا؟ فَإِنَّ ٱلرِّيحَ أَيْضًا وَٱلْبَحْرَ يُطِيعَانِهِ!

عندما نقارن الروايات الوصفيّة للأناجيل الإزائيّة، كثيرًا ما نكتشف أنّ تلك الموجودة في مَرْقُس هي أكثر إيجازًا من تلك الموجودة في متّى ولوقا. يميل مَرْقُس إلى تقديم الحقائق كما هي فقط، بينما نجد روايات أطول

بأحداث مُفصّلة أكثر في متّى ولوقا. لكن في هذه الرواية بالذات، نجدُ تفاصيلَ أكثر في مَرْقُس، ممّا دفع العديد من العلماء إلى الاستنتاج بأنّ مَرْقُس أخذ هذه الرواية مباشرةً من معلّمِه بطرس، الذي كان بالطبع شاهد عيان على الأحداث المسجّلة هنا، كونه أحد هؤلاء التلاميذ المُرتعبين في القارب أثناء العاصفة في تلك الليلة.

كان يسوع جالسًا في قارب بينما كان يعلّم الجموع المُحتشدة على الشاطئ (٤: ١). علّمهم من ذلك القارب الأمثال التي درسناها في الفصلَيْن السابقَيْن. أخيرًا، «**قَالَ لَهُمْ فِي ذَلِكَ ٱلْيَوْمِ لَمَّا كَانَ ٱلْمَسَاءُ: لِنَجْتَزْ إِلَى ٱلْعَبْرِ**» (الآية ٣٥). يتّضح من سياق النصّ أنّ يسوع اقترح التالي لتلاميذه فأطاعوا أمرَه: **فَصَرَفُوا ٱلْجَمْعَ وَأَخَذُوهُ كَمَا كَانَ فِي ٱلسَّفِينَةِ. وَكَانَتْ مَعَهُ أَيْضًا سُفُنٌ أُخْرَى صَغِيرَةٌ** (الآية ٣٦). يبدو أنّ التلاميذَ كانوا جميعًا في السفينة معه، ولم يكن من داعٍ للعودة إلى الشاطئ. انطلق يسوع وتلاميذُه ببساطة إلى الشاطئ الآخر ورافقته قواربَ أخرى، على الأقلّ لوقت قليل.

اكتشفَ علماء الآثار قبل عدّة سنوات اكتشافًا مُثيرًا على شواطئ بُحيرة طبرية. وجدوا قارب صيد بحالة سليمة في واحدةٍ من العديد من الحفريّات الأثريّة هناك. عندما استخدموا طريقة الكربون ١٤ على هذا الاكتشاف لمعرفة تاريخ القارب، أشار الاختبار إلى أنّ القارب يرجع تاريخه إلى بداية القرن الأوّل الميلاديّ، وهو الزمن نفسه للرواية التي نتأمّل بها الآن. بلغ طول القارب الذي عُثر عليه سبعة وعشرين قدمًا، لذلك من الآمن الافتراض أنّه كان بحجم قارب صيد عاديّ، وكان على الأرجح بحجم القارب الذي كان عليه يسوع وتلاميذه. لذلك، لم يكن هؤلاء الرجال يعبرون بحيرة طبرية في قارب تجديف، وفي الوقت نفسه، لم يعبروا بسفينة ضخمة أيضًا.

إنْ ذهبت يومًا إلى الأراضي المقدّسة وأُتيحت لك فرصة الخروج في قارب على بحيرة طبرية، فسيحذّرك أصحاب القارب بالتأكيد من خطر

حدوث عواصف هناك بدون سابق إنذار لأسباب مناخيّة وجغرافيّة. يبلغ ارتفاع سطح بحيرة طبرية سبعمائة قدم تحت مستوى سطح البحر، ممّا يجعلها أدنى بحيرة للمياه العذبة على وجه الأرض. ولأنّها تقع في الجزء السفليّ من وادي نهر الأردن، فهي مُحاطة بتلال وجبال شديدة الانحدار. يُمكن للوديان والممرّات الجبليّة بين تلك الجبال أن تقومَ بتوجيه الرياح من الغرب قُبالة البحر الأبيض المتوسّط، أو من الشرق قبالة الصحراء. يمكن أن تُثيرَ هذه الرياحُ عواصفَ هوجاء، وقد هاجت عاصفة كهذه عندما كان يسوع وتلاميذه يعبرون البحر: **فَحَدَثَ نَوْءُ رِيحٍ عَظِيمٌ، فَكَانَتِ ٱلْأَمْوَاجُ تَضْرِبُ إِلَى ٱلسَّفِينَةِ حَتَّى صَارَتْ تَمْتَلِئُ** (الآية ٣٧).

هبّت هذه العاصفة في المساء، وكان ذلك أمرًا غير اعتياديّ. كانت بحيرة طبرية مصدرًا غنيًّا للأسماك، وكانت معظم أعمال الصيد تتمّ في الليل لأنّ الرياح كانت تسوء عادةً خلال النهار. إنّ حقيقةَ هبوب هذه العاصفة في الليل تُعطينا لمحة عن الخوف العظيم الذي اختبره الصيّادون الماهرون من بين تلاميذ يسوع في تلك الليلة.

أمّا يسوع فلم يُزعجه ذلك على الإطلاق. في الواقع، **كَانَ هُوَ فِي ٱلْمُؤَخَّرِ عَلَى وِسَادَةٍ نَائِمًا** (الآية ٣٨أ). في كلّ مرة أقرأ فيها هذه الآية، أتذكّر الدكتور جيمس مونتغمري بويس (James Montgomery Boice)، الراعي الراحل للكنيسة المشيخيّة العاشرة في فيلادلفيا. منذ سنوات عديدة، عقدنا مؤتمرًا معًا في سان فرانسيسكو وكنّا مسافرين بالطائرة شرقًا. بعد وقت قصير من إقلاع الطائرة، واجهتنا اضطرابات شديدة. أمسكتُ بمسند الذراعَيْن وبدأت أصلّي. عندما نظرت إلى جيم، شعرت بالدهشة حين لاحظت أنّه كان نصف نائم. عندما عبّرت له عن دهشتي بقدرته على النوم وسط كلّ هذه الاضطرابات، قال لي: «أليس هذا رائعًا؟ أحبّ أن أكونَ مسافرًا في الجوّ عندما يحدثُ هذا». كان هادئًا مثل يسوع وسط العاصفة.

سلسلة انتهارات

كان ردّ فعل التلاميذ أشبه بردّ فعلي. كانوا مُرتعبين من العاصفة التي هزّت قاربَهم. الأمر الإيجابيّ الذي يُحسب لهم هو أنّهم لجأوا إلى يسوع في خوفهم. وجدوه نائمًا في مؤخّرة القارب، لكنّهم فسّروا قدرته على النوم خلال عاصفة مثل هذه على أنّها عدم اهتمام ليس فقط بسلامته ولكن بسلامتهم. نرى من وصف مَرْقُس أنّ التلاميذ كانوا خائفين وغاضبين في الوقت نفسه. لم يكتفوا بإيقاظ يسوع، بل انتهروه قائلين: **«يَا مُعَلِّمُ، أَمَا يَهُمُّكَ أَنَّنَا نَهْلِكُ؟»** (الآية ٣٨ب).

كم اعتدنا أن ينتهرَ المخلوقُ الخالقَ وأن يقفَ العبد في وجه سيّده. انتهرَ التلاميذ ربّهم لأنّه أخذ قيلولة. هذه هي المرّة الوحيدة في الكتاب المقدّس التي نقرأ فيها عن يسوع نائمًا. من المؤكّد أنّه كان ينام كلّ ليلة (باستثناء تلك الليالي التي سهر فيها طوال الليل يصلّي)، لكن هذه هي المرّة الوحيدة التي يُخبرنا فيها كُتّاب الأناجيل عن ذلك بشكل خاصّ. كان يسوع يحاول أنْ يأخذَ قيلولة بعد يوم شاقّ من التعليم، أمّا تلاميذه فقاموا بانتهاره.

عندما استيقظ يسوع وسمع انتهارَ التلاميذ له، قام بتوجيه انتهارَيْن وليس واحدًا. الأوّل للريح: **فَقَامَ وَٱنْتَهَرَ ٱلرِّيحَ، وَقَالَ لِلْبَحْرِ: ٱسْكُتْ! اِبْكَمْ! فَسَكَنَتِ ٱلرِّيحُ وَصَارَ هُدُوءٌ عَظِيمٌ** (الآية ٣٩). إنّه ربّ المجد الذي خلق السماء والأرض والذي هو سيّد على الطبيعة والذي لعن شجرة التين وجعلها تذبل (١١: ١٢-١٤، ٢٠)، هو الذي أعطى أمرًا للعناصر الطبيعيّة فأطاعته حالًا. وكما أمرَ الآبُ أن يَظهرَ نورٌ عند الخلق، قال الابن للريح والبحر: «ٱسْكُتْ! اِبْكَمْ!» وما إنْ خرجَ الأمر من شفتَيْه حتى صار البحر كالزجاج. لم يُسمع أيّ صوت للهواء. كان كلّ شيء هادئًا.

هدّأ كلّ شيء إلّا التلاميذ. ظلّوا مضطربين، ليس بسبب الرياح والأمواج خارج القارب، ولكن بسبب الرجل الموجود داخل القارب. التفتَ إليهم يسوع ووجّه إليهم الانتهار الثاني: **«مَا بَالُكُمْ خَائِفِينَ هَكَذَا؟ كَيْفَ لَا إِيمَانَ لَكُمْ؟»** (الآية ٤٠). ماذا حدث بعد ذلك؟ لا يخبرنا مَرْقُس أنّ التلاميذ هدأوا، بل كتبَ: **«فَخَافُوا خَوْفًا عَظِيمًا، وَقَالُوا بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَنْ هُوَ هَذَا؟ فَإِنَّ ٱلرِّيحَ أَيْضًا وَٱلْبَحْرَ يُطِيعَانِهِ!»** (الآية ٤١).

لاحِظوا أنّ مَرْقُس يستخدم المصطلح الوصفيّ «عظيم» في هذا المقطع ثلاث مرّات. تَستخدمُ الترجمة اللاتينيّة كلمة magna، والترجمة اليونانيّة تستخدم كلمة mega. من الواضح أنّ المصطلحَيْن يُشيران إلى أشياء ضخمة.

يستخدم مَرْقُس هذا المصطلح أوّلًا لوصف العاصفة التي ضربت القارب الذي يحمل يسوع وتلاميذه (الآية ٣٧). لم تكن عاصفة عاديّة، بل كانت عاصفة ضخمة هوجاء تجاوزت شدّة العواصف المعتادة التي كانت تهبّ على بحيرة طبرية. كانت تُهدّد حياةَ التلاميذ، لأنّها أثارت أمواجًا ضربت القارب وتدافعت فوق حافّتيه، حتى دخلت فيه كمّيات كبيرة من الماء. في تلك اللحظة بالذات، توجّه التلاميذ نحو سيّدهم وأيقظوه قائلين: «أرجوك، افعل شيئًا وإلّا سنهلك».

يُخبرنا مَرْقُس أنّه عندما انتهر يسوع الريح والبحر، تحوّلت العاصفة من عاصفة عظيمة إلى هدوء عظيم (الآية ٣٩). تحوّل العنف العظيم حالًا إلى سلام عظيم.

ولكن استخدام مَرْقُس الثالث لمصطلح mega في هذا المقطع هو ما أثار اهتمامي أكثر، حين استخدمه مَرْقُس لوصف خوف التلاميذ (الآية ٤١). قال إنّهم «خافوا خوفًا عظيمًا».

لاحظ تنامي خوف التلاميذ. عندما هبّت العاصفة، خافوا. ولكن عندما هدأت العاصفة اشتدّ خوفهم. وحلّ عليهم الخوف الأكبر بعد أنْ هدأتِ العاصفة التي كانت تُهدّد حياتَهم. لا ينبغي علينا تفويتَ أهمّيّة ما حدث في حياة التلاميذ، لأنّ اشتداد خوفهم كان استجابة لعمق جديد في إدراكهم لشخص المسيح.

رأيتُ مؤخّرًا قائمة بأهمّ عشرة أنواع من أنواع الرُهاب التي تُقلق راحة الناس في الولايات المتّحدة الأمريكيّة. الرُهاب الذي أتى في المرتبة الأولى بين الناس في الولايات المتّحدة هو رهاب التحدّث أمام جمهور من الناس ويُسمّى رهاب اللسان (glossophobia). الرُهاب الثاني هو رهاب الخلاء (agoraphobia)، ويوجد أيضًا رُهاب الماء (aquaphobia)، ورُهاب المساحات الصغيرة الضيّقة (claustrophobia). نوع آخر من أنواع الرُهاب الرئيسة الأخرى هو الخوف من الغرباء والأجانب والأشخاص المختلفين؛ إنّه الخوف الذي تشعر به مجموعة عرقيّة تجاه مجموعة أخرى (xenophobia). يعاني الناس من هذا النوع من الرُهاب عندما لا يكونون على دراية بعادات وسلوكيّات الآخرين، لأنّهم غير متأكّدين كيف يستجيبون. في القصّة القصيرة لمارك توين بعنوان «الغريب الغامض»، لم يعرف الناس كيف يتفاعلون مع رجل مجهول دخل إلى مجتمعهم، فخافوا نتيجة لذلك. وبالطريقة نفسها، تستخدم هوليوود إلى حدّ كبير غرباء كالكائنات الفضائيّة القادمة من خارج كوكب الأرض لإخافتنا. كانت هذه أمثلة عن الخوف من الغرباء (xenophobia).

ما اختبره التلاميذُ في تلك الليلة على البحر كان رُهابًا شديدًا من الغرباء– الخوف من الغريب المطلق، من رجل لا يشبه أيّ رجل آخر.

الدين: عكّاز ضدّ الخوف؟

قبل سنوات، عندما كنتُ أعلّم في معهدٍ للاهوت في فيلادلفيا، علّمت مادّة تاريخ الإلحاد، وطلبت من طلّابي قراءَة مصادر أوّليّة عن هذا الموضوع. لم أكن أريدهم أنْ يقرؤوا فقط عن الإلحاد، بل أردتهم أن يقرؤوا كتب الملحدين. جعلتهم يقرؤون لفريدريك نيتشه، وجان بول سارتر، وألبير كامو، وكارل ماركس، ولودفيج فيورباخ، وجعلتهم يقرؤون كتابَ سيغموند فرويد بعنوان .The Future of an Illusion and Civilization and Its Discontents كان هؤلاء من ألمعِ الملحدين الذين عاشوا في القرنَيْن الماضيَيْن. بعد أن قرأ طلّابي أعمال هؤلاء الرجال، قُمنا بمناقشة حُججهم ضدّ وجودِ الله.

يسير في فكر هؤلاء الرجال فكرة مشتركة، وخاصّة بين الملحدين الذين عاشوا في القرن التاسع عشر. خلال عصر التنوير، قال العديد من المفكّرين البارزين: «لا نحتاج بعد الآن إلى فكرة وجود الله لمعرفة بداية الكون أو أصل البشر، لأنّنا نعلم الآن أنّ الكون جاءَ عبر أجيال من الصدفة». كان السؤال الذي تُرك لأتباع عصر التنوير أن يجيبوا عنه هو: بما أنّ الله غير موجود، فلماذا نجد في كلّ مكان نذهب إليه على هذا الكوكب أناسًا مُتديّنين؟ لا أحد يستطيع أن يُنكرَ أنّ البشرَ يبدون متديّنين. إنْ لم يكن الله موجودًا، فلماذا هذا التديّن؟ لماذا يوجد أديان كثيرة؟ يُقدّم الفلاسفة والمُلحدون الإجابة نفسها مرارًا وتكرارًا: لقد تمّ اختراع الدين كعكّاز. جميعهم يتّفقون على أنّ الدين ليس أكثر من فكرة نفسيّة تساعدنا على التعامل مع الأشياء المُخيفة التي تحيط بنا.

كان لدى فرويد نظريّة مثيرة للاهتمام حول هذا الموضوع. قال إنّ البشر ضعفاء، فنحن دائمًا في خطر أنْ تنتهي حياتنا. يمكننا أن نموتَ نتيجةً لأمراض قاتلة. ويمكن للحيوانات البريّة أنْ تقتلَنا. يمكن أنْ نُقتل في الأعاصير أو الزلازل أو الحرائق أو غيرها من الكوارث الطبيعيّة. لذلك،

قال فرويد، إنّ الطبيعة مُعادية لنا وتهدّد وجودنا. نحن نفهم ذلك بوضوح. نرى صورةً واضحة لذلك في رواية مَرْقُس عن العاصفة العظيمة التي هبّت على بحيرة طبرية. خاف التلاميذ عندما شعروا بتهديد قوّة الطبيعة والرياح العظيمة والاضطرابات الشديدة في البحر، وتلاطُم الأمواج على قاربهم. كانوا يعرفون تمامًا أنّ العاصفة تهدّد حياتهم.

لاحظَ فرويد أيضًا أنّ الإنسان تعلّم كيف يتعامل إلى حدّ ما مع الأشخاص المُعادين له. إنْ كان شخص ما غاضبًا منّي وعبّر عن ذلك بثورة من الغضب وأردتُ تهدئته، يمكنني القيام ببعض الأشياء. يمكنني أنْ أتوسّل منه الرحمة أو أن أعتذرَ له، فربّما هذا سيُبعد غضبَه عنّي. أو يمكنني أنْ أقدّم له هديّة، على أملِ أنْ يهدأ غضبه. قال فرويد إنّ هذه التقنيّات التي تعمل أحيانًا على تهدئة الغضب البشريّ، قد تبنّتها الأديان كتقنيّات على أمل القضاء على حقد الكيانات غير البشريّة. نقوم بتشخيص قوى الطبيعة غير الشخصيّة ثمّ نقدّسها. بعبارة أخرى، نحن نبتكر آلهةً شخصيّة تعيش في الأعاصير والزلازل والبحر وما إلى ذلك. لدينا آلهة البحر وآلهة الرياح وكلّ الآلهة الأخرى. يمكننا التحدّث معها ورفع الصلوات وتقديم الذبائح لها. يعتقد فرويد أنّ هذه هي الطريقة التي نشأ بها الدين. قال إنّ التوحيد، أي الإيمان بإله واحد، كان ببساطة مقاربةً اقتصاديّة– لأنّ وجود إله واحد يسمح للإنسان بالصلاة لإله واحد لمواجهة أيّ تهديد.

أعتقد أنّه صحيح أنّ الناس يميلون عبر التاريخ إلى تقديس الأشياء غير المقدّسة وإضفاء الطابع الشخصيّ على الأشياء التي ليس لها شخصيّة. ولكنّي أعتقد أنّ نظريّة فرويد تنهار تمامًا عندما تحاول تفسير المسيحيّة. لماذا؟ لأنّه في كلّ أفكار البشر الإبداعيّة، إنّ الأمر الوحيد الذي لم يفعلوه هو ابتكار إلهٍ أكثر رُعبًا من القوّة التي يريدون إخضاعها. فالبشر لا يريدون إلهًا شخصيًّا قدّوسًا، لأنّه لا يوجد شيء يهدّد البشر الخطاة أكثر من وجود

إله قدّوس. وهكذا، لا يُمكن أن يكون أحد قد اخترع إله المسيحيّة.

لمحات عن القدّوس

يسجّل لوقا حادثة أخرى حدثت عند بحيرة طبرية:

> وَإِذْ كَانَ ٱلْجَمْعُ يَزْدَحِمُ عَلَيْهِ لِيَسْمَعَ كَلِمَةَ ٱللهِ، كَانَ وَاقِفًا عِنْدَ بُحَيْرَةِ جَنِّيسَارَتَ. فَرَأَى سَفِينَتَيْنِ وَاقِفَتَيْنِ عِنْدَ ٱلْبُحَيْرَةِ، وَٱلصَّيَّادُونَ قَدْ خَرَجُوا مِنْهُمَا وَغَسَلُوا ٱلشِّبَاكَ. فَدَخَلَ إِحْدَى ٱلسَّفِينَتَيْنِ ٱلَّتِي كَانَتْ لِسِمْعَانَ، وَسَأَلَهُ أَنْ يُبْعِدَ قَلِيلًا عَنِ ٱلْبَرِّ. ثُمَّ جَلَسَ وَصَارَ يُعَلِّمُ ٱلْجُمُوعَ مِنَ ٱلسَّفِينَةِ. وَلَمَّا فَرَغَ مِنَ ٱلْكَلَامِ قَالَ لِسِمْعَانَ: ٱبْعُدْ إِلَى ٱلْعُمْقِ وَأَلْقُوا شِبَاكَكُمْ لِلصَّيْدِ. فَأَجَابَ سِمْعَانُ وَقَالَ لَهُ: يَا مُعَلِّمُ، قَدْ تَعِبْنَا ٱللَّيْلَ كُلَّهُ وَلَمْ نَأْخُذْ شَيْئًا. وَلَكِنْ عَلَى كَلِمَتِكَ أُلْقِي ٱلشَّبَكَةَ. وَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ أَمْسَكُوا سَمَكًا كَثِيرًا جِدًّا، فَصَارَتْ شَبَكَتُهُمْ تَتَخَرَّقُ. فَأَشَارُوا إِلَى شُرَكَائِهِمُ ٱلَّذِينَ فِي ٱلسَّفِينَةِ ٱلْأُخْرَى أَنْ يَأْتُوا وَيُسَاعِدُوهُمْ. فَأَتَوْا وَمَلَأُوا ٱلسَّفِينَتَيْنِ حَتَّى أَخَذَتَا فِي ٱلْغَرَقِ. فَلَمَّا رَأَى سِمْعَانُ بُطْرُسُ ذَلِكَ خَرَّ عِنْدَ رُكْبَتَيْ يَسُوعَ قَائِلًا: ٱخْرُجْ مِنْ سَفِينَتِي يَا رَبُّ، لِأَنِّي رَجُلٌ خَاطِئٌ! إِذِ ٱعْتَرَتْهُ وَجمِيعَ ٱلَّذِينَ مَعَهُ دَهْشَةٌ عَلَى صَيْدِ ٱلسَّمَكِ ٱلَّذِي أَخَذُوهُ. (لوقا ٥: ١–٩)

كان ردّ فعل بطرس على هذا الصيد الوافر للأسماك مثيرًا جدًّا للاهتمام. كان بطرس رجل أعمال وتاجر. ربّما قال: «يا يسوع، سأعطيك خمسين بالمائة من ربحي. لستَ مُضطرًّا للخروج معنا على القارب كلّ ليلة، وليس عليك العمل على الأرصفة ولا في إصلاح الشباك. كلّ ما عليك القيام به هو أن تأتي إلى هنا مرّة واحدة في الشهر، وأنْ تقوم بالخدعة التي قمت بها للتوّ لتملأ شباكي». لكن هذا ليس ما فعله بطرس، بل حين رأى الشباك ممتلئة حتّى الفيض، التفتَ إلى يسوع وقال له: «ٱخْرُجْ مِنْ سَفِينَتِي يَا رَبُّ،

لِأَنِّي رَجُلٌ خَاطِئٌ». كان ردّ فعله بشكل أساسيّ هو نفسه عندما شهد هو والتلاميذ الآخرون تهدئة يسوع للبحر – اعتراه خوف شديد. لقد رأى شيئًا لا يستطيع أنْ يجدَ له تفسيرًا من الناحية البشريّة. كان يعلَم أنّه كان في حضرة الإله. ربّما طرح السؤال نفسه الذي طرحه التلاميذ: «مَنْ هُوَ هَذَا؟»

نلتقي بأنواع مُختلفة من البشر، وعندما نلتقي بهم، نفرزهم بدون وعي. نفعل هذا في كلّ مرّة نسير في الشارع، فنقوم حالًا بتصنيف كلّ شخص نراه. هل هذا الشخص يبتسم؟ يبدو أنّه لا يُشكّل خطرًا. هل في عينَي ذلك الشخص نظرة غضب؟ فلنعطه مِساحة إضافيّة صغيرة لأنّنا نعرف كيف يمكن أنْ يكون الغضب الجامح عند البشر. نحن نقسم جميع الناس إلى فئات: آمن وخطير ولطيف وشرّير وفئات أخرى. لكن لا يُمكننا أن نضع شخصًا يمكنه التحدّث إلى الأمواج فتطيعه في أيّ فئة، لأنّ شخصًا مثل هذا هو في فئة خاصّة بحدّ ذاته. هذا الشخص غريب جدًّا، إنّه مُختلف جدًّا، بحيث لا يُمكننا تصنيفه بفئة.

باختصار، ما اختبره التلاميذ في بحيرة طبرية تلك الليلة هو قداسة المسيح. لقد أُعجِبوا بقوّته عندما كانوا في مأزق، لذلك سارعوا إلى إيقاظه عندما بدا لهم أنّ القارب يتعرّض للخطر. ولكن عندما أظهرَ لهم قوّته، قالوا: «هذه ليست قوّة عاديّة. إنّها قوّة مُقدّسة. هذا الرجل يختلف عن أيّ شخص آخر على وجه الأرض». وحين وجدوا أنفسهم في حضرة قدّوس إسرائيل، سيطر عليهم الخوف.

لم يفهم فرويد أبدًا أنّ أكثر ما يخشاه جميع الناس في العالم –وأكثر ما يخشاه فرويد نفسه– هو قداسة الله. لهذا السبب يهرب الناس من الله ويسوع المسيح. بمجرّد أن يُظهر الله جلاله الفائق، يشعر الناس برعب شديد.

إنْ قرعَ المسيح في جلالته بابَك هذا الصباح، فلن تقول له: «مرحبًا

يا صديقي، اُدخل». بل ستسقط على وجهك أمامه. عندما يظهر المسيح المُقام في مجده وإعلان قداسته، تسقط جميع المخلوقات عند قدمَيْه لأنّه شخص مُختلف. إنّه قدّوس. هذا يعني أنّ الناس لا يرتجفون من صوته فحسب، بل إنّ البحار التي ليس لها آذان تطيع أمرَه، والرياح التي لا تتمتّع بأيّ معرفة، تعرف ما يكفي لتتوقّف عن الهيجان عندما يقول لها: «اهدأي». هذا هو ربّنا.

١٤

تهدئة
عجيج الجحيم

مَرْقُس ٥: ١-٢٠

وَجَاءُوا إِلَى عَبْرِ ٱلْبَحْرِ إِلَى كُورَةِ ٱلْجَدَرِيِّينَ. وَلَمَّا خَرَجَ مِنَ ٱلسَّفِينَةِ لِلْوَقْتِ ٱسْتَقْبَلَهُ مِنَ ٱلْقُبُورِ إِنْسَانٌ بِهِ رُوحٌ نَجِسٌ، كَانَ مَسْكَنُهُ فِي ٱلْقُبُورِ، وَلَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ أَنْ يَرْبِطَهُ وَلَا بِسَلَاسِلَ، لِأَنَّهُ قَدْ رُبِطَ كَثِيرًا بِقُيُودٍ وَسَلَاسِلَ فَقَطَّعَ ٱلسَّلَاسِلَ وَكَسَّرَ ٱلْقُيُودَ، فَلَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ أَنْ يُذَلِّلَهُ. وَكَانَ دَائِمًا لَيْلًا وَنَهَارًا فِي ٱلْجِبَالِ وَفِي ٱلْقُبُورِ، يَصِيحُ وَيُجَرِّحُ نَفْسَهُ بِٱلْحِجَارَةِ. فَلَمَّا رَأَى يَسُوعَ مِنْ بَعِيدٍ رَكَضَ وَسَجَدَ لَهُ، وَصَرَخَ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ وَقَالَ: مَا لِي وَلَكَ يَا يَسُوعُ ٱبْنَ ٱللهِ ٱلْعَلِيِّ؟ أَسْتَحْلِفُكَ بِٱللهِ أَنْ لَا تُعَذِّبَنِي! لِأَنَّهُ قَالَ لَهُ: ٱخْرُجْ مِنَ ٱلْإِنْسَانِ يَا أَيُّهَا ٱلرُّوحُ ٱلنَّجِسُ. وَسَأَلَهُ: مَا ٱسْمُكَ؟ فَأَجَابَ قَائِلًا: ٱسْمِي لَجِئُونُ، لِأَنَّنَا كَثِيرُونَ. وَطَلَبَ إِلَيْهِ كَثِيرًا أَنْ لَا يُرْسِلَهُمْ إِلَى خَارِجِ ٱلْكُورَةِ. وَكَانَ هُنَاكَ عِنْدَ ٱلْجِبَالِ قَطِيعٌ كَبِيرٌ مِنَ ٱلْخَنَازِيرِ يَرْعَى، فَطَلَبَ إِلَيْهِ كُلُّ ٱلشَّيَاطِينِ قَائِلِينَ: أَرْسِلْنَا إِلَى ٱلْخَنَازِيرِ لِنَدْخُلَ فِيهَا. فَأَذِنَ لَهُمْ يَسُوعُ لِلْوَقْتِ. فَخَرَجَتِ ٱلْأَرْوَاحُ ٱلنَّجِسَةُ وَدَخَلَتْ فِي ٱلْخَنَازِيرِ، فَٱنْدَفَعَ ٱلْقَطِيعُ مِنْ عَلَى ٱلْجُرْفِ إِلَى ٱلْبَحْرِ. وَكَانَ نَحْوَ أَلْفَيْنِ، فَٱخْتَنَقَ

فِي ٱلْبَحْرِ. وَأَمَّا رُعَاةُ ٱلْخَنَازِيرِ فَهَرَبُوا وَأَخْبَرُوا فِي ٱلْمَدِينَةِ وَفِي ٱلضِّيَاعِ. فَخَرَجُوا لِيَرَوْا مَا جَرَى. وَجَاءُوا إِلَى يَسُوعَ فَنَظَرُوا ٱلْمَجْنُونَ ٱلَّذِي كَانَ فِيهِ ٱللَّجِئُونُ جَالِسًا وَلَابِسًا وَعَاقِلًا، فَخَافُوا. فَحَدَّثَهُمُ ٱلَّذِينَ رَأَوْا كَيْفَ جَرَى لِلْمَجْنُونِ وَعَنِ ٱلْخَنَازِيرِ. فَٱبْتَدَأُوا يَطْلُبُونَ إِلَيْهِ أَنْ يَمْضِيَ مِنْ تُخُومِهِمْ. وَلَمَّا دَخَلَ ٱلسَّفِينَةَ طَلَبَ إِلَيْهِ ٱلَّذِي كَانَ مَجْنُونًا أَنْ يَكُونَ مَعَهُ، فَلَمْ يَدَعْهُ يَسُوعُ، بَلْ قَالَ لَهُ: ٱذْهَبْ إِلَى بَيْتِكَ وَإِلَى أَهْلِكَ، وَأَخْبِرْهُمْ كَمْ صَنَعَ ٱلرَّبُّ بِكَ وَرَحِمَكَ. فَمَضَى وَٱبْتَدَأَ يُنَادِي فِي ٱلْعَشْرِ ٱلْمُدُنِ كَمْ صَنَعَ بِهِ يَسُوعُ. فَتَعَجَّبَ ٱلْجَمِيعُ.

يحتوي الإصحاح الخامس من مَرْقُس على قصّة شفاء يسوع لرجل مسكون بالشياطين؛ وشفاء امرأة كانت تُعاني من نزيفٍ لمدّة اثنتي عشرة سنة؛ وإقامة ابنة يايرس من بين الأموات. دفعت هذه الروايات الثلاث بعض المفسّرين إلى الإشارة إلى هذا الجزء من إنجيل مَرْقُس على أنّه «إصحاح القدّيس يهوذا» في العهد الجديد. في الكنيسة الكاثوليكيّة، يُعتبر القدّيس يهوذا شفيع القضايا اليائسة. لهذا السبب، عندما قرّر داني توماس تأسيس مستشفى في ممفيس مُخصّص لمعالجة أمراض الأطفال غير القابلة للشفاء، أطلق عليها اسم القديس يهوذا. ومع ذلك، كما سنرى، إنّ القضايا التي يُفترض أن تكون قضايا ميؤوسًا منها في مَرْقُس الإصحاح الخامس، لم تبقَ كذلك بعد أن دخلَ يسوع إلى المشهد.

أودّ أن أتأمّلَ في هذا الإصحاح فيما رواه مَرْقُس عن الرجل الذي كانت تسكنه فرقة كاملة من الشياطين. عندما أقرأ هذه الرواية في إنجيل مَرْقُس والروايات الموازية لها في متّى ولوقا، لا يسعني إلّا أنْ أطرحَ هذا السؤال: لماذا اختار الروح القدس أن يُلهم كُتّاب الأناجيل بهذا الحدث؟ بكلمات أخرى، ما هي القيمة التي يُضيفها هذا النصّ بالنسبة إلينا؟

أنا متأكّد من أنّك سمعت عظات كثيرة حول هذا النصّ، وربّما كان معظمها يدور حول الفوائد النفسيّة التي ينالها المسيحيّون الذين آمنوا بيسوع، عندما يأتي المسيح ويحرّرنا من القوى العنيفة التي تُعذّب أرواحنا في داخلنا. مرّة أخرى، لا أعرف لماذا أوحى الروح القدس بكتابة هذه الحادثة في حياة يسوع، لكنّني مُقتنع بأنّ الغرض منها ليس منحنا الراحة النفسيّة، فالأمر لا يتعلّق بنا.

أعتقد أنّ هذا النصّ الذي يتبع مباشرة قصّة تهدئة المسيح للعاصفة في بحيرة طبرية، يهدف إلى الكشف لنا عن شخصيّة يسوع. يكتب يوحنّا: «وَأَمَّا هَذِهِ [الروايات] فَقَدْ كُتِبَتْ لِتُؤْمِنُوا أَنَّ يَسُوعَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللهِ، وَلِكَيْ تَكُونَ لَكُمْ إِذَا آمَنْتُمْ حَيَاةٌ بِٱسْمِهِ» (يوحنّا ٢٠: ٣١)، وهذا ينطبق على كلّ كلمة في روايات الإنجيل. لذلك، يجب أن تزيد دراستنا لهذا المقطع من فهمنا لألوهيّة المسيح وعظمته وقوّته.

أشارَ أحد المفسّرين الذين قرأتُ تفسيرًا له لهذا المقطع، إلى أنّ الفكرة المشتركة بين تهدئة المسيح للعاصفة على بحيرة طبرية وشفائه لهذا الرجل الذي تسكنه الشياطين، هي قوّة المسيح على الفوضى أو التشويش. لقد هدّدت الرياح وأمواج البحر بالقضاء على يسوع وتلاميذه، وهدّدت الشياطين القادمة من الجحيم بالقضاء على هذا الرجل الذي كانت تسكن جسده. كلاهما مثلان عن الفوضى التي تغلّب عليها المسيح.

إنّ هذه الصورة للمسيح باعتباره الشخص الذي يُخلّص من الفوضى هي صورة مناسبة له، لأنّ الكتاب المقدّس يوضح أنّه كان العامل الفاعل للخليقة الذي أخرج نظامًا من الفوضى. نقرأ في سفر التكوين: «وَكَانَتِ ٱلْأَرْضُ خَرِبَةً وَخَالِيَةً، وَعَلَى وَجْهِ ٱلْغَمْرِ ظُلْمَةٌ» (١: ٢أ). في مقابل صورة الفوضى هذه، نقرأ في سفر التكوين أيضًا: «وَقَالَ ٱللهُ: لِيَكُنْ نُورٌ، فَكَانَ نُورٌ» (١: ٣). انتصر الخالق كلّي المعرفة على الفوضى في بداية عمل

الخلق. وعندما نأتي إلى العهد الجديد، نجد أنّ المسيح كان مُنخرطًا بشكل وثيق في عمل الخلق هذا. كتب يوحنّا: «فِي ٱلْبَدْءِ كَانَ ٱلْكَلِمَةُ، وَٱلْكَلِمَةُ كَانَ عِنْدَ ٱللهِ، وَكَانَ ٱلْكَلِمَةُ ٱللهَ. هَذَا كَانَ فِي ٱلْبَدْءِ عِنْدَ ٱللهِ. كُلُّ شَيْءٍ بِهِ كَانَ، وَبِغَيْرِهِ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِمَّا كَانَ» (١: ١–٣). وبالمثل، يقول بولس: «لِأَنَّ مِنْهُ وَبِهِ وَلَهُ كُلَّ ٱلْأَشْيَاءِ» (رومية ١١: ٣٦ أ). لذلك، يعطينا الكتاب المقدّس صورةً عن المسيح الكونيّ، الذي كان، مع الآب والروح القدس، مسؤولًا عن خلق الكون، والذي يمتلك القوّة لتهدئة الفوضى أينما قابلها.

في كتابه بعنوان Cosmos، صرّح الدكتور كارل ساجان، عالم الفيزياء الفلكيّة الراحل من جامعة كورنيل، بأنّه بينما يسعى العِلْمُ إلى إدراك الكون، ينطلق في ذلك بفرضيّة أنّ العالم هو الكون وليس الفوضى. كان يقول إنّه لو كان الكون الخارجيّ فوضويًّا بالمُطلق، فمن المستحيل معرفة أيّ شيء عنه، لأنّ الفوضى المُطلقة غير منطقيّة وبالتالي غير عقلانيّة. لذا، فإن الافتراض الميتافيزيقي لجميع الأبحاث العلميّة هو أنّ الكون قابل للمعرفة والفهم بالفطرة، ولكي يكون مفهومًا وعقلانيًّا، يجب أن يكون مُنظّمًا أو مُرتّبًا. يجب أن يكون كونًا وليس فوضى.

هذا هو سبب دهشتي واستمتاعي إلى حدّ ما بالجدل العصريّ حول التصميم الذكيّ باعتباره فكرة لا علاقة لها بالعلم. أدركَ العلماء بدون الرجوع إلى التفسير الدينيّ أنّ التصميم هو شرط أساسيّ أو مُسبق للعلم، لذا، فإنّ «التصميم غير الذكيّ» هو سفسطة. إنّه كافتراض وجود ترتيب من خلال حادث. لو كان حادثًا فهو غير مُنظّم، لا بل فوضويّ.

إذن، في المقطع السابق والمقطع الحالي، نرى المسيح يُظهر سلطانه على الفوضى– أوّلًا فوضى الطبيعة، ثمّ فوضى الجحيم.

رجلٌ عظيمُ النجاسة

كما رأينا في الفصل السابق، انطلق يسوع وتلاميذه بالقارب للذهاب إلى الجانب الآخر من بحيرة طبرية، لكنّ عاصفة عنيفة أعاقت رحلتهم. ولكن يسوع أمر الريح والأمواج أن تهدأ، فتبع ذلك هدوء عظيم، وأكملوا رحلتهم دون وقوع حوادث أخرى، ووصلوا **إِلَى كُورَةِ ٱلْجَدَرِيِّين** (الآية ١ب).

اختلف المفسّرون حول المكان الذي كانت تقع فيه «كُورَةِ ٱلْجَدَرِيِّين». حتى أنّ متّى يُعرّف الموقع على أنّه «كُورَةِ ٱلْجِرْجَسِيِّين» (٨: ٢٨). ببساطة، يوجد اختلافات نصّيّة حول موقع هذا المكان، ممّا جعل العلماء غير متأكّدين من مكان حدوث هذا اللقاء. وبالمثل، فإنّ علم الآثار لا يقدّم سوى القليل ليساعد في حلّ هذه المسألة. نعلم أنّه كان يوجد بلدة تُدعى جدارا جنوب شرق بحيرة طبرية وبلدة تُدعى جراسا إلى أقصى الجنوب الشرقيّ، لكن ربّما كان الموقع الفعليّ قريةً تُدعى خيرسا تقع على الشاطئ الشرقيّ للبحيرة. كانت في المدن العشر، وهي منطقة أمميّة إلى حدّ كبير حيث كان فيها العديد من القلاع الرومانيّة. يبدو أنّ النصّ الذي بين أيدينا يُشير أكثر إلى منطقة خيرسا لأنّه مكتوب أنّ إنسانًا استقبل يسوع **لِلْوَقْتِ** (الآية ٢) أي بعد خروجه مباشرة من القارب. يبدو واضحًا أنّ يسوع لم يكن لديه الوقت الكافي ليسير نحو الداخل إلى بلدة جدارا أو جراسا.

يصف مَرْقُس الشخص الذي استقبل بيسوع على أنّه **إِنْسَانٌ بِهِ رُوحٌ نَجِسٌ، كَانَ مَسْكَنُهُ فِي ٱلْقُبُورِ** (الآيتان ٢ب–٣أ). بالنسبة لليهودي، إنّ أسوأ ما يُمكن أن يحدثَ للإنسان هو أن يُعلن بأنّه نجس أمام الله. إنّ سفر اللاويين والعدد والتثنية في العهد القديم مُمتلئة بالنواميس والشرائع والإجراءات للتعامل مع النجاسة الطقسيّة أو الاحتفاليّة. في وقت لاحق، وسّعت تقاليد معلّمي اليهود هذه القواعد بشكل كبير للمجتمع اليهوديّ. مثلًا، أعلن العهد القديم أنّ منْ يلمس جثّةً سيُعتبر نجسًا لسبعة أيّام، ويجب

أنْ يخضعَ لطقوس التطهير (سفر العدد ١٩: ١١-١٢). لكنّ اليهود توسّعوا في هذا المبدأ وطالبوا أن يُطهَّر الإنسان إنْ لمسَ أيّ شيء له علاقة بالتجهيزات المُختصّة بالموت. إنْ لمسَ التابوت الذي تُنقل الجثّة فيه، أو إنْ ذهب إلى مقبرة ولمس شاهد القبر، فسيتوجّب عليه البقاء سبعة أيّام إضافيّة لمزيد من التطهير. لذلك كان الإسرائيليّون يهتمّون كثيرًا بالطهارة الطقسيّة أمام الله. وبحلول زمن العهد الجديد، أصبح سكنى روح نجس (شرّير) في الإنسان واحدًا من أكثر الأمور رُعبًا لهم.

يقول مَرْقُس إنّ هذا الشخص البائس كان نجسًا بأربع طرق. أوّلًا، يُخبرنا أنّ به روح نجس، واتّضح لاحقًا أنّه ليس روحًا واحدة، بل كان فيه كتيبة من الأرواح النجسة؛ كانت الشياطين تسكنه. ثانيًا، كان يعيش بين القبور، بين الأموات، وهو أكثر الأماكن نجاسة من وجهة النظر اليهوديّة. ثالثًا، كان مسكنه في المدن العشر، وكما ذكرت سابقًا، كانت منطقة أمميّة إلى حدّ كبير. كان اليهود يعتبرون الأمم أنجاسًا. رابعًا، عاش بالقرب من رعاة للخنازير. كانت الخنازير حيوانات نجسة ولا يحقّ لليهود أكلها (لاويين ١١: ٧).

في كلّ الكتاب المقدّس، لا أستطيع التفكير إلّا في شخص واحد ينافس بؤسُه بؤسَ هذا الرجل- إنّه أيّوب. هذه الرواية في مَرْقُس مختصرة؛ أمّا سفر أيوب فيعطينا اثنين وأربعين إصحاحًا عن بؤسه لأنّه فَقَدَ ثروته وعائلته وصحّته، ثمّ اضطرّ إلى التعامل مع مشورة زوجته وأصدقائه الأشرار. حتى أنّنا ما زلنا نتحدّث حتى هذا اليوم عن معاناة أيّوب في أحاديثنا اليوميّة. ومع ذلك، أتساءَل عمّا إذا كان بؤس أيّوب، على الرغم من شدّته، قريبًا حقًّا من بؤس هذه الروح المسكينة، التي كانت قوّة الجحيم المركّزة تُعذّبها في كلّ لحظة.

تأمّلوا معي بالأوصاف التي أعطاها مَرْقُس عن هذا الرجل. «**كَانَ مَسْكَنُهُ فِي ٱلْقُبُورِ**» (الآية ٣أ). يبدو أنّه نُفي بعيدًا لئلّا يتواصل مع البشر، وقد حدث هذا إمّا طواعية أو قسرًا، وعاش في مقبرة بين الأموات. وفوق كلّ هذا، **لَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ أَنْ يَرْبِطَهُ وَلَا بِسَلَاسِلَ، لِأَنَّهُ قَدْ رُبِطَ كَثِيرًا بِقُيُودٍ وَسَلَاسِلَ فَقَطَّعَ ٱلسَّلَاسِلَ وَكَسَّرَ ٱلْقُيُودَ** (الآيات ٣ب-٤أ). يبدو أنّ الناس في تلك المنطقة حاولوا تقييده، لكنّه كان يُحطّم القيود والأغلال التي وضعوها عليه بقوّة غير بشريّة. ببساطة، **لَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ أَنْ يُذَلِّلَهُ** (الآية ٤ب). الكلمة اليونانيّة التي تُرجمت إلى «يُذلّل» هي إشارة إلى ترويض وحوش الطبيعة البريّة. كان هذا الإنسان متوحّشًا، ولا يستطيعون ترويضه بأيّ وسيلة. يضيف مَرْقُس أنّه **كَانَ دَائِمًا لَيْلًا وَنَهَارًا فِي ٱلْجِبَالِ وَفِي ٱلْقُبُورِ، يَصِيحُ وَيُجَرِّحُ نَفْسَهُ بِٱلْحِجَارَةِ** (الآية ٥). كان يجول في الجبال مُعذّبًا وهو يصرخ باستمرار ويُجرّح نفسه بالحجارة، ممّا زاد من حالته بؤسًا.

الشياطين تخاطبُ ابن الله

استمرّت الحياة على هذا النحو مع هذا البائس حتّى رأى ذات يوم رجلًا يخرج من قارب، وعرف أنّه يسوع. يُخبرنا مَرْقُس: **لَمَّا رَأَى يَسُوعَ مِنْ بَعِيدٍ رَكَضَ وَسَجَدَ لَهُ، وَصَرَخَ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ وَقَالَ: مَا لِي وَلَكَ يَا يَسُوعُ ٱبْنَ ٱللهِ ٱلْعَلِيِّ؟ أَسْتَحْلِفُكَ بِٱللهِ أَنْ لَا تُعَذِّبَنِي!** (الآيات ٦-٨).

اسمحوا لي أن أشيرَ إلى عُنصرين أساسيَّيْن في تصريحه هذا؛ أحدها له علاقة بالمتكلّم، والآخر له علاقة بالشخص الذي يُخاطبه.

ليس واضحًا ما إذا كانت هذه الكلمات صادرة من الرجل نفسِه أم من الشياطين الموجودة بداخله. ولكن متّى ينسب الصوت الذي صرخ مناديًا يسوع إلى الشياطين (متّى ٨: ٢٩). يُضيف متّى أيضًا اختلافًا صغيرًا واحدًا إلى تصريح الرجل الذي يقدّم بحسب رأيي دليلًا إضافيًّا على أنّ هذه

كانت كلمات الشياطين. يقول مَرْقُس إنّ الرجل قال: «أَسْتَحْلِفُكَ بِٱللهِ أَنْ لَا تُعَذِّبَنِي،» أمّا متّى فيقول: «أَجِئْتَ إِلَى هُنَا قَبْلَ ٱلْوَقْتِ لِتُعَذِّبَنَا؟» (٨: ٢٩). أعتقد أنّ هاتَين الكلمتَيْن «قَبْلَ ٱلْوَقْتِ» هامّتان جدًّا لفهم كلّ ما سوف ينكشف أمامنا في هذا النصّ. لماذا أقول ذلك؟

أشرتُ في الفصل الثالث إلى أنّ العهدَ الجديد يُميّز بين نوعَين من الأزمنة. الأوّل هو chronos، وهو مرور الزمن الطبيعي لحظة بلحظة والذي يمكننا قياسه بآلة الكرونومتر أو بالساعات. النوع الثاني هو kairos، وهو يشير إلى لحظة معيّنة من الزمن. كلّ Kairos يحدث في chronos، ولكن العكس غير صحيح. وبالمثل، في اللغة الإنجليزيّة، كلّ ما يحدث زمنيّ، ولكن ليس كلّ ما يحدث تاريخيّ. نحتفظ بكلمة «تاريخيّ» للأمور التي تدوم أهمّيتها. لذلك، يتحدّث الكتاب المقدّس عن التاريخ ليس فقط من حيث تغيير الساعة واليوم والأسبوع والسنة لحظة بلحظة، ولكن من حيث لحظات زمنيّة محدّدة مليئة بالمعنى والأهمّيّة. كان الخروج أعظم kairos في إسرائيل، وأعظم اللحظات kairotic. كان زمن خلاصِهم. وبالمثل، كانت ولادة يسوع هي اللحظة أو الساعة التي طال انتظارها لمجيء المسيح.

تُظهر لنا التعليقات التي أدلى بها رجل القبور هذا أنّ شياطين الجحيم تدرك أنّ الله، في خطّته للفداء، حدّد يومًا سيُقيَّد فيه الشيطان ويسحق كلّ قوى الجحيم مرّة وإلى الأبد. كلّ الأبالسة تعرف ما يعرفه الشيطان– أنّ أيّامهم معدودة. عندما يبدأ الربّ بإنهاء التاريخ، لن يتمكّن العالم الشيطانيّ من مضاهاة قوّته. لن تحدث منافسة بينهما. الشياطين تعيش في خوف مميت من تلك اللحظة في التاريخ عندما تنتهي كلّ أنشطتها الشيطانيّة مرّة وإلى الأبد.

ولكن، في ذلك اليوم في مقابر جدارا، كانت الشياطين تعرف أنّ الوقت لم يحن بعد. لم يحن وقت انتهاء نشاطهم الشيطانيّ. لم يعرفوا ذلك هم

فحسب، بل كان يسوع أيضًا يعرفُ ذلك. على الرغم من أنّ يسوع كان يتمتّع بسلطان عليهم، وكان بإمكانه تحرير هذا البائس المسكين، إلّا أنّه كان يعلم أنّ كلّ الأشياء يجب أنْ تحدُثَ في الوقت المُحدّد من أبيه، ولم يكن وقت القضاء النهائيّ على العالم الشيطانيّ قد حان بعد. لذلك، كانت كلمات الشياطين نوعًا من الاحتجاج. كانت تُذكّر يسوع بأنّه لم يحن الوقت بعد ليقضي عليهم. وعندما أمرها يسوع أن تخرج من الرجل، كان بإمكانه أن يرسلها إلى الهاوية إلى الأبد؛ فقد كان لديه بالتأكيد القوّة للقيام بذلك. لكنّ الوقت لم يحن لذلك بعد، بل لفداء هذا الإنسان المسكين الممسوس. لذلك، أمر يسوع الشياطين أن تخرجَ من الرجل ولم يُرسلها إلى الهلاك، كما سنرى بعد قليل.

العنصر الثاني من هذا التصريح الذي أريد أنْ أوضّحه يتعلّق بالشخص الذي تحدّثت إليه الشياطين- يسوع. أريدكم أن تلاحظوا بشكل خاصّ كيف خاطبته. صرخوا: «**مَا لِي وَلَكَ يَا يَسُوعُ ٱبْنَ ٱللهِ ٱلْعَلِيِّ؟**»

أحبّ هذا التصريح، لأنّه لم يعترف فقط أنّ يسوع هو ابن الله، بل جاء هذا الاعتراف من عالم الأمم الوثنيّ. أحد الاكتشافات العظيمة لدراسات الديانات العالميّة في القرنَيْن التاسع عشر والعشرين، هو أنّه حتّى في الثقافات التي كانت تؤمن بوجود إله في كلّ شجرة وكلّ صخرة وكلّ نهر، كان لديهم فهم ضبابيّ عن إله قدير يعيش في الجانب الآخر من الجبل. عندما بدأ علماء الاجتماع الدينيّون في استكشاف هذا، اكتشفوا أنّه على الرغم من الإيمان بتعدّد الآلهة والإيمان بالأرواح، يوجد عند كلّ قبيلة فكرة لا يمكن محوها عن إله واحد هو الأسمى. وهكذا، فإنّ فكرة التوحيد موجودة ضمنيًّا في كلّ أديان العالم، حتّى في الديانات التي تؤمن بتعدّد الآلهة. في كلّ هذه الأديان فكرة عن إله واحد يسمو فوق كلّ الآلهة الأخرى، وهو الله العليّ.

كما قلت سابقًا، أنا مقتنع بأنّ الغرضَ من هذا النصّ ليس إخبارنا كيف ننعم بالهدوء عندما تزعجنا عواصف هذا العالم، إنّما الغرض إعلامنا من هو يسوع، بأنّه هو ابن الله العليّ. لا أظنّ أنّ مَرْقُس رتّب كتابه بالصدفة بحيث كان الحدث الذي سبق هذه الحادثة هو إظهار قوّة المسيح على الطبيعة بتهدئته للعاصفة. تلى ذلك بالتعبير عن قوّته بإيقاف عنف هذا الرجل الذي تعدّى عليه الجحيم.

وكما تطيعه الرياح وأمواج المحيط، هكذا ترتعد الشياطين القادمة من الجحيم أمامه. إنّ ابن الله العليّ يسمو فوق كلّ الآلهة الأخرى في قوّته وسلطانه.

الأمم يخافون ابن الله

حين رأى يسوع هذا الرجل في بؤسه، سأله: «**مَا ٱسْمُكَ؟ فَأَجَابَ قَائِلًا: ٱسْمِي لَجِئُونُ، لِأَنَّنَا كَثِيرُونَ**» (الآية ٩). في الجيوش الرومانيّة، كانت الكتيبة تتألّف من خمسة آلاف وستمائة رجلٍ. هذا لا يعني أنّه كان داخل هذا الإنسان خمسة آلاف وستمائة شيطان بالضبط؛ ففي لغة تلك الأيّام، كانت كلمة لجئون تُستخدم لأيّ حشد كبير. من الواضح أنّ شياطين كثيرة كانت داخل هذا الرجل، وهذا دليل آخر على بؤسه.

كانت الشياطين قد اعترفت بالفعل بقوّة يسوع وسلطانه في «تعذيبها»، وحتى في إرسالها إلى هاوية الدمار في الوقت المحدّد من الله. نرى مرّة أخرى هنا أنّها أدركت أنّ يسوع سيّد عليهم: **وَطَلَبَ إِلَيْهِ كَثِيرًا أَنْ لَا يُرْسِلَهُمْ إِلَى خَارِجِ ٱلْكُورَةِ** (الآية ١٠). بالتأكيد، كان توسّل الشياطين هو الطريقة الصحيحة لمخاطبته، ولكن نظرًا لأنّ يسوع والشياطين يعرفون أنّ وقت هلاكها النهائيّ لم يكن قد حان بعد، كان أمامها مجال للتفاوض معه. وهكذا يُخبرنا مَرْقُس: **وَكَانَ هُنَاكَ عِنْدَ ٱلْجِبَالِ قَطِيعٌ كَبِيرٌ مِنَ ٱلْخَنَازِيرِ**

يَرْعَى، فَطَلَبَ إِلَيْهِ كُلُّ ٱلشَّيَاطِينِ قَائِلِينَ: أَرْسِلْنَا إِلَى ٱلْخَنَازِيرِ لِنَدْخُلَ فِيهَا (الآيات ١١–١٢). أمرها المسيح بالفعل أن تخرجَ من الرجل، لكنّها أرادت أن تجدَ مُضيفًا جديدًا لوجودها الطفيليّ. كان قطيع من الخنازير يرعى في مكان قريب، فطلبت الشياطين من يسوع أنْ يرسلَها إلى هناك. ثمّ يقول مَرْقُس: **فَأَذِنَ لَهُمْ يَسُوعُ لِلْوَقْتِ. فَخَرَجَتِ ٱلْأَرْوَاحُ ٱلنَّجِسَةُ وَدَخَلَتْ فِي ٱلْخَنَازِيرِ، فَٱنْدَفَعَ ٱلْقَطِيعُ مِنْ عَلَى ٱلْجُرْفِ إِلَى ٱلْبَحْرِ. وَكَانَ نَحْوَ أَلْفَيْنِ، فَٱخْتَنَقَ فِي ٱلْبَحْرِ** (الآية ١٣).

صدمت هذه الحادثة بعض مفسّري الكتاب المقدّس، حتّى أنّ البعضَ منهم اتّهم يسوع بعدم التعاطف مع الخنازير، وذهب البعض الآخر إلى حدّ اتّهامه بارتكاب خطية لأنّه سمح بإبادة الخنازير فكانت الكلفة باهظة لأصحابها. كان قطيع من ألفي خنزير ذا قيمة كبيرة في اقتصاد ذلك اليوم. كيف نردّ على هذه الاتّهامات الخطيرة؟

علينا أن نتذكّر أنّ يسوع، في طبيعته الإلهيّة، كان يتمتّع بسلطان للقيام بذلك. بصفته الربّ الإله كليّ القدرة، كان حرًّا في أن يفعلَ بالخنازير ما يشاء، وفقًا لسيادته. ومع ذلك، غالبًا ما لا ننتبه إلى وجود عنصر آخر، خاصّة في يومنا هذا وعصرنا هذا. كان ليسوع السلطة ليفعل هذا حتّى في طبيعته البشريّة. كآدم الثاني، يتمتّع بسيادة على الأرض. خُلق الإنسان على صورة الله وأُعطِي أنْ يسودَ على كلّ المخلوقات؛ فكان على الإنسان أنْ يسود على كلّ شيء (تكوين ١: ٢٦). كانت حادثة الخنازير مَظهرًا دراماتيكيًّا لتلك السيادة البشريّة. علاوة على ذلك، لم يكن يسوع يُظهر نقصًا في الرحمة؛ بل كان يمارس الرحمة المناسبة. كان على استعداد للتضحية بألفي خنزير، على الرغم من قيمتها، لإنقاذ الرجل المسكون بالشياطين. يبدو الأمر كما لو أنّ يسوع كان يقول: «هذا إنسان مخلوق على صورة الله، وهذه الشياطين تسحقه ليلًا ونهارًا. مهما كلّفني الأمر، سأخلّص هذا

الإنسان». لذلك، قَبْلَ أن نتّهم يسوع بعدم الرحمة، علينا أن نرى أنّ عطفه هو الذي دفعه إلى إهلاك الخنازير من أجل حياةٍ بشريّة واحدة. هذا هو مدى قيمة الحياة البشريّة بالنسبة إليه. فقط في ثقافة الموت حيث لا قيمة لحياة الإنسان، يُقدّر الإنسان الحيوانات أكثر من البشر.

بالطبع، لا يقفز كلّ يوم قطيع من ألفي خنزير في البحر ويغرق. كان هذا حدثًا فظيعًا، وبعد أنْ شَهَدَ الأشخاص القائمين على إطعام الخنازير ما حدث، هَرَبُوا وَأَخْبَرُوا فِي ٱلْمَدِينَةِ وَفِي ٱلضِّيَاعِ، فَخَرَجُوا لِيَرَوْا مَا جَرَى (الآية ١٤). من الواضح أنّ الرعاة نشروا الخبر على نطاق واسع، حتّى أنّ حشدًا غفيرًا من الناس اجتمع ليرَوْا بأنفسهم ما جرى: **وَجَاءُوا إِلَى يَسُوعَ فَنَظَرُوا ٱلْمَجْنُونَ ٱلَّذِي كَانَ فِيهِ ٱللَّجِئُونُ جَالِسًا وَلَابِسًا وَعَاقِلًا** (الآية ١٥أ). تذكّروا أنّه بُذلت مُحاولات لتقييد هذا الرجل بالسلاسل للتحكّم في سلوكه الوحشيّ، لكن لم يتمكّن أحد من ترويضه (الآيات ٣-٤). أصبح من الواضح الآن أنّه كان هادئًا وعاقلًا. لقد رأى الناس ثمار اللمسة الفدائيّة للمسيح. لقد رأوا أنّه فعلَ ما لم يقدر أحد قبله أن يفعله- لقد أنقذ رجلًا من الجحيم. لقد رأوا شيئًا لم يتوقّعوا رؤيته أبدًا حتّى في أحلامهم.

ماذا كان ردّ فعلهم؟ **فَخَافُوا. فَحَدَّثَهُمُ ٱلَّذِينَ رَأَوْا كَيْفَ جَرَى لِلْمَجْنُونِ وَعَنِ ٱلْخَنَازِيرِ. فَٱبْتَدَأُوا يَطْلُبُونَ إِلَيْهِ أَنْ يَمْضِيَ مِنْ تُخُومِهِمْ** (الآيات ١٥ب-١٧). نجد هنا صورة أخرى موازية للرواية السابقة عن العاصفة في بحيرة طبرية. خافَ التلاميذ من العاصفة، لكنّهم شعروا بخوف أكبر عندما هدّأ يسوع العاصفة. وبالمثل، شعر أهل المدن العشرة بالخوف عندما وجدوا هذا الرجل الذي كان يجول في الجبال وبين القبور كالمجنون جالسًا ولابسًا وعاقلًا. وكما حدث مع التلاميذ في السفينة، تواجه هؤلاء الناس مع حضور القدّوس. عندما يَظهر القدّوس وسط الأنجاس، يكون الخوف هو ردّ الفعل الوحيد المناسب. لذلك، بدأوا يتوسّلون يسوع أنْ يرحل. إنّهم ببساطة

لا يستطيعون أنّ يقفوا في محضره.

بالمقابل، تغيّر الرجل الذي كانت الشياطين تسيطر عليه، ورفض أن يبتعد عن المسيح. تمامًا كما توسّلت الشياطين إلى يسوع ألّا يُعذّبها، وكما توسّل إليه الناس أن يغادر، توسّل هذا الرجل أن يسمحَ له المسيح بالذهاب معه: **وَلَمَّا دَخَلَ ٱلسَّفِينَةَ طَلَبَ إِلَيْهِ ٱلَّذِي كَانَ مَجْنُونًا أَنْ يَكُونَ مَعَهُ** (الآية ١٨).

ولكن، بينما سمح يسوع للشياطين بالذهاب إلى الخنازير ووافق على طلب الشعب بأن يرحل عن تخومهم، رفض بالمقابل طلب هذا الرجل الذي شفاه. قال له: **ٱذْهَبْ إِلَى بَيْتِكَ وَإِلَى أَهْلِكَ، وَأَخْبِرْهُمْ كَمْ صَنَعَ ٱلرَّبُّ بِكَ وَرَحِمَكَ** (الآية ١٩ب). أطاع الرجل أمر يسوع من كلّ قلبه: **فَمَضَى وَٱبْتَدَأَ يُنَادِي فِي ٱلْعَشْرِ ٱلْمُدُنِ كَمْ صَنَعَ بِهِ يَسُوعُ. فَتَعَجَّبَ ٱلْجَمِيعُ** (الآية ٢٠). وهكذا، انتشرَ خبر قدرة يسوع وسلطانه على تهدئة فوضى الجحيم في كلّ أرجاء منطقة الأمم.

١٥

قوّة على الأمراض والموت

مَرْقُس ٥: ٢١-٤٣

وَلَمَّا ٱجْتَازَ يَسُوعُ فِي ٱلسَّفِينَةِ أَيْضًا إِلَى ٱلْعَبْرِ، ٱجْتَمَعَ إِلَيْهِ جَمْعٌ كَثِيرٌ، وَكَانَ عِنْدَ ٱلْبَحْرِ. وَإِذَا وَاحِدٌ مِنْ رُؤَسَاءِ ٱلْمَجْمَعِ ٱسْمُهُ يَايِرُسُ جَاءَ. وَلَمَّا رَآهُ خَرَّ عِنْدَ قَدَمَيْهِ، وَطَلَبَ إِلَيْهِ كَثِيرًا قَائِلًا: ٱبْنَتِي ٱلصَّغِيرَةُ عَلَى آخِرِ نَسَمَةٍ. لَيْتَكَ تَأْتِي وَتَضَعُ يَدَكَ عَلَيْهَا لِتُشْفَى فَتَحْيَا! فَمَضَى مَعَهُ وَتَبِعَهُ جَمْعٌ كَثِيرٌ وَكَانُوا يَزْحَمُونَهُ. وَٱمْرَأَةٌ بِنَزْفِ دَمٍ مُنْذُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً، وَقَدْ تَأَلَّمَتْ كَثِيرًا مِنْ أَطِبَّاءَ كَثِيرِينَ، وَأَنْفَقَتْ كُلَّ مَا عِنْدَهَا وَلَمْ تَنْتَفِعْ شَيْئًا، بَلْ صَارَتْ إِلَى حَالٍ أَرْدَأَ. لَمَّا سَمِعَتْ بِيَسُوعَ، جَاءَتْ فِي ٱلْجَمْعِ مِنْ وَرَاءُ، وَمَسَّتْ ثَوْبَهُ، لِأَنَّهَا قَالَتْ: إِنْ مَسَسْتُ وَلَوْ ثِيَابَهُ شُفِيتُ. فَلِلْوَقْتِ جَفَّ يَنْبُوعُ دَمِهَا، وَعَلِمَتْ فِي جِسْمِهَا أَنَّهَا قَدْ بَرِئَتْ مِنَ ٱلدَّاءِ. فَلِلْوَقْتِ ٱلْتَفَتَ يَسُوعُ بَيْنَ ٱلْجَمْعِ شَاعِرًا فِي نَفْسِهِ بِٱلْقُوَّةِ ٱلَّتِي خَرَجَتْ مِنْهُ، وَقَالَ: مَنْ لَمَسَ ثِيَابِي؟ فَقَالَ لَهُ تَلَامِيذُهُ: أَنْتَ تَنْظُرُ ٱلْجَمْعَ يَزْحَمُكَ، وَتَقُولُ: مَنْ لَمَسَنِي؟ وَكَانَ يَنْظُرُ حَوْلَهُ لِيَرَى ٱلَّتِي فَعَلَتْ هَذَا. وَأَمَّا ٱلْمَرْأَةُ فَجَاءَتْ وَهِيَ خَائِفَةٌ وَمُرْتَعِدَةٌ، عَالِمَةً بِمَا حَصَلَ لَهَا، فَخَرَّتْ وَقَالَتْ لَهُ ٱلْحَقَّ

كُلِّهِ. فَقَالَ لَهَا: يَا ٱبْنَةُ، إِيمَانُكِ قَدْ شَفَاكِ، ٱذْهَبِي بِسَلَامٍ وَكُونِي صَحِيحَةً مِنْ دَائِكِ. وَبَيْنَمَا هُوَ يَتَكَلَّمُ جَاءُوا مِنْ دَارِ رَئِيسِ ٱلْمَجْمَعِ قَائِلِينَ: ٱبْنَتُكَ مَاتَتْ. لِمَاذَا تُتْعِبُ ٱلْمُعَلِّمَ بَعْدُ؟ فَسَمِعَ يَسُوعُ لِوَقْتِهِ ٱلْكَلِمَةَ ٱلَّتِي قِيلَتْ، فَقَالَ لِرَئِيسِ ٱلْمَجْمَعِ: لَا تَخَفْ! آمِنْ فَقَطْ. وَلَمْ يَدَعْ أَحَدًا يَتْبَعُهُ إِلَّا بُطْرُسَ وَيَعْقُوبَ، وَيُوحَنَّا أَخَا يَعْقُوبَ. فَجَاءَ إِلَى بَيْتِ رَئِيسِ ٱلْمَجْمَعِ وَرَأَى ضَجِيجًا. يَبْكُونَ وَيُوَلْوِلُونَ كَثِيرًا. فَدَخَلَ وَقَالَ لَهُمْ: «لِمَاذَا تَضِجُّونَ وَتَبْكُونَ؟ لَمْ تَمُتِ ٱلصَّبِيَّةُ لَكِنَّهَا نَائِمَةٌ». فَضَحِكُوا عَلَيْهِ. أَمَّا هُوَ فَأَخْرَجَ ٱلْجَمِيعَ، وَأَخَذَ أَبَا ٱلصَّبِيَّةِ وَأُمَّهَا وَٱلَّذِينَ مَعَهُ وَدَخَلَ حَيْثُ كَانَتِ ٱلصَّبِيَّةُ مُضْطَجِعَةً، وَأَمْسَكَ بِيَدِ ٱلصَّبِيَّةِ وَقَالَ لَهَا: طَلِيثَا، قُومِي! ٱلَّذِي تَفْسِيرُهُ: يَا صَبِيَّةُ، لَكِ أَقُولُ: قُومِ! وَلِلْوَقْتِ قَامَتِ ٱلصَّبِيَّةُ وَمَشَتْ، لِأَنَّهَا كَانَتِ ٱبْنَةَ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً. فَبُهِتُوا بَهْتًا عَظِيمًا. فَأَوْصَاهُمْ كَثِيرًا أَنْ لَا يَعْلَمَ أَحَدٌ بِذَلِكَ. وَقَالَ أَنْ تُعْطَى لِتَأْكُلَ.

أشرتُ في الفصل السابق إلى أنّ الإصحاح الخامس من مَرْقُس يُدعى «إصحاح القدّيس يهوذا» من العهد الجديد، لأنّ يسوع يتعامل في هذا الإصحاح مع العديد من الأسباب الميؤوس منها. لكن كما رأينا، ما حدث مع الرجل المسكون بالشياطين أثبت أنّ حالته غير ميؤوس منها عندما مارس يسوع قدرته. سنرى الشيء نفسه يحدث بينما نتأمّل في النصف الثاني من مَرْقُس ٥ في هذا الفصل. وكما رأينا قدرة يسوع على الطبيعة في تهدئة العاصفة (مَرْقُس ٤: ٣٥–٤١) وقدرته على عالم الشيطان (٥: ١–٢٠)، سنرى الآن أيضًا قدرته على المرض وحتّى على الموت نفسه.

يبدأ مَرْقُس يقول: **وَلَمَّا ٱجْتَازَ يَسُوعُ فِي ٱلسَّفِينَةِ أَيْضًا إِلَى ٱلْعَبْرِ، ٱجْتَمَعَ إِلَيْهِ جَمْعٌ كَثِيرٌ، وَكَانَ عِنْدَ ٱلْبَحْرِ** (الآية ٢١). عاد يسوع من الجانب البعيد لبحيرة الجليل، من منطقة الجدريّين، حيث شفى رجلًا تسكنه الشياطين، وطلب منه سكّان المنطقة هناك المذعورين أنْ يغادر. عند

عودته، أحاطت به مرّة أخرى جموع من الناس الذين ظنّوا أنّهم سيستفيدون بشيء ما إن اقتربوا كثيرًا منه.

كان أحد هؤلاء رجلًا ذا مكانة كبيرة: **وَإِذَا وَاحِدٌ مِنْ رُؤَسَاءِ ٱلْمَجْمَعِ ٱسْمُهُ يَايِرُسُ جَاءَ. وَلَمَّا رَآهُ خَرَّ عِنْدَ قَدَمَيْهِ، وَطَلَبَ إِلَيْهِ كَثِيرًا** (الآيات ٢٢-٢٣أ). كان يايرس رجلًا عاديًّا وليس معلّمًا يهوديًّا. كان قادة المجمع مسؤولين عن رعاية المبنى وطَلَب جميع الخدمات التي تحدث داخله. لذلك كان رجلًا يتمتّع ببعض الخبرة وبعض الأهميّة في المجتمع. ومع ذلك، جاء وسجد عند قدمَي يسوع. إنّه شخص آخر يواجه أزمة ميؤوس منها، شخص أتى متوسّلًا بكلّ حرارة أن يتدخّل يسوع في أزمته ويحلّ مشكلته.

هذه كانت صرخته: «ٱبْنَتِي ٱلصَّغِيرَةُ عَلَى آخِرِ نَسَمَةٍ» (الآية ٢٣ب). أنا متأكّد من أنّ المترجمين عانوا في ترجمة الكلمة اليونانيّة التي تمّ ترجمتها «عَلَى آخِرِ نَسَمَةٍ». في علم اللاهوت فرع يتعامل مع الأمور الأخيرة يُدعى اسخاتولوجيا أو الأخرويّات، وهو مُصطلح مُشتقّ من الكلمة اليونانيّة eschatos، والتي تعني «الأخير، الأقصى، الطرف». هذه هي الكلمة المُستخدمة في النصّ اليونانيّ لمَرْقُس ٥. عندما قال يايرس: «ٱبْنَتِي ٱلصَّغِيرَةُ عَلَى آخِرِ نَسَمَةٍ»، كان يقصد أنّها وصلت إلى أقصى حالة. كانت على آخر رمَق من حياتِها. كانت على شفير الهاوية. كانت تتلفّظ بأنفاسها الأخيرة. لم يكن الأمر أنّ مرضها شديد جدًّا فحسب وأنّها في العناية المشدّدة؛ بل أنّ الطبّ كان عاجزًا عن شفائها. كان يايرس يقول إنّ الفتاة ستموت بالتأكيد إنْ لم يتدخّل يسوع حالًا. ولكن حتّى في هذه المرحلة الحَرِجة، كان يؤمن أنّ يسوع قادر أنْ يعينَها. قال له: «لَيْتَكَ تَأْتِي وَتَضَعُ يَدَكَ عَلَيْهَا لِتُشْفَى فَتَحْيَا» (الآية ٢٣ج). في وسط هذا الحشد الغفير الذي كان عدد كبير منه يتنافس على جذب انتباهه، سمع يسوع هذا النداء اليائس: فذهب معه يسوع، وتبعه حشد كبير واحتشدوا به (الآية ٢٤).

امرأة تنزف دمًا

عند هذه النقطة، انتقل مَرْقُس من روايته عن أزمة يايرس ليُخبرنا كيف حلَّ يسوع أزمة أخرى وهو في طريقه إلى منزل يايرس. كتبَ: **وَٱمْرَأَةٌ بِنَزْفِ دَمٍ مُنْذُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً** (الآية ٢٥). كان النزيف المتواصل سيّئًا بحدّ ذاته، لكن شريعة العهد القديم أعلنت أنّ الإنسان يُعتبر نجسًا من الناحية الطقسيّة إن كان مُصابًا بهذه الحالة التي أصابت المرأة هنا. هذا يعني أنّ هذه المرأة لا تقدر أن تكونَ جزءًا من مُجتمع العبادة في إسرائيل (لاويين ١٥: ٢٥-٣٣). كانت نجسة مثل الأبرص. لم يُسمح لأحد أنْ يلمسَها أو أنْ يلمسَ ملابسها لئلّا يتنجّس هو أيضًا. لم تكن هذه المرأة تعاني من بؤس في جسدها فحسب، بل من البؤس الاجتماعيّ والدينيّ، لأنّها كانت مطرودة من وسط شعب الله. بمجرّد وجودها بين الجموع المُحتشدة حول يسوع، كانت تخالف بقوّة شريعة العهد القديم الطقسيّة.

بالإضافة إلى بؤسها هذا، كانت أيضًا فقيرة، **وَقَدْ تَأَلَّمَتْ كَثِيرًا مِنْ أَطِبَّاءَ كَثِيرِينَ، وَأَنْفَقَتْ كُلَّ مَا عِنْدَهَا وَلَمْ تَنْتَفِعْ شَيْئًا، بَلْ صَارَتْ إِلَى حَالٍ أَرْدَأَ** (الآية ٢٦). ذهبتْ من طبيب إلى آخر، وأنفقت فلسَها الأخير، لكنَ الأطبّاء زادوا من حالتها سوءًا. أشكّ في أنّ الأطبّاء في العالم القديم تقصّدوا أن تزيدَ حالتها سوءًا؛ بل ببساطة لم يكن لديهم الدواء والمعرفة، ولم يكن معهم أدوات طبيّة لإراحتها. وفقًا لطبّ القرن الأوّل، كانت حالتُها غير قابلة للشفاء.

يُدهشني أنّ يكونَ قد بقي عند هذه المرأة المسكينة أيّ أمل. ومع ذلك، نعلم أنّها كانت تتمتّع بالأمل، لأنّ مَرْقُس يُخبرنا: لَمَّا سَمِعَتْ بِيَسُوعَ، جَاءَتْ فِي ٱلْجَمْعِ مِنْ وَرَاءٍ، **وَمَسَّتْ ثَوْبَهُ، لِأَنَّهَا قَالَتْ: إِنْ مَسَسْتُ وَلَوْ ثِيَابَهُ شُفِيتُ** (الآيات ٢٧-٢٨). كانت مثل يايرس تؤمن بأنّه قادر أن يشفيها، وقد تمّ مُكافأة هذا الإيمان: **فَلِلْوَقْتِ جَفَّ يَنْبُوعُ دَمِهَا، وَعَلِمَتْ فِي جِسْمِهَا**

أَنَّهَا قَدْ بَرِئَتْ مِنَ ٱلدَّاءِ (الآية ٢٩).

من جهة، كان ما فعلته المرأة جديرًا بالثناء. ما فعلته كان بالتأكيد دليلًا على إيمانها بالشهادات التي سمعتها عن يسوع. ومع ذلك، لم يكن جديرًا بالثناء على الإطلاق من ناحية أخرى. كان المُعتقد السائد آنذاك أنّه إنْ تمكّن إنسان من الاقتراب من رجل عظيم أو من مُعالِج ولمس ثيابه، فسيكون علاجه حتميًّا. لذلك كان أملُها مبنيًّا بشكل جزئيّ على الخرافات. من المُدهش أنّ الناس ما زالوا حتى اليوم يقبلون بمثل هذه الأفكار. يعرض بعض الخُدّام على شاشات التلفزيون إرسال مناديل تمّ مباركتها مقابل تبرّع من المال، والدولارات تتدفّق إليهم. يعتقدون بشكل أساسيّ أنّه يُمكن الاستفادة من لمس جسد شخص ما (أو أيّ شيء كان قد لمسه) لديه خطّ هاتف مفتوح مع الله. بالطبع، لا يوجد دعم كتابيّ لمثلِ هذه الفكرة.

مهما كانت الأسباب التي دفعتها إلى لمسه، قالت هذه المرأة لنفسها: «هذه فرصتي الأخيرة وملاذي الأخير. لقد سَمِعتْ الكثير عن يسوع هذا. لن يُضطّر أن يتوقّف، ولن أزعجه، وليس عليه أن يضعَ يديه عليّ. لو استطعت الاقترابَ منه ولمسَ ملابسِه فقط، فربّما هذا يكفيني. وهكذا، شقّت طريقها بين الجموع، وعلى الرغم من أنّ شريعة الله تمنعها من لمس أيّ شخص في نجاستها، مدّت يدها ولمست يسوع. وعندما فعلت ذلك، توقّف نزيف دمها حالًا وشعرت بذلك. أصبح بإمكانها أنْ تقولَ إنّها شُفيَت.

عرف يسوع حالًا أنّ شيئًا ما قد حدث. كتب مَرْقُس: **فَلِلْوَقْتِ ٱلْتَفَتَ يَسُوعُ بَيْنَ ٱلْجَمْعِ شَاعِرًا فِي نَفْسِهِ بِٱلْقُوَّةِ ٱلَّتِي خَرَجَتْ مِنْهُ، وَقَالَ: مَنْ لَمَسَ ثِيَابِي؟ (الآية ٣٠).**

نحن نؤمن أن يسوع هو vere homo, vere Deus، أي هو إنسان حقّ وإله حقّ، لكن هذه العقيدة تُسبّب الكثير من الارتباك، وكانت نقطة انطلاق

للعديد من البدع والهرطقات في تاريخ الكنيسة. ببساطة، في التجسّد، لم تفقد طبيعة يسوع الإلهيّة أيًّا من صفاتها. بقيت طبيعتُه الإلهيّة إلهيّة. وبالمثل، بقيت الطبيعة البشريّة بشريّةً. لم تكن الطبيعة البشريّة لاهوتيّة، ولم تكن الطبيعة الإلهيّة بشريّة. هذا يعني أنّ يسوع لم يكن كلّي المعرفة عندما لُمس جسده. لم يكن يعرف كلّ شيء. كما سنرى لاحقًا، اعترفَ يسوع نفسه أنّه لا يعرف اليوم أو الساعة التي حدّدها الآب لدمار أورشليم (١٣: ٣٢). هنا في مَرْقُس ٥، نرى مثالًا آخر أنّ يسوع لم يكن كلّي المعرفة. عرف أنّ شخصًا ما لمسه وأنّ قوّة خرجت منه للشفاء. ومع ذلك، لم يعرف مَن الذي لمسه.

لهذا السبب توقّف يسوع. تذكّروا أنّه كان في طريقه لشفاء فتاة صغيرة كانت على وشك الموت، وكانت كلّ دقيقة ثمينة. لم يكن لديه الوقت الكافي ليتأخّر –على الأقلّ من وجهة نظر بشريّة– ومع هذا، توقّف وسأل: «مَنْ لَمَسَ ثِيَابِي؟»

لو كان تلاميذ يسوع قد انزعجوا من يسوع مرّة، فلا بدّ أنّهم شعروا بذلك هنا. بدا سؤاله سخيفًا. قالوا له: **أَنْتَ تَنْظُرُ ٱلْجَمْعَ يَزْحَمُكَ، وَتَقُولُ: مَنْ لَمَسَنِي؟** (الآية ٣١ب). كان التلاميذ مُحقّين في أنّه حصل تلامس كثير مع يسوع وهو بين الحشد الصاخب. ومع ذلك، عرف يسوع أنّ شيئًا غير عاديّ قد حدث. لهذا السبب، تجاهل انزعاج التلاميذ **وَكَانَ يَنْظُرُ حَوْلَهُ لِيَرَى ٱلَّتِي فَعَلَتْ هَذَا** (الآية ٣٢). وفوق هذا، لم يكن يتوقّع إجابةً من تلاميذه عندما سأل: «مَنْ لَمَسَ ثِيَابِي؟» بل كان يدعو الشخص الذي لمسه أن يعترفَ بذلك.

عندما سمعت المرأة سؤال يسوع، عرفت أنّ ما فعلته أصبح معروفًا، **فَجَاءَتْ وَهِيَ خَائِفَةٌ وَمُرْتَعِدَةٌ، عَالِمَةً بِمَا حَصَلَ لَهَا، فَخَرَّتْ وَقَالَتْ لَهُ ٱلْحَقَّ كُلَّهُ** (الآية ٣٣). كانت خائفة، لكنّها كانت أيضًا مُمتنّة، وفي امتنانها اعترفت له بكلّ شيء: «يا يسوع، لقد لمستك. أنا نجسة. لقد جعلتك نجسًا

بحسب الشريعة لأنّي لمستك. أرجو أن تسامحني، لكنّني كنتُ يائسة لأنّني أعاني من هذه الحالة منذ اثني عشر عامًا. ذهبتُ إلى كّلّ الأطباء الذين أعرفهم، وأخذوا كلّ أموالي، لكنّهم زادوا حالتي سوءًا. أنا آسفة يا يسوع، لكنّني قلتُ في نفسي إنّه لو استطعت أنْ ألمسَك، فسوف أُشفى أخيرًا». لقد اعترفتْ له بالحقيقة الكاملة.

لاحظوا أنّ يسوع لم ينتهرها على لمْسه. فيما بعد، قال يسوع في حديث مع الفرّيسيّين:

> أَمَا قَرَأْتُمْ مَا فَعَلَهُ دَاوُدُ حِينَ جَاعَ هُوَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ؟ كَيْفَ دَخَلَ بَيْتَ ٱللهِ وَأَكَلَ خُبْزَ ٱلتَّقْدِمَةِ ٱلَّذِي لَمْ يَحِلَّ أَكْلُهُ لَهُ وَلَا لِلَّذِينَ مَعَهُ، بَلْ لِلْكَهَنَةِ فَقَطْ. أَوَ مَا قَرَأْتُمْ فِي ٱلتَّوْرَاةِ أَنَّ ٱلْكَهَنَةَ فِي ٱلسَّبْتِ فِي ٱلْهَيْكَلِ يُدَنِّسُونَ ٱلسَّبْتَ وَهُمْ أَبْرِيَاءُ؟ وَلَكِنْ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ هَهُنَا أَعْظَمَ مِنَ ٱلْهَيْكَلِ! فَلَوْ عَلِمْتُمْ مَا هُوَ: إِنِّي أُرِيدُ رَحْمَةً لَا ذَبِيحَةً، لَمَا حَكَمْتُمْ عَلَى ٱلْأَبْرِيَاءِ. (متى ١٢: ٣–٧)

بالنسبة إلى يسوع، إنّ احتياجات شعب الله لها أولويّة أعلى من المحافظة على الشرائع الطقسيّة. لذلك، لم يُثر ضجّة بسبب انتهاك المرأة للشريعة من الناحية الطقسية. كان لطيفًا جدًّا في التعامل مع هذه المرأة التي كانت تعاني لفترة طويلة.

ماذا قال لها يسوع؟ لم يَقلْ لها: «يا ابنة، لمْستك جعلتك تبرأين». ولم يقل لها: «يا ابنة، ثيابي جعلتك تبرأين». لا، بل قال لها: **«يَا ٱبْنَةُ**، إِيمَانُكِ **قَدْ شَفَاكِ»** (الآية ٣٤أ). ماذا عنى بذلك؟ القوّة الجوهريّة لم تكن في إيمانها. لم يكن إيمانها هو السبب الفعليّ الذي أدّى إلى شفائها؛ بل كان يسوع. لكنّ إيمانها كان السبب الأساسيّ لشفائها.

كما هو الحال في تبريرنا، لا يُعلن الله أنّنا أبرار لأنّه يوجد أيّ برّ متأصّل في إيماننا يدفع الله أنْ يقول: «لأنّك تتمتّع بالإيمان، سأخلّصك». لا، الإيمان هو السبب الأساسيّ للتبرير لأنّه الأداة أو الوسيلة التي بها نتمسّك بالمسيح. المسيح هو السبب الفعّال لتبريرنا. وبالطريقة نفسها شفى يسوع هذه المرأة.

أخيرًا، قال لها يسوع: **«ٱذْهَبِي بِسَلَامٍ وَكُونِي صَحِيحَةً مِنْ دَائِكِ»** (الآية ٣٤ب). يمكن اعتبار عبارة «ٱذْهَبِي بِسَلَامٍ» على أنّها مُجرّد توديع عرفيّ أو تقليديّ يُشبه كلمة «وداعًا». ولكنّني أعتقد أنّه كان لهذه الكلمات قصد أكبر من ذلك بكثير لهذه المرأة التي لم تنعم بلحظة سلام منذ اثني عشر عامًا. تكلّم معها يسوع بحنان وقال لها: «اذهبي الآن، لا تذهبي وأنتِ خائفة ولا مُرتجفة ولا في بؤس، بل اذهبي بسلام وكوني مَشفيّة». الفعل الذي استخدمه يسوع حين تكلّم مع المرأة هو «أنتِ شُفيتِ إلى الأبد».

فتاة في قبضة الموت

حالما حدث هذا، وبينما كان يسوع لا يزال يتحدّث إلى المرأة، **جَاءُوا مِنْ دَارِ رَئِيسِ ٱلْمَجْمَعِ قَائِلِينَ: ٱبْنَتُكَ مَاتَتْ. لِمَاذَا تُتْعِبُ ٱلْمُعَلِّمَ بَعْدُ؟** (الآية ٣٥). لقد فُقد كلّ أمل بشفاء الفتاة من المنظور البشريّ. يمكننا أن نصل إلى هذه النقطة، النقطة التي نقول فيها لأنفسِنا: «لماذا أزعج الله بعد الآن؟ كلّ ما كنت أخشى حدوثَه قد حدث بالفعل. لماذا أزعج نفسي بالصلاة بعد الآن؟ لقد مات زوجي. مات طفلي. أنا أموت. لماذا أزعج الله بعد الآن؟» في مثل هذه الأوقات، يجب أنْ نتذكّر أنّه لا ينبغي لنا أبدًا التوقّف عن «إزعاج» الربّ، لأنّه لا ينزعج أبدًا عندما يسمعنا نبكي ويمسح دموعَنا. لذلك، قال يسوع حالًا ليايرس: **«لَا تَخَفْ! آمِنْ فَقَطْ»** (الآية ٣٦ب). كان الأمر كما لو أنّ يسوع كان يقول له: يا يايرس، أعرف ما قالوه لك. أعلم أنّك مُحطّم. لكن الوقت لم يفت بعد على رغم من كلّ ما قالوه لك. لا

تخفْ يا يايرس. لا تستسلم لخوفك. ثِقْ بي. لم ينته الأمر بعد». وبعد أن قال ذلك، **لَمْ يَدَعْ أَحَدًا يَتْبَعُهُ إِلَّا بُطْرُسَ وَيَعْقُوبَ، وَيُوحَنَّا أَخَا يَعْقُوبَ** (الآية ٣٧). لقد أبعد الحشد ومُعظم تلاميذه، وتابع فقط مع بطرس ويعقوب ويوحنا، الدائرة المقرّبة منه.

حين وصل إلى بيت يايرس، رأى يسوع مشهدًا من الارتباك: **فَجَاءَ إِلَى بَيْتِ رَئِيسِ ٱلْمَجْمَعِ وَرَأَى ضَجِيجًا. يَبْكُونَ وَيُوَلْوِلُونَ كَثِيرًا** (الآية ٣٨). لم يكن هؤلاء على الأرجح من أفراد العائلة والأصدقاء. كانت العادة اليهوديّة أنّه عند حدوث وفاة، تستأجر الأسرة ناحبين مُحترفين لتمزيق ثيابهم والبكاء والنوح للدلالة على الكارثة الكبرى التي حلّت بالبيت. كان الوضع الماديّ هو الذي يُحدّد حجم مجموعة الناحبين. قال معلّمو اليهود إنّه يجب أن تستأجر الأسرة على الأقلّ عازفَين اثنين على الناي، وامرأة واحدة للنحيب عند الوفاة. لكن يايرس كان من رؤساء المجمع، لذلك من المحتمل أنْ يكون لديه فريق كامل من هؤلاء المحترفين في النحيب. يمكننا تخيّل الضجّة، لأنّه بينما كان يسوع يقترب من المنزل، كانوا يولولون وينوحون ويبكون.

أوقف يسوع بسرعة هذه البلبلة: «**فَدَخَلَ وَقَالَ لَهُمْ: لِمَاذَا تَضِجُّونَ وَتَبْكُونَ؟ لَمْ تَمُتِ ٱلصَّبِيَّةُ لَكِنَّهَا نَائِمَةٌ**» (الآية ٣٩). لم يقل إنّ الفتاة كانت في غيبوبة؛ بل استخدم كلمة **نائمة** كناية عن الموت. إنّها كناية شائعة الاستخدام في الكتاب المقدّس. لكن المشيّعين المحترفين يعرفون الموت عندما يرونه، فقد ناحوا على أموات كثيرين، ولم يكن لديهم أدنى شكّ في أنّهم رأوا وطأة الموت على ابنة يايرس. لذلك **ضَحِكُوا عَلَيْهِ** (الآية ٤٠أ). أصبح المشيّعون مستهزئين. ضحكوا على يسوع.

لم يردعْ هذا الأمر يسوع أبدًا، بل تولّى زمام الموقف بشكل كامل: **أَمَّا هُوَ فَأَخْرَجَ ٱلْجَمِيعَ، وَأَخَذَ أَبَا ٱلصَّبِيَّةِ وَأُمَّهَا وَٱلَّذِينَ مَعَهُ وَدَخَلَ حَيْثُ كَانَتِ ٱلصَّبِيَّةُ مُضْطَجِعَةً، وَأَمْسَكَ بِيَدِ ٱلصَّبِيَّةِ** (الآيتان ٤٠ب-٤١أ). كما تدنّس

يسوع من الناحية الطقسيّة عندما لمسته نازفة الدم، هنا أيضًا تدنّس بلمسه جثّة؛ ولكن مرّة أخرى، رأى يسوع أنّ حاجة أحد أفراد شعب الله تفوق تلك الشريعة الطقسيّة.

ثمّ **قَالَ لَهَا: طَلِيثَا، قُومِي، ٱلَّذِي تَفْسِيرُهُ: يَا صَبِيَّةُ، لَكِ أَقُولُ: قُومِي** (الآية ٤١ب). خلق الله كلّ العالم بصوت كلمته وبأمر منه. أخرجَ المسيح لعازر من القبر بأمر كلمته. وبالطريقة نفسها، نطق باللغة الآراميّة مُكلّمًا هذه الفتاة الصغيرة وهي في حالة الموت، وأمرها أنْ تقوم، ومرّة أخرى كانت كلمته القديرة فعّالة: **وَلِلْوَقْتِ قَامَتِ ٱلصَّبِيَّةُ وَمَشَتْ** (الآية ٤٢أ). عادت إليها كلّ قوّتها حالًا. لم يُعدها إلى الحياة فحسب، بل عادت بصحّة كاملة.

كما هو متوقّع، **بُهِتُوا بَهْتًا عَظِيمًا** (الآية ٤٢ب). ربّما كانوا يتمتّعون بإيمان كبير في شفائها (الآية ٢٣)، لكنّهم لم يتوقّعوا أبدًا أن يشهدوا قيامتها من بين الأموات؛ حقًّا، مَنْ يُمكنه في عالم الخطية والموت هذا أن يتوقّع رؤية مثل هذا الشيء؟

لا بدّ أنّ والديّ الفتاة اللذَيْن غمرتْهُما الفرحة في مثل هذه الحالة، كانا مُستعدَّيْن أن يركضا في البلدة وهما يصرخان بما فعله يسوع من أجلهم. لكن، لم يكن هذا ما أراده يسوع: **فَأَوْصَاهُمْ كَثِيرًا أَنْ لَا يَعْلَمَ أَحَدٌ بِذَلِكَ. وَقَالَ أَنْ تُعْطَى لِتَأْكُلَ** (الآية ٤٣). كثيرًا ما كان يسوع يُوصي الذين ساعدهم بطريقة مُعجزيّة ألّا يُخبروا أحدًا عنه لئلًا تتأثّر خدمته بالإشادة الشعبيّة المفرطة. وهكذا، كلّف يايرس وزوجته بمهمّة بسيطة –أن يُعطيا الطفلة طعامًا– وأوصاهما أن يحافظا على سريّة المعجزة.

القوّة على المرض، والقوّة على الموت، والقوّة على القضايا التي فُقد أيّ أمل منها– كلّها تلاقت في لمسة يسوع. هذا هو الربّ الذي نضع ثقتنا فيه في كلّ الأشياء وفي كلّ الأوقات.

١٦

نبيّ في وطنه

مَرْقُس ٦: ١-٦

وَخَرَجَ مِنْ هُنَاكَ وَجَاءَ إِلَى وَطَنِهِ وَتَبِعَهُ تَلَامِيذُهُ. وَلَمَّا كَانَ ٱلسَّبْتُ، ٱبْتَدَأَ يُعَلِّمُ فِي ٱلْمَجْمَعِ. وَكَثِيرُونَ إِذْ سَمِعُوا بُهِتُوا قَائِلِينَ: مِنْ أَيْنَ لِهَذَا هَذِهِ؟ وَمَا هَذِهِ ٱلْحِكْمَةُ ٱلَّتِي أُعْطِيَتْ لَهُ حَتَّى تَجْرِيَ عَلَى يَدَيْهِ قُوَّاتٌ مِثْلُ هَذِهِ؟ أَلَيْسَ هَذَا هُوَ ٱلنَّجَّارَ ٱبْنَ مَرْيَمَ، وَأَخُو يَعْقُوبَ وَيُوسِي وَيَهُوذَا وَسِمْعَانَ؟ أَوَلَيْسَتْ أَخَوَاتُهُ هَهُنَا عِنْدَنَا؟ فَكَانُوا يَعْثُرُونَ بِهِ. فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: لَيْسَ نَبِيٌّ بِلَا كَرَامَةٍ إِلَّا فِي وَطَنِهِ وَبَيْنَ أَقْرِبَائِهِ وَفِي بَيْتِهِ. وَلَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَصْنَعَ هُنَاكَ وَلَا قُوَّةً وَاحِدَةً، غَيْرَ أَنَّهُ وَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى مَرْضَى قَلِيلِينَ فَشَفَاهُمْ. وَتَعَجَّبَ مِنْ عَدَمِ إِيمَانِهِمْ. وَصَارَ يَطُوفُ ٱلْقُرَى ٱلْمُحِيطَةَ يُعَلِّمُ.

ركّزت خدمة يسوع العلنيّة حتّى هذه اللحظة في إنجيل مَرْقُس في المنطقة المحيطة بكفرناحوم وبحر الجليل. لكنّ المشهد يتغيّر في مَرْقُس ٦. يقول مَرْقُس إنّ يسوع **خَرَجَ مِنْ هُنَاكَ وَجَاءَ إِلَى وَطَنِهِ وَتَبِعَهُ تَلَامِيذُهُ** (الآية ١). ابتعد يسوع عن كفرناحوم والجليل، وذهب مع تلاميذه إلى موطنه في الناصرة. لا يُخبرنا مَرْقُس لماذا اختار يسوع العودة إلى الناصرة في هذا

الوقت؛ ربّما أراد بكلّ بساطة أنْ يقضي الوقت مع أشخاص يعرفهم ويحبّهم ليخدمهم.

بالطبع لم تكن الناصرة مكانَ ولادة يسوع (وُلد في بيت لحم)، لكنّها كانت القرية التي نشأ فيها. تقع على بعد حوالي خمسة وعشرين ميلًا جنوب غرب بحيرة طبرية وكفرناحوم. كانت الناصرة في زمن يسوع قريةً صغيرة مُظلمة. كانت مبنيّة على تلّ صخريّ، وتغطّي مساحة لا تزيد عن ستّين فدانًا، ويعيش فيها أقلّ من خمسمائة شخص. وبما أنّه نشأ في هذه البلدة الصغيرة، فلا بدّ أنّ يسوع كان يعرف تقريبًا كلّ شخص في المدينة.

كان يسوع في الناصرة عند حلول يوم السبت. يُخبرنا مَرْقُس: **وَلَمَّا كَانَ ٱلسَّبْتُ، ٱبْتَدَأَ يُعَلِّمُ فِي ٱلْمَجْمَعِ** (الآية ٢أ). نعلم من لوقا أنّ يسوع كان مُعتادًا على حضور يوم السبت. ولكن في هذه المناسبة، لم يجلس مع جماعة المصلّين فحسب، بل علّم الناس. قد يبدو غريبًا في مفهومنا البروتستانتيّ أنّ المعلّم اليهوديّ المحلّي لم يكن هو الذي يُعلّم، لكن كان يحقّ لأيّ رجل بالغ أن يتكلّم في الاجتماع. رأينا سابقًا في مَرْقُس أنّ يسوع علّم في مَجْمَعِ كفرناحوم (١: ٢١)، ونرى العديد من الإشارات الأخرى في الأناجيل إلى الممارسة نفسها.

تركت تعاليم يسوع انطباعًا مميّزًا: **وَكَثِيرُونَ إِذْ سَمِعُوا بُهِتُوا قَائِلِينَ: مِنْ أَيْنَ لِهَذَا هَذِهِ؟ وَمَا هَذِهِ ٱلْحِكْمَةُ ٱلَّتِي أُعْطِيَتْ لَهُ حَتَّى تَجْرِيَ عَلَى يَدَيْهِ قُوَّاتٌ مِثْلُ هَذِهِ!** (الآية ٢ب). تظهر الكلمة اليونانيّة التي تُرجمت هنا بكلمة «بُهتوا» بشكل دائم في روايات الإنجيل لأنّ تعاليم يسوع وسلطانه ومعجزاته كانت تثير دهشة الجميع. غالبًا ما كان الناس يُصابون بصدمة قويّة من الأشياء التي قالها يسوع وفعلها. وهذا ما حدث في الناصرة. اعترف الناس بحريّة أنّ تعليم يسوع كان مذهلًا، وأنّ المعجزات التي سمعوا عنها أظهرت حكمة عظيمة.

ولكن كان في دهشة أهل الناصرة عنصرًا فريدًا، فقد اندهشوا أنّه من بين كلّ الناس، نتجت عن يسوع. فوجئ الناس بسماع يسوع يعلّم كمعلّمي اليهود (وكان من الواضح أنّه يقوم بتدريب تلاميذ له مثل أيّ معلّم يهوديّ آخر) في الوقت الذي لم يكن فيه يسوع في الواقع مُعلّمًا يهوديًّا.

تكمن المشكلة في أنّ هؤلاء الناس كانوا يعرفون يسوع. كانوا يَعلَمون أنّه لم يدرس تحت يد أيّ من كبار معلّمي اليهود في ذلك الوقت. وبالتالي، لم يكن مؤهّلًا أن يكون معلّمًا. لقد صُدموا بكلّ بساطة لأنّه دخل المجمع وبدأ يعلّم هناك من دون أن يكون مؤهّلًا لذلك. لم يُدركوا أنّ كلمة الله المُتجسِّد هو الذي كان يعلمهم، وبالتالي لم يكن بحاجة إلى شهادة من معلّم عظيم كالمعلّم غمالائيل ليكون خبيرًا في اللاهوت.

مصدر دهشة الناس

يُخبرنا مَرْقُس أنّهم قالوا بعضهم لبعض مُندهشين: **أَلَيْسَ هَذَا هُوَ ٱلنَّجَّارَ ٱبْنَ مَرْيَمَ، وَأَخُو يَعْقُوبَ وَيُوسِي وَيَهُوذَا وَسِمْعَانَ؟ أَوَلَيْسَتْ أَخَوَاتُهُ هَهُنَا عِنْدَنَا؟ فَكَانُوا يَعْثُرُونَ بِهِ** (الآية ٣).

لنتأمّل في السؤال الأوّل: «أَلَيْسَ هَذَا هُوَ ٱلنَّجَّارَ؟» لم يسألِ الناس: «أليس هذا ابن يوسف النجّار؟» كانوا يعرفون يسوع كنجّار. ولكن الكلمة اليونانيّة المستخدمة هنا tekton، يُمكن أن تعني «نجّار»، أو «بنّاء حجارة»، أو أيّ شخص يشارك في حرفة البناء؛ إنّها الكلمة التي منها نحصل على كلمة architect باللغة الإنجليزيّة، والتي تعني ببساطة «كبير البنّائين». من المحتمل جدًّا أنّ يسوع كان بنّاء حجارة بدلًا من أنْ يكون نجّارًا يعمل بالخشب؛ وهذا من شأنه أن يفسّر القوّة الجسديّة التي نمّاها بشكل واضح عندما كان شابًّا. ومع ذلك، من المرجّح أنّه كان يعمل في الخشب والحجارة، حيث كان البنّاؤون في أيّامه يبنون أو يُصنّعون أنواعًا

مُختلفة من الأشياء كالمنازل والخزائن وأنيار الثيران.

عندما كان يسوع شابًّا، ورث هيرودس أنتيباس جزءًا من مملكة والده، هيرودس الكبير، وأصبح رئيسَ الربع في الجليل. بدأ يبني مدينة لتكون العاصمة الإقليميّة للجليل وبنى قصرًا لنفسه على بعد أميال قليلة شمال الناصرة. يقول المؤرّخون إنّه استأجر حرفيّين وعمّالًا من جميع أنحاء المنطقة لمساعدته في بناء مدينته. من الممكن أن يكون يوسف ويسوع من بين الأشخاص الذين وظّفهم. إنّها لفكرة مُثيرة للاهتمام أنّ يسوع عمل في هذا المشروع عند رجل سوف يستجوبه ويسخر منه خلال فترة آلامه (لوقا ٢٣: ٦-١٢).

بأيّ حال، كان معروفًا أنّ يسوع نشأ حين كان صغيرًا في الناصرة وعمل في مهنة البناء. لكن في ذلك الزمان والمكان، لم يكن للبنّائين قيمة اجتماعيّة كبيرة. لم يكونوا على قمّة سلّم المكانة الاجتماعيّة. كانوا يُعتبرون عُمّالًا وضيعين. كان الناس ينظرون إلى يسوع ويقولون: «ماذا يفعل هذا النجّار هنا يعلّم في المجمع؟»

وما يُثير استغرابنا أيضًا أنّ الناس سألوا: «أَلَيْسَ هَذَا هُوَ ٱلنَّجَّارَ ٱبْنَ مَرْيَمَ؟» لماذا فعلوا هذا؟ بالتأكيد لم يفعلوا ذلك لأنّهم كانوا مفتونين بأمّه العذراء. لم تكن هذه شهادة مستترة على الولادة العُذريّة أو تعبيرًا عن تكريم والدة يسوع. في كلّ الحالات تقريبًا، كان اليهود يُحدّدون الرجال وفقًا لعلاقتهم بآبائهم وليس بأمّهاتهم. من الناحية القانونيّة، كان يسوع بالنسبة إلى اليهود ابن يوسف. حتى لو كان يوسف قد مات بحلول ذلك الوقت، كان من المعتاد أن يُطلَق عليه اسم يسوع ابن يوسف، لكن بدلًا من ذلك نراهم يدعونه هنا بابن مريم. أفضل تخمين هو أنّهم كانوا ما زالوا يعتقدون أنّ يسوع كان ابنًا غير شرعيّ، وأنّ مريم حبلت به خارج إطار الزواج. ربّما كانوا يقولون: أليس هو ذلك النجّار ابن تلك المرأة؟ نحن نعرف تلك

العائلة». لو كان الأمر كذلك فعلًا، فتعليقهم هذا ليس سوى نوعًا من السخرية.

لاحِظْ أنّ الناس كانوا يعرفون إخوة يسوع: «أَلَيْسَ هَذَا هُوَ ... أَخُو يَعْقُوبَ وَيُوسِي وَيَهُوذَا وَسِمْعَانَ؟ أَوَلَيْسَتْ أَخَوَاتُهُ هَهُنَا عِنْدَنَا؟ يهبّ بعض الناس لدعم العُذريّة الدائمة لمريم. عند رؤيتهم لمقاطع مثل هذه من الكتاب المقدّس، يجادلون بأنّه لا بدّ أن يكون هؤلاء الإخوة والأخوات أبناءَ يوسف من زواج سابق، لكن لا يوجد في الكتاب المقدّس أو في مصادر خارج الكتاب المقدّس أيّ شيء يدعم هذه الحجّة. يقترحون أحيانًا أنّ هؤلاء كانوا أبناء عمّه، بحجّة أنّ الكلمة اليونانيّة التي تعني «إخوة» و «أخوات» يمكن ترجمتها «أبناء عمّ». لكنّها لا تُترجم عادة بهذه الطريقة؛ بل هناك في اللغة اليونانيّة كلمة مُخصّصة لـ»ابن العم». النصّ واضح– كان ليسوع إخوة وأخوات، ولا يحاول إنكار ذلك سوى شخص لديه تحيّز لاهوتيّ.

لا نعرفُ الكثير عن إخوة يسوع، لكن أحد الأشياء التي نعرفها هو أمر صادم– نعرف أنّهم لم يؤمنوا به خلال خدمته العامّة. يذكر لوقا أنّ إخوتَه كانوا مع مجموعة صغيرة من المؤمنين بعد قيامته (أعمال الرسل ١: ١٤)، وأنّ أخيه يعقوب أصبح قائدًا للكنيسة في أورشليم، وهو الذي كتب سفر يعقوب في العهد الجديد. لكن في هذا الوقت، عندما عاد يسوع إلى الناصرة، لم يفهمه إخوته وأخواته ولم يدعموه؛ وكما رأينا سابقًا في مَرْقُس، من الممكن أنّهم ظنّوا أنّه كان مجنونًا (٣: ٢١). ربّما مات يوسف بحلول هذا الوقت، وكان الشخص المؤمن الوحيد هو أمّه.

لذلك كان أهل الناصرة «يعثرون» بيسوع. الكلمة اليونانيّة المستخدمة هنا هي skandalizamei. الصيغة الاسميّة لهذه الكلمة هي skandalon، والتي تُترجم في اللغة الإنجليزيّة إلى كلمة scandal، أي فضيحة. كان هؤلاء الناس يشعرون بالفضيحة بسبب يسوع. كانوا مستائين بشدّة، ولم يرغبوا أن

يُربط اسمهم معه لأنّه كان يحرجهم ويسبّب العار لهم.

استُخدمت كلمة skandalon أيضًا لحجر البناء الذي رفضه البنّاؤون. عندما كان البناؤون يختارون الحجارة لاستخدامها في تشييد المباني، كانوا يفحصون جودة الأحجار ومتانتها، تمامًا كما كان يفعل مايكل أنجلو عندما يذهب إلى مقالع الحجارة في إيطاليا لاختيار أفضل أنواع الرخام لتماثيله. كان يجد أحيانًا بعض العيوب فيها، حتى في رخام كرارا، فكان يرفض استخدامها. في كلتا الحالتين، كان الهدف هو العثور على أفضل الموادّ، وكان لا بدّ من رفض بعض الحجارة.

بالطبع، يُنظر إلى يسوع في الكتاب المقدّس على أنّه الحجر المرفوض. يقول المزمور ١١٨: ٢٢: «ٱلْحَجَرُ ٱلَّذِي رَفَضَهُ ٱلْبَنَّاؤُونَ قَدْ صَارَ رَأْسَ ٱلزَّاوِيَةِ». اقتبس يسوع هذه الآية في إشارة إلى نفسه خلال مناظراته مع القادة الدينيّين اليهود (متى ٢١: ٤٢؛ مَرْقُس ١٢: ١٠؛ لوقا ٢٠: ١٧)، واقتبسها بطرس أمام السنْهدرين وفي رسالته الأولى (أعمال الرسل ٤: ١١؛ ١ بطرس ٢: ٧). تذكّروا أنّ الأنبياء والرسل يُدعون أساس الكنيسة (أفسس ٢: ٢٠)، لكنّ يسوع نفسه هو حجر الزاوية. ومع ذلك، هو «مُحْتَقَرٌ وَمَخْذُولٌ مِنَ ٱلنَّاسِ» (إشعياء ٥٣: ٣). رفضه شعبه وعائلته وسكّان بلدته وأمّة إسرائيل. لقد اعتبر معاصرو الشخص الذي عيّنه الله ليكون حجر الزاوية في بنائه مرفوضًا ومثيرًا للاشمئزاز.

هل المسيح هو skandalon بالنسبة إليك؟ هل تشعر بالإحراج بسببه؟ هل أنت «مسيحيّ في السرّ»، ولا تريد أن يعرفَ أحد هُويّتك الحقيقيّة، لأنّك تجد أن ارتباطك معه هو سبب إحراج ومصدر خزي وعارّ؟ إنْ كان الأمر كذلك، فأنا أشجّعك أن تطلب من الله أن يغيّر قلبك ويجعلك تحبّه وتعبده، لأنّ العبادة هي الاستجابة المناسبة الوحيدة للشخص الذي عيّنه الآب كحجر زاوية.

مصدر دهشة يسوع

عَرِف يسوع ما كان يجري فقال لهم مُستعيرًا بمقولة مأثورة ساميّة قديمة: **«لَيْسَ نَبِيٌّ بِلَا كَرَامَةٍ إِلَّا فِي وَطَنِهِ وَبَيْنَ أَقْرِبَائِهِ وَفِي بَيْتِهِ»** (الآية ٤). أعتقدُ أنّه لديّ فكرة كيف كان يشعر يسوع عندما يعود إلى موطنه. فعندما كنت أعود إلى موطني وألتقي بأشخاص نشأت معهم، لا يُصدّقون أنّني خادم للربّ. يبدو لي أحيانًا أنّهم يُسرعون ليقولوا لي: «كيف أصبحتَ خادمًا؟ لو استشارتنا اللجنة التي رسمتك خادمًا، لما كانت لديك فرصة أن تُرسم للخدمة». يتذكّر هؤلاء الناس طُرقي الشرّيرة عندما كنت يافعًا. بالطبع، لم يفعل يسوع خطية أبدًا، لكن أهل الناصرة كانوا يعرفون عائلته وخلفيّته، وكان ذلك كافيًا بالنسبة إليهم للتشكيك في دعوته.

يضيف مَرْقُس تفصيلًا غريبًا: **وَلَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَصْنَعَ هُنَاكَ وَلَا قُوَّةً وَاحِدَةً، غَيْرَ أَنَّهُ وَضَعَ يَدَيْهِ عَلَى مَرْضَى قَلِيلِينَ فَشَفَاهُمْ** (الآية ٥). ماذا يعني هذا؟ هذا لا يعني أنّ يسوع فَقَدَ قوّته فجأة عندما ذهب إلى الناصرة، وأنّه أصبح عاجزًا عن إظهار الآيات المعجزيّة التي بدأت بالفعل في تحديد خدمته. بل إنّ الظروف التي أوجدها الله الروح القدس لإظهار تلك القوّة لم تكن متوّفرة هناك، لأنّ الله كان يدين مدينة الناصرة. بعبارة أخرى، حجب الله قوّته عن الناس قساة الرقاب الذين كانوا يحتقرون يسوع.

كما اندهشَ الناس من يسوع، اندهش يسوع منهم: **وَتَعَجَّبَ مِنْ عَدَمِ إِيمَانِهِمْ** (الآية ٦أ). يبدو غريبًا بالنسبة لي أنّ يسوع تفاجأ بعدم إيمان أهل الناصرة. في الواقع، كان عليه أن يتعامل مع عدم إيمانهم في كلّ يوم من أيّام حياته. أعتقدُ أنّ مَرْقُس يقول إنّه لم يتفاجأ بأنّهم غير مؤمنين، ولكن من عمق قساوة قلوبهم، فمع الكُفر يأتي العداء، والذين لم يؤمنوا بالمسيح سرعان ما أصبحوا يكرهونه.

لماذا لم يؤمنوا به؟ هل لأنّهم رأوه يعمل بيدَيْه؟ أو لأنّهم عرفوا أمّه؟ أو

لأنّهم عرفوا إخوته وأخواته؟ أو لأنّهم كانوا يعرفون أنّه لم يدرس على يد معلّم معروف؟ لا. لم يؤمنوا بيسوع للسبب نفسه الذي من أجله لا يؤمن جارك الساكن قربك بيسوع. لم يجتَح الله الروح القدس قلوبهم ويُجدّد أرواحهم. ما لم يُجدّد الروح القدس قلوب البشر الخطاة، لا أحد يستطيع أن يأتي إليه حقًّا. كان يسوع بالنسبة إليك حجر عثرة قبل أنْ يجتاحَ الروح القدس قلبك ويفتح عينَيْك. لقد رفضته أنتَ أيضًا بشدّة كما فعل هؤلاء الناس من الناصرة.

نحن مُحاطون في هذا العالم بأناس لا يريدون أيّ علاقة على الإطلاق بما فعله بيسوع. لا أعرف عدد المرّات التي سمعت فيها الناس يقولون: «أنا لستُ بحاجة إلى يسوع». لا أستطيع التفكير في أيّ تصريح أكثر حماقة يُمكن لأيّ إنسان أن يُدلي به. ربّما قال بعضكم ممّن يقرأ هذا الكتاب ذلك في الماضي، وربّما لا تزال تقوله. ربّما أعطاك شريك حياتك أو صديقك هذا الكتاب واقترح عليك أن تقرأه، واحترامًا منك لذلك الشخص، قرّرت أن تلقي نظرة عليه، لكنّ قلبك بعيد عن الله. اسمح لي أن أقولَ لك إنّه لا يوجد شيء على هذه الأرض تحتاجه بشدّة أكثر من يسوع، لأنّه إنْ لم يكن لديك يسوع، فليس لديك أمل في هذه الحياة أو في العالم الآتي. دعني أقول ذلك مرّة أخرى: إنْ لم يكن لديك يسوع، فلا رجاء لك. وأنتَ لا تريد أن تكون من بين الذين يُسبّب لهم اسم يسوع الإحراج.

يوجد خطر كبير هنا. كان ربّ المجد بين أهل الناصرة لأكثر من ثلاثة عقود، وما رأوا فيه إلّا العثرة. في النهاية، لم يقدر أن يصنع المعجزات بينهم، **وَصَارَ يَطُوفُ ٱلْقُرَى ٱلْمُحِيطَةَ يُعَلِّمُ** (الآية ٦ب). بعد أن رُفض في موطِنه، نقل خدمتَه إلى مكان آخر.

ما الذي يُعثرك بيسوع؟ الخطر الكبير هو أنّ يُعثَر المسيح بك. كلّ الذين يعثرون بـ skandalon، بالمسيح الذي يُسبّب الفضيحة، سيعثر بهم في المقابل. لنتعلّم من أهل الناصرة.

١٧

إرساليّة تجريبيّة للاثني عشر

مَرْقُس ٦: ٧-١٣

وَدَعَا ٱلِٱثْنَيْ عَشَرَ وَٱبْتَدَأَ يُرْسِلُهُمُ ٱثْنَيْنِ ٱثْنَيْنِ، وَأَعْطَاهُمْ سُلْطَانًا عَلَى ٱلْأَرْوَاحِ ٱلنَّجِسَةِ، وَأَوْصَاهُمْ أَنْ لَا يَحْمِلُوا شَيْئًا لِلطَّرِيقِ غَيْرَ عَصًا فَقَطْ، لَا مِزْوَدًا وَلَا خُبْزًا وَلَا نُحَاسًا فِي ٱلْمِنْطَقَةِ. بَلْ يَكُونُوا مَشْدُودِينَ بِنِعَالٍ، وَلَا يَلْبَسُوا ثَوْبَيْنِ. وَقَالَ لَهُمْ: حَيْثُمَا دَخَلْتُمْ بَيْتًا فَأَقِيمُوا فِيهِ حَتَّى تَخْرُجُوا مِنْ هُنَاكَ. وَكُلُّ مَنْ لَا يَقْبَلُكُمْ وَلَا يَسْمَعُ لَكُمْ، فَٱخْرُجُوا مِنْ هُنَاكَ وَٱنْفُضُوا ٱلتُّرَابَ ٱلَّذِي تَحْتَ أَرْجُلِكُمْ شَهَادَةً عَلَيْهِمْ. اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: سَتَكُونُ لِأَرْضِ سَدُومَ وَعَمُورَةَ يَوْمَ ٱلدِّينِ حَالَةٌ أَكْثَرُ ٱحْتِمَالًا مِمَّا لِتِلْكَ ٱلْمَدِينَةِ. فَخَرَجُوا وَصَارُوا يَكْرِزُونَ أَنْ يَتُوبُوا. وَأَخْرَجُوا شَيَاطِينَ كَثِيرَةً، وَدَهَنُوا بِزَيْتٍ مَرْضَى كَثِيرِينَ فَشَفَوْهُمْ.

كان يسوع مُعلّمًا متجوّلًا؛ أي أنّه كان يعلّم وهو يسير من منطقة إلى أخرى. رأينا في الإصحاحات القليلة الأولى من مَرْقُس أنّ يسوع كان يسير

باستمرار؛ وفي نهاية الإصحاح السابق، رأيناه «يطوف» بين القرى (٦: ٦). بينما كان يفعل ذلك، لم يكن يعلّم الناس في الأماكن التي يزورها فحسب، بل كان يعلّم أقرب تلاميذه أثناء سيره. أراد يسوع تحقيق هدف من تدريبه لهؤلاء الرجال، وفي المقطع المعروض أمامنا في هذا الإصحاح، سنرى كيف كثّف في مرحلة مُعيّنة تدريبهم من خلال إرسالهم في إرساليّة تجريبيّة.

يكتب مَرْقُس: **وَدَعَا ٱلِٱثْنَيْ عَشَرَ** (الآية ٧أ). علينا أن نتذكّر مَن كان هؤلاء الاثني عشر. رأينا في بداية مَرْقُس أنّ يسوع «أَقَامَ ٱثْنَيْ عَشَرَ لِيَكُونُوا مَعَهُ، وَلِيُرْسِلَهُمْ لِيَكْرِزُوا، وَيَكُونَ لَهُمْ سُلْطَانٌ عَلَى شِفَاءِ ٱلْأَمْرَاضِ وَإِخْرَاجِ ٱلشَّيَاطِينِ» (٣: ١٤-١٥). قال لهم: «قَدْ أُعْطِيَ لَكُمْ أَنْ تَعْرِفُوا سِرَّ مَلَكُوتِ ٱللهِ» (٤: ١١أ). ومنذ ذلك الوقت، كانوا مع يسوع، كانوا يسيرون معه ويراقبونه وهو يعلّم ويصنع مُعجزات رائعة. وكان من بين الاثني عشر بطرس ويعقوب ويوحنّا وتسعة آخرون (٣: ١٦-١٩).

يكتب مَرْقُس أنّ يسوع دعا الاثني عشر ذات يوم. يبدو أنّهم لم يكونوا كلّهم معه، وربّما عاد بعضهم إلى منازلهم أو إلى أعمالهم بشكل مؤقّت، لكنّ يسوع دعاهم للاجتماع حوله لهدف ما. لقد دعاهم لكي يرسلَهم للكرازة، كما كان قصده لهم عندما اختارهم (٣: ١٤). لكن من المهم ألّا نفوّت أنّ الدعوة جاءَت قبل الإرسال. يُعجبنا أن نسمع يسوع يقول: «تَعَالَوْا إِلَيَّ يَا جَمِيعَ ٱلْمُتْعَبِينَ وَٱلثَّقِيلِي ٱلْأَحْمَالِ، وَأَنَا أُرِيحُكُمْ (متى ١١: ٢٨). لكن، عندما نأتي إلى يسوع، ماذا يقول لنا بعد ذلك؟ «فَٱذْهَبُوا وَتَلْمِذُوا جَمِيعَ ٱلْأُمَمِ» (متى ٢٨: ١٩أ). يظهر نموذج المجيء والذهاب والاستدعاء ثمّ الإرسال هذا في قصّة إنجيل مَرْقُس.

مُرسَلون باسم يسوع

يقول مَرْقُس إنّ يسوع ٱبْتَدَأَ يُرْسِلُهُمُ ٱثْنَيْنِ ٱثْنَيْنِ (الآية ٧ب). عندما

كتب مَرْقُس أنّه «ابتدأ يُرسلهم»، استخدم صيغة الفعل من الاسم اليونانيّ apostolos (شخصٌ مُرسَل)، والذي منه نحصل على كلمة رسول. نقرأ في العهد الجديد عن تلاميذَ ورسلٍ، ونميل إلى الاعتقاد بأنّ الكلمتَيْن مترادفتان، لكنّهما ليسا كذلك. التلميذ هو شخص متعلّم أو طالب. أمّا الرسول فهو الشخص الذي يُكلَّف بسلطان سيّده، ثمّ يُرسَل باسمه. هذا التمييز مهمّ للغاية بالنسبة إلينا، لأنّ العهد الجديد يُخبرنا أنّ الأنبياء والرسل هم أساس الكنيسة (أفسس ٢: ٢٠). هذا يعني أنّ الرسل كانوا يتمتّعون بما نسمّيه بـ «السلطان الرسوليّ» على الكنيسة في جميع العصور، أي السلطة التي مُنِحت لهم من قِبل الذي أرسلَهم.

كان يسوع هو الرسول الأوّل في العهد الجديد. إنّه الرسول الأوّل بامتياز. قال يسوع: «لِأَنِّي لَمْ أَتَكَلَّمْ مِنْ نَفْسِي، لَكِنَّ ٱلْآبَ ٱلَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ أَعْطَانِي وَصِيَّةً مَاذَا أَقُولُ وَبِمَاذَا أَتَكَلَّمُ» (يوحنّا ١٢: ٤٩). ربّنا نفسه هو الرسول الأعلى للآب، لأنّه لا يستخدم في خدمته ما لا يقلّ عن سلطان الآب. أمّا الاثني عشر، فقد كانوا رُسل يسوع، بعد أن تمّ اختيارهم من بين مجموعة أكبر بكثير من التلاميذ الذين تبعوا يسوع (انظر لوقا ٦: ١٣). وهكذا، أعطاهم يسوع سلطانه الشخصيّ.

هذا مهمّ جدًّا في هذا اليوم وهذا العصر، في الوقت الذي يحاول الناس تمزيق الكتاب المقدّس إلى أشلاء مُختلفة. هذا ما أسمعه طوال الوقت: «أنا أحبّ يسوع، لكنّي لا أستطيع أنْ أحتمل بولس – إنّه شخص متعصّب للرجال ضدّ النساء. علينا أن نؤكّد أنّ بولس لم يَقُلْ شيئًا للكنيسة إلّا بسلطان يسوع المسيح. لذلك، إنْ كنتَ لا تحبّ بولس، فأنت لا تحبّ يسوع. يسوع نفسه قال للرسل: «مَنْ يَقْبَلُكُمْ يَقْبَلُنِي، وَمَنْ يَقْبَلُنِي يَقْبَلُ ٱلَّذِي أَرْسَلَنِي» (متى ١٠: ٤٠). لا نعرف شيئًا عن يسوع إلّا ما وصل إلينا من خلال شهادة الرسل. لذلك، فإنّ الفصل بين السلطة الرسوليّة وسلطة المسيح هو

فصل خاطئ، وعلى الكنيسة أن تخوضَ تلك المعركة في كلّ جيل.

لماذا أرسلَ يسوع الاثني عشر اثنيْن اثنيْن؟ أعتقد أنّه كان بإمكانهم تغطية المزيد من الأماكن لو أرسلهم مُنفردين، فيذهب كلّ واحد منهم إلى بلدة منفصلة. كان من شأن ذلك أن يُضاعف انتشارهم الإرساليّ. لكن حين أرسلهم اثنيْن اثنيْن وفّر لهم الرفقة. كما أنّ هذا طاعة لمبدأ العهد القديم القائل بأنّه إنْ أراد أحدٌ إثبات أيّ شيء، فهو بحاجة إلى شهادة شخصَيْن (تثنية ١٩: ١٥؛ متى ١٨: ١٦). فما يُعلنه الواحد يُمكن للآخر التحقّق منه.

منح سلطان على الشياطين

يُخبرنا مَرْقُس أنّ يسوع أَعْطَاهُمْ سُلْطَانًا عَلَى ٱلْأَرْوَاحِ ٱلنَّجِسَةِ (الآية ٧ج). الكلمة المترجمة هنا إلى «سلطان» هي كلمة سبق أنْ رأيناها بالفعل في مَرْقُس. إنّها كلمة exousia، والتي تُترجم أحيانًا «قوّة» وأوقات أخرى «سلطان». الكلمة اليونانيّة التي تشير عادة إلى القوّة هي dunamis، ومنها نحصل على كلمة dynamite باللغة الإنجليزيّة. لكن كلمة exousia لها علاقة بالقوّة الموجودة في السلطان. في هذه الحالة، كان للرسل على وجه التحديد قوّة أو سلطان على الأرواح النجسة، ليأمروها بالخروج من الناس الذين كانت تسيطر عليهم.

لماذا فعل يسوع هذا؟ كان السبب يتعلّق بهدفه الحقيقيّ من صنع المعجزات، وهو أحد الأمور التي يبدو أنّ المسيحيّين يسيئون فهمَها أكثر من أيّ شيء آخر في الكتاب المقدّس. كان الغرض الأساسيّ من المعجزات، في العهدين القديم والجديد، هو التحقّق من ناقلي الوحي. جاء الفرّيسي نيقوديموس إلى يسوع ليلًا وقال له: **«يَا مُعَلِّمُ، نَعْلَمُ أَنَّكَ قَدْ أَتَيْتَ مِنَ ٱللهِ مُعَلِّمًا، لِأَنْ لَيْسَ أَحَدٌ يَقْدِرُ أَنْ يَعْمَلَ هَذِهِ ٱلْآيَاتِ ٱلَّتِي أَنْتَ تَعْمَلُ إِنْ لَمْ يَكُنِ ٱللهُ مَعَهُ»** (يوحنّا ٣: ٢). لا يُمكّن الله الشياطين من صنع معجزات

حقيقيّة، بل هي تصنع أعمالًا كاذبة ومزيّفة. تقتصر المعجزات الحقيقيّة في الكتاب المقدّس على أولئك الذين يضع الله عليهم ختم موافقته.

نقرأ في خروج ٣-٤ عن الصراع الذي خاضه موسى لقبول دعوته للذهاب إلى مصر وإخراج شعب إسرائيل من العبوديّة. أمره الله أنْ يذهبَ إلى فرعون ليأمرَه أن يُطلقَ عبيدَه الإسرائيليّين. تردّد موسى مُحتجًّا بأنّ الإسرائيليّين لن يصدّقوا أنّ الله قد أرسله. لذلك أعطاه الله سلسلة من العلامات – ستتحوّل عصاه حيّة عندما يُلقيها على الأرض، وستُغطّى يده بالبرص عندما يضعها في عبّه، وسيتحوّل ماء النيل إلى دمّ عندما يسكب منه. قال الله إنّه أعطى هذه الآيات «لِكَيْ يُصَدِّقُوا أَنَّهُ قَدْ ظَهَرَ لَكَ ٱلرَّبُّ إِلَهُ آبَائِهِمْ، إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِلَهُ إِسْحَاقَ وَإِلَهُ يَعْقُوبَ» (خروج ٤: ٥). وعندما عبّر الإسرائيليّون عن شكوكهم بدعوته، استطاع موسى أن يُظهر لهم قوّة الله بطريقة لا يمكن لأحد أن يُنكرَ فيها سلطته.

أعطى يسوع قوّة للاثني عشر على الشياطين للسبب نفسه. كما قال هو نفسه في مكان آخر: «وَلَكِنْ إِنْ كُنْتُ بِأَصْبِعِ ٱللهِ أُخْرِجُ ٱلشَّيَاطِينَ، فَقَدْ أَقْبَلَ عَلَيْكُمْ مَلَكُوتُ ٱللهِ» (لوقا ١١: ٢٠). النجاح بأمر الشياطين بالخروج من الأشخاص الممسوسين سيكشف عن السلطان الذي مُنح للاثني عشر.

الاتّكال على العناية الإلهيّة

ثمّ **أَوْصَاهُمْ أَنْ لَا يَحْمِلُوا شَيْئًا لِلطَّرِيقِ غَيْرَ عَصًا فَقَطْ، لَا مِزْوَدًا وَلَا خُبْزًا وَلَا نُحَاسًا فِي ٱلْمِنْطَقَةِ. بَلْ يَكُونُوا مَشْدُودِينَ بِنِعَالٍ، وَلَا يَلْبَسُوا ثَوْبَيْنِ** (الآيتان ٨-٩). كان يسوع يطلب منهم أن يسافروا بحمل خفيف. هذا يعيد إلى الأذهان الخروج والفصح، الليلة التي كان على بني إسرائيل أنْ يغادروا مصر. لقد أُمروا أن يكونوا مستعدّين في أيّ لحظة لمغادرة منازلهم عندما يَطلب منهم الله ذلك. كان عليهم أن يكونوا مُرتدين لملابسهم للتحرّك بسرعة

والسفر بحمل خفيف. لقد أعطى يسوع رسلَه الأوامر نفسها.

من المثير للاهتمام أنّ روايات الأناجيل الأخرى لهذه الحادثة تشير إلى أنّ يسوع قال للرسل ألّا يحملوا عصا (متى ١٠: ١٠؛ لوقا ٩: ٣). ولكن هنا يوجد تمييز. كما نعلم، يقول المزمور ٢٣: ٤: «عَصَاكَ وَعُكَّازُكَ هُمَا يُعَزِّيَانِنِي». كانت العصا والعكاز أداتيْن تقليديّتيْن يستخدمهما الراعي. كان العكّاز عصا يستخدمه الراعي لتوجيه خرافه وأيضًا لمساعدته على المشي. هذا ما يتحدّث عنه مَرْقُس. أمّا متى ولوقا، فيذكران العصا. كان العصا سلاحَ الراعي ضدّ الحيوانات، كالدببة أو الأسود، أو ضدّ اللصوص. لذلك، لا يوجد تعارض بين مَرْقُس وبقيّة الأناجيل. كان يسوع يقول: «ليس مسموحًا لكم أن تأخذوا عصا قويّة معكم، لكن يمكنكم أن تأخذوا عصا للمشي».

منعَهم يسوع كذلك من أخذ مزود أو طعام أو مال. عندما ذكر كلمة «مزود»، لم يكن يشير إلى حقيبة سفر، بل إلى حقيبةٍ كان يستخدمها المتسوّلون. كان بذلك يمنعهم من التسوّل للحصول على احتياجاتهم. ستكون لهم احتياجات، لأنّه أوصاهم ألّا يأخذوا طعامًا ولا مالًا ليشتروا به الطعام. أخيرًا وليس آخرًا، طلب منهم ألّا يأخذوا ملابس إضافيّة. (وفقًا لمَرْقُس، سمح لهم يسوع بارتداء نِعال خفيفة، لكن في متّى طلب منهم ألّا يأخذوا أحذية ثقيلة؛ متّى ١٠:١٠). كان الأمر كما لو أنّه يقول لهم: «عليكم أن تعتمدوا على أبي في كلّ ما يختصّ بهذه الإرساليّة. لا يجب أن تأخذوا أيّ شيء معكم، ولا تغيّروا حقائبَكم». أرادَهم أنْ يتركوا وراءَهم كلّ ما يُثقلُهم، وأنْ يعتمدوا بالكامل على العنايةِ الإلهيّة.

سيترتّب على الأشخاص الذين سيلتقون بهم في طريقهم تسديدَ احتياجاتِهم. قال يسوع: **«حَيْثُمَا دَخَلْتُمْ بَيْتًا فَأَقِيمُوا فِيهِ حَتَّى تَخْرُجُوا مِنْ هُنَاكَ»** (الآية ١٠). من الواضح أنّ يسوع قصدَ بذلك أنّه سيتمّ تقديم الضيافة للرسلَ بشكل غير متوقّع أثناءَ سفرهم. وبعد تسديد احتياجاتهم

الماديّة، سيكونون قادرين على التركيز في مَهمَّتهم. كان توفير المسكن خلال سفرهم السبب الآخر ليأمر يسوع الرجال بعدم أخذِ ثوبَيْن. في العالم القديم، غالبًا ما كان المسافرون يُضطرّون إلى النوم في الهواء الطلق، وكان الغرض من الثوب الثاني أنْ يكونَ بمثابة غطاء لحمايتهم من العوامل الجويّة. كان يسوع يقول إنّ رسُلَه لن يحتاجوا أن يقلقوا بشأن ذلك، لأنّهم سيقضون الليل في الداخل.

من الممكن أنّ يسوع وجّه هذه الوصيّة لسبب آخر. ربّما قصد أنْ يقولَ إنّه في حال عَرض عليهم شخص فقير مسكنه المتواضع ليستخدموه أثناء إقامتهم في بلدته، فعليهم قبول عرضه بكلّ فرح وسرور. ولكن عندما يدخلون منزل هذا الرجل الفقير، لا يجب عليهم المغادرة، حتّى لو دعاهم رجل ثريّ في وقت لاحق للانتقال إلى منزله. بمعنى آخر، لا يجب عليهم قبول عروضٍ أفضل، والمخاطرة بإهانة صاحب المنزل المتواضع.

أرى هذا النوع من الأشياء يحدث في الخدمة طوال الوقت. تقوم كنيسة صغيرة بدعوة واعظ للتحدّث فيها. يقبل الدعوة ويُسجّل الموعد على أجندته الخاصّة. ولكن بعد فترة، تأتي إليه لجنة تُنظّم لقاءً وطنيًّا كبيرًا، وتعده بحضور الآلاف، وبأنّه سيحصل على تقدمة ماليّة كبيرة. في حالة مثل هذه، يطلب مُعظم الوعّاظ من الكنيسة الصغيرة تحديد موعد جديد له. والعمّال الحِرَفيّون يفعلون ذلك أيضًا؛ فهم يعدونك بأن يأتوا إلى منزلك للقيام بمهمّة إصلاح صغيرة في وقت محدّد، ولكنّهم لا يحضرون في الموعد المحدّد. لماذا؟ لأنّهم حصلوا على وظيفة أكبر وأكثر ربحًا. كان يسوع حاسمًا في ذلك حين قال: «لِيَكُنْ كَلَامُكُمْ: نَعَمْ نَعَمْ، لَا لَا. وَمَا زَادَ عَلَى ذَلِكَ فَهُوَ مِنَ ٱلشِّرِّيرِ» (متى ٥: ٣٧).

الاستعداد للرفض

أضاف يسوع: **«وَكُلُّ مَنْ لَا يَقْبَلُكُمْ وَلَا يَسْمَعُ لَكُمْ، فَٱخْرُجُوا مِنْ هُنَاكَ وَٱنْفُضُوا ٱلتُّرَابَ ٱلَّذِي تَحْتَ أَرْجُلِكُمْ شَهَادَةً عَلَيْهِمْ»** (الآية ١١أ). تعود عادة ممارسة نفضِ الغبار عن الأقدام إلى العصور القديمة. عندما كان اليهود يعودون إلى موطنهم بعد سفرهم إلى بلدان الأمم، كان يُطلب منهم نفض الغبار عن أقدامهم عند الحدود، لئلّا يُدخلوا معهم إلى إسرائيل تلوّث العالم الوثنيّ. يرمز هذا العمل إلى دينونة الله على الوثنيّة. من المثير للاهتمام أنّ بولس وبرنابا قاما بهذا فعلًا مرّة واحدة على الأقلّ خلال رحلتهما التبشيريّة الأولى، عندما تدخّل اليهود في خدمة واعدة لهما بين الأمم في أنطاكية بيسيدية (أعمال الرسل ١٣: ٥١).

لا يوجد حِياد مع المسيح، فإمّا أن تكون معه أو ضدّه. لا يوجد في ملكوت الله أرض محايدة. عندما نقوم اليوم في الكنيسة بخدمة الكرازة الجماعيّة، فإنّ الأسلوب التقليديّ المُتّبع هو تقديم دعوة بعد العظة. نقول: «فليتقدّم الآن كلّ من يودّ أن يتجاوب مع المسيح». ولكنّنا لا نضيف عادةً هذا العبارة: وكلّ مَن لا يودّ الاستجابة للمسيح، فليذهب إلى الجحيم. الإنجيل سيف ذو حدَّيْن، إنْ قَبِلْناه نَنل الحياة الأبديّة، وإن رفضناه بشكل كامل ونهائي، فسيكون مصيرنا الهلاك الأبديّ.

قدّم يسوع مقارنة مُرعبة لتوضيح هذا الهلاك: **«اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: سَتَكُونُ لِأَرْضِ سَدُومَ وَعَمُورَةَ يَوْمَ ٱلدِّينِ حَالَةٌ أَكْثَرُ ٱحْتِمَالًا مِمَّا لِتِلْكَ ٱلْمَدِينَةِ»** (الآية ١١ب). لا تتضمّن جميع المخطوطات القديمة هذا الامتداد للآية ١١. ولكن يسوع أعطى هذه المقارنة نفسها في سياقات أخرى، وهي مُسجّلة في الأناجيل الإزائيّة الأخرى، لذا، فإنّ الأمر يستحقّ الدراسة. ببساطة، كان يسوع يقول: سيتعرّض أيّ شخصٍ يرفض بُشرى الإنجيل من شفاه من يُمثّلونه لدينونة أشدّ من دينونة مدينتَيْ سدوم وعمورة الشرّيرتين

في العهد القديم، المدينتَيْن اللتَيْن دمّرهما الله بالنار (تكوين ١٩: ٢٤-٢٥).

لنا في هذا التصريح من ربّنا درسان على الأقلّ. أوّلًا، لم يتردّد يسوع في الحديث عن دينونة أخيرة، بل تحدّث في الواقع عنها كثيرًا. الدينونة الأخيرة أمر محتوم، وسيتعيّن على كلّ واحد منّا الظهور أمامَها. ثانيًا، ستكون الدينونة الأخيرة مسألة درجات، لأنّه يوجد درجات من الخطية ودرجات من الطاعة. على الرغم من أنّه ليس لأعمالنا أيّ استحقاق جوهريّ، إلّا أنّ يسوع كثيرًا ما قال إنّ المكافأة التي سننالها في السماء ستكون بمقدار الطاعة في حياتنا هذه. وبالطريقة نفسها، سيكون في الجحيم مستويات من العقوبة. يحذّر بولس أهل رومية غير النادمين ألّا يُذخّروا لأنفسهم «غَضَبًا فِي يَوْمِ ٱلْغَضَبِ» (رومية ٢: ٥). قال أحد أساتذتي في المعهد اللاهوتيّ ذات مرّة: «سيكون الخاطئ في الجحيم مُستعدًّا أن يعطيَ كلّ ما يَمْلك وأنْ يفعلَ كلّ ما في وسعه لتقليل عدد الخطايا التي ارتكبها في حياته». يجب أن نشعرَ بالرعدة حين نسمع يسوع يقول إنّ الدينونة على الذين رفضوا الرسل ستكون أعظم من دينونة مدينتَيْ سدوم وعمورة، اللتيْن كانتا ترمزان إلى حضيض الانحطاط البشريّ في العهد القديم.

عدد قليل من الناس اليوم يؤمنون بهذه الحقيقة. كثيرون لا يؤمنون أنّه سيكون هنالك دينونة. حتّى أولئك الذين يُقرّون بوجود دينونة غالبًا ما يستنتجون أنّ الشخص إمّا أن يَخلُصَ أو يُدان، ولا يوجد تمييز بين أفضل وأسوأ القدّيسين والخطاة. يقول الناس أحيانًا: «حسنًا، لقد اشتهيت، وقد أفعل ذلك مرّة أخرى»، أو «خطية صغيرة واحدة لن تؤذيني بشيء». خلاصةُ القول هي أنّنا لا نؤمن بإله يستاء بشدّة من كلّ انتهاك لمعاييره المقدّسة. لا بدّ لنا أن نرى أنّ كلّ خطيّة ستُقدّم للدينونة، وأنّ عدالة الله ستكون كاملة. البعض سيُضرَب كثيرًا، والبعض الآخر سيُضرَب قليلًا (لوقا ١٢: ٤٧-٤٨).

ويختم مَرْقُس قائلًا: **فَخَرَجُوا وَصَارُوا يَكْرِزُونَ أَنْ يَتُوبُوا. وَأَخْرَجُوا شَيَاطِينَ كَثِيرَةً، وَدَهَنُوا بِزَيْتٍ مَرْضَى كَثِيرِينَ فَشَفَوْهُمْ** (الآيات ١٢-١٣). فَعَلَ الرسلُ ما أوصى به يسوع. لقد بشّروا ومارسوا سلطانَهم على الشياطين والأمراض. كانت تجربتُهم ناجحةً وصورةً مُصغّرة لإرساليّة الكنيسة القويّة والمستمرّة.

١٨

موت
يوحنّا المعمدان

مَرْقُس ٦: ١٤-٢٩

فَسَمِعَ هِيرُودُسُ ٱلْمَلِكُ، لِأَنَّ ٱسْمَهُ صَارَ مَشْهُورًا. وَقَالَ: إِنَّ يوحنّا ٱلْمَعْمَدَانَ قَامَ مِنَ ٱلْأَمْوَاتِ وَلِذَلِكَ تُعْمَلُ بِهِ ٱلْقُوَّاتُ. قَالَ آخَرُونَ: إِنَّهُ إِيلِيَّا. وَقَالَ آخَرُونَ: إِنَّهُ نَبِيٌّ أَوْ كَأَحَدِ ٱلْأَنْبِيَاءِ. وَلَكِنْ لَمَّا سَمِعَ هِيرُودُسُ قَالَ: هَذَا هُوَ يوحنّا ٱلَّذِي قَطَعْتُ أَنَا رَأْسَهُ. إِنَّهُ قَامَ مِنَ ٱلْأَمْوَاتِ. لِأَنَّ هِيرُودُسَ نَفْسَهُ كَانَ قَدْ أَرْسَلَ وَأَمْسَكَ يوحنّا وَأَوْثَقَهُ فِي ٱلسِّجْنِ مِنْ أَجْلِ هِيرُودِيَّا ٱمْرَأَةِ فِيلُبُّسَ أَخِيهِ، إِذْ كَانَ قَدْ تَزَوَّجَ بِهَا. لِأَنَّ يوحنّا كَانَ يَقُولُ لِهِيرُودُسَ: لَا يَحِلُّ أَنْ تَكُونَ لَكَ ٱمْرَأَةُ أَخِيكَ. فَحَنِقَتْ هِيرُودِيَّا عَلَيْهِ، وَأَرَادَتْ أَنْ تَقْتُلَهُ وَلَمْ تَقْدِرْ، لِأَنَّ هِيرُودُسَ كَانَ يَهَابُ يوحنّا عَالِمًا أَنَّهُ رَجُلٌ بَارٌّ وَقِدِّيسٌ، وَكَانَ يَحْفَظُهُ. وَإِذْ سَمِعَهُ، فَعَلَ كَثِيرًا، وَسَمِعَهُ بِسُرُورٍ. وَإِذْ كَانَ يَوْمٌ مُوافِقٌ، لَمَّا صَنَعَ هِيرُودُسُ فِي مَوْلِدِهِ عَشَاءً لِعُظَمَائِهِ وَقُوَّادِ ٱلْأُلُوفِ وَوُجُوهِ ٱلْجَلِيلِ، دَخَلَتِ ٱبْنَةُ هِيرُودِيَّا وَرَقَصَتْ، فَسَرَّتْ هِيرُودُسَ وَٱلْمُتَّكِئِينَ مَعَهُ. فَقَالَ ٱلْمَلِكُ لِلصَّبِيَّةِ: مَهْمَا أَرَدْتِ ٱطْلُبِي مِنِّي فَأُعْطِيَكِ. وَأَقْسَمَ لَهَا أَنْ: مَهْمَا طَلَبْتِ مِنِّي لَأُعْطِيَنَّكِ حَتَّى نِصْفَ مَمْلَكَتِي.

فَخَرَجَتْ وَقَالَتْ لِأُمِّهَا: مَاذَا أَطْلُبُ؟ فَقَالَتْ: رَأْسَ يوحنّا ٱلْمَعْمَدَانِ. فَدَخَلَتْ لِلْوَقْتِ بِسُرْعَةٍ إِلَى ٱلْمَلِكِ وَطَلَبَتْ قَائِلَةً: أُرِيدُ أَنْ تُعْطِيَنِي حَالًا رَأْسَ يوحنّا ٱلْمَعْمَدَانِ عَلَى طَبَقٍ. فَحَزِنَ ٱلْمَلِكُ جِدًّا. وَلِأَجْلِ ٱلْأَقْسَامِ وَٱلْمُتَّكِئِينَ لَمْ يُرِدْ أَنْ يَرُدَّهَا. فَلِلْوَقْتِ أَرْسَلَ ٱلْمَلِكُ سَيَّافًا وَأَمَرَ أَنْ يُؤْتَى بِرَأْسِهِ. فَمَضَى وَقَطَعَ رَأْسَهُ فِي ٱلسِّجْنِ. وَأَتَى بِرَأْسِهِ عَلَى طَبَقٍ وَأَعْطَاهُ لِلصَّبِيَّةِ، وَٱلصَّبِيَّةُ أَعْطَتْهُ لِأُمِّهَا. وَلَمَّا سَمِعَ تَلَامِيذُهُ، جَاءُوا وَرَفَعُوا جُثَّتَهُ وَوَضَعُوهَا فِي قَبْرٍ.

هيرودس الكبير الذي حكم فلسطين كملك تابع للإمبراطوريّة الرومانيّة من ٣٧ إلى ٤ قبل الميلاد، هو «هيرودس» المذكور في روايات الإنجيل عن ولادة يسوع. عند وفاته، قُسّمت مملكته إلى أربعة أجزاء بين أبنائه الأربعة، حيث أصبح كلّ واحد منهم «tetrarch» أي «رئيس ربع» لواحدة من هذه الأجزاء الأربعة. هيرودس أنتيباس، الذي أصبح رئيس ربع للجليل وبيريا، هو «هيرودس» المذكور في رواية لوقا عن آلام يسوع (٢٣: ٦–١٢). وهكذا، يظهر أعضاء عائلة هيرودس في الكتاب المقدّس في بداية حياة يسوع ونهايتها، ولكن هيرودس أنتيباس مذكور أيضًا في مَرقُس ٦ حيث ينتقل مَرْقُس من الكلام عن أعمال ليسوع ليتكلّم عن مصير يوحنّا المعمدان.

عندما كان هيرودس أنتيباس في السنة الثلاثين من حكمه الذي دام ثلاثة وأربعين عامًا كرئيس ربع، بدأ يسمع شائعاتٍ عن شخص صانع للمعجزات. استطاع أن يصلَ إلى استنتاج واحد فقط حول مَن يكون، وكيف حصل على هذه القوّة. يكتب مَرْقُس: **فَسَمِعَ هِيرُودُسُ ٱلْمَلِكُ، لِأَنَّ ٱسْمَهُ صَارَ مَشْهُورًا. وَقَالَ: إِنَّ يوحنّا ٱلْمَعْمَدَانَ قَامَ مِنَ ٱلْأَمْوَاتِ وَلِذَلِكَ تُعْمَلُ بِهِ ٱلْقُوَّاتُ** (الآية ١٤).

كانت شُهرة يوحنّا حتى هذه المرحلة من خدمة يسوع العامّة تطغى

على شهرته، لأنّ اليهود اندهشوا تمامًا عند تجديد منصب النبيّ. كان للأنبياء أهميّة قصوى في أيّام العهد القديم، لكن الكلمة النبويّة توقّفت لمئات السنين، إلى أنْ خرج يوحنّا من البريّة بروح إيليّا وقوّته. كانت شهرة يوحنّا كبيرة جدًّا لدرجة أنّ هيرودس أنتيباس نفسه كان يعرفه جيّدًا. لكنّ هيرودس كان أكثر من مجرّد مُعجبٍ عاديّ بيوحنّا؛ لأنّ علاقتهما تحوّلت لاحقًا إلى علاقة شخصيّة جدًّا.

الفكرة الأولى التي خطرت على بال هيرودس هي أنّ يوحنّا المعمدان قد عاد من بين الأموات، لأنّ يوحنّا كان قد مات بحلول هذا الوقت، كما سيوضّح مَرْقُس بعد قليل. كانت فكرة عودة يوحنّا إلى الحياة تُقلق هيرودس لأنّه كان في العالم القديم فكرة سائدة مفادها أنّ القيامة كانت علامة على دينونة وشيكة. وفكّر هيرودس أنّه إنْ كان يوحنّا قد قام فعلًا، فلا بدّ أنّه سيأتي بدينونة الله على أعدائه، وأوّلهم هيرودس، الذي كان مسؤولًا عن موت يوحنّا.

وربّما قدّم آخرون نظريّات بديلة عن يسوع لتهدئة ضمير هيرودس الذي يُقلقه ذنبه: **قَالَ آخَرُونَ: إِنَّهُ إِيلِيَّا. وَقَالَ آخَرُونَ: إِنَّهُ نَبِيٌّ أَوْ كَأَحَدِ ٱلْأَنْبِيَاءِ** (الآية ١٥). في الواقع، لم تُهدّئ هذه النظريات كثيرًا من روع هيرودس. كان إيليّا شخصيّة رائعة. ربّما كانت كلمة «النبيّ» إشارة إلى النبيّ موسى الذي تنبّأ به (تثنية ١٨: ١٥). سيأتي شخص «كأحد الأنبياء» برسالة من الله لا تقدر إلّا أن تواجهَ هيرودس الفاسد.

في جميع الأحوال، لم يتزحزح هيرودس عن رأيه: **وَلَكِنْ لَمَّا سَمِعَ هِيرُودُسُ قَالَ: هَذَا هُوَ يوحنّا ٱلَّذِي قَطَعْتُ أَنَا رَأْسَهُ. إِنَّهُ قَامَ مِنَ ٱلْأَمْوَاتِ** (الآية ١٦). هنا، ولأوّل مرّة، نعرف ماذا كان مصير يوحنّا المعمدان؛ كان هيرودس قد أعدمَه بقطع رأسِه. ثمّ يتابع مَرْقُس ويسرد تتمّة هذه القصّة المروّعة بأكملها.

ملك بلا قيود

يُقال أحيانًا إنّ السلطة تُفسد الإنسان، وإنّ السلطةَ المطلقة تُفسده إلى التمام. أعتقدُ أنّ هذه الفرضيّة بمعناها الحرفيّ ضعيفة، لأنّ الكائن الوحيد الذي يمتلك القوّة المطلقة هو الله نفسه، وهو خالٍ من الفساد بشكل مُطلق. ومع ذلك، لا يمكننا إنكار أنّه من الناحية البشريّة، كلّما زادت قوّة الإنسان، زاد فساده. يتصّدر الرجال تقريبًا قائمة العقول الإجراميّة العظيمة والشخصيّات الشرّيرة في تاريخ العالم، مثل فراعنة مصر القديمة، والإمبراطور نيرون، وأدولف هتلر، وجوزيف ستالين. الأمر المشترك بين كلّ هؤلاء الرجال هو أنّهم كانوا حُكّامًا يمتلكون سلطة غير محدودة تقريبًا. أي أنّه لم يكن أحد (على الأقلّ داخل بلادهم) يمارس أيّ قيود عليهم. لم يكن هيرودس يمتلك القوّة التي كان يمتلكها هتلر أو ستالين، ولكن في عالمه الصغير، كانت دوافعه الشرّيرة بلا قيود. ومع ذلك، كان يوحنّا المعمدان يتمتّع بشجاعة كافية لمحاولة كبح جماحه.

بدأ كلّ شيء عندما واجه يوحنّا هيرودس بشأن خطية في حياته، فكان ردّ فعل هيرودس انتقاميًّا: **لِأَنَّ هِيرُودُسَ نَفْسَهُ كَانَ قَدْ أَرْسَلَ وَأَمْسَكَ يوحنّا وَأَوْثَقَهُ فِي ٱلسِّجْنِ مِنْ أَجْلِ هِيرُودِيَّا ٱمْرَأَةِ فِيلُبُّسَ أَخِيهِ، إِذْ كَانَ قَدْ تَزَوَّجَ بِهَا. لِأَنَّ يوحنّا كَانَ يَقُولُ لِهِيرُودُسَ: لَا يَحِلُّ أَنْ تَكُونَ لَكَ ٱمْرَأَةُ أَخِيكَ. فَحَنِقَتْ هِيرُودِيَّا عَلَيْهِ، وَأَرَادَتْ أَنْ تَقْتُلَهُ وَلَمْ تَقْدِرْ، لِأَنَّ هِيرُودُسَ كَانَ يَهَابُ يوحنّا عَالِمًا أَنَّهُ رَجُلٌ بَارٌّ وَقِدِّيسٌ، وَكَانَ يَحْفَظُهُ. وَإِذْ سَمِعَهُ، فَعَلَ كَثِيرًا، وَسَمِعَهُ بِسُرُورٍ** (الآيات ١٧-٢٠). دعوني أقدّم لكم بعض المعلومات عن خلفيّة ما كان يجري، ثمّ سأحاول التكلّم عن تفاصيل هذه الحادثة الرهيبة.

رأينا سابقًا أنّه عندما خرج يوحنّا من البريّة، جاء كمُبشّرٍ بالمسيّا. كان الشاهد الذي مسحه الله ليعلنَ لإسرائيل عن مجيء ملكوت الله، وظهور ملك الله

الممسوح. كان يوحنّا أوّل شاهد بشريّ ليسوع؛ فهو الذي «ارتكض» في بطن أمّه أليصابات عندما جاءَت مريم تزورها وهي حُبلى بيسوع (لوقا ١: ٤١). وشهد لاحقًا ليسوع أنّه «حَمَلُ ٱللهِ ٱلَّذِي يَرْفَعُ خَطِيَّةَ ٱلْعَالَمِ» (يوحنّا ١: ٢٩). كانت مَهمّته الرئيسة دعوة شعب إسرائيل للاستعداد لمجيء ملكهم، ولكنّه كان أكثر تحديدًا في إدانة الخطية في حالة واحدة على الأقلّ – فقد صرخ في وجه هيرودس أنتيباس بسبب الزنى الذي أصبح نمط حياته.

كان هيرودس متزوّجًا من ابنة أريتاس، ملك النبطيّة، وهي مملكة مجاورة للمنطقة التي كان هيرودس أنتيباس حاكمًا عليها. لكنّه أقام علاقة زنى مع هيروديا، زوجة أخيه غير الشقيق ثمّ تزوّجها في النهاية. كان هذا الترتيب بحسب الشريعة اليهوديّة غير قانونيّ لسببَيْن. كان الزنى السبب الأوّل، والسبب الثاني هو أنّ الشريعة اليهوديّة تُحرّم إقامة علاقة جنسيّة مع زوجة الأخ (لاويين ٢٠: ٢١). واجه يوحنّا هيرودس بشأن خطيته هذه بجسارة نموذجيّة نجدها عند العديد من الأنبياء.

يبدو أنّ هيروديا انزعجت من إدانة يوحنّا لهيرودس أكثر من هيرودس نفسه، فدفعت هيرودس إلى الردّ على يوحنّا؛ يكتب مَرْقُس أنّ هيرودس سجن يوحنّا مِنْ أَجْلِ هِيرُودِيَّا. لكنّ هيرودس لم يستسلم لمطالب هِيرُودِيَّا بإعدام يوحنّا. يُخبرنا مَرْقُس عن السبب: «لِأَنَّ هِيرُودُسَ كَانَ يَهَابُ يوحنّا عَالِمًا أَنَّهُ رَجُلٌ بَارٌّ وَقِدِّيسٌ، وَكَانَ يَحْفَظُهُ». وفوق هذا، «سمعه بسرور». يبدو أنّ هيرودس كان يكّن بعض الإعجاب والاحترام ليوحنّا.

إنّ الضمير هو أعظم ما وضعه الله في الإنسان ليحدّ من شرّه. يوصَف أحيانًا أكثر الناس شرًّا كالمعتلّين اجتماعيًّا وعقليًّا، بأنّهم بلا ضمير؛ ومع ذلك، لم يتمكّنوا من القضاء تمامًا على صوت الصواب والخطأ الذي زرعه الله في كلّ مخلوق بشريّ. يتحدّث بولس عن الشريعة المكتوبة على القلب، بحيث يشهد ضمير الإنسان عن معايير الله، وهكذا تبدأ أفكار الإنسان

تشتكي عليه أو تعذره (رومية ٢: ١٢-١٦).

بالطبع، لا يمكننا أن نقع في فخّ «علم اللاهوت الصبيانيّ» لأنّه لا يمكننا دائمًا أن نسمح لضمائرنا بأن تُرشدنا. إن اتّبعنا ضمائرنا في كلّ شيء، فسوف تقودنا إلى كارثة. رغم أنّ الله غرس ضميرًا في ذهن كلّ إنسان، إلّا أن تجاوزاتنا المتكرّرة تُميت ضمائرَنا، فنتعلّم كيف نُسكِته وكيف نقضي عليه تمامًا. بعبارة أخرى، يمكن أن تتشوّه ضمائرُنا، ويُمكن أن تصبح ملتوية. وبالتالي، إنْ تركنا الضمير وحدَه مُرشدًا لنا، فسنعِشْ على الأغلب في شرّ لا قيود عليه.

ومع ذلك، بغضّ النظر عن المدى الذي قد نذهب إليه في شرّنا، وبغضّ النظر عن مدى سعينا لخنق ضمائرنا، لا يمكننا في النهاية تحقيق ذلك. إنّ الأشخاصَ المعادين لأمور الله في هذا العالم، والذين لا يتورّعون عن السلوك في الشرّ كلّ يوم، لا ينامون دائمًا بسهولة في الليل. عندما يضع هؤلاء رؤوسهم على الوسادة، يُدركون أنّ الطريقة التي يعيشون بها ليست صالحة. أعتقد أن هذا يفسّر إلى حدّ ما افتتان هيرودس بيوحنّا المعمدان.

في بداية القرن العشرين، قام عالم لاهوت واجتماع ألمانيّ بدراسة ردود أفعال البشر تّجاه الأمور التي يعتبرونها مقدّسة، ووجد أنّ القداسة مُرعبة ومثيرة للخاطئ في آن واحد. نحن نعلم أنّنا لسنا قدّيسين، ونعلم أنّ حياتَنا ليست مُستقيمة. ولكنّنا لا نريد أن نسمعَ أحكامًا ضدّنا. لذلك نخاف ممّا هو مقدّس. لهذا يخبرنا مَرْقُس أنّ هيرودس «كان يهاب يوحنّا». لم يكن خوفُه هذا نتيجةَ قوّة كامنة في يوحنّا لإيذاء هيرودس، بل لأنّه أدرك أنّ يوحنّا «رَجُلٌ بَارٌّ وَقِدِّيسٌ». ومع هذا، عندما تقترب القداسة منّا، بقدر ما هي مخيفة، إلّا أنّنا ننجذب إليها. وهكذا، حتّى في خوفه، أراد هيرودس أنْ يستمعَ إلى حديث يوحنّا. كان خائفًا من يوحنّا ومنجذبًا إليه في الوقت نفسه.

لديّ صديق كان يلعب في رابطة لاعبي الغولف المحترفين منذ سنوات. أخبرني ذات مرّة عن أحد معارفه الذي تمّ اختياره كأفضل لاعب غولف لذلك العام. في إحدى المرّات، لعب لاعب الجولف المُحترف هذا جولة مع بيلي جراهام. عند انتهاء الجولة، خرج مُسرعًا وبغضب واتّجه نحو الملعب المخصّص للتدريب، وبدأ يضرب الطابات في حالة من الغضب. لاحظ صديقي انفعالَه الواضح وسأله عن سبب انزعاجه، فأجابه: «أنا لست بحاجة أن يُلقّمني الدينَ شخصٌ مثل بيلي جراهام». ثمّ عاد إلى ضرب طابات الغولف بغضب. عندما انتهى، سار إليه صديقي وقال له: «لا بدّ أنّ كلام بيلي كان صعبًا بالنسبة إليك، أليس كذلك؟» عند ذلك، رفع لاعب الجولف رأسه وقال: «لا، في الواقع لم يقلْ لي بيلي كلمة واحدة عن الدّين. ما حدث هو أنّني كنت متوتّرًا بعض الشيء». أليس هذا مُدهشًا؟ لم يقل الدكتور جراهام كلمة واحدة عن الدّين لهذا الرجل، لكنّه لم يكن مضطرًّا لفعل ذلك، فمجرّد وجود الدكتور جراهام وما يمثّله للاعب الغولف هذا كان كافيًا لجعله غير مرتاح أبدًا بوجوده قربه.

كان لاعب الغولف هذا مثل هيرودس أنتيباس أمام يوحنّا المعمدان. لم يستطع أن يُنكر أنّ يوحنّا كان رجلًا بارًّا وقدّيسًا. كان خائفًا منه ومنبهرًا به في آنٍ واحد. وافق على وضع يوحنّا في السجن لإسعاد زوجته، لكنّه لم يفعل به أكثر من ذلك. لم يكن يريد أن يقتلَ يوحنّا.

قَسَمٌ غير حكيم

لكن هِيرُودِيَّا وجدت طريقة لتحقيق غايتها المرجوّة بالخداع. كتب مَرْقُس: **وَإِذْ كَانَ يَوْمٌ مُوافِقٌ، لَمَّا صَنَعَ هِيرُودُسُ فِي مَوْلِدِهِ عَشَاءً لِعُظَمَائِهِ وَقُوَّادِ ٱلْأُلُوفِ وَوُجُوهِ ٱلْجَلِيلِ** (الآية ٢١). أقام هيرودس حفلًا تكريمًا لنفسه، وكانت على قائمة المدعوّين شخصيّات من الجليل – كالقادة والنبلاء

والبيروقراطيّين ورجال الأعمال، وما إلى ذلك. كانت ابنة زوجته توفّر الترفيه لهم: **دَخَلَتِ ٱبْنَةُ هِيرُودِيَّا وَرَقَصَتْ** (الآية ٢٢أ). لم يذكر الكتاب المقدّس اسمها، لكن المؤرّخ اليهودي يوسيفوس قال إنّ اسمها سالومي. وكانت ترقص في مثل هذه الحفلات بطريقة شهوانيّة وحسّية. وبالنظر إلى شخصيّة هيرودس، فقد أُعجب جدًّا برقص سالومي: **فَسَرَّتْ هِيرُودُسَ وَٱلْمُتَّكِئِينَ مَعَهُ** (الآية ٢٢ب).

لسعادته ورغبته في الظهور بمظهر شجاع وكريم أمام ضيوفه، قال هيرودس لسالومي: **مَهْمَا أَرَدْتِ ٱطْلُبِي مِنِّي فَأُعْطِيَكِ... مَهْمَا طَلَبْتِ مِنِّي لَأُعْطِيَنَّكِ حَتَّى نِصْفَ مَمْلَكَتِي** (الآيتان ٢٢ج–٢٣). بالطبع، لا يجب أنْ تُفهم عبارة «حتّى نصف مملكتي» حرفيًّا، فقد كان هذا التعبير شائعًا عند الحكّام في العصور القديمة، والمعنى المقصود بهذا المصطلح هو: «أنا مستعدّ أن أكافئك بسخاء».

عندما سمعت سالومي هذا العرض، ذهبت تطلب مشورةَ والدتِها: **فَخَرَجَتْ وَقَالَتْ لِأُمِّهَا: مَاذَا أَطْلُبُ؟ فَقَالَتْ: رَأْسَ يوحنّا ٱلْمَعْمَدَانِ!** (الآية ٢٤). ها الفرصة تُتاح أخيرًا أمام هِيرُودِيَّا. فأمرت ابنتَها أنْ تطلبَ من الملك إعدام يوحنّا. لا يوجد ما يُشير في النصّ إلى أنّ الفتاة أُصيبت بخيبةِ أمل لعدم حصولها على شيء لنفسها؛ ربّما كانت هي أيضًا معارِضة ليوحنّا أكثر من هِيرُودِيَّا، أو ربّما لم تجرؤ على الاختلاف مع والدتها ذات الإرادة القويّة. في جميع الأحوال، كتب مَرْقُس أنّها: **دَخَلَتْ لِلْوَقْتِ بِسُرْعَةٍ إِلَى ٱلْمَلِكِ وَطَلَبَتْ قَائِلَةً: أُرِيدُ أَنْ تُعْطِيَنِي حَالًا رَأْسَ يوحنّا ٱلْمَعْمَدَانِ عَلَى طَبَقٍ»** (الآية ٢٥).

ماذا كان ردّ فعل هيرودس؟ **حَزِنَ ٱلْمَلِكُ جِدًّا** (الآية ٢٦أ). لم يَخطر على باله قطّ أن تطلبَ سالومي أمرًا مثل هذا. ولكن، **لِأَجْلِ ٱلْأَقْسَامِ وَٱلْمُتَّكِئِينَ لَمْ يُرِدْ أَنْ يَرُدَّهَا** (الآية ٢٦ب). فبعد أنْ وعدَ الفتاة أن يُعطيها أيّ شيء تطلبه على مسمع من ضيوفه، لم يرغب الملك في التراجع واعتبر

نفسه مُلزمًا بالقسم الذي أقسمه.

القسَم أو النذر هو عمل شديد الخطورة. يُخصّص إقرار إيمان وستمنستر، وهو أحد أعظم البيانات العقائديّة في تاريخ الكنيسة، فصلًا كاملًا عن القسَم القانونيّ والنذور. لكنّنا اليوم فقدنا فهمنا لقدسيّة القسم. نُقدّم وعودًا أمام الله وأمام شهود وأمام أفراد العائلة وأمام الكنيسة، وننساها بمجرّد أن ينتهي اجتماع الخدمة. علينا أن نتعلّم كيف نحافظ على القسم الذي نتعهّد به في حياتنا. حذّرنا الكتاب المقدّس حين قال: «أَنْ لَا تَنْذُرُ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَنْذُرَ وَلَا تَفِيَ» (الجامعة ٥: ٥).

في الوقت نفسه، يوضّح لنا الكتاب المقدّس أنّ بعض الوعود غير مشروعة ولا ينبغي الالتزام بها. ففي سفر القضاة، كان يفتاح يستعدّ للمعركة حين تعهّد لله أن يُضحّي بأوّل ما يخرج من باب منزله عند عودته إلى المنزل إن انتصر جيشه في الحرب. لقد كسب معركته بالفعل، ولكن عندما عاد إلى المنزل، خرجت ابنته من الباب. كان ينبغي على يفتاح أن يتراجعَ عن نذره الجاهل حالًا، لأنّه كان واضحًا أنّه ألزم نفسه بأنْ يفعل أمرًا ينهى عنه الله. ولكن بدلًا من ذلك، حافظ على وعده وضحّى بابنته.

كان نذر هيرودس غير شرعيّ بالطريقة نفسها. ألزمه نذره بفعل شيء شرّير في عينَيْ الله. لكنّه لم يتراجع بسبب كبريائه – كما لو أنّ الوفاء بالوعود كان أمرًا مُقدّسًا عند هذا الرجل. كانت المشكلة أنّ ضيوفَه، وهم من الطبقة الراقية في الجليل، قد سمعوا وعدَه، وفي تفكيره الملتوي، كان يعتقد أنّ سيكون أقلّ شأنًا إنْ لم يحافظ على كلمته.

كتب مَرْقُس: **فَلِلْوَقْتِ أَرْسَلَ ٱلْمَلِكُ سَيَّافًا وَأَمَرَ أَنْ يُؤْتَى بِرَأْسِهِ. فَمَضَى وَقَطَعَ رَأْسَهُ فِي ٱلسِّجْنِ. وَأَتَى بِرَأْسِهِ عَلَى طَبَقٍ وَأَعْطَاهُ لِلصَّبِيَّةِ، وَٱلصَّبِيَّةُ أَعْطَتْهُ لِأُمِّهَا** (الآيتان ٢٧–٢٨). يا لها من قصّة مروّعة. يا لها من حفلة

عيد ميلاد، حيث أُحضر رأسُ رجل مقطوع على طبق على مرأى من الضيوف!

قبل عدّة عقود من الزمن، قال عالم لاهوت بارز إنّ الثقافة الأمريكيّة لم تعد ثقافة مسيحيّة؛ بل أصبحت بالحري وثنيّة جديدة. أمّا اليوم، فقد يكون مُصطلح الوثنيّة الجديدة مُعتدلًا جدًّا، وقد تكون كلمة بربريّة أفضل كلمة لوصف الثقافة الأمريكيّة. نعم، حضارتنا متعلّمة ومُثقّفة بدرجة عالية، ولكنّنا نذبح مليون ونصف طفل وهم في الرحم كلّ عام. هذه هي البربريّة. ولكن بما أنّ هذا العمل شرعيّ، نعتقد أنّه لا بدّ أن يكون مقبولًا. وقد لا تبدو حفلة مثل تلك الحفلة التي أقامها هيرودس سيئّة لهذه الدرجة في أمريكا اليوم.

يذكر مَرْقُس الخاتمة الحزينة لهذه الرواية: **وَلَمَّا سَمِعَ تَلَامِيذُهُ، جَاءُوا وَرَفَعُوا جُثَّتَهُ وَوَضَعُوهَا فِي قَبْرٍ** (الآية ٢٩). فَقَدَ أتباع يوحنّا سيّدهم بسبب نزوة حاكم شرّير أحمق. لم يقتله هيرودس فحسب، بل شوّه جسده. وكلّ ما كان باستطاعة تلاميذه فعله في حزنهم هو توفير دفن لائق له.

كان موت يوحنّا تمهيدًا تقشعرّ له الأبدان للتعذيب والتشويه والموت الذي سيتحمّله يسوع نفسه في المستقبل القريب. سوف يكون هيرودس موجودًا هناك ليسخر من المسيح بينما يقوم حاكم آخر لا مبالي بتعذيبه، وهو بيلاطس البنطيّ.

١٩

الراعي
يُطعم قطيعه

مَرْقُس ٦: ٣٠-٤٤

وَٱجْتَمَعَ ٱلرُّسُلُ إِلَى يَسُوعَ وَأَخْبَرُوهُ بِكُلِّ شَيْءٍ، كُلِّ مَا فَعَلُوا وَكُلِّ مَا عَلَّمُوا. فَقَالَ لَهُمْ: تَعَالَوْا أَنْتُمْ مُنْفَرِدِينَ إِلَى مَوْضِعٍ خَلَاءٍ وَٱسْتَرِيحُوا قَلِيلًا. لِأَنَّ ٱلْقَادِمِينَ وَٱلذَّاهِبِينَ كَانُوا كَثِيرِينَ، وَلَمْ تَتَيَسَّرْ لَهُمْ فُرْصَةٌ لِلْأَكْلِ. فَمَضَوْا فِي ٱلسَّفِينَةِ إِلَى مَوْضِعٍ خَلَاءٍ مُنْفَرِدِينَ. فَرَآهُمُ ٱلْجُمُوعُ مُنْطَلِقِينَ، وَعَرَفَهُ كَثِيرُونَ. فَتَرَاكَضُوا إِلَى هُنَاكَ مِنْ جَمِيعِ ٱلْمُدُنِ مُشَاةً، وَسَبَقُوهُمْ وَٱجْتَمَعُوا إِلَيْهِ. فَلَمَّا خَرَجَ يَسُوعُ رَأَى جَمْعًا كَثِيرًا، فَتَحَنَّنَ عَلَيْهِمْ إِذْ كَانُوا كَخِرَافٍ لَا رَاعِيَ لَهَا، فَٱبْتَدَأَ يُعَلِّمُهُمْ كَثِيرًا. وَبَعْدَ سَاعَاتٍ كَثِيرَةٍ تَقَدَّمَ إِلَيْهِ تَلَامِيذُهُ قَائِلِينَ: ٱلْمَوْضِعُ خَلَاءٌ وَٱلْوَقْتُ مَضَى. اِصْرِفْهُمْ لِكَيْ يَمْضُوا إِلَى ٱلضِّيَاعِ وَٱلْقُرَى حَوَالَيْنَا وَيَبْتَاعُوا لَهُمْ خُبْزًا، لِأَنْ لَيْسَ عِنْدَهُمْ مَا يَأْكُلُونَ. فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُمْ: أَعْطُوهُمْ أَنْتُمْ لِيَأْكُلُوا. فَقَالُوا لَهُ: أَنَمْضِي وَنَبْتَاعُ خُبْزًا بِمِئَتَيْ دِينَارٍ وَنُعْطِيَهُمْ لِيَأْكُلُوا؟ فَقَالَ لَهُمْ: كَمْ رَغِيفًا عِنْدَكُمْ؟ ٱذْهَبُوا وَٱنْظُرُوا. وَلَمَّا عَلِمُوا قَالُوا: خَمْسَةٌ وَسَمَكَتَانِ. فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوا ٱلْجَمِيعَ يَتَّكِئُونَ رِفَاقًا رِفَاقًا عَلَى ٱلْعُشْبِ ٱلْأَخْضَرِ. فَٱتَّكَأُوا صُفُوفًا صُفُوفًا: مِئَةً

مِئَةً وَخَمْسِينَ خَمْسِينَ. فَأَخَذَ ٱلْأَرْغِفَةَ ٱلْخَمْسَةَ وَٱلسَّمَكَتَيْنِ، وَرَفَعَ نَظَرَهُ نَحْوَ ٱلسَّمَاءِ، وَبَارَكَ ثُمَّ كَسَّرَ ٱلْأَرْغِفَةَ، وَأَعْطَى تَلَامِيذَهُ لِيُقَدِّمُوا إِلَيْهِمْ، وَقَسَّمَ ٱلسَّمَكَتَيْنِ لِلْجَمِيعِ، فَأَكَلَ ٱلْجَمِيعُ وَشَبِعُوا. ثُمَّ رَفَعُوا مِنَ ٱلْكِسَرِ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ قُفَّةً مَمْلُوَّةً، وَمِنَ ٱلسَّمَكِ. وَكَانَ ٱلَّذِينَ أَكَلُوا مِنَ ٱلْأَرْغِفَةِ نَحْوَ خَمْسَةِ آلَافِ رَجُلٍ.

ظهرَ في القرن التاسع عشر مدرسة لاهوتيّة عُرِفت باسم المدرسة الدينيّة التاريخيّة، وتوصف أحيانًا بالليبراليّة التاريخيّة. لقد كانت حركة مُحدّدة مُناهضة للخوارق الطبيعيّة جُملة وتفصيلًا. امتدّ تأثيرها إلى القرن العشرين مع ظهور الليبراليّة الجديدة، ومع ما عُرِف لاحقًا بـ Jesus Seminar. هاجمت هذه المدرسة كلّ الروايات الموجودة في الكتاب المقدّس، وبشكل خاصّ تلك الموجودة في العهد الجديد، والتي تضمّنت معجزاتٍ أو أمورًا خارقة للطبيعة، لأنّ افتراض النُقّاد الضمنيّ أنّه لا يوجد تدخّل إلهي خارق للطبيعة في التاريخ. عندما وصلوا إلى رواية إطعام يسوع للخمسة آلاف، تعهّدوا أنْ يُظهروا بأنفسهم كيف يمكن إعطاء تفسيرات طبيعيّة لا تتطلّب استخدام الخيال للإيمان بالمعجزات، منها ما كان غريبًا ومنها ما كان سخيفًا.

عندما كنتُ صغيرًا في بيتسبرغ، علّم خادم كنيستي أنّ لِمُعجزة إطعام الخمسة آلاف تفسيرَيْن مُحتملَيْن، وقد أخذهما من المدرسة الدينيّة التاريخيّة. التفسير الأسوأ هو أنّ يسوع استعدّ لهذا الحدث بعناية بعد أن ملأ كهفًا بالقرب من بحيرة طبرية بكميّة كبيرة من الأرغفة والأسماك. كان يسوع يرتدي رداءً واسعًا بأكمام فضفاضة كالسحرة. وعندما حان وقت إطعام الناس، وقف التلاميذ في صفّ طويل، ثمّ مرّروا إليه الأرغفة والأسماك من تحت ردائه، ووزّعها بعد ذلك على هذه المجموعة البشريّة الكبيرة التي

كانت مُجتمعة أمامه. لذا، فإنّ إطعام الخمسة آلاف كان مجرّد خدعة قام بها واعظ محتال.

التفسير الآخر هو أنّه عندما أنهى يسوع تعليمه في ذلك اليوم، كان الناس مُتعبين وجائعين، لكنّ بعضهم فكّروا مُسبقًا وأحضروا معهم طعامًا. طلب يسوع من تلاميذه أن يسيروا بينهم لاكتشاف هؤلاء الأشخاص، فاّتضح لهم أنّ البعض قد أحضر أرغفة والبعض الآخر أحضر سمكًا. لذلك، خاطب يسوع الجموع وقال لهم: «شاركوا ما لديكم مع الذين حولكم». وهكذا، استطاع الجميع تناول الطعام لأنّ الذين أحضروا الطعام تشاركوا به مع أولئك الذين لم يفعلوا ذلك. كانت المعجزة الحقيقيّة معجزةً أخلاقيّة، ألا وهي مُشاركة الناس طعامهم بعضهم مع بعض.

أحسنَ أحدُ المفسّرين من القرن العشرين القول حين أعلن أنّ هذه التفسيرات لا تنمّ سوى عن عدم إيمان. إنّها لا تعكس الشهادة المباشرة للنصّ الذي وضعه مَرْقُس أمامنا.

الراعي الحنون

رأينا في الفصل ١٧ من هذا الكتاب كيف أرسلَ يسوعَ اثني عشر من تلاميذه في إرساليّة تجريبيّة (مَرْقُس ٦: ٧–١٣). لم يختم مَرْقُس تلك الرواية حالًا، بل انتقل منها ليروي قصّة موت يوحنّا المعمدان التي تأمّلنا فيها في الفصل السابق. نتيجةً لذلك، يُقدّم مَرْقُس روايتَيْن متتاليتَيْن تدوران حول حفلتَيْن دراميّتَيْن. استضاف الحفلة الأولى هيرودس أنتيباس الأوّل، والحفلة الثانية كانت باستضافة يسوع. دُعي إلى الحفلة الأولى النبلاء ونخبة من سكّان الجليل فقط. وفي الحفلة الثانية، اجتمع الشعب والعوام ليتغذّوا بالطعام الذي قدّمه يسوع. في الحفلة الأولى، أعدّ الطهاة المحترفون الطعام. وفي الحفلة الثانية، كان المسيح يحضّر الطعام. في الحفلة الأولى، كان

الترفيه من خلال الرقص المُغري. وفي الحفلة الثانية، كان البند الأوّل على جدول الأعمال هو عَرض ابن الله للحقّ الإلهي. أخيرًا، كانت ذروة الحفلة الأولى إعدام رجل الله بلا رحمة. أمّا في الحفلة الثانية، فقد كان الموضوع السائد هو تحنّن ابن الله على الذين كانوا مثل غنم بلا راعٍ.

عادَ مَرْقُس إلى روايته عن الاثني عشر وإرساليّتهم التجريبيّة وكتب: **وَٱجْتَمَعَ ٱلرُّسُلُ إِلَى يَسُوعَ وَأَخْبَرُوهُ بِكُلِّ شَيْءٍ، كُلِّ مَا فَعَلُوا وَكُلِّ مَا عَلَّمُوا. فَقَالَ لَهُمْ: تَعَالَوْا أَنْتُمْ مُنْفَرِدِينَ إِلَى مَوْضِعٍ خَلَاءٍ وَٱسْتَرِيحُوا قَلِيلًا. لِأَنَّ ٱلْقَادِمِينَ وَٱلذَّاهِبِينَ كَانُوا كَثِيرِينَ، وَلَمْ تَتَيَسَّرْ لَهُمْ فُرْصَةٌ لِلْأَكْلِ** (الآيتان ٣٠–٣١). عاد التلاميذ إلى يسوع وأخبروه بكلّ ما جرى معهم حين ذهبوا اثنين اثنين في رحلاتهم المختلفة، وما علّموه وفعلوه. كانت إجابة يسوع لهم مفعمة بالحنان، فقد حثّهم ليختلوا ويرتاحوا معه لفترة من الزمن، لأنّ نشاطاتٍ كثيرة كانت تدور حوله، وكان التلاميذ مُنشغلين جدًّا لدرجة أنّهم لم يتمكّنوا حتّى من إيجاد وقت لتناول الطعام. لقد ذكرتُ من قبلُ أنّ المكان التقليديّ للقاء الله مع شعبه هو البريّة. لذلك، لا نستغرب حين قال يسوع: «فلنبتعد عن المُدن والقرى والجموع؛ فلنمضِ وحدنا ونختلي مع الله». **فَمَضَوْا فِي ٱلسَّفِينَةِ إِلَى مَوْضِعٍ خَلَاءٍ مُنْفَرِدِينَ** (الآية ٣٢).

لم تنجحْ خطّة يسوع في الابتعاد عن الجموع: **فَرَآهُمُ ٱلْجُمُوعُ مُنْطَلِقِينَ، وَعَرَفَهُ كَثِيرُونَ. فَتَرَاكَضُوا إِلَى هُنَاكَ مِنْ جَمِيعِ ٱلْمُدُنِ مُشَاةً، وَسَبَقُوهُمْ وَٱجْتَمَعُوا إِلَيْهِ** (الآية ٣٣). لم يكن يسوع وتلاميذه قد ابتعدوا، لأنّه يبدو واضحًا أنّهم لم يعبروا بحيرة طبريا، الأمر الذي كان ليستغرق خمسة عشر إلى عشرين ميلًا، ولن تقدر الحشود على مواكبتهم والوصول قبلهم. يبدو أنّ مجموعةَ يسوع أبحرت ببساطة على طول الشاطئ لمسافة قصيرة بحثًا عن مكان هادئ بعيدًا عن الناس. ولكن الجموع الكبيرة التي كانت مُجتمعة حول يسوع، وربّما كانت قد زاد عددها منذ الإرساليّة التعليميّة التي قام بها

الرسل، ساروا ببساطة على طول الشاطئ والقارب على مرأى منهم، وكانوا بانتظاره عندما رسى القارب مرّة أخرى.

ماذا كان ردّ فعل يسوع على مقاطعتهم لخطّته؟ **فَلَمَّا خَرَجَ يَسُوعُ رَأَى جَمْعًا كَثِيرًا، فَتَحَنَّنَ عَلَيْهِمْ إِذْ كَانُوا كَخِرَافٍ لَا رَاعِيَ لَهَا، فَٱبْتَدَأَ يُعَلِّمُهُمْ كَثِيرًا** (الآية ٣٤). لم يشعر بالفشل لأنّه لم يجد لنفسه بعض الهدوء والسكينة. لم ينزعج لأنّ الجموع لم تمنحه وتلاميذه المتعبين فترة من الراحة. كان بإمكانه أن يقولَ لهم: «عُذرًا، لكن يجب عليكم تحديد موعد. يجب أن أقضيَ بعض الوقت مع تلاميذي اليوم، وأنتم غير مدعوّين». عوضًا عن ذلك، يخبرنا مَرْقُس أنّ يسوع تحنّن عليهم. استُخدمت الكلمة اليونانيّة التي تُرجمت هنا إلى «تحنّن» لتصفَ يسوع فقط في كلّ العهد الجديد. وصل حنانه هذا إلى مستوى أعمق بكثير من الاهتمام البشريّ والتعاطف مع الأشخاص الذين يتألّمون.

نظر يسوع إلى الجموع الكثيرة التي كانت تنتظرُه بشغف، ورآهم «كَخِرَافٍ لَا رَاعِيَ لَهَا». كنت ألعب جولة من الغولف مرّة حين خرج قطيع من الأغنام من حقل قريب وبدأ يركض في ملعب الغولف فقاطع اللعبة. بدت تحرّكاتها عشوائيّة تمامًا. كانت تركض في اتّجاه ثمّ تستدير لتذهب في اتّجاه آخر. كانت تركض بلا هدف، كما لو كانت مُصابة بالعمى. هكذا رأى يسوع الناس على الشاطئ، لذلك لم يغضب منهم، بل شعر بالأسف تجاههم.

تُعجبني صورة العهد القديم الموجودة في العديد من نبوءَات المسيح. قيل إنّ المسيح سيكون الملك الراعي، وأنّه سيكون الراعي الصالح، وأنّه سيضع حياته من أجل خرافه (مزمور ٢٣: ١؛ ٧٨: ٧٢؛ إشعياء ٤٠: ١١؛ حزقيال ٣٤: ١١). أظهر يسوع هنا أنّه تمّم هذه النبوءات. نظر الراعي الصالح في حنانه إلى خرافه وكان مُصمّمًا على تسديد احتياجاتها.

لاحظْ ما فعلَه يسوع: بدأ يعلّم الناس. يسوع هو راعي الخراف في كنيسة العهد الجديد، أمّا راعي الكنيسة فهو تحت قيادة الراعي، ومسؤوليّته الأساسيّة هي إطعام الخراف. نحن نعيش في زمن أصبحت فيه الكنائس ضعيفة، وأحد الأسباب الرئيسة هو أنّ الناس يطلبون من الراعي أن يفعلَ كلّ شيء ما عدا الوعظ والتعليم. على الوعظ والتعليم بنظري أن يُشكّل حوالي ٩٥ بالمئة من عمل راعي الكنيسة. الرعيّة هي مُلك للربّ؛ إنّها خرافُه. لقد أعطاها رعاة لإطعامها طعامًا لا ليجعلها تمرض، بل ليغذّيها من كلمة الله نفسها. وعندما انطلق يسوع لإطعام خرافه كان أيضًا يُعلّمهم.

إطعام الخراف

إمّا أن يكون يسوع قد بدأ يعلّم في وقت متأخّر من النهار، أو أنّه علّم لوقت طويل جدًّا، لأنّ الوقت تأخّر وشعر التلاميذ بالقلق: **وَبَعْدَ سَاعَاتٍ كَثِيرَةٍ تَقَدَّمَ إِلَيْهِ تَلَامِيذُهُ قَائِلِينَ: ٱلْمَوْضِعُ خَلَاءٌ وَٱلْوَقْتُ مَضَى. اِصْرِفْهُمْ لِكَيْ يَمْضُوا إِلَى ٱلضِّيَاعِ وَٱلْقُرَى حَوَالَيْنَا وَيَبْتَاعُوا لَهُمْ خُبْزًا، لِأَنْ لَيْسَ عِنْدَهُمْ مَا يَأْكُلُونَ** (الآيات ٣٥-٣٦). ربّما نرى بعض التعاطف من التلاميذ هنا؛ كانوا يتساءَلون كيف سيتمكّن الناس من العثور على الطعام إنْ لم يتوقّف يسوع عن التعليم قريبًا، ويُرسل الناس للبحث عن الطعام في البلدات والقرى. لقد كانوا في مكان مهجور وكان على الناس أن يمشوا لمسافات طويلة.

في ردّه، قدّم لهم يسوع اقتراحًا لم يفكّر فيه التلاميذ أبدًا: «**أَعْطُوهُمْ أَنْتُمْ لِيَأْكُلُوا**» (الآية ٣٧أ). كان يُطعمهم طعامًا روحيًّا؛ والآن اقترح على التلاميذ أنْ يقدّموا للناس طعامًا جسديًّا. ذُهلوا، **فَقَالُوا لَهُ: أَنَمْضِي وَنَبْتَاعُ خُبْزًا بِمِئَتَيْ دِينَارٍ وَنُعْطِيَهُمْ لِيَأْكُلُوا؟** (الآية ٣٧ب). المشكلة الرئيسة التي رآها التلاميذ هي تكلفة إطعام كلّ البشر الذين اجتمعوا لسماع يسوع. سيحتاجون

بحسب تقديراتهم إلى إنفاق مئتي دينار. كان الدينار الواحد يعادل أجر يوم واحد للعامل؛ ومئتا دينار تعادل جزءًا كبيرًا من الدخل السنويّ. إذن، كان التلاميذ يركّزون على العقبات.

طلبَ منهم يسوع أن يُسجّلوا بعض الأرقام: **فَقَالَ لَهُمْ: كَمْ رَغِيفًا عِنْدَكُمْ؟ ٱذْهَبُوا وَٱنْظُرُوا. وَلَمَّا عَلِمُوا قَالُوا: خَمْسَةٌ وَسَمَكَتَانِ** (الآية ٣٨). ليس هذا عددًا كبيرًا، لكنّه كان تقريبًا لا شيء بالمقارنة مع أعداد الناس. بالتأكيد، لم يكن في هذا الجرد شيء يعزّز إيمان التلاميذ بإمكانيّة إطعام الناس في الحال.

لكن كمّية الطعام القليلة لم تُشكّل عقبة أمام يسوع: **فَأَمَرَهُمْ أَنْ يَجْعَلُوا ٱلْجَمِيعَ يَتَّكِئُونَ رِفَاقًا رِفَاقًا عَلَى ٱلْعُشْبِ ٱلْأَخْضَرِ. فَٱتَّكَأُوا صُفُوفًا صُفُوفًا: مِئَةً مِئَةً وَخَمْسِينَ خَمْسِينَ. فَأَخَذَ ٱلْأَرْغِفَةَ ٱلْخَمْسَةَ وَٱلسَّمَكَتَيْنِ، وَرَفَعَ نَظَرَهُ نَحْوَ ٱلسَّمَاءِ، وَبَارَكَ ثُمَّ كَسَّرَ ٱلْأَرْغِفَةَ، وَأَعْطَى تَلَامِيذَهُ لِيُقَدِّمُوا إِلَيْهِمْ، وَقَسَّمَ ٱلسَّمَكَتَيْنِ لِلْجَمِيعِ، فَأَكَلَ ٱلْجَمِيعُ وَشَبِعُوا. ثُمَّ رَفَعُوا مِنَ ٱلْكِسَرِ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ قُفَّةً مَمْلُوَّةً، وَمِنَ ٱلسَّمَكِ. وَكَانَ ٱلَّذِينَ أَكَلُوا مِنَ ٱلْأَرْغِفَةِ نَحْوَ خَمْسَةِ آلَافِ رَجُلٍ** (الآيات ٣٩-٤٤).

يُشبه هذا النصّ بشكل واضح معجزة مماثلة في العهد القديم حدثت عندما كان شعب إسرائيل في البريّة وشعروا باستياء شديد لدرجة أنّهم أرادوا العودة إلى مصر. كان الله قد أعطاهم خبزًا بشكل خارق للطبيعة كلّ يوم على شكل المنّ، لكنّهم سئموا منه؛ أرادوا تنوّعًا في الطعام (سفر العدد ١١: ٤-٦). نسَوْا النيرَ الذي كان على أعناقهم في مصر. نسَوْا اضطهاد فرعون. كانوا مستعدّين أنْ يبيعوا جنسيّتهم في ملكوت الله مقابل الكرّاث والبصل والثوم. طلب موسى عونًا من الله الذي وعد أنّه سيوفّر للناس في اليوم التالي لحومًا ليأكلوها، تكفي لمدّة شهر كامل، بحيث يخرج من أنوفهم ويصبح مكروهًا لهم (الآيات ١٩-٢٠). فعل الله ما وعد به؛ إذ أحضر

أسرابًا ضخمة من طيور السمّن إلى مخيّم بني إسرائيل، بحيث أصبح لديهم لحوم أكثر ممّا يستطيعون أن يأكلوا (الآيات ٣١-٣٢). عندما يعمل الله يُصبح أمر إطعام الجموع أمرًا يسيرًا.

أطاع التلاميذُ يسوع وأعطَوْه الأرغفة والسمك، ثمّ أجلسوا الناس على العشب. بعد هذا، نظر يسوع إلى السماء ورفع صلاة بسيطة. لا يُخبرنا مَرْقُس الكلمات التي صلّاها، لكنّه صلّى على الأغلب الصلاة اليهوديّة الشائعة قبل تناول وجبات الطعام في ذلك الوقت: «شكرًا لك أيّها الربّ إلهنا، ملك العالم، الذي تجعل الخبز يخرج من الأرض وتعول كلّ ما خلقته». كانت صلاة شكر على عناية الله. ثمّ بارك يسوع وكسر الأرغفة، وأعطى القطع لتلاميذه مع السمك. تضاعف الطعام القليل بقوّته الخارقة للطبيعة. أكل الجميع وشبعوا، وجُمع اثنتي عشرة سلّة من بقايا الطعام.

أخيرًا، يذكر مَرْقُس الرقم المذهل ويذكر كلمة تتضمّن معنى أكثر إدهاشًا: كان عدد الذين أكلوا خمسة آلاف رجل. الكلمة اليونانيّة التي يستخدمها مَرْقُس هنا تعني بكلّ وضوح «رجال»، وليس «بشر» بشكل عامّ، إشارة إلى وجود أشخاص آخرين كانوا يأكلون من نساء وأطفال. قد يكون عدد الجموع بحدود خمسة عشر أو حتّى عشرين ألف شخص.

لا يمكننا أن نقرأَ هذه الرواية ولا ينبغي علينا أن نقرأها بدون التفكير في تلك الليلة التي تعرّض فيها ربّنا للخيانة. في وسط احتفاله بعيد الفصح مرّة أخرى مع تلاميذه، أخذ الخبزَ وباركه وكسّره وقال: «خُذُوا كُلُوا، هَذَا هُوَ جَسَدِي» (١٤: ٢٢). وبالطريقة نفسها، أخذَ الكأسَ وقال: «هَذَا هُوَ دَمِي ٱلَّذِي لِلْعَهْدِ ٱلْجَدِيدِ، ٱلَّذِي يُسْفَكُ مِنْ أَجْلِ كَثِيرِينَ (الآية ٢٤). اليوم، عندما نحتفل بسرّ العشاء الربّاني، يطلبُ رعاة المسيح جميع الذين آمنوا بالمسيح أن يتقدّموا إلى مائدته ليُطعمهم الراعي الحنون ويغذّيهم. بهذه الطريقة، نرى رعايته المستمرّة لخرافه.

٢٠

إظهار مجد الله

مَرْقُس ٦: ٤٥-٥٦

وَلِلْوَقْتِ أَلْزَمَ تَلَامِيذَهُ أَنْ يَدْخُلُوا ٱلسَّفِينَةَ وَيَسْبِقُوا إِلَى ٱلْعَبْرِ، إِلَى بَيْتِ صَيْدَا، حَتَّى يَكُونَ قَدْ صَرَفَ ٱلْجَمْعَ. وَبَعْدَمَا وَدَّعَهُمْ مَضَى إِلَى ٱلْجَبَلِ لِيُصَلِّيَ. وَلَمَّا صَارَ ٱلْمَسَاءُ كَانَتِ ٱلسَّفِينَةُ فِي وَسْطِ ٱلْبَحْرِ، وَهُوَ عَلَى ٱلْبَرِّ وَحْدَهُ. وَرَآهُمْ مُعَذَّبِينَ فِي ٱلْجَذْفِ، لِأَنَّ ٱلرِّيحَ كَانَتْ ضِدَّهُمْ. وَنَحْوَ ٱلْهَزِيعِ ٱلرَّابِعِ مِنَ ٱللَّيْلِ أَتَاهُمْ مَاشِيًا عَلَى ٱلْبَحْرِ، وَأَرَادَ أَنْ يَتَجَاوَزَهُمْ. فَلَمَّا رَأَوْهُ مَاشِيًا عَلَى ٱلْبَحْرِ ظَنُّوهُ خَيَالًا، فَصَرَخُوا. لِأَنَّ ٱلْجَمِيعَ رَأَوْهُ وَٱضْطَرَبُوا. فَلِلْوَقْتِ كَلَّمَهُمْ وَقَالَ لَهُمْ: ثِقُوا! أَنَا هُوَ. لَا تَخَافُوا. فَصَعِدَ إِلَيْهِمْ إِلَى ٱلسَّفِينَةِ فَسَكَنَتِ ٱلرِّيحُ، فَبُهِتُوا وَتَعَجَّبُوا فِي أَنْفُسِهِمْ جِدًّا إِلَى ٱلْغَايَةِ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَفْهَمُوا بِٱلْأَرْغِفَةِ إِذْ كَانَتْ قُلُوبُهُمْ غَلِيظَةً. فَلَمَّا عَبَرُوا جَاءُوا إِلَى أَرْضِ جَنِّيسَارَتَ وَأَرْسَوْا وَلَمَّا خَرَجُوا مِنَ ٱلسَّفِينَةِ لِلْوَقْتِ عَرَفُوهُ. فَطَافُوا جَمِيعَ تِلْكَ ٱلْكُورَةِ ٱلْمُحِيطَةِ، وَٱبْتَدَأُوا يَحْمِلُونَ ٱلْمَرْضَى عَلَى أَسِرَّةٍ إِلَى حَيْثُ سَمِعُوا أَنَّهُ هُنَاكَ. وَحَيْثُمَا دَخَلَ إِلَى قُرىً أَوْ مُدُنٍ أَوْ ضِيَاعٍ، وَضَعُوا ٱلْمَرْضَى فِي ٱلْأَسْوَاقِ، وَطَلَبُوا إِلَيْهِ أَنْ يَلْمِسُوا وَلَوْ

هُدْبَ ثَوْبِهِ. وَكُلُّ مَنْ لَمَسَهُ شُفِيَ.

بعد أنْ درسنا إطعامَ يسوع للخمسة آلاف في الفصل السابق، نصلُ الآن إلى رواية مَرْقُس عن يسوع وهو يمشي على مياه بحيرة الجليل. هذان الحدثان هما من أكثر الأحداث المعروفة من حياة يسوع. يوجد بين الروايتَيْن رواية مثيرة للاهتمام، إنّها قصّة صغيرة لا ينبغي أن نتغاضى عنها بينما نركّز في الأحداث الرئيسة.

كتب مَرْقُس: **وَلِلْوَقْتِ أَلْزَمَ تَلَامِيذَهُ أَنْ يَدْخُلُوا ٱلسَّفِينَةَ وَيَسْبِقُوا إِلَى ٱلْعَبْرِ، إِلَى بَيْتِ صَيْدَا، حَتَّى يَكُونَ قَدْ صَرَفَ ٱلْجَمْعَ** (الآية ٤٥). لا يُخبرنا مَرْقُس لماذا أرسلَ يسوع تلاميذه فجأة إلى بيت صيدا، بينما بقي ليصرفَ الناس. لكنّنا نعلم أنّه عندما كان يصنع أحيانًا معجزة كبيرة، لا سيّما عندما كانت حشود كبيرة حاضرة، كان الناس يضغطون عليه رغبة منهم في مسحه ملكًا عليهم، متطلّعين إليه لينقذهم من اضطهاد روما. بحسب تخميني، لا يسعني إلّا أنْ أتساءَل عمّا إذا كانت هذه الرغبة نفسها قد ظهرت مرّة أخرى في هذه المناسبة، وما إنْ كان ردّ فعل الجماهير قويّ جدًّا، لدرجة أنّ التلاميذ أنفسَهم انخرطوا معهم. ربّما لاحظَ أنّ تلاميذَه تحمّسوا مثل الجموع وكانوا يتطلّعون إليه على أمل أنْ يكونَ هو الشخص الذي يطرد الرومان من أرضهم. لو كان الأمر كذلك، فلا نستغرب أنْ يُلزم يسوع التلاميذَ بالذهاب إلى بيت صيدا. وبهذه الطريقة، أوقف أيّ تحرّكات عفويّة لتنصيبه ملكًا.

لكن يسوع أراد أنْ يفعلَ شيئًا خاصًّا به: **وَبَعْدَمَا وَدَّعَهُمْ مَضَى إِلَى ٱلْجَبَلِ لِيُصَلِّيَ** (الآية ٤٦). لم يكن هذا الأمر فريدًا من نوعه. من الواضح أنّ يسوع كان رجلَ صلاة. ومع ذلك، يصف الكتاب المقدّس يسوع وهو يُصلّي في ثلاث مناسبات فقط على وجه التحديد. عندما كان ينفصل عنهم

بهذه الطريقة، كما فعل في الليلة التي سبقت دعوة تلاميذه وفي الليلة التي سبقت صلبه، كان بالعادة يمرّ بأزمة تضغط عليه ولها علاقة بدعوته أو بمهمّته. كانت المرّة الأولى عند اختيار التلاميذ الذين سيرافقونه في هذه المهمّة. والمرّة الثالثة (في جثسيماني)، حين كانت ذروة مهمّته أمامه مباشرة، مع ذلك الكأس الذي ملأه الآب بغضبه. سبب انسحاب يسوع في هذه الحالة أقلّ وضوحًا، لكنّه كان على وشك أن يزداد شهرة وسرعان ما سيواجه معارضة أكبر من الفرّيسيّين. ربّما كانت هذه الأمور تدور في ذهنه.

لقاء مع مجد الله

لم يُصلِّ يسوع طوال الليل في هذه المناسبة. كتب مَرْقُس: وَلَمَّا صَارَ ٱلْمَسَاءُ كَانَتِ ٱلسَّفِينَةُ فِي وَسْطِ ٱلْبَحْرِ، وَهُوَ عَلَى ٱلْبَرِّ وَحْدَهُ. وَرَآهُمْ مُعَذَّبِينَ فِي ٱلْجَذْفِ، لِأَنَّ ٱلرِّيحَ كَانَتْ ضِدَّهُمْ. وَنَحْوَ ٱلْهَزِيعِ ٱلرَّابِعِ مِنَ ٱللَّيْلِ أَتَاهُمْ مَاشِيًا عَلَى ٱلْبَحْرِ، وَأَرَادَ أَنْ يَتَجَاوَزَهُمْ (الآيات ٧٤–٨٤). بينما كان يسوع نازلًا من جبل الصلاة، نظرَ إلى بحيرة الجليل، واستطاع من بعيد أن يرى أنّ تلاميذه لم يُحرزوا تقدّمًا كبيرًا في وصولهم إلى الجانب الآخر. كانت ريح شديدة تهبّ عليهم، فلم يتمكّنوا من اجتياز البحر. لجأوا إلى مجاذيفهم، ولاحظ يسوع أنّهم مُعذّبون في التجذيف. في أماكن أخرى من الكتاب المقدّس، تُترجم الكلمة التي تُرجمت باللغة الإنجليزيّة «straining» أو «إجهاد» الى كلمة «torment» أو «عذاب»؛ من الواضح أنّ التلاميذَ كانوا يعانون من ألم وإحباط شديدَيْن في محاولتهم لطاعة وصيّة يسوع.

عندما رأى يسوع تلاميذَه يتعذّبون، انطلق نحوهم في الهزيع الرابع من الليل، أي بين الساعة الثالثة والسادسة صباحًا. ذهب يسوع إليهم مشيًا على سطح البحر. لا تترك اللغة التي يستخدمها مَرْقُس في النصّ أدنى شكّ فيما

يقوله؛ هذه الكلمات تعني أنّ يسوع مشى حرفيًّا «فوق» الماء. كان يفعل شيئًا لا يستطيع أي إنسان فانٍ أنْ يفعله.

رأينا في الفصل السابق كيف شنّ علماء المدرسة الدينيّة والتاريخيّة في القرن التاسع عشر هجومًا على تلك المقاطع الكتابيّة التي تشير إلى الأمور الخارقة للطبيعة. ناقشنا بعض محاولات هؤلاء العلماء المثيرة للشفقة لتفسير إطعام يسوع المعجزيّ لخمسة آلاف شخص. شرح هؤلاء العلماء أنفسَهم كيف مشى يسوع على الماء بقولهم إنّ التلاميذ رأوا وهمًا بصريًّا في الظلام والضباب. افترضَ آخرون أنّ يسوع مشى على حَرفٍ رمليّ لمقابلة تلاميذه في بحيرة كان يعرفها بعضهم على الأقلّ معرفة جيّدة. لم يستطع هؤلاء النقّاد ببساطة احتمال إمكانيّة أن يكون ما وصفه مَرْقُس قد حدث بالفعل.

في سرد مَرْقُس لهذه القصّة تفصيل غريب. كتب: «**أَتَاهُمْ مَاشِيًا عَلَى ٱلْبَحْرِ، وَأَرَادَ أَنْ يَتَجَاوَزَهُمْ**». رأى يسوع أنّ تلاميذه كانوا في مأزق وهم يُجاهدون كثيرًا في التجذيف، لدرجة أنّهم كانوا يتعذّبون جسديًّا، لذلك مشى على البحر حتى وصل إلى المكان الذي كان فيه القارب. ولكن بعد ذلك كان يريد أن يتجاوزَهم. لماذا أراد أن يفعلَ هذا؟

أحد المبادئ الأساسيّة في تفسير الكتاب المقدّس هو أنّ الكتاب المقدّس يفسّر نفسَه بنفسِه. علينا العودة إلى العهد القديم لكي نفهم جيّدًا فحوى هذا النصّ. عندما كان الله يَظهر في العهد القديم، غالبًا ما كان يفعل ذلك عن طريق ما يُعرف باللغة الإنجليزيّة بكلمة theophany أو تجلّي الله. هذه الكلمة مُشتقّة من كلمتَيْن يونانيّتَيْن هما theos، والتي تعني «الله»، و phano، والتي تعني «إظهار أو عرض أو تجلّي». بالتالي، هذه الكلمة تعني ظهور لله في شكل مرئيّ. في سفر التكوين، عندما وعد الله إبراهيم أنّه سيرث أرض كنعان، سأل: «أَيُّهَا ٱلسَّيِّدُ ٱلرَّبُّ، بِمَاذَا أَعْلَمُ أَنِّي أَرِثُهَا؟» (٥١: ٨). فظهر له الله كتنّور دخّان ومصباح نار كجزء من طقوس العهد

(الآية ٧١). كان هذا تجلّيًا إلهيًّا. وبالمثل، عندما ظهر الله لموسى في العلّيقة الملتهبة (خروج ٣)، كان ذلك أيضًا تجلّيًا إلهيًّا.

قد تكون أشهر ظاهرتَي تجلّ إلهيّ في العهد القديم موجودتيْن في سفري الخروج والملوك الأوّل. في المثال الأوّل الذي نجده في سفر الخروج ٣٣، سأل موسى الله: «أَرِنِي مَجْدَكَ» (٣٣: ١٨) قال الله:

> «أُجِيزُ كُلَّ جُودَتِي قُدَّامَكَ. وَأُنَادِي بِٱسْمِ ٱلرَّبِّ قُدَّامَكَ. وَأَتَرَاءَفُ عَلَى مَنْ أَتَرَاءَفُ، وَأَرْحَمُ مَنْ أَرْحَمُ. وَقَالَ: لَا تَقْدِرُ أَنْ تَرَى وَجْهِي، لِأَنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَا يَرَانِي وَيَعِيشُ. وَقَالَ ٱلرَّبُّ: هُوَذَا عِنْدِي مَكَانٌ، فَتَقِفُ عَلَى ٱلصَّخْرَةِ. وَيَكُونُ مَتَى ٱجْتَازَ مَجْدِي، أَنِّي أَضَعُكَ فِي نُقْرَةٍ مِنَ ٱلصَّخْرَةِ، وَأَسْتُرُكَ بِيَدِي حَتَّى أَجْتَازَ. ثُمَّ أَرْفَعُ يَدِي فَتَنْظُرُ وَرَائِي، وَأَمَّا وَجْهِي فَلَا يُرَى». (الآيات ١٩–٢٣)

تحدّثَ الله ثلاث مرّات في هذا المقطع عن اجتيازه بالقرب من موسى وعن اجتياز جوده أو مجده. في رواية التجلّي الإلهي هذه، كما في المقطع المذكور في تكوين ١٥، عندما أظهرَ الله نفسَه للإنسان، كان مجدُه يمرّ.

في المثال الثاني الموجود في سفر الملوك الأوّل ١٩، هرب إيليّا من الملكة الشرّيرة إيزابل واختبأ في كهف في جبل سيناء. ظهر له الله وسأله: «مَا لَكَ هَهُنَا يَا إِيلِيَّا؟» (الآية ٩). أجاب إيليّا: قَدْ غِرْتُ غَيْرَةً لِلرَّبِّ إِلَهِ ٱلْجُنُودِ، لِأَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ تَرَكُوا عَهْدَكَ، وَنَقَضُوا مَذَابِحَكَ، وَقَتَلُوا أَنْبِيَاءَكَ بِٱلسَّيْفِ، فَبَقِيتُ أَنَا وَحْدِي، وَهُمْ يَطْلُبُونَ نَفْسِي لِيَأْخُذُوهَا (الآية ١٠). أسمّي هذا «متلازمة إيليا»، ذلك الشعور باليأس الذي يشعر به كثيرون منّا من وقت لآخر عندما نظنّ أنّنا المؤمنين الوحيدين. قال الله لإيليا: «ٱخْرُجْ وَقِفْ عَلَى ٱلْجَبَلِ أَمَامَ ٱلرَّبِّ» (الآية ١١أ). ثمّ نقرأ: «وَإِذَا بِٱلرَّبِّ عَابِرٌ وَرِيحٌ

عَظِيمَةٌ وَشَدِيدَةٌ قَدْ شَقَّتِ ٱلْجِبَالَ وَكَسَّرَتِ ٱلصُّخُورَ أَمَامَ ٱلرَّبِّ، وَلَمْ يَكُنِ ٱلرَّبُّ فِي ٱلرِّيحِ. وَبَعْدَ ٱلرِّيحِ زَلْزَلَةٌ، وَلَمْ يَكُنِ ٱلرَّبُّ فِي ٱلزَّلْزَلَةِ. وَبَعْدَ ٱلزَّلْزَلَةِ نَارٌ، وَلَمْ يَكُنِ ٱلرَّبُّ فِي ٱلنَّارِ. وَبَعْدَ ٱلنَّارِ صَوْتٌ مُنْخَفِضٌ خَفِيفٌ (الآيتان ١١ب–١٢). في هذا اللقاء، اختبر إيليّا كما اختبر موسى من قبلِه تجلّيًا إلهيًّا، بينما كان مجد الربّ يعبر.

هذا ما حدث في بحيرة طبريا. جعل يسوع نفسه وبشكل واعٍ تجلّيًا إلهيًّا. إنّ مجدَ الله، الذي انفجر في كَفَنِ إنسانيّة يسوع، ظهر للتلاميذ. في وسط محنتهم، رفعوا أنظارَهم ورأوا مجدَ الله يعبر، ومجد الربّ يشعّ من ابن الله.

تجلّ لتليين القلوب

لم يدرك التلاميذ حالًا أنّهم رأَوْا مجدَ الله. يُخبرنا مَرْقُس: **فَلَمَّا رَأَوْهُ مَاشِيًا عَلَى ٱلْبَحْرِ ظَنُّوهُ خَيَالًا، فَصَرَخُوا. لِأَنَّ ٱلْجَمِيعَ رَأَوْهُ وَٱضْطَرَبُوا** (الآيتان ٤٩–٥٠أ). كانوا يَعْلَمون أنّهم يُشاهدون مشهدًا خارقًا للطبيعة. ظنّوا أنّه كان شبحًا، لكنّ الكلمة نفسها يمكن ترجمتها إلى «شيطان»، وهذا يتناسب مع الفكرة الشائعة بأنّ تموّج البحر كان نتيجة زيارة كائنات شيطانيّة إليه. من الطبيعيّ أن يضطربوا وأنْ يصرخَ البعض خوفًا. **فَلِلْوَقْتِ كَلَّمَهُمْ وَقَالَ لَهُمْ: ثِقُوا! أَنَا هُوَ. لَا تَخَافُوا** (الآية ٥٠ب). طمأنهم يسوع حين عرّف عن نفسه.

إحدى الخصائص الرئيسة لإنجيل يوحنّا هي استخدام يسوع المتكرّر لعبارة «أنا هو». أعطى لنفسه ألقابًا مختلفة: «أَنَا هُوَ خُبْزُ ٱلْحَيَاةِ» (٦: ٤٨)؛ «أَنَا هُوَ نُورُ ٱلْعَالَمِ» (٨: ١٢)؛ «أَنَا هُوَ ٱلْبَابُ» (١٠: ٧)؛ «إِنِّي ٱلرَّاعِي ٱلصَّالِحُ» (١٠: ١٤)؛ وما إلى ذلك. عندما يقول شخص «أنا هو» باللغة اليونانيّة، يمكنه فعل ذلك بطريقتَيْن. يمكنه أن يقول «Eimi» أو «Ego eimi». كلا المصطلحَيْن يعني «أنا هو». لكن في إنجيل يوحنّا،

عندما قال يسوع «أنا هو»، اختار أن يقول: «Ego eimi». هذا شكل مُشدّد لـ «أنا هو». ولكنّها أيضًا التعبير المُستخدَم لترجمة اسم الله الذي لا يُوصف الذي أعطاه الله لموسى من العلّيقة المُلتهبة: «أَهْيَهِ ٱلَّذِي أَهْيَهْ» (خروج ٣: ١٤)، وهو الاسم الذي يُترجم عادةً باسم Yahweh في النصّ العبريّ. عندما يُترجم اسم يهوه إلى اليونانيّة، يُترجم ب «Ego eimi».

يحتوي إنجيل مَرْقُس أيضًا على عبارة «أنا هو». وبينما كان يسوع يجتاز قارب التلاميذ وهو يمشي على البحر، قال لهم: «افرحوا! إنّه أنا؛ لا تخافوا». عندما قال يسوع «إنّه أنا» استخدم «Ego eimi» أو «أنا هو». لو كان هنالك أدنى شكّ في أنّ هذا كان تجلّيًا إلهيًا، فإنّ استخدام يسوع لاسم الله المقدّس للتعريف عن نفسه أثناء سيره على الماء يجعل هذا الأمر مؤكّدًا.

لكن لماذا فعل هذا؟ لماذا شعر أنّه من الضروريّ أن يتجلّى لتلاميذه في هذا المكان والزمان؟ لا نحتاج إلى التكهّن لأن مَرْقُس يشرح لنا ذلك.

يقول أوّلًا: **فَصَعِدَ إِلَيْهِمْ إِلَى ٱلسَّفِينَةِ فَسَكَنَتِ ٱلرِّيحُ، فَبُهِتُوا وَتَعَجَّبُوا فِي أَنْفُسِهِمْ جِدًّا إِلَى ٱلْغَايَةِ** (الآية ٥١). دخل يسوع القارب، وعندما فعل ذلك، توقّفت الريح فجأة. تمامًا كما فعل سابقًا (٤: ٣٥-٤١)، عندما هدّأ يسوع البحر. ولكن، على الرغم من أنّهم رأوا المعجزة نفسها من قبل، وعجائبَ أخرى غيرها، أُصيب التلاميذ بالذهول.

ثمّ يكتب مَرْقُس: **لِأَنَّهُمْ لَمْ يَفْهَمُوا بِٱلْأَرْغِفَةِ إِذْ كَانَتْ قُلُوبُهُمْ غَلِيظَةً** (الآية ٥٢). ما الذي لم يفهموه؟ ببساطة، كان ينبغي عليهم أنْ يفهموا أنّ الشخص الذي أمامَهم هو الله المتجسّد. فمن غيرُه يستطيع إطعام الآلاف والآلاف من الناس ببعض الأرغفة وبعض الأسماك؟ لكن بدلًا من أن يرَوْا حضور الله، رأوا حضور مُحرّر من الاضطهاد العسكريّ لروما. لم يفهموا.

يُخبرنا مَرْقُس حتّى لماذا لم يفهموا. كانت قلوبُهم غليظة. عندما يفشل الناس في فهم هُويّة المسيح، فذلك ليس لأنّهم غير أذكياء، بل لأنّ قلوبَهم غليظة. قلوبهم مصنوعة من الحجر، لأنّ الخطية تسبّبت في نموّ دماميل كبيرة على قلوبهم، لدرجة أنّ المسيح نفسه عبر أمامهم على الماء ولا يزالون غير مؤمنين.

لم يفهم التلاميذ عندما أطعم يسوع الخمسة آلاف، ولم يفهموا عندما مشى على الماء، ولم يفهموا عندما قال عن نفسه «Ego eimi» ولم يفهموا عندما صعد إلى القارب وهدأت الريح. كانت قلوبهم غليظة.

شكرًا لله لأنّ يسوع لم يكن قد انتهى منهم بعد، فسرعان ما كان هناك المزيد من الأدلّة أمامهم ليروها: فَلَمَّا عَبَرُوا جَاءُوا إِلَى أَرْضِ جَنِّيسَارَتَ وَأَرْسَوْا. وَلَمَّا خَرَجُوا مِنَ ٱلسَّفِينَةِ لِلْوَقْتِ عَرَفُوهُ. فَطَافُوا جَمِيعَ تِلْكَ ٱلْكُورَةِ ٱلْمُحِيطَةِ، وَٱبْتَدَأُوا يَحْمِلُونَ ٱلْمَرْضَى عَلَى أَسِرَّةٍ إِلَى حَيْثُ سَمِعُوا أَنَّهُ هُنَاكَ. وَحَيْثُمَا دَخَلَ إِلَى قُرىً أَوْ مُدُنٍ أَوْ ضِيَاعٍ، وَضَعُوا ٱلْمَرْضَى فِي ٱلْأَسْوَاقِ، وَطَلَبُوا إِلَيْهِ أَنْ يَلْمِسُوا وَلَوْ هُدْبَ ثَوْبِهِ. وَكُلُّ مَنْ لَمَسَهُ شُفِيَ (الآيات ٣٥–٦٥). عند وصول يسوع إلى الجانب الآخر من البحر، احتشد الناس حوله مرّة أخرى، وكانوا قد أحضروا جميع أصدقائهم وأقاربهم المرضى لكي يلمسوا ثوبه، والذين لمسوه شُفوا. بالتأكيد كان الربّ في ذلك المكان.

٢١

شريعة الله وتقليد الانسان

مَرْقُس ٧: ١-٨

وَٱجْتَمَعَ إِلَيْهِ ٱلْفَرِّيسِيُّونَ وَقَوْمٌ مِنَ ٱلْكَتَبَةِ قَادِمِينَ مِنْ أُورُشَلِيمَ. وَلَمَّا رَأَوْا بَعْضًا مِنْ تَلَامِيذِهِ يَأْكُلُونَ خُبْزًا بِأَيْدٍ دَنِسَةٍ، أَيْ غَيْرِ مَغْسُولَةٍ، لَامُوا. لِأَنَّ ٱلْفَرِّيسِيِّينَ وَكُلَّ ٱلْيَهُودِ إِنْ لَمْ يَغْسِلُوا أَيْدِيَهُمْ بِٱعْتِنَاءٍ، لَا يَأْكُلُونَ، مُتَمَسِّكِينَ بِتَقْلِيدِ ٱلشُّيُوخِ. وَمِنَ ٱلسُّوقِ إِنْ لَمْ يَغْتَسِلُوا لَا يَأْكُلُونَ. وَأَشْيَاءُ أُخْرَى كَثِيرَةٌ تَسَلَّمُوهَا لِلتَّمَسُّكِ بِهَا، مِنْ غَسْلِ كُؤُوسٍ وَأَبَارِيقَ وَآنِيَةِ نُحَاسٍ وَأَسِرَّةٍ. ثُمَّ سَأَلَهُ ٱلْفَرِّيسِيُّونَ وَٱلْكَتَبَةُ: لِمَاذَا لَا يَسْلُكُ تَلَامِيذُكَ حَسَبَ تَقْلِيدِ ٱلشُّيُوخِ، بَلْ يَأْكُلُونَ خُبْزًا بِأَيْدٍ غَيْرِ مَغْسُولَةٍ؟ فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُمْ: حَسَنًا تَنَبَّأَ إِشَعْيَاءُ عَنْكُمْ أَنْتُمُ ٱلْمُرَائِينَ! كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: هَذَا ٱلشَّعْبُ يُكْرِمُنِي بِشَفَتَيْهِ، وَأَمَّا قَلْبُهُ فَمُبْتَعِدٌ عَنِّي بَعِيدًا، وَبَاطِلًا يَعْبُدُونَنِي وَهُمْ يُعَلِّمُونَ تَعَالِيمَ هِيَ وَصَايَا ٱلنَّاسِ. لِأَنَّكُمْ تَرَكْتُمْ وَصِيَّةَ ٱللهِ وَتَتَمَسَّكُونَ بِتَقْلِيدِ ٱلنَّاسِ: غَسْلَ ٱلْأَبَارِيقِ وَٱلْكُؤُوسِ، وَأُمُورًا أُخَرَ كَثِيرَةً مِثْلَ هَذِهِ تَفْعَلُونَ.

يبدو أنّه حصل تحوّل في نبْرة إنجيل مَرْقُس في الإصحاح ٧. حتّى الآن، سجّل مَرْقُس أعمالَ يسوع المُدهشة والخارقة للطبيعة ليُثبتَ أنّ يسوع هو ابن الله. لكنّه حتّى هذه اللحظة، لم يُركّز إلّا قليلًا في محتوى تعاليم يسوع، باستثناء الأمثال المدوّنة في الإصحاحين ٣ و٤. بالمقابل، نجد أنّ الأناجيل الإزائيّة الأخرى تحتوي على أجزاءً كبيرة من التعليم خلال سرد القصص. أخيرًا، نبدأ نجد هنا في مَرْقُس ٧ على بعض التعاليم الإضافيّة ليسوع، ولكن حتّى هنا، نجد حادثة تعترضُ تعليمه.

يكتب مَرْقُس: **وَٱجْتَمَعَ إِلَيْهِ ٱلْفَرِّيسِيُّونَ وَقَوْمٌ مِنَ ٱلْكَتَبَةِ قَادِمِينَ مِنْ أُورُشَلِيمَ** (الآية ١). تبلغُ المسافة بين أورشليم وكفرناحوم على شاطئ بحيرة طبرية حوالَي التسعين ميلًا. تُشير حقيقة أنّ هؤلاء القادة الدينيّين قاموا بهذه الرحلة إلى أنّهم كانوا مُتحمّسين جدًّا لمراقبة يسوع ومواجهته، ربّما لأنّهم سمعوا عن شعبيّته المتزايدة في الجليل. كان قد تفاعل مرّة واحدة على الأقلّ مع الفرّيسيّين والكتبة من أورشليم (٣: ٢٢)؛ وها هم الآن يجدون فرصةً أخرى لمساءَلته.

يكتب مَرْقُس: **وَلَمَّا رَأَوْا بَعْضًا مِنْ تَلَامِيذِهِ يَأْكُلُونَ خُبْزًا بِأَيْدٍ دَنِسَةٍ، أَيْ غَيْرِ مَغْسُولَةٍ، لَامُوا** (الآية ٢). قد يبدو من الخارج أنّ الفرّيسيّين والكتبة كانوا قلقين بشأن مسألة النظافة، لذلك وقفوا في وجه يسوع وسألوه: «ألست قلقًا على صحّة تلاميذك؟ لماذا تتركهم يأكلون من دون أنْ يغسلوا أيديهم بشكل صحيح؟» ولكن لا علاقة للنظافة بتذمّرهم، لأنّهم كانوا يتكلّمون عن طقوس النجاسة والتطهير. الغسيل المقصود هنا رمزيّ. في الواقع، كانت كميّة الماء التي استخدمها الفرّيسيون والكتبة لغسل أيديهم قبل الأكل قليلة جدًّا، لدرجة أنّها لم تكن كافية للحصول على نظافة كاملة. فعلوا ذلك فقط لتنفيذ طقسٍ كان القادة اليهود يفرضونه في الأزمنة السابقة.

أوضح مَرْقُس لجمهوره من الأمم في روما ما كان يجري: **لِأَنَّ ٱلْفَرِّيسِيِّينَ وَكُلَّ ٱلْيَهُودِ إِنْ لَمْ يَغْسِلُوا أَيْدِيَهُمْ بِٱعْتِنَاءٍ، لَا يَأْكُلُونَ، مُتَمَسِّكِينَ بِتَقْلِيدِ ٱلشُّيُوخِ. وَمِنَ ٱلسُّوقِ إِنْ لَمْ يَغْتَسِلُوا لَا يَأْكُلُونَ. وَأَشْيَاءُ أُخْرَى كَثِيرَةٌ تَسَلَّمُوهَا لِلتَّمَسُّكِ بِهَا، مِنْ غَسْلِ كُؤُوسٍ وَأَبَارِيقَ وَآنِيَةِ نُحَاسٍ وَأَسِرَّةٍ. ثُمَّ سَأَلَهُ ٱلْفَرِّيسِيُّونَ وَٱلْكَتَبَةُ: لِمَاذَا لَا يَسْلُكُ تَلَامِيذُكَ حَسَبَ تَقْلِيدِ ٱلشُّيُوخِ، بَلْ يَأْكُلُونَ خُبْزًا بِأَيْدٍ غَيْرِ مَغْسُولَةٍ؟** (الآيات ٣–٥).

قبل أنْ نغوصَ في هذه المعلومات المتعلّقة بالخلفيّة، من المهمّ أنْ نلاحظَ أنّه حين قدّم الفرّيسيّون والكتبة شكواهم بشأن سلوك تلاميذ يسوع، فإنّ الهدفَ الواضح لعدائهم لم يكن التلاميذ، بل يسوع نفسه. لاحِظْ أنّهم عندما جاؤوا إليه لم يقولوا: «لماذا يفعل هؤلاء الناس ما يفعلون؟» بل سألوا وهم يُشيرون بأصابعهم: «لماذا يتصرّف تلاميذك بهذه الطريقة؟» من الواضح أنّ السلطات في أورشليم كانت تُحمّل يسوع مسؤوليّةَ سلوكِ أتباعه.

أيضًا، لم تكن هذه هي المرّة الأولى التي وجد فيها يسوع نفسه في جدال مع الفرّيسيّين حول مسائل تتعلّق بالناموس، فقد أثاروا مخاوفَ بشأن أولئك الذين كان يسوع يجتمع معهم لتناول الطعام (٢: ١٥–١٧). أيضًا، كانوا قد اعترضوا على شفاءٍ أجراه يوم سبت، الأمر الذي أغضبهم جدًّا لدرجة أنّهم بدأوا يُخطّطون لقتله (٣: ١–٦). إذن، كان هذا الحادث مُجرّد جزء من نزاع مستمرّ.

تقليد الشيوخ

ما هو سبب هذا التصعيد الجديد في النزاع؟ وضعَ الله في العهد القديم مبادئ طقسيّة للطهارة، لكنّها كانت قليلة ويَسهل القيام بها. مثلًا، تطلب شريعة العهد القديم من كهنة إسرائيل غسلَ أيديهم قبل دخولهم القُدس لتقديم الذبائح. ولكن لم يكن هنالك شريعة تُلزم الناس العاديّين بالقيام بطقوس

التطهير قبل تناول الخبز. لكن كما رأينا، أضاف معلّمو اليهود الذين كانوا يُفسّرون شريعة الله متطلّبات طقوس الشريعة، بحيث تجاوزت تشريعاتُهم بكثير الشرائعَ التي فرضَتْها شريعةُ الله على الناس.

من أين أتت الشرائع من صنع الإنسان هذه؟ كان عند اليهود شريعة تُسمى الهالاخاه، وكانت تتضمّن تعاليم معلّمي اليهود الشفويّة. هذا ما كان ينظر إليه الفرّيسيّون عندما ذكروا «تقليد الشيوخ». لقد تمّ نقل جميع المبادئ والتشريعات التي أضافها المعلّمون اليهود إلى شريعة الله من جيل إلى جيل شفهيًّا كجزءٍ من الهالاخاه، حتّى جُمعت أخيرًا في القرن الثالث الميلاديّ باسم المشناه، والتي كانت تشكّل الجزء الأكبر من التلمود اليهوديّ في ذلك الوقت.

عندما نقرأ العظة على الجبل في إنجيل متّى (الإصحاحات ٥–٧)، يبدو أحيانًا أنّ يسوع كان يضع نفسه ضدّ ناموس الله حين قال مثلًا: «سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ: تُحِبُّ قَرِيبَكَ وَتُبْغِضُ عَدُوَّكَ. وَأَمَّا أَنَا فَأَقُولُ لَكُمْ: أَحِبُّوا أَعْدَاءَكُمْ. بَارِكُوا لاَعِنِيكُمْ. أَحْسِنُوا إِلَى مُبْغِضِيكُمْ، وَصَلُّوا لِأَجْلِ ٱلَّذِينَ يُسِيئُونَ إِلَيْكُمْ وَيَطْرُدُونَكُمْ (٥: ٤٣–٤٤). ماذا كان يجري هناك؟

عندما نقرأ الكتاب المقدّس، علينا أن نتآلف مع عبارتَيْن لهما معنى واضح عند أيّ يهوديّ. العبارة الأولى هي: «مكتوب». عندما يقول يهوديّ: « مكتوب»، فهو لا يقصد ببساطة أنّ أحدهم كتب بعض الكلمات على ورق البرديّ. كانت عبارة «مكتوب» بين اليهود الأتقياء تعني «يقول الكتاب المقدّس». كانت الكتابة المقصودة عند قولهم «مكتوب» هي الكتابات المقدّسة للكتاب المقدّس. كانت التقاليد الشفويّة التي تمّ تناقلها مُميّزة عن الكتاب المقدّس، لكنّه تمّ إضافتها إليه. إذن، عندما قال يسوع في العظة على الجبل: « سمعتم أنّه قيل»، لم يكن يشير بذلك إلى الكتاب المقدّس، وليس إلى شريعة الله المكتوبة، ولكن إلى ما قالَه معلّمو اليهود شفهيًّا. لا

نجدُ في العهد الجديد أبدًا أنّ الربّ يسوع المسيح انتقد أو خالف شريعة الله المكتوبة. ولكن يبدو أنّه كان كلّ يوم وأينما ذهب ينتهك التقليد الشفهيّ.

طقوس الفرّيسيّين

من المهمّ أن نلاحظ بأنّ ٢٥ بالمئة من المشناه كان مُخصّصًا لطقوس النظافة والطهارة. آمن الفرّيسيّون أنّ الخلاص هو عن طريق الانفصال العرقيّ، وأنّهم نالوا الخلاص بالمحافظة على أنفسِهم أنقياء من أيّ تلوّث موجود عند غير المؤمنين أو الخطاة، لذلك وضعوا جميع أنواع الطقوس.

حدّدت التقاليد الشفويّة طقوسًا للوصول إلى مستويات مختلفة من التطهير. يتمّ الوصول إلى المستوى الأوّل من التطهير عن طريق اتّباع ممارساتٍ كغسل اليدَيْن قبل تناول الخبز. كان الوصول إلى المستوى الثاني من التطهير أكثر صعوبة. يشير مَرْقُس إلى ذلك: عندما يعود شخص من السوق، يجب أن يتطهّر طقسيًّا، ويتمّ التطهير عن طريق التغطيس. كان على اليهود في السوق التعاملَ مع الأمميّن، لذلك كانوا ملوّثين من الناحية الطقسيّة. وهكذا، كان عليهم الاستحمام بالكامل بعد التسوّق. وكما أشارَ مَرْقُس: كان هنالك «أمورًا أخرى كثيرة ورثوها وحافظوا عليها، كغسل الأكواب والأباريق والأواني النحاسيّة والمتكآت».

وصفَ أحد المفسّرين ممارسات اليهود هذه بأنّها «جنون القوانين». هذا ما يحدث عندما يبدأ الأشخاص الذين لديهم ميول للسيطرة على حياة الآخرين في تقليص حريّاتهم وحشد القوّة لأنفسهم. حدث هذا في كلّ مجتمع في كلّ ثقافة في تاريخ العالم، لكنّ الفرّيسيّين فعلوا ذلك بروح الانتقام. كانوا أوّلًا يُفسّرون الشريعة، ثمّ يضعون سياسة معيّنة حولها. بعد مرور بعض الوقت، تُرفع هذه السياسة إلى مستوى القانون، وبعد ذلك بوقت قصير، يُصبح هذا القانون مُلزمًا للضمير كما لو أنّه شريعة الله المكتوبة. يمكن أن

تحدثَ هذه العمليّة في أيّ مجتمع. يمكن أن تحدثَ في الكنيسة، كما يمكن أن تحدثَ في أيّ مجموعة فرعيّة حيث يلتقي الناس معًا.

عندما كنت أسعى لأنال شهادة الدكتوراه في هولندا، كانت إحدى العبارات الأولى التي سمعتها هي: U hebt de wet overtreden، والتي تعني: «لقد تجاوزتَ القانون». كان الشعب الهولنديّ تحت حُكم الموت. كان لديهم قوانين لكلّ شيء. إنْ كسرتُ لوح زجاج في منزلي، كان عليّ الحصول على إذن كتابيّ من الحكومة الفيدراليّة لإصلاحه. هذا هو نوع الثقافة التي وضعها الفرّيسيّون في إسرائيل القديمة.

مخاطر الناموسيّة

يُعرف هذا بالناموسيّة. ترفعُ الناموسيّة رأسَها القبيح في حياة شعب الله بطُرق مُختلفة، ولكن عندما تُقيّد السلطات الدينيّة ضمائر الناس في الوقت الذي تركهم الله أحرارًا بإضافة القوانين البشريّة إلى شريعة الله، فإنّ هذا يُعتبر من أسوأ أشكال الناموسيّة وأكثرها تدميرًا.

وهنا تكمن المفارقة: في كلّ مرة نضيف فيها إلى شريعة الله، فإنّنا لا محالة نُنقص منها، لأنّه بدلًا من تركيز انتباهنا في الأمور التي يهتمّ بها الله، فإنّ القوانينَ البشريّة تجعلنا نغفل عمّا يهمّه. نبدأ التركيز في الأمور الثانويّة. نبدأ في تقديم إخلاصنا لتقاليدنا ووصايانا البشريّة.

رأينا هذا يحدث في المجتمع المسيحيّ مرّة بعد الأخرى. تُعرَّف التقوى المسيحيّة عند بعض الجماعات على أنّها الامتناع عن استخدام أحمر الشفاه والرقص والذهاب إلى السينما ولعب الورق وما إلى ذلك، كما لو أنّ هذه الأنشطة لها علاقة بملكوت الله. بمعنى ما، عندما توضَع هذه الأنواع من الوصايا، لا يُحجَب البرّ الحقيقيّ ببساطة، بل يتمّ تجاهله تمامًا. لأنّه

من الأسهل الامتناع عن وضع أحمر الشفاه بدلًا من إظهار الكبرياء. من الأسهل أن تتوقّف عن الذهاب إلى السينما بدلًا من أن تبدأ في محبّة أعدائك. لدينا كلّ ما يمكننا فعله للسعي وراء البرّ الناتج عن شريعة الله لنا، من دون أن نقلق بشأن الأمور التافهة. وهذا ما حدث في إسرائيل. كان الفرّيسيّون يتخصّصون في الأمور الثانويّة، فحوّلوا شريعة الله السامية إلى أنظمة تافهة حجبت عظمة شريعة الله.

أنا خادمٌ مرسوم للإنجيل، لكن ليس لديّ الحقّ ولا السلطة لأقيّد ضمير أيّ إنسان بشكل مُطلق. الله وحده هو الذي يمتلك القوّة والسلطان لفعل ذلك. قد لا تحبّ التقاليد التي أحبّها. لن يُحكم عليك بسبب ذلك. ومع هذا، يوجد تقليد رسوليّ. إنّه التقليد المتوارث في الكنيسة من الله نفسه. هذا هو المكان الذي يجب أن نركّز فيه، ولا يجب أن نسمح لأيّ شخص أو أيّ شيء بإبعادنا عن ذلك إلى شيء من اختراع الإنسان.

لم يقترب أيّ شخص في تاريخ كوكبنا من طاعة شريعة الله بأكملها – باستثناء يسوع الذي أطاعها بشكل كامل. وحده يسوع يستطيع أن يقولَ للذين عاصروه: «مَنْ مِنْكُمْ يُبَكِّتُنِي عَلَى خَطِيَّةٍ؟» (يوحنّا ٨: ٤٦أ). بعبارة أخرى: «أرني أين انتهكتُ شريعة الله». كان طعامه أنْ يفعلَ مشيئة أبيه (يوحنّا ٤: ٣٤). كان من واجبه كآدم الجديد أن يحفظَ كلّ شريعة الله، وقد فعل ذلك بالضبط. ولكنّه لم يهتمّ كثيرًا بالتعاليم البشريّة. عندما رأى يسوع شخصًا مُصابًا بالبرص قام بلمسه، وعندما رأى رجلًا لا يستطيع المشي، شفاه على الرغم من أنّه كان يوم سبت. عندما رأى رجلًا يتعذّب من الأرواح الشرّيرة ويصرخ في المقابر، ذهب إلى ذلك المكان وأخرج الروح الشرّير منه.

المشكلة الرئيسة في الناموسيّة هي أنّها شكل خفيّ من أشكال عبادة الأصنام؛ حيث يتمّ رفع الإنسان إلى فوق ما هو إلهيّ. تُستبدلُ كلمة الله نفسها بالتقاليد البشريّة والسياسات البشريّة والأنظمة البشريّة. عندما نعبد

المخلوق بدلًا من الخالق، فإنّنا بذلك ننخرطُ في عبادة الأصنام. ظنّ الفرّيسيّون والكتبة أنّهم من أبرّ الناس على وجه الأرض، لكنهم كانوا عبدة أوثان.

نفاق الرجال

بسبب هذا، قال لهم يسوع بصرامة: **فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُمْ: حَسَنًا تَنَبَّأَ إِشَعْيَاءُ عَنْكُمْ أَنْتُمُ ٱلْمُرَائِينَ! كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ: هَذَا ٱلشَّعْبُ يُكْرِمُنِي بِشَفَتَيْهِ، وَأَمَّا قَلْبُهُ فَمُبْتَعِدٌ عَنِّي بَعِيدًا، وَبَاطِلًا يَعْبُدُونَنِي وَهُمْ يُعَلِّمُونَ تَعَالِيمَ هِيَ وَصَايَا ٱلنَّاسِ. لِأَنَّكُمْ تَرَكْتُمْ وَصِيَّةَ ٱللهِ وَتَتَمَسَّكُونَ بِتَقْلِيدِ ٱلنَّاسِ: غَسْلَ ٱلْأَبَارِيقِ وَٱلْكُؤُوسِ، وَأُمُورًا أُخَرَ كَثِيرَةً مِثْلَ هَذِهِ تَفْعَلُونَ** (الآيات ٦–٨).

اقتبسَ يسوع من إشعياء ليُلفت الانتباه إلى عضويْن من أعضاء جسد الإنسان– الشفتَيْن والقلب. الشفتان هم من الخارج، أمّا القلب فهو جوهر الإنسان. قال يسوع للفرّيسيّين والكتبة: «شفاهكم تتحرّك. أنتم تُسبّحون وتُصلّون. تقولون إنّكم تُحبّون الله، لكنّ كلماتكم لا تتخطّى شفاهكم. إنّها غير صادرة من وسط كيانكم. يريد أبي أنْ يعبدَه الناس بالروح والحقّ، وليس فقط بشفاههم، لأنّ العبادة من الشفاه هي قِمّة النفاق».

نحن نميل إلى النظر إلى المظاهر الخارجيّة، لكن اللهَ ينظرُ إلى القلب. لذلك، فإنّ التطهيرَ الخارجيّ ليس له قيمة نهائيّة تُذكَر مقارنة بالتطهير الداخليّ. علينا أن نطلبَ من الله أنْ يطهّرنا في أعماقنا، حتّى يُقوّم قلوبَنا لئلّا تكون كلماتنا دليلًا على النفاق.

قبل بضع سنوات، دُعيت للتحدّث في مؤتمر حول إقرار إيمان وستمنستر، حيث طُلب منّي الإجابة عن هذا السؤال: «كيف تؤثر عقيدة الله على فهمنا للمسيحيّة؟» كان المُحفّز الأساسيّ لرسالتي هو أنّ عقيدة

الله تحدّد وتتحكّم في كلّ عقيدة أخرى في الإيمان المسيحيّ. عندما انتهيت من عرض الطرق العديدة التي تؤثّر بها عقيدة الله على لاهوتنا وحياتنا، وصلتُ إلى هذه الخُلاصة: «إنْ أردتَ حقًّا أنْ تعرفَ عقيدتك عن الله، فتأمّل في عبادتك». طريقةُ عبادتنا لله تُظهر صفاته، أكثر بكثير ممّا نعترف به بشفاهنا. إنْ كنّا نعبد إلهَ الكتاب المقدّس، فلا يمكننا أبدًا أنْ نعبدَه بطريقة متكبّرة. لا يمكن أنْ تكونَ العبادة نوعًا من الترفيه. عندما ندخل عبر أبواب الكنيسة، نُدرك أنّنا نأتي إلى محضر إله الكون الذي يبحث عن أناس يعبدونه بالروح والحقّ. إنْ كانت هذه هي الطريقة التي نُدرك بها الله، فسيكون في عبادتنا عنصر الجدّيّة والقداسة والورع والعبادة. سينتهي المرح والألعاب في باحة مواقف السيّارات.

ماذا قصدَ يسوع عندما اقتبس من كلمات إشعياء: «وَبَاطِلًا يَعْبُدُونَنِي؟» لقد قصدَ أنّ عبادة الفرّيسيّين كانت باطلة لأنّها لم تصدر من القلب. لقد أولَوْا اهتمامًا للوصايا والتقاليد البشريّة أكثر من اهتمامهم بشريعة الله. علّموا وصايا من صنع البشر كما لو كانت كلمات الله نفسها. لم يهتمّوا باكتشاف وتعليم ما قاله الله.

إذن، عندما سأل الفرّيسيّون يسوع: «لماذا لا يسلك تلاميذك وفقًا لتقليد الشيوخ؟» أجابهم مؤكّدًا أنّ تقليد الشيوخ ليس موازيًا لشريعة الله. لقد كان مجرّد تقليد بشريّ استبدلَ شريعة الله بشريعة بشريّة.

إنّ تجربة الإضافة إلى شريعة الله ليست حصرًا بالفرّيسيّين، بل علينا أنْ نتعاملَ معها كلّ يوم في حياتنا المسيحيّة. لهذا السبب، عندما يقول الناس: «عليك أنْ تفعلَ هذا ولا يجب أنْ تفعل ذاك»، فإنّ أفضل حلّ أمامنا هو احتضان كلمة الله، والبحث في الكتاب المقدّس، والقول: «يا الله، غايتي رضاك، ليس بحسب تقاليد البشر، بل بحسب شريعتك».

٢٢

نجاسة
في القلب

مَرْقُس ٧: ٩-٢٣

ثُمَّ قَالَ لَهُمْ: حَسَنًا! رَفَضْتُمْ وَصِيَّةَ ٱللهِ لِتَحْفَظُوا تَقْلِيدَكُمْ! لِأَنَّ مُوسَى قَالَ: أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ، وَمَنْ يَشْتُمُ أَبًا أَوْ أُمًّا فَلْيَمُتْ مَوْتًا. وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَقُولُونَ: إِنْ قَالَ إِنْسَانٌ لِأَبِيهِ أَوْ أُمِّهِ: قُرْبَانٌ، أَيْ هَدِيَّةٌ، هُوَ ٱلَّذِي تَنْتَفِعُ بِهِ مِنِّي. فَلَا تَدَعُونَهُ فِي مَا بَعْدُ يَفْعَلُ شَيْئًا لِأَبِيهِ أَوْ أُمِّهِ. مُبْطِلِينَ كَلَامَ ٱللهِ بِتَقْلِيدِكُمُ ٱلَّذِي سَلَّمْتُمُوهُ. وَأُمُورًا كَثِيرَةً مِثْلَ هَذِهِ تَفْعَلُونَ. ثُمَّ دَعَا كُلَّ ٱلْجَمْعِ وَقَالَ لَهُمُ: ٱسْمَعُوا مِنِّي كُلُّكُمْ وَٱفْهَمُوا. لَيْسَ شَيْءٌ مِنْ خَارِجِ ٱلْإِنْسَانِ إِذَا دَخَلَ فِيهِ يَقْدِرُ أَنْ يُنَجِّسَهُ، لَكِنَّ ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي تَخْرُجُ مِنْهُ هِيَ ٱلَّتِي تُنَجِّسُ ٱلْإِنْسَانَ. إِنْ كَانَ لِأَحَدٍ أُذُنَانِ لِلسَّمْعِ، فَلْيَسْمَعْ. وَلَمَّا دَخَلَ مِنْ عِنْدِ ٱلْجَمْعِ إِلَى ٱلْبَيْتِ، سَأَلَهُ تَلَامِيذُهُ عَنِ ٱلْمَثَلِ. فَقَالَ لَهُمْ: أَفَأَنْتُمْ أَيْضًا هَكَذَا غَيْرُ فَاهِمِينَ؟ أَمَا تَفْهَمُونَ أَنَّ كُلَّ مَا يَدْخُلُ ٱلْإِنْسَانَ مِنْ خَارِجٍ لَا يَقْدِرُ أَنْ يُنَجِّسَهُ، لِأَنَّهُ لَا يَدْخُلُ إِلَى قَلْبِهِ بَلْ إِلَى ٱلْجَوْفِ، ثُمَّ يَخْرُجُ إِلَى ٱلْخَلَاءِ، وَذَلِكَ يُطَهِّرُ كُلَّ ٱلْأَطْعِمَةِ. ثُمَّ قَالَ: إِنَّ ٱلَّذِي يَخْرُجُ

مِنَ ٱلْإِنْسَانِ ذَلِكَ يُنَجِّسُ ٱلْإِنْسَانَ. لِأَنَّهُ مِنَ ٱلدَّاخِلِ، مِنْ قُلُوبِ ٱلنَّاسِ، تَخْرُجُ ٱلْأَفْكَارُ ٱلشِّرِّيرَةُ: زِنًى، فِسْقٌ، قَتْلٌ، سِرْقَةٌ، طَمَعٌ، خُبْثٌ، مَكْرٌ، عَهَارَةٌ، عَيْنٌ شِرِّيرَةٌ، تَجْدِيفٌ، كِبْرِيَاءُ، جَهْلٌ. جَمِيعُ هَذِهِ ٱلشُّرُورِ تَخْرُجُ مِنَ ٱلدَّاخِلِ وَتُنَجِّسُ ٱلْإِنْسَانَ.

في مناقشة أثارها فشل تلاميذه في غسل أيديهم وفقًا لتقاليد اليهود الشفهيّة كما رأينا في الفصل السابق، اتّهم يسوع الفرّيسيّين والكتبة بحقّ بأنّهم ناموسيّون. غالبًا ما تُستخدَم كلمة الناموسيّة بشكل فضفاض في المجتمع المسيحيّ، وقد يؤدّي هذا إلى التشويش، لأنّه يوجد أكثر من نوع واحد من الناموسيّة يتم من خلالها تشويه حقيقة كلمة الله.

قد يكون النوع الأساسيّ من الناموسيّة هو أيضًا الأكثر تدميرًا. إنّه الإيمان بأنّنا نستطيع أنْ نتبرّرَ أمام الله من خلال طاعة الناموس. هذا الاعتماد على أعمالنا الصالحة، يتعارض تمامًا مع طريقة الخلاص التي يُعلنها الله بوضوح في الكتاب المقدّس–التبرير بالإيمان وحده، بالمسيح وحده، الذي يوفّر البرّ الوحيد الذي يمكن أنْ ينفعَنا. إنْ كنّا نؤمن بأيّ برّ آخر غير برّ يسوع، فنحن عالقون في فخّ الناموسيّة.

النوع الآخر من الناموسيّة، هو ذلك الذي كشفه يسوع في الفرّيسيّين والكتبة في الآيات الأولى من مَرْقُس ٧–رفعُ تقاليدِ البشر إلى الحدّ الذي يُسمح لهم بربط ضمائر شعب الله، في الوقت الذي تركهم الله بضمائر حُرّة. يتضمّن هذا النوع إضافة وصايا ونواهي على شريعة الله لم يكن الله قد ذكرها. كما رأينا، لقد أدانَ يسوع هذه الممارسة جملة وتفصيلًا.

أثارَ النوع الثالث من الناموسيّة غضب يسوع بينما واصل نقده للفرّيسيّين والكتبة في مَرْقُس ٧. أسمّي هذا النوع من الناموسيّة «ثغرة». يحدث ذلك

عندما يحاول الناس تحديد طرق للالتفاف حول شريعة الله. إنّهم يحاولون الالتزام بحرفيّة الناموس، حتّى وهم يدوسون على جوهره وروحه بأرجلهم. أحد الأمثلة المشهورة في إسرائيل هي تحديد سَفَرِ الإنسان في يوم سبت إلى ما يُسمى بـ«مسافة يوم سبت»، وهي مسافة قصيرة جدًّا. سمح رجال الدين لأيّ شخص بالالتفاف على هذا القانون، عن طريق إخفاء ممتلكات شخصيّة في نقاط مُختلفة على طول الطريق الذي كان يعتزم السفر فيه يوم السبت. بحسب مَنْطِقِهم، إنْ وضَع الإنسانُ غرضًا شخصيًّا له في عقار ما، فإنّه بذلك يثبّت إقامته فيه. وهكذا، يمكن للإنسان أنْ ينتقلَ من «محلّ إقامة ما» إلى «محلّ إقامة آخر» يوم السبت، إلى أنْ يصلَ إلى وجهته، وهكذا لا يقطع أكثر من رحلة يوم سبت بين تلك المحطّات. من الواضح أنّ هذا كان «ثغرة» ومحاولة للالتفاف على شريعة الله فيما يتعلّق بحفظ يوم السبت.

البحث عن ثغرات

كشفَ يسوع بدهاءٍ عن «ثغرات» الفرّيسيّين والكتبة عندما قال: **حَسَنًا! رَفَضْتُمْ وَصِيَّةَ ٱللهِ لِتَحْفَظُوا تَقْلِيدَكُمْ. لِأَنَّ مُوسَى قَالَ: أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ، وَمَنْ يَشْتُمُ أَبًا أَوْ أُمًّا فَلْيَمُتْ مَوْتًا. وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَقُولُونَ: إِنْ قَالَ إِنْسَانٌ لِأَبِيهِ أَوْ أُمِّهِ: قُرْبَانٌ، أَيْ هَدِيَّةٌ، هُوَ ٱلَّذِي تَنْتَفِعُ بِهِ مِنِّي فَلَا تَدَعُونَهُ فِي مَا بَعْدُ يَفْعَلُ شَيْئًا لِأَبِيهِ أَوْ أُمِّهِ. مُبْطِلِينَ كَلَامَ ٱللهِ بِتَقْلِيدِكُمُ ٱلَّذِي سَلَّمْتُمُوهُ. وَأُمُورًا كَثِيرَةً مِثْلَ هَذِهِ تَفْعَلُونَ** (الآيات ٩–١٣).

المفتاح لفهم ما يقوله يسوع هنا هو فهم هذا المصطلح الغريب «قربان». لهذه الكلمة علاقة بتقديم أو تكريس إنسان ما ممتلكاته الخاصّة أو ثروته الشخصيّة إلى الله. كان هذا مبدأً صالحًا في حدّ ذاته، ولكن رجال الدين حرّفوه للالتفاف على واحدة من أهم شرائع الله، الوصيّة التي تطلب من الناس أن يُكرموا آباءَهم وأمّهاتهم.

قال لهم يسوع: «أنتم ترفضون وصيّة الله لكي تحافظوا على تقليدكم». لاحِظْ أنّ يسوع لم يقل: «مُشكلتكم هي أنّكم تحافظون على الشريعة والتقليد». بل قال: «أنتم رفضتم شريعة الله واستبدلتموها بتقليدكم. في الواقع، أنتم تستخدمون تقليدكم كذريعة لتفادي طاعة شريعة الله».

ثمّ أشار بشكل مُحدّد إلى الوصيّة الخامسة: «لِأَنَّ مُوسَى قَالَ: أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ، وَمَنْ يَشْتُمُ أَبًا أَوْ أُمًّا فَلْيَمُتْ مَوْتًا». ثمّ أضاف: «وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَقُولُونَ..». لاحِظْ أنّ يسوع أشارَ أوّلًا إلى ما قاله موسى. كان موسى المتكلّم الرسميّ باسم الله؛ فقد كان يُقدّم الوحي الإلهي. ثمّ استعدّ يسوع لمقابلة كلام موسى بما قاله الفرّيسيّون والكتبة. كان هؤلاء الخبراء الدينيّون يقدّمون آراءَهم التي لم تصل إلى حدّ الوحي الإلهيّ. لم يكن الفرّيسيّون والكتبة ناقلي الوحي الإلهيّ، لكنّ موسى كان كذلك. لقد كانت هذه المقابلة واضحة بشكل كامل.

ماذا قال الفرّيسيّون والكتبة بالتحديد؟ قال يسوع: «وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَقُولُونَ: إِنْ قَالَ إِنْسَانٌ لِأَبِيهِ أَوْ أُمِّهِ: قُرْبَانٌ (أَيْ هَدِيَّةٌ لله)، هُوَ ٱلَّذِي تَنْتَفِعُ بِهِ مِنِّي فَلَا تَدَعُونَهُ فِي مَا بَعْدُ يَفْعَلُ شَيْئًا لِأَبِيهِ أَوْ أُمِّهِ».

لقد طوّر اليهود طريقة للعطاء المؤجّل، حيث يستطيع الإنسان أن يَعِدَ بأن يُعطي عند وفاته كلّ مقتنياته الدنيويّة لعمل الله. هذا يعني أنّه لن يقدر خلال حياته أنْ يستخدمَ ثروته الشخصيّة لأيّ غرض آخر، لأنّها كانت مُكرّسة لله. لذلك، تحت ذريعة التقوى، يمكن لأيّ شخص أنْ يتهرّبَ من واجب رعاية والدَيه عند مرضهما أو في مرحلة شيخوختهما، حين يكونان أضعف من أن يعتنيا بأنفسهما. يمكنه ببساطة أنْ يقول: «يا أمّي، ويا أبي، أنا آسف جدًّا. أودّ مساعدتكما، لكنّ ثروتي هي قربان. كلّ ما أملكه مُكرّس للربّ، ولا يمكنني أنْ أقدّمَ لكما مال الربّ».

الغريب أنّ الوصايا المتعلّقة بالقربان سمحت لأيّ شخص باستخدام الثروة التي كان قد كرّسها لله لنفسه خلال حياته. هو فقط لا يستطيع أن يُنفقَها على أيّ شخص آخر. سعى هذا التقليد إلى تقديس طريقة للتهرّب من المسؤوليّة التي وضعها الله على شعبه لإكرام والديهم.

أعتقد أنّه من الضروريّ أنْ يُقالَ إنّه قد لا يكون بين جميع المجموعات العرقيّة في العالم أيّ مجموعة تعتني وتهتمّ بمسنّيها أكثر من المجتمع اليهوديّ. رغم كلّ هذا الهراء الصادر عن رجال الدين اليهود، فإنّ الشريعة التي أعطاها الله من خلال موسى في العهد القديم يتمّ احترامها حتّى يومنا هذا، حيث تهتمّ العائلات بالأفراد المنتمين إليها دون الاعتماد على مؤسّسات أخرى كالحكومة في أوقات الأزمات. لكن لا توجد مجموعة عرقيّة مثاليّة بالطبع. وهكذا، حتّى بين اليهود، كان هنالك مَن حاول استخدام هذا التقليد لتفادي المسؤوليّة. نعم، كان للقربان مكان شرعيّ، لكن لا يجب أن تُستخدم هذه الممارسة أبدًا لإلغاء وصيّة كان الله قد أمرَ بها.

اتّباع قانون الايمان

هنا درس لنا. يوجد عِلمٌ في علم اللاهوت وفي الدراسات الكتابيّة نسمّيه علم التفسير. إنّه علم تفسير الكتاب المقدّس. إنّه يعلم المبادئ والقواعد الموضوعيّة التي تحكم تعاملنا مع النصّ الكتابي، لئلا نحوّل الكتاب المقدّس إلى قطعة من الطين نستطيع تشكيلها وتغييرها بحسب رغباتنا الخاصّة، كما فعل الفرّيسيّون. يوجد في قلب علم التفسير في اللاهوت المُصلَح **regula fidei**، أو «قانون الإيمان»، الذي ينصّ على أنّه لا يجب وضع أيّ جزء من الكتاب المقدّس مقابل جزء آخر منه. الافتراض الأوّل هنا هو أنّ الكتاب المقدّس كلّه هو كلمة الله. الافتراض الثاني هو أنّ الله لا يتكلّم بلسانَين، وأنّ ما يُعلنه في كلمته ثابت دائمًا. يُقال أحيانًا

إنّ الاتّساق هو جنّي العقول الصغيرة. إنْ كان هذا القول صحيحًا، فعلينا أنْ نقولَ إنّ أصغر عقل يمكن العثور عليه هو عقل الله. إلّا أنّني أعتقد أنّ الاتّساق هو إشارة على وضوح الحقيقة، وكلمة الله متّسقة وثابتة مع نفسها.

لكي نجد المثال الصارخ على مقابلة جزء من الكتاب المقدّس بجزء آخر، لا نحتاج أنْ نبحثَ أبعد من تجربة يسوع في البريّة. عندما حاول الشيطان إغواء يسوع، اقتبس له من الكتاب المقدّس. أخذَ يسوع إلى قِمّة الهيكل في أورشليم وتحدّاه أن يقفز قائلًا له: «أَنَّهُ يُوصِي مَلَائِكَتَهُ بِكَ»، وهذا اقتباس من مزمور ٩١: ١١ (متّى ٤: ٦). كان يقول ليسوع: «ألقِ بنفسك إلى أسفل. لن يُصيبك أَي مكره لأنّ الله وعد بأن تُمسك بك ملائكته». لكن يسوع أجابه: «مَكْتُوبٌ أَيْضًا: لَا تُجَرِّبِ ٱلرَّبَّ إِلَهَكَ» (متّى ٤: ٧؛ تثنية ٦: ١٦). قال يسوع: «أيّها الشيطان، أنتَ تخرق قاعدة الإيمان. أنتَ تستخدم تفسيرًا ضعيفًا للنصّ الكتابيّ. أنت تضع نصًّا من الكتاب المقدّس مقابل نصّ آخر من الكتاب المقدّس. يقول الكتاب المقدّس إنّه لا يجب أن أجرّب الله. إنْ أردتُ أنْ أطيعَ هذا القول، فلا يمكنني الإذعان لاقتراحك». لم يسمح للشيطان أنْ يُغريه للعمل بحسب آية واحدة من الكتاب المقدّس مقطوعة من سياقها في كلمة الله الكاملة.

هذا ما كان يسوع يتعامل معه في خلافه مع الفرّيسيّين والكتبة. كانت تقاليدهم تفتح كلّ أنواع الثغرات للسماح للناس بالهروب من التعليم الواضح للحقّ الإلهيّ. لهذا السبب قال عنهم: «مُبْطِلِينَ كَلَامَ ٱللهِ بِتَقْلِيدِكُمُ» (مَرْقُس ٧: ١٣).

كان الإصلاح البروتستانتيّ في القرن السادس عشر أكبر جدل لاهوتيّ في تاريخ الكنيسة. بدا من الخارج وكأنّ الجدل كلّه كان يدور حول عقيدة واحدة–التبرير بالإيمان وحده، وهو الإنجيل نفسه. عندما دخل مارتن لوثر في نزاع مع أمراء الكنيسة، ذكّروه أنّ فهمَه للتبرير لم يكن الفهم التقليدي

المتّبع، وأنّ الكنيسة شرحت التبرير في فئات مختلفة. لكنّ لوثر قال ببساطة: «هذا ما يقوله الكتاب المقدّس. إنّ ضميري أسير كلمة الله. يجب أنْ أخضعَ للكتاب المقدّس وليس للتقاليد التي هي من صنع الإنسان». إذن، كانت المسألة الثانويّة هي مسألة السلطة.

أين تكمن السلطة النهائيّة؟ هل هي في الكتاب المقدّس وحده، أم في الكتاب المقدّس والتقليد؟ إنْ كانت السلطة في الكتاب المقدّس والتقليد معًا، فإنّ التقليد يتفوّق على كلّ شيء من خلال تقديم تفسير مُلزم للكتاب المقدّس. لذلك، ولأهداف عمليّة، لا يوجد في الواقع مصدران للسلطة، أي الكتاب المقدّس والتقليد، بل يوجد مصدر واحد وهو التقليد الذي يُصبح أهمّ من الكلمة نفسها.

لا أفهم كيف يمكن لأيّ مخلوق عاقل أنْ يقرأَ تعاليم العهد الجديد، ولا سيّما كلمات بولس في رسالته إلى رومية حول التبرير، ويستخلص منها أيّ شيء يشبه عقيدة الكنيسة الكاثوليكيّة الرومانيّة القائمة على التقاليد. لكن لم يقع الكاثوليك وحدهم فريسة لهذه المشكلة، بل كلّنا سقطنا. كلّنا نميل أن نُعطي تقاليدنا وزنًا أكبر من الكتاب المقدّس. من السهل علينا أنْ ننظرَ إلى الوراء ونقول: «العار عليكم أيّها الفرّيسيّين»، «العار عليكم يا رجال الدين اليهود»، أو «العار على علماء اللاهوت في العصور الوسطى في روما». لا نحتاج أنْ ننظرَ إلى أبعدِ من قلوبنا. يجب أنْ تكونَ كلمة الله هي الحَكَم الأخير في كلّ النقاشات اللاهوتيّة والأخلاقيّة.

أنهى يسوع انتهارَه للفرّيسيّين والكتبة بالإشارة إلى أنّ استخدامهم لنذر القربان لم يكن الطريقة الوحيدة التي سعَوْا من خلالها للالتفاف حول شريعة الله. قال لهم: «وَأُمُورًا كَثِيرَةً مِثْلَ هَذِهِ تَفْعَلُونَ». كان قادة الدين في زمن يسوع يُقلّلون بشكل منهجيّ من تأثير كلمة الله على حياة وقلوب شعب إسرائيل.

تحديد مصدر النجاسة

ثمّ التفت يسوع إلى الجموع وقال لهم: «**ٱسْمَعُوا مِنِّي كُلُّكُمْ وَٱفْهَمُوا..**». (الآية ١٤ب). كان يلفت انتباه الناس ليُصغوا إلى تصريح بسلطان. كان يسوع على وشك أنْ ينقلَ كلام الله. قال لهم: «**لَيْسَ شَيْءٌ مِنْ خَارِجِ ٱلْإِنْسَانِ إِذَا دَخَلَ فِيهِ يَقْدِرُ أَنْ يُنَجِّسَهُ، لَكِنَّ ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي تَخْرُجُ مِنْهُ هِيَ ٱلَّتِي تُنَجِّسُ ٱلْإِنْسَانَ. إِنْ كَانَ لِأَحَدٍ أُذْنَانِ لِلسَّمْعِ، فَلْيَسْمَعْ**» (الآيتان ١٥–١٦). بهذه الكلمات، قصد يسوع نظام رجال الدين الكامل للطهارة الطقسيّة، ولا سيّما القوانين المفصّلة المتعلّقة بالطعام والتطهير. أعلن: «ليس ما تأكله ولا ما تشربه، لا شيء من الخارج يُنجّسك أو يلوّثك». لقد حدّد مُشكلة الإنسان ليس كأمر خارج عن نفسه، إنّما كأمر من الداخل، شيء داخليّ يُنتج تنجيسًا.

لاحقًا، بعد أنْ ابتعدَ يسوع عن الجموع وانتقل إلى أحدِ المنازل، طلب التلاميذ منه أنْ يشرحَ لهم كلامه، «**فَقَالَ لَهُمْ: أَفَأَنْتُمْ أَيْضًا هَكَذَا غَيْرُ فَاهِمِينَ؟ أَمَا تَفْهَمُونَ أَنَّ كُلَّ مَا يَدْخُلُ ٱلْإِنْسَانَ مِنْ خَارِجٍ لَا يَقْدِرُ أَنْ يُنَجِّسَهُ، لِأَنَّهُ لَا يَدْخُلُ إِلَى قَلْبِهِ بَلْ إِلَى ٱلْجَوْفِ، ثُمَّ يَخْرُجُ إِلَى ٱلْخَلَاءِ، وَذَلِكَ يُطَهِّرُ كُلَّ ٱلْأَطْعِمَةِ. ثُمَّ قَالَ: إِنَّ ٱلَّذِي يَخْرُجُ مِنَ ٱلْإِنْسَانِ ذَلِكَ يُنَجِّسُ ٱلْإِنْسَانَ**» (الآيات ١٨–٢٠). هل يمكن أنْ يكونَ يسوع أكثر وضوحًا من هذا؟ لا يوجد طعام يسبّب نجاسةً روحيّة للإنسان، لسبب بسيط وهو أنّ كلّ ما يؤكَل يتمّ هضمه أو التخلّص منه. ليس للطعام تأثير روحيّ على قلب الإنسان. كان المعنى الواضح أنّه لا يوجد أطعمة معيّنة يتجنّبها الإنسان فيحصل بذلك على البرّ. ببساطة، كان النظام الغذائيّ لإسرائيل بأكمله عديم القيمة من حيث إنتاج البرّ.

أخيرًا، قال يسوع: «**لِأَنَّهُ مِنَ ٱلدَّاخِلِ، مِنْ قُلُوبِ ٱلنَّاسِ، تَخْرُجُ ٱلْأَفْكَارُ ٱلشِّرِّيرَةُ: زِنًى، فِسْقٌ، قَتْلٌ، سِرْقَةٌ، طَمَعٌ، خُبْثٌ، مَكْرٌ، عَهَارَةٌ، عَيْنٌ شِرِّيرَةٌ،**

تَجْدِيفٌ، كِبْرِيَاءُ، جَهْلٌ. جَمِيعُ هَذِهِ ٱلشُّرُورِ تَخْرُجُ مِنَ ٱلدَّاخِلِ وَتُنَجِّسُ ٱلْإِنْسَانَ» (الآيات ٢١-٢٣). بهذه القائمة من الخطايا، أوضح يسوع ما قصده توضيحًا كاملًا. إنّ الخطايا التي يُفكّر فيها الإنسان في قلبه ويرتكبها توصله إلى النجاسة، أي سيُصبح مَدينًا لله. فالطعام لا يُنجّس القلب، والامتناع عن تناول أطعمة مختلفة لا يمنع النجاسة عن القلب. لذلك، علينا الاعتناء بالقلب وليس بالنظام الغذائيّ.

نحتاج أن نفهم هذا لأنّنا جميعًا نعترف أنّنا خطاة. نقول مازحين: «الإنسان خطّاء، والغفران مسألة إلهيّة» و«لا أحد كامل». عندما نقول مثل هذه العبارات، فإنّنا نُظهر بأنّنا ننظر إلى الخطية كشيء جانبيّ أو عرضيّ أو هامشيّ لوجودنا. قال يسوع: «لا، النجاسة تأتي من صميم كيانك».

يقول سفر الأمثال: «لِأَنَّهُ كَمَا شَعَرَ فِي نَفْسِهِ هَكَذَا هُوَ» (٢٣: ٧أ). نفكّر عادة في الدماغ على أنّه العضو المسؤول عن التفكير، ولكن نرى هنا أنّ القلب هو الذي يُقال عنه إنّه يفكّر. لدينا كلّ أنواع الأفكار المتضاربة في أذهاننا، لكن ما نؤمن به حقًّا هو الذي يدفع سلوكنا. قد تدخل الأفكار في آذاننا وتخرج منها، وقد نستمتع بها لفترة من الوقت في تفكيرنا، لكن ما يخترق القلب يُحدّد كيف نعيش. باختصار، يُعرَّف الرجل بالأمور التي يتمسّك بها في قلبه. إنْ كان القلبُ شرّيرًا، فستكون أفكاره شرّيرة، كالزنى والفسق والقتل والسرقة والطمع وكلّ الذنوب الأخرى التي ذكرها يسوع هنا. إنّ تناول أطعمة مُعيّنة أو الامتناع عنها لن يغيّر هذه القائمة مقدار ذرّة واحدة. القلب هو الذي يحتاج إلى تطهير.

٢٣

الفتات للـ «كلاب»

مَرْقُس ٧: ٢٤-٣٠

ثُمَّ قَامَ مِنْ هُنَاكَ وَمَضَى إِلَى تُخُومِ صُورَ وَصَيْدَاءَ، وَدَخَلَ بَيْتًا وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ لَا يَعْلَمَ أَحَدٌ، فَلَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَخْتَفِيَ، لِأَنَّ ٱمْرَأَةً كَانَ بِٱبْنَتِهَا رُوحٌ نَجِسٌ سَمِعَتْ بِهِ، فَأَتَتْ وَخَرَّتْ عِنْدَ قَدَمَيْهِ. وَكَانَتِ ٱلْٱمْرَأَةُ أُمَمِيَّةً، وَفِي جِنْسِهَا فِينِيقِيَّةً سُورِيَّةً. فَسَأَلَتْهُ أَنْ يُخْرِجَ ٱلشَّيْطَانَ مِنِ ٱبْنَتِهَا. وَأَمَّا يَسُوعُ فَقَالَ لَهَا: دَعِي ٱلْبَنِينَ أَوَّلًا يَشْبَعُونَ، لِأَنَّهُ لَيْسَ حَسَنًا أَنْ يُؤْخَذَ خُبْزُ ٱلْبَنِينَ وَيُطْرَحَ لِلْكِلَابِ. فَأَجَابَتْ وَقَالَتْ لَهُ: نَعَمْ، يَا سَيِّدُ! وَٱلْكِلَابُ أَيْضًا تَحْتَ ٱلْمَائِدَةِ تَأْكُلُ مِنْ فُتَاتِ ٱلْبَنِينَ. فَقَالَ لَهَا: لِأَجْلِ هَذِهِ ٱلْكَلِمَةِ، ٱذْهَبِي. قَدْ خَرَجَ ٱلشَّيْطَانُ مِنِ ٱبْنَتِكِ. فَذَهَبَتْ إِلَى بَيْتِهَا وَوَجَدَتِ ٱلشَّيْطَانَ قَدْ خَرَجَ، وَٱلِٱبْنَةَ مَطْرُوحَةً عَلَى ٱلْفِرَاشِ.

بعد أنْ واجهَ يسوع الفرّيسيّين والكتبة بقوّة حول قضايا الطهارة الطقسيّة، موضّحًا أنّ النجاسة تأتي من القلب وليس ممّا يدخل الجسد، انسحبَ إلى

منطقةٍ اعتبرَها اليهودُ غير طاهرة. هذه هي المرّة الوحيدة في سجلّ خدمةِ ربّنا العامّة التي شُوهد فيها وهو يخرج من حدود إسرائيل القديمة ويذهب إلى أرضٍ وثنيّة. كما سنرى، لم تكن مغامرة يسوع في هذه المنطقة رحلةً تبشيريّة إلى الأمم. كان يعتبر أنّ دعوتَه هي إعلان ملكوت الله لليهود، على أنْ يقومَ رسلُه لاحقًا بالكرازة للأمم.

يكتب مَرْقُس: **ثُمَّ قَامَ مِنْ هُنَاكَ وَمَضَى إِلَى تُخُومِ صُورَ وَصَيْدَاءَ** (الآية ٢٤أ). كانت صور على بُعد عشرين ميلًا إلى الشمال الغربيّ من كفرناحوم، حيث كان يسوع يعمل. كانت صيدا أبعد نحو الشمال. كانا كلاهما يقعان على ساحل البحر الأبيض المتوسّط، وكانا جزءًا من الحضارة الفينيقيّة. من تلك الكورة جاءت إيزابل وعذّبت النبي إيليّا. بحلول القرن الأوّل، كانت صور وصيدا تحت الإدارة الرومانيّة كما هي حال كلّ إسرائيل. قال رجال الدين اليهود إنّ منطقةَ صور وصيدا كانت مُكرّسة بشكل كامل للوثنيّة وعبادة الأصنام. اليوم، المدينتان جزء من لبنان.

لماذا ذهب يسوع إلى هذه المنطقة الوثنيّة؟ يكتب مَرْقُس: **وَدَخَلَ بَيْتًا وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ لاَ يَعْلَمَ أَحَدٌ، فَلَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَخْتَفِيَ** (الآية ٢٤ب). يبدو أنّ يسوع ذهب خارج حدود إسرائيل بحثًا عن مكان يستريح فيه من الجموع التي كانت تزحمه، ومن النقاشات التي كان يخوض بها. ليس واضحًا لماذا اختار يسوع هذه المنطقة بالذات كمكان للراحة؛ ربّما يبدو ببساطة أنّه المكان الذي لن يكون معروفًا فيه بشكل كبير.

بأيّ حال، كما يقول مَرْقُس: «لَمْ يَقْدِرْ أَنْ يَخْتَفِيَ». على الرغم من أنّ مَرْقُس كان يتحدّث بالمعنى الحرفيّ للكلمة، إلّا أنّ هذه الملاحظة تبقى صحيحة بالمعنى النهائيّ لها. بغضّ النظر عن الطريقة التي يحاول بها الناس إخفاء يسوع، إلّا أنّه يستحيل إخفاؤه حتّى في أظلم أماكن هذا العالم.

نداءٌ يائس

يبدو أنّ يسوع كان قد وصل لتوّه إلى هناك عندما أتى إليه شخص مُحتاج: **لِأَنَّ ٱمْرَأَةً كَانَ بِٱبْنَتِهَا رُوحٌ نَجِسٌ سَمِعَتْ بِهِ، فَأَتَتْ وَخَرَّتْ عِنْدَ قَدَمَيْهِ. وَكَانَتْ ٱلِٱمْرَأَةُ أُمَمِيَّةً، وَفِي جِنْسِهَا فِينِيقِيَّةً سُورِيَّةً. فَسَأَلَتْهُ أَنْ يُخْرِجَ ٱلشَّيْطَانَ مِنِ ٱبْنَتِهَا**. (الآيتان ٢٥-٢٦). بطريقة ما، انتشر خبرُ عن يسوع بطريقة محدودة على الأقلّ، فجاءَت امرأة تطلب مساعدته.

لاحِظ المعلومات التي قدّمها مَرْقُس عن خلفيّة هذه المرأة: «كانت أُمميّة وفينيقيّة سوريّة بالولادة». عندما قال عنها مَرْقُس إنّها أمميّة، كان يعني ببساطة أنّها كانت من منطقة غزاها الإسكندر الكبير، ثمّ أصبحت لاحقًا جزءًا من الإمبراطوريّة اليونانيّة، لهذا السبب كانت تتحدّث اللغة اليونانيّة. لم يقصد أنّها كانت مولودة في اليونان. في الواقع، كانت جنسيّتها «فينيقيّة-سورية»، ممّا يعني ببساطة أنّ المنطقة التي وُلدت فيها كانت في السابق جزءًا من الثقافتَيْن السوريّة والفينيقيّة. من الواضح أنّها لم تكن يهوديّة. في الواقع، يقول عنها متّى «ٱمْرَأَةٌ كَنْعَانِيَّةٌ» (١٥: ٢٢).

يقول مَرْقُس إنّ المرأة أتت إلى يسوع و«خَرَّتْ عِنْدَ قَدَمَيْهِ». يدلّ وضعُها الجسديّ هذا إلى أمرَيْن. أوّلًا، كانت تُعبّر عن إجلالها ليسوع، وتبدي احترامًا عميقًا له، رغم أنّها لم تكن تعرفه إلّا بالسمع. ولكن لم يكن فعلُها هذا مُجرّد علامة إجلال، بل كان دليلًا إلى توسّل وضيع. لقد سقطت على الأرض أمام يسوع لأنّ لمسة من الرجل الذي أمامها، بحسب وجهة نظرها، هي أملها الأخير في فداء ابنتها الصغيرة، التي كان شيطان مُسيطر عليها.

من المثير للاهتمام أنّ هذه الحادثة أتت عقب رفض يسوع للشرائع اليهوديّة الخاصّة بالطهارة الطقسيّة. لقد أظهرت السلطات الدينيّة لليهود الذين اعتبروا أنفسهم طاهرين عدم إيمانهم وعدم رغبتهم في إجلال يسوع،

لكن هذه المرأة الوثنيّة، التي كانت نجسة بكلّ وضوح بحسب تفكير رجال الدين اليهود، خرّت أمام الربّ يسوع المسيح متوسّلة رحمته.

يُخبرنا مَرْقُس أنّ هذه المرأة «ظلّت تطلب منه أنْ يُخرجَ الشيطانَ من ابنتها». لم تأتِ وقالت له ببساطة: «يا يسوع، أرجوك اشفِ ابنتي». بل كانت مُثابرة، وبقيت تتوسّل إليه مرارًا وتكرارًا. كانت تجسيدًا حيًّا للأرملة التي ناشدت القاضي الظالم في مَثَلِ يسوع حتى رضخ وحقّق طلبها (لوقا ١٨: ١–٥). ببساطة، كانت ملتزمة جدًّا بإنقاذ ابنتها لدرجة أنّها رفضت ببساطة أنْ تكونَ الإجابة «لا».

ردّ فعل غريب

الغريب في هذه الرواية هو ردّ فعل يسوع: **وَأَمَّا يَسُوعُ فَقَالَ لَهَا: دَعِي ٱلْبَنِينَ أَوَّلًا يَشْبَعُونَ، لِأَنَّـهُ لَيْسَ حَسَنًا أَنْ يُؤْخَذَ خُبْزُ ٱلْبَنِينَ وَيُطْرَحَ لِلْكِلَابِ** (الآية ٢٧). أوّلًا، يبدو أنّه لم يُسرع في الاستجابة لتضرّعها، بل سمح لها أن تكرّره مرّة بعد الأخرى. ثمّ، عندما أجابها، كانت إجابته على الأقلّ بشكلها الظاهريّ فظّة وغير حسّاسة، لأنّه تحدّث عن أشخاص مُعيّنين يأكلون قبل إطعام الكلاب–وكان المعنى الضمنيّ أنّ المرأة وشعبَها كلابٌ. لا يبدو في إجابَتِه أيّ حنان نحو هذه المرأة التي كانت تتوسّل إليه أن يُريح ابنتها الصغيرة.

لكي نفهمَ كيف يمكن أنْ يبدو هذا التعليق مُسيئًا، علينا أنْ نفهمَ أنّ واحدة من أسوأ الإهانات التي يمكن أنْ يلقيها شخص ما على آخر في تلك المنطقة في العصور القديمة كانت بنعته بالكلب. في ذلك الوقت، لم تكن الكلاب مخلوقات لطيفة ووديّة مثل الحيوانات الأليفة المنزليّة اليوم؛ بل كانت بالحري تعيش على القُمامة، وتأكل الجيف، وتلتهم حتّى الجثث. كانت من أقذر الحيوانات في البلدات. قال يسوع نفسه في عظته على

الجبل: «لَا تُعْطُوا ٱلْقُدْسَ لِلْكِلَابِ، وَلَا تَطْرَحُوا دُرَرَكُمْ قُدَّامَ ٱلْخَنَازِيرِ» (متّى ٧: ٦أ)، مُستخدمًا كلمة «كلاب» كناية عن الذين يرفضون الإنجيل.

قبل عدّة سنوات، كتبت باحثةٌ مدافعة عن حقوق النساء مقالًا تنتقد فيه بشدّة ردّ فعل يسوع على المرأة السوريّة الفينيقيّة، قائلة إنّ عدم حساسيّته وقساوته كانتا شديدتَيْن في هذه المناسبة، وبأنّه حطّ من قدر هذه المرأة بطريقة شوفينيّة نموذجيّة، متجاوزًا بذلك كلّ حدود اللياقة لدرجة الافتراء. هذا النصّ، كما قالت، هو الدليل الأوّل أنّ يسوع لم يكن بلا خطية، لأنّه أخطأ بحقّ هذه المرأة البريئة عندما دعاها بالكلبة.

في وقتٍ لاحق، سمعتُ معلّمًا مسيحيًّا يُلقي خطابًا أكاديميًّا دحض فيه اتّهامات هذه الباحثة. بينما كان يراجع تفاصيل هجومها على يسوع، كان يشير إليها مرارًا بأنّها «عالمة إنجيليّة مشهورة». بعد أنْ أنهى كلمتَه، أخبرْتُه أنّني أقدّر جهودَه لدحض اتّهامات الباحثة المدافعة عن حقوق النساء ضدّ يسوع، لكنّني أخبرته أيضًا أنّني شعرت أنّ وصفه لها بالإنجيليّة ليس في مكانه، لأنّه ببساطة لا يمكن تخيّل أنْ ينكرَ إنسان ما أنّ يسوع كان بلا خطية ونستمرّ في اعتباره إنجيليًّا. الإنجيليّ، في المقام الأوّل، هو مَن يؤمن بالإنجيل، أي بالأخبار السارّة عن عمل المسيح الخلاصيّ في موته الكفّاري. لو كان يسوع قد ارتكب خطية في معاملته لهذه المرأة، فلن يكون بلا خطية. ولو كان يسوع قد ارتكب خطية واحدة، فلن يكون لديه ما هو ضروريّ للتكفير عن خطيته، ناهيك عن التكفير عن خطايانا. لذا، كما ترَوْن، هنالك قدر كبير على المحكّ عندما يتعلّق الأمر بفهمنا لكيفيّة معاملة يسوع لتلك المرأة. لو كان قد أخطأ بحقّها، فلن يكون مُخلّصًا لها أو لك أو لي.

هل ارتكبَ خطية بحقّها فعلًا؟ للإجابة عن هذا السؤال، نحتاج إلى التطرّق إلى بعض التفاصيل الإضافيّة في النصّ. أولًا، لاحظ أنّه في

ترجمة الملك جيمس الجديدة، يُضاف على كلمة كلاب صفة الصغيرة. هذا لأنّه في اللغة اليونانيّة، تُترجم كلمة كلب بصيغة التصغير. هذه الفكرة مهمّة جدًّا. على الرغم من أنّ معظم الكلاب في أيّام يسوع كانت نصف برّية، إلّا أنّ الكلاب الصغيرة الأليفة كانت تُستخدم كحيوانات أليفة منزليّة، وكانت هذه الكلاب تميل إلى التجمّع تحت مائدة العائلة عند تناول وجبات الطعام. كانوا بالعادة يُطعمونها بقايا الطعام بعد أنْ تأكلَ الأسرة.

نحاول في عائلتي اتّباع هذا المبدأ مع كلابنا. لدينا ثلاث قواعد: أوّلًا، نحن لا نُطعم كلابنا طعامًا يأكله البشر، بل طعامًا مُغذّيًا مُخصّصًا بعناية للكلاب. يجب أنْ أعترفَ أنّنا لا نتبع دائمًا هذه القاعدة، لذلك لدينا قاعدة ثانية: إن قدّمْنا للكلاب طعامًا يأكله البشر، فلا يجب أبدًا أن نقدّمه من المائدة مباشرة، لأنّنا إنْ بدأنا بتقديم الطعام للكلاب من المائدة، سوف تتوقّع الحصول عليه دائمًا بهذه الطريقة، ويصبح هذا الأمر مصدر إزعاج لنا بينما نتناول وجباتنا العائليّة. ومع ذلك، تنظر إليّ كلابنا أحيانًا بشوق لدرجة أنّني لا أستطيع مقاومة إعطائها طعامًا من المائدة. لذلك، لدينا قاعدة ثالثة: إنْ أطعمتُ الكلاب من المائدة، فيجب أنْ يحدثَ ذلك بعد انتهاء العشاء، وبعد أنْ يغادرَ الجميعُ الطاولة. وهكذا، تعرف كلابي جيّدًا أنّه لا يُسمح لها أن تأخذَ أيّ شيء من الطاولة، وعليها أنْ تنتظرَ بصبر حتّى ينتهي الجميع.

بالإضافة إلى هذه القواعد الثلاث، لدينا قاعدة طبيعيّة أخرى: إنْ حدث أنْ سقطَ بعض الطعام عن غير قصد من المائدة، يُسمح للكلاب بأكل فتات الطعام. يبدو أنّ هذه القاعدة الطبيعيّة كانت سارية المفعول في المنازل في أيّام يسوع.

وجّه يسوع كلامَه إلى هذه المرأة الأمميّة بشيء من هذا القبيل في عين الاعتبار. وأكّد أنّ «البنين يأكلون أوّلًا» إشارة منه إلى بني إسرائيل. كان

يقول: «الأولويّة لخدمتي. إنّ خدمتي هي رعاية بني إسرائيل، وليس تقديم الطعام المخصّص للبنين للكلاب الصغيرة». كانت تلك مجرّد طريقة أخرى ليقول إنّ خدمته كانت لشعب إسرائيل، وأنّ كرازة الأمم ستحدث لاحقًا، تمامًا كما تأكل العائلة على المائدة ويُقدَّم الطعام بعد ذلك لكلاب العائلة، لتلك الحيوانات الأليفة المحبوبة.

إجابة مقبولة

يجب ترك وجود أيّ ازدراء أو تحقير في كلمة «كلب» لمزيد من النقاش. ولكن، لو كان هنالك في الواقع أيّ تحقير في كلامه، فيبدو أنّ المرأة لم تنزعج من ذلك، ولم تُسجّل أيّ شكوى نسائيّة. لم تقلْ له: «كيف تجرؤ على مقارنتي بالكلب». لم يكن هذا ردّها، بل قالت له ببساطة: **«نَعَمْ، يَا سَيِّدُ! وَٱلْكِلَابُ أَيْضًا تَحْتَ ٱلْمَائِدَةِ تَأْكُلُ مِنْ فُتَاتِ ٱلْبَنِينَ»** (الآية ٢٨).

قالت بشكل جوهريّ: «نعم، يا ربّ، أنا أفهم. لا يحقّ لي المطالبة برحمتك. أنا لا أُعتبَر من البنين. لا يحقّ لي أنْ أجلسَ على المائدة وأتناول الطعام الذي تضعه أمام أبنائِك. لا أريد ذلك. أنا راضية يا ربّ بالفتات. كلّ ما أطلبه هو أنْ تدعَني أحصل على كسرة واحدة من مائدتك وسأكون راضية. أرجوك، اشفِ ابنتي. أعلمُ أنّها ليست من عائلتك. أعلم أنّها ليست من البنين. نحن الكلاب ننتظر الفتات، ولكن كلّ ما أطلبه هو كسرة فتات واحدة».

هل ترى الفرقَ بين هذه المرأة والفرّيسيّين؟ لم تكن مهتمّةً بالمدافعة عن حقوقِها أو كرامتِها. لقد عرفت مَن تكون. في كثير من الأحيان في الكتاب المقدّس، عندما يقفُ الناس أمامَ الله الحيّ، يعرّفون عن أنفسهم بأدنى أشكال الحياة. قال داود: «أَمَّا أَنَا فَدُودَةٌ لَا إِنْسَانٌ» (مزمور ٢٢: ٦أ). كان يقول: «لا يُمكنني أنْ أطالبَ بحلاوة نعمتك. كلّ فتات تمنحه لي يُعطى لعبد لا يستحقّ». كانت المرأة السوريّة الفينيقيّة تتبنّى الموقف نفسه، وهو

الموقف المناسب الوحيد لأيّ شخص يأتي إلى الله القدير.

ومع ذلك، إنّ المؤمنَ الحقيقيّ يستلذّ بكلّ فتات يأتي من يدَيّ الله. الخبر السارّ هو أنّه في فيض الرحمة والنعمة اللتيْن تأتيان إلينا من يدَيّ الله، وعلى الرغم من أنّنا يجب أنْ نرضى بالفتات، إلّا أنّ الله لا يكتفي بإعطائنا الفتات، بل قد أغدق نعمته علينا.

يكتب مَرْقُس: **فَقَالَ لَهَا: لِأَجْلِ هَذِهِ ٱلْكَلِمَةِ، ٱذْهَبِي. قَدْ خَرَجَ ٱلشَّيْطَانُ مِنِ ٱبْنَتِكِ. فَذَهَبَتْ إِلَى بَيْتِهَا وَوَجَدَتِ ٱلشَّيْطَانَ قَدْ خَرَجَ، وَٱلِٱبْنَةَ مَطْرُوحَةً عَلَى ٱلْفِرَاشِ** (الآيتان ٢٩–٣٠). يُخبرنا متّى أنّه قال: «يَا ٱمْرَأَةُ، عَظِيمٌ إِيمَانُكِ!» (١٥: ٢٨). لم يجد إيمانًا كإيمانها بين الفرّيسيّين أو معلّمي اليهود أو بني إسرائيل. ولكنّه وجدَ هنا، في منطقةٍ وثنيّة، امرأةً أُعطي لها الإيمان بالمخلّص، فسمح لها أنْ تأكلَ.

أنا مُقتنع بأنّ هذه المرأة لم تشتكي أبدًا طوال حياتِها من كلمة واحدة قالها لها يسوع. لم تضع في قلبها أنْ تصفَ ربّنا بأنّه قاسٍ أو غير حسّاس أو مُهين أو خاطئ. كانت ممتنّة لله إلى الأبد لأنّها قابلت المسيح الحيّ الذي بكلمته المنطوقة طرد الشيطان من ابنتها. لم يُضطرّ حتّى أن يذهب معها، بل قال لها ببساطة: «يمكنك العودة إلى المنزل. لا بأس بذلك. ابنتك قد شُفيت».

نحتاج نحن الذين من أصلٍ غير يهوديّ أنْ نتذكّرَ بأنّنا أغصان زيتون برّيّة تمّ تطعيمها في شجرة إسرائيل (رومية ١١: ١٧–١٨). بحسب تاريخ الفداء، نحن الكلاب. ولكن، لأنّ الأبناء رفضوا عطيّة الآب لهم، أعطانا الآب تلك الهبة التي لا يحقّ لنا المطالبة بها في الأصل. هل يستبدل أيّ واحد منّا فتات خلاصنا بأيّ شيء في هذا العالم؟ هذا الفتات هو بمثابة لؤلؤة باهظة الثمن أعطاها يسوع للمرأة السوريّة الفينيقية. وهو يعطينا إيّاها أيضًا.

٢٤

شفاء الرجل
الأصمّ والأعقد

مَرْقُس ٧: ٣١-٣٧

ثُمَّ خَرَجَ أَيْضًا مِنْ تُخُومِ صُورَ وَصَيْدَاءَ، وَجَاءَ إِلَى بَحْرِ ٱلْجَلِيلِ فِي وَسْطِ حُدُودِ ٱلْمُدُنِ ٱلْعَشْرِ. وَجَاءُوا إِلَيْهِ بِأَصَمَّ أَعْقَدَ، وَطَلَبُوا إِلَيْهِ أَنْ يَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ. فَأَخَذَهُ مِنْ بَيْنِ ٱلْجَمْعِ عَلَى نَاحِيَةٍ، وَوَضَعَ أَصَابِعَهُ فِي أُذُنَيْهِ وَتَفَلَ وَلَمَسَ لِسَانَهُ، وَرَفَعَ نَظَرَهُ نَحْوَ ٱلسَّمَاءِ، وَأَنَّ وَقَالَ لَهُ: إِفَّثَا. أَيِ ٱنْفَتِحْ. وَلِلْوَقْتِ ٱنْفَتَحَتْ أُذْنَاهُ، وَٱنْحَلَّ رِبَاطُ لِسَانِهِ، وَتَكَلَّمَ مُسْتَقِيمًا. فَأَوْصَاهُمْ أَنْ لَا يَقُولُوا لِأَحَدٍ. وَلَكِنْ عَلَى قَدْرِ مَا أَوْصَاهُمْ كَانُوا يُنَادُونَ أَكْثَرَ كَثِيرًا. وَبُهِتُوا إِلَى ٱلْغَايَةِ قَائِلِينَ: إِنَّهُ عَمِلَ كُلَّ شَيْءٍ حَسَنًا! جَعَلَ ٱلصُّمَّ يَسْمَعُونَ وَٱلْخُرْسَ يَتَكَلَّمُونَ.

كما رأينا في كلّ مَرْقُس، كان ليسوع خدمة تعليم متجوّلة. كان يتنقّل باستمرار، حتى أنّه كان يسافر خارج المناطق اليهوديّة إلى منطقة صور وصيدا، كما رأينا في الفصل السابق. يبدو أنّه لم يمكث هناك طويلًا، لكنّه

سرعان ما عاد إلى المنطقة المحيطة ببحيرة طبريا. ومع ذلك، فقد حيّر وصف مَرْقُس لمسار رحلة يسوع في هذا المقطع علماء الكتاب المقدّس لعدّة قرون.

يخبرنا مَرْقُس: **ثُمَّ خَرَجَ أَيْضًا مِنْ تُخُومِ صُورَ وَصَيْدَاءَ، وَجَاءَ إِلَى بَحْرِ ٱلْجَلِيلِ فِي وَسْطِ حُدُودِ ٱلْمُدُنِ ٱلْعَشْرِ** (الآية ٣١). يبدو من هذا الوصف أنّ يسوع غادر صور واتّجه شمالًا إلى صيدا، ثمّ اتّجه شرقًا ثمّ جنوبًا، مُتحرّكًا على شكل قوس ضخم إلى الشاطئ الشرقيّ لبحيرة الجليل، في رحلة طولها حوالي ١٢٠ ميلًا. يُذكّرنا هذا الطريق الدائريّ للعودة إلى منطقة خدمته العاديّة، بتَيَهان بني إسرائيل في البريّة في العهد القديم.

ولكن مَرْقُس لا يقدّم أبدًا سببًا لمسار رحلته هذه، ولا يُخبرنا شيئًا عمّا حدث أثناء سفر يسوع وتلاميذه. كما هو الحال مع أحداث أخرى كثيرة من حياة وخدمة يسوع، فإنّ هذه التفاصيل هي من ضمن تلك التفاصيل التي من شأنها أن تملأ كتبًا أكثر ممّا يمكن للعالم أنْ يحتويها (يوحنّا ٢١: ٢٥). يجب أن نتذكّر أنّ مَرْقُس يكتب لغرضٍ محدّد، ألا وهو إقناع قرّائه من الأمم، الذين ربّما كانوا في روما، أنّ يسوع هو ابن الله. لذلك، يرى أنّ الإبلاغ عمّا حدث عندما عادَ يسوع وتلاميذه إلى منطقة بحيرة طبريا أكثر إفادة.

هبة السمع والنطق

يكتب مَرْقُس: **وَجَاءُوا إِلَيْهِ بِأَصَمَّ أَعْقَدَ، وَطَلَبُوا إِلَيْهِ أَنْ يَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ** (الآية ٣٢). وصفُ مَرْقُس للمرض الذي أصاب هذا الرجل لا يظهر بقوّة في اللغة الإنجليزيّة كما يظهر في اللغة الأصليّة. عندما أخبر مَرْقُس إنّ الرجلَ كان أعقد، استخدم كلمة يونانيّة هي **mogilalos**، وهي تعني أنّه كان يعاني من صعوبة شديدة في النطق، بحيث لم يتمكّن الناس من تمييز الكلمات التي كان ينطق بها.

كانت هناك تكهّنات كبيرة حول سبب مشكلته. قال البعض إنّه لا بدّ أن يكون قد وُلد أصمَّ، لأنّ الذين يولدون بدون القدرة على السمع، سيكون محكوم عليهم بالخرس ما لم يتلقّوا تدريبًا مُكثّفًا من متخصّصين مُحترفين في أمراض النطق. ولكن، كان هذا الرجل قادرًا على التكلّم نوعًا ما، لذلك يقول علماء آخرون إنّه ربّما لم يولد أصمَّ، إنّما أصيب به في وقت مُبكّر من حياته، ونتيجة لذلك، كان النطق لديه بدائيًّا. لكن ما نحن متأكّدون منه بعد كلّ هذه التخمينات هو أنّ هذا الرجل لا يقدر أنْ يسمعَ أو يتكلّمَ بشكلٍ واضح.

اسمحوا لي أن أعودَ إلى الأسباب المُحتَمَلة التي من أجلها ذَكَرَ مَرْقُس هذه الحادثة في إنجيله. شفى يسوع الناس من أمراض وإعاقات مختلفة، لكن مَرْقُس وحدَه بين كُتّاب الإنجيل يقدّم تقريرًا عن هذا الشفاء الخاصّ. لماذا بدا هذا أمرًا مهمًّا جدًّا بالنسبة إلى مَرْقُس؟ أعتقدُ أنّ الكلمة اليونانيّة التي تُرجمت إلى «أعقد»، **mogilalos**، هي المفتاح للإجابة عن هذا السؤال.

ذُكِرت هذه الكلمة مرّتين فقط في كلّ الكتاب المقدّس. إنّها موجودة هنا وفي إشعياء ٣٥، حيث تظهر في الترجمة اليونانيّة للعهد القديم، أي الترجمة السبعينيّة. عندما ننتقل إلى إشعياء ٣٥، نلاحظ أنّه في الإصحاحات السابقة لهذا الإصحاح، أعلنَ إشعياء كلمات الهلاك التي كلّفه الله أنْ ينطقَ بها على إسرائيل والشعوب المجاورة لها. أخبر الإسرائيليّين أنّ دينونةَ الله ستجعل أراضيهم قاحلة، وأنّهم سوف يمرّون بفترة من الدمار الشديد. نشعر بقسوة هذه الدينونة عندما نقرأ: «لِأَنَّ لِلرَّبِّ يَوْمَ ٱنْتِقَامٍ، سَنَةَ جَزَاءٍ مِنْ أَجْلِ دَعْوَى صِهْيَوْنَ. وَتَتَحَوَّلُ أَنْهَارُهَا زِفْتًا، وَتُرَابُهَا كِبْرِيتًا، وَتَصِيرُ أَرْضُهَا زِفْتًا مُشْتَعِلًا. لَيْلًا وَنَهَارًا لَا تَنْطَفِئُ. إِلَى ٱلْأَبَدِ يَصْعَدُ دُخَانُهَا. مِنْ دَوْرٍ إِلَى دَوْرٍ تُخْرَبُ. إِلَى أَبَدِ ٱلْآبِدِينَ لَا يَكُونُ مَنْ يَجْتَازُ فِيهَا (إشعياء ٣٤: ٨–١٠).

من سيمتلك هذه الأرض؟ يقول إشعياء:

وَيَرِثُهَا ٱلْقُوقُ وَٱلْقُنْفُذُ، وَٱلْكَرْكِيُّ وَٱلْغُرَابُ يَسْكُنَانِ فِيهَا، وَيُمَدُّ عَلَيْهَا خَيْطُ ٱلْخَرَابِ وَمِطْمَارُ ٱلْخَلَاءِ. أَشْرَافُهَا لَيْسَ هُنَاكَ مَنْ يَدْعُونَهُ لِلْمُلْكِ، وَكُلُّ رُؤَسَائِهَا يَكُونُونَ عَدَمًا. وَيَطْلَعُ فِي قُصُورِهَا ٱلشَّوْكُ. ٱلْقَرِيصُ وَٱلْعَوْسَجُ فِي حُصُونِهَا. فَتَكُونُ مَسْكِنًا لِلذِّئَابِ وَدَارًا لِبَنَاتِ ٱلنَّعَامِ. وَتُلَاقِي وُحُوشُ ٱلْقَفْرِ بَنَاتِ آوَى، وَمَعْزُ ٱلْوَحْشِ يَدْعُو صَاحِبَهُ. هُنَاكَ يَسْتَقِرُّ ٱللَّيْلُ وَيَجِدُ لِنَفْسِهِ مَحَلًّا. هُنَاكَ تُحْجِرُ ٱلنَّكَّازَةُ وَتَبِيضُ وَتُفْرِخُ وَتُرَبِّي تَحْتَ ظِلِّهَا. وَهُنَاكَ تَجْتَمِعُ ٱلشَّوَاهِينُ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ. (إشعياء ٣٤: ١١–١٥)

هل فهمتَ الصورة؟ هذا وصف قاسٍ للدينونة الإلهيّة على الأرض. وهل هنالك قساوة أكثر مِنْ أنْ يأخذَ الله الأرضَ من الأمير ويسلّمها إلى بنات آوى والثعابين وطيور السماء؟ إنّها سلسلة مُتصاعدة من الدينونة المستمرّة لعدّة إصحاحات حيث يوقع الله الدمارَ الذي خطّط له لهذا الجزء من العالم.

ولكن عندما يُعلن الله دينونةً على شعبه، يعطي دائمًا كلمة رجاء للمستقبل، لأنّ الله لا يُسلّم أبدًا البقيّة الباقية إلى الخراب. وبالتأكيد هذا ما نسمعه فورًا، إذ يُعلن إشعياء عن يوم الربّ، يوم افتقاد للربّ، يوم الخراب الذي سيأتي به على الأرض.

يكتب النبيّ في الاصحاح ٣٥: «تَفْرَحُ ٱلْبَرِّيَّةُ وَٱلْأَرْضُ ٱلْيَابِسَةُ، وَيَبْتَهِجُ ٱلْقَفْرُ وَيُزْهِرُ كَٱلنَّرْجِسِ, يُزْهِرُ إِزْهَارًا وَيَبْتَهِجُ ٱبْتِهَاجًا وَيُرَنِّمُ. يُدْفَعُ إِلَيْهِ مَجْدُ لُبْنَانَ. بَهَاءُ كَرْمَلَ وَشَارُونَ. هُمْ يَرَوْنَ مَجْدَ ٱلرَّبِّ، بَهَاءَ إِلَهِنَا» (الآيتان ١–٢). هل ترى المقابلة بين أمرَيْن؟ ينتقل إشعياء من الخراب إلى المجد، ومن الدمار إلى بهاءِ ظهور الربّ. يقول: «شَدِّدُوا ٱلْأَيَادِيَ ٱلْمُسْتَرْخِيَةَ، وَٱلرُّكَبَ ٱلْمُرْتَعِشَةَ ثَبِّتُوهَا. قُولُوا لِخَائِفِي ٱلْقُلُوبِ: تَشَدَّدُوا لَا تَخَافُوا. هُوَذَا إِلَهُكُمُ. ٱلِٱنْتِقَامُ يَأْتِي. جِزَاءُ ٱللهِ. هُوَ يَأْتِي وَيُخَلِّصُكُمْ» (الآيتان ٣–٤).

إنّه تكرار لمبدأ يتكرّر مرارًا وتكرارًا في العهد القديم–الخلاصُ من اليهود، لأنّ الله يعمل من خلال هذا الشعب الصلب الرقبة ليأتي بفدائه إلى العالم أجمع.

ها هي الذروة: «حِينَئِذٍ تَتَفَقَّحُ عُيُونُ ٱلْعُمْيِ، وَآذَانُ ٱلصُّمِّ تَتَفَتَّحُ. حِينَئِذٍ يَقْفِزُ ٱلْأَعْرَجُ كَٱلْإِيَّلِ وَيَتَرَنَّمُ لِسَانُ ٱلْأَخْرَسِ، لِأَنَّهُ قَدِ ٱنْفَجَرَتْ فِي ٱلْبَرِّيَّةِ مِيَاهٌ، وَأَنْهَارٌ فِي ٱلْقَفْرِ. وَيَصِيرُ ٱلسَّرَابُ أَجَمًا، وَٱلْمَعْطَشَةُ يَنَابِيعَ مَاءٍ. فِي مَسْكِنِ ٱلذِّئَابِ، فِي مَرْبِضِهَا دَارٌ لِلْقَصَبِ وَٱلْبَرْدِيِّ. وَتَكُونُ هُنَاكَ سِكَّةٌ وَطَرِيقٌ يُقَالُ لَهَا: ٱلطَّرِيقُ ٱلْمُقَدَّسَةُ» (الآيات ٥–٨أ).

هذا هو المقطع الذروة، عندما يفرح إشعياء بأنّ «لِسَانُ ٱلْأَخْرَسِ [سوف] يَتَرَنَّمُ»، وهنا تظهر كلمة **mogilalos** مرّة أخرى. قبل عدّة قرون من ولادة يسوع في بيت لحم، أعطى الله رسالةَ الأمل هذه لشعبه، متطلعًّا إلى ما بعد الدمار والخراب، إلى عصر المسيح، عندما ينطلق ملكوت الله ويأتي المسيح. لقد وعدَ أنْ يُعطي المسيحُ البصرَ للمكفوفين والسمع للصمّ، ويُحرّك ألسنة البكم. من المؤكّد أن مَرْقُس كان يُفكّر بهذا الوعد الرائع عندما كتب قصّة لقاء يسوع مع الأصمّ والأبكم، لأنّ شفاءَه ربطَ يسوع بقوّة بهذه النبوءَة المسيانيّة.

لمسة وأمر

يتابع مَرْقُس قائلًا: **فَأَخَذَهُ مِنْ بَيْنِ ٱلْجَمْعِ عَلَى نَاحِيَةٍ، وَوَضَعَ أَصَابِعَهُ فِي أُذُنَيْهِ وَتَفَلَ وَلَمَسَ لِسَانَهُ** (الآية ٣٣). تذكّر أنّ هذا الرجل لم يكن يهوديًّا، حاله حال المرأة السوريّة الفينيقيّة. كان من منطقة المدن العشر، وهي منطقة يسيطر عليها الأمم، الذين اعتبرهم القادة اليهود الدينيّون نجسين. ومع ذلك، كان أوّل شيء يفعله يسوع هو أنْ أخذَه جانبًا ولمسه. وضع أوّلًا أصابعه في أذنَي الرجل، ثمّ بصق، ربّما في يدَيه، وبعد ذلك

وضع اللعاب على لسان الرجل.

كان اللعابُ يُعتبر نجسًا بحسب شرائع التطهير اليهوديّة. ومع ذلك، كان في العالم القديم تقليد بأنّ أولئك الذين يتمتّعون بقدرات على الشفاء، كانوا يستخدمون في كثير من الأحيان لعابهم كوسيلة لنقل هذه القوّة إلى الأشخاص الذين يشفونهم. بالتأكيد، لم يكن يسوع بحاجة إلى استخدام اللعاب لشفاء هذا الرجل، ولكن ربّما فعل ذلك ليمنح الرجل الثقة في أنّه يعرف كيف يشفي الناس. ومع ذلك، يرى البعض أهمّيّة رمزيّة أعمق بكثير لاستخدام يسوع لعابه لشفاء إنسان يتألّم؛ يقولون إنّه كان يرمز بذلك إلى سفك دمه الذي لا يشفي أجسادَ شعبه فحسب، بل يُخلّصهم أيضًا.

إذن، لمسَ يسوع أذنَيّ الرجل ولسانه **وَرَفَعَ نَظَرَهُ نَحْوَ ٱلسَّمَاءِ، وَأَنَّ وَقَالَ لَهُ: إِفَّثَا. أَيِ ٱنْفَتِحْ. وَلِلْوَقْتِ ٱنْفَتَحَتْ أُذْنَاهُ، وَٱنْحَلَّ رِبَاطُ لِسَانِهِ، وَتَكَلَّمَ مُسْتَقِيمًا** (الآيتان ٣٤-٣٥). عندما يقول مَرْقُس إنّ يسوع «أنَّ»، فهذا يعني أنّ أنينَه كان من الداخل، مُشيرًا بذلك إلى تضرّع شديد للآب لكي يتدخّل. ثمّ نطق بكلمة آراميّة ترجمها مَرْقُس لقرّائه الناطقين باللغة اليونانية: «انفتح». بأمر منه، حرّر يسوع أذنَيْه اللتَيْن لم تسمعا أيّ صوت لسنوات عديدة، وحرّر لسانه الذي كان مُقيّدًا بالسلاسل، الأمر الذي جعل من المستحيل على الرجل التحدّث بوضوح. أصبح الآن قادرًا أن يسمعَ ويتكلَّم.

سيكون أمرًا مُلفتًا لو قال مَرْقُس: «شُفي من عُقدة لسانه». لكن مَرْقُس يقول أكثر من ذلك. فورًا وحالًا بعد أن لمسَ يسوع لسانَه وأصدر أمرَه، لم يُصبح الرجلُ قادرًا على الكلام فحسب، بل أصبح يتكلّم «باستقامة». لقد أُزيلت كلّ علّة موجودة فيه، وكان كلامه واضحًا.

هذا ما يحدث لكلّ مسيحيّ بكلّ ما للكلمة من معنى. قبل أنْ يُعرّفنا الروح القدس على أمور الله، كنّا نعاني من الصمم نحو كلمة الله كما

كان هذا الرجل المسكين أصمَّ لا يسمع أيّ كلمة. ألسنتنا مُخادعة و«سِمُّ ٱلْأَصْلَالِ تَحْتَ شِفَاه[نا]» ولا تقدر إلّا أن تُجدّف (رومية ٣: ١٣)، إلى أنْ يُطهّر الروح القدس قلوبَنا ويُجدّد أرواحنا. يحرّرنا الله من هذه البلايا بقوّة روحه القدوس المُجدِّدَة.

يعملُ كلّ شيء حسنًا

أخيرًا، **أَوْصَاهُمْ أَنْ لَا يَقُولُوا لِأَحَدٍ. وَلَكِنْ عَلَى قَدْرِ مَا أَوْصَاهُمْ كَانُوا يُنَادُونَ أَكْثَرَ كَثِيرًا. وَبُهِتُوا إِلَى ٱلْغَايَةِ قَائِلِينَ: إِنَّهُ عَمِلَ كُلَّ شَيْءٍ حَسَنًا! جَعَلَ ٱلصُّمَّ يَسْمَعُونَ وَٱلْخُرْسَ يَتَكَلَّمُونَ** (الآيتان ٣٦–٣٧). كما كان يسوع يفعل دائمًا، أمرَ الرجلَ والجموعَ ألّا يُخبروا الآخرين عن المعجزة، لكنّهم ببساطة لم يسمعوا كلامه، لأنّهم اندهشوا تمامًا ولم يتمكّنوا من التوقّف عن الكلام عمّا شهدوه. قيّم الناسُ يسوعَ وعملَه بطريقة مُثيرة حين قالوا: «إِنَّهُ عَمِلَ كُلَّ شَيْءٍ حَسَنًا». لم يفعل يسوع شيئًا بطريقة ناقصة في حياته. عندما ثبّت وجهه لينطلق إلى أورشليم وقرّر أن يكون طعامه أن يعمل مشيئة أبيه (يوحنّا ٤: ٣٤)، فعل ذلك بشكل حسن. لم يكن هنالك أيّ فشل أو خلل في عمله. والآب نفسه وافق مع الناس عندما تكلّم من السماء وقالَ: «هَذَا هُوَ ٱبْنِي ٱلْحَبِيبُ ٱلَّذِي بِهِ سُرِرْتُ» (متّى ٣: ١٧).

أتذكّر عندما تمّ تشخيص صديقي جيمس مونتغمري بويس بسرطان مُميت. كان أمامَه ستّة أسابيع فقط من وقت التشخيص إلى وقت وفاته. كما هو متوقّع، شعر كثيرون منّا بالانزعاج والذهول، لكنّه قال لنا: «كونوا في سلام من نحوي. الله يعمل كلّ شيء حسنًا». هذا هو قلب المسيحيّ.

الله الذي أخذَ جيم بويس إلى موطنِه في المجد، هو الإله نفسه الذي ظهرَ في يسوع الذي شفى الرجل على شاطئ بحيرة طبريا. إنّه الإله نفسه الذي خلقَ السماوات والأرض، والذي، عندما انتهى من عمله الخلّاق، رأى

أنّه «حَسَنٌ جِدًّا» (تكوين ١: ٣١). ما فعله في الخليقة، فعله بشكلٍ حسن. إنّه الإله نفسه الذي فدانا. عندما أنجز المسيح عمله الفدائي لأرواحنا، فعل ذلك بشكلٍ حسن، وفي كلّ تعاملاته معنا، يفعل كلّ شيء حسنًا. لهذا السبب يمكننا أنْ نرنّم، حتّى في وسط الضيقات، «على الرغم من الضيق الشديد الذي أصاب روحي، إلّا أنّ الربّ إلهي يعمل كلّ شيء حسنًا».[١] لاحَظَ هؤلاء الأميّون هذا في يسوع، فقال بعضهم لبعض: «انظروا إليه، كلّ ما يصنعه حسن، لأنّه الله المتجّسد». الذي يخلق ويفدي ويفتح آذانًا صمّاء ويحلّ عُقَد الألسنة، ويعمل كلّ شيء حسنًا.

أخبرَني مؤخَّرًا شخص ما عن مشاهدته لمقابلة مُتلفزة مع الممثّل روبرت دي نيرو. سأل مُقدّم البرنامج دو نيرو: «إنْ وقفتَ أمامَ الله عند نهاية حياتك، فماذا ستقول له؟» أجابَه دي نيرو بأسلوبه المغرور المشهور فيه: «ما سأقوله لله هو التالي: عليك أن تشرحَ لي بعض الأمور». في الواقع، دي نيرو سيكون هو مَن سيقوم بعمليّة الشرح. ليس على الله أنْ يشرحَ أيّ شيء يُسرّ بأنْ يُنهيه في هذا العالم. لم يكن عليه أنْ يشرحَ لبني إسرائيل لماذا سكنت بنات آوى في أرضهم، ولماذا أصبحت جداول المياه مثل أنهارٍ من القطران. لم يكن عليه أن يشرحَ لماذا اختار أن يُصيب رجلًا أميًّا بالصمم والخرس. إنّه سيّد على كلّ شيء ولديه كامل الحريّة في أن يفعلَ ما يشاء. وشهادة الكتاب المقدّس ومن تحبّه قلوبُهم هي أنّه يعمل كلّ شيء حسنًا.

١ من ترنيمة باللغة الإنجليزيّة بعنوان «كلّ المجد لله الذي يَملُك» بقلم يوهان ج. شوتز، ١٦٧٥.

٢٥

خمير الفرّيسيّين

مَرْقُس ٨: ١-٢١

فِي تِلْكَ ٱلْأَيَّامِ إِذْ كَانَ ٱلْجَمْعُ كَثِيرًا جِدًّا، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَا يَأْكُلُونَ، دَعَا يَسُوعُ تَلَامِيذَهُ وَقَالَ لَهُمْ: إِنِّي أُشْفِقُ عَلَى ٱلْجَمْعِ، لِأَنَّ ٱلْآنَ لَهُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ يَمْكُثُونَ مَعِي وَلَيْسَ لَهُمْ مَا يَأْكُلُونَ. وَإِنْ صَرَفْتُهُمْ إِلَى بُيُوتِهِمْ صَائِمِينَ يُخَوِّرُونَ فِي ٱلطَّرِيقِ، لِأَنَّ قَوْمًا مِنْهُمْ جَاءُوا مِنْ بَعِيدٍ. فَأَجَابَهُ تَلَامِيذُهُ: مِنْ أَيْنَ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يُشْبِعَ هَؤُلَاءِ خُبْزًا هُنَا فِي ٱلْبَرِّيَّةِ؟ فَسَأَلَهُمْ: كَمْ عِنْدَكُمْ مِنَ ٱلْخُبْزِ؟ فَقَالُوا: سَبْعَةٌ. فَأَمَرَ ٱلْجَمْعَ أَنْ يَتَّكِئُوا عَلَى ٱلْأَرْضِ، وَأَخَذَ ٱلسَّبْعَ خُبْزَاتٍ وَشَكَرَ وَكَسَرَ وَأَعْطَى تَلَامِيذَهُ لِيُقَدِّمُوا، فَقَدَّمُوا إِلَى ٱلْجَمْعِ. وَكَانَ مَعَهُمْ قَلِيلٌ مِنْ صِغَارِ ٱلسَّمَكِ، فَبَارَكَ وَقَالَ أَنْ يُقَدِّمُوا هَذِهِ أَيْضًا. فَأَكَلُوا وَشَبِعُوا. ثُمَّ رَفَعُوا فَضَلَاتِ ٱلْكِسَرِ: سَبْعَةَ سِلَالٍ. وَكَانَ ٱلْآكِلُونَ نَحْوَ أَرْبَعَةِ آلَافٍ. ثُمَّ صَرَفَهُمْ. وَلِلْوَقْتِ دَخَلَ ٱلسَّفِينَةَ مَعَ تَلَامِيذِهِ وَجَاءَ إِلَى نَوَاحِي دَلْمَانُوثَةَ. فَخَرَجَ ٱلْفَرِّيسِيُّونَ وَٱبْتَدَأُوا يُحَاوِرُونَهُ طَالِبِينَ مِنْهُ آيَةً مِنَ ٱلسَّمَاءِ، لِكَيْ يُجَرِّبُوهُ. فَتَنَهَّدَ بِرُوحِهِ وَقَالَ: لِمَاذَا يَطْلُبُ هَذَا ٱلْجِيلُ آيَةً؟ اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لَنْ يُعْطَى هَذَا ٱلْجِيلُ آيَةً! ثُمَّ تَرَكَهُمْ وَدَخَلَ

أَيْضًا ٱلسَّفِينَةَ وَمَضَى إِلَى ٱلْعَبْرِ. وَنَسُوا أَنْ يَأْخُذُوا خُبْزًا، وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ فِي ٱلسَّفِينَةِ إِلَّا رَغِيفٌ وَاحِدٌ. وَأَوْصَاهُمْ قَائِلًا: ٱنْظُرُوا! وَتَحَرَّزُوا مِنْ خَمِيرِ ٱلْفَرِّيسِيِّينَ وَخَمِيرِ هِيرُودُسَ. فَفَكَّرُوا قَائِلِينَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: لَيْسَ عِنْدَنَا خُبْزٌ. فَعَلِمَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: لِمَاذَا تُفَكِّرُونَ أَنْ لَيْسَ عِنْدَكُمْ خُبْزٌ؟ أَلَا تَشْعُرُونَ بَعْدُ وَلَا تَفْهَمُونَ؟ أَحَتَّى ٱلْآنَ قُلُوبُكُمْ غَلِيظَةٌ؟ أَلَكُمْ أَعْيُنٌ وَلَا تُبْصِرُونَ، وَلَكُمْ آذَانٌ وَلَا تَسْمَعُونَ، وَلَا تَذْكُرُونَ؟ حِينَ كَسَّرْتُ ٱلْأَرْغِفَةَ ٱلْخَمْسَةَ لِلْخَمْسَةِ ٱلْآلَافِ، كَمْ قُفَّةً مَمْلُوَّةً كِسَرًا رَفَعْتُمْ؟ قَالُوا لَهُ: ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ. وَحِينَ ٱلسَّبْعَةِ لِلْأَرْبَعَةِ ٱلْآلَافِ، كَمْ سَلَّ كِسَرٍ مَمْلُوًّا رَفَعْتُمْ؟ قَالُوا: سَبْعَةً. فَقَالَ لَهُمْ: كَيْفَ لَا تَفْهَمُونَ؟

لو كنّا ندرس إنجيل مَرْقُس للمرّة الأولى، لربّما سقطنا في تجربة طرح السؤال التالي: «ما الذي يحدثُ هنا؟ هل خلط كاتبٌ في القرون الأولى صفحات مخطوطته، وكرّر الرواية نفسَها التي نجدها في مَرْقُس ٦: ٣٠–٤٤؟

في الواقع، افترض العديد من النقّاد أنّ شيئًا مثل هذا قد حدثَ بالفعل، وذلك ببساطة لأنّ هنالك الكثير من التشابه بين هذه الرواية وقصّة إشباع الخمسة آلاف. في كلتا المناسبتَيْن، اجتمع حشد كبير للاستماع إلى تعاليم يسوع في مكان ما في البرّيّة. في كلتا الروايتَيْن، تحنّن يسوع على احتياجات الناس المجتمعين حوله. في كلتا الحالتَيْن، شكّ التلاميذ في إمكانيّة إطعام مجموعة كبيرة مثل هذه في البرّيّة (وهو أمر غريب جدًّا بالفعل في الحادثة الأخيرة، نظرًا لأنّهم رأوا ذلك يحدث في المرّة الأولى). في كلتا الروايتَيْن، سألَ يسوع التلاميذ عمّا توفّر من طعام، لكنّهم لم يجدوا سوى أرغفة قليلة وبعض السمك. في كلتا الروايتَيْن، ضاعف يسوع الأرغفة والأسماك لدرجة أنّ جميع الناس شبعوا، وجُمِع الكثيرُ من كِسَر الطعام. في كلتا الروايتَيْن، ترك يسوع الجموع واستقلّ قاربًا للذهاب إلى جزء آخر من بحيرة طبريا.

أخيرًا، نجد بعد الروايتَيْن استجوابًا ومواجهة مع الفرّيسيّين. لذلك، ليس من الصعب أن نفهمَ لماذا يقول النقّاد إنّه لا بدّ أنّ ما حدث هو تكرار للقصّة نفسها.

عندما قرأتُ هذه الانتقادات عن هذا النصَ، تذكّرتُ السنة الأولى التي أصبحت فيها أستاذًا جامعيًّا في غرب بنسلفانيا. كان لديّ صديق في الجامعة يُدرّس مادة العلوم الإنسانيّة واللغة الإنجليزيّة. كانت مادّة العلوم الإنسانيّة إلزاميّة لجميع الطلّاب الجدد. كان عليهم في تلك المادّة أنْ يدرسوا القصائدَ النثريّة للشاعر أوفيد بعنوان **Ovid's Metamorphoses**، وهي قصائد مليئة بالأساطير القديمة. كان صديقي يُعارض بشدّة ادّعاءات المسيحيّة، لذلك كان يُشير كلّ يوم، بينما كان تلاميذه يعملون على تحليل الأبيات الشعريّة، إلى أوجه الشبه بين المحتوى الأسطوري للشاعر أوفيد، وتعاليم العهد الجديد عن يسوع. كان طُلّابه يأتون بسرعة إلى صفّي لينقلوا لي ما قاله، ثمّ يطلبون أنْ أعطي ردًّا على ذلك. بدأت أمِلّ من هذا الأمر، لذلك عندما التقيت بصديقي ذات يوم، سألته لماذا كان يُشير إلى كلّ أوجه الشبه الموجودة في تلك القصائد والعهد الجديد. كان ردّه بسيطًا: «التشابه موجود». اعترفت له بأنّ أوجه الشبه كانت حقيقيّة، لكنّني ضغطت عليه لمعرفة ما إنْ كان يُخصّص وقتًا متساويًا في مناقشة كلّ من القصائد وروايات العهد الجديد عن يسوع. بدأت أشير إلى الاختلافات الكثيرة بينهما وبالأخصّ وُجهة النظر المختلفة جذريًّا بينهما للتاريخ. أخيرًا، استطاع أنْ يفهمَ وجهة نظري. وفي النهاية، شجّعته على تدريس اللغة الإنجليزيّة وترك تدريس علم اللاهوت لي، ووعدته ألّا أقوم بتدريس النقد الأدبيّ في صفّي اللاهوتيّ.

لاكتساب أيّ معرفة في أيّ مادة علميّة، يجب استخدام ما يُعرف بعمليّة «التفرّد». تتضمّن هذه العمليّة تسجيل الأفكار أو المفاهيم في

مجموعات متشابهة والقيام بتصنيفها، كما يُصنِّف عُلماء الأحياء الأجناس إذا صحّ التعبير. بعد ذلك، بعد تسجيل التشابه، يمكن أن يبدأ العالِم في التمييز بين الأفكار أو المفاهيم من خلال تسجيل أوجه الاختلاف فيها.

هذا ما يحدث في الطبّ. إنْ كنتُ أعاني من آلام في المَعِدة، فقد يكون ذلك نتيجة أيّ شيء ابتداءً من عسر الهضم إلى سرطان المعدة. تُعتبر آلام المعدة أحد أوجه التشابه بين العديد من الأمراض. ولكن شُكرًا لله لأنّ الأطباء لا يعرفون أوجه التشابه فحسب، ولكن أوجه الاختلاف أيضًا بين الأمراض. هذا ما يُشكّل المعرفةَ، وهذا ما يُشكّل العِلْمَ.

علينا أيضًا أنْ نستخدمَ هذه العمليّة لفهم كلمة الله بشكل صحيح. لقد رأينا العديد من أوجه التشابه بين مُعجزتَي إشباع الجموع في مَرْقُس ٦ ومَرْقُس ٨، ولكن ماذا عن أوجه الاختلاف؟ من أكثر أوجه الاختلاف وضوحًا، أنّه في الرواية المذكورة في مَرْقُس ٨، كان الناس مع يسوع ثلاثة أيّام، وليس يومًا واحدًا (الآية ٢)؛ كانت الأرغفة سبعة، وليس خمسة (الآيات ٥–٧)؛ وكان عدد سلال بقايا الطعام أقلّ (العدد ٧). وفي مَرْقُس ٦، استُخدمت كلمة يونانيّة عامّة للإشارة إلى «السمك»، بينما في مَرْقُس ٨، تُرجمت الكلمة «سمك» وهي تُشير على وجه التحديد إلى السردين، ربّما لأنّ مُعجزةَ إشباع الأربعة آلاف حدثت في منطقة أمميّة كانت معروفة بتجارتها لهذا النوع من الأسماك. أخيرًا، كان عدد الذين أكلوا مختلفًا تمامًا؛ ففي مَرْقُس ٦، كان عددهم خمسة آلاف رجل، مع وجود عدد إضافيّ من النساء والأطفال، ولكن في مَرْقُس ٨، كان عددهم أربعة آلاف وهو يشمل الرجال والنساء والأطفال معًا (الآية ٩).

بالطبع، كانت الضربة القاضية التي أسكتت جميع نظريّات الأخطاء النصّيّة، هو أنّ يسوع ذَكَرَ لاحقًا حادثتَي إطعام الناس في حديث واحد مع التلاميذ (الآيات ١٧–٢١). لذلك، أنا واثق من أنّه لا يوجد خطأ ناسخ

في هذه الرواية، بل أعتقد أنّ كلمة الله تَذكُر بدقّة مُعجزتَيْن منفصلتَيْن عن مضاعفة يسوع للأرغفة والأسماك لإشباع جماهير غفيرة من الناس.

الفرّيسيّون يُطالبون بآية

بعد أن أكلَ الناس، **صَرَفَهُمْ. وَلِلْوَقْتِ دَخَلَ ٱلسَّفِينَةَ مَعَ تَلَامِيذِهِ وَجَاءَ إِلَى نَوَاحِي دَلْمَانُوثَةَ** (الآيتان ٩ب–١٠). هذا الموقع غير معروف، ولكن يبدو أنّه كان في مكان ما على الجانب الغربيّ من بحيرة طبريا في المناطق اليهوديّة. وما يدعم هذا الافتراض أن الفرّيسيّين، كما فعلوا بعد إشباع الخمسة آلاف، اقتربوا من يسوع بعد أن أطعم الأربعة آلاف: **فَخَرَجَ ٱلْفَرِّيسِيُّونَ وَٱبْتَدَأُوا يُحَاوِرُونَهُ طَالِبِينَ مِنْهُ آيَةً مِنَ ٱلسَّمَاءِ، لِكَيْ يُجَرِّبُوهُ** (الآية ١١). إنّ الكلمة الإنجليزية **testing** أضعف من الكلمة اليونانيّة التي تُشير إلى أنّ الفريسيين كانوا في الخارج لتأنيب يسوع ومضايقته، وليس فقط لمناقشته أو مناظرته بطريقة مُهذّبة. كانوا معادين له بشدّة، وقد ظهرَ هذا العداء في طلب آية كدليل على ألوهيّته.

ما عدد الآيات التي أراد الفرّيسيّون رؤيتَها؟ كان يسوع يمرّ بمنطقة الجليل وهو يصنع معجزات كثيرة. كان يشفي المرضى في كلّ مكان يصل إليه والذين يعانون من أمراض وإعاقات مختلفة. ومع ذلك، كان الفرّيسيّون مُقتنعين بأنّ يسوع قد صنع هذه الأعمال بقوّة الشيطان (٣: ٢٢)، لذلك لم يعتبروها برهانًا إلهيًّا حقيقيًّا عن يسوع كنبيّ جدير بالثقة. لقد أرادوا علامة قاطعة يُمكنهم الحكم عليها، علامةً من شأنها تسوية النزاع مرّة وإلى الأبد. بعبارة أخرى، كان التحدّي الذي يواجهونه هو: «يا يسوع، أثبتْ لنا أنّك حقًّا من الله». وكما سنرى، استمرّ القادة الدينيّون في مطالبة يسوع بتقديم هذا الإثبات حتى آخر لحظاتِ حياتِه (١٥: ٣٢).

ردًّا على ذلك، **تَنَهَّدَ بِرُوحِهِ وَقَالَ: «لِمَاذَا يَطْلُبُ هَذَا ٱلْجِيلُ آيَةً؟**

اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لَنْ يُعْطَى هَذَا ٱلْجِيلُ آيَةً (الآية ١٢). من جديد، تفشل اللغة الإنجليزيّة في تقديم المعنى الكامل لكيفيّة تفاعل يسوع. تشير الكلمة اليونانيّة إلى أنّ ما فعله كان أكثر من مُجرّد تنهّد، بل كان أكثر من التنهّد الشديد. هي تُشير إلى أنّه وصل إلى الحدّ الأقصى من الغضب من الناحية البشريّة. لقد سئم وتعب من هذا النوع من الاستجابة.

قد نميل إلى الاعتقاد أنّه بما أنّ يسوع كان بلا خطيّة، فقد كان يجب عليه أنْ يتحلّى بمزيد من الصبر. ومع ذلك، كان صبره بالفعل طويلًا مع هؤلاء القادة الدينيّين. تذكّرْ أنّ الكتاب المقدّس غالبًا ما يتحدّث عن صبر الله وطول أناته، ولكنّه لا يذكر في أيّ مكان أنّ صبرَه بلا حدود. في الأيّام التي سبقت الطوفان، عندما كان شرّ الإنسان يتفاقم، قال الله: «لَا يَدِينُ رُوحِي فِي ٱلْإِنْسَانِ إِلَى ٱلْأَبَدِ» (تكوين ٦: ٣). يُعلّمنا الكتاب المقدّس بوضوح أنّه يوجد حدود لطول أناة الله. قد يتسامح معنا أسبوعًا بعد أسبوع، وشهرًا بعد شهر، وعامًا بعد عام، وعقدًا بعد عقد، حتّى نُصبحَ متساهلين فنظنّ أنّ الله: «سوف يتحمّلنا دائمًا». ولكننّا رأينا في تاريخ الفداء أنّ صبرَ الله قد استُنفد فأسلمَ الناس إلى خطاياهم.

لقد حدث هنا ما يُشبه ذلك. قال يسوع إنّه بسبب طلب الفرّيسيّين آية أخرى بعدم إيمان، لن يُعطَوْا أيّ آية على الإطلاق. **ثُمَّ تَرَكَهُمْ وَدَخَلَ أَيْضًا ٱلسَّفِينَةَ وَمَضَى إِلَى ٱلْعَبْرِ** (الآية ١٣).

يسوع يحذّر من خمير الفرّيسيّين

يقول مَرْقُس: وَنَسُوا أَنْ يَأْخُذُوا خُبْزًا، وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُمْ فِي ٱلسَّفِينَةِ إِلَّا رَغِيفٌ وَاحِدٌ (الآية ١٤). ربّما غادر يسوع منطقة دَلْمَانُوثَةَ بسرعة بسبب حزنه على قساوة قلوب الفرّيسيّين، ولم يكتشف التلاميذ النقص في طعامهم حتّى أصبح القارب في عمق البحيرة. من الواضح أنّهم بدأوا يشعرون بالقلق

عند مناقشتهم لهذه المعضلة، وقد انتهز يسوع الفرصة عندما فعلوا ذلك لتعليم تلاميذه. ما زال يفكّر في صراعه مع الفرّيسيّين في دَلْمَانُوثَةَ حين قال لهم: «ٱنْظُرُوا! وَتَحَرَّزُوا مِنْ خَمِيرِ ٱلْفَرِّيسِيِّينَ وَخَمِيرِ هِيرُودُسَ» (الآية ١٥).

لقد رأينا جميعًا لافتات تحذيريّة على البوّابات أو على الأبواب مكتوب عليها «احذر! يوجد كلب». ربّما قرأنا مسرحيّة ويليام شكسبير بعنوان يوليوس قيصر، حيث صرخ العرّاف في الشارع: «يا قيصر!... احذر منتصف شهر مارس». بالطبع، عندما تطلب منّا لافتة ما أو عرّاف بأنْ نحذرَ، فإنّ هذا يختلف عندما يقول الله المتجسّد: «تحرّزوا»، لأنّه من الأفضل لنا أنْ نُعيرَه انتباهنا. ما الذي حذّر منه يسوع بالضبط عندما حثّ تلاميذه أنْ يحترزوا من خمير الفريسيّين وخمير هيرودس؟

تُشير الخميرة، بالطبع، إلى الخميرة التي تُضاف إلى عجينة الخبز لجعلها تنتفخ وترتفع. لذلك، فإنّ هذا التشبيه يُشير إلى كمّيّة صغيرة من مادّة معيّنة، يمكن أنْ تُحدِثَ تغييرًا جذريًّا في أيّ شيء تُخلَط به. في كلّ مرّة تُذكَر الخميرة في العهد الجديد، يكون السياق سلبيًّا. يُنظر إلى الخميرة كمادّة مُفسِدة ومُدمِّرة في تأثيرها. الخميرة مُرتبطة بالكبرياء (١كورنثوس ٥: ٦)، والحقد والشرّ (١كورنثوس ٥: ٨)، والتعليم الكاذب عن الختان (غلاطية ٥: ٩). لذلك يقول يسوع: «احترزوا من العقيدة الكاذبة. احترزوا من الرياء. احترزوا من عدم الإيمان». (قد يكون «خمير هيرودس» له علاقة برغبة رئيس الرُبع التي تُشبه رغبة الفرّيسيّين في رؤية آية. انظر لوقا ٢٣: ٨).

اندهشَ التلاميذُ من هذا التحذير الغريب: **فَفَكَّرُوا قَائِلِينَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: لَيْسَ عِنْدَنَا خُبْزٌ** (الآية ١٦). بدا ذكرُ يسوع للخميرة بالنسبة إليهم مُرتبطًا بطريقة ما بمشكلة نقص الخبز، الأمر الذي كان مصدر قلقٍ مُباشر بالنسبة إليهم. بطريقة ما، فشلوا في ربط ما ذكره يسوع عن الفرّيسيّين

بالحادثة غير السارّة الأخيرة، والحوادث التي سبقتها.

عَلِمَ يسوع بارتباكهم وعدم فهمهم فقال لهم: «**لِمَاذَا تُفَكِّرُونَ أَنْ لَيْسَ عِنْدَكُمْ خُبْزٌ؟ أَلَا تَشْعُرُونَ بَعْدُ وَلَا تَفْهَمُونَ؟ أَحَتَّى ٱلْآنَ قُلُوبُكُمْ غَلِيظَةٌ؟ أَلَكُمْ أَعْيُنٌ وَلَا تُبْصِرُونَ، وَلَكُمْ آذَانٌ وَلَا تَسْمَعُونَ**» (الآيتان ١٧-١٨أ). كان المقصود بشكل واضح أنْ تكونَ الأجوبة على هذه الأسئلة البلاغيّة بالنفي، وقد كانت بمثابة تأنيبٍ شديد اللهجة للتلاميذ. كان يسوع يقول للذين يسمعون تعاليمه: «مَنْ لَهُ أُذُنَانِ لِلسَّمْعِ، فَلْيَسْمَعْ» (٤: ٩؛ انظر أيضًا ٤: ٢٣؛ ٧: ١٦). كان التلاميذ قد سمعوا بآذانهم تعاليمه، ومع ذلك لم يفهموا بقلوبهم أنّ يسوع هو ابن الله، وأنّه المسيح. كانت نظرتهم إليه بشكل أساسيّ نظرة خاطئة تشبه نظرة الفرّيسيّين إليه.

يسوع يُعطي الرجاء

ثُمّ وبّخهم أكثر قائلًا: «**وَلَا تَذْكُرُونَ؟ حِينَ كَسَّرْتُ ٱلْأَرْغِفَةَ ٱلْخَمْسَةَ لِلْخَمْسَةِ ٱلْآلَافِ، كَمْ قُفَّةً مَمْلُوَّةً كِسَرًا رَفَعْتُمْ؟ قَالُوا لَهُ: ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ. وَحِينَ ٱلسَّبْعَةِ لِلْأَرْبَعَةِ ٱلْآلَافِ، كَمْ سَلَّ كِسَرٍ مَمْلُوًّا رَفَعْتُمْ؟ قَالُوا: سَبْعَةً. فَقَالَ لَهُمْ: كَيْفَ لَا تَفْهَمُونَ؟**» (الآيات ١٨ب-٢١). لقد رأَوْا المعجزات العظيمة التي من خلالها أطعمَ يسوع آلاف الناس في مناسبتَيْن، لكنّهم شعروا بالقلق لأنّهم نسَوْا إحضار الخبز. كيف لم يفهموا بعد أنْ رأوا ما رأوه، أنّ سيّدهم قادر على سدّ احتياجاتهم بشكل كامل؟

كان هذا توبيخًا يقودهم إلى الاتّضاع، ولكنّه لا يخلو أيضًا من الأمل. لاحِظْ الكلمتَيْن الصغيرتَيْن في الآية ١٧: «بعد» و«حتّى الآن». لم يفقد يسوع الأمل بهم، بل كان يتوقّع أنّهم في الوقت المناسب، وبنعمةِ الله، سوف يفهمون، وأنّ قلوبَهم سوف تُصبح ليّنة أكثر.

نحن بطبيعتنا صُمّ وعميان فيما يختصّ أمور الله. قلوبنا عنيدة وخالية من النبض نحوه، لدرجة أنّ كلمة الله ترتدّ من قلوبنا كما لو أنّها كانت مصنوعة من الصخر. نحن لا نتأثّر بالحقّ الإلهيّ إلى أنْ يفتحَ الروح القدس أعينَنا وآذاننا. وهكذا كان حال التلاميذ، كانوا مخلوقات ساقطة مثلي ومثلك تمامًا، لكنّ يسوع رأى أنّ بإمكانِ قلوبِهم أنْ تتغيّر.

كيف هو سمَعُك؟ كيف هو إدراكك للأمور المُختصّة بالله؟ كيف هو قلبك؟ هل يرتدّ الحقّ الإلهيّ حين يصل إلى قلبك؟ أم أنّ قلبك رقيق فيتغلغل الحقّ الإلهيّ ويغرق فيه؟ علينا جميعًا أن نختبر أنفسنا في ضوء كلمة الله للتأكّد من أنّ خمير الفرّيسيّين المميتة لا تعمل فينا فتعمينا عن النور، وتجعلنا لا نسمع كلمة الله التي تُحيي.

٢٦

أعين تُفتح

مَرْقُس ٨: ٢٢-٣٠

وَجَاءَ إِلَى بَيْتِ صَيْدَا، فَقَدَّمُوا إِلَيْهِ أَعْمَى وَطَلَبُوا إِلَيْهِ أَنْ يَلْمِسَهُ، فَأَخَذَ بِيَدِ ٱلْأَعْمَى وَأَخْرَجَهُ إِلَى خَارِجِ ٱلْقَرْيَةِ، وَتَفَلَ فِي عَيْنَيْهِ، وَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَيْهِ وَسَأَلَهُ: هَلْ أَبْصَرَ شَيْئًا؟ فَتَطَلَّعَ وَقَالَ: أُبْصِرُ ٱلنَّاسَ كَأَشْجَارٍ يَمْشُونَ. ثُمَّ وَضَعَ يَدَيْهِ أَيْضًا عَلَى عَيْنَيْهِ، وَجَعَلَهُ يَتَطَلَّعُ. فَعَادَ صَحِيحًا وَأَبْصَرَ كُلَّ إِنْسَانٍ جَلِيًّا. فَأَرْسَلَهُ إِلَى بَيْتِهِ قَائِلًا: لَا تَدْخُلِ ٱلْقَرْيَةَ، وَلَا تَقُلْ لِأَحَدٍ فِي ٱلْقَرْيَةِ. ثُمَّ خَرَجَ يَسُوعُ وَتَلَامِيذُهُ إِلَى قُرَى قَيْصَرِيَّةِ فِيلُبُّسَ. وَفِي ٱلطَّرِيقِ سَأَلَ تَلَامِيذَهُ قَائِلًا لَهُمْ: مَنْ يَقُولُ ٱلنَّاسُ إِنِّي أَنَا؟ فَأَجَابُوا: يُوحَنَّا ٱلْمَعْمَدَانُ. وَآخَرُونَ: إِيلِيَّا. وَآخَرُونَ: وَاحِدٌ مِنَ ٱلْأَنْبِيَاءِ. فَقَالَ لَهُمْ: وَأَنْتُمْ، مَنْ تَقُولُونَ إِنِّي أَنَا؟ فَأَجَابَ بُطْرُسُ وَقَالَ لَهُ: أَنْتَ ٱلْمَسِيحُ. فَٱنْتَهَرَهُمْ كَيْ لَا يَقُولُوا لِأَحَدٍ عَنْهُ.

بعد مواجهةٍ أخرى مع الفرّيسيّين في دَلْمَانُوثَةَ (٨: ١٠) على الجانب الشرقيّ لبحيرة الجليل، أبحر يسوع رافضًا صنع أيّ مُعجزة هناك أو حتّى البقاء بينهم بسبب عدم إيمان الفرّيسيّين (الآيتان ١٢–١٣). يُخبرنا مَرْقُس

أنّه جَاءَ إِلَى بَيْتِ صَيْدَا (الآية ٢٢أ)، وهي بلدة أخرى مشهورة بصيد الأسماك تقع على الجانب الشماليّ من البحيرة.

لكن يجب ملاحظة أنّه لم يكن ظنّ يسوع ببيت صيدا جيّدًا، فقد قال: وَيْلٌ لَكِ يَا كُورَزِينُ! وَيْلٌ لَكِ يَا بَيْتَ صَيْدَا! لِأَنَّهُ لَوْ صُنِعَتْ فِي صُورَ وَصَيْدَاءَ ٱلْقُوَّاتُ ٱلْمَصْنُوعَةُ فِيكُمَا، لَتَابَتَا قَدِيمًا جَالِسَتَيْنِ فِي ٱلْمُسُوحِ وَٱلرَّمَادِ. وَلَكِنَّ صُورَ وَصَيْدَاءَ يَكُونُ لَهُمَا فِي ٱلدِّينِ حَالَةٌ أَكْثَرُ ٱحْتِمَالًا مِمَّا لَكُمَا (لوقا ١٠: ١٣-١٤). لاحظ أمريْن في لائحة الاتّهام الرهيبة هذه. أوّلًا، إنّها لائحة اتّهام أخرى بقساوة القلب وعدم الإيمان. رأى أهل بيت صيدا مُعجزات عظيمة سنتأمّل في إحداها في هذا الإصحاح، لكنّهم لم يتوبوا ولم يؤمنوا. يبدو أنّ خميرَ الفرّيسيّين قد تغلغل تمامًا في قلوبهم.

ثانيًا، تعكس تعليقات يسوع مرّة أخرى فكرة درجات المكافأة والعقاب في الدينونة. كما رأينا، عبّر يسوع عن هذه الفكرة حين قال: «سَتَكُونُ لِأَرْضِ سَدُومَ وَعَمُورَةَ يَوْمَ ٱلدِّينِ حَالَةٌ أَكْثَرُ ٱحْتِمَالًا مِمَّا لِتِلْكَ ٱلْمَدِينَةِ [المدينة التي ترفض التعليم الرسوليّ]» (٦: ١١ب). عندما ذكرَ بيت صيدا، قارنها بالمدينتَيْن الأمميّتَيْن صور وصيدا، اللتيْن كانتا، كما رأينا في الفصل ٢٣ من هذا الكتاب، منطقتَيْن وثنيّتَيْن بحسب آراء معلّمي اليهود. رأينا في الفصل ٢٣ أنّ يسوع اعتبر أنّ رسالته هي لليهود وليس للأمم، لذلك على الرغم من زيارته لصور وصيدا، وطَرْد روح شرّيرة من فتاة صغيرة هناك، إلّا أنّه لم يصنع معجزات عظيمة هناك بين العامّة. ومع ذلك، من الناحية الافتراضيّة، أعلن أنّه لو كان قد صنع في صور وصيدا المعجزات نفسها التي صنعها في بيت صيدا، لكانت تلك المدن الأمميّة قد عبّرت عن توبة شديدة. لكن بيت صيدا، التي شهدت مُعجزاته فعلًا، لم تؤمن به. لهذا السبب قال إنّ الدينونة الأخيرة على الأمم في صور وصيدا ستكون أخفّ من الدينونة التي ستحلّ على يهود بيت صيدا.

رؤية باهتة

يُخبرنا مَرْقُس أنّه عندما وصل يسوع إلى بيت صيدا، **قَدَّمُوا إِلَيْهِ أَعْمَى وَطَلَبُوا إِلَيْهِ أَنْ يَلْمِسَهُ** (الآية ٢٢ب). حتّى الآن في إنجيل مَرْقُس، رأينا يسوع يشفي رجلًا أصمّ وأخرس ونازفة الدم ورجل يده يابسة ومشلول أبرص، والعديد من المُصابين بأمراض وأسقام غير مُحدّدة. رأيناه يطرد الشياطين من الناس، ورأيناه يُعيد فتاة ميّتة إلى الحياة. ولكن هذه هي الحالة الأولى المحدّدة التي يتمّ فيها إحضار شخص أعمى إليه لمساعدته.

يبدو واضحًا أنّ الطلبَ من يسوع أن يلمسَ هذا الرجل، كان طلبًا للحصول على لمسة شفاء. ولكن في البداية عندما لمسه يسوع، لم تكن تلك لمسة للشفاء: **فَأَخَذَ بِيَدِ ٱلْأَعْمَى وَأَخْرَجَهُ إِلَى خَارِجِ ٱلْقَرْيَةِ** (الآية ٢٣أ). أمسك يسوع الأعمى بيده وأخذه إلى مكان خاصّ. كان هذا عملًا غير اعتياديّ. في كلّ مرّة تقريبًا يشفي فيها يسوع أحدهم، كان يفعل ذلك بشكل واضح وعلنيّ، وليس بعيدًا عن شهود كثيرين. الاستثناء الوحيد هو شفاؤه الأخير هذا، أي الرجل الذي كان أصمّ وأخرس، والذي أبعده يسوع عن الجموع (٧: ٣٣)، مع أنّه لم يأخذه على حسب ما يبدو أبعد ممّا أخذَ الأعمى.

يكتب مَرْقُس: **وَتَفَلَ فِي عَيْنَيْهِ، وَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَيْهِ وَسَأَلَهُ: هَلْ أَبْصَرَ شَيْئًا؟ فَتَطَلَّعَ وَقَالَ: أُبْصِرُ ٱلنَّاسَ كَأَشْجَارٍ يَمْشُونَ** (الآيتان ٢٣ب–٢٤). صنع يسوع أمرَيْن مع هذا الرجل. أوّلًا، استخدم اللعاب، تمامًا كما فعل في شفائه للرجل الأصمّ والأبكم، عندما تفل على يدَيْه ووضع لعابه على لسان الرجل (٧: ٣٣). هنا، تفل يسوع بشكل مباشر في عينيّ الأعمى. مرّة أخرى، لم يكن يسوع بحاجة أنْ يفعلَ هذا؛ لا يوجد شيء سحريّ في اللعاب ليشفي الرجلَ، لكنّه ربّما بذلك زاد من ثقة الأعمى به بسبب بعض الفرضيّات الحضاريّة المُسبقة حول استخدام البصاق كوسيلة من قِبَل الذين يتمتّعون بالقوّة على الشفاء.

ثانيًا، وضع يسوع يدَيْه على الرجل. في الكتاب المقدّس، وبشكل خاصّ في العهد القديم، هنالك أهمّية معيّنة على طقوس وضع اليدَيْن. تُستَخدم هذه الممارسة في الكنيسة البروتستانتيّة حتّى هذا اليوم، عندما يُرسم الرجال للخدمة، أو عند تنصيب الشيوخ أو الشمامسة في الكنيسة. في العهد الجديد، نرى وضع الأيدي يُصاحب الشفاء (أعمال الرسل ٢٨: ٨) ونقل المواهب الروحيّة (١تيموثاوس ٤: ١٤). كان لخدمة وضع الأيدي في العهد القديم أهدافًا مُتعدّدة. كان شيوخ إسرائيل يضعون أيديهم على الذبائح التي كانت ستُقدّم إلى الله (لاويين ٤: ١٥). هذه الطقوس تدلّ على التكريس، أي فرز شيء ما للاستخدام المقدّس. وضَع الشعب أيديهم على اللاويين (سفر العدد ٨: ١٠)، وهذا دليل آخر على التكريس والفرز. قام شخص بوضع يده على شخص آخر ليباركه (تكوين ٤٨: ١٤–١٥). يمكننا أنْ نذكرَ استخداماتٍ أخرى لهذا الطقس، ولكنّنا لا نرى في أيّ مكان في العهد القديم أنّه يوجد رابط بين وضع الأيدي والشفاء.

أمّا يسوع، فقد مارس اللمسَ في خدمته منذ اللحظة التي فعل فيها ما لا يمكن تخيّله ومدّ يده ولمس الأبرص (١: ٤١). كانت النتيجة أنّ الناس بدأوا يحاولون لمسه (٣: ١٠)، بما في ذلك المرأة نازفة الدم (٥: ٢٨). أخبر مَرْقُس أنّ كثيرين من الذين لمسوه نالوا الشفاء (٦: ٥٦). وبالتالي، لا نستغرب انتشار هذا الخبر، وأنّ أولئك الذين أتَوْا بهذا الرجل إلى يسوع طلبوا على وجه التحديد أنْ يلمسَه، الأمر الذي فعله يسوع بكلّ حنان.

عندما مسح يسوع عينَيْ الرجل ووضع يدَيْه عليه، سأله إنْ أصبحَ قادرًا أن يرى أيّ شيء. في معظم الحالات التي كان يسوع يشفي فيها شخصًا ما، كان يوصيه قائلًا: افعل هذا أو ذاك. هذه هي الحالة الوحيدة في الأناجيل التي سأل فيها يسوع عن حالة الشخص بعد أنْ لمسَه لمسة شفاء.

أجابه الرجل بفضول شديد: «أُبْصِرُ ٱلنَّاسَ كَأَشْجَارٍ يَمْشُونَ». يُمكننا

استنتاج أمرَيْن من إجابته هذه. أوّلًا، نستنتج أنّ هذا الرجل لم يولد أعمى؛ فلو كان أعمى منذ ولادته، ولم يرَ شيئًا من هذا العالم، لما كان قادرًا على التمييز بين البشر والأشجار. من الواضح أنّه كان يرى في فترة ما من حياته ثمّ فقد بصره بعد ذلك. ثانيًا، لم تكن رؤية هذا الرجل قويّة. رأى الناس كما لو أنّهم أشجار. إذن، كان شفاء يسوع غير مُكتمل.

رؤية واضحة

ثمّ يُخبرنا مَرْقُس: **ثُمَّ وَضَعَ يَدَيْهِ أَيْضًا عَلَى عَيْنَيْهِ، وَجَعَلَهُ يَتَطَلَّعُ. فَعَادَ صَحِيحًا وَأَبْصَرَ كُلَّ إِنْسَانٍ جَلِيًّا** (الآية ٢٥). قوّة هذه الجملة في أنّ يسوع شفى هذا الرجل لدرجة أنّه عندما تطلّع، أصبح بإمكانه أنْ يرى بوضوح من مسافة بعيدة. كانت رؤيته واضحة تمامًا لا تشوبها شائبة. كان شفاؤه كاملًا. ثمّ كعادته، أرسله يسوع قائلًا له: «**لَا تَدْخُلِ ٱلْقَرْيَةَ، وَلَا تَقُلْ لِأَحَدٍ فِي ٱلْقَرْيَةِ**» (الآية ٢٦).

هذه هي المرّة الوحيدة في العهد الجديد التي صنع فيها يسوع معجزة شفاء ولم يُشفَ الشخص حالًا. كان شفاء هذا الأعمى تدريجيًّا بدلًا من أنْ يكونَ آنيًّا. من الواضح أنّ حقيقةَ أنّ شفاءَه لم يكن آنيًّا لم يكن بسبب أيّ نقص في قوّة يسوع. لماذا إذن تمّت هذه المعجزة على مرحلتَيْن؟

بصراحة، ليس لديّ إجابة على هذا السؤال. ولكن، يمكنني أنْ أعطي تخمينًا، بناءً على أهدافِ مَرْقُس الظاهرة في إنجيله، والمواضيع الموجودة في السياق المباشر لهذه الرواية. أعتقد أنّ يسوع تعمّد شفاء هذا الرجل على مراحل ليعلّم تلاميذَه. في القارب، قبل هذه الحادثة مباشرة، سأل يسوع التلاميذ سلسلة من الأسئلة البلاغيّة: «**أَلَا تَشْعُرُونَ بَعْدُ وَلَا تَفْهَمُونَ؟ أَحَتَّى ٱلْآنَ قُلُوبُكُمْ غَلِيظَةٌ؟ أَلَكُمْ أَعْيُنٌ وَلَا تُبْصِرُونَ، وَلَكُمْ آذَانٌ وَلَا تَسْمَعُونَ، وَلَا تَذْكُرُونَ**» (الآيتان ١٧ب–١٨أ). يبدو كما لو أنّ يسوع أراد أن يقول من

خلال هذا الشفاء على مرحلتيْن أنّ التلاميذ قد بدأوا يرون بشكل باهت. لم يكونوا في ظلام قاتم كالوثنيّين. كانت أعينهم قد رأت الكثير من الأشياء الرائعة التي فعلها المسيح. كان لديهم بعض الإدراك، لكنّهم لم يرَوْا بعد بوضوح. ولو طُلب منهم وصف يسوع، ربّما قالوا: «أرى بلّوطة عظيمة تتجوّل، لكنّني لا أفهم حقًّا المقياس الكامل لمن هو».

كما سنرى في الآيات التالية، يبدو أنّ هذه المعجزة كانت تجربة لم تفتح عينَيّ الأعمى فحسب، بل التلاميذ أيضًا. بعد كلّ الأعمال العظيمة التي رأوه يقوم بها، بعد سماعهم توبيخه لهم على قساوة قلوبهم المستمرّة وعماهم الروحيّ، وبعد أنْ رأوه يفتح عينَيّ رجل أعمى، يبدو أخيرًا أنّهم بدأوا يفهمون ما يجري.

اعتراف مجيد

من بيت صيدا، **خَرَجَ يَسُوعُ وَتَلَامِيذُهُ إِلَى قُرَى قَيْصَرِيَّةِ فِيلُبُّسَ** (الآية ٢٧). اتّجهوا من بيت صيدا، عند الطرف الشمالي لبحيرة الجليل، شمالًا حوالي خمسة وعشرين ميلًا إلى قيصريّة فيلبّس. كان هيرودس الكبير قد بنى معبدًا لأوغسطس قيصر عند سفح جبل حرمون، وكان ابنه فيلبّس الذي كان رئيس ربع على إيطوريّة (لوقا ٣: ١)، قد بنى المدينة التي أُضيف إليها اسم «فيلبّس» تكريمًا لأوغسطس، لتمييزها عن مدينة قيصريّة المعروفة على ساحل البحر الأبيض المتوسّط.

خلال سفرهم، **سَأَلَ تَلَامِيذَهُ قَائِلًا لَهُمْ: مَنْ يَقُولُ ٱلنَّاسُ إِنِّي أَنَا؟ فَأَجَابُوا: يُوحَنَّا ٱلْمَعْمَدَانُ. وَآخَرُونَ: إِيلِيَّا. وَآخَرُونَ: وَاحِدٌ مِنَ ٱلْأَنْبِيَاءِ** (الآيتان ٢٧ب–٢٨). سأل يسوع تلاميذه مغيّرًا نمط معظم المدارس اليهوديّة، بحيث كان التلميذ يسأل المعلّم. قال لهم: مَن يقول الناس إنّي أنا؟ مَن يعتقدون أنّي أنا؟» أجابه التلاميذ مُقدّمين له نظريّات مُختلفة: يوحنّا المعمدان أو إيليّا

أو أحد أنبياء إسرائيل القديمة. من المُثير للاهتمام، أنّ هيرودس أنتيباس كان مُقتنعًا بالنظريّة القائلة إنّ يسوع كان يوحنّا المعمدان وقد قام من القبر (٦: ١٤). يبدو أنّ آخرين أيضًا كانوا موافقين مع نظريّة هيرودس.

ثمّ طرحَ يسوع السؤال الذي من الواضح أنّه كان له أهميّة أكبر بكثير بالنسبة إليه: «**وَأَنْتُمْ، مَنْ تَقُولُونَ إِنِّي أَنَا؟**» (الآية ٢٩أ). ربّما كان قد طرح سؤاله بهذه الطريقة: «هل ترَوْن الحقيقة الآن؟ هل تُدركون مَن أنا؟ هل أدركتم هُوّيتي أخيرًا؟ أمّ ما زلتُ بالنسبة إليكم شجرة باهتة؟» باختصار، يُسلّط هذا السؤال الضوءَ على جميع الأحداث والمناقشات السابقة. هل أدركَ التلاميذ أخيرًا ما أراد أنْ يُثبتَ من خلال معجزاته، وما الذي أثبتته تعاليمه، وما الذي يريدهم أنْ يُدركوه–أنّه ابن الله، المسيح الذي طال انتظاره؟

الجملة التالية مجيدة: **فَأَجَابَ بُطْرُسُ وَقَالَ لَهُ: أَنْتَ ٱلْمَسِيحُ** (الآية ٢٩ب). وكما ينقل متّى في روايته الأكثر تفصيلًا إلى حدّ ما، قال بطرس: أَنْتَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللهِ ٱلْحَيِّ (١٦: ١٦). كما لو أنّ بطرس يقول: «أنت المسيح الموعود من الله، الذي تُنُبّئ عنك منذ البداية، من الإصحاح الثالث من سفر التكوين، وعبر كلّ العهد القديم، أنت الابن الموعود لخلاص شعب الله من خطاياهم». ما أروع أن نسمعَ بطرس يُدلي بهذا الإعلان بعد أن تحمّل التلاميذ تأنيب يسوع على قساوة قلوبهم. أخيرًا، أصبحت رؤيتهم واضحة.

لا يذكر مَرْقُس أنّ يسوع أعربَ عن سعادة عند سماعه إجابة بطرس بهذه الطريقة. ولكن متّى يُخبرنا أنّه قال: «طُوبَى لَكَ يا سِمْعَانُ بْنَ يُونَا، إِنَّ لَحْمًا وَدَمًا لَمْ يُعْلِنْ لَكَ، لَكِنَّ أَبِي ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَاوَاتِ (١٦: ١٧). بأمر من الآب، عَمِلَ الروح القدس على تليين قلبَ بطرس، وفتح عينَيْه وأذنَيْه الروحيّة، وجعله يؤمن بيسوع.

لاحِظْ أنّ متّى يُضيف أيضًا كلمات يسوع هذه: «وَأَنَا أَقُولُ لَكَ أَيْضًا:

أَنْتَ بُطْرُسُ، وَعَلَى هَذِهِ ٱلصَّخْرَةِ أَبْنِي كَنِيسَتِي، وَأَبْوَابُ ٱلْجَحِيمِ لَنْ تَقْوَى عَلَيْهَا (١٦: ١٨). تقف الكنيسة صامدة وقويّة لا يُمكن هزمها طالما لا تزال مُلتزمة باعترافها بأنّ يسوع هو المسيح. هذا الاعتراف هو أساس الكنيسة. إنّ فقدان الثقة بهُويّة يسوع لا يعطّل الكنيسة من الخارج فحسب؛ بل يعطّل أساسات الكنيسة. يجب علينا نحن الذين نعترف باسم المسيح أن نثبت في قناعتنا بأنّه الله في الجسد.

يُخبرنا مَرْقُس: **فَٱنْتَهَرَهُمْ كَيْ لَا يَقُولُوا لِأَحَدٍ عَنْهُ** (الآية ٣٠). لم يحن الوقت بعد لينشرَ التلاميذ هُوّيته. لم يكن يسوع يرغب في رؤية حركة شعبيّة تنمو حوله كردّ فعل للاحتلال الرومانيّ. كان أمامه عمل يقوم به، حتّى أنّ التلاميذ أنفسهم لم يفهموا ذلك تمامًا كما سنرى في الإصحاح التالي.

السؤال الذي طرحه يسوع على تلاميذه هو السؤال النهائيّ بالنسبة إلينا: «مَن تقولون إنّي أنا؟» هل تؤمن أنّ يسوع هو المسيح؟ عندما نقف وننضمّ إلى الكنيسة بشكل علنيّ، فإنّنا نعلن لأصدقائنا وجيراننا وكلّ العالم الذي يتابعنا: «أنا أؤمن أنّ يسوع هو المسيح. أؤمن أنّه المسيح. أنا أؤمن أنّه ابن الله الحيّ». إنْ كنتَ تؤمن بذلك، فإنّ الطوبى نفسها التي أعلنها يسوع لبطرس هي لك أيضًا. قال يسوع: «طوبى لك» لأنّ هذا أمرًا لم تتعلّمه في روضة الأطفال، أو مِنَ الجريدة، أو من نشرات الأخبار المتلفزة. اللحم والدمّ لا يكشفان عن هذا النوع من المعلومات. إنْ كنتَ تؤمن بقلبك أنّه المسيح، فطوبى لك أكثر من كلّ الناس، لأنّ الله سمح لك أنْ ترى هذه الحقيقة. إنْ شعرت باليأس يومًا ما، وإنْ شعرت بالغَيْرة من مكانة شخص ما أو من ممتلكاته، وإنْ صرخت يومًا إلى الله وسط ضيقك: «لماذا أنا؟» فاسمع هذه الكلمات: «طوبى لك». لقد جعلك الله تتعرّف إلى لؤلؤة باهظة الثمن، وإنْ لم يمنحك الله نعمة أخرى غيرها ما دمت حيًّا على هذه الأرض، فلن يكون لديك سبب لفعل أيّ شيء آخر سوى أنْ تُعلن مجده ورحمته للعالم أجمع، لأنّ أعظم نعمة يُمكن للإنسان أن يحصل عليها هي نعمة معرفة الله.

٢٧

معنى المسيح

مَرقُس ٨: ٣١-٩: ١

وَٱبْتَدَأَ يُعَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱبْنَ ٱلْإِنْسَانِ يَنْبَغِي أَنْ يَتَأَلَّمَ كَثِيرًا، وَيُرْفَضَ مِنَ ٱلشُّيُوخِ وَرُؤَسَاءِ ٱلْكَهَنَةِ وَٱلْكَتَبَةِ، وَيُقْتَلَ، وَبَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ يَقُومُ. وَقَالَ ٱلْقَوْلَ عَلَانِيَةً. فَأَخَذَهُ بُطْرُسُ إِلَيْهِ وَٱبْتَدَأَ يَنْتَهِرُهُ. فَٱلْتَفَتَ وَأَبْصَرَ تَلَامِيذَهُ، فَٱنْتَهَرَ بُطْرُسَ قَائِلًا: ٱذْهَبْ عَنِّي يَا شَيْطَانُ! لِأَنَّكَ لَا تَهْتَمُّ بِمَا لِلهِ لَكِنْ بِمَا لِلنَّاسِ. وَدَعَا ٱلْجَمْعَ مَعَ تَلَامِيذِهِ وَقَالَ لَهُمْ: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ وَرَائِي فَلْيُنْكِرْ نَفْسَهُ وَيَحْمِلْ صَلِيبَهُ وَيَتْبَعْنِي. فَإِنَّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَلِّصَ نَفْسَهُ يُهْلِكُهَا، وَمَنْ يُهْلِكُ نَفْسَهُ مِنْ أَجْلِي وَمِنْ أَجْلِ ٱلْإِنْجِيلِ فَهُوَ يُخَلِّصُهَا. لِأَنَّهُ مَاذَا يَنْتَفِعُ ٱلْإِنْسَانُ لَوْ رَبِحَ ٱلْعَالَمَ كُلَّهُ وَخَسِرَ نَفْسَهُ؟ أَوْ مَاذَا يُعْطِي ٱلْإِنْسَانُ فِدَاءً عَنْ نَفْسِهِ؟ لِأَنَّ مَنِ ٱسْتَحَى بِي وَبِكَلَامِي فِي هَذَا ٱلْجِيلِ ٱلْفَاسِقِ ٱلْخَاطِئِ، فَإِنَّ ٱبْنَ ٱلْإِنْسَانِ يَسْتَحِي بِهِ مَتَى جَاءَ بِمَجْدِ أَبِيهِ مَعَ ٱلْمَلَائِكَةِ ٱلْقِدِّيسِينَ. وَقَالَ لَهُمُ: ٱلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مِنَ ٱلْقِيَامِ هَهُنَا قَوْمًا لَا يَذُوقُونَ ٱلْمَوْتَ حَتَّى يَرَوْا مَلَكُوتَ ٱللهِ قَدْ أَتَى بِقُوَّةٍ.

مع اعتراف بطرس العظيم في قيصريّة فيلبس –»أنتَ هو المسيح»– أدركَ التلاميذ أخيرًا أنّ يسوع هو المسيح الذي طال انتظاره والموعود به. ولكن إدراكَهم هذا كان لا يزال ناقصًا بطريقة أساسيّة واحدة على الأقلّ. لقد أدركوا أنّه هو المسيح، لكنّهم لم يتمتّعوا بفهم دقيق لِما تعنيه كلمة مسيح، وما ستترتّب عليه دعوة يسوع المسيانيّة. وهكذا، لا نستغرب أنْ يختار يسوع هذه اللحظة ليقدّم موضوعًا جديدًا لتدريب التلاميذ.

يكتب مَرقُس: **وَٱبْتَدَأَ يُعَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱبْنَ ٱلْإِنْسَانِ يَنْبَغِي أَنْ يَتَأَلَّمَ كَثِيرًا، وَيُرْفَضَ مِنَ ٱلشُّيُوخِ وَرُؤَسَاءِ ٱلْكَهَنَةِ وَٱلْكَتَبَةِ، وَيُقْتَلَ، وَبَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ يَقُومُ. وَقَالَ ٱلْقَوْلَ عَلَانِيَةً** (الآيتان ٣١–٣٢أ). ببساطة، بدأ يسوع يشرح للتلاميذ ما يعني أن يكون المسيح بالنسبة إليه. أعلنَ لهم نقاطًا عديدة. أوّلًا، أنّه سيتألّم من أمور كثيرة. ثانيًا، سترفضه السلطات الدينيّة اليهوديّة. ثالثًا، سوف يُقتل. ولكن رابعًا، سوف يقوم من بين الأموات. بهذه التصريحات البسيطة، رسم يسوع المسار المستقبليّ لخدمته. إضافة إلى ذلك، قال هذه الأشياء «علانية» أو بصراحة، وليس بصيغة الأمثال حتّى يفهمها التلاميذ بوضوح.

لاحِظْ أيضًا أنّ مَرقُس يقول إنّ يسوع أخبرَ التلاميذ أنّ هذه الأشياء «ينبغي» أنْ تحدثَ. أخبرهم أنّه ينبغي أنْ يتألّمَ، وأنْ يُرفض، وأنْ يموت. لم ينظر إلى هذه الأحداث كمجرّد احتمالات قد تحدث له في المستقبل، ولكن كأمور مؤكّدة يجب ببساطة أنْ تحدث إنْ أراد أن يُتمّم دعوتَه. لماذا استخدمَ يسوع لغة الضرورة هذه؟ لقد استخدم هذه العبارات لأنّ الآب قرّر منذ تأسيس العالم أنّ الابن سوف يتألّم ويُرفض ويُقتل أخيرًا ليفدي شعبه من غضب الله المقدّس على خطاياهم. كان الموت هو عقوبة الخطية أمام الله القدير، وإنْ أراد يسوع أنْ يُخلّصَ شعبَه، فسيتحتّم عليه أنْ يدفعَ ثمن خطاياهم بالكامل.

من المثير للاهتمام أنّ معلّمي الشريعة في إسرائيل لم يفهموا أنّ مفهوم المسيح كان مركزيًّا في رسالة العهد القديم. لقد كانوا مُجتهدين في فحص كلّ أبعاد وجوانب المسيح الذي سيأتي بكلّ تفاصيلها الدقيقة، وكانت هذه الأبعاد كثيرة؛ إنْ نظرنا إلى كلّ نبوءات العهد القديم عن المسيح الموعود به، سنجد نسيجًا مصنوعًا من خيوط كثيرة. بعبارة أخرى، إنّ صورةَ المسيح في العهد القديم ليست أحاديّة، إنّما يوجد فيها أفكار معقّدة كثيرة اجتمعت معًا في هذه الشخصيّة الموعودة. سيكون مَلِكًا وراعيًا وفاديًا. ولكن يبدو أنّ معلّمي الشريعة كانوا غافلين عن عنصر واحد، ألا وهو أنّ المسيح سيتألّم.

أشارَ كُتّاب العهد الجديد لكلّ من عاصرهم إلى كلّ نبوءات العهد القديم عن المسيح، أثناء كتابتهم في السنوات التي أعقبت خدمة يسوع على الأرض، بعد أنْ كان الصليب والقيامة حقيقتَيْن كاملتَيْن. لفتوا الانتباه إلى إشعياء، وبشكل خاصّ إلى إشعياء ٥٢–٥٣، ممّا يدل على أنّ **Ebed Yahweh**، أي عبدَ الربّ، سيحمل خطايا الشعب، وسوف يكون مُحتقرًا ومرفوضًا من الناس، وسيكون مضروبًا من الله نفسه ومذلولًا ومقتولًا. لقد ركّزوا في المزمور ٢٢، الذي يُقرأ كرواية شاهد عيان عن الصلب. لكن في القرون التي سبقت مجيء يسوع، فات معلّمي الشريعة تمامًا ما كانت تعنيه هذه النصوص. لم يتخيّلوا أنّه بالإمكان تطبيق إشعياء ٥٢–٥٣ ومزمور ٢٢ أو النبوءات الأخرى على المسيح. ظنّوا أنّ هذه النصوص تنطبق على أمّة إسرائيل بينما كانت تختبر المعاناة والألم.

لذلك، أُصيب التلاميذ بالصدمة عندما بدأ يسوع في استخدام نبوءات العهد القديم هذه، لتعليمهم ما يعني أنْ يكون المسيح. لم يسمعوا مثل هذه الأفكار من قبل. إضافة إلى ذلك، أدركوا أنّه إنْ كان على المسيح أنْ يتألّم ويُرفض ويموت، فقد يعني هذا أنّ تلاميذ المسيح سوف يتألّمون أيضًا ويُرفضون ويموتون. لقد اعتبروا أنّ كلمات يسوع هذه ليست فقط حُكمًا بالموت

عليه، بل حُكمًا بالموت عليهم أيضًا، وكان هذا آخر ما يودّون سماعه.

الاهتمام بما لله

لذلك **أَخَذَهُ بُطْرُسُ إِلَيْهِ وَٱبْتَدَأَ يَنْتَهِرُهُ** (الآية ٣٢ب). لا بأس إن اختلفَ التلميذ مع معلّمه، فقد يرفع الطالب يدَه ويقول: «لست متأكّدًا أنّك أقنعتني بذلك أيّها الأستاذ». ولكنّ الأمر يختلف تمامًا عندما ينتهر الطالب مُعلّمه على ما يعلّمه. وهذا بالضبط ما فعلَه بطرس. تذكّرْ أيضًا أنّ هذا المعلّم لم يكن معلّمًا عاديًّا، بل هو كلمة الله المتجسّد، الذي هو تجسيد لكلّ الحقّ، والذي لا يتكلّم إلّا بسلطان إلهيّ. ومع هذا، تجرّأ بطرس على مواجهته وانتهاره على الأشياء التي كان يُعلّمها.

الأمر الذي زاد الطين بِلّة، هو أنّ الكلمة التي تُرجمت إلى «يَنْتَهِرُهُ» تُستخدم في الكتاب المقدّس لشجب وإدانة شياطين الجحيم. عندما أسكتَ يسوع الأرواح الشرّيرة، فعل ذلك بانتهارهم وإعلان الدينونة عليهم (انظر متّى ١٧: ١٨؛ مَرقُس ١: ٢٥؛ ٩: ٢٥؛ لوقا ٤: ٣٥؛ ٩: ٤٢). يبدو واضحًا أنّ اعتراضَ بطرس لم يكن اعتراضًا معتدلًا بأيّ حال من الأحوال؛ بل وقف في وجه يسوع مُظهرًا عداءً كاملًا في انتهاره. إنّه بطرس نفسه الذي قال منذ فترة وجيزة: «أنت هو المسيح»، والذي سَمعَ يسوع يقول له: «طوبى لك يا سمعان بن يونا»، إنّه هو نفسه الذي أرادَ تقويم مُعلّمه وتوبيخه.

ما هي طبيعة انتهار بطرس؟ يُخبرنا متّى ما قاله بطرس: «حَاشَاكَ يَا رَبُّ! لَا يَكُونُ لَكَ هَذَا» (١٦: ٢٢ب). كان بطرس يقول إنّه بالتأكيد لن يحدثَ كلّ ما قاله يسوع للتوّ بأنّه سوف يحلّ به. لماذا؟ لأنّ بطرس كان مُستعدًّا لمنع هذه الأمور من الحدوث–أو على الأقل، هكذا كان يظنّ أنّه سيفعل.

كيف كان ردّ فعل يسوع لهذا التوبيخ؟ يخبرنا مَرقُس: **فَٱلْتَفَتَ وَأَبْصَرَ تَلَامِيذَهُ، فَٱنْتَهَرَ بُطْرُسَ قَائِلًا: ٱذْهَبْ عَنِّي يَا شَيْطَانُ! لِأَنَّكَ لَا تَهْتَمُّ بِمَا لِلهِ لَكِنْ بِمَا لِلنَّاسِ** (الآية ٣٣). مرّة أخرى، نجدُ هنا الكلمةَ اليونانيّة نفسَها التي استخدمها كَتَبَةُ الأناجيل لوصف الطريقة التي كان يتحدّث يسوع بها إلى الشياطين. استخدم مَرقُس هذه الكلمة الآن لوصف ما قاله يسوع لبطرس، وكلمات يسوع تُظهر قسوة توبيخه اللفظيّ له، لأنّ الربّ دعا تلميذه الخاصّ بـ«شيطان».

لماذا شبّه يسوع بطرس بالشيطان؟ أعتقد أنّ السبب هو أنّ بطرس قدّم التجربة نفسها التي قدّمها إبليس ليسوع في البرّيّة في بداية خدمته العامّة. كتب متّى في إنجيله عن تجربة يسوع الأخيرة ما يلي:

> ثُمَّ أَخَذَهُ أَيْضًا إِبْلِيسُ إِلَى جَبَلٍ عَالٍ جِدًّا، وَأَرَاهُ جَمِيعَ مَمَالِكِ ٱلْعَالَمِ وَمَجْدَهَا، وَقَالَ لَهُ: أُعْطِيكَ هَذِهِ جَمِيعَهَا إِنْ خَرَرْتَ وَسَجَدْتَ لِي. حِينَئِذٍ قَالَ لَهُ يَسُوعُ: ٱذْهَبْ ياشَيْطَانُ! لِأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: لِلرَّبِّ إِلَهِكَ تَسْجُدُ وَإِيَّاهُ وَحْدَهُ تَعْبُدُ (٤: ٨-١٠)

طلب الشيطان من يسوع أنْ يسجدَ له، أي ببساطة، أنْ يركعَ أمامَه للحظة. قال له: «لن يراك أحد، وإن فعلتَ ما أطلبه منك، فسأعطيك كلّ ممالك هذا العالم. لن تضطر أن تسيرَ في Via Dolorosa. لن يكون الصليب موجودًا ولا كأس الغضب، ولا آلام ولا رفض ولا موت». كان جوهر هذه التجربة هو الوصول إلى العرش من دون المرور باختبار العذاب والآلام.

صمدَ ربُّنا أمامَ هذه التجربة كما صمد أمام كلّ عروض الشيطان الأخرى. لكن لوقا يُخبرنا أنّ الشيطان «فَارَقَهُ إِلَى حِينٍ» (٤: ١٣ب). في هذه العبارة نذير أو تلميح إلى أنّ الشيطان لم ينتهِ من تجربته، بل سيأتي

يوم يعود فيه ليحاول إغواء يسوع بالطريقة الرخيصة نفسها نحو المجد.

من كان يتوقّع بأنّ «إلى حين» ستكون مباشرة بعد أسمى اعتراف إيمان سُمع بين التلاميذ؟ مَن كان يتوقّع أنْ يأتيَ الشيطان ويتحدّث من خلال مَن كان مُتحدّثًا باسم التلاميذ، والرجل نفسه الذي قال: «أنت هو المسيح»؟ لكنّ يسوع عرف عمل الشيطان حال حدوثه.

قال يسوع أيضًا لبطرس: «لَا تَهْتَمُّ بِمَا لِلهِ لَكِنْ بِمَا لِلنَّاسِ». لم يكن بطرس ينظر إلى المسيح من وجهة نظر الله، بل كان لا يزال يفكّر في المسيح كزعيم سياسيّ سيُنقذ اليهود من الاحتلال الرومانيّ. آمن بطرس أنّ يسوع هو المسيح، لكنّه لم يستطع أنْ يُدركَ أنّه كان على المسيح أنْ يتألمَ- على الرغم من أنّ العهد القديم ذكر ذلك.

أظهرَ يسوعُ لبطرسَ أنّ النظر إلى الأمور يكون بطريقتَيْن أساسيّتَيْن- طريق الله، وطريق الإنسان. هذا هو الفرق الكبير بين التقوى وعدم التقوى. الإنسان التقيّ يهتمّ بعمق بأمور الله، لكنّ الشخص غير التقيّ لا يهتمّ بأمور الله، بل هو مُنشغل بأمور هذا العالم. علينا جميعًا، من وقت لآخر، أنْ نقيّمَ أنفسَنا وفقًا لهذه المعايير. علينا أن نسألَ أنفسَنا: «أين قلبي؟ ما هو الأمر الرئيس الذي يشغلني؟ هل أنا مُنشغل بأمور هذا العالم، أم أنّ قلبي ينبض بأمور الله؟ هل أطلب أوّلًا ملكوت الله وبرّه، وأترك كلّ الأمور الأخرى تحدث كما تشاء؟ أم هل أنا مُندفع بأولويّة أخرى أو مُلزم بطموح معيّن أو بهدف كرّست له كلّ طاقتي في هذا العالم؟»

حمل الصليب

بما أنّ بطرس والتلاميذ الآخرين كانوا لا يزالون مثلَ الجموع الغفيرة من الناس المحيطين به يفكّرون فيه كمُحرّر، قرّر يسوع أنّ الوقت قد حان

ليشرحَ لهم الأمور المترتّبة على اتّباعه، فاتّباعه لا يعني حمل السيف والسير وراءَه في معركة ضدّ الجحافل الرومانيّة. كتب مَرقُس: **وَدَعَا ٱلْجَمْعَ مَعَ تَلَامِيذِهِ وَقَالَ لَهُمْ: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَأْتِيَ وَرَائِي فَلْيُنْكِرْ نَفْسَهُ وَيَحْمِلْ صَلِيبَهُ وَيَتْبَعْنِي** (الآية ٣٤).

قد يبدو غريبًا أنْ يختارَ يسوع التحدّثَ عن الصليبِ في هذه المرحلة، في الوقت الذي كان سيحدث بعد فترة ليست بقريبة. هل هذا مثلٌ عن تنقيحٍ قام به كاتب الإنجيل، بحيث أضاف إلى السجلّ التاريخي تلميحًا إلى الصليب لا معنى له في السياق المباشر للنصّ. لا على الإطلاق. كان كلّ يهوديّ تحت السلطة الرومانيّة يُدرك تمامًا الأهمّيّة الرمزيّة لكلمة صليب، لأنّ الصلب هو الوسيلة الرئيسة التي كانت الحكومة الرومانيّة تستخدمها للإعدام في ذلك الوقت. كان إجراءً عاديًّا أنْ يحملَ الشخص المُدان عارضة الصليب الخشبيّة من مكان إصدار الحكم إلى مكان الإعدام، وهو ما سيُطلب من يسوع نفسِه القيامَ به عند مماته. كانوا كلّهم يعلمون أنّه عندما تحدّث يسوع عن الصليب، كان يتحدّث عن الإعدام والموت. كان يقول: «إنْ أردتم أنْ تتبعوني، فلا تتوقّعوا أوقاتًا رغيدة. لا تتوقّعوا تحقيق كلّ آمالكم ورغباتكم وتوقّعاتكم. أقترح عليكم أيضًا أنْ تحملوا الصليب كلّ يوم، لأنّه يجب على تلاميذي أنْ يكونوا مستعدّين لتحمّل الخزي والعار والموت. إنْ أردتم أنْ تكونوا مسيحيّين، فعليكم أنْ تكونوا مستعدّين أنْ تتبعوني حاملين عود الصليب».

وتابع يقول لهم: **فَإِنَّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يُخَلِّصَ نَفْسَهُ يُهْلِكُهَا، وَمَنْ يُهْلِكُ نَفْسَهُ مِنْ أَجْلِي وَمِنْ أَجْلِ ٱلْإِنْجِيلِ فَهُوَ يُخَلِّصُهَا** (الآية ٣٥). هذه هي المفارقة الكبرى: إنْ كُنّا مُنشغلين بمحاولة إنقاذ أنفسنا، فإنّ المحاولة بحدّ ذاتها هي التي ستقودنا إلى هلاكنا. الحياة المسيحيّة ليست بالحياة السهلة، فكلّ لحظة نعيشها دون رفضٍ وألمٍ وموتٍ هي نعمة. لكنّ مصيرنا كشعب

الله هو أنْ تُلقينا قوى هذا العالم وهذا العصر في القُمامة، ولا توجد طريقة لتلميع هذه الصورة. لهذا السبب قال يسوع: «احسبوا الكلفة. إنْ أردتم أنْ تتبعوني، فستدفعون حياتكم ثمنًا لذلك».

ثمّ أضاف: «**لِأَنَّهُ مَاذَا يَنْتَفِعُ ٱلْإِنْسَانُ لَوْ رَبِحَ ٱلْعَالَمَ كُلَّهُ وَخَسِرَ نَفْسَهُ؟ أَوْ مَاذَا يُعْطِي ٱلْإِنْسَانُ فِدَاءً عَنْ نَفْسِهِ؟** (الآيتان ٣٦-٣٧). هنا يُعطي يسوع درسًا في علم الاقتصاد الروحيّ. قد نربح إلى حدّ امتلاك العالم كلّه وكلّ ما يحتويه، ولكن، إنْ كان هذا الربح على حساب أرواحِنا، فلن يكونَ ربحًا على الإطلاق. بل نكون قد ضحّينا بالغالي والنفيس مقابل شيء لا قيمة له. سنُفلس إنْ أبرمنا هذه الصفقة. لتوضيح هذه النقطة، أعادَ يسوع صياغة سؤالِه بطريقة ثانية: «مَاذَا يُعْطِي ٱلْإِنْسَانُ فِدَاءً عَنْ نَفْسِهِ؟» الكتب الأدبيّة مليئة بروايات خياليّة عن أشخاص باعوا أرواحهم للشيطان، وهذه أسوأ صفقة يمكن لأيّ إنسان أنْ يقوم بها على الإطلاق. علينا أنْ نعرفَ مدى قيمة أرواحنا. كيف نعرف ذلك؟ يمكننا أنْ نُدركَ القيمة الحقيقيّة لأرواحنا من خلال ملاحظة ما كان يسوع على استعداد لدفعه مقابل أرواح شعبه.

أخيرًا، قال يسوع: **لِأَنَّ مَنِ ٱسْتَحَى بِي وَبِكَلَامِي فِي هَذَا ٱلْجِيلِ ٱلْفَاسِقِ ٱلْخَاطِئِ، فَإِنَّ ٱبْنَ ٱلْإِنْسَانِ يَسْتَحِي بِهِ متّى جَاءَ بِمَجْدِ أَبِيهِ مَعَ ٱلْمَلَائِكَةِ ٱلْقِدِّيسِينَ** (الآية ٣٨). هذه هي التكلفة المُطلقة للنظر إلى الأشياء من منظور العالم. لدينا رغبة مُتجذّرة للهروب من الخجل والعار، لذلك نُخفي تعبّدنا للمسيح عن أعين العالم. ولكن، رغم كلّ مخاطر الحياة المسيحيّة وكراهيّة العالم نحو المسيح والأشخاص الذين يتبعونه، إلّا أنّنا لا نجرؤ على إبقاء حبّنا له قيد الكتمان. إنْ كنّا نعرف المسيح، فيجب أنْ نعترفَ علانيّة بولائنا له.

هل تعرف أحدًا لا يعرف أنّك مسيحيّ؟ هل يعلمُ جميع أصدقائك وزملائك في العمل أنّك مسيحيّ؟ إنْ لم يكن الأمر كذلك، فضع كلمات

يسوع هذه في قلبك. إنْ أردنا أنْ نتبعَ يسوع، فعلينا أنْ نحتضنَ آلامه ورفضَه وموتَه وصليبَه، لأنّ هذا هو ثمن الوقوف إلى جانبه.

ملكوت الله بقوّة

تضعُ ترجمة الملك جيمس الجديدة هذا العنوان الفرعيّ في بداية الإصحاح التاسع من إنجيل مَرقُس: «تجلّي يسوع على الجبل». ولكن رواية مَرقُس عن تجلّي يسوع المجيد، وهي من الروايات المفضّلة عندي في العهد الجديد، لا تبدأ حتى الآية الثانية من هذا الإصحاح. من الأصحّ أنّ تنتمي الآية الأولى إلى نهاية الإصحاح الثامن.

نرى هنا دليلًا آخر على أنّ تقسيم الكتاب المقدّس إلى إصحاحات وآيات لم يكن جزءًا من الوثائق الأصليّة المُوحى بها. أحيانًا، يتبادر إلى ذهني أنّ الشخص الذي قام بتقسيم الكتاب المقدّس إلى إصحاحات وآيات كان خادمًا متجوّلًا في البرّيّة من الكنيسة الميثوديست يقوم بخدمته وهو راكب على حصان، ثمّ وصل إلى هذا الجزء من مَرقُس بينما كانت الشمس تغيب، وفقد مكان الآية التي وصل إليها. ببساطة، ليس من المنطقيّ وضع هذه الآية في الإصحاح التاسع بدلًا من الثامن لأنّها آية ذات أهميّة بالغة.

يكتب مَرقُس: **وَقَالَ لَهُمُ: ٱلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مِنَ ٱلْقِيَامِ هَهُنَا قَوْمًا لَا يَذُوقُونَ ٱلْمَوْتَ حَتَّى يَرَوْا مَلَكُوتَ ٱللهِ قَدْ أَتَى بِقُوَّةٍ** (الآية ١). تنبّأ يسوع عندما نطق بهذه الكلمات، لكنّه لم يتنبّأ عن حدث سيحدث بعد مئات أو آلاف السنين، بل وضع لهذه النبوءة إطارًا زمنيًّا مُحدّدًا حين قال: «إِنَّ مِنَ ٱلْقِيَامِ هَهُنَا قَوْمًا لَا يَذُوقُونَ ٱلْمَوْتَ». بكلمات أخرى، رغم حقيقة أنّ المسيح كان يدعو تلاميذه إلى حمل الصليب وإنكار الذات والتألّم معه، فإنّ بعض أولئك الذين سمعوه يتكلّم بهذه الكلمات لن يموتوا حتّى وقوع الحدث الذي تنبّأ به. سيحدث خلال حياة بعض التلاميذ على الأقلّ.

ما الحدث الذي كان يسوع يتحدّث عنه عندما تكلّم عن مجيء ملكوت الله بقوّة؟ اسمحوا لي قبل أنْ أحاولَ الإجابة عن هذا السؤال، أنْ أزيدَ من حدّة المسألة من خلال إظهار أنّ هذه النبوءة تشبه إلى حدّ بعيد نصّيْن آخرَيْن متساويَيْن في العهد الجديد، لا بلْ أكثر جدلًا.

نقرأ في إنجيل متّى: «وَسَيُسْلِمُ ٱلْأَخُ أَخَاهُ إِلَى ٱلْمَوْتِ، وَٱلْأَبُ وَلَدَهُ، وَيَقُومُ ٱلْأَوْلَادُ عَلَى وَالِدِيهِمْ وَيَقْتُلُونَهُمْ، وَتَكُونُونَ مُبْغَضِينَ مِنَ ٱلْجَمِيعِ مِنْ أَجْلِ ٱسْمِي. وَلَكِنِ ٱلَّذِي يَصْبِرُ إِلَى ٱلْمُنْتَهَى فَهَذَا يَخْلُصُ. وَمتّى طَرَدُوكُمْ فِي هَذِهِ ٱلْمَدِينَةِ فَٱهْرُبُوا إِلَى ٱلْأُخْرَى. فَإِنِّي ٱلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لَا تُكَمِّلُونَ مُدُنَ إِسْرَائِيلَ حَتَّى يَأْتِيَ ٱبْنُ ٱلْإِنْسَانِ» (١٠: ٢١–٢٣). هنا، كما في مَرقُس ٨، تنبّأ يسوع بآلام وضيقات لأتباعه. طلب منهم الانتقال إلى مدينة أخرى حين يتعرّضون للاضطهاد في مدينة ما. ثمَ ختم بوعدٍ: «لَا تُكَمِّلُونَ مُدُنَ إِسْرَائِيلَ حَتَّى يَأْتِيَ ٱبْنُ ٱلْإِنْسَانِ».

كان يسوع يتنبّأ مرّة أخرى هنا وحدّد إطارًا زمنيًّا لتحقيق النبوءَة. في هذه الحالة، لم يُشر إلى الوقت الذي سيرى فيه التلاميذ ملكوتَ الله آتيًا بقوّة، بل إلى مجيء ابن الإنسان. بدلًا من أنْ يقولَ إنّ بعضًا من أتباعه سيبقون أحياء حتّى تحقيق النبوءَة، قال إنّهم لن يُكملوا السير عبر مدن إسرائيل قبل حدوث هذا الأمر.

هل ترى المُعضلة؟ لم يعد ابن الإنسان من السماء حتّى هذا اليوم، والتلاميذ انتهوا من التجوّل في مدن إسرائيل خلال الجيل الأوّل من عمل المسيحيّين المُرسلي. فكيف نفهم كلمات يسوع هذه؟

النصّ الأكثر إثارة للجدل والذي يحتوي على إطار زمنيّ موجود أيضًا في إنجيل متّى. نجد في الإصحاح ٢٤ نُسخة متّى من عظة على جبل الزيتون، وهي تعليم مطوّل ألقاه يسوع قبل نهاية حياته مع تلاميذه.

هذا الخطاب موجود في الأناجيل الإزائيّة الثلاثة، وهو يُعتبر بكلّ سهولة الخطابُ الأكثر إثارة للجدل في كلّ الروايات عن حياة يسوع.

بدأ يسوع كلامه بنبوءَة أخرى. نظر إلى الهيكل وقال: «أَمَا تَنْظُرُونَ جَمِيعَ هَذِهِ؟ اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ لَا يُتْرَكُ هَهُنَا حَجَرٌ عَلَى حَجَرٍ لَا يُنْقَضُ (الآية ٢). كانت هذه النبوءة عن دمار الهيكل صادمة، لأنّه لا يُمكن لليهود في أيّام يسوع أنْ يتخيّلوا حدوث أمر مثل دمار الهيكل. وبالتالي، لا نستغرب حين سأله تلاميذه: «متّى يَكُونُ هَذَا؟» (الآية ٣). ثمّ قدّم يسوع إجابة مُفصّلة، قائلًا بشكل جزئيّ:

> «وَلِلْوَقْتِ بَعْدَ ضِيقِ تِلْكَ ٱلْأَيَّامِ تُظْلِمُ ٱلشَّمْسُ، وَٱلْقَمَرُ لَا يُعْطِي ضَوْءَهُ، وَٱلنُّجُومُ تَسْقُطُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ، وَقُوَّاتُ ٱلسَّمَاوَاتِ تَتَزَعْزَعُ. وَحِينَئِذٍ تَظْهَرُ عَلَامَةُ ٱبْنِ ٱلْإِنْسَانِ فِي ٱلسَّمَاءِ. وَحِينَئِذٍ تَنُوحُ جَمِيعُ قَبَائِلِ ٱلْأَرْضِ، وَيُبْصِرُونَ ٱبْنَ ٱلْإِنْسَانِ آتِيًا عَلَى سَحَابِ ٱلسَّمَاءِ بِقُوَّةٍ وَمَجْدٍ كَثِيرٍ. فَيُرْسِلُ مَلَائِكَتَهُ بِبُوقٍ عَظِيمِ ٱلصَّوْتِ، فَيَجْمَعُونَ مُخْتَارِيهِ مِنَ ٱلْأَرْبَعِ ٱلرِّيَاحِ، مِنْ أَقْصَاءِ ٱلسَّمَاوَاتِ إِلَى أَقْصَائِهَا. فَمِنْ شَجَرَةِ ٱلتِّينِ تَعَلَّمُوا ٱلْمَثَلَ: متّى صَارَ غُصْنُهَا رَخْصًا وَأَخْرَجَتْ أَوْرَاقَهَا، تَعْلَمُونَ أَنَّ ٱلصَّيْفَ قَرِيبٌ. هَكَذَا أَنْتُمْ أَيْضًا، متّى رَأَيْتُمْ هَذَا كُلَّهُ فَٱعْلَمُوا أَنَّهُ قَرِيبٌ عَلَى ٱلْأَبْوَابِ. اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لَا يَمْضِي هَذَا ٱلْجِيلُ حَتَّى يَكُونَ هَذَا كُلُّهُ. اَلسَّمَاءُ وَٱلْأَرْضُ تَزُولَانِ وَلَكِنَّ كَلَامِي لَا يَزُولُ» (الآيات ٢٩–٣٤).

هنا أيضًا، وضع يسوع إطارًا زمنيًّا هنا للنبوءَة: «حَتَّى يَكُونَ هَذَا كُلُّهُ،» سيحدث كلّ هذا، بما في ذلك دمار الهيكل خلال جيل واحد، أي خلال ٤٠ عامًا بحسب المفهوم اليهوديّ. لقد أثبتت هذه النبوءَة دقّتها بشكل مذهل– على الأقلّ فيما يختصّ بالهيكل. فبعد مرور حوالي أربعين عامًا، دُمّر

الهيكل بالكامل عندما دمّر الرومان مدينة أورشليم. المشكلة هي أنّ يسوع حدّد مجيء ابن الإنسان ضمن الأحداث التي ستحدث خلال جيل، لكن من الواضح أنّ يسوع لم يأتِ ليُنهي الزمن. لهذا السبب، يستخدم المشكّكون والنقّاد هذا النصّ كثيرًا في العالم الأكاديمي، لإنكار مصداقيّة يسوع والعهد الجديد. عندما كتب برتراند راسل مقالته بعنوان: «لماذا لستُ مسيحيًّا»، استشهد بهذا النصّ كحجّة أولى له لعدم الإيمان بيسوع.

فما الذي قصده يسوع هنا؟

إذن، لدينا ثلاثة مقاطع أساسيّة في العهد الجديد تتكلّم عن أحداث ستقع في المستقبل، وكلّها تقدّم أطرًا زمنيًّا بالأحداث المُتنبّأ بها خلال الجيل الأوّل من المؤمنين. ولكن لا يمكننا التأكّد من أنّ هذه المقاطع الثلاثة تُشير إلى الحدث التاريخيّ نفسه. ففي مَرقُس ٩، قال يسوع إنّ بعضًا من تلاميذه لن يذوقوا الموت حتّى يرَوْا ملكوت الله قد أتى بقوّة. وفي متّى ١٠، قال إنّ التلاميذ لا يُكمّلون مدن إسرائيل حتّى يأتي ابن الإنسان. وفي مَرقُس ١٤، أعلن أنّه لن يموت كلّ أفراد الجيل الذين عاشوا في ذلك الوقت قبل حدوث «هذا كلّه»، بما في ذلك دمار الهيكل.

إنّ جوهر تشكيك العلماء هو التالي: لقد تنبّأ يسوع بأمور كثيرة ستحدث خلال الجيل الأوّل من المؤمنين، بما في ذلك دمار الهيكل وعودته. نعم، دُمّر الهيكل، لكنّ يسوع لم يَعُد ليُنهي الزمان. لذلك، إنْ كان نبيًّا، فهو نبيّ كذّاب. وهذا لا يعني فقط أنّ نبوءَته غير صحيحة بأكملها، بل لا يمكن الوثوق أيضًا بوثائق العهد الجديد.

يستخدمُ الإنجيليّون جميع حِيَلهم التفسيرية للتغلّب على هذه المشاكل. فعند تفسيرهم لمتّى ٢٤، يستخدمون الحجّة الأكثر شيوعًا، وهي أنّ يسوع قصد أنّ عدم إيمان ذلك الجيل لن ينتهي، وأنّ غير المؤمنين سيكونون

موجودين في كلّ جيل حتّى يعود في نهاية الزمان. بكلمات أخرى، لم يكن يحدّد إطارًا زمنيًّا. ولكن إنْ كان هذا ما قصده، فقد استخدم عبارة «هذا الجيل» بطريقة غريبة تمامًا عن استخدامها في بقيّة العهد الجديد.

إنْ أردنا أنْ نأخذَ هذا النصّ وكلماته على محمل الجدّ، يمكننا فقط أنْ نستنتجَ أنّ التلاميذ فهموا أنّ يسوع قصد جيلًا حرفيًّا واحدًا، أي حوالي أربعين عامًا، وأنّ كلّ ما تنبّأ به سيحدث خلال الأربعين عامًا القادمة أو نحو ذلك– باستثناء، وهذا ما أؤمن به أنا شخصيًّا، مجيئه الأخير في نهاية الزمان.

ماذا عن متّى ١٠؟ عندما قال يسوع إنّ التلاميذ لا يُكمّلون مدن إسرائيل حتّى يأتي ابن الإنسان، كان واضحًا أنّه كان يضع إطارًا زمنيًّا للقرن الأوّل لنوع ما من مجيء ابن الإنسان. مرّة أخرى وبحسب تقديري، لم يكن يشير هنا إلى مجيئه الأخير.

في مَرقُس ٩، ما الذي كان يشير إليه يسوع عندما قال: «إِنَّ مِنَ ٱلْقِيَامِ هَهُنَا قَوْمًا لَا يَذُوقُونَ ٱلْمَوْتَ حَتَّى يَرَوْا مَلَكُوتَ ٱللهِ قَدْ أَتَى بِقُوَّةٍ؟» ومن الأهمّية بمكان أنّه لم يقل: «إنّ من القيام ههنا قومًا لا يذوقون الموت حتّى أعود». ولكن إنْ كانت عبارة «ملكوت الله قد أتى بقوّة» لا تُشير إلى مجيئه الثاني، فماذا تعني يا تُرى؟

قال العديد من المفسّرين عبر تاريخ الكنيسة إنّه بما أنّ مَرقُس قد وضع هذه النبوءة قبل حادثة التجلّي، علمًا أنّ التجلّي هو أكثر المظاهر إبهارًا لمجيء ملكوت الله في المجد والقوّة الذي حدث خلال خدمة يسوع الأرضيّة قبل قيامته، فلا بُدّ أنّ مَرقُس اعتبر كلام يسوع كنبوءة عن التجلّي. لكن هذا التفسير يُحيّرني، فأنا لا أفهم لماذا قال يسوع إنّ بعض تلاميذه لن يموتوا قبل التجلّي، الأمر الذي حدث بعد ستّة أيّام فقط كما يُخبرنا مَرقُس (٩: ٢). كان يقول: «لا تقلقوا. لن تموتوا جميعًا في الأسبوع المقبل». لم

يكن من المنطقيّ بالنسبة إليه أنْ يضعَ مثل هذا الإطار الزمنيّ لأمر كان سيحدث بعد فترة قريبة جدًّا.

قال علماء آخرون إنّ هذه النبوة تشير إلى القيامة التي أوضحت ظهور يسوع وملكوته بقوّة أكبر من التجلّي. ولكن هذا التفسير يواجه المشكلة نفسها، إذ لم يمت قبل القيامة أيّ من أولئك الذين كانوا هناك في اللحظة التي نطق يسوع بهذه النبوءَة (باستثناء يهوذا الإسخريوطي). والقيامة نفسها كانت قريبة جدًّا لتبرير وضع إطار زمنيّ مثل ذلك الذي وضعه يسوع.

هنالك رأي آخر يقول إنّ هذه النبوءة تحقّقت عندما رأى التلاميذ الملكوت يأتي بقوّة في يوم الخمسين، عندما نالوا قوّةً من خلال انسكاب روح الله من السماء. هذا مُمكن، ولكنّنا نجد هنا أيضًا أنّه لم يمت أيّ من التلاميذ في ذلك الوقت باستثناء يهوذا. يبدو مرّة أخرى أنّ الإطار الزمنيّ الذي حدّده يسوع يستبعد أمرًا كان سيحدث بهذا القرب.

ومع ذلك، من الممكن أنّ يسوع كان يتحدّث عن ظهور ملكوت الله بقوّة في دمار أورشليم والهيكل. عندما وقعت هذه الأحداث الرهيبة في عام ٧٠ بعد الميلاد، تمّ اعتبار الكنيسة المسيحيّة أخيرًا ككيان مُنفصل عن اليهوديّة. لم تعد تُعتبر مجموعةً فرعيّة أو طائفة داخل اليهوديّة. ظهر انتصار كنيسة المسيح بقوّة عند وقوع دينونة الله على اليهود. وقد مات بعض أولئك الذين كانوا حاضرين عندما تنبّأ يسوع عن استعلان قوّة الملكوت بين إعلانه ومجيء الملكوت بقوّة عام ٧٠.

يجب أن أقرّ أنّني لا أعرف بالتأكيد إنْ كان هذا التفسير لنبوءَة يسوع صحيحًا. لكنّي أعلم أنّه إنْ كنتَ تتصارع مع هذه المقاطع التي تضع أطرًا زمنيّة في العهد الجديد، فلست بحاجة أن تتصارع معها فيما بعد، إنْ كنت تأخذ تحقيق نبوءَة يسوع عن الهيكل على محمل الجدّ. أنا متيقّن من أمر

واحد ألا وهو أنّ كلمة الله لا تسقط أبدًا. وأعلم أيضًا أنّ يسوع كان الحقّ المتجسّد، وعندما قال إنّ شيئًا ما سيحدث في إطار زمنيّ معيّن، أعلم أنّه حدث خلال ذلك الإطار الزمنيّ. إنْ كان هذا الاستنتاج سيجبرني على تحدّي بعض مفاهيم علم اللاهوت في يومنا هذا، فليكن. ثغرُ يسوع هو المصدر الوحيد الموثوق للحقيقة.

٢٨

التجلّي

مرقس ٩: ٢-١٣

وَبَعْدَ سِتَّةِ أَيَّامٍ أَخَذَ يَسُوعُ بُطْرُسَ وَيَعْقُوبَ وَيُوحَنَّا، وَصَعِدَ بِهِمْ إِلَى جَبَلٍ عَالٍ مُنْفَرِدِينَ وَحْدَهُمْ. وَتَغَيَّرَتْ هَيْئَتُهُ قُدَّامَهُمْ، وَصارَتْ ثِيَابُهُ تَلْمَعُ بَيْضَاءَ جِدًّا كَٱلثَّلْجِ، لَا يَقْدِرُ قَصَّارٌ عَلَى ٱلْأَرْضِ أَنْ يُبَيِّضَ مِثْلَ ذٰلِكَ. وَظَهَرَ لَهُمْ إِيلِيَّا مَعَ مُوسَى، وَكَانَا يَتَكَلَّمَانِ مَعَ يَسُوعَ. فَجَعَلَ بُطْرُسُ يَقولُ لِيَسُوعَ: يَا سَيِّدِي، جَيِّدٌ أَنْ نَكُونَ هٰهُنَا. فَلْنَصْنَعْ ثَلَاثَ مَظَالَّ: لَكَ وَاحِدَةً، وَلِمُوسَى وَاحِدَةً، وَلإِيلِيَّا وَاحِدَةً. لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ إِذْ كَانُوا مُرْتَعِبِينَ. وَكَانَتْ سَحَابَةٌ تُظَلِّلُهُمْ. فَجَاءَ صَوْتٌ مِنَ ٱلسَّحَابَةِ قَائِلًا: هٰذَا هُوَ ٱبْنِي ٱلْحَبِيبُ. لَهُ ٱسْمَعُوا. فَنَظَرُوا حَوْلَهُمْ بَغْتَةً وَلَمْ يَرَوْا أَحَدًا غَيْرَ يَسُوعَ وَحْدَهُ مَعَهُمْ. وَفِيمَا هُمْ نَازِلُونَ مِنَ ٱلْجَبَلِ، أَوْصَاهُمْ أَنْ لَا يُحَدِّثُوا أَحَدًا بِمَا أَبْصَرُوا، إِلَّا متّى قَامَ ٱبْنُ ٱلْإِنْسَانِ مِنَ ٱلْأَمْوَاتِ. فَحَفِظُوا ٱلْكَلِمَةَ لِأَنْفُسِهِمْ يَتَسَاءَلُونَ: مَا هُوَ ٱلْقِيَامُ مِنَ ٱلْأَمْوَاتِ؟ فَسَأَلُوهُ قَائِلِينَ: لِمَاذَا يَقُولُ ٱلْكَتَبَةُ: إِنَّ إِيلِيَّا يَنْبَغِي أَنْ يَأْتِيَ أَوَّلًا؟ فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ إِيلِيَّا يَأْتِي أَوَّلًا وَيَرُدُّ كُلَّ شَيْءٍ. وَكَيْفَ هُوَ مَكْتُوبٌ عَنِ ٱبْنِ ٱلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَأَلَّمَ كَثِيرًا وَيُرْذَلَ. لَكِنْ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ إِيلِيَّا أَيْضًا قَدْ أَتَى، وَعَمِلُوا بِهِ كُلَّ مَا

أَرَادُوا، كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ عَنْهُ.

قبل سنوات عديدة، كتبتُ كتابًا غير اعتياديّ إلى حدّ ما عنوانه: «مجد المسيح». كتبته لأنّنا نلاحظ في اللاهوت الكلاسيكي أنّ تقدّمَ حياة يسوع بشكل عامّ كان من الإذلال إلى التمجيد. بدأت حياته حين وُلد في حالة من الفقر، ثمّ رفضه شعبه، وبلغ الرفض ذروته في خيانته وصلبه. كان دفنه في قبر رجل غنيّ الخطوة الأولى نحو التمجيد، ثمّ استمرّت مع القيامة، وبلغت ذروتها في الصعود.

بالطبع، هذا التقدّم العامّ من الإذلال إلى التمجيد لم يكن ثابتًا ومُستمرًّا، بل كان المجد ينفجر في لحظات مُختلفة من حياة يسوع، حتّى في وسط لحظات إذلاله. على سبيل المثال، عند ولادته، كان يقابل ظروف الفقر مجد الله الذي أظهره للرعاة في الحقول المجاورة. ولكن لم يكن هناك أيّ هدف لظهور المجد في حياة يسوع قبل القيامة، حيث أشرق مجده بشكل بهيّ، وقد حدث هذا أيضًا عند تجلّيه.

يُخبرنا مَرقُس: **وَبَعْدَ سِتَّةِ أَيَّامٍ أَخَذَ يَسُوعُ بُطْرُسَ وَيَعْقُوبَ وَيُوحَنَّا، وَصَعِدَ بِهِمْ إِلَى جَبَلٍ عَالٍ مُنْفَرِدِينَ وَحْدَهُمْ. وَتَغَيَّرَتْ هَيْئَتُهُ قُدَّامَهُمْ** (الآية ٢). تكمن أهمّيّة هذا الحدث بأنّه وقع «بَعْدَ سِتَّةِ أَيَّامٍ». ما الذي حدث قبل هذه الأيّام الستّة؟ في قيصريّة فيلبس، ردًّا على سؤال طرحه يسوع، أدلى بطرس باعترافه بمسيانيّة يسوع (٨: ٢٩). وبعد فترة قصيرة جدًّا، أوضح يسوع لتلاميذه أنّه يجب أن يتألّم ويموت (آية ٣١)، الأمر الذي ترك بطرس مشدوهًا لدرجة أنّه انتهر يسوع (الآية ٣٢)، ممّا دفع يسوع إلى انتهاره في المقابل (الآية ٣٣). ثمّ بدأ يسوع يُعلّم تلاميذه أنّه ينبغي عليهم هم أيضًا أنْ يكونوا مُستعدّين للموت؛ لأنّهم إنْ أرادوا أنْ يكونوا من أتباعه، فعليهم أنْ يُنكروا أنفسهم ويحملوا الصليب (الآية ٣٤).

بعد أنْ حدثت كلّ هذه الأمور، بدأ يسوع وتلاميذه على الأرجح بالتحرّك جنوبًا، عائدين باتّجاه بُحيرة الجليل، مبتدئين الرحلة الطويلة إلى أورشليم حيث كان الصليب والموت ينتظران يسوع. لا يُمكننا إلّا أنْ نتخيّلَ التلاميذ والتشاؤم يملأ قلوبَهم. فربّما كانت الكلمات الرهيبة التي قالها لهم يسوع بعد اعتراف قيصريّة فيلبس تدور كثيرًا في عقولهم. لقد قال إنّه يجب أنْ يتألّمَ ويموتَ، وها هو الآن يتّجه نحو ذلك الكأس الرهيب.

وسط حالة اليأس هذه، أخذ يسوعُ بطرس ويعقوب ويوحنّا وصعد بهم إلى قِمّة «جبل عالٍ». لا يمكننا التأكّد أيّ جبل كان هذا في فلسطين. طُرحت نظريّات عديدة، ويبدو أنّ أفضَلَها هو جبل حرمون الذي كان بالقرب من قيصريّة فيلبس، وهو بالفعل جبل مرتفع يبلغ ارتفاعه أكثر من تسعة آلاف قدم.

يُخبرنا مَرقُس بعد ذلك أنّ هيئة يسوع «تغيّرت» قدّام تلاميذه. الكلمة اليونانيّة المستخدمة هنا هي شكل من أشكال الفعل **metamorpheo**، ومنه نحصل في اللغة الإنجليزيّة على كلمة **metamorphosis**. لقد تعلّمنا عن التحوّل في المدرسة، عندما درسنا التحوّل الكبير الذي تمرّ به اليرقة لتصبح فراشة. الكلمة اليونانيّة التي تعني «شكل» هي **morphos**، وبالتالي فإنّ التحوّلَ هو تغيير في الشكل. التجلّي هو أيضًا تغيير في الهيئة. في اللغة الإنجليزية، البادئة **trans** تعني «عبر». عندما نقوم برحلة عابرة للقارّات، فإنّنا نمرّ عبر القارة. إنْ سافرنا عبر المحيط الأطلسي، فهذا يعني أنّنا نمرّ عبر المحيط الأطلسي. إذن، خضع يسوع لتحوّل، وفجأة انفجر المجد الذي كان مُختبئًا ومحجوبًا تحت ثوب بشريّته، وكشف عن ألوهيّة المسيح الكاملة للتلاميذ الذين كانوا يشاهدون كلّ ما يجري.

ملابس ببياضٍ لامع

كتب متّى في وصفه ليسوع المتجلّي: «وَأَضَاءَ وَجْهُهُ كَٱلشَّمْسِ، وَصَارَتْ

ثِيَابُهُ بَيْضَاءَ كَٱلنُّورِ» (١٧: ٢ب). لا يذكر مَرقُس شيئًا عن وجه يسوع، لكنّه يُقدّم لنا تفاصيل إضافيّة عن ملابسه: **وَصَارَتْ ثِيَابُهُ تَلْمَعُ بَيْضَاءَ جِدًّا كَٱلثَّلْجِ، لَا يَقْدِرُ قَصَّارٌ عَلَى ٱلْأَرْضِ أَنْ يُبَيِّضَ مِثْلَ ذَلِكَ** (الآية ٣).

تُذكّرنا فكرة لمعان وجه شخص ما بهذه الحدّة الشديدة بقصّة موسى في العهد القديم. عندما كان موسى على الجبل مع الله، توسّل للحصول على الرؤية المجيدة المباركة. قال: «أَرِنِي مَجْدَكَ» (خروج ٣٣: ١٨). أجابه الله: «لَا تَقْدِرُ أَنْ تَرَى وَجْهِي، لِأَنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَا يَرَانِي وَيَعِيشُ» (الآية ٢٠). لكن الله تابع وقال له: «هُوَذَا عِنْدِي مَكَانٌ، فَتَقِفُ عَلَى ٱلصَّخْرَةِ. وَيَكُونُ مَتَى ٱجْتَازَ مَجْدِي، أَنِّي أَضَعُكَ فِي نُقْرَةٍ مِنَ ٱلصَّخْرَةِ، وَأَسْتُرُكَ بِيَدِي حَتَّى أَجْتَازَ. ثُمَّ أَرْفَعُ يَدِي فَتَنْظُرُ وَرَائِي، وَأَمَّا وَجْهِي فَلَا يُرَى (الآيات ٢١–٢٣). عندما حصل موسى على هذه النظرة الخاطفة المؤقّتة، ولمحَ مجدَ الله من الخلف، كانت تجربتُه هذه شديدة الحدّة، فقد كان مجد الله الصادر من خلفه شديد اللمعان، لدرجة أنّه عندما حدّق إليه موسى، بدأ وجهه يلمع بإشراق شديد اللمعان، لدرجة أنّ شعب إسرائيل خاف من الاقتراب منه (خروج ٣٤: ٣٠).

كان التوهّج على وجه موسى مُجرّدَ انعكاس للمجد الذي رآه وهو في محضر الله. لم يكن وجهُ موسى مصدرَ النورِ. بل كان نور الله ينعكس من وجه المخلوق. لكنّ التلاميذ شهدوا على جبل التجلّي مجدَ الله الحقيقيّ، لا انعكاس المجدِ. كان مصدرُ النور الذي رآه التلاميذ من داخل المسيح نفسه. كان مجدُه الداخليّ المتأصّل يتفجّر أمامَ أعينِهم. هذا هو الحدث الذي كان يوحنّا يفكّر فيه عندما كتب: «وَرَأَيْنَا مَجْدَهُ، مَجْدًا كَمَا لِوَحِيدٍ مِنَ ٱلْآبِ، مَمْلُوءًا نِعْمَةً وَحَقًّا» (يوحنّا ١: ١٤ب). وكذلك أيضًا قال كاتب العبرانيين عن يسوع إنّه «بَهَاءُ مَجْدِهِ، وَرَسْمُ جَوْهَرِهِ» (١: ٣). لا يعكس يسوعُ بهاءَ مجدِ الله فحسب، بل هو بهاءُ مجدِ الله.

كان النور المُنبثق من يسوع أبيض اللون ونقيًّا. يقول الفلاسفة إنّ اللونَ أمرٌ ثانويّ وبأنّه ليس أساسيًّا، فهو ليس متأصّلًا في المادة إنّما يُضاف إلى جوهرها عند وجود الضوء. من أين يأتي اللون؟ إنّه يأتي من الضوء ومن الشمس، وكلّ ألوان قوس قزح موجودة في ضوء الشمس النقيّ. ولكن، عندما تختلط كلّ هذه الألوان مع بعضها في نقاء الضوء، يظهر أمامَنا بياض مُطلق. وبالتالي، لا نستغرب أنْ يكون الضوء الذي انبثق من يسوع بحدّة تفوق حدّة الشمس كان ناصع البياض. تذكّروا أنّ مَرقُس كان يُجاهد ليُثبت للأمم أنّ يسوع هو ابن الله. كان بياض الضوء الذي شاهده التلاميذ هناك على الجبل يُخبر شيئًا ما عن يسوع.

أعتقدُ، بحسب رأيي الشخصيّ، أنّ أعمق فصل في الكتب الأدبيّة الأمريكية موجود في رواية ميلفيل بعنوان موبي ديك. إنّه الفصل بعنوان «بياض الحوت». يستكشف ميلفيل في هذا الفصل كيف يُستخدم البياض في التاريخ والدين والطبيعة. يصف البياض باستخدام مُصطلحات مثل صعب الإدراك والمُخيف والمُرعب، وكذلك يصفه باستخدام كلمات مثل اللطيف والمجيد والنقيّ. قال بصراحة إنّ الحوت يرمز إلى كلّ هذه الأشياء. وهكذا، إنْ كان الحوت قد جسّد كلّ ما يرمز إليه البياض –أي الرعب والنقاء والروعة والخوف والغموض وغير المُدرك– فقد جسّد الصفات الموجودة في ملء كمال الله نفسه. إنّها الألوهة نفسها التي أظهرها يسوع في النقاوة التي لا شائبة فيها ولا غَضَن ولا عيب.

إيليا وموسى وسحابة وصوت

يكتب مَرقُس: **وَظَهَرَ لَهُمْ إِيلِيَّا مَعَ مُوسَى، وَكَانَا يَتَكَلَّمَانِ مَعَ يَسُوعَ** (الآية ٤). عندما ظهر إيليّا وموسى وابتدآ يتكلّمان مع يسوع، كان التلاميذ ينظرون إلى النور، إلى اختراقٍ للمجد. يُخبرنا لوقا أنّهما تكلّما «عَنْ خُرُوجِهِ

ٱلَّذِي كَانَ عَتِيدًا أَنْ يُكَمِّلَهُ فِي أُورُشَلِيمَ» (٩: ٣١ب)، أي عن آلامه ورفضه والموت الذي كان قد أخبر تلاميذه عنه. لقد فهم إيليا بوضوح، الذي يُمثّل الأنبياء، وموسى، الذي يمثّل الناموس، دعوة المسيح. كانا يعرفان أنّه ينبغي على يسوع أنْ يموت، وكانا يعرفان السبب. لقد أتيا إلى الأقنوم الثاني من الثالوث ليعزّياه ويشجّعاه، وليذكّراه بمصيره الذي كانا قد تنبّآ به قبل قرون طويلة. ها إيليا، الذي نُقل إلى السماء في عربة من نار، يطأ بقدميه الأرضَ المُقدّسة. أمّا موسى الذي حُرّم عليه دخول أرض الميعاد، فها هو يقف أخيرًا هناك بعد قرون.

يُخبرنا مَرقُس أنّه في تلك اللحظة **جَعَلَ بُطْرُسُ يَقولُ لِيَسُوعَ: يَا سَيِّدِي، جَيِّدٌ أَنْ نَكُونَ هَهُنَا. فَلْنَصْنَعْ ثَلَاثَ مَظَالَّ: لَكَ وَاحِدَةً، وَلِمُوسَى وَاحِدَةً، وَلِإِيلِيَّا وَاحِدَةً. لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ إِذْ كَانُوا مُرْتَعِبِينَ** (الآيتان ٥-٦). كان مَرقُس صادقًا جدًّا في إخبارنا أنّ بطرس ويعقوب ويوحنّا كانوا مُرتعبين جدًّا من المشهد الذي رأوه، لدرجة أنّهم لم يعرفوا ماذا يقولون. ثمّ تكلّم بطرس مُقترحًا أنْ تُنصَبَ خيمة ليسوع وخيمة لموسى وأخرى لإيليّا، ولكن في النصّ معنى ضمنيّ قويّ بأنّه كان يهذي ويتحدّث دون تفكير.

كان التلاميذُ خائفين من تجلّي يسوع وظهور موسى وإيليّا معه، لكن سرعان ما تحوّل خوفهم هذا إلى رعب شديد. يكتب مَرقُس: **وَكَانَتْ سَحَابَةٌ تُظَلِّلُهُمْ. فَجَاءَ صَوْتٌ مِنَ ٱلسَّحَابَةِ قَائِلًا: هَذَا هُوَ ٱبْنِي ٱلْحَبِيبُ. لَهُ ٱسْمَعُوا** (الآية ٧). يُخبرنا لوقا: «فَخَافُوا عِنْدَمَا دَخَلُوا فِي ٱلسَّحَابَةِ (٩: ٣٤ب)، ويذكر متّى أنّهم بعد أنْ سمعوا صوت الآب، «سَقَطُوا عَلَى وُجُوهِهِمْ وَخَافُوا جِدًّا» (١٧: ٦ب). ظهرت سحابة مجد حضور الله وشكّلت غطاء حول يسوع وموسى وإيليّا والتلاميذ. يقول مَرقُس إنّها «ظلّلتهم». استُخدمت هذه الكلمة عندما جاء الملاك جبرائيل إلى مريم العذراء ليُعلن لها أنّها ستكون والدة المُخلّص. عندما سألته كيف يمكن أنْ يكونَ هذا، قال لها: «اَلرُّوحُ

ٱلْقُدُسُ يَحِلُّ عَلَيْكِ، وَقُوَّةُ ٱلْعَلِيِّ تُظَلِّلُكِ، فَلِذَلِكَ أَيْضًا ٱلْقُدُّوسُ ٱلْمَوْلُودُ مِنْكِ يُدْعَى ٱبْنَ ٱللهِ (لوقا ١: ٣٥). الفكرة هنا هي أنّه تمّ اللجوء إلى قوّة عظيمة.

سمع التلاميذ من السحابة صوتًا يقول: «هذا هو ابني الحبيب. له اسمعوا!» تمامًا كما مدح الله الآبُ ابنَه بصوتٍ مسموع عند معموديته، عندما مُسِح أيضًا بقوّة الروح القدس (١: ٩–١١)، هنا على جبل التجلّي، مدحَ الآبُ ابنَه بصوتٍ مسموع أمام تلاميذه على وجه التحديد، إضافة إلى تقديم نصيحة مُحدّدة للغاية: «له اسمعوا!»

هذا ما سيقوله الآب لو تكلّم من السماء اليوم. كان ليقولَ لنا، «اسمعوا لابني، الذي به سُررت».

تعليمات وأسئلة

انتهى تجلّي يسوع العجائبيّ فجأة كما ابتدأ: **فَنَظَرُوا حَوْلَهُمْ بَغْتَةً وَلَمْ يَرَوْا أَحَدًا غَيْرَ يَسُوعَ وَحْدَهُ مَعَهُمْ** (الآية ٨). اختفى موسى وإيليّا، والصوت أصبح صامتًا، وارتفعتِ السحابة، ولم يعد يسوع يشعّ ضياء. يُضيف مَرقُس: **وَفِيمَا هُمْ نَازِلُونَ مِنَ ٱلْجَبَلِ، أَوْصَاهُمْ أَنْ لَا يُحَدِّثُوا أَحَدًا بِمَا أَبْصَرُوا، إِلَّا متّى قَامَ ٱبْنُ ٱلْإِنْسَانِ مِنَ ٱلْأَمْوَاتِ. فَحَفِظُوا ٱلْكَلِمَةَ لِأَنْفُسِهِمْ يَتَسَاءَلُونَ: مَا هُوَ ٱلْقِيَامُ مِنَ ٱلْأَمْوَاتِ؟** (الآيتان ٩–١٠). هنا أيضًا يأمر يسوع التلاميذ أنْ يحتفظوا بهذه المعرفة عنه لأنفسِهم –وفي هذه الحالة، كان على بطرس ويعقوب ويوحنّا ألّا يخبروا التلاميذ الآخرين بذلك– إلّا بعد قيامته من بين الأموات. أطاعوه في ذلك، لكنّ مَرقُس يذكر أنّهم تساءَلوا عمّا قصده بالقيام من بين الأموات. ما زالوا لا يفهمون، لأنّ اليهود كانوا يتوقّعون قيامة عامّة في نهاية الزمان، وليس قيامة محدّدة في التاريخ. في الواقع، لم يُدرك التلاميذ أنّ ربّهم سيقوم إلّا بعد أنْ رأوه حيًّا بعد صلبه.

بينما كان يسوع والتلاميذ ينزلون إلى أسفل الجبل، كان السؤال حول دور إيليّا في ملكوت الله الآتي في مُقدّمة تفكير التلاميذ: **فَسَأَلُوهُ قَائِلِينَ: لِمَاذَا يَقُولُ ٱلْكَتَبَةُ: إِنَّ إِيلِيَّا يَنْبَغِي أَنْ يَأْتِيَ أَوَّلًا؟ فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ إِيلِيَّا يَأْتِي أَوَّلًا وَيَرُدُّ كُلَّ شَيْءٍ. وَكَيْفَ هُوَ مَكْتُوبٌ عَنِ ٱبْنِ ٱلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَأَلَّمَ كَثِيرًا وَيُرْذَلَ. لَكِنْ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ إِيلِيَّا أَيْضًا قَدْ أَتَى، وَعَمِلُوا بِهِ كُلَّ مَا أَرَادُوا، كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ عَنْهُ** (الآيات ١١-١٣).

كما رأينا، يقول السفر الأخير من العهد القديم، أي سفر ملاخي، وهو النبيّ الأخير في العهد القديم: «هَأَنَذَا أُرْسِلُ إِلَيْكُمْ إِيلِيَّا ٱلنَّبِيَّ قَبْلَ مَجِيءِ يَوْمِ ٱلرَّبِّ، ٱلْيَوْمِ ٱلْعَظِيمِ وَٱلْمَخُوفِ» (٤: ٥). لذلك، كان اليهود ينتظرون مجيء إيليّا لقرون طويلة، عالمين أنّ ظهورَه سيكون نذيرًا لمجيء ملكوت الله وظهور المسيح. اعتقدَ الكتبةُ أيضًا أنّ إيليّا سيأتي أوّلًا، وأنّه عندما يأتي سيقود الناس إلى روح التوبة ويمسح المسيح لدعوته المسيانيّة. بعد أنْ رأى التلاميذ إيليّا على الجبل، تساءَلوا بفضول عن سبب إيمان الكتبة بهذه الأمور.

أكّد يسوع أنّ إيليّا قد جاءَ بالفعل. تُضيف الفقرة الموازية لهذا النصّ في متّى: «حِينَئِذٍ فَهِمَ ٱلتَّلَامِيذُ أَنَّهُ قَالَ لَهُمْ عَنْ يُوحَنَّا ٱلْمَعْمَدَانِ» (١٧: ١٣). لم يكن يوحنّا تجسدًّا لإيليّا، بل كان يخدم «بروح إيليا وقوّته»، كما أعلن الملاك الذي تنبأ عن ولادته (لوقا ١: ١٧). وهكذا، جاء يوحنّا قبل يسوع، كما سيأتي إيليّا قبل المسيح. كانت مَهمّة يوحنّا توجيه الناس إلى التوبة من خطاياهم، وهكذا يُتمّم مَهمّة إيليّا. أخيرًا، يوحنّا المعمدان هو الذي مسح يسوع في نهر الأردن، وهكذا بدأت خدمة يسوع العلنيّة بصفته المسيح. في الواقع، لقد تحقّقت كلّ التوقّعات الثلاثة المنسوبة إلى إيليّا في خدمة يوحنّا المعمدان النبويّة. لقد مهّد الطريق ليسوع المُخَلِّص وابن الله.

ماذا قصدَ يسوع بتصريحه المُبهَم: «وَكَيْفَ هُوَ مَكْتُوبٌ عَنِ ٱبْنِ ٱلْإِنْسَانِ

أَنْ يَتَأَلَّمَ كَثِيرًا وَيُرْذَلَ؟» لاحظ أنّه تابعَ وقال: «لَكِنْ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ إِيلِيَّا أَيْضًا قَدْ أَتَى، وَعَمِلُوا بِهِ كُلَّ مَا أَرَادُوا، كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ عَنْهُ». يبدو أنّ يسوع كان يقول لتلاميذه إنّه كما رُفض يوحنّا المعمدان وفي النهاية قُتل، هكذا أيضًا يجب أنْ يُرفضَ ويُقتلَ كما تنبّأ عنه الأنبياء. نجد هنا أيضًا تذكيرًا آخرَ، بأنّ الربّ المجيد الذي رآه التلاميذ على الجبل كان على وشك أن يتحمّل ألمًا عظيمًا وضيقًا شديدًا. قبل التمجيد، سيختبر إذلالًا كبيرًا.

٢٩

معونة لعدم الإيمان

مَرْقُس ٩: ١٤-٢٩

وَلَمَّا جَاءَ إِلَى ٱلتَّلَامِيذِ رَأَى جَمْعًا كَثِيرًا حَوْلَهُمْ وَكَتَبَةً يُحَاوِرُونَهُمْ. وَلِلْوَقْتِ كلّ ٱلْجَمْعِ لَمَّا رَأَوْهُ تَحَيَّرُوا، وَرَكَضُوا وَسَلَّمُوا عَلَيْهِ. فَسَأَلَ ٱلْكَتَبَةَ: بِمَاذَا تُحَاوِرُونَهُمْ؟ فَأَجَابَ وَاحِدٌ مِنَ ٱلْجَمْعِ وَقَالَ: يَا مُعَلِّمُ، قَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكَ ٱبْنِي بِهِ رُوحٌ أَخْرَسُ، وَحَيْثُمَا أَدْرَكَهُ يُمَزِّقْهُ فَيُزْبِدُ وَيَصِرُّ بِأَسْنَانِهِ وَيَيْبَسُ. فَقُلْتُ لِتَلَامِيذِكَ أَنْ يُخْرِجُوهُ فَلَمْ يَقْدِرُوا. فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُمْ: أَيُّهَا ٱلْجِيلُ غَيْرُ ٱلْمُؤْمِنِ، إِلَى مَتَى أَكُونُ مَعَكُمْ؟ إِلَى مَتَى أَحْتَمِلُكُمْ؟ قَدِّمُوهُ إِلَيَّ. فَقَدَّمُوهُ إِلَيْهِ. فَلَمَّا رَآهُ لِلْوَقْتِ صَرَعَهُ ٱلرُّوحُ، فَوَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ يَتَمَرَّغُ وَيُزْبِدُ. فَسَأَلَ أَبَاهُ: كَمْ مِنَ ٱلزَّمَانِ مُنْذُ أَصَابَهُ هذَا؟ فَقَالَ: مُنْذُ صِبَاهُ. وَكَثِيرًا مَا أَلْقَاهُ فِي ٱلنَّارِ وَفِي ٱلْمَاءِ لِيُهْلِكَهُ. لَكِنْ إِنْ كُنْتَ تَسْتَطِيعُ شَيْئًا فَتَحَنَّنْ عَلَيْنَا وَأَعِنَّا. فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: إِنْ كُنْتَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُؤْمِنَ. كلّ شَيْءٍ مُسْتَطَاعٌ لِلْمُؤْمِنِ. فَلِلْوَقْتِ صَرَخَ أَبُو ٱلْوَلَدِ بِدُمُوعٍ وَقَالَ: أُومِنُ يَا سَيِّدُ، فَأَعِنْ عَدَمَ إِيمَانِي. فَلَمَّا رَأَى يَسُوعُ أَنَّ ٱلْجَمْعَ يَتَرَاكَضُونَ، ٱنْتَهَرَ ٱلرُّوحَ ٱلنَّجِسَ قَائِلًا لَهُ: أَيُّهَا ٱلرُّوحُ ٱلْأَخْرَسُ ٱلْأَصَمُّ، أَنَا آمُرُكَ: ٱخْرُجْ مِنْهُ وَلَا تَدْخُلْهُ أَيْضًا. فَصَرَخَ وَصَرَعَهُ شَدِيدًا وَخَرَجَ. فَصَارَ كَمَيْتٍ، حَتَّى قَالَ كَثِيرُونَ: إِنَّهُ مَاتَ. فَأَمْسَكَهُ يَسُوعُ بِيَدِهِ وَأَقَامَهُ، فَقَامَ. وَلَمَّا دَخَلَ بَيْتًا

سَأَلَهُ تَلَامِيذُهُ عَلَى ٱنْفِرَادٍ: لِمَاذَا لَمْ نَقْدِرْ نَحْنُ أَنْ نُخْرِجَهُ؟ فَقَالَ لَهُمْ: هَذَا ٱلْجِنْسُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَخْرُجَ بِشَيْءٍ إِلَّا بِٱلصَّلَاةِ وَٱلصَّوْمِ.

علينا توخّي الحذر في كيفيّة فهمِنا لتقاطع العالم الشيطانيّ مع العالم الطبيعيّ الساقط. من جهة، علينا أنْ نحرصَ جدًّا على عدم الاستخفاف بالنشاط الشيطانيّ في هذا العالم. هذا ما يميل إليه النقّاد المعاصرون، فهم يرفضون أحيانًا شهادة الكتاب المقدّس لأنّ مؤلّفيه، كما يقولون، ينسبون إلى الشيطان أشياء يُمكن تفسيرها بالعلوم الطبيعيّة من دون الرجوع إلى عالم الخوارق الطبيعة. مثلًا، المرض الذي أصابَ الصبيّ في مَرْقُس ٩: ١٤-٢٩، والذي نسبه مَرْقُس إلى روحٍ شرّير ساكن فيه، يُشبه إلى حدّ كبير نوبات الصرع الكبرى المرتبطة بأشكال من الصرع العنيفة. لذلك، يقول النقّاد إنّ هذا الصبي لم يكن فيه روحٍ شرّير، بل كان ببساطة يعاني من مرض يُعرف الآن بالصَرَع.

في الوقت نفسه، علينا ألّا نتسرّع في نَسْب الأحداث الفظيعة إلى تأثير شيطانيّ. في اليوم الذي أُغتيل فيه الرئيس الأميركي كينيدي، لاحظتُ أنّ المعلّقين في نشرات الأخبار، كانوا يستخدمون باستمرار لغةً تعبّرَ عن مدى فظاعة هذه الجريمة. سمعتُهم مرارًا وتكرارًا يصفون الشخصَ الذي اغتاله بكلمات لها علاقة بالشيطان أو إبليس أو العفاريت أو بجهنّم.

قد تكون عمليّة الاغتيال من وحي من الشيطان، لكنّنا لا نتوقّع من الشيطان أنْ يتبنّى عملًا شرّيرًا من هذا النوع. يوجد ما يكفي من الشرّ في قلب كلّ إنسان للقيام بمثل هذا العمل الشرّير بدون مساعدة من الشيطان. ومع هذا، لا يريد الناس أنْ يعترفوا أنّ البشر يمكن أن يكونوا فاسدين أو ساقطين لهذه الدرجة.

واجبُنا دائمًا قبول ما يقوله الكتاب المقدّس، وهذا يعني أنّه ليس أمامنا خيار سوى الإيمان بأنّ يسوع تعامل مع حالة من المسّ الشيطانيّ الحقيقيّ في الحادثة المذكورة في هذا المقطع، تمامًا كما فعل في وقت سابق كما ذكر مَرْقُس.

ومع ذلك، من الجيّد أن نتذكّر أنّه في كلّ الكتاب المقدّس، عندما يسيطر الشيطان على شخص ما أو يضايقه، فإنّه يستغلّ أيّ ضعف موجود فيه. لهذا السبب، ربّما كان هذا الشاب يعاني من مرض الصرع، لكن مرضه هذا تفاقم نتيجة تدخّل الشرّير ليعذّبه أكثر. على أيّ حال، يُظهر مَرْقُس مرّة أخرى من خلال هذه الرواية قوّة ابن الله على قوى الظلام والأمراض.

عجزُ التلاميذ

عندما عاد يسوع وبطرس ويعقوب ويوحنّا من جبلِ التجلّي وانضمّوا إلى التلاميذ الآخرين، **رَأَى جَمْعًا كَثِيرًا حَوْلَهُمْ وَكَتَبَةً يُحَاوِرُونَهُمْ. وَلِلْوَقْتِ كلّ ٱلْجَمْعِ لَمَّا رَأَوْهُ تَحَيَّرُوا، وَرَكَضُوا وَسَلَّمُوا عَلَيْهِ. فَسَأَلَ ٱلْكَتَبَةَ: بِمَاذَا تُحَاوِرُونَهُمْ** (الآيات ١٤ب–١٦). وجد يسوع تلاميذَه يتجادلون أو يتناقشون مع الكتبة، وكان جمعًا غفيرًا من الناس يراقبونهم. ركض الناس نحوه وألقوا التحيّة عليه بحماس عندما رأوه، لكنّ يسوع كان مُهتمًّا بأنْ يعرفَ بماذا كانوا يتناقشون. سألهم: «بماذا تتناقشون معهم؟» لكنّ سؤاله هذا لم يكن مُوجّهًا إلى تلاميذه، بل إلى الكتبة. هل كان يسوع مُستاءً من استغلال الكتبة غيابه للتجادل مع تلاميذه الذين كانت معرفتهم أقلّ من معرفته؟

لم يكن عند الكتبة وقتًا للإجابة عن سؤاله، لأنّ أحد الرجال الذي كان موجودًا بين الجموع تكلّم حالًا وقال: «**يَا مُعَلِّمُ، قَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكَ ٱبْنِي بِهِ رُوحٌ أَخْرَسُ، وَحَيْثُمَا أَدْرَكَهُ يُمَزِّقْهُ فَيُزْبِدُ وَيَصِرُّ بِأَسْنَانِهِ وَيَيْبَسُ. فَقُلْتُ لِتَلَامِيذِكَ**

أَنْ يُخْرِجُوهُ فَلَمْ يَقْدِرُوا» (الآيتان ١٧ب–١٨). كان يسوع قد شفى رجلًا أخرسَ كما رأينا سابقًا (٧: ٣١–٣٧)، لكن رغم أنّ الخَرَسَ الذي كان ذلك الرجل مُصابًا به كان مُجرّد إعاقة في النطق، فقد كان روح شرّيرة السبب وراء ذلك. إضافة إلى ذلك، أخبرَ الأب أنّ الروح الشرّيرة كان أحيانًا يُوقع الصبيّ بقوّة ويجعله يُزبد ويصرّ بأسنانه ويَيْبَس. لا شكّ أنّ هذه الأعراض تشبه أعراض نوبة صرع، ولكن ما يحدث هنا أكثر من نوبع صرع، لأنّ شهادة كاتب الإنجيل الموحى إليه واضحة– كان لهذه الظواهر علاقة بروح شرّير.

جاء الأب يبحث عن يسوع طالبًا منه أنْ يشفيَ ابنه. ولكن، بما أنّ يسوع كان لا يزال على الجبل مع بطرس ويعقوب ويوحنّا، ناشد الأب التلاميذ أنْ يساعدوه في ذلك. ولكنّهم لم يتمكّنوا من مساعدة الصبي. كانوا عاجزين عن إظهار القوّة التي كان يسوع يتمتّع بها.

رأينا سابقًا أنّ يسوع أرسل الاثني عشر في إرساليّة تجريبيّة، ويُخبرنا مَرقُس بشكلٍ واضح أنّهم «أَخْرَجُوا شَيَاطِينَ كَثِيرَةً» (٦: ١٢). إذن، لماذا لم يقدروا أنْ يساعدوا هذا الصبيّ؟ سنرى لاحقًا في القصّة، أنّ يسوع قدّم سببًا واحدًا مُحدّدًا، ولكن يبدو أنّ القوّة التي وهبها يسوع لتلاميذه في الإرساليّة التجريبيّة كانت قوّة مؤقّتة. لم يحصلوا على القوّة الحقيقيّة للخدمة حتّى يوم الخمسين. فبعد أنْ صعد يسوع إلى السماء، أرسل الروح القدس ليحلّ عليهم كما وعد (أعمال الرسل ١: ٨؛ ٢: ١–٤). بعد حلول الروح القدس عليهم، نرى أنّ مُعجزات شفاء كثيرة جرت على أيدي التلاميذ، بما في ذلك طرد الأرواح الشرّيرة.

اليوم، رغم عدم وجود يسوع معنا بطبيعته البشريّة، إلّا أنّه ليس غائبًا عنّا أبدًا بلمسة حضور روحه القدّوس، لكي تتمتّع الكنيسة بقوّة أكثر ممّا كان التلاميذ يتمتّعون بها قبل يوم الخمسين.

إيمان أب

كان ردّ فعل يسوع على هذا الخبر مثيرًا للدهشة: «**فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُمْ: أَيُّهَا ٱلْجِيلُ غَيْرُ ٱلْمُؤْمِنِ، إِلَى مَتَى أَكُونُ مَعَكُمْ؟ إِلَى مَتَى أَحْتَمِلُكُمْ؟ قَدِّمُوهُ إِلَيَّ**» (الآية ١٩). لم يكن بردّه الحزين هذا يلوم الجموع بل تلاميذه. لم يكن حزينًا لأنّهم كانوا يفتقرون إلى القوّة، بل على قلّة إيمانهم. لقد كانوا معه لوقت طويل وشهدوا الكثير من أعماله العجائبيّة. ولكن، رغم ذلك، كان ينقصهم الإيمان بحسب حُكم يسوع عليهم. من الناحية البشريّة، شعر يسوع بالحزن لأنّ تلاميذه كانوا بطيئين جدًّا في الفهم، ناهيك عن الجموع الذين رأوا خدمته وما زالوا حتّى الآن يسيرون معه دون إيمان.

رغم حزنه على تلاميذه، طلب يسوع منهم أنْ يُحضروا الصبيّ إليه. يكتب مَرْقُس: **فَلَمَّا رَآهُ لِلْوَقْتِ صَرَعَهُ ٱلرُّوحُ، فَوَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ يَتَمَرَّغُ وَيُزْبِدُ** (الآية ٢٠ب). يبدو أنّ وجودَ يسوع أدخل الروح الشرّير في نوبة من الغضب أو الخوف الشديد، وقد ظهر ذلك بإدخال الصبيّ بحلقة أخرى من حلقاته المرعبة. ثمّ **سَأَلَ أَبَاهُ: كَمْ مِنَ ٱلزَّمَانِ مُنْذُ أَصَابَهُ هَذَا؟ فَقَالَ: مُنْذُ صِبَاهُ. وَكَثِيرًا مَا أَلْقَاهُ فِي ٱلنَّارِ وَفِي ٱلْمَاءِ لِيُهْلِكَهُ. لَكِنْ إِنْ كُنْتَ تَسْتَطِيعُ شَيْئًا فَتَحَنَّنْ عَلَيْنَا وَأَعِنَّا** (الآيات ٢١–٢٢). لقد شاهد الأب معاناة ابنه هذه لفترة طويلة، حتّى إنّه رأى ابنه يُلقي بنفسه في النار أو في الماء مُعرّضًا حياته لخطر الموت، وهذا ما دفع ذلك الرجل أنْ يطلبَ من يسوع بعبارات مؤثّرة: «إِنْ كُنْتَ تَسْتَطِيعُ شَيْئًا فَتَحَنَّنْ عَلَيْنَا وَأَعِنَّا».

أجابه يسوع: «**إِنْ كُنْتَ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُؤْمِنَ. كلّ شَيْءٍ مُسْتَطَاعٌ لِلْمُؤْمِنِ**» (الآية ٢٣). غالبًا ما يتمّ نزع هذه الآية من سياقها لتُستخدم كتعويذة للسحر في عصرنا هذا المتأثّر بعمق بالغنوصيّة الجديدة. تسعى حركة العصر الجديد إلى التلاعب بالعالم الخارجيّ عن طريق التحكّم بالعقل. مثلًا، تطرح هذه الحركة فكرة بأنّه إنْ استطعنا تخيّل السلام العالميّ، فهذا كفيل بأنْ

يتحقّق السلام العالميّ. ولكن حتّى في العالم المسيحيّ، يتمسّك الكثيرون بأفكار بسيطة حول الشفاء بالإيمان، فهم يؤكّدون أنّ كلّ ما يتعيّن علينا القيام به هو أنْ نؤمن، وإنْ كان إيمانُنا قويًّا بما يكفي، فسنتمكّن من تحريك الجبال وتحقيق أيّ شيء.

التقيتُ مرّة بشابٍ مسيحيّ نشيط وتقيّ، لكنّه كان يعاني من شلل دماغيّ. أخبرني أنّ بعضًا من أصدقائه جاءَوْا إليه وقالوا: «سنشفيك من الشلل الدماغي». فوضعوا أيديهم عليه وأعلنوا شفاءَه، لكنّ هارفي استمرّ يعاني من شلل دماغيّ. بعد ذلك قالوا له: «المشكلة هي أنّه ليس لديك إيمان كافٍ، وإنْ لم يكن لديك إيمان كافٍ، فلن تُشفى أبدًا. إنْ أردتَ حقًّا أن تُشفى، عليك أنْ تُطالب بشفائك باسم يسوع. عليك أنْ تؤمنَ أنّك شُفيت فعلًا قبل أنْ تحصلَ على الشفاء». وبعد أنْ بَقِيَ دون شفاء، استنتجوا أخيرًا أنّه لا بدّ أنْ يكونَ قد ارتكب خطية شنيعة أعاقت شفاءَه. أخيرًا، أعلنوا أنّه لا بدّ أنْ يكونَ مسكونًا بروح شرّير، فخطّطوا للقيام بجلسةٍ لطرد الأرواح الشرّيرة، وحاولوا إخراج الشيطان منه، ومع ذلك لم يحصل على الشفاء. أخيرًا أتى إليّ وقال: «دكتور سبرول، هل تعتقد أنّ روحًا شرّيرًا يسكن داخلي؟» أجبته بأنّني لا أعتقد ذلك، ثمّ صلّيت طالبًا من الله أنْ يُعطيه سلامًا نحو ذلك، وأنْ يسلّم للربّ جسدَه وحياتَه، لأنّ الله يقول أحيانًا «لا» حتى لأكثر الصلوات الحارّة.

يحدث هذا النوع من الاختبارات كلّ يوم في أمريكا وحول العالم، حيث يُطلب من المُصابين بالعمى أنْ يؤمنوا أنّهم يستطيعون أنْ يروا، فيبذلون قصارى جهدهم للقيام بذلك، لكن يفتحون أعينهم بعد ذلك ولا يرون شيئًا. كما يُطلب من المشلولين أنْ يؤمنوا أنّهم قادرون على المشي، لكنّهم لا يستطيعون الوقوف من كراسيهم المتحرّكة رغم كلّ المجهود الذي يبذلونه. لذلك، وبشكل ضمنيّ، يُقال لهم إنّ المشكلة تكمن في داخلهم–أي أنّهم لا

يتمتّعون بقدر كافٍ من الإيمان. لا أحد يسأل السؤال الواضح: إنْ كان الإيمان هو كلّ ما يحتاجون إليه، فلماذا لا يتمتّع الشافي نفسه بقدرٍ كافٍ من الإيمان ليحصل الشفاء؟ ببساطة، لا يُمكن اعتبار هذا النصّ وعدًا شاملًا وعالميًّا بأنّه مهما كان الأمر الذي نؤمن به **يُمكن** أن يتحقّق أو **سوف** يتحقّق.

قبل سنوات، كان فريق أورلاندو ماجيك على وشك الوصول إلى المباريات النهائيّة لرابطة كرة السلّة الوطنيّة. بدأ الفريق المختصّ بنشر الإعلانات والدعايات للفريق في ترويج هذا الشعار عن فريق أورلاندو: «عليك أنْ تؤمن». يبدو أنّ المعنى الضمنيّ لهذا الشعار هو أنّ كلّ ما علينا فعله هو إغلاق أعيننا وتشغيل الإيمان لكي نؤمن أنّ فريق أورلاندو ماجيك سيفوز بالبطولة، وبأنّ هذا سيحدث فعلًا.

ولكن لا يُمكننا أنْ نقرّرَ بأنّنا سنؤمن بشيء لا يُمكننا في الواقع الإيمان به. يُمكننا في المقابل أنْ نقرّرَ بأنْ نتوبَ عن خطايانا. يمكننا أنْ نقرّرَ أنْ نتعلّمَ عن يسوع وأنْ ندرسَ كلمة الله. يمكنّنا أنْ نقرّر القيام بأمور كثيرة متنوّعة يُمكنها أنْ تؤثّر في سلوكنا المستقبليّ، ولكن ما لا يمكننا القيام به هو أنْ نخلقَ الإيمان بمجرّد اتّخاذ قرار بذلك. هذا هو السبب الذي يدعوني أنْ أغالط الأساليب الكرازيّة الحديثة التي تقترح أنّ كلّ ما على الإنسان القيام به هو اتّخاذ قرار، وأنّ ذلك سيولّد الإيمان في روحه. الأمر لا يسير بهذا الشكل، فالإيمان يأتي من السمع. الإيمان يأتي بكلمة الله. إنّ الله هو الذي يخلق الإيمان في القلب المُشكّك.

كان هذا الأب واقفًا في حضور يسوع، رَئِيسِ ٱلْإِيمَانِ (عبرانيين ١٢: ٢). دعاه يسوع للإيمان به. كان لديه كلّ الأسباب التي تدعوه للإيمان بأنّ يسوع قادر على مساعدة ابنه، لكنّه لم يكن متأكّدًا تمامًا من أنّ إيمانَه كان كافيًا، فصرخ بصراحة تامّة والدموعُ تملأ عينَيه: «**أُومِنُ يَا سَيِّدُ، فَأَعِنْ**

عَدَمَ إِيمَانِـي» (الآية ٢٤ب).

يتمتّع كلّ مسيحيّ يقرأ هذا الكتاب بمستوى معيّن من الإيمان المُخلّص الأصيل في قلبه. ولكن حدّة أو قوّة هذا الإيمان ليست ثابتة، بل أحيانًا تقوى وأحيانًا أخرى تضعف. إنّها تزيد وتنقص. مهما كان إيمانك قويًّا، ستمرّ لحظات في حياتنا نتعرّض فيها لهجوم من العدوّ. قد يبدو الأمر أحيانًا كما لو أنّه بالكاد تتمتّع بقليل من الإيمان فترفع صلاة تُشبه ما قاله هذا الرجل ليسوع: «أنا أؤمن، لكنّ إيماني ليس كاملًا ولا نقيًا. إيماني ليس قويًّا. أنا بحاجة الى مساعدتك. ساعدني في عدم إيماني».

عندما تهاجمُك الشكوكُ ويبدو إيمانُك ضعيفًا، اذهب إلى مصدر الإيمان، إلى كلمة الله. لم أختبرْ مرّة في حياتي كان فيها إيماني أقوى ممّا كان عليه، إلّا عندما أنغمس في كلمة الله أو في الصلاة. إنّ البقاء بالقرب من كلمة الله، والإصغاء إلى وعود فادينا، وفتح قلبي له، هي التي تقضي على عدم إيماني وتبني داخلي إيمانًا جبّارًا لا يخذلني وسط ضيقاتي.

حريّة الصبي

يكتب مَرْقُس: «**فَلَمَّا رَأَى يَسُوعُ أَنَّ ٱلْجَمْعَ يَتَرَاكَضُونَ، ٱنْتَهَرَ ٱلرُّوحَ ٱلنَّجِسَ قَائِلًا لَهُ: أَيُّهَا ٱلرُّوحُ ٱلْأَخْرَسُ ٱلْأَصَمُّ، أَنَا آمُرُكَ: ٱخْرُجْ مِنْهُ وَلَا تَدْخُلْهُ أَيْضًا»** (الآية ٢٥). يبدو أنّ يسوع كان مدفوعًا للتصرّف بسبب الحجم المتزايد للجموع؛ ويبدو أنّه كان يرغب في طرد الشيطان من دون أنْ يتمّ ملاحظته كثيرًا. وهكذا، أمر الشيطان أن يخرجَ من الصبيّ. في تلك اللحظة **صَرَخَ وَصَرَعَهُ شَدِيدًا وَخَرَجَ. فَصَارَ كَمَيْتٍ، حَتَّى قَالَ كَثِيرُونَ: إِنَّهُ مَاتَ** (الآية ٢٦). قام الشيطان بهجوم أخير على الصبيّ ثم خضع لأمرِ يسوع. ومع ذلك، بدا أنّ خروج الروح من الصبيّ قد تسبّب بموته، أو يبدو على الأقلّ أنّه أفقده وعيه.

يخبرنا مَرْقُس: **فَأَمْسَكَهُ يَسُوعُ بِيَدِهِ وَأَقَامَهُ، فَقَامَ** (الآية ٢٧). ليس من الواضح إنْ كان ما حدث هو قيامة فعليّة، ولكن، بأيّ حال، لا بدّ أنّ الصبيّ الذي تمّ إحياؤه كان بعقله الكامل ولم يعد منزعجًا من الروح الشرّير. لا أستطيع إلّا أنْ أتخيّل كيف أنّ والد هذا الصبيّ نظر إلى ابنه ثمّ نظر بعد ذلك إلى يسوع ممتلئًا بالإيمان، لأنّ يسوع فعل بالضبط ما وعد به.

في العلاقات البشريّة، يستغرق بناء الثقة بين الناس وقتًا طويلًا، أمّا تدميره فلا يحتاج إلّا لخمس دقائق فقط. مَن هو الذي تثق به في هذا العالم؟ ما مدى ثقتك بشريك حياتك وأبنائك وأصدقائك؟ عندما تُصبح قادرًا أنْ تصلَ إلى مرحلة تشارك فيها أكثر الأمور القيّمة في حياتك مع أشخاص آخرين، فقد وجدتَ شيئًا لا يُقدّر بثمن. لكن البشر يخذلوننا ويُحطّمون ثقتنا بهم. لسوء الحظّ، نحن نعكس أحيانًا اختبار عدم الثقة في علاقاتنا مع الآخرين على علاقتنا مع الله. ومع ذلك، إنّه لأمر منطقيّ وعقلانيّ أنْ نثقَ بالله دائمًا. في الواقع، لا يوجد أمر لاعقلانيّ أكثر من عدم الوثوق بالله، لأنّ الله جدير بالثقة بالكامل، فهو لم يتراجع أبدًا عن أيّ وعدٍ من وعوده، ولن يفعل ذلك أبدًا، لأنّ خيانة شعبه غير موجودة في قاموسه.

ليس من المستغرب أنْ يشعرَ التلاميذ بالفضول لمعرفة سبب عدم قدرتهم على إخراج الشيطان. لذلك، **لَمَّا دَخَلَ بَيْتًا سَأَلَهُ تَلَامِيذُهُ عَلَى ٱنْفِرَادٍ: لِمَاذَا لَمْ نَقْدِرْ نَحْنُ أَنْ نُخْرِجَهُ؟ فَقَالَ لَهُمْ: هَذَا ٱلْجِنْسُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَخْرُجَ بِشَيْءٍ إِلَّا بِٱلصَّلَاةِ وَٱلصَّوْمِ** (الآيتان ٢٨-٢٩). هنا نرى مرّة أخرى أنّنا لا نستطيع أنْ نسمحَ لقوّة إيماننا بقيادة حياتِنا. فعندما نواجه عدوًّا شرسًا، لا يكفي الاعتماد ببساطة على خزّان الإيمان في أرواحنا، بل علينا أنْ نجثوَ على رُكَبِنا ونتضرّع إلى الله. علينا أنْ نستفيدَ من كلّ وسائل النعمة التي منحها لشعبه، لأنّه يقوّي شعبه بواسطتها.

كنت أتحدّث قبل سنوات في مؤتمر للكنيسة المشيخيّة الكوريّة الكبيرة في ولاية كاليفورنيا. وصلنا إلى المؤتمر صباح يوم السبت حوالي الساعة السابعة والنصف لنجد ازدحامًا في موقف السيّارات. لم تكن السيّارات تدخل الموقف، بل كانت تغادر منه. لم أفهم لماذا كان الكثير من الناس يغادرون في الوقت الذي لم يكن المؤتمر قد بدأ بعد. أخيرًا اكتشفتُ أنّ حوالي ألف شخص كانوا يجتمعون في تلك الكنيسة لمدّة ساعة للصلاة كلّ صباح ابتداء من الساعة السادسة والنصف. قال لي قسّ الكنيسة: «لا شيء يبني الإيمان عند الناس كالصلاة». هذا هو الدرس الذي علّمه يسوع للتلاميذ بهذه المناسبة.

٣٠

مقياس العظمة

مَرْقُس ٩: ٣٠-٤١

وَخَرَجُوا مِنْ هُنَاكَ وَٱجْتَازُوا ٱلْجَلِيلَ، وَلَمْ يُرِدْ أَنْ يَعْلَمَ أَحَدٌ، لِأَنَّهُ كَانَ يُعَلِّمُ تَلَامِيذَهُ وَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ ٱبْنَ ٱلْإِنْسَانِ يُسَلَّمُ إِلَى أَيْدِي ٱلنَّاسِ فَيَقْتُلُونَهُ. وَبَعْدَ أَنْ يُقْتَلَ يَقُومُ فِي ٱلْيَوْمِ ٱلثَّالِثِ. وَأَمَّا هُمْ فَلَمْ يَفْهَمُوا ٱلْقَوْلَ، وَخَافُوا أَنْ يَسْأَلُوهُ. وَجَاءَ إِلَى كَفْرِنَاحُومَ. وَإِذْ كَانَ فِي ٱلْبَيْتِ سَأَلَهُمْ: بِمَاذَا كُنْتُمْ تَتَكَالَمُونَ فِيمَا بَيْنَكُمْ فِي ٱلطَّرِيقِ؟ فَسَكَتُوا، لِأَنَّهُمْ تَحَاجُّوا فِي ٱلطَّرِيقِ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ فِي مَنْ هُوَ أَعْظَمُ. فَجَلَسَ وَنَادَى ٱلِٱثْنَيْ عَشَرَ وَقَالَ لَهُمْ: إِذَا أَرَادَ أَحَدٌ أَنْ يَكُونَ أَوَّلًا فَيَكُونُ آخِرَ ٱلْكُلِّ وَخَادِمًا لِلْكُلِّ. فَأَخَذَ وَلَدًا وَأَقَامَهُ فِي وَسْطِهِمْ ثُمَّ ٱحْتَضَنَهُ وَقَالَ لَهُمْ: مَنْ قَبِلَ وَاحِدًا مِنْ أَوْلَادٍ مِثْلَ هَذَا بِٱسْمِي يَقْبَلُنِي، وَمَنْ قَبِلَنِي فَلَيْسَ يَقْبَلُنِي أَنَا بَلِ ٱلَّذِي أَرْسَلَنِي. فَأَجَابَهُ يُوحَنَّا قَائِلًا: يَا مُعَلِّمُ، رَأَيْنَا وَاحِدًا يُخْرِجُ شَيَاطِينَ بِٱسْمِكَ وَهُوَ لَيْسَ يَتْبَعُنَا، فَمَنَعْنَاهُ لِأَنَّهُ لَيْسَ يَتْبَعُنَا. فَقَالَ يَسُوعُ: لَا تَمْنَعُوهُ، لِأَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ يَصْنَعُ قُوَّةً بِٱسْمِي وَيَسْتَطِيعُ سَرِيعًا أَنْ يَقُولَ عَلَيَّ شَرًّا. لِأَنَّ مَنْ لَيْسَ عَلَيْنَا فَهُوَ مَعَنَا. لِأَنَّ مَنْ سَقَاكُمْ كَأْسَ مَاءٍ بِٱسْمِي لِأَنَّكُمْ لِلْمَسِيحِ، فَٱلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَهُ.

كما رأينا في الإصحاحات القليلة الماضية، وقعتْ أحداث كثيرة مُهمّة جديرة بالملاحظة بينما كان يسوع يخدم في منطقة قيصريّة فيلبّس وجبل حرمون: اعتراف بطرس (٨: ٢٩)، وإعلان يسوع الأوّل عن آلامه العتيدة وموته وقيامته (٨: ٣١)، وانتهار بطرس ليسوع وانتهار يسوع له (٨: ٣٢-٣٣)، والتجلّي (٩: ١-٨)، وشفاء صبيّ تسكنه الشياطين (٩: ١٤-٢٧). ولكن بعد كلّ هذه الأمور، **خَرَجُوا مِنْ هُنَاكَ وَٱجْتَازُوا ٱلْجَلِيلَ** (الآية ٣٠أ). بعد أنْ جعلَ يسوع وجهَه كالصوّان (إشعياء ٥٠: ٧) للذهاب إلى أورشليم، غادر المنطقة المحيطة بقيصريّة فيلبّس واتّجه نحو الجنوب، عائدًا إلى منطقة الجليل. هذه هي المرّة الأخيرة قبل القيامة التي يُخبرنا فيها مَرْقُس عن قضاء يسوع وقتًا في الجليل.

انطلق يسوع في هذه الرحلة باذلًا قصارى جهده ليبقى بعيدًا عن الأنظار: **لَمْ يُرِدْ أَنْ يَعْلَمَ أَحَدٌ، لِأَنَّهُ كَانَ يُعَلِّمُ تَلَامِيذَهُ وَيَقُولُ لَهُمْ: إِنَّ ٱبْنَ ٱلْإِنْسَانِ يُسَلَّمُ إِلَى أَيْدِي ٱلنَّاسِ فَيَقْتُلُونَهُ. وَبَعْدَ أَنْ يُقْتَلَ يَقُومُ فِي ٱلْيَوْمِ ٱلثَّالِثِ. وَأَمَّا هُمْ فَلَمْ يَفْهَمُوا ٱلْقَوْلَ، وَخَافُوا أَنْ يَسْأَلُوهُ** (الآيات ٣٠ب-٣٢). يبدو أنّ يسوع كان يسعى إلى الابتعاد عن الحشود للتركيز على تعليم تلاميذه. ماذا علّمهم؟ عاد إلى الكلام الذي صدمهم بشدّة في قيصريّة فيلبّس-كان ذاهبًا إلى أورشليم حيث سيتمّ خيانته وقتله، ولكنّه سيقوم في اليوم الثالث بعد وفاته. لكنّ التلاميذ لم يفهموا كلامه. لم تتمكّن عقولهم ببساطة أنْ تُدرك فكرة موت مسيّا إسرائيل. إضافة إلى ذلك، كانوا مُرتعبين من هذا الاحتمال، ولم يتمتّعوا بالجرأة الكافية لكي يطلبوا منه تفسيرًا أكثر.

عندما أعلن يسوع مرّة أخرى أنّه سيُسلّم إلى أيدي الناس ليُقتل، قال بحسبِ ترجمة الملك جيمس الإنجليزيّة الجديدة إنّه «يتعرّض للخيانة». استخدم يسوع صيغة المضارع ليوضّح أنّ خيانته كانت قد بدأت بالفعل. كان يقول إنّ ما سيحدث له في أورشليم سيكون تتويجًا لعمليّة كانت قد

بدأت بالفعل.

لا يُعجبني استخدام ترجمة الملك جيمس الإنجليزيّة الحديثة هنا لعبارة: يتعرّض للخيانة، مع إنّها عبارة مُناسبة نوعًا ما، لأنّه عندما وصل يسوع إلى أورشليم، كان أحد تلاميذه يخونه أمام السلطات التي كانت تسعى لقتله، ومن المحتمل أنّ ما فعله يهوذا كان قد بدأ كأفكارٍ في عقله. لكن لم يكن في فكر يسوع الأفعال التي كان سيقوم بها يهوذا أو أيّ شخصٍ آخر في هذا العالم. كان يشير إلى أنّ تسليمه بدأ في تلك اللحظة بالذات، وأنّ من يُسلّمه هو الآب. لقد أُرسل يسوع إلى أورشليم لتتميم منصبه كمسيح. ولأنّ الآب هو الذي أرسله إلى هناك، لم يكن يُعتبر ذلك خيانة، لأنّ الأقانيم في الثالوث كانوا قد تعاهدوا مُنذ الأزل أنْ يعملَ الآب على إرسال الابنَ إلى العالم لتحقيق خطّة الله لخلاص شعبه. كان لا بدّ في هذه المرحلة أنْ يُسلّم يسوع إلى أيدي الأشرار، وقد قَبِلَ يسوع أن يُخلّصَ شعبه. لقد جاء ليفعل إرادةَ الآب، ولكي يُحقّق ذلك، كان عليه أنْ يتألّم على أيدي الأشرار. لذلك كانت خطّة الآب لتسليم المسيح لتحقيق مصيره تقترب الآن من ذروتها.

العظمة عبر الخدمة

يتابع مَرْقُس ويُخبرنا: **وَجَاءَ إِلَى كَفْرِنَاحُومَ. وَإِذْ كَانَ فِي ٱلْبَيْتِ سَأَلَهُمْ: بِمَاذَا كُنْتُمْ تَتَكَالَمُونَ فِيمَا بَيْنَكُمْ فِي ٱلطَّرِيقِ؟ فَسَكَتُوا، لِأَنَّهُمْ تَحَاجُّوا فِي ٱلطَّرِيقِ بَعْضُهُمْ مَعَ بَعْضٍ فِي مَنْ هُوَ أَعْظَمُ** (الآيتان ٣٣-٣٤). دخل يسوع منزلًا بعد أنْ وصلَ إلى كفرناحوم الواقعة على الجانب الشماليّ الغربيّ لبحيرة الجليل. سأل التلاميذ هناك عن الموضوع الذي كانوا يتجادلون حوله وهم قادمون على الطريق من قيصريّة فيلبّس؛ كان يسوع قد سمعهم يتجادلون، وشعر أنّهم غير مسرورين ببعضهم البعض. ماذا أجابوه؟ لم يكن لديهم أيّ جواب، بل وقع صمتٌ مُطبَق بين التلاميذ لأنّهم شعروا بالخجل

والإحراج– وقد كان يُفترض أنْ يشعروا بذلك. كان الربّ قد أخبرهم للتوّ أنّه مُنطلق في طريقه إلى أورشليم ليتألّم ويموت، بينما هم كانوا يخوضون جدالًا صبيانيًّا حول أيّ واحد منهم سيكون الأعظم في الملكوت الآتي. مَن سيكون في المرتبة الأولى؟ مَن سيجلس عن يمين يسوع؟

لهذا السؤال الذي كان موضوع جدال بين التلاميذ علاقة بموضوع التفضيل، وهو أمر نواجهه طوال الوقت في أحاديثنا. نتجادل حول مَن كان أعظمَ مُطرب في التاريخ، ونسأل مَن كان أعظم لاعب بيسبول على الإطلاق. يبدو أنّ صفة «العظيم» ليست كافية بالنسبة إلينا؛ لذلك نريد تحديد من هو «الأفضل». ومع ذلك، تتحوّل المناقشة أحيانًا لتُصبح أكثر شخصيّة. وهذا يحدث عندما نضع أنفسَنا في النقاش، ونبدأ في تقييم مزايانا الخاصّة ونقارنها مع مزايا الآخرين.

لاحِظْ كيف أجابَ يسوع تلاميذه، رغم أنّ سؤالَه يُوحي بأنّه لم يكن يعرف بالضبط ما الذي كانوا يتحدّثون عنه، لكن يبدو أنّه كان يعرف على الأقلّ ما كان يجري بينهم، لأنّ مَرقُس يكتب: **فَجَلَسَ وَنَادَى ٱلِٱثْنَيْ عَشَرَ وَقَالَ لَهُمْ: إِذَا أَرَادَ أَحَدٌ أَنْ يَكُونَ أَوَّلًا فَيَكُونُ آخِرَ ٱلْكُلِّ وَخَادِمًا لِلْكُلِّ** (الآية ٣٥). عندما جلس يسوع، جلس بطريقة تُظهر بأنّه يعلّم تعليمًا رسميًّا. لم يكن المعلّمون اليهود في تلك الأيام يقفون للتدريس، بل كانوا يجلسون ويجلس تلاميذهم حول أقدامهم. إذن، عندما جلس يسوع ودعا تلاميذه إليه، كان يشير بذلك إلى أنّه على وشك أنْ يعلّمَهم شيئًا مهمًّا.

عندما قال يسوع: «إِذَا أَرَادَ أَحَدٌ أَنْ يَكُونَ أَوَّلًا فَيَكُونُ آخِرَ ٱلْكُلِّ وَخَادِمًا لِلْكُلِّ»، قَلَبَ قِيمَ وطموحَ جميع البشر رأسًا على عقب. يولد كلّ واحد منّا مع طموح بأن يكون لنا أهمّيّة. نريد أنْ يكونَ لحياتنا معنى. لا نريد أنْ نفشلَ في تحقيق الأهداف التي نسعى وراءَها في حياتنا. الأمر الأخير الذي نريد القيام به هو أنْ نأتي في المرتبة الأخيرة. نحن لا نرضى أنْ نكونَ

في المرتبة المتوسّطة. نحلم بالمجد والفوز والوصول إلى قِمّة النجاح، نريد الوصول إلى أعلى القمم، إلى العظمة، وأنْ نكون الأفضل. أشارَ فريدريك نيتشه إلى «إرادة الوصول إلى القوّة» وهذا ينبض في قلب كلّ إنسان. نريد أنْ نصعدَ سُلّم الشركة ونصلَ إلى أعلى قمّة فيها. لكنّ يسوع قال: «إنْ أردتَ أنْ تكونَ عظيمًا، إنْ كنتَ تطمح إلى الأهميّة، إنْ كنتَ تريد أنْ يكونَ لحياتك معنى، إنْ كنت تريد حقًّا أنْ تكونَ الأوّل في الملكوت، فعليك أنْ تختارَ بأنْ تكونَ الأخير». هذه مفارقة، لكنّ يسوع استخدم هذه الأداة البلاغيّة مرّة بعد الأخرى: إنْ أردت أنْ تحيا، فعليك أنْ تموتَ. إنْ أردتَ تخليصَ نفسِك، فعليك أنْ تُهلكها. إنْ أردتَ أنْ تكون عظيمًا، فعليك أنْ تتألّم. مَنْ ظنَّ أنّه هو الأوّل سيكون الأخير، والأخير سيكون الأوّل. والطريق إلى العظمة هو طريق الخدمة. إنْ أردْنا أنْ نكونَ عظماء، فعلينا أنْ نكون أعظمَ الخُدّام.

بالطبع، نحن لا نربط العظمة بالخدّام. تلاسنَ ونستون تشرشل مرّة مع أحد خدّامه، واستخدم كلمات مُسيئة أثناء توبيخه للخادم. أخيرًا، طفح الكيل ولم يعد الخادم قادرًا على تحمّل كلامه، فردّ على تشرشل بنبرة الصوت نفسها التي استخدمها تشرشل معه. ذُهل تشرشل وقال لخادمه: «مَن تظنّ نفسك لتتحدّث معي بهذه الطريقة؟» انحنى الخادم أمامه وقال له: «سيّد ونستون، إنّها الطريقة نفسها التي تحدّثت بها معي». فنظر تشرشل إلى الخادم وقال له: «آه، لكنّي رجل عظيم». ربّما كانت هذه أدنى مرحلة وصل إليها تشرشل في حياته، عندما استنجد بإحساسه بالعظمة ليبرّر لنفسه الإهانة التي وجّهها إلى أحد خُدّامه. لم يُدرك تشرشل في تلك اللحظة أنّ العظمةَ هي في الخدمة.

في علم اللاهوت، نُميّز بين **theology gloria** و**theology crucis**، أي بين «لاهوت المجد» و«لاهوت الصليب». نريد المجدَ بعيدًا عن الصليب.

نريد العظمة بعيدًا عن الإذلال. لكنّ يسوع قال إنّنا لا نستطيع بلوغ المجد بهذه الطريقة. كان يعلم أنّ ما كان يُعلّمه هنا لم يكن مبدأً مُجرّدًا للحياة، بل كان يُعلّم المبدأ الذي كان يعيشه أمامَ تلاميذه كلّ يوم.

استخدمَ يسوع إيضاحًا لتوضيح فكرته: **فَأَخَذَ وَلَدًا وَأَقَامَهُ فِي وَسْطِهِمْ ثُمَّ ٱحْتَضَنَهُ وَقَالَ لَهُمْ: مَنْ قَبِلَ وَاحِدًا مِنْ أَوْلَادٍ مِثْلَ هَذَا بِٱسْمِي يَقْبَلُنِي، وَمَنْ قَبِلَنِي فَلَيْسَ يَقْبَلُنِي أَنَا بَلِ ٱلَّذِي أَرْسَلَنِي** (الآيتان ٣٦-٣٧). يُعتبر الأطفالُ رائعين ومحبوبين في معظم الثقافات الغربيّة اليوم. ولكن في العالم القديم، كان مُعدّل الوفيات مرتفعًا بحيث أنّ عددًا كبيرًا من الأطفال كانوا يموتون قبل بلوغ الخامسة من عمرهم. لذلك، لم يُعتبر الطفل الصغير مُهمًّا حتّى يبلغ سنًّا كان من المحتمل أنْ يبقى فيه على قيد الحياة ليبلغ سنّ النضج. لذلك، أخذ يسوع طفلًا صغيرًا، شخصًا لم يكن يتمتّع بكرامة عظيمة، وقال لتلاميذه: «مَنْ قَبِلَ هذا الولد بِاسمي يَقْبَلُني». بعبارة أخرى، لم يُعيّن الاثني عشر في منصب العظمة، بل عيّن ولدًا. اختار ولدًا ليكون سفيرًا له والمتحدّث الرسميّ باسمه في العالم. اختار شخصًا بلا أهميّة ولا كرامة. كان الدرسُ واضحًا– على التلاميذ ألّا يَعتَبروا أنفسَهم عظماء.

لاحِظْ أيضًا أنّ تعاليم يسوع هذه تقضي ببساطة على موقف العديد من علماء اللاهوت وحتّى المؤمنين العاديّين، الذين يقولون: «أنا أحبّ يسوع وتعاليمَه، لكنّني لا أستطيع تحمّلَ الرسلَ وتعاليمهم». لكنْ هذا لم يكن موقف يسوع، بل قال إنّنا إنْ قبلنا الذين يأتون إلينا باسمه، فإنّنا نقبَلَه. المعنى الضمنيّ هو أنّنا إنْ لم نقبل الذين يأتون باسمه، فإنّنا لا نقبله، وإنْ لم نقبَلْه، فنحن لا نقبلُ الذي أرسله، أي لا نَقْبَلُ الآب.

الوحدة وليس التفرّد

قاطعه يوحنّا في تلك اللحظة وقال له: «**يَا مُعَلِّمُ، رَأَيْنَا وَاحِدًا يُخْرِجُ**

شَيَاطِينَ بِٱسْمِكَ وَهُوَ لَيْسَ يَتْبَعُنَا، فَمَنَعْنَاهُ لِأَنَّهُ لَيْسَ يَتْبَعُنَا» (الآية ٣٨). هنا أيضًا ظهرت المشكلة نفسها مرّة أخرى. قال يوحنّا بشكل أساسيّ: «لقد منعنا أحدهم من شفاء الناس باسمك، لأنّه لم يكن جزءًا من مجموعتنا». أيًّا كان هذا الشخص الذي يقوم بطرد الأرواح الشرّيرة، مع أنّه لم يكن من الاثني عشر، فقد كان من أتباع يسوع. كانت المشكلة، من وجهة نظر يوحنّا، أنّه لم يكن من أتباع تلاميذ يسوع. لم يكن جزءًا من النادي الصغير الذي ينتمون إليه. يكشف تعليقه هذا عن روح التفرّد والتكبّر.

يُخبرنا مَرْقُس: **فَقَالَ يَسُوعُ: لَا تَمْنَعُوهُ، لِأَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ يَصْنَعُ قُوَّةً بِٱسْمِي وَيَسْتَطِيعُ سَرِيعًا أَنْ يَقُولَ عَلَيَّ شَرًّا. لِأَنَّ مَنْ لَيْسَ عَلَيْنَا فَهُوَ مَعَنَا. لِأَنَّ مَنْ سَقَاكُمْ كَأْسَ مَاءٍ بِٱسْمِي لِأَنَّكُمْ لِلْمَسِيحِ، فَٱلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُ لَا يُضِيعُ أَجْرَهُ** (الآيات ٣٩-٤١). أظهر يسوع للتلاميذ بهذه الكلمات العميقة أنّه يجب ألّا يبنوا جدرانًا بين المؤمنين، بل أنْ يدركوا وحدَتهم الأساسيّة مع كلّ من يدعو باسم المسيح.

عندما كنت في الكليّة، تعرّفت على مفكّرين عظماء تختلف تقاليدهم عن تقاليدي– كانوا علماءَ لاهوت لوثريّين عظماء، وعلماء لاهوت أنجليكانيّين عظماء، وغيرهم. عندما قرأت كُتبَهم، بدأت أكتشف أنّهم يركّزون على أشياء مُعيّنة كنت أتجاهلها في تقاليدي الخاصّة. اكتشفتُ أنّ هنالك الكثير لنتعلّمه من اللوثريّين. كانت هناك أشياء يمكن أنْ أتعلّمَها من أتباع الكنيسة الرسوليّة. بالطبع، لا أنكر وجود اختلافات مُهمّة جدًّا بيننا. لكن علينا أنْ نميّز بين الأمور المُهمّة والأمور التي هي من جوهر الإيمان المسيحيّ.

لدينا في كنيسة القدّيس أندرو، الكنيسة التي أخدم فيها، دروسًا مُستمرّة في عضويّة الكنيسة. يأتي إلى هذه الدروس عادةً بعض الأشخاص القادمين من الكنائس المعمدانيّة، وسؤالهم الكبير هو: «لماذا تعمّدون الأطفال في كنيستكم؟» من الواضح أنّ التقليد المشيخي والتقليد المعمدانيّ لا يمكن

أنْ يكونا صحيحَيْن في الوقت نفسه. فإمّا أن تكون معموديّة الأطفال أمرًا يُرضي الله أو لا يرضيه. تقليد واحد منهما صحيح والآخر خطأ. تُعتبر قضيّة مثل هذه مُهمّة، لأنّ كلا الجانبَيْن يريد بوضوح إرضاء الله، لكنّهما يختلفان بالأمر الذي يرضيه. ولكنّي، لا أعتقد أنّ هذه المسألة هي من المسائل الجوهريّة المسيحيّة. يمكننا أنْ نختلفَ في هذه المسألة وكلانا نحصل على الفداء، وكلانا نكون في ملكوت الله، وكلانا نحصل على التبرير والتبنّي في عائلة الله.

للأسف، أعرفُ أشخاصًا لا يتسامحون أبدًا مع أيّ انحراف عن لاهوتهم. وإنِ انحرف شخص ما في أيّ مرحلة، سواء كان ذلك بسبب المعموديّة أو الموسيقى أو التبرير أو التعيين السابق، أو لأسباب لا تُعدّ ولا تحصى، فلن يخلصَ هذا الشخص. هذا ليس مُجرّد حماقة بل هو خطيّة. إنّه لأمر سخيف أنْ نفترضَ بأنّ كلّ الاختلافات التي بيننا تقسمنا. على النقيض يوجد أشخاص يقولون إنّه لا يوجد اختلافات أساسيّة، ولا يهمّ ما نؤمن به طالما نحن مُخلِصون. يُنكر هذا الموقف وجود حقيقة مطلقة، وهذا أمر خطير جدًّا.

يدعونا العهد الجديد إلى تحديد الاختلافات بين القضايا الأساسيّة والمسائل غير الأساسيّة. كان على يسوع أنّ يُعلّم تلاميذَه هذه الحقيقة وأنْ يساعدهم على الإدراك بأنّ طاردَ الأرواح الشرّيرة هذا لم يكن يرتكب إثمًا بعدم اتّباعه لهم.

هنالك العديد من الأشخاص الذين لا يعبدون بالطريقة نفسها التي نعبد الله فيها، والذين لا يشاركوننا اعتراف الإيمان نفسه، والذين يُفسّرون المقاطع الكتابيّة بشكل مُختلف تمامًا، ومع ذلك هم يخدمون باسم يسوع. علينا أنْ نُقدّر ونحتضن أيّ خدمة أصيلة أينما كانت. علينا أيضًا أنْ نبتعدَ عن البدع كلّما وجدناها. ببساطة، نحن بحاجة إلى روح التمييز.

بعد سنوات قضاها التلاميذ مع يسوع، كانوا لا يزالون يفتقرون إلى التمييز؛ وهكذا كان واضحًا أنّه لم يكن أمرًا يُمكن الوصول إليه بسرعة. ومع ذلك، فإنّ المكان الأفضل لنبدأ منه هو تقدير كلّ ما يُقدّم أو يُفعل باسم يسوع. يُقدّر يسوع حتّى أولئك الذين يُقدّمون كأس ماء بارد لشخص عطشان إنْ فعلوا ذلك باسمه. هذا لا يعني أنّنا ندخل الملكوت عند تقديمنا كأس ماء لشخص ما، لكنّ المسيح يعرف ويقدّر دائمًا مَن يُكرمه. في حالة التلاميذ، كان من الضروريّ أنْ يشرحَ لهم يسوع هذه النقاط إنْ أرادوا أنْ يفهموا ما ينتظرهم في أورشليم.

٣١

مكان العذاب

مَرْقُس ٩: ٤٢-٥٠

وَمَنْ أَعْثَرَ أَحَدَ ٱلصِّغَارِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِي، فَخَيْرٌ لَهُ لَوْ طُوِّقَ عُنُقُهُ بِحَجَرِ رَحًى وَطُرِحَ فِي ٱلْبَحْرِ. وَإِنْ أَعْثَرَتْكَ يَدُكَ فَٱقْطَعْهَا. خَيْرٌ لَكَ أَنْ تَدْخُلَ ٱلْحَيَاةَ أَقْطَعَ مِنْ أَنْ تَكُونَ لَكَ يَدَانِ وَتَمْضِيَ إِلَى جَهَنَّمَ، إِلَى ٱلنَّارِ ٱلَّتِي لَا تُطْفَأُ. حَيْثُ دُودُهُمْ لَا يَمُوتُ وَٱلنَّارُ لَا تُطْفَأُ. وَإِنْ أَعْثَرَتْكَ رِجْلُكَ فَٱقْطَعْهَا. خَيْرٌ لَكَ أَنْ تَدْخُلَ ٱلْحَيَاةَ أَعْرَجَ مِنْ أَنْ تَكُونَ لَكَ رِجْلَانِ وَتُطْرَحَ فِي جَهَنَّمَ فِي ٱلنَّارِ ٱلَّتِي لَا تُطْفَأُ. حَيْثُ دُودُهُمْ لَا يَمُوتُ وَٱلنَّارُ لَا تُطْفَأُ. وَإِنْ أَعْثَرَتْكَ عَيْنُكَ فَٱقْلَعْهَا. خَيْرٌ لَكَ أَنْ تَدْخُلَ مَلَكُوتَ ٱللهِ أَعْوَرَ مِنْ أَنْ تَكُونَ لَكَ عَيْنَانِ وَتُطْرَحَ فِي جَهَنَّمِ ٱلنَّارِ. حَيْثُ دُودُهُمْ لَا يَمُوتُ وَٱلنَّارُ لَا تُطْفَأُ. لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ يُمَلَّحُ بِنَارٍ، وَكُلَّ ذَبِيحَةٍ تُمَلَّحُ بِمِلْحٍ. اَلْمِلْحُ جَيِّدٌ. وَلَكِنْ إِذَا صَارَ ٱلْمِلْحُ بِلَا مُلُوحَةٍ، فَبِمَاذَا تُصْلِحُونَهُ؟ لِيَكُنْ لَكُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ مِلْحٌ، وَسَالِمُوا بَعْضُكُمْ بَعْضًا.

من الواضح أنّه قبل أنْ يتمّ تدوين الأناجيل، كان هنالك ما يُسمى بـ**logia**، وهو تقليدٌ شفهيّ كان بين الرسل للمحافظة على أقوال وأفعال يسوع

المسيح. من الثابت أنّه بينما كان المعلّمون اليهود في زمن يسوع يُعلّمون، كان تلاميذُهم يحفظون أقوالَهم لكي يتمكّنوا لاحقًا أنْ يتذكّروها ويطبّقوها. تُشير الأدلّة كلّها إلى أنّ يسوع وتلاميذَه اتّبعوا هذا النمط، حيث كان يسوع يعلّم الاثني عشر أثناء تنقّلهم، وكانوا يحفظون كلامه. ثمّ نقلوا ما حفظوه إلى آخرين في الكنيسة الأولى، وهكذا تمّ تشكيل تقليد شفهيّ قويّ. في وقت لاحق، سجّل الرسل ورفاقهم هذا التقليد الشفويّ، مُستخدمين حرّيتهم في تحرير وتسجيل الروايات من حياة يسوع، بالترتيب الذي يُناسب قصد الأناجيل المختلفة. كان هذا هو السبب وراء احتواء الجزء الأخير من مَرْقُس ٩ على تعاليم يسوع الموجودة في سياقات مُختلفة في الأناجيل الإزائيّة الأخرى. ومع ذلك، يجب أنْ يكونَ اهتمامنا الأساسيّ في كلمات يسوع نفسها، وليس في أماكن تواجدها في الأناجيل.

يكتب مَرْقُس: «**وَمَنْ أَعْثَرَ أَحَدَ ٱلصِّغَارِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِي، فَخَيْرٌ لَهُ لَوْ طُوِّقَ عُنُقُهُ بِحَجَرِ رَحًى وَطُرِحَ فِي ٱلْبَحْرِ**» (الآية ٤٢). للوهلة الأولى، تبدو هذه الكلمات كتحذير من إساءَة معاملة الأطفال، لكن هذا غير صحيح. عندما تحدّث يسوع عن «ٱلصِّغَارِ»، كان يشير إلى المؤمنين العاديّين، أي المسيحيّين البالغين غير المتعمّقين في التعليم، ولكنّهم يرغبون في العيش بأمانة طائعين يسوع بإيمان يُشبه إيمان الأولاد. حذّر يسوع من أنّه إذا تسبّب الناس المنتفخين بالمعرفة، أو بمكانتهم في الكنيسة، في عثرة المسيحيّين البسطاء، فإنّهم بذلك يُعرّضون أنفسهم لتأديب عظيم من الربّ.

أظهرَ لهم كم أنّ هذه المسألة خطيرة في نظره، مُقدّمًا مقارنة مُرعبة –سيكون من الأفضل لشخص منتفخ أنْ يغرق في قاع البحر بتعليق حجر رحى حول عنقه، بدلًا من أن يُعثر المؤمن. كانت إسرائيل القديمة مجتمَعًا يعتمد على الزراعة، وكانت الحبوب من أهمّ المحاصيل. كانت الحبوب تُطحَن بحجر رحى لإنتاج الطحين. وكان حجر الرحى كبيرًا جدًّا

وثقيلًا، لدرجة أنّهم كانوا يستخدمون الحيوانات لجعلها تدور؛ لم يتمتّع أيّ إنسان بقوّة كافية للقيام بذلك، باستثناء شمشون الجبّار، الذي أُجبر على جرّ حجر الرحى بشكل دائريّ في سجن الفلسطينيّين (قضاة ١٦: ٢١). ومع ذلك، قال يسوع إنّ الذين يُعثرون المؤمنين هم مذنبون بارتكاب خطية أعظم، لدرجة أنّه ستكون دينونة أخفّ لو عُلّق مثل هذا الحجر الثقيل على رقبة الإنسان وأُلقيَ في البحر، وهو مكان يُوصف بالرعب والفوضى في الشعر العبريّ. أقلّ ما يُقال إنّ هذه الاستعارة كانت قويّة جدًّا، لدرجة أنّها استطاعت أنْ تنقل إليهم وجهة نظر يسوع بقوّة كبيرة.

يُلقي هذا التحذير ثقلًا عظيمًا على قادة الكنيسة؛ على الرعاة والمعلّمين وكلّ مَن هو في منصب سلطة، أنْ يحرصوا كثيرًا ألّا يعثروا المسيحيّين البسطاء في إيمانهم. للأسف، يبدو أنّ الكثيرين اليوم لا يهمّهم هذا التحذير. يأتي كلّ يوم إلى معاهدنا اللاهوتيّة وكلّياتنا المسيحيّة طلّاب مُتحمّسون للمسيحيّة في الظاهر، فقط ليجدوا أنّ إيمانَهم يتعرّض لهجوم منهجيّ يومًا بعد يوم في صفوف الدراسة. لقد مرَرْت بهذه التجربة كطالب جامعيّ، ثمّ تعرّضت مرّة أخرى للتجربة نفسها عندما ذهبت إلى معهد اللاهوت، حيث أخبَرَنا الأساتذة هناك أنّه إنْ كنّا نؤمن بكفّارة المسيح البديلة، فنحن أغبياء. لقد رأينا هجومًا منهجيًّا يُشَنّ كلّ يوم على العقيدة المستقيمة، وأنا أخشى التفكير في مستقبل هؤلاء الأساتذة والقادة الذين يحاولون تقويض إيمان المؤمنين بالمسيح.

تحذيرات من الجحيم

تابع يسوع وقدّم سلسلة من التحذيرات القويّة. قال: «**وَإِنْ أَعْثَرَتْكَ يَدُكَ فَٱقْطَعْهَا. خَيْرٌ لَكَ أَنْ تَدْخُلَ ٱلْحَيَاةَ أَقْطَعَ مِنْ أَنْ تَكُونَ لَكَ يَدَانِ وَتَمْضِيَ إِلَى جَهَنَّمَ، إِلَى ٱلنَّارِ ٱلَّتِي لَا تُطْفَأُ**» (الآية ٤٣). أوضح يسوع هنا مرّة

أخرى باستخدام أسلوب المقارنة– أنّه من الأفضل أنْ تُقطعَ يد الإنسان بدلًا من أنْ يخطئَ بها ويذهب إلى الجحيم. وبالطريقة نفسها قال: «**وَإِنْ أَعْثَرَتْكَ رِجْلُكَ فَٱقْطَعْهَا. خَيْرٌ لَكَ أَنْ تَدْخُلَ ٱلْحَيَاةَ أَعْرَجَ مِنْ أَنْ تَكُونَ لَكَ رِجْلَانِ وَتُطْرَحَ فِي جَهَنَّمَ**» (الآية ٤٥أ)، و«**إِنْ أَعْثَرَتْكَ عَيْنُكَ فَٱقْلَعْهَا. خَيْرٌ لَكَ أَنْ تَدْخُلَ مَلَكُوتَ ٱللهِ أَعْوَرَ مِنْ أَنْ تَكُونَ لَكَ عَيْنَانِ وَتُطْرَحَ فِي جَهَنَّمِ ٱلنَّارِ** (الآية ٤٧).

نحن بحاجة أنْ نفهمَ بعض الحقائق الأساسيّة لنقدّر تأثير هذه الكلمات على الأشخاص الأوائل الذين سمعوا يسوع. لقد أعلن العهد القديم أنّ تشويه الإنسان لجسده خطية خطيرة (لاويين ١٩: ٢٨). كان اليونانيّون يحتقرون كلّ ما هو جسديّ، أمّا اليهود فكانوا يُعطون قيمة عالية للجسد. في الفكر اليهوديّ، تُعتبَر اليدان والقدمان والعينان والأجزاء الأخرى من الجسم هبة من الله لنتمتّع بها في هذه الحياة؛ كانت تُعتبر مقتنيات ثمينة. ومع ذلك، قال يسوع إنّه أفضل أنْ تُقطعَ يدُ الإنسان بدلًا من الذهاب إلى الجحيم بيدٍ سليمة. من الواضح أنّ يسوع كان يقول لمستمعيه إنّ تشويه الجسد أفضل من البقاء في الجحيم إلى الأبد، وأنّ كلّ ما نعتبره ثمينًا بالنسبة إلينا لا يُقارن بملكوت الله. ببساطة، إنّ دخول الجحيم هو أسوأ كارثة يمكن أن يُصاب بها أيّ إنسان.

غالبًا ما كان المبشّرون في الأجيال السابقة يلقون عظات مُلتهبة يحذّرون فيها رعيّتهم من خطر الذهاب إلى الجحيم. لكن في القرن الحادي والعشرين، اختفت عقيدة الجحيم تقريبًا من الوعظ المسيحيّ. وإنْ حدث نقاش حولها، فغالبًا ما يُخفَّف من أهمّيّتها إلى درجة أنّ الناس لا يخافون الذهاب إلى الجحيم. قال جوناثان إدواردز، الذي كان خبيرًا في هذا الموضوع، إنّ الخطاة غير التائبين يُطمئنون أنفسَهم دائمًا أنّهم سيتملّصون من دينونة الله. هذا الأمر ناتج عن طول أناة الله التي بدلًا من أنْ تقودَ الإنسان إلى

التوبة، فهي تُنشئ عند البعض شعورًا مزيّفًا بالأمان. يُفكّرون أنه «بما أنّ الله لم يعاقبني بعد، فلا بدّ أنّ كلّ ما يُروى عن العقاب الأبديّ هو مجرّد خطّة ترهيب لا تتوافق مع الواقع».

سيتفاجأ مسيحيّون كثيرون عندما يُدركون أنّ لا أحد في الكتاب المقدّس تحدّث عن الجحيم أكثر من يسوع. رغم أنّ النظرة العامّة إلى يسوع أنّه ينبوع من المحبّة والرحمة، إلّا أنّه هو المصدر لكثير من المعلومات الكتابيّة حول عقيدة الجحيم. ليس هذا فحسب، بل تحدّث يسوع عن الجحيم أكثر ممّا تحدّث عن السماء. لا يسعني إلّا أن أخمّنَ السبب الكامن وراء ذلك، ألا وهو أنّنا بالكاد سنؤمن بما علّمه عن الجحيم لو كان صادرًا من أيّ شخص آخر. للأسف، نحن بالكاد نؤمن بهذا التعليم حتّى لو كان صادرًا من يسوع.

غالبًا ما نستخدم عبارات لها علاقة بالجحيم لنَصِفَ المآسي التي تُصيبنا على الأرض. كثيرًا ما نسمع الذين تعرّضوا للحرب يقولون: «الحرب كالجحيم». أمّا الأشخاص الذين أصابتهم البلايا يقولون أحيانًا: «كانت حياتي جحيمًا على الأرض». بالتأكيد، لا أريد أنْ أخفّف من أهوال الحرب ومعاناة أيّ إنسان، لكنّ الذين يُدلون بهذه التعليقات ليس لديهم أدنى فكرة عن حقيقة الجحيم، إذْ لا يزال الشخص الذي يتحمّل الآن أسوأ أنواع الآلام في العالم يتمتّع بقدر كبير من النعمة من لدن الله. في المقابل، إنّ الشخصَ الموجود في الجحيم قد نُزع بالكامل من رحمة الله، وهذه تجربة لا أتمنّى لأحدٍ أنْ يختبرَها.

كثيرًا ما يسألني الناس إنْ كنتُ أؤمن أنّ الجحيم بُحيرة نارٍ فعليّة، كما هي موصوفة في سفر الرؤيا (١٩: ٢٠؛ ٢٠: ١٠، ١٤، ١٥؛ ٢١: ٨). أقول لهم بالعادة إنّي أشكّ في ذلك، وأشعر دائمًا أنّهم تنفّسوا الصعداء، إلّا أنّني أعتقد أنّ شعورهم بالارتياح سابق لأوانه. يستخدمُ الكتاب المقدّس عددًا من الصور المروّعة للعقاب الأبديّ، وما بحيرة النار إلّا واحدة منها. وفي

معظم الحالات عندما نستخدم لغة رمزيّة أو مجازيّة، فإنّ الواقع الذي نقوم بوصفه يكون أشدّ وأقوى من الرمز. وهذا ينطبق على اللغة الرمزيّة التي يستخدمها الكتاب المقدّس لوصف الجحيم. بصراحة، لن أتفاجأ حين أعرف أنّ الخاطئ الموجود في الجحيم سيفعل المستحيل لاستبدال الظروف التي هو فيها ببحيرة من النار.

يسألني آخرون: «هل الجحيم مُجرّد غياب الله؟» أنا أعترف أنّ الانفصال الكامل عن الله هو أمر مُخيف. ولكن من ناحية أخرى، لا يوجد شيء يفضّله الخاطئ في الجحيم أكثر من الانفصال عن الله، فالخاطئ المُدان يكره الله ولا يريد أيّ علاقة به، وما يجعل الجحيم مكانًا فظيعًا جدًا للمُدانين هو وجود الله. إنّه موجود فيها بغضبه. مُخِيفٌ هُوَ ٱلْوُقُوعُ فِي يَدَيِ ٱللهِ ٱلْحَيِّ (عبرانيين ١٠: ٣١).

ظهرت حركة صغيرة في العالم الإنجيليّ على مدى السنوات العشرين الماضية، تسعى للقضاء على فكرة الجحيم واستبدالها بعقيدة فناء النفس. تقول هذه العقيدة إنّه عندما يتلفّظ الخاطئ غير المفديّ أنفاسَه الأخيرة، فإنه يضمحلّ أو يتلاشى من الوجود. عقابُه هو خسارة الفرح العظيم للحياة الأبديّة في محضر الله والمسيح، ولكنّه لن يعاني من أيّ عقوبة مُستمرّة بعد الموت. في رأيي، لو كانت هذه العقيدة صحيحة، لاستطاع الخطاة غير التائبين الإفلات من تمرّدهم الكونيّ ضدّ الله خلال حياتِهم على الأرض.

ما يتعارض مع وجهة النظر هذه هو الفكرة الكتابيّة القائلة بأنّه ليس للجحيم نقطة زمنيّة نهائيّة، وأنّ العقاب مُستمرّ إلى الأبد. لا بدّ لي أنْ أعترفَ أنّي أتصارع مع هذه الفكرة، لأنّي بالكاد أستطيع التفكير في أمر مروّع مثل هذا. يقشعرّ بدني عندما أسمعُ الناسَ يتساءلون: «كيف يُمكن لإلهٍ صالح أنْ يسمحَ للناس بأنْ يتعذّبوا تحت عقوبتِه إلى الأبد؟» الجواب بالطبع هو أنّ أحد الأسباب وراءَ صلاح الله، هو أنّه إله قدّوس، ولا يغضّ

الطرف عن خطية الإنسان. لذلك، بقدر ما أتصارع مع فكرة الجحيم، إنْ كلّمني الله وأخبرني أنّ مصيري هو الجحيم، فلا يحقّ لي أن أتذمّر. سأشعر طبعًا بالإحباط والخوف الشديد، لكنّي أعلم أنّه لو أرسلني الله إلى ذلك المكان، فسيكون عادلًا تمامًا. لهذا أنا مُتمسّك بالصليب لأنّه رجائي الوحيد للهروب من الغضب الآتي.

عذابات الجحيم

عندما حذّر يسوع من الجحيم، كرّر عبارةً ثلاثَ مرّات. اقتبس من إشعياء ٦٦: ٢٤ قائلًا إنّ الجحيمَ مكان «**حَيْثُ دُودُهُمْ لَا يَمُوتُ وَٱلنَّارُ لَا تُطْفَأُ**» (الآيات ٤٤، ٤٦، ٤٨). إنّها لغة رمزيّة ترسم صورةً لعذابٍ لا ينقطع، وفي الوقت نفسه لها علاقة مثيرة نتعلّم منها عن التاريخ اليهوديّ.

في إسرائيل القديمة، خلال حُكم الملكَيْن أحاز ومنسّى في مملكة يهوذا الجنوبيّة، انخرط الشعب في واحدة من أسوأ الممارسات الوثنيّة– تقديم الأطفال كذبائح للإله الوثنيّ مولك. كانت تُقدّم هذه الذبائح في وادٍ عميق جنوب أورشليم. أُطلق على هذا الوادي اسم Gehenna، وهي الترجمة الإنجليزيّة الصوتيّة لكلمة آراميّة كُتبت بصيغة يونانيّة. وقد شجب النبيّ إرميا بشدّة ممارسة تقديم الأطفال كذبائح، وأخيرًا أوقفها الملك يوشيّا. ثمّ سعى إلى تدنيس الوادي حيث كانت تُقدّم هذه الذبائح، عن طريق تحويله إلى مكبّ لنفايات المدينة، ليضمنَ ألّا تبدأ هذه الممارسة من جديد. كانت القُمامة تُنقَل من المدينة بشكل مُنتظم وتُلقى في هذا المكبّ الضخم، بما في ذلك جُثث الحيوانات وحتّى جثث المجرمين. كانوا يُحرقون تلك القُمامة لئلّا تتكدّس فيمتلئ المكبّ، وكانت النار تشتعل باستمرار مع استمرار نقل القُمامة. كانت الديدان تلتهم جثثَ الحيوانات والمُجرمين التي تُلقى في Gehenna. وهكذا، كانت الصورة في إشعياء ٦٦ لهذا المكان الرهيب.

أخيرًا، أصبح اليهود يستخدمون كلمة Gehenna مجازيًّا للإشارة إلى مكان العقاب الأخير.

علينا أنْ نفهمَ بأنّ هذه الاستعارات هي إشارة إلى الألم الجسديّ. لا يُعلّم الكتاب المقدّس عن قيامة أجساد القدّيسين فحسب، بل عن قيامة أجساد الهالكين، لكي يكونوا قادرين على قبول عقابهم الأبديّ في الجحيم في حالة جسديّة. في الجحيم، لا يموت الدودُ، لأنّ الجسد لا يفنى أبدًا، والنار لا تُطفأ هناك، أي أنّ العذاب مُستمرّ. الجحيم، إذن، هو مكان حيث العذاب يُحرِق بدون توقّف.

أوضحَ يسوع، باستخدام هذه الصور المروّعة، أنّ الجحيم مكانٌ رهيب. حقًّا، من الأفضل بكثير أنْ تُقطعَ يدُ الإنسان أو قدمُه، أو أنْ تُقتلعَ عينُه، بدلًا من الذهاب إلى ذلك المكان، لأنّه لا يوجد مسكن أسوأ من مسكن الهلاك. وبالطبع، لا يوجد مسكن مُبارك وأروع من مسكن المفديّين، ملكوت الله.

هل سألتَ نفسَك يومًا أين ستكون بعد مئة عام من الآن؟ ستكون في مكان ما وستكون صاحيًا واعيًا، إمّا بين الهالكين أو في حالة من السعادة الأبديّة التي لا تنتهي أبدًا، حيث ستتمتّع عيناك إلى الأبد برؤية خلّابة لجمال المسيح. وإنْ تطلّب ذلك أنْ تفقد يدَك أو قدمَك أو عينَك لضمان ذهابك إلى هناك، فإن هذه المقايضة تستحقّ العناء عدّة مرّات.

٣٢

الزواج والطلاق

مَرْقُس ١٠: ١-١٢

وَقَامَ مِنْ هُنَاكَ وَجَاءَ إِلَى تُخُومِ ٱلْيَهُودِيَّةِ مِنْ عَبْرِ ٱلْأُرْدُنِّ. فَٱجْتَمَعَ إِلَيْهِ جُمُوعٌ أَيْضًا، وَكَعَادَتِهِ كَانَ أَيْضًا يُعَلِّمُهُمْ. فَتَقَدَّمَ ٱلْفَرِّيسِيُّونَ وَسَأَلُوهُ: هَلْ يَحِلُّ لِلرَّجُلِ أَنْ يُطَلِّقَ ٱمْرَأَتَهُ؟ لِيُجَرِّبُوهُ. فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُمْ: بِمَاذَا أَوْصَاكُمْ مُوسَى؟ فَقَالُوا: مُوسَى أَذِنَ أَنْ يُكْتَبَ كِتَابُ طَلَاقٍ، فَتُطَلَّقُ. فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: مِنْ أَجْلِ قَسَاوَةِ قُلُوبِكُمْ كَتَبَ لَكُمْ هَذِهِ ٱلْوَصِيَّةَ، وَلَكِنْ مِنْ بَدْءِ ٱلْخَلِيقَةِ، ذَكَرًا وَأُنْثَى خَلَقَهُمَا ٱللهُ. مِنْ أَجْلِ هَذَا يَتْرُكُ ٱلرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِٱمْرَأَتِهِ، وَيَكُونُ ٱلِٱثْنَانِ جَسَدًا وَاحِدًا. إِذًا لَيْسَا بَعْدُ ٱثْنَيْنِ بَلْ جَسَدٌ وَاحِدٌ. فَٱلَّذِي جَمَعَهُ ٱللهُ لَا يُفَرِّقْهُ إِنْسَانٌ. ثُمَّ فِي ٱلْبَيْتِ سَأَلَهُ تَلَامِيذُهُ أَيْضًا عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ لَهُمْ: مَنْ طَلَّقَ ٱمْرَأَتَهُ وَتَزَوَّجَ بِأُخْرَى يَزْنِي عَلَيْهَا. وَإِنْ طَلَّقَتِ ٱمْرَأَةٌ زَوْجَهَا وَتَزَوَّجَتْ بِآخَرَ تَزْنِي.

كتب عالم الاجتماع في جامعة هارفارد بيتريم سوروكين (Pitirim Sorokin) في منتصف القرن العشرين كتابًا، مُنذرًا بتفكّك وشيك للثقافة الأمريكية وحضارتها. الأمر الرئيس الذي انشغل فيه كتاب سوروكين،

هو الانتشار السريع للطلاق وتفكّك الأسرة الأمريكية في الأعوام الممتدّة من ١٩١٠ إلى ١٩٤٨. أشار إلى أنّ ١٠ بالمئة من الزيجات الأمريكية انتهت في عام ١٩١٠ بالطلاق، وارتفعت هذه النسبة لتصل إلى ٢٥ بالمئة في عام ١٩٤٨. قال سوروكين كمؤرّخٍ للثقافة، إنّه لا يمكن لأيّ حضارة أنْ تدومَ لفترة طويلة بعد أنْ يتفكّكَ ربع زيجاتها.

ازداد هذا الوضع سوءًا بالتأكيد منذ أنْ كتب سوروكين كتابَه، وقد وصل معدّل الطلاق في أمريكا اليوم إلى أكثر من ٥٠ بالمئة. إنّها نسبة مُرتفعة جدًّا لدرجة أنّه لأوّل مرّة في التاريخ الأميركيّ، وحتّى في التاريخ الغربيّ، يرفض عدد كبير من الشباب بشكل قاطع الدخول في مؤسّسة الزواج، ويختارون المساكنة، بدون اللجوء إلى عقد زواج يوحّد بين الزوجَيْن. أصبحت المساكنة الآن أمرًا شائعًا، ولا توجد عقوبات من المجتمع ضدّ هذه الممارسة. إنّها بالطبع مسألة تطالُ المؤمنين، الأمر الذي لا ينبغي أنْ يكونَ هكذا. عندما يختار الرجال والنساء المسيحيّون المساكنة خارج إطار مؤسّسة الزواج، فإنّهم بذلك يرتكبون خطية فادحة وشنيعة ضدّ الله، وهو أمر لا يجب أنْ يُسمَع به حتّى في المجتمع المسيحيّ على الإطلاق. كمسيحيّين، نحن مدعوّون لأخذ تعليماتنا من كلمة الله، وليس من الثقافة المحيطة بنا. نحن مدعوّون للسلوك بطريقة مُختلفة.

رغم أنّ اتّساع انتشار الطلاق بدأ يحدث فقط في القرن الماضي، فإنّه كان دائمًا موضع جدال حامٍ على مرّ العصور، كما نرى في الآيات القليلة الأولى من مَرْقُس ١٠. كان الفرّيسيّون يبحثون عن فرصةٍ ليوقعوا بيسوع، فاستخدموا موضوعَ الطلاق لامتحانه.

الفرّيسيّون ينصبون فخًّا

تابع يسوع سيره نحو أورشليم، حيث كان يَعْلَم أنّه سيتعرّض للخيانة

والقتل. يُخبرنا مَرْقُس أنّه **قَامَ مِنْ هُنَاكَ وَجَاءَ إِلَى تُخُومِ ٱلْيَهُودِيَّةِ مِنْ عَبْرِ ٱلْأُرْدُنِّ** (الآية ١أ). غادر بلدة كفرناحوم (٩: ٣٣) الواقعة على ضفاف بحيرة طبرية واتّجه نحو الجنوب، ودخل اليهوديّة الواقعة «عَبْرِ ٱلْأُرْدُنِّ،» أي على الجانب الشرقيّ حيث كان يوحنّا المعمدان يعمّد. حتّى هناك في اليهوديّة، **ٱجْتَمَعَ إِلَيْهِ جُمُوعٌ أَيْضًا، وَكَعَادَتِهِ كَانَ أَيْضًا يُعَلِّمُهُمْ** (الآية ١ب). لم تكن شُهرة يسوع محصورة في الجليل، حيث جذب إليه، كما رأينا سابقًا، حشودًا كبيرة من الناس لدرجة أنّه بالكاد كان يستطيع التحرّك. كان معروفًا حتى في اليهوديّة الواقعة في أقصى الجنوب، وكان الناس يتبعونه.

بانتقاله إلى اليهوديّة، أيْ إلى المنطقة المحيطة بأورشليم، اقتربَ يسوع من مركز معارضة الفرّيسيّين لخدمته. كان الكتبةُ والفرّيسيّون قد انتقلوا شمالًا لمراقبته بسبب وصول أخبار خدمته إلى أورشليم (٣: ٢٢؛ ٧: ١)، وهكذا كانوا مُستعدّين له عندما وصل إلى مضمار منطقتهم. يقول مَرْقُس: **فَتَقَدَّمَ ٱلْفَرِّيسِيُّونَ وَسَأَلُوهُ: هَلْ يَحِلُّ لِلرَّجُلِ أَنْ يُطَلِّقَ ٱمْرَأَتَهُ؟ لِيُجَرِّبُوهُ** (الآية ٢). لم يأتِ الفرّيسيّون إلى يسوع سعيًا وراء معرفة رأيه حول موضوع الزواج والطلاق. يُخبرنا مَرْقُس أنّهم طرحوا عليه هذا السؤال ليُجرّبوه أو بالأحرى، ليوقعوا به. لكن ما كانت طبيعة الفخّ الذي نصبوه؟

أمامي احتمالَين. إنْ أجابَ يسوع من جهة، أنّه لا يجوز أنْ يُطلِّق رجل زوجتَه ويتزوّج بأخرى، فسيضع نفسه في مواجهة مباشرة مع هيرودس أنتيباس الذي كان قد فعل ذلك بالضبط، وواجهه يوحنّا المعمدان (انظر متّى ١٤: ١-١٢). سُجن يوحنّا لأنّه تكلّم ضدّ زنى وطلاق رئيس الربع، وقُتل في نهاية المطاف. وبالتالي، إنْ قال يسوع إنّه لا يجوزُ للإنسان أنْ يُطلّق ثمّ أنْ يتزوّج، فستصل رسالته هذه إلى هيرودس مباشرة. حينئذ يستطيع الفرّيسيّون أنْ يأملوا بأنْ يُصيب يسوعَ المصيرُ نفسه الذي أصاب يوحنّا المعمدان. وأعتقد أنّ هذا هو الاحتمال الأصحّ.

من جهة أخرى، ربّما كان الفرّيسيّون ينصبون له فخًّا لاهوتيًّا. ففي ذلك الوقت، كان هنالك جدل لاهوتيّ مستمرّ بين معلّمي اليهود حول الزواج والطلاق، وهو نزاع يتعلّق بتفسير شرائع العهد القديم فيما يتعلّق بالطلاق إذ نقرأ في سفر التثنية:

> إِذَا أَخَذَ رَجُلٌ ٱمْرَأَةً وَتَزَوَّجَ بِهَا، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ نِعْمَةً فِي عَيْنَيْهِ لِأَنَّهُ وَجَدَ فِيهَا عَيْبَ شَيْءٍ، وَكَتَبَ لَهَا كِتَابَ طَلَاقٍ وَدَفَعَهُ إِلَى يَدِهَا وَأَطْلَقَهَا مِنْ بَيْتِهِ، وَمَتَى خَرَجَتْ مِنْ بَيْتِهِ ذَهَبَتْ وَصَارَتْ لِرَجُلٍ آخَرَ، فَإِنْ أَبْغَضَهَا ٱلرَّجُلُ ٱلْأَخِيرُ وَكَتَبَ لَهَا كِتَابَ طَلَاقٍ وَدَفَعَهُ إِلَى يَدِهَا وَأَطْلَقَهَا مِنْ بَيْتِهِ، أَوْ إِذَا مَاتَ ٱلرَّجُلُ ٱلْأَخِيرُ ٱلَّذِي ٱتَّخَذَهَا لَهُ زَوْجَةً، لَا يَقْدِرُ زَوْجُهَا ٱلْأَوَّلُ ٱلَّذِي طَلَّقَهَا أَنْ يَعُودَ يَأْخُذُهَا لِتَصِيرَ لَهُ زَوْجَةً بَعْدَ أَنْ تَنَجَّسَتْ. لِأَنَّ ذَلِكَ رِجْسٌ لَدَى ٱلرَّبِّ. (٢٤: ١-٤أ)

وضعَ اللهُ هنا أحكامًا معيّنة تختصّ بالطلاق، ويقول إنّ مخالفَتها يُعتبر «رجس» في نظره. لكن معلّمي اليهود اختلفوا حول طبيعة «النجاسة» أو «الأمر النجس» في المرأة الذي يُمكن أنْ يستخدمَه زوجها كحجّة ليطلّقها. لا يقولُ هذا النصّ بالتحديد أنّ النجاسة هي زنى. في الواقع، يُحدّد الناموس عقوبة الزنى بشكل واضح جدًّا- القتل (لاويين ٢٠: ١٠). إن ارتكبت الزوجةُ الزنى، فلا داعي أن يُطلّقها. كان بإمكانه فقط أنْ يطلبَ رجمَها حتّى الموت. كان لا يزال حُكم الناموس هذا يُمارَس عند ولادة يسوع، وكان من الممكن أنْ يطلب يوسف أنْ تُرجمَ مريم بالحجارة، لأنّها حَمِلت قبل زواجهما. ولكنّه أراد أنْ يرحمَها، ففكّر أنْ يُطلّقَها بهدوء حتّى لا يرتبط اسمها بفضيحة الزنى (متّى ١: ١٨-١٩). كان الطلاق خيارًا في هذه الحالة، ولكن يبدو أنّ المقطع في سفر التثنية يُشير إلى أمر آخر.

كان معلّمو اليهود يتبعون مدرستَيْن فكريّتَيْن– فمنهم مَن كان من المحافظين، والآخرون من الليبراليين (هكذا هو الحال دائمًا عندما يتعلّق الأمر بتفسير كلمة الله). قال المحافظون التابعون لمدرسة شاماي، إنّ التبرير الوحيد للطلاق هو فعلٌ مُعيب من أعمال الخيانة الجنسيّة، وأيّ فعل آخر أقلّ من ذلك ليس سببًا كافيًا للطلاق. على الزوجَيْن أن يبقيا معًا حتّى لو كانا يعيشان حياة المرارة والبؤس. أمّا الليبراليّون التابعون لمدرسة هيليل، فقد كانت نظرتهم أوسع بكثير فيما يختصّ بالنجاسة المذكورة في سفر التثنية ٢٤. قالوا إنّها تُشير إلى أيّ شيء تفعله المرأة ويؤدّي إلى إحراج زوجِها أو إهانته، أو التسبّب بأقلّ إزعاج له. وهكذا، سمحت مدرسة هيليل بالطلاق لأيّ سبب كان. كانت وُجهة نظر مدرسة هيليل هي السائدة في زمن يسوع، وكان هذا سبب تمكّن هيرودس أنتيباس من الإفلات من طلاقه غير الشرعيّ.

إذن، ماذا كانت طبيعة فخّ الفرّيسيّين اللاهوتيّة المُحتملة؟ لو انحاز يسوع إلى المدرسة الليبراليّة، فسيُصبح الفرّيسيّون فجأة مُحافظين ويقولون إنّ يسوع يُخالف شريعة موسى. ولو انحاز إلى المحافظين، سيقولون إنّه يسير ضدّ الرأي العامّ. لم يكن أمام يسوع أيّ طريقة للفوز مهما كانت الإجابة التي كان سيقدّمها للفرّيسيّين.

يسوع يفسر سفر التثنية

بالطبع، لم يكن يسوع مُهتمًّا كثيرًا بالرأي العامّ، أو بإرضاء علماء اللاهوت أو رجال السياسة. كان طعامُه أنْ يفعلَ مشيئة الآب (يوحنّا ٤: ٣٤)، وكان مُهتمًّا بالحقّ والقداسة، لذلك **أَجَابَ وَقَالَ لَهُمْ: بِمَاذَا أَوْصَاكُمْ مُوسَى؟** (الآية ٣). كان اهتمامه الأوّل إرشاد الفرّيسيّين إلى كلمة الله. وردًّا على سؤاله **قَالُوا: مُوسَى أَذِنَ أَنْ يُكْتَبَ كِتَابُ طَلَاقٍ، فَتُطَلَّقُ** (الآية ٤).

هكذا كانت طريقة الفرّيسيّين في تفسير التعليمات الموجودة في سفر التثنية ٢٤، وقد كان هذا فهمًا ناقصًا جدًّا للنصّ، ممّا اضطرّ يسوع أن يشرح لهم كيف كان يُفترض أنْ يُفهم.

يكتب مَرْقُس: **فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: مِنْ أَجْلِ قَسَاوَةِ قُلُوبِكُمْ كَتَبَ لَكُمْ هَذِهِ ٱلْوَصِيَّةَ، وَلَكِنْ مِنْ بَدْءِ ٱلْخَلِيقَةِ، ذَكَرًا وَأُنْثَى خَلَقَهُمَا ٱللهُ. مِنْ أَجْلِ هَذَا يَتْرُكُ ٱلرَّجُلُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ وَيَلْتَصِقُ بِٱمْرَأَتِهِ، وَيَكُونُ ٱلِٱثْنَانِ جَسَدًا وَاحِدًا. إِذًا لَيْسَا بَعْدُ ٱثْنَيْنِ بَلْ جَسَدٌ وَاحِدٌ. فَٱلَّذِي جَمَعَهُ ٱللهُ لَا يُفَرِّقْهُ إِنْسَانٌ** (الآيات ٥–٩). أعلن يسوع أنّ ما قالَه موسى عن الطلاق، لم يكن وصيّة أو حتى حقًّا مشروعًا، بل هو تنازل إلهيّ بسبب قساوة قلب الإنسان. ثمّ أشار إلى مؤسّسة الزواج في سفر التكوين، مذكّرًا الفرّيسيّين بأنّ اللهَ خلق الرجل والمرأة، وأعطى كرامة للجنسَيْن، وأنّ اللهَ هو الذي أسّس الزواج بنفسِه، مقدّسًا بذلك العلاقة الزوجيّة.

ثمّ قدّم لهم خلاصته بكلام واضح وصريح: «ٱلَّذِي جَمَعَهُ ٱللهُ لَا يُفَرِّقْهُ إِنْسَانٌ».

كان هذا الإعلان بسيطًا جدًّا ومباشرًا يجعلنا نتوقّع أنْ تكونَ وجهة نظر الكنيسة المسيحيّة موحّدة بشأن الزواج والطلاق. ولكن، هل كان الأمر كذلك؟ لسوء الحظّ، يتعارك المحافظون والليبراليّون في الكنيسة اليوم حول مسألة الطلاق وما قصده يسوع بالضبط عندما قال هذه الكلمات.

لا يسمحُ العديد من علماء اللاهوت والكنائس اليوم بالطلاق لأيّ سبب من الأسباب. غالبًا ما يستشهدون بهذا المقطع، مُعلنين أنّ يسوع منع الطلاق، مُبطلًا تنازل موسى بسبب قساوة قلب الإنسان. يقولون إنّ الزواج أبديّ، لأنّ يسوع أعاد النظرة الأصليّة للزواج، وألغى جميع أحكام الطلاق.

سيكون هذا فهمًا سليمًا لكلمات يسوع لولا وجود نصّ موازٍ له في إنجيل متّى، حيث نجدُ نُسخة موسّعة عنه من الإجابة التي قدّمها يسوع. بحسب متّى، قال للفرّيسيّين: «إِنَّ مُوسَى مِنْ أَجْلِ قَسَاوَةِ قُلُوبِكُمْ أَذِنَ لَكُمْ أَنْ تُطَلِّقُوا نِسَاءَكُمْ. وَلَكِنْ مِنَ ٱلْبَدْءِ لَمْ يَكُنْ هَكَذَا. وَأَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَنْ طَلَّقَ ٱمْرَأَتَهُ إِلَّا بِسَبَبِ ٱلزِّنَا وَتَزَوَّجَ بِأُخْرَى يَزْنِي، وَٱلَّذِي يَتَزَوَّجُ بِمُطَلَّقَةٍ يَزْنِي» (١٩: ٨-٩). نطقَ يسوع هنا بما يُعرف بـ«البند الاستثنائيّ» الذي أجاز بموجبه الطلاق مُحدّدًا الأسباب التي تُجيز بذلك. قال إنّ السببَ الوحيد الذي يُجيز الطلاق هو «الزنى». كان هذا تفسير يسوع «للنجاسة» المذكورة في تثنية ٢٤.

وهكذا، سمحَتْ مُعظم الكنائس عبر التاريخ بالطلاق في حال وجود فجور جنسيّ، وقد حدّدت العديد من هذه الكنائس الفجور الجنسيّ وحصرته بالزنى والخيانة الزوجيّة. السبب الوحيد الآخر الذي يُجيز الطلاق بحسب التعاليم الكتابيّة هو هجرُ غير المسيحيّ للمسيحيّ (١كورنثوس ٧: ١٥).

ما الذي قصده يسوع بالضبط من كلمة «زنى»؟ يصعب الإجابة عن هذا السؤال، فالكلمة اليونانيّة التي تُرجمت إلى «زنى» هي **porneia**، والتي منها أُخذت الكلمة الإنجليزيّة **pornography** أي المواد الإباحيّة. ينقسم العلماء حول المعنى الدقيق لهذا المصطلح. يعتقدُ كثيرون أنّ **porneia** هي كلمة مرادفة للزنى، ويقول علماء آخرون إنّها تشمل أكثر من الزنى ويجب فهمها على أنّها تشير إلى مجموعة واسعة من الخطايا الجنسيّة.

إذن، إنْ زنى الرجل واكتشفت زوجته ذلك، ثمّ تاب الزوج بدموع وطلب الغفران، فهل الزوجة مُلزَمة على البقاء في رباط الزواج؟ سأتجرّأ وأقول إنّ ٩٩ بالمئة من المسيحيّين الإنجيليّين يجيبون على هذا السؤال بـ: «نعم، لا يجب على الزوجة أن تُطلّق زوجها». ولكن أنا أعترض. برأيي أنّه إنْ تابَ الزوج، فإنّ الزوجة مُلزمة أنْ تقبلَه كأخ لها في المسيح، ولكن ليس كزوجها، لأنّ الله أعطى حلًّا بإنهاء الزواج إنْ كانت الثقة مُزعزعة في

صلب رباط الزواج وأساسه. تمارسُ الكنيسة والأفراد المؤمنون أحيانًا ضغطًا كبيرًا على الأزواج الذين يمرّون بأزمة في زيجاتهم، بالقول لهم إنّه لا يحقّ لهم الطلاق. أعتقد أنّ هذا خطأ، لأنّه لا يحقّ لنا أنْ ننتزعَ الحقّ الذي وفّره يسوع لشعبه. ولكنّنا نقول أحيانًا: «حسنًا، يُسمح لك بالطلاق، لكن أعتقد أنّه من الأفضل لك ألّا تفعل ذلك». في هذه الحالة، نحن نضغط على الزوجَيْن بطريقة ماكرة عن طريق إلقاء الذنب عليهما، رغم أنّ الله سمح لهما بالطلاق.

بالطبع، نحن نعاني اليوم من مشكلة مضادّة– فالناس في كنائسنا يستغلّون الحريّة الكبيرة المُتاحة لهم ويلجؤون إلى الطلاق لأسباب لا يعترف بها الكتاب المقدّس. لقد سمح لنا الله بإنهاء الزواج عندما يقع فجور جنسيّ، وما هذا إلّا حقّ ممنوح بسبب خطية الإنسان، لكن لا يجوز أن يُعطى هذا الحقّ بالطلاق لطلاق بلا سبب، أو طلاق بسبب عدم انسجام أو توافق الزوجَيْن.

الحاجة إلى الحكمة والتحنّن

ليس سهلًا تطبيق تعليم يسوع هذا في حياة الكنيسة. أتمنى لو يكون في كلّ كنيسة مجموعة من الخبراء في الأخلاق الكتابيّة، لدراسة كلّ حالة بمُفردها وإصدار حكم عليها، لأنّني لم أرَ قطّ حالتَيْن متشابهتَيْن. يحتاج قادة الكنيسة إلى حكمة سليمان لتطبيق هذه المبادئ على مواقف الحياة الواقعيّة.

وفوق كلّ هذا، علينا أنْ نبذلَ ما في وسعنا في إعداد أبنائنا ليكونوا أزواجًا صالحين، ولتقوية الزيجات الحاليّة. أصبحنا بعيدين جدًّا عمّا يُسمّيه الله بالقداسة، الهبة التي قدّمها بيده في صُلب أساس المجتمع البشريّ. رغم أنّ العالم بأسره يبتعد عن مؤسّسة الزواج، فلنسمح لكلّ مسيحيّ أنْ يقرّرَ

الالتزام بأواصر الزواج المقدّسة.

أخيرًا، يجب ألّا ننسى الدور الحيويّ للإنجيل في هذه المسائل. على أيّ شخص مرّ بطلاق غير شرعيّ، أو سقط في خطية جنسيّة ضدّ شريك حياته، أنْ يعرفَ أنّ هذه ليست من الخطايا التي لا تُغتفر. هذه الخطايا هي التي أرسلتِ المسيحَ ليُصلبَ على الصليب لكي تُغفر خطايا كلّ الذين يؤمنون به. إنّ ملكوتَ الله ليس مُغلقًا أمام المُطلّقين، وعلينا جميعًا في الكنيسة أنْ نُسرعَ في مشاركة هذه الأخبار السارّة مع الذين فشلت زيجاتهم أو تعرّضوا للأذى.

٣٣

مفتاحُ الحياة الأبديّة

مَرْقُس ١٠: ١٣-٢٢

وَقَدَّمُوا إِلَيْهِ أَوْلَادًا لِكَيْ يَلْمِسَهُمْ. وَأَمَّا ٱلتَّلَامِيذُ فَٱنْتَهَرُوا ٱلَّذِينَ قَدَّمُوهُمْ. فَلَمَّا رَأَى يَسُوعُ ذَلِكَ ٱغْتَاظَ وَقَالَ لَهُمْ: دَعُوا ٱلْأَوْلَادَ يَأْتُونَ إِلَيَّ وَلَا تَمْنَعُوهُمْ، لِأَنَّ لِمِثْلِ هَؤُلَاءِ مَلَكُوتَ ٱللهِ. اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: مَنْ لَا يَقْبَلُ مَلَكُوتَ ٱللهِ مِثْلَ وَلَدٍ فَلَنْ يَدْخُلَهُ. فَٱحْتَضَنَهُمْ وَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَيْهِمْ وَبَارَكَهُمْ. وَفِيمَا هُوَ خَارِجٌ إِلَى ٱلطَّرِيقِ، رَكَضَ وَاحِدٌ وَجَثَا لَهُ وَسَأَلَهُ: أَيُّهَا ٱلْمُعَلِّمُ ٱلصَّالِحُ، مَاذَا أَعْمَلُ لِأَرِثَ ٱلْحَيَاةَ ٱلْأَبَدِيَّةَ؟ فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: لِمَاذَا تَدْعُونِي صَالِحًا؟ لَيْسَ أَحَدٌ صَالِحًا إِلَّا وَاحِدٌ وَهُوَ ٱللهُ. أَنْتَ تَعْرِفُ ٱلْوَصَايَا: لَا تَزْنِ. لَا تَقْتُلْ. لَا تَسْرِقْ. لَا تَشْهَدْ بِٱلزُّورِ. لَا تَسْلُبْ. أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ. فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُ: يَا مُعَلِّمُ، هَذِهِ كُلُّهَا حَفِظْتُهَا مُنْذُ حَدَاثَتِي. فَنَظَرَ إِلَيْهِ يَسُوعُ وَأَحَبَّهُ، وَقَالَ لَهُ: يُعْوِزُكَ شَيْءٌ وَاحِدٌ: اِذْهَبْ بِعْ كُلَّ مَا لَكَ وَأَعْطِ ٱلْفُقَرَاءَ، فَيَكُونَ لَكَ كَنْزٌ فِي ٱلسَّمَاءِ، وَتَعَالَ ٱتْبَعْنِي حَامِلًا ٱلصَّلِيبَ. فَٱغْتَمَّ عَلَى ٱلْقَوْلِ وَمَضَى حَزِينًا، لِأَنَّهُ كَانَ ذَا أَمْوَالٍ كَثِيرَةٍ.

زُيّنت حديقة الإصلاح في مدينة جنيف القديمة بسويسرا بجدار الإصلاح

الذي يضمّ تماثيل ونقوشًا للعديد من كبار المُصلحين. وقد نُحِت على جانبَيْ التماثيل الموجودة في وسط الحائط شعارُ الإصلاح البروتستانتيّ في القرن السادس عشر: **Post Tenebras Lux**، والذي يعني «بعد الظلام نور». تمّ تُبنِّي هذا الشعار لأنّه يعبّر بشكل رائع عمّا استطاع المصلحون تحقيقه- استعادة الإنجيل بنقائِه بعد أنْ أخفاه تراكمُ التقاليد البشريّة في الكنيسة. كتحليل أخير، لم يكن الإصلاح مُتعلّقًا بسلطة الكنيسة أو العبادة أو مريم العذراء، بل كان الأمر يتعلّق بالإنجيل، وتحديدًا بعقيدة التبرير بالإيمان وحده، العقيدة التي وصفها مارتن لوثر بأنّ الكنيسة إمّا تثبت عليها، أو تسقط.

هذه العقيدة تجيبُ عن السؤال التالي: «ماذا ينبغي أنْ نفعلَ لنخلُص؟» إنّه بالطبع سؤال قديم، ونرى أحدَهم يطرحه مرّة أخرى في المقطع الذي نتأمّل فيه في هذا الإصحاح، حيث نقرأ عن تفاعل يسوع مع الرجل الذي كثيرًا ما يُوصف بأنّه الحاكم الشابّ الغنيّ. ولكن حتّى قبل أنْ يتفاعلَ يسوعُ معه، نراه يتطرّق إلى الطريقة التي نخلُص بها، بينما كان يستقبلُ عددًا من الأولاد ويباركهم.

يسوع يستقبل الأولاد الصغار

يُخبرنا مَرْقُس أنّهم **قَدَّمُوا إِلَيْهِ أَوْلَادًا لِكَيْ يَلْمِسَهُمْ. وَأَمَّا ٱلتَّلَامِيذُ فَٱنْتَهَرُوا ٱلَّذِينَ قَدَّمُوهُمْ** (الآية ١٣). رأينا كثيرًا في مَرْقُس أشخاصًا يتوسّلون لمسَ يسوع، أو يبحثون باجتهادٍ عن طريقةٍ للمسه. ذات يوم، أحضرَ بعض الأهالي أبناءَهم إليه لكي يلمسَهم. لا نعرفُ إنْ كان لهؤلاء الأولاد أيّ احتياجات خاصّة كمشاكل طبيّة يحتاجون إلى الشفاء منها. يبدو أنّهم كانوا أصحّاء وأنّ أهلهم أرادوا ببساطة أنْ يلمسَهم يسوع لينالوا بركته.

لم يُسرّ تلاميذ يسوع بما فعله هؤلاء الأهالي، لذلك سعَوْا لمنعهم من

الوصول إلى يسوع. ربّما أرادوا ببساطة حمايةَ وقتِ يسوع، لكي يتمكّن من خدمة الأشخاص الأكثر احتياجًا. استاءَوْا كثيرًا لدرجة أنّهم انتهروا الأهالي لمحاولتهم فرْض أنفسهم على يسوع بهذا الشكل الطائش.

لكن مَرْقُس يكتب: **فَلَمَّا رَأَى يَسُوعُ ذَلِكَ ٱغْتَاظَ وَقَالَ لَهُمْ: دَعُوا ٱلْأَوْلَادَ يَأْتُونَ إِلَيَّ وَلَا تَمْنَعُوهُمْ، لِأَنَّ لِمِثْلِ هَؤُلَاءِ مَلَكُوتَ ٱللهِ. اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: مَنْ لَا يَقْبَلُ مَلَكُوتَ ٱللهِ مِثْلَ وَلَدٍ فَلَنْ يَدْخُلَهُ. فَٱحْتَضَنَهُمْ وَوَضَعَ يَدَيْهِ عَلَيْهِمْ وَبَارَكَهُمْ** (الآيات ١٤-١٦). اكتشفَ يسوع بطريقة ما، أنّ التلاميذ كانوا يمنعون الناس من الوصول إليه، «فلم يُسرّ بذلك». الكلمة اليونانيّة التي يستخدمها مَرْقُس هنا تعني «الغيظ»، وهي حالة من الغضب الناتجة عن ظُلمٍ. فأمر تلاميذه بلهجة قويّة ألّا يمنعوا الأولاد من المجيء إليه، لأنّ «لمثل هؤلاء ملكوت الله».

ماذا قصدَ يسوع بهذه العبارة الغريبة؟ هل كان يقول إنّ جميع الأولاد مُخلَّصون، أم أنّ الأولاد ينجذبون بشكل طبيعيّ أكثر من غيرهم إلى أمورِ الله؟ لا، فقد أعطى يسوع بنفسه أفضلَ دليل على المعنى المقصود من كلامه حين قال: «اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: مَنْ لَا يَقْبَلُ مَلَكُوتَ ٱللهِ مِثْلَ وَلَدٍ فَلَنْ يَدْخُلَهُ». يعتقدُ معظم المفسّرين الإنجيليّين أنّ يسوع كان يقول إنّه إنْ أردْنا أن نَخلُصَ، فيجب أنْ يكونَ إيمانُنا به بسيطًا يُشبه إيمان الأولاد. لذلك، استقبل يسوع الأولادَ وباركهم.

يسوع ينصح حاكمًا لليهود

ثمّ كتب مَرْقُس: «**وَفِيمَا هُوَ خَارِجٌ إِلَى ٱلطَّرِيقِ، رَكَضَ وَاحِدٌ وَجَثَا لَهُ وَسَأَلَهُ: أَيُّهَا ٱلْمُعَلِّمُ ٱلصَّالِحُ، مَاذَا أَعْمَلُ لِأَرِثَ ٱلْحَيَاةَ ٱلْأَبَدِيَّةَ؟**» (الآية ١٧). من الواضح أنّ هذا الرجل لم يكن متفرّجًا غير مُهتمّ بإحدى عظات يسوع العامّة. كان هذا السؤال يُلهبُ روحه: «ماذا ينبغي أنْ أفعلَ لأربحَ الحياةَ

الأبديّة؟» لذلك أتى إلى يسوع بلهفة. جاء طوعًا، وسقط باحترام على ركبتَيْه أمام يسوع. ثمّ، عندما تحدّث إلى ربّنا، استخدم شكلًا غير اعتياديّ من أشكال المخاطبة، ولكن من الواضح أنّه كان يهدف إلى إظهار تقديره واحترامه له: «أيّها المعلّم الصالح».

كان يُنظرُ إلى معلّمي الدين في المجتمع اليهوديّ على أنّهم رجال مُميّزون ومُحترمون. كانت عادة اليهود أنّه كلّما دخل أبٌ، بطريرك عائلته، إلى غرفة، كان أبناؤه يقفون تعبيرًا عن احترامهم له. أمّا احترام اليهود لمنصب معلّم الدين فقد كان أكبر بكثير، لأنّه عندما كان يدخل إلى غرفة، كان يقف له حتّى والده احترامًا له بسبب منصبه الرفيع. يُفسّر هذا الموقف الحضاريّ الاحترامَ الكبير الذي أظهره الشابّ الغنيّ ليسوع.

طرحَ هذا الرجل سؤالًا على يسوع: «أَيُّهَا ٱلْمُعَلِّمُ ٱلصَّالِحُ، مَاذَا أَعْمَلُ لِأَرِثَ ٱلْحَيَاةَ ٱلْأَبَدِيَّةَ؟» كان يمتلك ثروةً وسلطةً رغم أنّه كان لا يزال شابًّا، لكنّه كان يعلم أنّ ما ينقصه هو الخلاص. ومع ذلك، فقد جاء بافتراض نموذجيّ أنّ عليه أنْ يفعلَ شيئًا ما، وبأنّ عليه اكتساب الحياة الأبديّة. يبدو أنّه كان قد أُصيب بناموسيّة الكتبة والفرّيسيّين من هامة رأسِه إلى قدمَيْه.

أجابه يسوع إجابة مثيرةً للاهتمام. قال له: «**لِمَاذَا تَدْعُونِي صَالِحًا؟ لَيْسَ أَحَدٌ صَالِحًا إِلَّا وَاحِدٌ وَهُوَ ٱللهُ**» (الآية ١٨). أشار بعض نُقّاد الإيمان المسيحيّ إلى هذا النصّ كدليل واضح على أنّ يسوع لم يعتبر نفسه بلا خطية، وأنّه كان مُدركًا لوجود ضعف في شخصيّته، لأنّه أنكر أنّه كان صالحًا. لكنّي مُقتنع تمامًا أنّ قصْدَ يسوع من هذه الكلمات كان مُختلفًا تمامًا. كان يعلم أنّ هذا الرجل لم يكن مُدركًا مَن هو الشخص الذي طرح هذا السؤال عليه. كان يعلم أنّ هذا الرجل لم يكن مُدركًا أنّه كان يتحدّث إلى الله المتجسّد. لذلك، كان يسوع يُلفت الانتباه إلى الفهم السطحيّ للحاكم الغنيّ الشابّ عن الصلاح الحقيقيّ، وهو الفهم السطحيّ نفسه الذي كلّنا نتشارك به.

نُسرع في القول حين نصف بعضنا البعض بأنّنا صالحون، بدون التفكير بما تتضمّنه كلمة الصلاح من معانٍ. نستخدم مصطلح «جيّد» للمقارنة، فإنْ قلتُ عن كلبتي إنّها كلبة جيّدة، فأنا لا أقصد بذلك أنّ كلبتي تتمتّع بإحساس أخلاقيّ رفيع، بل أعني ببساطة أنّ تصرّفاتها جيّدة إلى حدّ ما بالمقارنة مع كلاب أخرى. إنّها تأتي عندما أناديها، ولا تعضّ ساعي البريد. إنّها كلبة أليفة. لذلك، تُعتبر جيّدة عند مقارنتها مع كلاب أخرى. والأمر نفسه ينطبق على الإنسان عندما نقول عنه إنّه صالح. نحن نعني ببساطة أنّه رجل صالح، أو امرأة صالحة عند مقارنتهما مع أشخاص آخرين.

إلّا أنّنا لا نتجرّأ أنْ نحكمَ على أنفسنا أو على الآخرين بالمقارنة مع أشخاص آخرين. يُحدَّد الصلاح الحقيقيّ بشكل مُطلق من خلال شخصيّة الله، وشخصيّته هذه تجلّت في الناموس. لذلك، علينا أنْ نحكمَ على أنفسنا مقابل هذا المعيار، معيار برّ الله المُطلق. وعندما نفعل ذلك، سنُدرك بسرعة ما أعلنه صاحب المزمور ثمّ لاحقًا الرسول بولس: «لَيْسَ بَارٌّ وَلَا وَاحِدٌ. لَيسَ مَنْ يَفْهَمُ. لَيْسَ مَنْ يَطْلُبُ ٱللهَ. ٱلْجَمِيعُ زَاغُوا وَفَسَدُوا مَعًا. لَيْسَ مَنْ يَعْمَلُ صَلَاحًا لَيْسَ وَلَا وَاحِدٌ» (رومية ٣: ١٠ب–١٢؛ قارن مع مزمور ١٤: ١–٣).

نحن نرى طبعًا أنواعًا مُختلفة من أفعال التضحية بالنفس بين الشعوب الوثنيّة، وهي أفعال نُطلَق عليها اسم الفضائل المدنيّة. فالناس يتبرّعون بأموالهم لقضايا جيّدة، ويلتزمون بقوانين بلادهم، ويساعدون بعضهم بعضًا، ويُحقّقون العدالة وما إلى ذلك. هذه أمور صالحة– إلى حدّ ما. مع أنّ الناس يفعلون أشياء تتوافق مع ناموس الله، إلّا أنّ الله يطلب أنْ يكونَ كلّ ما نقوم به مدفوعًا بمحبّتنا له ورغبتنا في تمجيده. لذلك، لا ينظرُ الله فقط إلى امتثالنا الخارجيّ لوصاياه، بل ينظرُ إلى قلوبنا. لسوء الحظّ، حين يفعل ذلك، لا يجد قلوبًا مُكرّسة بالكامل لتمجيده. لذلك، يمكنه حقًّا أنْ يقولَ إنّه

ليس من يعمل صلاحًا، ليسَ ولا واحد، كما أكّد يسوع للشابّ الغنيّ أن الله وحده هو صالح فعلًا. لذلك، ما يدعو للسخرية هو أنّ هذا الشاب دعا يسوع بـ «المعلّم الصالح»؛ لقد كانت كلماته دقيقة، لكنّه لم يفهم لماذا.

يسوع يُقدّم الناموس، ثمّ الإنجيل

قبلَ أنْ يعلنَ يسوع الإنجيل لهذا الشابّ، نقله مباشرة إلى الناموس: **«أَنْتَ تَعْرِفُ ٱلْوَصَايَا: لَا تَزْنِ. لَا تَقْتُلْ. لَا تَسْرِقْ. لَا تَشْهَدْ بِٱلزُّورِ. لَا تَسْلُبْ. أَكْرِمْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ»** (الآية ١٩). من المُثير للاهتمام أنّ يسوع ذكر عددًا من الوصايا من القسم الثاني للوصايا العشر، تلك التي تشرح كيف يجب أنْ تكونَ علاقتنا بعضنا مع بعض. بعبارة أخرى، بدأ بالوصايا السهلة التي يلتزم به حتّى الوثنيّون أحيانًا من خلال الفضائل المدنيّة. لم يقلْ شيئًا حتّى الآن عن القسم الأوّل من الوصايا العشر، تلك التي تشرح كيف يجب أنْ تكونَ علاقتنا بالله، والتي لا يمكن أنْ يُطيعَها إلّا الذين تجدّدت قلوبَهم بروح الله القدّوس.

أجابَ الشابّ الغنيّ: **«يَا مُعَلِّمُ، هَذِهِ كُلُّهَا حَفِظْتُهَا مُنْذُ حَدَاثَتِي»** (الآية ٢٠). أستطيع أنْ أسمعَه يتنفّس الصعداء تقريبًا، كما لو أنّه يقول: أهذا كلّ ما عليّ القيام به؟ أنا لم أرتكبِ الزنى قطّ، ولم أسرقْ أيّ شيء، ولم أقتلْ أحدًا قطّ. أنا لستُ شخصًا يشتهي، وقد حفظت كلّ هذه الوصايا منذ أنْ كنتُ صغيرًا». لا بدّ أنّه شعر بالرضى حين سمع يسوع يُحيله إلى الوصايا.

كنت أتوقّع أنْ يقولَ له يسوع في هذه اللحظة: «يا صديقي، أنتَ بكلّ أسفٍ على خطأ، فأنتَ لم تحفظ هذه الوصايا منذ نهوضِك من الفراش هذا الصباح». من الواضح أنّ هذا الرجل لم يسمعْ عِظة يسوع على الجبل، حيث أوضح أنّه حتّى لو امتنعنا عن الزنى الفاضح وكانت الشهوة في قلوبِنا، فقد كسرنا الناموس؛ وأنّه حتّى لو لم نقتل أيّ إنسان أبدًا ولكنّنا

غضبنا بلا سبب، فقد كسرنا وصيّة عدم القتل؛ وهكذا دواليك. كشفَ يسوع أنّ مُتطلّبات شريعة الله أعمق بكثير من مُجرّد الطاعة الخارجيّة. لم يفهم الشابّ الغنيّ ذلك، بل كان فهمُه للصلاح والناموس فهمًا سطحيًّا. كان يرجو في داخله أنّه سيكون قادرًا على شقّ طريقه بنفسه إلى الجنة، وبهذا لم يكن مُختلفًا عن الغالبيّة الساحقة مِن الذين يسيرون على هذا الكوكب اليوم، وحتّى عن الغالبيّة الساحقة مِن الذين يذهبون إلى الكنائس صباح يومَ الأحد.

يستخدم أحد برامج الكرازة سؤالَيْن تشخيصيَّيْن لتحديد علاقة الإنسان بالله، وليكونا بمثابة جسر عبور لعرْض الإنجيل. أحدُ هذين السؤالَين هو: «ماذا ستقولُ لله إنْ وافَتْك المنيّة الليلة ووقفت أمامَه وقال لك: لماذا ينبغي عليّ أنْ أسمحَ لك بالدخول إلى السماء؟» عندما كنتُ أقوم بتدريب الناس على استخدام هذه طريقة منذ سنوات، كنت أتابع الإجابات على هذا السؤال الذي سمعته من أشخاص كانوا بالفعل ينتمون إلى الكنائس. أعطى ثمانون بالمئة منهم ما نسمّيه بإجابة الأعمال الصالحة. قالوا شيئًا يُشبه التالي: «لقد حاولتُ أنْ أعيشَ حياةً صالحة. أنا لستُ مُجرمًا. أنا لم أقتل أحدًا قطّ. أذهبُ إلى الكنيسة كلّ يوم تقريبًا. أذهبُ إلى مدرسة الأحد. أنا شمّاس. أنا شيخ». باختصار، كان هؤلاء الناس يعتمدون على أدائهم وأعمالهم الصالحة وطاعتهم ليدخلوا السماء. عندما كنتُ أسمعُ هذا النوع من الإجابات مرّة بعد الأخرى، بدا لي أنّ الإنجيل لم يصل بشكل صحيح للناس، وأنّ عقيدة التبرير بالإيمان قد توارت في الظلام مرّة أخرى، تمامًا كما حدث في القرون السابقة قبلَ أنْ يعودَ الإصلاحُ البروتستانتيّ إلى إظهارها من جديد.

أقلقني هذا الاكتشاف كثيرًا، وأردتُ التأكّد من أنّ عائلتي تفهم الإنجيل، فسألت ابني الذي كان يبلغ من العمر خمس سنوات في ذلك الوقت: «يا

ابني، ماذا ستقول لله إنْ وافتك المنيّة الليلة ووقفتَ أمامَه وقال لك: لماذا ينبغي عليّ أنْ أسمحَ لك بالدخول إلى السماء؟» ظنّ أنّ هذا كان أسهل سؤال أطرحه على الإطلاق، فأجابني قائلًا: «سأقول له، لأنّني ميّت». كان الفهم السائد بين أولادي في بيتنا المُصلَح عن الخلاص هو «التبرير بالموت». لقد وصلوا إلى قناعة بأنّ كلّ ما علينا فِعلُه لدخول السماء هو أنْ نموت. هذا هو الرأيُ المنتشِر والغالب في الثقافة الغربيّة.

يسوع يتحنّن على خاطئ

أمّا يسوع فلم يختر أنْ يُسلّطَ الضوء على مفاهيم هذا الرجل الخاطئة. يُخبرنا مَرْقُس: **فَنَظَرَ إِلَيْهِ يَسُوعُ وَأَحَبَّهُ** (الآية ٢١أ). أليس هذا أمرًا مثيرًا للاهتمام؟ لقد تجرّأ هذا الشابّ أنْ يقولَ لربّ السماء والأرض: «لقد حفظتُ وصاياك منذ حداثتي»، رغم ثقتِه هذه التي كانت في غير محلّها، أحبّه يسوع. لماذا تصرّف يسوع بهذه الطريقة؟ هل لأنّه كان سعيدًا لأنّه التقى أخيرًا بإسرائيليّ لا غشّ فيه، وبشخصٍ التزم بالشريعة بدقّة متناهية فكسب بذلك محبّة يسوع؟ لا، بالطبع لا. بدلًا من ذلك، أعتقدُ أنّ يسوع شعر بالحنان نحو هذا الرجل. لا أظنّ أنّ الشابّ الغنيّ كان متُكبّرًا، بل أراد بالفعل أنْ يعرفَ كيف يرث الحياة الأبديّة، وكان يعتقد أنّه بالفعل حفظ الناموس. باختصار، لقد كان ضائعًا بالكامل، وفي كلّ مرّة يلتقي بها ربُّنا بأشخاص ضائعين مثل هذا الرجل، كان يتحنّن عليهم. لقد رأينا بالفعل أمثلة عديدة على تحنُّن يسوع في إنجيل مَرْقُس (١: ٤١؛ ٦: ٣٤؛ ٨: ٢)، وأعتقد أنّنا هنا أمام مثال آخر.

كانت طريقة يسوع في مساعدة الشابّ عن طريق إظهار خطَئِه من خلال وضع ما أكّد عليه قيد الاختبار. كان الأمرُ كما لو أنّ يسوع يقول له: «حسنًا، تقول إنّك حَفِظت الوصايا، فلنتحقّق من ذلك». لذلك قالَ له:

«يُعْوِزُكَ شَيْءٌ وَاحِدٌ: اِذْهَبْ بِعْ كُلَّ مَا لَكَ وَأَعْطِ ٱلْفُقَرَاءَ، فَيَكُونَ لَكَ كَنْزٌ فِي ٱلسَّمَاءِ، وَتَعَالَ ٱتْبَعْنِي حَامِلًا ٱلصَّلِيبَ» (الآية ٢١ب).

بينما نفكّر فيما قاله يسوع هنا، علينا أنْ نُدركَ أنّه لم يكن يضع قاعدةً عالميّة. لم يقصد بقوله هذا أنّ على أيّ شخص يرغب في الحصول على الخلاص، أنْ يتخلّى عن كلّ ممتلكاته الخاصّة، وأنْ يعيش حياة الزُهد والفقر ونكران الذات، بل كان كلامُه موجّهًا إلى شخصٍ مُعيّن يمرّ بمواقف قلبيّة خاصّة به.

بمعنى آخر، كان يسوع يُذكّر الشابّ الغنيّ بالقسم الأوّل من الوصايا العشر. كان يقول له بشكل أساسيّ: «أنتَ تقول إنّك حَفظت كلّ الوصايا، فماذا عن الوصيّة الأولى: «لَا يَكُنْ لَكَ آلِهَةٌ أُخْرَى أَمَامِي» (خروج ٢٠: ٣). كان يسوع يعرف أنّ إله هذا الرجل هو المال. ربّما كان يذهب إلى المجمع أو إلى العبادة في الهيكل. لكن طوال الأسبوع، كان عقله مُنشغلًا بثروته. كان مالُه في المركز الأوّل قبل الله. وكما رأينا، علّم يسوع أنّه خير لنا أن نتخلّص من أيّ شيء يُبعدنا عن ملكوت الله، حتى لو كان ذلك الشيء يدًا أو قدمًا أو عينًا (٩: ٤٣-٤٨). بعبارة مُبسّطة، كان يحتاج هذا الشاب إلى تحديد أولويّاته بطريقة صحيحة.

عندما سمع هذه الكلمات، تحوّل تنهّدُ الشابّ إلى أنينِ اليأس: **فَٱغْتَمَّ عَلَى ٱلْقَوْلِ وَمَضَى حَزِينًا، لِأَنَّهُ كَانَ ذَا أَمْوَالٍ كَثِيرَةٍ** (الآية ٢٢). كلمة اغتمّ ليست قويّة بما فيه الكفاية، فالكلمة اليونانيّة التي يستخدمها مَرْقُس هنا تعبّر عن العديد من المعاني الدقيقة: كان مُكتئبًا ومذعورًا ومصدومًا ومُدمّرًا. وهكذا، هذا الذي ركضَ إلى يسوع، ابتعد عنه بحزن شديد. نعم، لقد ابتعد عن يسوع. كانت لؤلؤة نفيسة تقف أمامه، لكنّه أدار ظهره إلى المسيح. إنّه يُشبه رجلًا لم يكن مُستعدًّا أنْ يستبدلَ عُملةً خشبيّة بمليار دولار، وحتّى هذا الوصف ضعيف. كان يظنّ أنّ قيمة ممتلكاتِه أكثر من يسوع. فضّل

حسابه المصرفيّ على غنى ملكوت الله.

يقول الكتاب المقدّس إنّ الشابّ الغنيّ كان ذا أموال كثيرة، لكنّه في الواقع كان مُفلسًا. هذه هي الحالة الطبيعيّة لكلّ البشر؛ نحن جميعًا مَدينون لله، ولا أملَ لدينا بأنْ ندفعَ هذا الدَيْن. يطلبُ الله منّا أنْ نكونَ قدّيسين كما هو قدّوس. في اللحظة التي نرتكب فيها الخطية، نحن مدينون لبرّ الله إلى ما لا نهاية. لكنّنا نستمرّ في ارتكاب الخطية، فنذْخَرُ (لأنفسنا) غَضَبًا فِي يَوْمِ ٱلْغَضَبِ» (رومية ٢: ٥).

كانت مأساة الحاكم الشابّ الغنيّ أنّ حلّ مُشكلة ديونه كان يقف أمامه. كان المسيح بالنسبة إليه هو مُريحُه الوحيد من عبء الدَّيْن. وهو أيضًا مُريحُنا الوحيد الذي بإمكانه تخفيف عبء دَيْننا. هو أيضًا قريب منّا، ينتظر أنْ نطلبَ عونَه. هذا هو الإنجيل. لقد دفَع المسيح دَيْننا وأعطانا بِرّه الذي وحده سيفي بمتطلّبات شريعة الله. عندما نضع بالإيمان ثقتنا في المسيح وحده، ننال ما نحتاج إليه للدخول إلى ملكوت الله. لذلك، نحن «نَرِثُ» الحياة الأبديّة بواسطة المسيح. وهو هِبة كأيّ ميراث، وليس دُفعة نكسبها.

٣٤

إله المُستطاع

مرقس ١٠: ٢٣-٣١

فَنَظَرَ يَسُوعُ حَوْلَهُ وَقَالَ لِتَلَامِيذِهِ: مَا أَعْسَرَ دُخُولَ ذَوِي ٱلْأَمْوَالِ إِلَى مَلَكُوتِ ٱللهِ! فَتَحَيَّرَ ٱلتَّلَامِيذُ مِنْ كَلَامِهِ. فَأَجَابَ يَسُوعُ أَيْضًا وَقَالَ لَهُمْ: يَا بَنِيَّ، مَا أَعْسَرَ دُخُولَ ٱلْمُتَّكِلِينَ عَلَى ٱلْأَمْوَالِ إِلَى مَلَكُوتِ ٱللهِ! مُرُورُ جَمَلٍ مِنْ ثَقْبِ إِبْرَةٍ أَيْسَرُ مِنْ أَنْ يَدْخُلَ غَنِيٌّ إِلَى مَلَكُوتِ ٱللهِ. فَبُهِتُوا إِلَى ٱلْغَايَةِ قَائِلِينَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: فَمَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخْلُصَ؟ فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ يَسُوعُ وَقَالَ: عِنْدَ ٱلنَّاسِ غَيْرُ مُسْتَطَاعٍ، وَلَكِنْ لَيْسَ عِنْدَ ٱللهِ، لِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مُسْتَطَاعٌ عِنْدَ ٱللهِ. وَٱبْتَدَأَ بُطْرُسُ يَقُولُ لَهُ: هَا نَحْنُ قَدْ تَرَكْنَا كُلَّ شَيْءٍ وَتَبِعْنَاكَ. فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ: ٱلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لَيْسَ أَحَدٌ تَرَكَ بَيْتًا أَوْ إِخْوَةً أَوْ أَخَوَاتٍ أَوْ أَبًا أَوْ أُمًّا أَوِ ٱمْرَأَةً أَوْ أَوْلَادًا أَوْ حُقُولًا، لِأَجْلِي وَلِأَجْلِ ٱلْإِنْجِيلِ، إِلَّا وَيَأْخُذُ مِئَةَ ضِعْفٍ ٱلْآنَ فِي هَذَا ٱلزَّمَانِ، بُيُوتًا وَإِخْوَةً وَأَخَوَاتٍ وَأُمَّهَاتٍ وَأَوْلَادًا وَحُقُولًا، مَعَ ٱضْطِهَادَاتٍ، وَفِي ٱلدَّهْرِ ٱلْآتِي ٱلْحَيَاةَ ٱلْأَبَدِيَّةَ. وَلَكِنْ كَثِيرُونَ أَوَّلُونَ يَكُونُونَ آخِرِينَ، وَٱلْآخِرُونَ أَوَّلِينَ.

عندما أعطى الحاكم الشاب الغنيّ ظهرَه ليسوع وابتعد عنه رافضًا أن

يرمي وثنَ ثروتِه بعيدًا من أجل الحصول على اللؤلؤة النفيسة، أتخيّل أنّ يسوع كان يراقبه بتمعّن وهو لا يزال يشعر بالحنان نحوه. دَفعَ عدم رغبة الشابّ في التخلّي عن ثروته يسوع إلى إعطاء تلاميذه بعض التعليمات المهمّة حول مخاطر الثروات الماديّة والأشياء ذات الأهمّية الأكبر.

يقول مَرْقُس: «**فَنَظَرَ يَسُوعُ حَوْلَهُ وَقَالَ لِتَلَامِيذِهِ: مَا أَعْسَرَ دُخُولَ ذَوِي ٱلْأَمْوَالِ إِلَى مَلَكُوتِ ٱللهِ**» (الآية ٢٣). اندهش التلاميذ حين سمعوا هذا الكلام (الآية ٢٤أ)، لأنّ يهود العهد القديم كانوا يعتبرون الثروة بَرَكَةً من الله. لذلك، كرّر يسوع ما قاله وتوسّع في شرحه بأنّه يُمكن للغِنى أنْ يكونَ عَقَبَة أمام دخول ملكوت الله: «**يَا بَنِيَّ، مَا أَعْسَرَ دُخُولَ ٱلْمُتَّكِلِينَ عَلَى ٱلْأَمْوَالِ إِلَى مَلَكُوتِ ٱللهِ!**» (الآية ٢٤ب). لاحظْ أنّ يسوع غيّر قليلًا بكلماته ولكن كان لهذا التغيير أهمّيّة: ففي تعليقه الأوّل، تحدّث عن «ذَوِي ٱلْأَمْوَالِ»؛ أمّا في تعليقه الثاني، فقد أشار إلى «ٱلْمُتَّكِلِينَ عَلَى ٱلْأَمْوَالِ». هذا الاختلاف الصغير هنا هو المفتاح لفهم تحذير يسوع.

أربع فئات من الفقراء

بينما نبدأ في تفكيك هذه الكلمات العميقة، اسمحوا لي أوّلًا أنْ أشارككم بموقف الكتاب المقدّس من الغِنى والفقر. يجب أنْ نفهمَ وُجهة النظر هذه، خاصّة في عصرنا المليء بسياسات الحسد.

نميل إلى تبسيط أجوبتنا عن الأسئلة المتعلّقة بالغِنى والفقر. فنحن نفترض بشكل عامّ أنّه إنْ كان بيننا شخص فقير، فلا بدّ أنّ فقرَه يعود إلى خموله، لأنّ الكسالى فقط يُصابون بالفقر. لكن ليس هذا هو السبب الوحيد دائمًا بحسب وجهة نظر الكتاب المقدّس. ومن الناحية المعاكسة، غالبًا ما نتمسّك بفكرة أنّه لا يُمكن للإنسان أنْ يصبحَ ثريًّا إلّا عن طريق الفساد واستغلال الآخرين والدوسِ على الفقراء والمساكين لجمع ثروته. هذا أيضًا

تعميم لا يتوافق مع وجهة النظر الكتابيّة.

إنْ تأمّلنا بالكلمات التي تشير إلى «الفقر» أو «الفقراء» في العهد القديم، سنكتشف أنّه يوجد أربعة أنواع متميّزة من الفقراء. صحيح أنّ الفئة الأولى هي الفقراء لأنّهم كسالى. إنّهم فقراء لأنّهم يرفضون أنْ يعملوا، ولا يتمتّعون بحسّ المسؤوليّة. ينظر العهد القديم إلى هؤلاء الناس نظرة استياء ودينونة. وبالمثل، يتحدّث بولس في العهد الجديد عنهم حين كتب: «إِنْ كَانَ أَحَدٌ لَا يُرِيدُ أَنْ يَشْتَغِلَ فَلَا يَأْكُلْ أَيْضًا» (٢ تسالونيكي ٣: ١٠).

الفئة الثانية هم الفقراء بسبب فاجعة أو مرض، أو بسبب تعرّضهم لكوارث طبيعيّة قضت على محاصيلهم، وغير ذلك من الأحداث الخارجة عن سيطرتهم. يتحنّن الله على هؤلاء الناس، وقد أعلنَ في ناموسه أنّ على الأشخاص الذين بحالة أفضل أنْ يمدّوا يدَ العون للفقراء الذين أصبحوا كذلك لا لخطأ ارتكبوه بأنفسهم.

والفئة الثالثة هم الفقراء الذين أصبحوا كذلك كنتيجةٍ مباشرة لاستغلال الأغنياء والأقوياء لهم. لم يكن الأغنياء والأقوياء في العهد القديم تُجّارًا بالعادة، بل حُكّامًا ومسؤولين حكوميّين آخرين، كفرعون مصر أو الملك آخاب في إسرائيل. يدافع الله عن هؤلاء الفقراء لأنّه لا يتسامح مع استغلال القويّ للضعيف. كان خروج إسرائيل من مصر مثالًا على مجيء الله لمساعدة الذين تمّ استغلالهم كعبيد. يجب علينا أيضًا كمؤمنين أنْ ندافعَ عن الذين يتمّ استغلاهم. يقول يعقوب: «اَلدِّيَانَةُ ٱلطَّاهِرَةُ ٱلنَّقِيَّةُ عِنْدَ ٱللهِ ٱلْآبِ هِيَ هَذِهِ: ٱفْتِقَادُ ٱلْيَتَامَى وَٱلْأَرَامِلِ فِي ضِيقَتِهِمْ، وَحِفْظُ ٱلْإِنْسَانِ نَفْسَهُ بِلَا دَنَسٍ مِنَ ٱلْعَالَمِ» (١: ٢٧).

والفئة الرابعة هم الفقراء للبرّ. أيّ الذين يحتضنون الفقر بإرادتهم لكي يُكرّسوا أنفسهم للأمور الروحيّة خوفًا من أنْ يُشتّتَ السعيُ وراء الغنى

انتباهَهم.

أكثر حقيقة أساسيّة في الكتاب المقدّس عن الغنى هي أنّ «كُلُّ عَطِيَّةٍ صَالِحَةٍ وَكُلُّ مَوْهِبَةٍ تَامَّةٍ هِيَ مِنْ فَوْقُ، نَازِلَةٌ مِنْ عِنْدِ أَبِي ٱلْأَنْوَارِ» (يعقوب ١: ١٧). لا يوجد أخلاقيّات ذاتيّة في الكتاب المقدّس. لا أحد يرفع نفسه بسيور حذائه بصرف النظر عن نعمة الله. كلّ ما نتمتّع به هو من فضله وصلاحه. لهذا السبب، يهتّم الله بشدّة بالأمور التي نهتّم بها، وما نفعله بالأمور التي يأتمنها هو إلينا.

إنْ وضعْنا ثقتَنا في الغنى الماديّ، فنحن بذلك نضع ثقتنا في شيء لا يستطيع أنْ يَفدينا. لقد حذّر يسوعُ الناسَ مِن محاولة عبادة الله والمال (متى ٦: ٢٤)، ومِن تخزين الثروات في هذا العالم، حيث ينقبُ السارقون ويسرقون، وحيث يُفسد السوس والصدأ. بدلًا من ذلك، علينا أنْ نكنزَ لنا كنوزًا في السماء (الآيات ١٩–٢١).

الجمل وثُقب الإبرة

استخدم يسوع قولًا مأثورًا غريبًا عندما تكلّم عن هذه الأمور: «**مُرُورُ جَمَلٍ مِنْ ثَقْبِ إِبْرَةٍ أَيْسَرُ مِنْ أَنْ يَدْخُلَ غَنِيٌّ إِلَى مَلَكُوتِ ٱللهِ**» (الآية ٢٥). ظهرت خُرافة حوالي القرن التاسع تُفيد بأنّ يسوع كان يتحدّث عن نقطة دخول مِن سور مدينة أورشليم، وهي «بوّابة» صغيرة تُسمّى ثُقب الإبرة. كان لأورشليم عدّة أبواب في سورها، وكان لكلّ باب منها اسم، كالبوّابة الشرقيّة أو البوّابة الغربيّة أو بوّابة الدِّمْنِ. هذه كلّها كانت بوّابات تقليديّة للمدينة، لكن ثُقب الإبرة كان عبارة عن فُتْحةٍ صغيرة في السور. إنْ أرادَ تاجر ما دخولَ المدينة مع جَمَله من ثُقب الإبرة، فعليه إجبارَ الجَمَلِ على ثَنْي رُكبتَيْه، فيُصبح بإمكان الجَمل في وضعه المُحرج هذا، مع دفعه وحشره كثيرًا، أنْ يعبر من خلالها.

إنّها قصّة جميلة مفادها أنّه يُمكن للأغنياء دخول ملكوت السماوات على ركبهم فقط، ولكن لم تُذكَر هذه البوّابة في أورشليم إلّا بعد فترة طويلة من زمن يسوع، لذلك هنالك شكّ حول حقيقة هذه الرواية. أعتقد أنّ يسوع كان يستخدم أسلوبَ المبالغة من خلال إثارة احتمال نادر الحدوث مع واحد من أكبر الحيوانات المعروفة في عصره بأن يمرّ عبر فُتْحة صغيرة جدًّا كانت معروفة عند مستمعيه. أرادَ أنْ يقولَ إنّه قد يكون من الصعب جدًّا على الأغنياء دخول ملكوت السماوات، لأنّهم مُعرّضون لتجربة الاعتماد على أموالهم بدلًا من الله لتسديد احتياجاتهم وحمايتهم، وحتّى لدخول الأبديّة.

نحتاج نحن الأميركيّون أن نُعير انتباهَنا إلى تحذير ربّنا في هذا الزمن، لأنّنا أكثر الشعوب ازدهارًا في تاريخ العالم. حتّى أنّ بعض الذين يُعتبَرون فقراء في أمريكا، يتمتّعون بمستوى معيشيّ أفضل ممّا كان يتمتّع به الملوك قبل مئتي عام. يُمكن للغنى الذي باركنا به الله أنْ يصبحَ فخًّا لنا، لذلك نحن بحاجة إلى التفكير في ثُقب الإبرة، وإلى مراقبة قلوبِنا بين الحين والآخر.

بُهِتَ التلاميذُ من تصريحات يسوع هذه. كتبَ مَرْقُس: «**فَبُهِتُوا إِلَى ٱلْغَايَةِ قَائِلِينَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: فَمَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخْلُصَ؟ فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ يَسُوعُ وَقَالَ: عِنْدَ ٱلنَّاسِ غَيْرُ مُسْتَطَاعٍ، وَلَكِنْ لَيْسَ عِنْدَ ٱللهِ، لِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مُسْتَطَاعٌ عِنْدَ ٱللهِ**» (الآيتان ٢٦-٢٧). ومن دهشة التلاميذ، طرحوا سؤالًا يعكس من جديد المُعتقد اليهوديّ بأنّ الله بارك الأغنياء: «فَمَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَخْلُصَ؟» أجابهم يسوع بإحدى أعظم العبارات في كلّ الكتاب المقدّس: «عِنْدَ ٱلنَّاسِ غَيْرُ مُسْتَطَاعٍ، وَلَكِنْ لَيْسَ عِنْدَ ٱللهِ، لِأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مُسْتَطَاعٌ عِنْدَ ٱللهِ». لا يستطيع أحد أنْ يَخلُصَ من الناحية البشريّة، لكن مع الله، الخلاص مُمكن حتّى للشخص الذي اتّكل من كلّ قلبه على الغنى الماديّ. قد يكون الأمر صعبًا، لكنّ الروح القدس يتدخّل في حياة الناس ويخترق

قساوةَ قلوبهم. بقوّة الله ونعمته، يُمكن للجمل، إنْ جازَ التعبير، أنْ يمرَّ عبر ثُقب الإبرة.

يُعطينا الكتاب المقدّس أمثلة عن رجال كانوا أغنياء وأمناء في الوقت نفسه، رجالٍ وثقوا بالله وليس بغناهم. كان إبراهيم مثلًا أبا المؤمنين، وأحد أغنى الرجال في العالم القديم (تكوين ١٣: ٢). ربّما تجاوزت ثروتُه ثروةَ أيّوب (١: ٣). ونقرأ لاحقًا في العهد الجديد عن يوسف الرامي، الذي كان أيضًا رجلًا غنيًّا (متى ٢٧: ٥٧). هؤلاء الرجال الثلاثة هم أمثلة جيّدة عن الطريقة الصحيحة للتعامل مع الغنى.

كانت ثروةُ إبراهيم في قُطعانه الكبيرة وماشيته. كان ابن أخيه لوط أيضًا غنيًّا جدًّا بالطريقة نفسها، لكنّ موقفه كان مختلفًا تمامًا عن موقف عمّه تجاه ثروته. في وقت من الأوقات، أصبح من الصعب أنْ يجدَ الرعاةُ أرضًا مناسبة للرعي لكلّ هذه القطعان، فحدثَ خصام بين خَدَم السيّدَيْن. أصبحَ هذا الأمر يُشكّل خطورة كبيرة لدرجة أنّ إبراهيم قال للوط: «أَلَيْسَتْ كُلُّ ٱلْأَرْضِ أَمَامَكَ؟ ٱعْتَزِلْ عَنِّي. إِنْ ذَهَبْتَ شِمَالًا فَأَنَا يَمِينًا، وَإِنْ يَمِينًا فَأَنَا شِمَالًا» (تكوين ١٣: ٩). كانت الأرض كلّها هبة إلهيّة لإبراهيم، لكنّه كان على استعداد لمشاركتها مع ابن أخيه للمحافظة على السلام بينهما. قام لوط بمسح الأرض ورأى أنّ وادي الأردن غنيّ جدًّا بالمياه، لذلك اختار الانتقال إلى هناك. نقل عائلته إلى سدوم التي كانت مكانًا مناسبًا لتربية الماشية، لكنّها كانت مكانًا سيّئًا لإنشاء أسرة، كما اكتشف لوط لاحقًا. التزم إبراهيم بوعده واستمرّ يرعى قطعانه في التلال. رغم غناه، كان إبراهيم يعتبر أنّ لعائلته وإيمانه ومصداقيّته قيمة أكبر بكثير من ماشيته.

كان أيّوب غنيًّا جدًّا بحسب المقاييس القديمة. عندما قال الله للشيطان: «هَلْ جَعَلْتَ قَلْبَكَ عَلَى عَبْدِي أَيُّوبَ؟ لِأَنَّهُ لَيْسَ مِثْلُهُ فِي ٱلْأَرْضِ. رَجُلٌ كَامِلٌ وَمُسْتَقِيمٌ، يَتَّقِي ٱللهَ وَيَحِيدُ عَنِ ٱلشَّرِّ؟» (١: ٨)، سخر الشيطان

وقال: «هَلْ مَجَّانًا يَتَّقِي أَيُّوبُ ٱللهَ؟ أَلَيْسَ أَنَّكَ سَيَّجْتَ حَوْلَهُ وَحَوْلَ بَيْتِهِ وَحَوْلَ كُلِّ مَا لَهُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ؟ بَارَكْتَ أَعْمَالَ يَدَيْهِ فَٱنْتَشَرَتْ مَوَاشِيهِ فِي ٱلْأَرْضِ. وَلَكِنِ ٱبْسِطْ يَدَكَ ٱلْآنَ وَمَسَّ كُلَّ مَا لَهُ، فَإِنَّهُ فِي وَجْهِكَ يُجَدِّفُ عَلَيْكَ» (الآيات ٩-١١). سمحَ الله للشيطان أنْ يُمارس إرهابَه على أيّوب وعائلته وماشيته وكلّ ما هو ثمين وعزيز عليه. ومع ذلك، صرخ أيوب: «هُوَذَا يَقْتُلُنِي. لَا أَنْتَظِرُ شَيْئًا. فَقَطْ أُزَكِّي طَرِيقِي قُدَّامَهُ» (١٣: ١٥). لم يتّكل أيّوب على غناه، بل كان مُتّكلًا على فاديه.

يكاد يوسف الرامي أنْ يكونَ غير معروف في التاريخ. إنّه مذكور في جميع الأناجيل الأربعة، غير أنّه لا يُذكَر في أيّ مكان آخر في العهد الجديد. تتّفق الأناجيل أنّه كان غنيًّا وفي الوقت نفسه كان تلميذًا ليسوع. يُذكَر في العالم المسيحيّ لِما فعله بثروتِه، فقد تبرّع بقبرٍ باهظ الثمن لكي يُدفَن فيه جسد الربّ يسوع المسيح بكرامة. بكلمات أخرى، لا يُذكرُ لِما كان يمتلكه من أشياء، بل لِما قدّمه للربّ يسوع المسيح. كانت أولويّاته في ترتيبها الصحيح.

اترك كلّ شيء

اترك الممتلكات والأقارب

ثمّ قال بطرس: **«هَا نَحْنُ قَدْ تَرَكْنَا كُلَّ شَيْءٍ وَتَبِعْنَاكَ»** (الآية ٢٨). تحدّث بطرس المتسرّع دائمًا، كما لو أنّه شعر أنّ يسوعَ ينتهره لاحتفاظه ببعض المال من تجارة عائلته. أجاب يسوع: **«ٱلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لَيْسَ أَحَدٌ تَرَكَ بَيْتًا أَوْ إِخْوَةً أَوْ أَخَوَاتٍ أَوْ أَبًا أَوْ أُمًّا أَوِ ٱمْرَأَةً أَوْ أَوْلَادًا أَوْ حُقُولًا، لِأَجْلِي وَلِأَجْلِ ٱلْإِنْجِيلِ، إِلَّا وَيَأْخُذُ مِئَةَ ضِعْفٍ ٱلْآنَ فِي هَذَا ٱلزَّمَانِ، بُيُوتًا وَإِخْوَةً وَأَخَوَاتٍ وَأُمَّهَاتٍ وَأَوْلَادًا وَحُقُولًا، مَعَ ٱضْطِهَادَاتٍ، وَفِي ٱلدَّهْرِ ٱلْآتِي ٱلْحَيَاةَ ٱلْأَبَدِيَّةَ. وَلَكِنْ كَثِيرُونَ أَوَّلُونَ يَكُونُونَ آخِرِينَ، وَٱلْآخِرُونَ أَوَّلِينَ»** (الآيات ٢٩-٣١).

منذ سنوات بعيدة، انخرطتُ في معركة لاهوتيّة مُحتدمة، وقد كلّفني ذلك خسارة عدد من الأصدقاء الذين كانوا مُهمّين جدًّا في حياتي، وأصابني اكتئاب شديد بسبب ذلك. ولكن ذات ليلة، في خضمّ ذلك الصراع، فكّرت في عبارة من ترنيمة مارتن لوثر العظيمة بعنوان: «الله ملجأ لنا وقوّة على الدوام». تقول العبارة: «اترك الممتلكات والأقارب، وهذه الحياة الفانية أيضًا».

هذا ما يدعونا يسوع أنْ نقوم به. قال: «لَيْسَ أَحَدٌ يَضَعُ يَدَهُ عَلَى ٱلْمِحْرَاثِ وَيَنْظُرُ إِلَى ٱلْوَرَاءِ يَصْلُحُ لِمَلَكُوتِ ٱللهِ» (لوقا ٩: ٦٢). يجب أن نتخلّى عن كلّ ممتلكاتنا الماديّة (بمعنى ألّا نتّكل عليها) ولا ننظر إلى الوراء أبدًا. علينا أن ننظر إليه ونحن مستعدّون للتخلّي عن كلّ الأشياء الأخرى في هذا العالم من أجله.

أعطى يسوع وعدًا عظيمًا لبطرس، وهو وعد ينطبق أيضًا علينا. إنْ كنّا مستعدّين للتخلّي عن كلّ شيء من أجله، فسنأخذ في المقابل مئة ضعف. قال يسوع: «لا يمكنك أنْ تتخلّى عن كلّ هذه الأشياء من أجلي بدون أنْ ألاحظَ ذلك. سوف أعطيك مئة ضعف بدلًا عنها». نعم، يُقرّ يسوع بأنّ اتّباعه سينتج عنه اضطهاد، لكنّنا سنحصل في المقابل على لؤلؤة نفيسة وعلى الحياة الأبديّة.

وسيكون في النهاية مفاجآت في ملكوت الله. بعض الذين هم الآن أوّلًا –كالأغنياء والأقوياء ومَن يتمتّعون بالجمال– سيكونون آخرين. بينما المتواضعون في هذه الحياة –كالفقراء والضعفاء وغير المرغوب فيهم– سيكونون أوّلًا. في ذلك الملكوت، الأمر الوحيد المهمّ هو أنْ تكونَ أمينًا للمسيح.

٣٥

العَظَمة الحقيقيَة

مَرْقُس ١٠: ٣٢-٤٥

وَكَانُوا فِي ٱلطَّرِيقِ صَاعِدِينَ إِلَى أُورُشَلِيمَ وَيَتَقَدَّمُهُمْ يَسُوعُ، وَكَانُوا يَتَحَيَّرُونَ. وَفِيمَا هُمْ يَتْبَعُونَ كَانُوا يَخَافُونَ. فَأَخَذَ ٱلِٱثْنَيْ عَشَرَ أَيْضًا وَٱبْتَدَأَ يَقُولُ لَهُمْ عَمَّا سَيَحْدُثُ لَهُ: هَا نَحْنُ صَاعِدُونَ إِلَى أُورُشَلِيمَ، وَٱبْنُ ٱلْإِنْسَانِ يُسَلَّمُ إِلَى رُؤَسَاءِ ٱلْكَهَنَةِ وَٱلْكَتَبَةِ، فَيَحْكُمُونَ عَلَيْهِ بِٱلْمَوْتِ، وَيُسَلِّمُونَهُ إِلَى ٱلْأُمَمِ، فَيَهْزَأُونَ بِهِ وَيَجْلِدُونَهُ وَيَتْفُلُونَ عَلَيْهِ وَيَقْتُلُونَهُ، وَفِي ٱلْيَوْمِ ٱلثَّالِثِ يَقُومُ. وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ يَعْقُوبُ وَيُوحَنَّا ٱبْنَا زَبْدِي قَائِلَيْنِ: يَا مُعَلِّمُ، نُرِيدُ أَنْ تَفْعَلَ لَنَا كُلَّ مَا طَلَبْنَا. فَقَالَ لَهُمَا: مَاذَا تُرِيدَانِ أَنْ أَفْعَلَ لَكُمَا؟ فَقَالَا لَهُ: أَعْطِنَا أَنْ نَجْلِسَ وَاحِدٌ عَنْ يَمِينِكَ وَٱلْآخَرُ عَنْ يَسَارِكَ فِي مَجْدِكَ. فَقَالَ لَهُمَا يَسُوعُ: لَسْتُمَا تَعْلَمَانِ مَا تَطْلُبَانِ. أَتَسْتَطِيعَانِ أَنْ تَشْرَبَا ٱلْكَأْسَ ٱلَّتِي أَشْرَبُهَا أَنَا، وَأَنْ تَصْطَبِغَا بِٱلصِّبْغَةِ ٱلَّتِي أَصْطَبِغُ بِهَا أَنَا؟ فَقَالَا لَهُ: نَسْتَطِيعُ. فَقَالَ لَهُمَا يَسُوعُ: أَمَّا ٱلْكَأْسُ ٱلَّتِي أَشْرَبُهَا أَنَا فَتَشْرَبَانِهَا، وَبِالصِّبْغَةِ ٱلَّتِي أَصْطَبِغُ بِهَا أَنَا تَصْطَبِغَانِ. وَأَمَّا ٱلْجُلُوسُ عَنْ يَمِينِي وَعَنْ يَسَارِي فَلَيْسَ لِي أَنْ أُعْطِيَهُ إِلَّا لِلَّذِينَ أُعِدَّ لَهُمْ. وَلَمَّا سَمِعَ ٱلْعَشَرَةُ ٱبْتَدَأُوا يَغْتَاظُونَ مِنْ أَجْلِ يَعْقُوبَ وَيُوحَنَّا. فَدَعَاهُمْ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ ٱلَّذِينَ يُحْسَبُونَ رُؤَسَاءَ ٱلْأُمَمِ يَسُودُونَهُمْ، وَأَنَّ

عُظَمَاءَهُمْ يَتَسَلَّطُونَ عَلَيْهِمْ. فَلَا يَكُونُ هَكَذَا فِيكُمْ. بَلْ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَصِيرَ فِيكُمْ عَظِيمًا، يَكُونُ لَكُمْ خَادِمًا، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَصِيرَ فِيكُمْ أَوَّلًا، يَكُونُ لِلْجَمِيعِ عَبْدًا. لِأَنَّ ٱبْنَ ٱلْإِنْسَانِ أَيْضًا لَمْ يَأْتِ لِيُخْدَمَ بَلْ لِيَخْدِمَ وَلِيَبْذِلَ نَفْسَهُ فِدْيَةً عَنْ كَثِيرِينَ.

رأينا في كلّ إنجيل مَرْقُس أمثلة مُتكرّرة من التحيّر والدهشة على ما قاله يسوع وفَعَله. اندهش أشخاص مُختلفون من تعاليم يسوع (١: ٢٢؛ ٦: ٢) ومن قدرته على الشفاء (٢: ١٢؛ ٧: ٣٧) وإقامته الموتى (٥: ٤٢) وتهدئته الرياح (٦: ٥١). بإمكاننا أنْ نفهمَ كيف يُمكن لأعمال مثل هذه أنْ تثيرَ الدهشة. ولكنّنا الآن في مَرْقُس ١٠: ٣٢ أمام نموذجٍ آخر من الذهول، ولكن هذه المرة كان بين التلاميذ، ولم يكن سببُ اندهاشهم واضحًا في هذه الحالة.

يكتب مَرْقُس: **وَكَانُوا فِي ٱلطَّرِيقِ صَاعِدِينَ إِلَى أُورُشَلِيمَ وَيَتَقَدَّمُهُمْ يَسُوعُ، وَكَانُوا يَتَحَيَّرُونَ. وَفِيمَا هُمْ يَتْبَعُونَ كَانُوا يَخَافُونَ** (الآية ٣٢أ). كان يسوع آتيًا من المنطقة الواقعة شمال بحيرة طبرية جنوبًا عبر إسرائيل باتّجاه أورشليم. كان هنا قد اقترب من نهاية هذه الرحلة. كما رأينا، كان من عادة يسوع أنْ يعلّمَ تلاميذه أثناء تجوّله، بينما كان التلاميذُ يتبعونه ويستمعون إلى تعاليمه ويحفظونها في ذاكرتهم. إذن، لا يبدو أيّ شيء خارج عن المألوف للوهلة الأولى في هذه الآية. فلماذا تحيّرَ التلاميذُ، لا بل لماذا خافوا؟

أعتقدُ أنّ مَرْقُس يُقدّم هذه التفاصيل الغريبة لما رآه التلاميذ من تصميم حازم في يسوع للتوجّه نحو مصيره. لقد جعل وجهَه كالصوّان (إشعياء ٥٠: ٧) ليذهبَ إلى أورشليم، فقد كان يعلم أنّه مدعوّ لتسليم نفسه لأعدائه هناك، وكان قد أخبرَ تلاميذه بما سيحلّ به في أكثر من مناسبة.

(٨: ٣١–٣٣؛ ٩: ٣٠–٣٢). والآن، بعد أن اقترب من أورشليم، لم يتباطأ يسوع، بل تحرّك بسرعة وكان دائمًا متقدّمًا على تلاميذه وهو مُنطلق إلى موتِه بخطى ثابتة. إنْ عرف مُعظمُنا أنّنا مُتّجهون نحو الموت، فسوف نمشي بُخطى بطيئة. أمّا يسوع فلم يكن كذلك، بل كان على استعداد أنْ يُطيعَ الآب إلى المنتهى. لم يستطع التلاميذ استيعاب ما يجري، بل كانوا مُتحيّرين من تصميمه وخافوا ممّا قد يصيبه في أورشليم.

هنا أيضًا أوضحَ لهم يسوع مرّة أخرى ما كان على وشك أنْ يحدثَ: **فَأَخَذَ ٱلِٱثْنَيْ عَشَرَ أَيْضًا وَٱبْتَدَأَ يَقُولُ لَهُمْ عَمَّا سَيَحْدُثُ لَهُ: هَا نَحْنُ صَاعِدُونَ إِلَى أُورُشَلِيمَ، وَٱبْنُ ٱلْإِنْسَانِ يُسَلَّمُ إِلَى رُؤَسَاءِ ٱلْكَهَنَةِ وَٱلْكَتَبَةِ، فَيَحْكُمُونَ عَلَيْهِ بِٱلْمَوْتِ، وَيُسَلِّمُونَهُ إِلَى ٱلْأُمَمِ، فَيَهْزَأُونَ بِهِ وَيَجْلِدُونَهُ وَيَتْفُلُونَ عَلَيْهِ وَيَقْتُلُونَهُ، وَفِي ٱلْيَوْمِ ٱلثَّالِثِ يَقُومُ** (الآيات ٣٢ب–٣٤). كان يسوع أكثر تحديدًا في تحذيره هذا بشأن ما واجهه سابقًا. فمن قبلُ، تحدّث بشكلٍ عام عن موته، ثمّ قيامته من جديد. أمّا هنا، فقد أخبر التلاميذ أنّ أحدَهم سيخونه، ويُسلَّم للأمم (أي للرومان)، فيسخرون منه ويجلدونه ويبصقون عليه. إنْ كان التلاميذ قد شعروا بالخوف من قبل ممّا أنبأهم به، فلا يُمكنني هنا إلّا أنْ أتخيّل مدى الرعب الذي اعتراهم فور سماعهم لهذه التفاصيل.

كان يسوع مُحدّدًا جدًّا بشأن ما سيحدث له في أورشليم، لدرجة أنّ النقّاد الليبراليّين للكتاب المقدّس أعلنوا أنّه لا بدّ أنّ هذه الكلمات قد نُسبت إليه بعد حدوثها. إنّهم يُنكرون أنّ يسوع كان قادرًا على التنبّؤ بما سيحدث له بمثل هذه التفاصيل الدقيقة. إنّهم حسّاسون جدًّا لكلّ ما هو خارق للطبيعة، ويعارِضون بشدّة فكرة النبوءات التي تتوقّع الأحداث، لدرجة أنّهم يُفضّلون افتراض أنّ مَرْقُس لجأ إلى الغشّ عند كتابته لهذا الإنجيل.

لكن في الواقع، من الممكن تمامًا أنْ يكونَ يسوع قد أدركَ ما سيحدث معه حتّى بدون وحي خارق للطبيعة. في الحالة الأولى، إنْ كان يعلم أنّ

أحدَهم سيخونه ويُسلّمه لأيدي أعدائه، فكان من الواضح كيف ستكون طريقة إعدامه– على صليب رومانيّ. وفوق هذا، لم يكن يسوع مجرّد أيّ تلميذ لأسفار العهد القديم، بل كان موضوعَ تلك الأسفار بحدّ ذاته. بالتالي، كان على دراية بمقاطعَ مثل إشعياء ٥٢–٥٣، التي تصف معاناة عبد يهوه بتفصيل كبير. لم يربط اليهود مقاطع إشعياء عن العبد المتألّم برجائهم في المسيح الآتي، لكنّ يسوع عرف أنّ هذه النصوص تنطبق عليه. لذلك، كان يعلم حتّى بدون أيّ إعلان مباشر من الآب، أنّه سيُعامَل بازدراء، وأنّه سيُجلَد وسيُبصَق عليه.

قد يكون أهمّ تفصيل في هذا النصّ هو إعلانه بأنّه سيُسلَّم إلى أيدي الأمم. أوّلًا، سوف يُسلّم إلى أيدي أعدائِه اليهود من رؤساء الكهنة والكتبة الذين بدورهم سيسلّمونه للأمم. لم يكن القادة اليهود يتمتّعون بسلطة الحُكم بعقوبة الإعدام في ظلّ الاحتلال الرومانيّ، لذلك أسلموه إلى بيلاطس البنطيّ ليُقتَل. كان يُذبح حيوان في يوم الكفّارة في إسرائيل القديمة، ويُنضح دمه على غطاء تابوت الشهادة في قدس الأقداس، ثمّ تُنقل خطايا الشعب بشكل رمزيّ إلى كبش الفداء، ثم يؤخَذ بعد ذلك خارجًا إلى البريّة، خارج المحلّة، إلى الظلمة الخارجيّة (لاويين ١٦). هذا ما كان يعنيه أن يُسلّم اليهوديّ للأمم. عندما يُسلّم بين أيدي الوثنيّين فهذا يعني أنّه يجب أنْ يُرسلَ خارج جماعة العهد، خارج المحلّة، خارج المكان الذي كان حضور الله فيه كثيفًا ومركّزًا. لذلك، لا بدّ أنّ التلاميذ أُصيبوا بالذعر عندما أخبرهم يسوع أنّه سيُسلم إلى الأمم.

توق للقوّة والمنصب

كانت هذه هي المرّة الثالثة التي وَضع فيها يسوع أمامَ تلاميذه **theologia crucis**، أي لاهوته عن الصليب، مؤكّدًا أنّ الخلاص هو

عن طريق الألم والموت. ولكن، ما إنْ قالَ هذه الأشياء، حتّى تقدّم منه اثنان من أكثر تلاميذه ثقة بطلبٍ بناءً على **theologia gloriae**، أي على لاهوت المجد. ما زالا لا يفهمان رسالته؛ فهما لا يزالان يأملان أنْ يَقبَلَ يسوع مُلكَه المسيانيّ، ويأتي بملكوت الله بكلّ مجده، لكي لا يشاركا فيه فحسب، بل ليكونَ لهما فيه مناصب عالية.

يُخبرنا مَرْقُس: **وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ يَعْقُوبُ وَيُوحَنَّا ٱبْنَا زَبْدِي قَائِلَيْنِ: يَا مُعَلِّمُ، نُرِيدُ أَنْ تَفْعَلَ لَنَا كُلَّ مَا طَلَبْنَا** (الآية ٣٥). يبدو أنّ هذَين التلميذَيْن نظرا إلى يسوع كما لو أنّه خادم سماويّ موجود لطاعة أوامِرهما ومنحهما مشتهى قلبَيْهما. جاءَا إليه بأمرٍ أكثر ممّا هو بطلبٍ. بالطبع، غالبًا ما نقع نحن في الخطأ نفسه، فنرشق الله طلبًا بعد الآخر، وأمرًا بعد الآخر، مُركّزين في احتياجاتنا ورغباتنا الخاصّة. لا ينبغي أنْ يكون الأمر كذلك، بل يجب أنْ نركّز في الله ومجدِه، وكذلك في ما هو خير لقريبنا، قبل التركيز في احتياجاتنا الخاصّة.

يتابع مَرْقُس: **فَقَالَ لَهُمَا: مَاذَا تُرِيدَانِ أَنْ أَفْعَلَ لَكُمَا؟ فَقَالَا لَهُ: أَعْطِنَا أَنْ نَجْلِسَ وَاحِدٌ عَنْ يَمِينِكَ وَٱلْآخَرُ عَنْ يَسَارِكَ فِي مَجْدِكَ** (الآيتان ٣٦–٣٧). إلى حدّ ما، كان طلبُ يعقوب ويوحنّا طلبًا غير اعتياديّ. كانا يطلبان أنّه عند تتويج يسوع كملك الملوك، أنْ يختارَ واحدًا منهما ليجلسَ عن يمينه؛ وهذه هي الدرجة الثانية للسلطة في أيّ مملكة، والآخر عن يساره؛ وهي الدرجة الثانية في المراتب السياسيّة. بعبارة أبسط، أرادا مرتبة ومكانة. أرادا مناصبَ أبديّة في السلطة.

عندما أقرأ هذا النصّ، لا يسعني إلّا التفكير في الفيلسوف الوثنيّ فريدريك نيتشه، الذي قال في القرن التاسع عشر إنّ ما يُميّز الإنسان عن الحيوانات ليس قدرتنا على التفكير، بل الإرادة للوصول إلى القوّة، الدافع الموجود داخل كلّ إنسان إلى التغلّب وتسلّق السلّم للوصول إلى أعلى

الأمجاد. قال بعض اللاهوتيّين إنّ الخطية هي مُجرّد فضيلة توجّهت نحو الفساد، لأنّ الله يغرس في قلب كلّ مخلوق طموحًا للأهميّة، لكنّنا نلوي هذا الطموح الجيّد ليُصبح رغبةً في السيطرة على الآخرين. يبدو أنّ هذا كان الدافع وراء طلب يعقوب ويوحنّا.

عندما سَمِعَ يسوع طلبهما الجريء هذا، قال لهما: «**لَسْتُمَا تَعْلَمَانِ مَا تَطْلُبَانِ. أَتَسْتَطِيعَانِ أَنْ تَشْرَبَا ٱلْكَأْسَ ٱلَّتِي أَشْرَبُهَا أَنَا، وَأَنْ تَصْطَبِغَا بِٱلصِّبْغَةِ ٱلَّتِي أَصْطَبِغُ بِهَا أَنَا؟**» (الآية ٣٨). عرف يسوع أنّ يعقوب ويوحنّا لم يفهما كلّ ما يتضمّنه طلبهما. لذلك، طرح عليهما سؤالًا لدفعهما إلى الإفصاح عن أفكارهما الخاطئة. استخدمَ في هذا السؤال صورتَيْن مجازيّتَيْن للإشارة إلى اختباره القادم، الاختبار الذي سيختبرانه أيضًا إنْ رغبا فعلًا في الجلوس عن يمينه ويساره في المجد.

سألهما يسوع أوّلًا: «أَتَسْتَطِيعَانِ أَنْ تَشْرَبَا ٱلْكَأْسَ ٱلَّتِي أَشْرَبُهَا أَنَا؟» حدث هذا قبل جثسيماني، عندما طلب يسوع من الآب بألم: «أَجِزْ عَنِّي هَذِهِ ٱلْكَأْسَ. وَلَكِنْ لِيَكُنْ لَا مَا أُرِيدُ أَنَا، بَلْ مَا تُرِيدُ أَنْتَ» (١٤: ٣٦). إذن، ربّما لم يعرف التلميذان أنّ يسوع اعتبرَ آلامه كأسًا لا بدّ له أنْ يشربَه. ومع ذلك، كانت ملاحظته إشارة واضحة إلى الأحداث القادمة في أورشليم والتي كان يُنبئهما بها. ثانيًا، سألهما: «هل أنتما مستعدّان أنْ تَصْطَبِغَا بِٱلصِّبْغَةِ ٱلَّتِي أَصْطَبِغُ بِهَا أَنَا؟ لم يقصد بذلك معموديّة يوحنّا التي نالها في نهر الأردن، بل كان يتحدّث عن غيظِ غضبِ الله الذي سيغمره، وكيف سيغرَق تحت دينونة الآب. كان يسوع يقولُ لهم: «تقولان إنّكما تريدان أنْ تجلسا عن يميني ويساري في مجدي، لكن لا يوجد **theologia gloriae** من دون **theologia crucis**: لا يوجد مجدٌ بعيدًا عن الصليب».

كان الجهلُ صاعقًا في ردّ التلميذَيْن: **قَالَا لَهُ: نَسْتَطِيعُ** (الآية ٣٩أ). ظنّا أنّهما قويّان ومُلتزمان بيسوع، لكنّهما لم يعرفا أنّهما سيتخلّيان عنه عند

ظهورِ أوّل إشارة لمأزق خطير ليتركاه يشرب الكأس وحده ويخضع لتلك المعموديّة.

لم ينتهرهما يسوع، بل قال لهما: «**أَمَّا ٱلْكَأْسُ ٱلَّتِي أَشْرَبُهَا أَنَا فَتَشْرَبَانِهَا، وَبِالصِّبْغَةِ ٱلَّتِي أَصْطَبِغُ بِهَا أَنَا تَصْطَبِغَانِ**» (الآية ٣٩ب). يُلمّح يسوع هنا إلى أنّ هذين التلميذَيْن سوف يُعانيان كثيرًا، على الأقلّ جسديًّا، بآلام تُشبه آلامه. لكنّهما لن يُضطرّا أن يتحمّلا آلام حجب وجه الآب عنه. لم يطلب الله أبدًا من أيّ واحد منّا أن يشربَ الكأسَ التي شربها يسوع، أو أن يعتمد المعموديّة التي اختبرها يسوع. مع هذا، نحن مدعوّون إلى الارتباط مع تلك الكأس وتلك المعموديّة. معموديّة الماء التي نلناها، وهي علامة العهد الجديد، تُشير إلى أنّنا قد اتّحدنا بالمسيح في موته وقيامته. يجب أنْ نكونَ على استعداد للارتباط مع يسوع في خزيه وإذلاله، وإلّا فلن نشارك أبدًا في ارتفاعه ومجده. لكنّه يَعِدُ بأنّ كلّ الذين يرتبطون معه في آلامه سيشاركون حقًّا معه في مجده (رومية ٨: ١٦–١٨). هذا هو الرجاء المسيحيّ.

ثمّ أضاف يسوع: «**وَأَمَّا ٱلْجُلُوسُ عَنْ يَمِينِي وَعَنْ يَسَارِي فَلَيْسَ لِي أَنْ أُعْطِيَهُ إِلَّا لِلَّذِينَ أُعِدَّ لَهُمْ**» (الآية ٤٠). قال يسوع ليعقوب ويوحنّا إنّه لا يستطيع تلبية طلبهما، لأنّ القرار لا يعود إليه. إنّه اختيار على الآب أنْ يقومَ به، وقد فعل ذلك بالفعل، لأنّ هذه المناصب سبق أنْ «أعدّها». لقد قام بهذا الاختيار منذ الأزل.

العَظَمة بالخدمة

يُصرّح كتّاب الكتاب المقدّس أحيانًا تصريحات مُدهشة، وقد استخدم مَرْقُس واحدة منها عندما كتبَ: **وَلَمَّا سَمِعَ ٱلْعَشَرَةُ ٱبْتَدَأُوا يَغْتَاظُونَ مِنْ أَجْلِ يَعْقُوبَ وَيُوحَنَّا** (الآية ٤١). قد نقع في تجربة الافتراض بأنّ التلاميذ العشرة الآخرين شعروا بالاستياء لأنّ يعقوب ويوحنّا تقدّما بمثل هذا الطلب لأنّهم

كانوا يرغبون في تقديم الطلب نفسه. لا يذكر النصّ ذلك بشكل صريح، لكنّنا نعلم أنّ أحدًا من التلاميذ قد أدركَ تمامًا ما كان يسوع على وشك أنْ يختبره، وأنّهم تجادلوا فيما بينهم حول من سيُعتبَر الأعظم (٩: ٣٣–٣٤). في جميع الأحوال، حدث توتّر في وِحدة تلاميذ يسوع بسبب طلب يعقوب ويوحنّا الأنانـيّ.

استخدم يسوع ما حدثَ ليعلّم تلاميذَه درسًا نحتاج جميعًا أنْ نتعلّمه. يقول مَرْقُس: **فَدَعَاهُمْ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ ٱلَّذِينَ يُحْسَبُونَ رُؤَسَاءَ ٱلْأُمَمِ يَسُودُونَهُمْ، وَأَنَّ عُظَمَاءَهُمْ يَتَسَلَّطُونَ عَلَيْهِمْ. فَلَا يَكُونُ هَكَذَا فِيكُمْ. بَلْ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَصِيرَ فِيكُمْ عَظِيمًا، يَكُونُ لَكُمْ خَادِمًا، وَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَصِيرَ فِيكُمْ أَوَّلًا، يَكُونُ لِلْجَمِيعِ عَبْدًا. لِأَنَّ ٱبْنَ ٱلْإِنْسَانِ أَيْضًا لَمْ يَأْتِ لِيُخْدَمَ بَلْ لِيَخْدِمَ وَلِيَبْذِلَ نَفْسَهُ فِدْيَةً عَنْ كَثِيرِينَ** (الآيات ٤٢–٤٥).

بدأ يسوع بالاستشهاد بمثال السلطات العلمانيّة بين الأمم، قائلًا إنّهم يسعون إلى «السيادة» على الذين هم تحت سلطتهم، أي أنّهم يُسيئون بذلك استخدام السلطة. لم يكن يتمتّعون بأيّ إحساس بالمسؤوليّة، أو بالرغبة في الخدمة. ولكنّ يسوع أكّد أنّ على الكنيسة ألّا تستخدمَ أسلوبَ القيادة هذا. قال لهم بشكل أساسيّ: «لا ينبغي أنْ يكونَ هذا فيكم. ربّما يكون هذا أسلوب العالم، لكنّني لن أستسيغ هذا في بيتي». لقد نزل كلام يسوع هذا كمطرقة على التلاميذ، وما هذا إلّا دليل بأنّ الموضوع مهمّ للغاية بالنسبة إليه.

إذن، ما هو أسلوب القيادة الذي يجب استخدامه بين المؤمنين؟ قال يسوع: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَصِيرَ فِيكُمْ أَوَّلًا، يَكُونُ لِلْجَمِيعِ عَبْدًا». أنا لا أحبّ هذا النصّ، وأفضّل الطريقة العلمانيّة لأنّني، من الداخل، أفضّل أنْ أُخْدَمَ على أنْ أَخدِمَ. لكنّ يسوع لن يقبلَ بذلك. قال: من أراد أنْ يكونَ عظيمًا، فعليه أنْ يكون صغيرًا. وإنْ أردنا أنْ نعلو، فعلينا أنْ ننخفض. وإنْ أردنا أنْ نَحكمَ، فعلينا أنْ نَخدُمَ. هذه هي مبادئ يسوع الأخلاقيّة. يجب على القادة

أنْ يعتبروا أنفسَهم خُدّامًا.

أخيرًا، قال يسوع: «لِأَنَّ ٱبْنَ ٱلْإِنْسَانِ أَيْضًا لَمْ يَأْتِ لِيُخْدَمَ بَلْ لِيَخْدِمَ وَلِيَبْذِلَ نَفْسَهُ فِدْيَةً عَنْ كَثِيرِينَ». أحيانًا، بينما نتأمّل في حياة يسوع، نحكّ رؤوسَنا متسائلين لماذا قال يسوع ما قاله، ولماذا فعل ما فعله، وما الذي كان يُحفّزه، وما الذي أراده بالفعل. حسنًا، لقد أوضح ما يريده هنا، فقد أخبر تلاميذه لماذا أتى، ولماذا هو مُنطلق بعزم وتصميم إلى أورشليم. بأبسط العبارات الممكنة، لقد جاء ليَخدِمَ- ليُضحّي بحياتَه على صليب وحشيّ فدية لكثيرين.

كانت نظريّة الفدية للكفّارة إحدى التحريفات الفظيعة لعمل المسيح. تُفيد هذه النظريّة أنّه عندما صُلب يسوع، سدّد حسابًا للشيطان، تمامًا كما تُدفع فدية للخاطف. كانت الفكرة أنّ الشيطانَ هو رئيس العالم، وأنّه قام بأسر البشريّة، فدفع يسوع فديةً للشيطان ليحرّرنا من قبضته. إلّا أنّ الكتاب المقدّس لم يذكرْ شيئًا من هذا القبيل أبدًا. لم يدفع يسوع فديةً للشيطان، بل سحق رأسه. دُفعت الفدية للآب، إذ بذل المسيح نفسَه لإشباع مطالب عدالة الله، فاشترى حرّيّتنا من غضب الله العادل. لهذا السبب أعلن بولس: «قَدِ ٱشْتُرِيتُمْ بِثَمَنٍ» (١كورنثوس ٧: ٢٣أ). وعليه، نحن الذين كنّا بلا رجاءٍ مَدينين لله أصبحنا غير مُطالَبين بالدفع، فقد سدّد دينَنا عبدُ إسرائيل المتألّم.

٣٦

رجل أعمى يرى

مَرْقُس ١٠: ٤٦-٥٢

وَجَاءُوا إِلَى أَرِيحَا. وَفِيمَا هُوَ خَارِجٌ مِنْ أَرِيحَا مَعَ تَلَامِيذِهِ وَجَمْعٍ غَفِيرٍ، كَانَ بَارْتِيمَاوُسُ ٱلْأَعْمَى ٱبْنُ تِيمَاوُسَ جَالِسًا عَلَى ٱلطَّرِيقِ يَسْتَعْطِي. فَلَمَّا سَمِعَ أَنَّهُ يَسُوعُ ٱلنَّاصِرِيُّ، ٱبْتَدَأَ يَصْرُخُ وَيَقُولُ: يَا يَسُوعُ ٱبْنَ دَاوُدَ، ٱرْحَمْنِي! فَٱنْتَهَرَهُ كَثِيرُونَ لِيَسْكُتَ، فَصَرَخَ أَكْثَرَ كَثِيرًا: يَا ٱبْنَ دَاوُدَ، ٱرْحَمْنِي. فَوَقَفَ يَسُوعُ وَأَمَرَ أَنْ يُنَادَى. فَنَادَوْا ٱلْأَعْمَى قَائِلِينَ لَهُ: ثِقْ! قُمْ! هُوَذَا يُنَادِيكَ. فَطَرَحَ رِدَاءَهُ وَقَامَ وَجَاءَ إِلَى يَسُوعَ. فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ: مَاذَا تُرِيدُ أَنْ أَفْعَلَ بِكَ؟ فَقَالَ لَهُ ٱلْأَعْمَى: يَا سَيِّدِي، أَنْ أُبْصِرَ! فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: ٱذْهَبْ. إِيمَانُكَ قَدْ شَفَاكَ. فَلِلْوَقْتِ أَبْصَرَ، وَتَبِعَ يَسُوعَ فِي ٱلطَّرِيقِ.

نقرأ في كلّ الأناجيل الإزائيّة، مقطعًا تلو الآخر، عن مناسباتٍ استخدمَ فيها يسوع قُدرتَه المعجزيّة لشفاء الناس من أمراض مُختلفة. غير أنّنا نُعطى في حالة واحدة فقط اسم الشخص الذي شفاه يسوع، وهذا موجود في هذا المقطع الذي يصف شفاءَ رجل أعمى اسمه بَارْتِيمَاوُس. لذلك، من

المستحيل ألّا نتساءَل عمّا إذا كانت هذه مجرّد صُدفة، أم أنّ مَرْقُس تقصّد ذكرَ اسم هذا الرجل.

يبدو بالتأكيد أنّ مَرْقُس تقصّد ذِكر هذه الرواية في إنجيله. للوهلة الأولى، من الغريب أنْ يختارَ مَرْقُس سرد حادثة شفاء أخرى ليسوع، خاصّة في هذا الوقت بالتحديد، بينما كان يسوع متوجّهًا بحزم وإصرار نحو أورشليم ونهاية خدمته. ما الأمر الذي كان مُهمًّا لهذه الدرجة في هذه الواقِعة؟

أعتقدُ أنّ الإجابةَ تكمن في حقيقةِ أنّ هذه الرواية تتبع رواية مَرْقُس عن المناقشة التي جرت بين يسوع وتلاميذه، بعد أنْ طلبَ يعقوب ويوحنّا أنْ يسمحَ لهما بالجلوس واحد عن يمينه وآخر عن يساره في مجده. كما رأينا في الإصحاح السابق، أخذَ يسوع وقتًا كافيًا ليعلّم تلاميذَه أنّ التلمذة الحقيقيّة لا تعني السعي إلى التربّع على مركز القوّة والسلطة، بل إنّ الأعظم في ملكوت الله هم الذين يخدمون. في هذا السياق، يقف بَارْتِيمَاوُسُ في تناقض صارخ مع سلوك التلاميذ وهم يتخاصمون فيما بينهم على المكانة والمرتبة. كان هذا الرجل يستجدي على الطريق؛ كان يُعتبر الأدنى في المجتمع العبريّ من حيث موقعه في الحياة، واعتراف المجتمع به، ومكانته العامّة. يُفترض أنّه لم يكن يرتدي سوى خرق من القماش بينما كان قابعًا هناك، على أمل أنْ يُلقي أحدهم بقطعة نقود في إنائه، حتّى يتمكّن من تناول وجبته التالية، أو ليجدَ مكانًا يبيت فيه ليلته. بتخصيصه وقتًا لخدمة هذا الرجل الوضيع، قدّم يسوع مثالًا قويًّا لتلاميذه.

«يا ابن داود، ارحمني»

يكتب مَرْقُس: **وَجَاءُوا إِلَى أَرِيحَا** (الآية ٤٦أ). لاحظْ أنّ هذه ليست أريحا المذكورة في العهد القديم، المدينة الأولى التي هاجمها الإسرائيليّون عندما دخلوا أرض الميعاد، والتي لا يُمكننا أنْ ننسى كيف جعلَ الله أسوارَها

تسقط. إنّما كانت هذه مدينة أريحا العهد الجديد الواقعة على بعد حوالَي ثمانية عشر ميلًا شمال أورشليم. يعتقد علماء الآثار أنّ هذه المدينة هي واحدة من اثنتين كانت من أكثر المدن المأهولة بالناس لأطول فترة زمنيّة على وجه الأرض، ودمشق هي المدينة الأخرى. تقع أريحا في الصحراء، لكن يُمكن لأيّ شخص يقترب منها أنْ يُدركَ حالًا سبب وجود بلدة هناك. يستطيع المسافرون، حتّى من مسافة بعيدة، رؤية مجموعة من أشجار النخيل التي تنمو جنبًا إلى واحدة من أغنى وأوسع الواحات في تلك المنطقة، حيث كان الحجّاج المرهَقون يرتاحون فيها وهم في طريقهم إلى أورشليم.

ثمّ يُخبرنا مَرْقُس: **وَفِيمَا هُوَ خَارِجٌ مِنْ أَرِيحَا مَعَ تَلَامِيذِهِ وَجَمْعٍ غَفِيرٍ، كَانَ بَارْتِيمَاوُسُ ٱلْأَعْمَى ٱبْنُ تِيمَاوُسَ جَالِسًا عَلَى ٱلطَّرِيقِ يَسْتَعْطِي** (الآية ٤٦ب). كان يسوع يُغادر المدينة برفقة حشد كبير من الناس حين مرّ بشحّاذ أعمى. يُخبرنا مَرْقُس أنّ اسمه كان بَارْتِيمَاوُسُ، وأنّه ابن تِيمَاوُسَ. وَقَعَ مَرْقُس حين أخبرَنا بذلك بالإطناب، لأنّ كلّ يهودي يقرأ هذه الرواية سيعرف أنّ اسم بَارْتِيمَاوُسُ يعني «ابن تِيمَاوُسَ». البادئة **bar** تعني «ابن». لهذا السبب عرّف يسوعُ بطرسَ أنّه «سمعان **bar** يونا» (متى ١٦: ١٧)؛ لقد كان ابن يونا. كذلك، فإنّ الشخص الذي مرّ في **bar mitzvah** كان «ابن الوصية». للوهلة الأولى، يبدو أنّه لم يكن من الضروريّ أنْ يشرحَ مَرْقُس أنّ اسم بَارْتِيمَاوُسُ يعني «ابن تيماوس»، ولكن كما سبق ورأينا، كان مَرْقُس يكتب للأمم الذين لم يكونوا مُلمّين دائمًا بأنساب العبرانيّين أو تقاليدهم أو أسمائهم.

يُخبرنا مَرْقُس أيضًا أنّ بَارْتِيمَاوُسُ كان ضريرًا، وأنّه كان يستعطي ليُعيل نفسه. عندما كنت طالب دكتوراه في هولندا، سافرت بالقطار إلى العاصمة أمستردام. يجب على الركّاب المغادرين من المحطّة المركزيّة في

أمستردام عبور جسرٍ يؤدّي إلى وسط المدينة. كُنت في كلّ مرّة أعبر ذلك الجسر، أمرّ برجل أعمى يضع قبّعته على الرصيف لجمع الصَدَقات. بعد أنْ غادرتُ هولندا، لم أعدْ إليها لمدّة أربع سنوات، لكن عندما عُدت أخيرًا وخرجت من المحطة المركزيّة في طريقي إلى المدينة، كان هذا الرجل الأعمى نفسه لا يزال هناك يجمع الصَدَقات. وبعد مرور بضع سنوات، أرسلَ لي صديق من هولندا كتابًا يحتوي على صور فوتوغرافيّة لمدينة أمستردام، تُظهر إحداها الجسر المؤدّي إلى المحطّة المركزيّة- وكان فيها ذلك الرجل على الجسر. إنّ رؤيتي المستمرّة لهذا الرجل على مدى فترة طويلة من الزمن، أعطتني إحساسًا بما يشعر به أولئك المكفوفين من عجز، والذين يجب عليهم الاستجداء لإعالة أنفسهم.

كان يتمتّع بَارْتِيمَاوُسُ بناحية إيجابيّة واحدة على الأقلّ وهي الموقع الذي اتّخذه لنفسه. كانت أريحا تقع على أحد الطُرق الرئيسة في ذلك اليوم، لذلك كانت هناك حركة مرور ثابتة تعبر المدينة. لهذا السبب، كانت مكانًا مثاليًّا للمتسوّل لطلب الصَدَقات. ربّما كان بَارْتِيمَاوُسُ مُتمركزًا على هذا الطريق كما كان ذلك المتسوّل على جسر أمستردام. أتخيّل أنّه كان يجلس على الطريق طوال اليوم بدون أنْ يرى أحدًا، ولكنّه كان يسمع خُطى الناس بينما كانوا يقتربون منه، فيتمكّن من طلب الصَدَقات.

يبدو أنّ أصوات الجماهير التي تنتقل مع يسوع جذبت انتباهَه وفضولَه. نقرأ في المقطع الموازي في إنجيل لوقا: «فَلَمَّا سَمِعَ ٱلْجَمْعَ مُجْتَازًا سَأَلَ: مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ هٰذَا؟» (١٨: ٣٦). يبدو أنّ أحدَهم أخبرَه أنّ يسوع كان مارًّا بالجوار، ويبدو أيضًا أنّه كان قد سمع عن يسوع، لأنّ مَرْقُس يكتب: **فَلَمَّا سَمِعَ أَنَّهُ يَسُوعُ ٱلنَّاصِرِيُّ، ٱبْتَدَأَ يَصْرُخُ وَيَقُولُ: يَا يَسُوعُ ٱبْنَ دَاوُدَ، ٱرْحَمْنِي! فَٱنْتَهَرَهُ كَثِيرُونَ لِيَسْكُتَ، فَصَرَخَ أَكْثَرَ كَثِيرًا: يَا ٱبْنَ دَاوُدَ، ٱرْحَمْنِي** (الآيتان ٤٧-٤٨).

عندما عرف بَارْتِيمَاوُس أنّ يسوع كان مارًّا بالجوار، أحدثَ جعجعةً صاخبة. بدأ يصرخ: «يَا يَسُوعُ ٱبْنَ دَاوُدَ، ٱرْحَمْنِي!» طلب منه بعض الذين كانوا بين الجماهير أنْ يسكتَ، ظنًّا منهم أنّ يسوع لا يريد أنْ يتعامل مع متسوّل مسكين. لكنّ هذا لم يردعْ بَارْتِيمَاوُس، بل ظلّ يصرخ طالبًا الرحمة.

يُدهشني لاهوتُ بَارْتِيمَاوُس السليم الذي انعكسَ في التماسه. كان يَعلَمُ أنّ المسيّا، مُخلّصَ إسرائيل الذي طالَ انتظاره، سيخرج من نسل داود وذريّته (٢ صموئيل ٧: ١٢–١٣؛ إشعياء ٩: ٧)، وأنّه سيكون من أحفاد داود، وأنّه سيكون ابن داود، وفي الوقت نفسه ربّ داود (مزمور ١١٠: ١؛ متّى ٢٢: ٤٢–٤٥). ومع هذا، صرخ طالبًا الرحمة. يا لهذا الاختلاف الكبير بين التماسِه والتماس يعقوب ويوحنّا؛ طلب التلميذان مناصب قوّة كما لو أنّهما يستحقّان ذلك، بينما طلب بَارْتِيمَاوُس الرحمةَ بدون أيّ تلميح بأنّه يستحقّ مساعدة يسوع. من الجليّ أنّ بَارْتِيمَاوُسَ جاءَ إلى يسوع بموقف قلبيّ أفضل.

كما رأينا، كان يسوع يتقدّم نحو أورشليم بعزم وتصميم ليواجه عار وعذاب وألم وخزي الصليب. ولكنّ يسوع توقّف في مكانه عندما سمع صرخةَ بَارْتِيمَاوُس الحزينة. يكتب مَرْقُس أنّه عندما سمع المتسوّل يصرخ إلى «ابن داود»، **وَقَفَ يَسُوعُ وَأَمَرَ أَنْ يُنَادَى** (الآية ٤٩أ). قال لتلاميذه: «قولوا لي مَن الذي ناداني. أحضروه إليّ. لن أتحرّك خطوة أخرى نحو أورشليم قبل أنْ أرى هذا الرجل».

يتابع مَرْقُس: **فَنَادَوْا ٱلْأَعْمَى قَائِلِينَ لَهُ: ثِقْ! قُمْ! هُوَذَا يُنَادِيكَ** (الآية ٤٩ب). مُناداة الربّ شيء، ولكنّه شيء مُختلف عندما هو ينادينا. هنا يكمن خلاصنا الحقيقيّ. كان الجمهور على حقّ– فَرِح بَارْتِيمَاوُس كثيرًا عندما دعاه يسوع ليأتي إليه. يُخبرنا مَرْقُس أنّه **طَرَحَ رِدَاءَهُ وَقَامَ وَجَاءَ إِلَى يَسُوعَ** (الآية ٥٠). هذا بالضبط ما ينبغي أنْ يفعلَه كلّ واحد عندما يقترب

يسوع. عليهم أنْ يرموا جانبًا كلّ ما يعوّقهم، ثمّ أن يقفوا ويهرعوا إلى يسوع.

«ربّي وسيّدي»

ثمّ يكتب مَرْقُس: **فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ: مَاذَا تُرِيدُ أَنْ أَفْعَلَ بِكَ؟** (الآية ٥١أ). هل يُذكّركم هذا السؤال بشيء ما؟ عندما اقترب يعقوب ويوحنّا بطلبهما، قال لهما يسوع: مَاذَا تُرِيدَانِ أَنْ أَفْعَلَ لَكُمَا؟ (١٠: ٣٦). تابعا وقدّما له طلبهما الجريء بأنْ يجلسَ أحدهما عن يمين يسوع، والآخر عن يساره في المجد. يا للاختلاف العظيم بين إجابة بَارْتِيمَاوُس عندما طرح عليه يسوع السؤال نفسه الذي طرحه على تلميذَيْه. قال بَارْتِيمَاوُسُ» **«يَا سَيِّدِي، أَنْ أُبْصِرَ»** (الآية ٥١ب). لم يطلب مكانة اجتماعيّة، ولم يطلب المجد. لم يطلب أن يُرفّع في ملكوت يسوع. لم يطلب حتّى أنْ يُنقذَه من فقره. كان يتوسّل الربّ أنْ يكونَ لديه ما يتمتّع به كلّ إنسان تقريبًا. أراد بكلّ بساطة أنْ يكون قادرًا أنْ يرى. كان بَارْتِيمَاوُسُ رجلًا بسيطًا. كان يتوقُ لأمر واحد– الخروج من الظلام الدامس الذي كان يُحدّد حياته مُعرّضًا إيّاه للخطر بينما كان يتلمّس طريقه، والذي جعله يعتمد دائمًا على شخص آخر ليأخذه مِن يده ويقوده. لذلك صرخ: «كلّ ما أريده يا ربّ، أنْ أبصرَ».

لكنّه لم يُعبّر عن ذلك بهذه الطريقة بالضبط. نرى مرارًا وتكرارًا في الأناجيل أنّه عندما كان الناس يتحدّثون مع يسوع، كانوا يخاطبونه بلقب «معلّم» أو «راباي». لكنّ بَارْتِيمَاوُسُ دعاه «ربّوني». هذا هو اللقب نفسه الذي صرخت به مريم المجدليّة عندما قابلت الربّ يسوع في صباح يوم قيامته (يوحنّا ٢٠: ١٦).

هذا التغيير البسيط في لقب «راباي» مُهمّ جدًّا. كلمة «ربّوني» تعني أكثر بكثير من «بروفيسور» أو «مُعلّم». لها أهميّة شخصيّة كبيرة وهي في الواقع اعتراف إيمان. كان بَارْتِيمَاوُسُ يقول ليسوع: «ربي وسيّدي، اجعلني

أرى». يُقدّم لنا مَرْقُس في هذا المقطع صورةً لتلميذٍ حقيقيّ فقير بثياب رثّة وأعمى، لكنّه تلميذ تعرَّف على المسيح وخاطبه قائلًا «ربّي وسيّدي». كان يسوع قد علّم تلاميذه للتوّ عن أهميّة أنْ يكونوا خُدّامًا. أنْ يكون الإنسان خادمًا يعني أنّه يخدم سيّدًا. لقد فشل التلاميذ في إدراك هذه الحقيقة، أمّا هذا الأعمى فقد نجح في ذلك.

أخيرًا يكتب مَرْقُس: **فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: ٱذْهَبْ. إِيمَانُكَ قَدْ شَفَاكَ. فَلِلْوَقْتِ أَبْصَرَ، وَتَبِعَ يَسُوعَ فِي ٱلطَّرِيقِ** (الآية ٥٢). مدح يسوع إيمانَ بَارْتِيمَاوُسُ مُعلنًا شفاءَه، وهكذا أصبح المتسوّل قادرًا أنْ يرى ربّما للمرّة الأولى في حياته. يرغب معظم العُميان الذين استعادوا بصرهم في الركض عبر المدينة لرؤية جميع المشاهد التي لا يعرفونها إلّا من خلال وصف الآخرين لها. أمّا بَارْتِيمَاوُسُ فلم يفعل هذا، بل ما إنْ أبصرَ رأى يسوع، ولم يرغب بشيء أكثر من أن يتبعَه إلى أورشليم حتّى موته. هذه هي رغبة كلّ مَن أُعطيَ عينَان ليبصر وأذنان ليسمع حقيقة إنجيل يسوع المسيح.

٣٧

ما وراء
دخولِ يسوع المظفّر

مَرْقُس ١١: ١-١١

وَلَمَّا قَرُبُوا مِنْ أُورُشَلِيمَ إِلَى بَيْتِ فَاجِي وَبَيْتِ عَنْيَا، عِنْدَ جَبَلِ ٱلزَّيْتُونِ، أَرْسَلَ ٱثْنَيْنِ مِنْ تَلَامِيذِهِ، وَقَالَ لَهُمَا: ٱذْهَبَا إِلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي أَمَامَكُمَا، فَلِلْوَقْتِ وَأَنْتُمَا دَاخِلَانِ إِلَيْهَا تَجِدَانِ جَحْشًا مَرْبُوطًا لَمْ يَجْلِسْ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ ٱلنَّاسِ. فَحُلَّاهُ وَأْتِيَا بِهِ. وَإِنْ قَالَ لَكُمَا أَحَدٌ: لِمَاذَا تَفْعَلَانِ هَذَا؟ فَقُولَا: ٱلرَّبُّ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ. فَلِلْوَقْتِ يُرْسِلُهُ إِلَى هُنَا. فَمَضَيَا وَوَجَدَا ٱلْجَحْشَ مَرْبُوطًا عِنْدَ ٱلْبَابِ خَارِجًا عَلَى ٱلطَّرِيقِ، فَحَلَّاهُ. فَقَالَ لَهُمَا قَوْمٌ مِنَ ٱلْقِيَامِ هُنَاكَ: مَاذَا تَفْعَلَانِ، تَحُلَّانِ ٱلْجَحْشَ؟ فَقَالَا لَهُمْ كَمَا أَوْصَى يَسُوعُ. فَتَرَكُوهُمَا. فَأَتَيَا بِٱلْجَحْشِ إِلَى يَسُوعَ، وَأَلْقَيَا عَلَيْهِ ثِيَابَهُمَا فَجَلَسَ عَلَيْهِ. وَكَثِيرُونَ فَرَشُوا ثِيَابَهُمْ فِي ٱلطَّرِيقِ. وَآخَرُونَ قَطَعُوا أَغْصَانًا مِنَ ٱلشَّجَرِ وَفَرَشُوهَا فِي ٱلطَّرِيقِ. وَٱلَّذِينَ تَقَدَّمُوا، وَٱلَّذِينَ تَبِعُوا كَانُوا يَصْرُخُونَ قَائِلِينَ: أُوصَنَّا! مُبَارَكٌ ٱلْآتِي بِٱسْمِ ٱلرَّبِّ! مُبَارَكَةٌ مَمْلَكَةُ أَبِينَا دَاوُدَ ٱلْآتِيَةُ بِٱسْمِ ٱلرَّبِّ! أُوصَنَّا فِي ٱلْأَعَالِي! فَدَخَلَ يَسُوعُ أُورُشَلِيمَ وَٱلْهَيْكَلَ، وَلَمَّا نَظَرَ حَوْلَهُ إِلَى كُلِّ شَيْءٍ إِذْ كَانَ ٱلْوَقْتُ قَدْ أَمْسَى، خَرَجَ إِلَى بَيْتِ

عَنْيَا مَعَ ٱلِٱثْنَيْ عَشَرَ.

تقليديًّا، تَحتفلُ كنائس كثيرة خلال عيد الميلاد بمجيء يسوع إلى هذا العالم كطفل، وولادته ليُصبح ملكًا. لهذا السبب، أتى السلام الملائكيّ من الأعالي مُبشّرًا بميلاد الطفل المُخلّص (لوقا ٢: ١١). وبعد مرور ثلاثين عامًا تقريبًا، كان ميلاد ذلك الملك في مدينة داود الملكيّة، كما يصف مَرْقُس في هذا المقطع. وهنا نكتشف الصلة التي تربط بين مجيء يسوع إلى العالم لتحقيق النبوءات الملكيّة عن الطفل المسيح، ودخوله إلى أورشليم.

يبدأ الإصحاح ١١ في الثُلث الأخير من إنجيل مَرْقُس. يُركّز هذا الجزء من إنجيل مَرْقُس على ما يبدو أنّه الأيّام السبعة الأخيرة من حياة يسوع. (وبالمثل، يُركّز نصف إنجيل يوحنّا بأكمله تقريبًا على الأسبوع الأخير من حياة يسوع). لقد أدركَ كُتّاب الأناجيل أنّ الأحداث التي وقعت في الفترة القصيرة بين وصول يسوع إلى أورشليم وصعوده إلى السماء قد أكملت وعدَ الله بالفداء.

يدّعي بعض العلماء أنّ مَرْقُس يوجز الوقتَ الذي قضاه يسوع في أورشليم قبل موته. تحتفل الكنائس عادة بأسبوع الآلام ابتداءً من أحدِ الشعانين، ويتبعه الصلب يوم الجمعة العظيمة، ثمّ قيامة المسيح يوم الأحد. يُظهر إنجيل يوحنّا يسوع في أورشليم لمدّة أربعة أشهر قبل صلبه. بالإضافة إلى فكرة إيجاز مَرْقُس هذا الحدَث، هنالك حقيقة مفادها أنّ دخول المسيح المُنتصر لم يكن على الأرجح في فصل الربيع، إنّما في فصل الخريف، أثناء عيد المظال، لأنّ الناس كانوا يحملون أغصان النخيل كجزء من الاحتفال بهذا العيد. في جميع الأحوال، يُعتبر هذا حدثًا مُهمًّا في تاريخ الفداء.

جحش للملك فقط

يبدأ مَرْقُس روايته بقوله: **وَلَمَّا قَرُبُوا مِنْ أُورُشَلِيمَ إِلَى بَيْتِ فَاجِي وَبَيْتِ عَنْيَا، عِنْدَ جَبَلِ ٱلزَّيْتُونِ** (الآية ١أ). لاحِظْ أنّ مَرْقُس يذكر أوّلًا بيت فاجي، ومعناه «بيت التين غير الناضج»، ثمّ ذكر بيت عنيا، ومعناه «بيتُ الكَرَب». يبدو أنّ يسوع، خلال رحلته إلى أورشليم، مرّ أوّلًا عبر بيت فاجي، ثمّ عبر بيت عنيا. واليوم، ينظر النقّاد إلى الطرق المؤدّية من الشمال إلى أورشليم، ويُصرّون على أنّ مَرْقُس قد عَكَس الترتيب. فعلى الإنسان أنْ يمرَّ عبرَ بيت عنيا أوّلًا، ثمّ عبرَ بيت فاجي، للوصول إلى أورشليم. لكنّ هؤلاء النقّاد يغفلون أنّ يسوع لم يكن مسافرًا على الطرق الحديثة السريعة، بل كان يسافر على طريق رومانيّ. ونحن نعلم اليوم أنّ مسار الطريق الرومانيّ كان تمامًا كما قال مَرْقُس.

في جميع الأحوال، جاءَوا إلى جبل الزيتون، ثمّ **أَرْسَلَ ٱثْنَيْنِ مِنْ تَلَامِيذِهِ، وَقَالَ لَهُمَا: ٱذْهَبَا إِلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي أَمَامَكُمَا، فَلِلْوَقْتِ وَأَنْتُمَا دَاخِلَانِ إِلَيْهَا تَجِدَانِ جَحْشًا مَرْبُوطًا لَمْ يَجْلِسْ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنَ ٱلنَّاسِ. فَحُلَّاهُ وَأْتِيَا بِهِ** (الآيتان ١ب–٢). تبدو هذه التعليمات التي أعطاها يسوع لتلاميذه غريبة، إذ يبدو كما لو أنّ يسوع طلبَ من تلاميذه أنْ يذهبوا ويسرقوا حمارًا من أجله. لكن شيئًا من هذا لم يحدث على الإطلاق، بل كان يتقصّد تحقيق النبوءَة. أشار العهد القديم بكلّ وضوح إلى أنّ المسيح سيدخل المدينة راكبًا على حمار. مثلًا، قال زكريا: « هُوَذَا مَلِكُكِ يَأْتِي إِلَيْكِ. هُوَ عَادِلٌ وَمَنْصُورٌ وَدِيعٌ، وَرَاكِبٌ عَلَى حِمَارٍ وَعَلَى جَحْشٍ ٱبْنِ أَتَانٍ» (٩: ٩). كانت تلك النبوءَة مُنتشرة وشائعة بين الناس الذين كانوا ينتظرون ملكهم الآتي. كان أغلب ملوك العالم القديم، كالإسكندر الكبير، يمتطون خيولًا مهيبة، أمّا ملك اليهود فلم يفعل ذلك، بل جاء راكبًا على حمار.

لنبوءَة زكريّا جذور أقدم بكثير في العهد القديم. نجد في سفر التكوين

٤٩ سجلًّا للبركة الأبويّة التي نطق بها يعقوب على أبنائِه. حُرِم ابنه البكر رأوبين من البركة الأبويّة بسبب خطيته، وكذلك حُرم كلّ من شمعون ولاوي. ثمّ أتى يعقوب إلى يهوذا وقال له:

«يَهُوذَا، إِيَّاكَ يَحْمَدُ إِخْوَتُكَ، يَدُكَ عَلَى قَفَا أَعْدَائِكَ، يَسْجُدُ لَكَ بَنُو أَبِيكَ. يَهُوذَا جَرْوُ أَسَدٍ، مِنْ فَرِيسَةٍ صَعِدْتَ يَا ٱبْنِي، جَثَا وَرَبَضَ كَأَسَدٍ وَكَلَبْوَةٍ. مَنْ يُنْهِضُهُ؟ لَا يَزُولُ قَضِيبٌ مِنْ يَهُوذَا وَمُشْتَرِعٌ مِنْ بَيْنِ رِجْلَيْهِ حَتَّى يَأْتِيَ شِيلُونُ وَلَهُ يَكُونُ خُضُوعُ شُعُوبٍ. رَابِطًا بِٱلْكَرْمَةِ جَحْشَهُ، وَبِالْجَفْنَةِ ٱبْنَ أَتَانِهِ، غَسَلَ بِٱلْخَمْرِ لِبَاسَهُ، وَبِدَمِ ٱلْعِنَبِ ثَوْبَهُ». (تكوين ٤٩: ٨-١١)

كان الرجاء بملك يدخل أورشليم كمسيّا قادم راكب على حمار متجذّرًا بعمق في الوعي اليهوديّ بالعهد القديم.

كان من امتيازات الملك في العالم القديم، بما في ذلك في إسرائيل، أنْ يمتطي حيوانًا قادرًا أنْ يحملَ أثقالًا كلّما احتاج إليه. مارس يسوع حقّه هذا كملك، وأمرَ تلاميذَه أنْ يأتوا له بجحشٍ. هنالك أمر آخر ذات أهميّة: لم يمتطِ أحد هذا الجحش من قبل. تحتاج الحمير بالعادة إلى ترويض تمامًا مثل الخيول، لتصبح حيوانات تعمل في حَمْلِ الأثقال. ومع ذلك، كان في الثقافة اليهوديّة مبدأ لا يُسمح من خلاله لأحد بامتطاء حصان الملك أو حماره. لا يستطيع أحد أن يمتطي حيوانات الملك إلّا الملك نفسه. لهذا السبب، طلبَ يسوع بشكلٍ مُحدّد جحشًا لم يمتطيه أحد من قبل؛ كان جحشًا مُعدًّا للملوك.

أضاف يسوع: «**وَإِنْ قَالَ لَكُمَا أَحَدٌ: لِمَاذَا تَفْعَلَانِ هَذَا؟ فَقُولَا: ٱلرَّبُّ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِ. فَلِلْوَقْتِ يُرْسِلُهُ إِلَى هُنَا**». (الآية ٣). هناك بعض الالتباس

فيما يتعلّق بالكلمة المترجمة هنا إلى «ربّ»، **kurios**. يمكن أنْ تعني ببساطة «سيّد»، كما يمكن أنْ تكونَ إشارةٍ إلى «الحاكم والآمر المطلق» على الشعب. نادرًا ما يستخدم مَرْقُس هذا المصطلح عن يسوع، ولكنّ يسوع استخدمه هنا للإشارة إلى نفسه. يبدو أنّه لم يكن يقول ببساطة: «أخبرهم أنّ السيد مُحتاج إليه»، بل بالحري كان يقول: «أخبِرْهم أنّ السيّد، ملك اليهود، يطلب ذلك الحمار». يخبرنا مَرْقُس **فَمَضَيَا وَوَجَدَا ٱلْجَحْشَ مَرْبُوطًا عِنْدَ ٱلْبَابِ خَارِجًا عَلَى ٱلطَّرِيقِ، فَحَلَّاهُ. فَقَالَ لَهُمَا قَوْمٌ مِنَ ٱلْقِيَامِ هُنَاكَ: «مَاذَا تَفْعَلَانِ، تَحُلَّانِ ٱلْجَحْشَ؟ فَقَالَا لَهُمْ كَمَا أَوْصَى يَسُوعُ. فَتَرَكُوهُمَا** (الآيات ٤-٦).

لاحظْ ما حدثَ عندما أحضروا الحمار إلى يسوع. يكتب مَرْقُس: **فَأَتَيَا بِٱلْجَحْشِ إِلَى يَسُوعَ، وَأَلْقَيَا عَلَيْهِ ثِيَابَهُمَا فَجَلَسَ عَلَيْهِ** (الآية ٧). وضع تلاميذُ يسوع ثيابَهم على ظهر الحمار كسرجٍ ليسوع. تُخبرنا الأناجيل الأخرى أيضًا أنّ الناسَ خلعوا ثيابهم عندما انطلق يسوع بموكبه، وألقَوْا بها أمام الحمار. وهكذا، في أحد الشعانين، عند دخول يسوع المنتصر المدينة، كان الحمار يسير فوق ما يُعادل السجّادة الحمراء المصنوعة من ثياب الناس.

لهذه الممارسة جذورها أيضًا في العهد القديم. عندما مُسِح ياهو ملكًا على إسرائيل مكان آخاب، نفخ الشعب في الأبواق، وأعلنوه ملكًا، ثمّ خلعوا ثيابهم ووضعوها في طريق ياهو. عندما نزل الدرج بعد مسحه، سار على ثياب الشعب (٢ ملوك ٩: ١٣). هذا الطقس نفسه حدث مرّة أخرى عندما ألقى الناس ثيابهم أمام يسوع.

وبحسب مَرْقُس، **وَكَثِيرُونَ فَرَشُوا ثِيَابَهُمْ فِي ٱلطَّرِيقِ. وَآخَرُونَ قَطَعُوا أَغْصَانًا مِنَ ٱلشَّجَرِ وَفَرَشُوهَا فِي ٱلطَّرِيقِ. وَٱلَّذِينَ تَقَدَّمُوا، وَٱلَّذِينَ تَبِعُوا كَانُوا يَصْرُخُونَ قَائِلِينَ: «أُوصَنَّا! مُبَارَكٌ ٱلْآتِي بِٱسْمِ ٱلرَّبِّ»** (الآيتان

٨-٩). نتذكّر ما جرى هنا كلّ عام في أحد الشعانين- التلويح بأغصان النخيل والناس يهتفون: «أوصنّا»، ومعناها، «يا ربّ، خلّصنا الآن».

عودة مجد الله

بدأ دخول يسوع المنتصر في بيت عنيا، وهي قرية صغيرة تقع على قِمّة جبل الزيتون، وتُطلّ على وادي قدرون، نزولًا إلى مدينة أورشليم الواقعة على عمق ثلاثمائة قدم منها. هنالك أهميّة خاصّة لذلك.

في عام ٥٨٦ قبل الميلاد، عند دمار أورشليم ونفي شعبها قسرًا إلى بابل، أعطى الله رؤيةً للنبيّ حزقيال. رأى حزقيال في تلك الرؤية مجدَ الله قائمًا من الهيكل في أورشليم. غادر المجد من الجانب الشرقيّ من المدينة وصعد ثلاثمائة قدم ليستقرّ على جبل الزيتون (حزقيال ١١: ٢٣).

عندما كنت في أورشليم، مكثتُ على جبل الزيتون في فندق يُطلّ على المدينة المقدّسة. ذات ليلة، بينما كنت أقفُ في فناء الفندق، نظرت إلى الأسفل عبر وادي قدرون، ورأيت جدران أورشليم المضيئة، فتذكّرت تلك الرؤية التي رآها حزقيال. تخيّلت في ذهني مجدَ الله يترك الهيكل، قادمًا من البوّابة الشرقيّة، ثمّ يرتفع إلى حيث كنتُ موجودًا على جبل الزيتون واستقرّ هناك.

تمسّك بهذه الفكرة للحظة. يقول لنا مَرْقُس بعدَ أنْ وصفَ دخولَ المسيح المُنتصر: **فَدَخَلَ يَسُوعُ أُورُشَلِيمَ وَٱلْهَيْكَلَ، وَلَمَّا نَظَرَ حَوْلَهُ إِلَى كُلِّ شَيْءٍ إِذْ كَانَ ٱلْوَقْتُ قَدْ أَمْسَى، خَرَجَ إِلَى بَيْتِ عَنْيَا مَعَ ٱلِٱثْنَيْ عَشَرَ** (الآية ١١). يبدو أنّ استنتاجَ مَرْقُس لِما جرى هنا مُخيّبًا للآمال في البداية. يبدو كما لو أنّ يسوع دخل أورشليم ثمّ ذهب إلى الهيكل وألقى نظرة حوله، ثمّ عاد إلى بيت عنيا، وكأنّ شيئًا لم يحدث. ولكن، علينا أنْ نتذكّرَ المكان الذي كان

فيه يسوع. في وقت سابق، جعلَ وجهَهُ كالصوّان (إشعياء ٥٠: ٧) ليذهب إلى أورشليم، وهو يعلم أنّه سيتألّم ويموت هناك. لكنّ أورشليم لم تكن وجهته النهائيّة، بل الهيكل. عندما دخل أورشليم ثمّ إلى الهيكل، نظر إلى المكان الذي كانت تُقدَّم فيه الذبائح عبر التاريخ. ذهب إلى الهيكل الذي حلّ مكان خيمة الاجتماع، والذي كان نبوءة حيّة للمسيح الآتي.

نقرأ في إنجيل يوحنّا: «وَٱلْكَلِمَةُ صَارَ جَسَدًا وَحَلَّ بَيْنَنَا... مَمْلُوءًا نِعْمَةً وَحَقًّا» (يوحنّا ١: ١، ١٤). العبارة التي تُرجمت «حلّ بيننا» هي حرفيًّا «خيّم بيننا». هذا لأنّ يسوع تمّم كلّ ما كانت ترمز إليه خيمة الاجتماع. هو المَقْدِس. وعندما قال: «ٱنْقُضُوا هَذَا ٱلْهَيْكَلَ، وَفِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ أُقِيمُهُ» (يوحنّا ٢: ١٩)، كان يُشير إلى نفسه.

وإليكم المفارقة العجيبة الكبرى: في عام ٥٨٦ قبل الميلاد، رأى حزقيال مجدَ الله يغادر الهيكل والمدينة المقدّسة، ويصعد إلى بيت عنيا على جبل الزيتون. في الدخول المنتصر، نزلَ الذي يصفُه الكتاب المقدّس بأنّه بهاءُ مجدِ الله (عبرانيين ١: ٣) من بيت عنيا وجبل الزيتون، ودخل البوّابة الشرقيّة للمدينة المُقدّسة، وذهب إلى الهيكل. هل فَهمتَ قصدي؟ في عام ٥٨٦ قبل الميلاد، غادر مجد الله الهيكل، ولكن عندما جاءَ يسوع، عاد مجدُ الله. ومع ذلك، لم يُدرك أحدٌ أنّ مَلِكَ المجدِ كان في وسطهم وهو على وشك أن يحلّ به المصير الذي دُعي إليه ووُلِد من أجله.

٣٨

الدرس
من شجرة التين

مرقس ١١: ١٢-٢١

وَفِي ٱلْغَدِ لَمَّا خَرَجُوا مِنْ بَيْتِ عَنْيَا جَاعَ، فَنَظَرَ شَجَرَةَ تِينٍ مِنْ بَعِيدٍ عَلَيْهَا وَرَقٌ، وَجَاءَ لَعَلَّهُ يَجِدُ فِيهَا شَيْئًا. فَلَمَّا جَاءَ إِلَيْهَا لَمْ يَجِدْ شَيْئًا إِلَّا وَرَقًا، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ وَقْتَ ٱلتِّينِ. فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهَا: لَا يَأْكُلْ أَحَدٌ مِنْكِ ثَمَرًا بَعْدُ إِلَى ٱلْأَبَدِ! وَكَانَ تَلَامِيذُهُ يَسْمَعُونَ. وَجَاءُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ. وَلَمَّا دَخَلَ يَسُوعُ ٱلْهَيْكَلَ ٱبْتَدَأَ يُخْرِجُ ٱلَّذِينَ كَانُوا يَبِيعُونَ وَيَشْتَرُونَ فِي ٱلْهَيْكَلِ، وَقَلَّبَ مَوَائِدَ ٱلصَّيَارِفَةِ وَكَرَاسِيَّ بَاعَةِ ٱلْحَمَامِ. وَلَمْ يَدَعْ أَحَدًا يَجْتَازُ ٱلْهَيْكَلَ بِمَتَاعٍ. وَكَانَ يُعَلِّمُ قَائِلًا لَهُمْ: أَلَيْسَ مَكْتُوبًا: بَيْتِي بَيْتَ صَلَاةٍ يُدْعَى لِجَمِيعِ ٱلْأُمَمِ؟ وَأَنْتُمْ جَعَلْتُمُوهُ مَغَارَةَ لُصُوصٍ. وَسَمِعَ ٱلْكَتَبَةُ وَرُؤَسَاءُ ٱلْكَهَنَةِ فَطَلَبُوا كَيْفَ يُهْلِكُونَهُ، لِأَنَّهُمْ خَافُوهُ، إِذْ بُهِتَ ٱلْجَمْعُ كُلُّهُ مِنْ تَعْلِيمِهِ. وَلَمَّا صَارَ ٱلْمَسَاءُ، خَرَجَ إِلَى خَارِجِ ٱلْمَدِينَةِ. وَفِي ٱلصَّبَاحِ إِذْ كَانُوا مُجْتَازِينَ رَأَوْا ٱلتِّينَةَ قَدْ يَبِسَتْ مِنَ ٱلْأُصُولِ، فَتَذَكَّرَ بُطْرُسُ وَقَالَ لَهُ: يَا سَيِّدِي، ٱنْظُرْ! اَلتِّينَةُ ٱلَّتِي لَعَنْتَهَا قَدْ يَبِسَتْ.

حيّرت الروايات الكتابيّة عن لعنةِ يسوع شجرة التين العلماءَ لقرون طويلة. من جهة، سجّل لنا هذا السردُ المحيّرُ المعجزةَ الوحيدةَ في العهد الجديد التي نتج عنها هلاك. إضافة إلى ذلك، يبدو من الناحية السطحيّة أنَّ يسوعَ بالغ في ردّ فعله تجاه شجرة التين البريئة هذه لعدم إنتاجها للثمار، في الوقت الذي لم يكن موسم التين قد حان. استشهد الراحل بيرتراند راسل، الذي كتب بحثًا بعنوان «لماذا أنا لستُ مسيحيًّا»، بهذه الرواية كواحدة من الأسباب التي دعته للتبرّؤ من المسيحيّة. قالَ إنّ هذه الحادثة تُظهر يسوع كرجل عبّر عن غضب انتقاميّ لشجرة بريئة، مُظهرًا سلوكًا لا يُمكن أنْ يصدرَ من رجل بارّ، ناهيك من ابنِ الله. حتّى العلماء المسيحيّون الإيجابيّون في تقييمهم ليسوع تحيّروا من هذه القصّة. قال البعضُ إنّ ما جرى يمثّل هدرًا لقوّة خارقة للطبيعة. بالتأكيد، إنّها تُشكّل تحدّيًا بالنسبة إلينا لكي نفهمَ لماذا كان ردّ فعل يسوع بهذه الطريقة.

شجرة تين غير مثمرة

يكتب مَرْقُس: **وَفِي ٱلْغَدِ لَمَّا خَرَجُوا مِنْ بَيْتِ عَنْيَا جَاعَ، فَنَظَرَ شَجَرَةَ تِينٍ مِنْ بَعِيدٍ عَلَيْهَا وَرَقٌ، وَجَاءَ لَعَلَّهُ يَجِدُ فِيهَا شَيْئًا. فَلَمَّا جَاءَ إِلَيْهَا لَمْ يَجِدْ شَيْئًا إِلَّا وَرَقًا، لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ وَقْتَ ٱلتِّينِ.** (الآيتان ١٢–١٣). عندما لم يجد يسوع على شجرة التين تينًا، بل أوراقًا فقط، لعنها قائلًا: «**لَا يَأْكُلْ أَحَدٌ مِنْكِ ثَمَرًا بَعْدُ إِلَى ٱلْأَبَدِ. وَكَانَ تَلَامِيذُهُ يَسْمَعُونَ** (الآية ١٤).

تقدّم بعض الذين يؤمنون بأنّ يسوع معصوم عن الخطأ وبوحي نصّ العهد الجديد للدفاع عن ربّنا، وحاولوا تفسير هذا الحدث الغريب من جهة الدورة الطبيعيّة لنموّ التين. يبدأ موسم التين في الخريف في فلسطين، ولكن في الربيع تظهر على أشجار التين براعم صغيرة تُسمّى **paggim** أو الدافور، ثمّ تنمو أوراق الشجر بعد ذلك. من وقت لآخر، يقطف المسافرون

الجائعون هذه الثمار من أشجار التين ويأكلونها. رغم أنّ نموّها لم يكتمل، إلّا أنّها صالحة للأكل. يقول بعض المفسّرين إنّه كان يجب أنْ تكونَ هذه البراعم موجودة عندما اقتربَ يسوع من شجرة التين، ولكنّه غضب عندما لاحظ أنّها غير موجودة. ومع ذلك، لا أعتقد أنّ هذه هي الإجابة الشافية.

كان أحدُ أساتذتي في معهد اللاهوت في منتصف الثمانينيّات من عمره في ذلك الوقت، وكان أيضًا من أبرز علماء الآثار في القرن العشرين. قد يكون أيضًا أعظمَ خبير على قيد الحياة في عادات شعوب الشرق الأدنى القديم. عندما تأمّلنا معًا في هذا النصّ من إنجيل مَرْقُس، أوضحَ لي أنّه يوجد في فلسطين موسم مُحدّد واضح للتين، وأنّ الغالبيّة العظمى من أنواع التين تُنتج ثمارها في ذلك الموسم. ومع ذلك، تُنتج بعض الأنواع النادرة من أشجار التين ثمارها خارج ذلك الموسم العاديّ. لا يُعتَمدُ على وقت مُحدّد من السنة لكي يَختبرَ الإنسان ما إذا كان بإمكانه أنْ يتوقّعَ ظهور ثمر التين من شجرة التين أم لا، إنّما يعتمد على ما إذا كانت أوراقُها قد ظهرت بشكلها الكامل. يسوع، الذي يعرف خصائص أشجار التين في فلسطين أفضل من أستاذي، رأى شجرة التين مورقةً بالكامل، فتوقّع وجود ثمار تين ناضجة عليها. ولكن عندما ذهب لإشباع جوعه منها، وجدها عقيمة.

لماذا لعنَها؟ كان يسوع نبيًّا، ومن أكثر أشكال التواصل النبويّ التصويريّ في العهد القديم هو استخدام موضوع الدرس نفسه. كان النبيّ يأخذُ شيئًا من الطبيعة أو الحياة اليوميّة، كما فعل عاموس عندما استخدم الزيج لإيصال حقّ الله. وجدَ يسوع هنا شيئًا استخدمه كإيضاح لخطية الرياء. كانت الشجرة تَظهر من الخارج أنّها مُثمرة، لكنّها كانت في الواقع جرداء عقيمة. طوال خدمته الأرضيّة، ندّد يسوع بشدّة بخطية الرياء، وقد كان هذا انتقاده الأساسيّ للفرّيسيّين في أيّامه (لوقا ١٢: ١). وفي عدّة مناسبات، انتهر يسوع القادة الدينيّين لأنّهم كانوا يُظهرون بأنّهم روحانيّون وأبرار، رغم أنّهم

كانوا غير مُثمرين من الداخل.

يجب أنْ يكونَ ذلك درسًا لنا. أحدُ أهمّ اعتراض من الاعتراضات العشر على المسيحيّة، والتي تعلَّمَتْها إحدى الكنائس الإنجيليّة على مدار سنوات عديدة، هو الافتراض بأنّ الكنيسة مليئة بالمرائين. قال الأشخاص الذين كانوا يراقبون حياة أعضاء الكنيسة على مدار الأسبوع إنّهم رفضوا المسيحيّة لأنّهم يعتقدون أنّ المسيحيّين لا يسلكون بحسب ما يعترفون به.

الكنيسة مليئة بالخطاة بإقرار الجميع. في الواقع، لا أعرفُ أيَّ مُنظّمةٍ أخرى في العالم تطلبُ أنْ يكونَ الشخص خاطئًا لكي ينضمّ إليها. غير أنّه في حينِ أنَّ جميعَ المرائين هم خطاة، إلّا أنّ ليس كلّ الخطاة مُرائين. ليس النفاق سوى مُجرّد خطية من بين خطايا كثيرة، لذلك، ليس عدلًا أنْ يقول مَن ينتقدنا: «فلان مسيحيّ، وقد رأيناه يخطئ خلال هذا الأسبوع. إذًا هو منافق». هذا ليس بالضرورة صحيحًا. إنْ كنتُ أدّعي أنّني لم أرتكب شيئًا خاطئًا ثمّ رأيتني أرتكبه، فقد سقطت في خطية الرياء والنفاق. لكن، إنْ رأيتَني أرتكب خطية ادّعيت بأنّني لم أرتكبها قطّ، فأنا خاطئ ولكنّني لست مُنافقًا. من الضروري تحديد هذا التمييز الواضح بين الأمرَيْن.

ولكن، مع أنّني قُلت هذا الكلام دفاعًا عن المسيحيّين الذين بطبيعتهم الساقطة يستمرّون في ارتكاب الخطية حتّى بعد قبول المُخلّص، إلّا أنّني أحثّ الجميع أنْ يحرَصوا على تَجَنّب خطية الرياء. تحدّث بولس عن هذا عندما قال: «لِأَنَّ ٱسْمَ ٱللهِ يُجَدَّفُ عَلَيْهِ بِسَبَبِكُمْ بَيْنَ ٱلْأُمَمِ» (رومية ٢: ٢٤). يرانا غير المؤمنين نتكلّم ولا نفعل، ولا ينبغي أنْ يكونَ الأمر كذلك بيننا.

بأيّة حال، عندما لعنَ يسوع شجرة التين، كان يُشير بذلك إلى الرياء– ولكن ليس الرياء داخل كنيسته. ما هو إذن مصدر الرياء الذي كان يتكلّم عنه؟ تبدو الإجابة، بحسب اعتقادي، أنّه يوجد صِلة مباشرة في هذه الرواية

بين لعن شجرة التين وتطهير الهيكل. لهذا السبب يُقحم مَرْقُس روايتَه عن تطهير الهيكل بين لَعْنِ شجرةِ التين والشجرة اليابسة في اليوم التالي.

هيكل يُساء استخدامُه

يصفُ مَرْقُس ما حدث في الهيكل: **وَجَاءُوا إِلَى أُورُشَلِيمَ. وَلَمَّا دَخَلَ يَسُوعُ ٱلْهَيْكَلَ ٱبْتَدَأَ يُخْرِجُ ٱلَّذِينَ كَانُوا يَبِيعُونَ وَيَشْتَرُونَ فِي ٱلْهَيْكَلِ، وَقَلَّبَ مَوَائِدَ ٱلصَّيَارِفَةِ وَكَرَاسِيَّ بَاعَةِ ٱلْحَمَامِ. وَلَمْ يَدَعْ أَحَدًا يَجْتَازُ ٱلْهَيْكَلَ بِمَتَاعٍ** (الآيتان ١٥-١٦). في صباح اليوم التالي لدخوله المنتصر، عندما جاءَ يسوع إلى الهيكل، بيتِ الله، غضب جدًّا بسبب ما كان الناس يفعلون هناك. أثار هذا المنظر غضبَه المقدّس.

كان الهيكل الذي بناه هيرودس أحد عجائب العالم القديم. كان بناءً ضخمًا ينقسم إلى أربعة أقسام: ساحة الأمم وساحة النساء وساحة اليهود وقُدس الأقداس. كانت ساحة الأمم تُشكّل الجزء الأكبر من بناء الهيكل. كان تصميم الهيكل يتضمّن هذا المكان المُخصّص ليتجمّع فيه الأمم لأنّ الله دعا إبراهيم، أبا الشعب اليهوديّ، ليكون بَرَكةً لجميع الأمم. كانت مهمّة شعب إسرائيل إعلان حقيقة الله ليس فقط لأنفسهم، ولكن لجميع الأمم. كانت ساحة الأمم على الأطراف الخارجيّة للهيكل، لكن الأمم كانوا قادرين على التواجد لكي يعرفوا الربّ ويخافوه (١ ملوك ٨: ٤٣). ولكنّ اليهود، الذين يكرهون الأمم، كانوا يأملون أنّه عندما يأتي المسيح سوف يُطهّر الهيكل من جميع الأمم ويتخلّص منهم مرّة وإلى الأبد.

بناءً على هذا الازدراء بالأمم، حوّل الصدّوقيّون والسنهدرين ساحة الأمم إلى فناء للاستخدام التجاريّ، فأصبح بيع الحيوانات للذبائح أحد أكثر مصادر الدخل ربحًا للسنهدرين. للاحتفال بعيد الفصح، وهو عيد إلزاميّ على كلّ يهوديّ، كان اليهود يتدفّقون إلى أورشليم من جميع أنحاء العالم

القديم، فكانوا بحاجة إلى شراء الأغنام للذبائح واستبدال عملاتهم ليتمكّنوا من شراء الحيوانات. كانت الحيوانات تُباع بأسعار مُرتفعة لأنّ الشعب كان بحاجة إليها، وكانت أسعار الصرف ابتزازيّة. سجل المؤرّخ اليهودي يوسيفوس أنّه في عام ٦٦ ميلاديًا، عندما كانت الجيوش الرومانيّة تزحف نحو أورشليم، ذُبح ٢٥٥٠٠٠ شاةٍ في أورشليم خلال عيد الفصح. هل يمكنك أنْ تتخيّلَ التجارة الهائلة التي كانت تجري هناك؟

إذن، ليس من المُدهش أنْ يلجأَ يسوع إلى مثل هذا العمل الحازم حين قال لهم: «**أَلَيْسَ مَكْتُوبًا: بَيْتِي بَيْتَ صَلَاةٍ يُدْعَى لِجَمِيعِ ٱلْأُمَمِ؟ وَأَنْتُمْ جَعَلْتُمُوهُ مَغَارَةَ لُصُوصٍ**» (الآية ١٧). اقتبس يسوع من إشعياء ٥٦: ٧ حين قال إنّ بيته بيتَ صلاة يُدعى «لجميع الشعوب»، بما في ذلك الأمم. لكن تمّ تشويه وإفساد هدف الله النهائيّ من هيكل الله. وهكذا، كما تُخبرنا الأناجيل الأخرى، صنع ربّنا سوطًا من الحبال، وركل الطاولات، وطرد الصيارفة والحيوانات من الهيكل، مُطهرًا إيّاه. كان اليهود يأملون أنْ يُطهّر المسيح الهيكل من الأمم، لكنّ يسوع طهّره للأمم. كان يُفترض أنْ يكونَ مكانًا للناس وليس للأغنام والماعز.

ثمّ يكتب مَرقُس: **وَسَمِعَ ٱلْكَتَبَةُ وَرُؤَسَاءُ ٱلْكَهَنَةِ فَطَلَبُوا كَيْفَ يُهْلِكُونَهُ، لِأَنَّهُمْ خَافُوهُ، إِذْ بُهِتَ ٱلْجَمْعُ كُلُّهُ مِنْ تَعْلِيمِهِ. وَلَمَّا صَارَ ٱلْمَسَاءُ، خَرَجَ إِلَى خَارِجِ ٱلْمَدِينَةِ** (الآيتان ١٨-١٩). غضب الرؤساء عندما شوّش يسوع الوضع الراهن، وخافوا من تأثيره على الناس، فتآمروا عليه ليقتلوه. وبعد أيّام قليلة سيحقّقون مُبتغاهم.

يخبرنا مَرْقُس أنه في صباح اليوم التالي، بينما كان يسوع مع تلاميذه في طريق عودتهم إلى أورشليم، **رَأَوْا ٱلتِّينَةَ قَدْ يَبِسَتْ مِنَ ٱلْأُصُولِ، فَتَذَكَّرَ بُطْرُسُ وَقَالَ لَهُ: يَا سَيِّدِي، ٱنْظُرْ! اَلتِّينَةُ ٱلَّتِي لَعَنْتَهَا قَدْ يَبِسَتْ** (الآيتان ٢٠-٢١). كان يسوع قد لعن شجرة التين غير المُثمرة، ولا فائدة تُرجى منها

سوى أنْ تُلقى في النار كحطب، لأنّها لن تُثمر مرّة أخرى.

هل ترى الارتباط الموجود هنا؟ ينطبق الدرس من الشجرة على إسرائيل، التي يَرمز إليها العهد القديم بأنّها شجرة تين الله. تمامًا مثل شجرة التين غير المُثمرة التي لعنها يسوع، أثبتت إسرائيل أنّها غير مُثمرة من حيث قصد الله لها. أصبحت عبادتها مُجرّد الرياء. وكما لُعنت شجرة التين، هكذا أيضًا كانت أمّة إسرائيل غير صالحة إلّا لأنْ تُلقى في النار.

٣٩

الإيمان
وَسْطَ عدم الإيمان

مَرْقُس ١١: ٢٢-٣٣

فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: لِيَكُنْ لَكُمْ إِيمَانٌ بِٱللهِ. لِأَنِّي ٱلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَنْ قَالَ لِهَذَا ٱلْجَبَلِ: ٱنْتَقِلْ وَٱنْطَرِحْ فِي ٱلْبَحْرِ! وَلَا يَشُكُّ فِي قَلْبِهِ، بَلْ يُؤْمِنُ أَنَّ مَا يَقُولُهُ يَكُونُ، فَمَهْمَا قَالَ يَكُونُ لَهُ. لِذَلِكَ أَقُولُ لَكُمْ: كُلُّ مَا تَطْلُبُونَهُ حِينَمَا تُصَلُّونَ، فَآمِنُوا أَنْ تَنَالُوهُ، فَيَكُونَ لَكُمْ. وَمَتَى وَقَفْتُمْ تُصَلُّونَ، فَٱغْفِرُوا إِنْ كَانَ لَكُمْ عَلَى أَحَدٍ شَيْءٌ، لِكَيْ يَغْفِرَ لَكُمْ أَيْضًا أَبُوكُمُ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَاوَاتِ زَلَّاتِكُمْ. وَإِنْ لَمْ تَغْفِرُوا أَنْتُمْ لَا يَغْفِرْ أَبُوكُمُ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَاوَاتِ أَيْضًا زَلَّاتِكُمْ. وَجَاءُوا أَيْضًا إِلَى أُورُشَلِيمَ. وَفِيمَا هُوَ يَمْشِي فِي ٱلْهَيْكَلِ، أَقْبَلَ إِلَيْهِ رُؤَسَاءُ ٱلْكَهَنَةِ وَٱلْكَتَبَةُ وَٱلشُّيُوخُ، وَقَالُوا لَهُ: بِأَيِّ سُلْطَانٍ تَفْعَلُ هَذَا؟ وَمَنْ أَعْطَاكَ هَذَا ٱلسُّلْطَانَ حَتَّى تَفْعَلَ هَذَا؟ فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: وَأَنَا أَيْضًا أَسْأَلُكُمْ كَلِمَةً وَاحِدَةً. أَجِيبُونِي، فَأَقُولَ لَكُمْ بِأَيِّ سُلْطَانٍ أَفْعَلُ هَذَا. مَعْمُودِيَّةُ يُوحَنَّا: مِنَ ٱلسَّمَاءِ كَانَتْ أَمْ مِنَ ٱلنَّاسِ؟ أَجِيبُونِي. فَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ قَائِلِينَ: إِنْ قُلْنَا: مِنَ ٱلسَّمَاءِ، يَقُولُ: فَلِمَاذَا لَمْ تُؤْمِنُوا بِهِ؟ وَإِنْ قُلْنَا: مِنَ ٱلنَّاسِ. فَخَافُوا ٱلشَّعْبَ. لِأَنَّ يُوحَنَّا كَانَ عِنْدَ

ٱلْجَمِيعِ أَنَّهُ بِٱلْحَقِيقَةِ نَبِيٌّ. فَأَجَابُوا وَقَالوا لِيَسوعَ: لَا نَعْلَمُ. فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: وَلَا أَنَا أَقُولُ لَكُمْ بِأَيِّ سُلْطَانٍ أَفْعَلُ هَذَا.

كما رأينا في الإصحاح السابق، لعنَ يسوع شجرة التين ليُقدّم درسًا نبويًّا ملموسًا عن عاقبة الرياء. كان مظهر شجرة التين التي كانت ترمز إلى إسرائيل مظهرًا صحّيًّا، لكنّها في الواقع كانت غير مُثمرة، لذلك لعنَها يسوع فيبست من جذورها. كما رأينا، أقحم مَرْقُس روايتي لعن شجرة التين واكتشاف الشجرة اليابسة حول رواية تطهير يسوع للهيكل. كان هدفُه أنْ يُظهرَ بأنّ رياء شجرة التين كان واضحًا حتّى في قلب العبادة اليهوديّة، أي في الهيكل الذي حوّلته السلطات الدينيّة إلى غرفة تجاريّة بدلًا من استخدامه كبيت للصلاة لجميع الأمم. كانت اليهوديّة تبدو من الخارج أنّها زاهرة، لكنّها كانت متعفّنة في صميمها، وبالتالي كانت غير مُثمرة.

عندما اكتشف بطرس شجرة التين اليابسة، يقول مَرْقُس: **فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: لِيَكُنْ لَكُمْ إِيمَانٌ بِٱللهِ** (الآية ٢٢). هذا أمر ووصيّة من ربّنا لتلاميذه، وبالتالي لنا أيضًا. كان يقول: «ثقوا بالله». الثقة بالله هي واجب كلّ مخلوق خُلِق على صورته. إنّه واجب أخلاقيّ وروحيّ، لأنّ عدم الثقة بالله هو إنكار لنزاهة كلمته ووعوده وصفاته. ما هو التبرير المعقول لأيّ مخلوق ألّا يثقَ بكلمةِ خالقٍ أزليّ كلّيّ القُدرة؟

لماذا أعطى يسوع هذه الوصيّة لتلاميذه في هذه المرحلة، فورًا بعد لعنه التينة وتطهيره الهيكل؟ ربّما تقدّم لنا كلماته التالية تلميحًا إلى ذلك.

يستطيع الإيمان نقل الجبال

بحسب مَرْقُس، تابع يسوع كلامه قائلًا: «**لِأَنِّي ٱلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مَنْ قَالَ لِهَذَا ٱلْجَبَلِ: ٱنْتَقِلْ وَٱنْطَرِحْ فِي ٱلْبَحْرِ! وَلَا يَشُكُّ فِي قَلْبِهِ، بَلْ يُؤْمِنُ أَنَّ**

مَا يَقُولُهُ يَكُونُ، فَمَهْمَا قَالَ يَكُونُ لَهُ» (الآية ٢٣). قالَ يسوع هذه الكلمات على الأرجح، بينما كان واقفًا مع تلاميذه بالقرب من شجرة التين اليابسة، على جبل الزيتون المُشرف على أورشليم. من هذا الموقع المميّز، كان بإمكانهم رؤية القلعة التي بناها الملك هيرودس الكبير. ما زالت آثار تلك القلعة الضخمة قائمة حتّى يومنا هذا في تلك الفُسحة. عندما قام هيرودس بتشييدها، استخدم العبيد لتحويل الأرض من تلّ لوضع الأساسات الداعمة لبنية القلعة، أي أنّ هيرودس الكبير نقل حرفيًّا جبلًا بهدف بناء قلعته. كان الشعب مُدركًا لهذا الإنجاز الاستثنائيّ، فاستغلّ يسوع هذه المعرفة ليقدّم درسًا ملموسًا، مُعلّمًا إيّاهم أنّه إنْ كان لهم إيمان بالله، فيمكنهم القيام بأعمال مدهشة مثل هذا.

يُمكن أنْ يكونَ يسوع قد أمرَ التلاميذ بأنْ يكونَ لهم إيمان؛ لأنّ لعن التينة وتطهير الهيكل كانا يُشيران إلى الجحود، أي إلى عدم الإيمان. أصبح الهيكل، الذي كان يُفترض أنْ يكونَ المكان الذي يركّز فيه شعب الله على إيمانِهم وثقتهم بالله، معقلًا للصوص. لم يعُد رمزًا للإيمان، بل لعدم الإيمان. وقد أثبتت شجرة التين، التي صُمّمت لتطيع خالقها من خلال إنتاجِها للتين، أنّها غير مُخلِصة لخالقها. لذا، يُمكن أنْ يكون هذَين المثلَيْن عن عدم الإيمان قد دفعا يسوع لإصدار هذا الأمر.

والاحتمال الآخر هو أنّ التلاميذ أصيبوا بالدهشة –تمامًا كما حدث معهم في أحيان كثيرة من الأمور التي قالها يسوع وفعلها– من قُدرة يسوع على التسبّب في موت شجرة تين بسبب اللعنة التي نطق بها. ربّما قالوا في أنفسهم: «أيّ قوّة هذه؟» وكان يسوع يقول لهم إنّ قوّة الإيمان تجعل الأعمال الممكنة أعظم بكثير من القضاء على شجرة تين. وقال لهم أيضًا، إنّ الإيمان العامل من خلال الصلاة قادر على نقلِ الجبال. قد يكون هذا برأيي أفضلَ تفسير.

أضاف يسوع: «**لِذَلِكَ أَقُولُ لَكُمْ: كُلُّ مَا تَطْلُبُونَهُ حِينَمَا تُصَلُّونَ، فَآمِنُوا أَنْ تَنَالُوهُ، فَيَكُونَ لَكُمْ**» (الآية ٢٤). علينا أنْ نتوخّى شديد الحذر مع هذه الآية، فقد اخترقَ العالمَ المسيحيّ اليوم لاهوتٌ كامل يستندُ إلى هذا النصّ بشكل حصريّ تقريبًا. تقول لنا حركة «كلمة الإيمان»، التي تتبنّى فكرةَ «أعلنْها وطالبْ بها»، أنّ كلَّ ما علينا فعلُه للحصول على شيء نريده، هو أنْ نُعلن باسم يسوع أنّه لنا، وسيكون لنا. هذه الحركة هي إلى حدّ ما الحركة المسيحيّة الموازية لحركة «العصر الجديد» (The New Age) في العالم العلمانيّ. تُعلّم حركة «العصر الجديد» أنّه إنْ قُمنا بتصوّر ما نريده أنْ يحدث، فسنكون في الواقع قادرين على تغيير العالم من حولنا. في الواقع، السحر هو القوّة الكامنة في أعماق تفكير «العصر الجديد»، وأساس حركة «كلمة الإيمان» ليس مختلفًا تمامًا عنها، وهي تتمسّك بهذه العبارة التي قالها يسوع لتؤكّد أنّك «ستنال كلّ ما تؤمن به، إنْ آمنت به حقًّا».

ما الخطأ في هذا التصوّر؟ يُقدّم لنا الكتاب المقدّس مجموعة هائلة من التعليمات حول الصلاة، مُشدّدًا المرّة تلو الأخرى على أهميّة الثقة بالله لكي تُستجاب صلواتُنا. لذلك، يجب فهم عبارة مأثورة مثل هذه في ضوء كلّ التعليم عن الصلاة، وبشكل خاصّ أحكام العهد الجديد حول كيفيّة استجابة الله لصلواتنا. عندما نُخرج آية مثل هذه من سياقها المُحدّد، ونتجاهل بقيّة تعاليم الكتاب المقدّس، عندها ستظهر حركات تُشبه حركة «كلمة الإيمان».

تأمّل في هذه العبارة التي قالها يسوع: «وَأَقُولُ لَكُمْ أَيْضًا: إِنِ ٱتَّفَقَ ٱثْنَانِ مِنْكُمْ عَلَى ٱلْأَرْضِ فِي أَيِّ شَيْءٍ يَطْلُبَانِهِ فَإِنَّهُ يَكُونُ لَهُمَا مِنْ قِبَلِ أَبِي ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَاوَاتِ» (متى ١٨: ١٩). من السهل وضع ما قاله قيد الاختبار، إذ لن يكون صعبًا أنْ نأتيَ بشخصَيْن مُتّفقَيْن على ضرورة القضاء على الحروب، أو إيجاد علاج لمرض السرطان، أو القضاء على الفقر. هل اتّفاقهما هذا يعني أنّ الله سيستجيب لهذه الأماني؟ لا، فالآية لا

تُصرّح بذلك، بل يجب فهمُ هذه الآية في ضوء تعاليم الكتاب المقدّس الثابتة بأنّه ينبغي علينا أنْ نُصلّي بالتوافق مع إرادةِ الله.

علاقة الإيمان بالصلاة

ماذا قالَ يسوع عن علاقة الإيمان باستجابة الصلاة؟ عندما نسقط على رُكَبِنا ونصرخ إلى الله، ونشاركه ما يُقلق قلوبَنا، نعلم أنّه بالتأكيد سوف يسمع ويستجب، وأنّ استجابتَه تكون دائمًا كاملة. إلّا أنّنا نميلُ إلى الظنّ بأنّ الله لم يستجِب صلاتَنا حين لا يفعل ما نطلبه منه. صلّى يسوع بألم في بستان جثسيماني طالبًا: «يَا أَبَتَاهُ، إِنْ أَمْكَنَ فَلْتَعْبُرْ عَنِّي هَذِهِ ٱلْكَأْسُ» (متّى ٢٦: ٣٩ب). هل حقيقةُ ذهاب يسوع إلى الصليب في اليوم التالي تعني أنّ الآب لم يستجب له؟ لا، بل استجابَ الآب صلاة يسوع، وكانت إجابته «لا». علينا أنْ نتذكّر أنّ يسوع صلّى أيضًا قائلًا: «وَلَكِنْ لَيْسَ كَمَا أُرِيدُ أَنَا بَلْ كَمَا تُرِيدُ أَنْتَ» (الآية ٣٩ج). كانت إجابة يسوع كالتالي: «إنْ قلتَ «لا» لطلبي، فسأقولُ: «نعم» لما تريدني أنْ أقومَ به». هذه هي صلاةُ الإيمان، وهذه هي الثقةُ بالله.

تؤكّد لنا وعودٌ كثيرة في الكتاب المقدّس كيف سيستجيب الله صلواتِنا؛ وعلينا بكلّ بساطة أنْ نؤمنَ بها. منذ سنوات عديدة، عندما كنتُ أعمل ضمن فريق عمل الكنيسة، أتتْ إليّ امرأة تستشيرني بسبب شعور بالذنب يقضّ مضجعها تجاه خطية ارتكبتها في الماضي. نصحتها أن تطلبَ غُفران الله، لأنّ التوبة هي الطريقة الوحيدة للحصول عليه. عندما أخبرتها بذلك، غضبت وقالت: «كنتُ أظنّ أنّك عالم لاهوت». كانت تسعى للحصول على إجابة تقنيّة ومعقّدة لمعضلتها الأخلاقيّة، وهو أمر لا يُمكنها توقّع الحصول عليه من أشخاص ضمن مجموعة الصلاة التي كانت تنتمي إليها. قالت: «لقد طلبت من الله خمسين مرّة أنْ يغفرَ لي هذه الخطية، وما

زلت مُثقلة بذنبي». قلت لها إنّها تحتاج أنْ تُصلّي مرّة أخرى وتتوب عن خطيتها. في تلك اللحظة بالذات، غضبت جدًّا وقالت: «لقد أخبرتك أنّني طلبتُ ذلك من الله مرّات كثيرة.

لقد تبتُ، فلماذا ما زلت أشعر بالذنب؟» قلت لها: «نعم، عليك أنْ تصلّي من أجل الحصول على الغفران مرّة أخرى، لكن عليك هذه المرّة أنْ تصلّي لكي يغفرَ الله لكِ خطية أخرى، ألا وهي كبرياؤك». لم تفهم طبعًا ما كنتُ أحوال الوصول إليه، فازداد غضبها، لذلك طلبتُ منها أنْ تقرأ ١يوحنا ١: ٩: «إِنِ ٱعْتَرَفْنَا بِخَطَايَانَا فَهُوَ أَمِينٌ وَعَادِلٌ، حَتَّى يَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَيُطَهِّرَنَا مِنْ كُلِّ إِثْمٍ». ثمّ أوضحتُ لها أنّها اعترفت بخطيتها، لكنّها لم تشعر بالغفران لأنّها لم تؤمن بوعد الله بالمغفرة. لم تستطعْ قبولَ أنّ المغفرة سهلة للغاية، بل كانت تظنّ أنّها بحاجة إلى فعل المزيد، وهذا ما يُعرف بالكبرياء. كان عليها بكلّ بساطة أنْ تُصلّي بإيمان، وتؤمن أنّ الله سيغفر لها كما وعد.

العالم اليوم مليء بأشخاص رازحين تحت الشعور بالذنب. لسوء الحظّ، وُعّاظ كثيرون اليوم يقولون ببساطة لأولئك الذين يعانون من الشعور بالذنب أنْ يتجاوزوه وألّا يقلقوا بشأنه. كما قال إرميا، «وَيَشْفُونَ كَسْرَ بِنْتِ شَعْبِي عَلَى عَثَمٍ قَائِلِينَ: سَلَامٌ، سَلَامٌ. وَلَا سَلَامَ» (٦: ١٤). إنكار المشكلة لا يساعد في حلّها، وإنكار شعورنا بالذنب لن يُغيثَ أرواحَنا أبدًا. العلاج الوحيد هو الغفران. صلاة الإيمان تثق بإله النعمة ليغفرَ لنا ذنوبنا عندما نطلب ذلك منه.

تابع يسوع وقال: «**وَمَتَى وَقَفْتُمْ تُصَلُّونَ، فَٱغْفِرُوا إِنْ كَانَ لَكُمْ عَلَى أَحَدٍ شَيْءٌ، لِكَيْ يَغْفِرَ لَكُمْ أَيْضًا أَبُوكُمُ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَاوَاتِ زَلَّاتِكُمْ. وَإِنْ لَمْ تَغْفِرُوا أَنْتُمْ لَا يَغْفِرْ أَبُوكُمُ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَاوَاتِ أَيْضًا زَلَّاتِكُمْ**» (الآيتان ٢٥-٢٦). قد يبدو تصريحُه هذا فظيعًا جدًّا، إلّا أنّني لا أعتقد أنّ هذا النصّ أو

أيّ نصٍّ آخر في العهد الجديد يُعلّم أنّنا مُلزمون بمسامحة مَنْ يخطئ إلينا من طرف واحد بدون توبة. كلّ تعاليم العهد الجديد حول مواجهة الإخوة الذين يُخطئون إلينا والسعي وراء استردادهم واستخدام التأديب الكنسيّ، وغيرها من الأمور الأخرى، لا تعني أنّه لا بدّ لنا أنْ نقولَ إنْ أساءَ إلينا أحدُهم: «أنا أغفرُ لك». بالطبع، لا مانع أنْ نفعلَ ذلك، ولكن يوجد تشابه بين غفراننا لخطايا الآخرين، وغفران الله لخطايانا. لا يغفر الله لنا من طرف واحد؛ بل هو يطالب بتوبتنا، وعندما نفعل ذلك يغفر لنا خطايانا. يجب أنْ نفعلَ الأمرَ نفسَه، فعندما يؤذينا أحدهم أو يُسيء إلينا ويعتذر بعد ذلك ويعترف بخطيته ويطلب المغفرة، لا يمكننا التمسّك بالضغينة. وإنْ تمسّكنا بها، فلنتوقّع الأمر نفسه من الله. النقطة التي أراد يسوع إيصالها هي أنّه يتوجّب على كلّ مؤمن مسيحيّ أن يكون مُستعدًّا في أيّ لحظة أنْ يغفرَ أيّ إساءَة إنْ تابَ الشخص المسيء لنا.

سؤال عن السلطة

جاء قادةُ رجال الدين اليهود في أورشليم إلى يسوع في محاولة أخرى منهم ليوقعوه في كلامه. يُخبرنا مَرْقُس: «**وَجَاءُوا أَيْضًا إِلَى أُورُشَلِيمَ. وَفِيمَا هُوَ يَمْشِي فِي ٱلْهَيْكَلِ، أَقْبَلَ إِلَيْهِ رُؤَسَاءُ ٱلْكَهَنَةِ وَٱلْكَتَبَةُ وَٱلشُّيُوخُ، وَقَالُوا لَهُ: بِأَيِّ سُلْطَانٍ تَفْعَلُ هَذَا؟ وَمَنْ أَعْطَاكَ هَذَا ٱلسُّلْطَانَ حَتَّى تَفْعَلَ هَذَا؟**» (الآيتان ٢٧–٢٨). كانت مسألة السلطة هذه موضوع خلاف طوال خدمة يسوع. قال: «**لِأَنِّي لَمْ أَتَكَلَّمْ مِنْ نَفْسِي، لَكِنَّ ٱلْآبَ ٱلَّذِي أَرْسَلَنِي هُوَ أَعْطَانِي وَصِيَّةً: مَاذَا أَقُولُ وَبِمَاذَا أَتَكَلَّمُ**» (يوحنّا ١٢: ٤٩). وقال أيضًا: «**دُفِعَ إِلَيَّ كُلُّ سُلْطَانٍ فِي ٱلسَّمَاءِ وَعَلَى ٱلْأَرْضِ**» (متى ٢٨: ١٨). لم يكن هذا بالطبع مُجرّد سؤال طرحه كتبة القرن الأوّل والفرّيسيّين، إنّما هو السؤال الأبرز الذي يواجهه غير المؤمنين اليوم. ربّما أنت شخص لم يخضع للمسيح بعد، لأنّك تشكّ في سلطته، وتفكّر في قلبك: «من هو يسوع ليأمرني ماذا

أفعل؟» ببساطة، هو الابن الأزليّ لله، وهو يتكلّم ويعمل بالسلطان المُعطى له من الله الآب.

يتابع مَرْقُس: «**فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: وَأَنَا أَيْضًا أَسْأَلُكُمْ كَلِمَةً وَاحِدَةً. أَجِيبُونِي، فَأَقُولَ لَكُمْ بِأَيِّ سُلْطَانٍ أَفْعَلُ هَذَا. مَعْمُودِيَّةُ يوحنّا: مِنَ ٱلسَّمَاءِ كَانَتْ أَمْ مِنَ ٱلنَّاسِ؟ أَجِيبُونِي**». (الآيتان ٢٩-٣٠). أفلتَ يسوع بذكاء من الفخّ الذي نُصب له بطرحه على الفرّيسيّين والكتبة سؤالًا من عنده، فجعلهم في حَيْرةٍ من أمرهم، كما يوضّح مَرْقُس: «**فَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ قَائِلِينَ: إِنْ قُلْنَا: مِنَ ٱلسَّمَاءِ، يَقُولُ: فَلِمَاذَا لَمْ تُؤْمِنُوا بِهِ؟ وَإِنْ قُلْنَا: مِنَ ٱلنَّاسِ. فَخَافُوا ٱلشَّعْبَ. لِأَنَّ يُوحَنَّا كَانَ عِنْدَ ٱلْجَمِيعِ أَنَّهُ بِٱلْحَقِيقَةِ نَبِيٌّ**» (الآيتان ٣١-٣٢). وقعوا بين الاعتراف بأنّه كان ينبغي عليهم الاستماع إلى يوحنّا، ومواجهة غضب الناس إنْ أقرّوا بشكّهم من نحوه، لأنّه إنْ صحّ شيء في إسرائيل في ذلك الوقت، فهو أنّ يوحنّا المعمدان كان نبيًّا مُرسلًا من الله. وعندما أدركوا أنّ لا سبيل أمامهم للإفلات من فخّ يسوع، أجابوه قائلين: «لَا نَعْلَمُ» (الآية ٣٣أ).

عَرف يسوع أنّهم يكذبون. كان بإمكانه أنْ يقولَ لهم: «بَلْ تعلمون. أنتم تعلمون جيّدًا أنّه كان نبيًّا». ربّما قرّر أنّ ازدواجيّة الفرّيسيّين والكتبة قد انفضحت بإجابتهم المثيرة للشفقة. ولكن، بما أنّهم اختاروا ألّا يُجيبوا على سؤاله، **أجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: وَلَا أَنَا أَقُولُ لَكُمْ بِأَيِّ سُلْطَانٍ أَفْعَلُ هَذَا** (الآية ٣٣ب). كانت هذه خطوة حكيمة منه، لأنّ القادة الدينيّين كانوا مُقتنعين بتصميم ثابت أنّ يسوع ليس لديه سلطة للكرازة ولصنع المعجزات، وبأنّ لا شيء يقوله سيغيّر من رأيهم. سيحاولون باستمرار أنْ يوقعوه في شرك كلامه.

٤٠

مصير الكرّامين الأشرار

مرقس ١٢: ١-١٢

وَٱبْتَدَأَ يَقُولُ لَهُمْ بِأَمْثَالٍ: «إِنْسَانٌ غَرَسَ كَرْمًا وَأَحَاطَهُ بِسِيَاجٍ، وَحَفَرَ حَوْضَ مَعْصَرَةٍ، وَبَنَى بُرْجًا، وَسَلَّمَهُ إِلَى كَرَّامِينَ وَسَافَرَ. ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى ٱلْكَرَّامِينَ فِي ٱلْوَقْتِ عَبْدًا لِيَأْخُذَ مِنَ ٱلْكَرَّامِينَ مِنْ ثَمَرِ ٱلْكَرْمِ، فَأَخَذُوهُ وَجَلَدُوهُ وَأَرْسَلُوهُ فَارِغًا. ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ أَيْضًا عَبْدًا آخَرَ، فَرَجَمُوهُ وَشَجُّوهُ وَأَرْسَلُوهُ مُهَانًا. ثُمَّ أَرْسَلَ أَيْضًا آخَرَ، فَقَتَلُوهُ. ثُمَّ آخَرِينَ كَثِيرِينَ، فَجَلَدُوا مِنْهُمْ بَعْضًا وَقَتَلُوا بَعْضًا. فَإِذْ كَانَ لَهُ أَيْضًا ٱبْنٌ وَاحِدٌ حَبِيبٌ إِلَيْهِ،أَرْسَلَهُ أَيْضًا إِلَيْهِمْ أَخِيرًا، قَائِلًا: إِنَّهُمْ يَهَابُونَ ٱبْنِي! وَلَكِنَّ أُولَئِكَ ٱلْكَرَّامِينَ قَالُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ: هَذَا هُوَ ٱلْوَارِثُ! هَلُمُّوا نَقْتُلْهُ فَيَكُونَ لَنَا ٱلْمِيرَاثُ! فَأَخَذُوهُ وَقَتَلُوهُ وَأَخْرَجُوهُ خَارِجَ ٱلْكَرْمِ. فَمَاذَا يَفْعَلُ صَاحِبُ ٱلْكَرْمِ؟ يَأْتِي وَيُهْلِكُ ٱلْكَرَّامِينَ، وَيُعْطِي ٱلْكَرْمَ إِلَى آخَرِينَ. أَمَا قَرَأْتُمْ هَذَا ٱلْمَكْتُوبَ: ٱلْحَجَرُ ٱلَّذِي رَفَضَهُ ٱلْبَنَّاؤُونَ، هُوَ قَدْ صَارَ رَأْسَ ٱلزَّاوِيَةِ؟ مِنْ قِبَلِ ٱلرَّبِّ كَانَ هَذَا، وَهُوَ عَجِيبٌ فِي أَعْيُنِنَا. فَطَلَبُوا أَنْ يُمْسِكُوهُ، وَلَكِنَّهُمْ خَافُوا مِنَ ٱلْجَمْعِ، لِأَنَّهُمْ عَرَفُوا أَنَّهُ قَالَ ٱلْمَثَلَ عَلَيْهِمْ. فَتَرَكُوهُ وَمَضَوْا.

الغالبية العظمى من أمثال يسوع مُسجّلة في إنجيلَي متّى ولوقا. أمّا مَرْقُس، فهو يروي القليل منها فقط؛ كان المثل الأخير الذي تأمّلنا فيه في دراستنا لهذا الإنجيل من مَرْقُس ٧. إلّا أنّنا نجد هنا في الإصحاح الثاني عشر مثلًا آخر وهو من الأمثال غير الاعتياديّة.

في وقت سابق، عندما شرح يسوع استخدامَه للأمثال مع تلاميذه، قال لهم: «قَدْ أُعْطِيَ لَكُمْ أَنْ تَعْرِفُوا سِرَّ مَلَكُوتِ ٱللهِ. وَأَمَّا ٱلَّذِينَ هُمْ مِنْ خَارِجٍ فَبِٱلْأَمْثَالِ يَكُونُ لَهُمْ كُلُّ شَيْءٍ، لِكَيْ يُبْصِرُوا مُبْصِرِينَ وَلَا يَنْظُرُوا، وَيَسْمَعُوا سَامِعِينَ وَلَا يَفْهَمُوا، لِئَلَّا يَرْجِعُوا فَتُغْفَرَ لَهُمْ خَطَايَاهُمْ (٤: ١١–١٢). بعبارة أخرى، كانت معظم أمثال يسوع مُصمّمة لتقديم حقيقة ما عن ملكوت الله بطريقة ماهرة، لكي يفهمها المؤمنون ولا يفهمها الذين هم من خارج الملكوت. أمّا معنى مثل الكرّامين الأشرار فقد كان واضحًا، وقد فهمه بوضوح الأشخاص الذين استهدفهم، أي قادة إسرائيل الدينيّون.

بهذا المثل، تعمّد يسوع استفزاز أعدائه فزادت أكثر مقاومتُهم له. كان بإمكانه أنْ يستغنيَ عن بعض الكراهيّة، لكن في كلّ مرّة كان يرى فيها خطية فاضحة، لم يكن يتردّد في لفت الانتباه إليها. صحيح أنّه كان يستخدم لهجات مختلفة بحسب الأشخاص الذين كان يخاطبهم. فمع الأشخاص العاديين والمتواضعين، كان لطيفًا وحنونًا ورقيقًا، أمّا مع الذين كانوا يتربّعون على عرش السلطة الدينيّة والذين أفسدوا أمور الله، فلم يكن يتردّد في توجيه اللكمات إليهم. وهكذا كان هذا المثل الذي حجب قليلًا غضبه وغضب الآب على حُكّام إسرائيل.

الأيدي المستأجرة غير الجديرة بالثقة

يكتب مَرْقُس: **وَٱبْتَدَأَ يَقُولُ لَهُمْ بِأَمْثَالٍ: إِنْسَانٌ غَرَسَ كَرْمًا وَأَحَاطَهُ بِسِيَاجٍ، وَحَفَرَ حَوْضَ مَعْصَرَةٍ، وَبَنَى بُرْجًا، وَسَلَّمَهُ إِلَى كَرَّامِينَ وَسَافَرَ**

(الآية ١). تكشِفُ هذه المقدّمة المقتضبة أنّ صناعة النبيذ في إسرائيل كانت أمرًا مألوفًا جدًّا ليسوع. كان يعرف كيف ينمو العنب ويُحوّل إلى نبيذ. حتى أنّه كان يعلم أنّ كروم العنب كانت تحتوي بالعادة على برج يقف فيه الحارس ليراقبَ الحيوانات التي قد تقضي على العنب، أو اللصوص الذين قد يسرقونه.

من الجدير بالذكر أنّ اليهود كانوا يُنتجون نبيذًا حقيقيًّا وليس مجرّد عصير العنب. يجب على المرءِ أنْ يلوي نصوصَ الكتاب المقدّس بالكامل بسبب تحيّز ثقافيّ معاصر ليصل إلى استنتاج بأنّ اليهود لم ينتجوا نبيذًا حقيقيًّا، وبأنّهم لم يستخدموا نبيذًا حقيقيًّا في عيد الفصح، وبأنّ يسوع لم يصنع نبيذًا حقيقيًّا في عُرس قانا (يوحنّا ٢). كان القانون الأخلاقيّ اليهوديّ صارمًا للغاية ضدّ السُكر، باعتباره خطية جسيمة، لكن بما أنّ السُكر كان أمرًا مُمكنًا في إسرائيل، فإنّ هذه الحقيقة توضّح بأنّ المشروب الذي كان يتمّ إنتاجه من الكرمة كان خمرًا.

في مَثَلِ يسوع، كان صاحبُ الكرم مُضطرًّا للسفر إلى بلد آخر. خلال فترة غيابه، أجّر الكرمَ وعمليّة صنع النبيذ بأكملها إلى الكرّامين. كان الكرّامون مزارعين مستأجَرين. كانوا يعادلون «الأجراء»، وهم الرجال الذين يتمّ استئجارهم لحراسة الخراف. وكما كان يوجد رعاة يعتنون بخرافهم الخاصّة، كان الأجراء يحرسون خرافًا يمتلكها الآخرون. اشتهر الأجراء بعدم عنايتهم ومحبّتهم للخراف كما يفعل أصحابها؛ فعند أوّل علامة خطر، كانوا يتخلّون عنها ويهربون لإنقاذ حياتهم (يوحنّا ١٠: ١٢–١٣). لذلك، وضع صاحب الكرم تجارته بين أيدي رجال غير جديرين بالثقة تمامًا.

وتابع يسوع قائلًا: «**ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى ٱلْكَرَّامِينَ فِي ٱلْوَقْتِ عَبْدًا لِيَأْخُذَ مِنَ ٱلْكَرَّامِينَ مِنْ ثَمَرِ ٱلْكَرْمِ**» (الآية ٢). كان صاحب الكرم على أحرّ من الجمر لمعرفة كيف كان نتاج الخمر، لذلك أرسل في الوقت الذي يتمّ فيه إنتاج

الخمر خادمًا من البلد البعيد ليطلبَ من الكرّامين أنْ يُرسلوا معه عيّنات من النبيذ. كانت النتيجة صادمة: «**فَأَخَذُوهُ وَجَلَدُوهُ وَأَرْسَلُوهُ فَارِغًا**» (الآية ٣). لأسباب غير مُحدّدة، رفض هؤلاء الكرّامون، وهم مزارعون مُستأجَرون لرجل آخر، احترام طلب صاحب الكرم، بل قاموا بضرب خادمه. لم يكونوا غير جديرين بالثقة فحسب، بل كانوا أيضًا أشرارًا.

أظهر صاحب الكرم صبرًا غير اعتياديّ، لكنّ النتائج ساءَت أكثر: «**ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ أَيْضًا عَبْدًا آخَرَ، فَرَجَمُوهُ وَشَجُّوهُ وَأَرْسَلُوهُ مُهَانًا. ثُمَّ أَرْسَلَ أَيْضًا آخَرَ، فَقَتَلُوهُ. ثُمَّ آخَرِينَ كَثِيرِينَ، فَجَلَدُوا مِنْهُمْ بَعْضًا وَقَتَلُوا بَعْضًا**» (الآيتان ٤-٥). أرسل المالك خدمًا «كَثِيرِينَ» إلى الكرّامين، الذين أصبحوا أكثر قسوة. بعد جلدهم الخادم الأوّل، رجم الكرّامون الخادم الثاني وقتلوا الثالث. ثمّ استمروا بعد ذلك بجلد البعض وقتلِ آخرين.

صورة نبويّة مُقلقة

بالمقارنة مع هذا المثل، كان للنبيّ إشعياء نبوءَة مثيرة للاهتمام. نقرأ تحت العنوان الفرعيّ «كَرْم الله المخيّب للآمال» التالي:

لَأُنْشِدَنَّ عَنْ حَبِيبِي نَشِيدَ مُحِبِّي لِكَرْمِهِ:

كَانَ لِحَبِيبِي كَرْمٌ عَلَى أَكَمَةٍ خَصِبَةٍ، فَنَقَبَهُ وَنَقَّى
حِجَارَتَهُ وَغَرَسَهُ كَرْمَ سَوْرَقَ، وَبَنَى بُرْجًا فِي وَسَطِهِ،
وَنَقَرَ فِيهِ أَيْضًا مِعْصَرَةً، فَٱنْتَظَرَ أَنْ يَصْنَعَ عِنَبًا فَصَنَعَ
عِنَبًا رَدِيئًا. وَٱلْآنَ يَا سُكَّانَ أُورُشَلِيمَ وَرِجَالَ يَهُوذَا،
ٱحْكُمُوا بَيْنِي وَبَيْنَ كَرْمِي. مَاذَا يُصْنَعُ أَيْضًا لِكَرْمِي
وَأَنَا لَمْ أَصْنَعْهُ لَهُ؟ لِمَاذَا إِذِ ٱنْتَظَرْتُ أَنْ يَصْنَعَ عِنَبًا،
صَنَعَ عِنَبًا رَدِيئًا؟ فَٱلْآنَ أُعَرِّفُكُمْ مَاذَا أَصْنَعُ بِكَرْمِي:

أَنْزِعُ سِيَاجَهُ فَيَصِيرُ لِلرَّعْيِ. أَهْدِمُ جُدْرَانَهُ فَيَصِيرُ لِلدَّوْسِ. وَأَجْعَلُهُ خَرَابًا لَا يُقْضَبُ وَلَا يُنْقَبُ، فَيَطْلَعُ شَوْكٌ وَحَسَكٌ. وَأُوصِي ٱلْغَيْمَ أَنْ لَا يُمْطِرَ عَلَيْهِ مَطَرًا. إِنَّ كَرْمَ رَبِّ ٱلْجُنُودِ هُوَ بَيْتُ إِسْرَائِيلَ، وَغَرْسَ لَذَّتِهِ رِجَالُ يَهُوذَا. (إشعياء ٥: ١-٧أ)

لاحظ أنّ غضب الله في هذه النبوءَة كان موجّهًا إلى الكرم لأنّه كان غير مُثمر. رغم أنّ الله زرع كرومًا مُختارة واعتنى بها كثيرًا، فالكرم أنتج عنبًا برّيًّا (الكلمة العبريّة المُستخدمة هنا تعني حرفيًّا «أشياء نتنة»، والمقصود بها «عنبًا نتنًا»). بالنتيجة، كانت الثمار بلا قيمة. لذلك، قرّر الله أنْ ينزع السياج، ويهدم الجدار، ويُخرب الكرم. لم يسمح بأن يُنقب ولا أن تهطل الأمطار عليه. كانت هذه نبوءَة عن دينونة الله على إسرائيل.

من الواضح أنّ يسوع استعار الكثير من هذه الصور في مثله عن الكرّامين الأشرار، ولكن في روايته، لم تكن الدينونة على الكرم، بل على الكرّامين. كان هؤلاء الكرّامون يمثّلون بوضوح رجال الدين في إسرائيل، الذين أساءَوْا لقرون طويلة معاملة الخدّام (الأنبياء) الذين أرسلهم المالك (الله). كان يسوع يقول إنّ الله لن يقضي على كنيسته، إنّما سيقضي على رجال الدين الفاسدين الذين كُلّفوا بمهمّة رعايتها وتغذيتها والعناية بها، وفشلوا في تحقيق ذلك.

حقد دفين

ثمّ قدّم يسوع اختلافًا آخر عن النبوءة: «**فَإِذْ كَانَ لَهُ أَيْضًا ٱبْنٌ وَاحِدٌ حَبِيبٌ إِلَيْهِ، أَرْسَلَهُ أَيْضًا إِلَيْهِمْ أَخِيرًا، قَائِلًا: إِنَّهُمْ يَهَابُونَ ٱبْنِي**» (الآية ٦). بذل المالك جهودًا متواصلة للتعامل مع الكرّامين، فقرّر إرسال ابنه الوحيد

«الحبيب». أتساءل إنْ كان يتذكّر أيّ من الواقفين هناك كيف تكلّم الله الآب من السماء عند معموديّة يسوع قائلًا: «أَنْتَ ٱبْنِي ٱلْحَبِيبُ» (مَرْقُس ١: ١١)، وعند التجلّي، حين قال: «هَذَا هُوَ ٱبْنِي ٱلْحَبِيبُ» (٩: ٧). لا شكّ أنّ الابن في المثل كان يرمز إلى يسوع.

على الرغم من كلّ الشرور التي ارتُكبت في حقّ خُدّامه، توقّع المالك ألّا يصل الكرّامون إلى حدّ التحامل على ابنه أو إصابته بالأذى. بالإضافة إلى ذلك، كان الابن يتمتّع بحقّ المطالبة القانونيّة بالكرم، كونه الوريث. لم يكن مُجرّد خادم يُمرّر رسالة من المالك، بل كان على أصحاب الأيدي العاملة أنْ تخضعَ لسلطان الابن لأنّه كان ابن المالك.

ومع ذلك، استهان المالك بالشرّ المتأصّل في قلوب الكرّامين. قال يسوع: «**وَلَكِنَّ أُولَئِكَ ٱلْكَرَّامِينَ قَالُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ: هَذَا هُوَ ٱلْوَارِثُ! هَلُمُّوا نَقْتُلْهُ فَيَكُونَ لَنَا ٱلْمِيرَاثُ. فَأَخَذُوهُ وَقَتَلُوهُ وَأَخْرَجُوهُ خَارِجَ ٱلْكَرْمِ**» (الآيتان ٧–٨). لا بُدّ أنّ هذا كان التواءً صادمًا للقصّة بالنسبة إلى كثيرين ممّن سمعوا يسوع، ولكن بالنسبة إلى الفرّيسيّين والكتبة والقادة الدينيين الآخرين، لا بدّ أنّها فضحتهم بشكل مخيف بسبب تآمرهم للتخلّص من يسوع. في الواقع، لا بدّ الآن أنّ يكون قد اتّضح لهم كلّ شيء. كان المالكُ هو الله، والكرمُ هو شعب الله، والعبيدُ هم الأنبياء، والابنُ هو يسوع نفسه. أمّا الكرّامون الذين تسبّبوا في كلّ هذه الأحداث، والذين تجاهلوا الأنبياء وأساءَوْا معاملتهم، والذين كانوا يُخطّطون للتخلّص من الابن، فهم القادة الدينيّون أنفسُهم. لا يسعنا إلّا أنْ نتخيّل مدى حُنقهم، لأنّ يسوع عرف ما كان يدور في قلوبهم، فصوّر نفاقهم وشرّهم بشكل صارخ.

عندما سار ابن الله على الأرض، منذ ولادته حتّى وقت إعدامه، لم تكن حياته آمنة بين البشر حتّى للحظة واحدة. طبيعتنا الساقطة لا تجعلنا ببساطة غير مُكترثين بالله فحسب، بل تجعلنا كارهين له. يُصبح الله

عدوّنا الطبيعيّ، ولن يتوقّف البشر الساقطون عند أيّ شيء في محاولاتهم للتخلّص من سيادة خالقهم. يجب ألّا نُصدّق أنّ العالم لا يكترث بالله كما يدّعون. فلو جاء الله بنفسِه إلى الأرض اليوم، وكان عند الناس القدرة على القضاء عليه، فمن المؤكّد أنّهم سيقتلونه. أنا لا أقدّم نظريّات عندما أقول هذا الكلام، لأنّ هذا ما حدث بالفعل. لقد حدث ذلك تمامًا كما قالَ يسوع إنّه سيحدث. فبعد أيّام قليلة من تفوّهه بهذه الكلمات، ألقوا القبض على الابن واعتدوا عليه وقتلوه خارج المدينة، خارج كرم الله.

ثأر محتوم

ثمّ سألَ يسوع: «**فَمَاذَا يَفْعَلُ صَاحِبُ ٱلْكَرْمِ؟**» (الآية ٩أ). بخلاف ما ورد في نبوءَة إشعياء، لم يقل يسوع إنّ المالك سيأتي ويقضي على الكرم. بل «**يَأْتِي وَيُهْلِكُ ٱلْكَرَّامِينَ، وَيُعْطِي ٱلْكَرْمَ إِلَى آخَرِينَ**» (الآية ٩ب). كان يسوع يقول إنّ الله سينقض الهيكل ونظام الذبائح اليهوديّة والكهنوت والسنْهدرين وكلّ شيء آخر –قلب اليهوديّة بحدّ ذاته– وسيُعطي الكرمَ للأمم. تحقّق كلّ هذا عندما دمّر الرومان أورشليم في عام ٧٠ ميلاديًّا.

ثمّ قال يسوع: «**أَمَا قَرَأْتُمْ هَذَا ٱلْمَكْتُوبَ: ٱلْحَجَرُ ٱلَّذِي رَفَضَهُ ٱلْبَنَّاؤُونَ، هُوَ قَدْ صَارَ رَأْسَ ٱلزَّاوِيَةِ؟ مِنْ قِبَلِ ٱلرَّبِّ كَانَ هَذَا، وَهُوَ عَجِيبٌ فِي أَعْيُنِنَا**» (الآيتان ١٠-١١). اقتبس يسوع كلامه هذا من المزمور ١١٨: ٢٢-٢٣ الذي يتحدّث عن المسيح الحجر المرفوض، لينتهي به المطاف حجر زاوية عمل الله. في هذا المثل، اعترف يسوع أنّ الابن –أي هو نفسه– سيُقتل، ولكن حتّى مع هذه المعرفة اليقينيّة، كان واثقًا أنّ قصد الله له سيتحقّق. رغم أنّ «البنّائين» –المعروفين أيضًا بالكرّامين– قد يرفضونه، فإنّه سيُصبح حجر الزاوية. سيكون هذا مِن صُنع الله نفسه.

ثمّ يختتم مَرْقُس ويقول: **فَطَلَبُوا أَنْ يُمْسِكُوهُ، وَلَكِنَّهُمْ خَافُوا مِنَ ٱلْجَمْعِ،**

لِأَنَّهُمْ عَرَفُوا أَنَّهُ قَالَ ٱلْمَثَلَ عَلَيْهِمْ. فَتَرَكُوهُ وَمَضَوْا (الآية ١٢). يؤكّد مَرْقُس هنا أنّ القادة الدينيّين فهموا تمامًا أنّ يسوع قال هذا المثل عنهم. ويؤكّد أيضًا أنّهم اغتاظوا، لأنّهم سعوا إلى القبض عليه عند أوّل فُرصة تُتاح أمامهم، وما منعهم عن ذلك إلّا خوفهم من الجمهور الهائم بالمسيح. لذلك، تركوه ومضَوْا، فقط لمواصلة مشاوراتهم ليجدوا طريقة للقضاء عليه سرًّا.

٤١

سؤال
عن الضرائب

مَرْقُس ١٢: ١٣-١٧

ثُمَّ أَرْسَلُوا إِلَيْهِ قَوْمًا مِنَ ٱلْفَرِّيسِيِّينَ وَٱلْهِيرُودُسِيِّينَ لِكَيْ يَصْطَادُوهُ بِكِلْمَةٍ. فَلَمَّا جَاءُوا قَالُوا لَهُ: يَا مُعَلِّمُ، نَعْلَمُ أَنَّكَ صَادِقٌ وَلَا تُبَالِي بِأَحَدٍ، لِأَنَّكَ لَا تَنْظُرُ إِلَى وُجُوهِ ٱلنَّاسِ، بَلْ بِٱلْحَقِّ تُعَلِّمُ طَرِيقَ ٱللهِ. أَيَجُوزُ أَنْ تُعْطَى جِزْيَةٌ لِقَيْصَرَ أَمْ لَا؟ نُعْطِي أَمْ لَا نُعْطِي؟ فَعَلِمَ رِيَاءَهُمْ، وَقَالَ لَهُمْ: لِمَاذَا تُجَرِّبُونَنِي؟ اِيتُونِي بِدِينَارٍ لِأَنْظُرَهُ. فَأَتَوْا بِهِ. فَقَالَ لَهُمْ: لِمَنْ هَذِهِ ٱلصُّورَةُ وَٱلْكِتَابَةُ؟ فَقَالُوا لَهُ: لِقَيْصَرَ. فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: أَعْطُوا مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ وَمَا لِلهِ لِلهِ. فَتَعَجَّبُوا مِنْهُ.

صعّدت السلطاتُ الدينيّة في أورشليم الضغطَ على يسوع بعد أنْ روى مَثَلَه عن الكرّامين الأشرار، المثلَ الذي ناقشناه في الفصل السابق. ففي تتابع عاجل للأحداث، تقدّمت منه ثلاث مجموعات مُختلفة لتطرح عليه بعض الأسئلة: كان أوّلها وفدٌ من الفرّيسيّين والهيرودسيّين، ثمّ بعض الصدّوقيّين، وأخيرًا ممثلٌ عن الكتبَة. كان هدف أوّل مجموعتَيْن على الأقلّ

هو الإيقاع بيسوع، من خلال مواجهته مع مُعضلة من شأنِها أنْ تضعَه في نزاعٍ مع الشعب أو الحكومة، أو مع السلطات الدينيّة. سنتناول هذه المواجهات في هذا الفصل والفصلَيْن التاليَيْن.

يبدأ مَرْقُس بأن يقول: **ثُمَّ أَرْسَلُوا إِلَيْهِ قَوْمًا مِنَ ٱلْفَرِّيسِيِّينَ وَٱلْهِيرُودُسِيِّينَ لِكَيْ يَصْطَادُوهُ بِكِلْمَةٍ** (الآية ١٣). ربّما يُشير الضمير المستتر «هُم» إلى الجماعة الحاكمة من اليهود، أيْ السنْهدرين. كان السنْهدرين يتألّف من رجال ينتمون إلى ثلاث مجموعات رئيسة من اليهود هي الفرّيسيّين والصدّوقيّين والكَتَبَة، وهي المجموعات نفسها التي طرحت أسئلة على يسوع في هذه الروايات الواردة في مَرْقُس ١٢. لذلك، يبدو أنّ هذه الهجمات المتتالية كانت إلى حدّ ما بتنسيق من السنْهدرين.

من المثير للاهتمام أنّ الكلمة اليونانيّة المُترجَمة في هذه الآية إلى «أَرسَلوا»، مُرتبطة بالكلمة التي تُترجم عادةً إلى «رسول». كما رأينا، الرسولُ ليس مُجرّد ساعٍ، بل هو شخص يتمتّع بسلطة التكلّم باسم الذي أرسَله. كان الرسل الاثنا عشر يحملون سلطان يسوع، وبالطريقة نفسها، أتت هذه المجموعة من الفرّيسيّين والهيرودسيّين بسلطان من السنْهدرين.

كان الهيرودسيّون المذكورون في مَرْقُس ٣: ٦ فئةً من اليهود الذين دعموا السلطة الحاكمة لسلالة الملك هيرودس. لم يكونوا يهودًا أنقياء، وكانوا ملوكًا كالدمى تحت سلطة الرومان، وقد احتقرهم الكثير من اليهود. بالعادة، كان الفرّيسيّون يحتقرون الهيرودسيّين لدعمهم السلالة الحاكمة الفاسدة، ولكن كما يُقال: «عدوّ عدوّي هو صديقي»، وهكذا، دفعت الكراهية المتبادلة ليسوع بالفرّيسيّين والهيرودسيّين إلى إقامة تحالف غريب بينهما.

عندما أتى ممثّلو هاتَيْن المجموعتَيْن إلى يسوع، كان هدفهم أنْ «يَصْطَادُوهُ بِكِلْمَةٍ». إنّ كلمة «يصطادوه» هي ترجمة ضعيفة وغير دقيقة للكلمة اليونانيّة

المُستخدَمة هنا وهي **agreuo**. هذه الكلمة هي **hapax legomenon**، أي أنّها كلمة لم تظهر في العهد الجديد إلّا مرّة واحدة. إنّ نُدرةَ استخدامِ هذه الكلمة هو إشارة إلى أنّه يصعب فهمها بالكامل. الفعل الذي يستخدمه مَرْقُس هنا يعني «أخذ الشيء عن طريق اصطياده»، ولها مضامين توحي بالملاحقة العنيفة. الفكرة تُشبه البحثَ عن نمرٍ يعتدي على البشر عن طريق حَفر حفرة وغرز خوازيق حادّة في قعرها، حتّى تنغرزَ في النمر عندما يسقط فيها. لم يكن الفرّيسيّون والهيرودسيّون يحاولون اللعب مع يسوع لُعبة المطاردة فحسب، بل كانوا يحاولون استخدام العنف للقضاء عليه.

نصب الفخّ

يكتب مَرْقُس: **فَلَمَّا جَاءُوا قَالُوا لَهُ: يَا مُعَلِّمُ، نَعْلَمُ أَنَّكَ صَادِقٌ وَلَا تُبَالِي بِأَحَدٍ، لِأَنَّكَ لَا تَنْظُرُ إِلَى وُجُوهِ ٱلنَّاسِ، بَلْ بِٱلْحَقِّ تُعَلِّمُ طَرِيقَ ٱللهِ** (الآية ١٤أ). صمّم الفرّيسيّون والهيرودسيّون كلماتهم الأولى لإطراء يسوع وتملّقه. قالوا له أوّلًا: «نعلمُ أنّك صادق». ثمّ أضافوا بعد ذلك: «[أنت] بالحقّ تعلّم طريق الله». آهٍ لو كانوا فعلًا يؤمنون بذلك. بالطبع، لو كانوا يؤمنون بذلك، لما أتَوْا إليه بأسئلة مُصمّمة للإيقاع به، بل كانوا سيُصغون إلى كلمته ويقبلونَها.

ثمّ أضافوا: «[أنتَ] لا تبالي بأحد؛ لأنّك لا تنظر إلى وجوه الناس». عندما قال الفرّيسيّون والهيرودسيّون إنّ يسوع «[لا يُبالي] بأحد»، لم يقصدوا أنّ قلبَه كان قاسيًا، وبأنّه ليس حنونًا مع الناس. نعلمُ من دراستِنا في مَرْقُس أنّه لم يكن كذلك، لأنّنا رأينا يسوع يتحنّن في مناسبات عديدة، لا بل كانوا يقولون عنه إنّه رجل نزيه. رجل مثله يرفض المساومة على المبادئ والأخلاق؛ وهو لا يحيد عن الحقّ من أجل الحصول على شعبيّة. كان

الفرّيسيّون والهيرودسيّون يقولون إنّ يسوع لن يحيدَ عن الحقّ خوفًا من ألّا يعتبر الناس أنّ رسالتَه ستكون شعبيّة ومقبولة. كان هذا تقديرًا عظيمًا له. بالطبع، كما يُظهر النصّ التالي، كانوا يقولون هذا الكلام عن يسوع بنفاق تامّ وكامل، ولكن بغضّ النظر عن دوافعهم، قالوا الحقيقة فيما يتعلّق بشخصيّته.

أخيرًا، طرح الفرّيسيّون والهيرودسيّون سؤالَهم: «**أَيَجُوزُ أَنْ تُعْطَى جِزْيَةٌ لِقَيْصَرَ أَمْ لاَ؟ نُعْطِي أَمْ لاَ نُعْطِي؟**» (الآيتان ١٤ب-١٥أ). بطرحهم هذا السؤال، أناطوا يسوع بمهمّة حلّ واحدة من أكثر القضايا إثارة للجدل بين اليهود في ذلك الوقت. لا تستمتع أيّ أمّة بالخضوع لغازٍ، لكن أنْ يُجبروا على دفع الجزية وأشكال أخرى من الضرائب للدولة المحتلّة هو أمر يمقته الشعب الذي احتُلّ بلده. كلّ يهودي في إسرائيل تقريبًا يكره فكرة دفع أيّ ضريبة لقيصر، وقد رفض كثيرون منهم في الواقع أنْ يدفعوها. اعتقدَ بعض الفرّيسيّين أنّ اليهودَ كانوا مُلزمين أخلاقيًّا بعدم دفع الجزية لقيصر، وبالتالي، إنْ كان يسوع فعلًا رجلًا تقيًّا، فلن يدعم فكرة دفع الجزية لدولة غاصبة.

لذلك، كان هذا فخّهم: إنْ قالَ يسوع إنّه لا بأسَ أنْ تُدفع جزية لقيصر، فسوف ينقلب الناس ضدّه، ولكن إنْ قالَ علانيّة إنّه لا ينبغي لأحدٍ أنْ يدفعَ الجزية لقيصر، فسيُسرع القادة الدينيّون إلى السلطات الرومانية ليقولوا لهم: «هذا الرجل يشجّع على التمرّد بنصح الناس ألّا يدفعوا ضرائبَهم».

الهروب من الفخّ

بالطبع، كان يسوع مُدركًا تمامًا لمحاولة الإيقاع به. يُخبرنا مَرْقُس: **فَعَلِمَ رِيَاءَهُمْ، وَقَالَ لَهُمْ: لِمَاذَا تُجَرِّبُونَنِي؟ اِيتُونِي بِدِينَارٍ لأَنْظُرَهُ** (الآية ١٥ب). كان الدينار العُملةَ الأكثر شيوعًا بين اليهود. كانت عملةً فضيّة

صغيرة قيمتها أجر عامل ليوم واحد في إسرائيل. من الواضح أنّ يسوع لم يكن معه دينار، لذلك طلب من مستجوبيه إبراز واحد.

عندما أروه الدينار، سألَهم يسوع: «**لِمَنْ هَذِهِ ٱلصُّورَةُ وَٱلْكِتَابَةُ؟ فَقَالُوا لَهُ: لِقَيْصَرَ**» (الآية ١٦). في ذلك الوقت من التاريخ اليهوديّ، كان طيباريوس هو القيصر الذي يظهر رسمه على الدينار، وهو الذي حَكَم بعد القيصر أوغسطس من ١٤ إلى ٣٧ ميلاديًا. وُضعت صورتُه على العُملة مع نقشٍ يقول: **Ti Caesar Divi Aug F Augustus**، والذي يعني: «طيباريوس قيصر، ابن أوغسطس الإلهيّ». وكان على الجهة الأخرى من العملة نقش يقول: **pontif maxim**، أي «رئيس الكهنة». لم يكن الإمبراطور الحاكم السياسيّ الأعلى للإمبراطوريّة الرومانيّة فحسب، بل كان القائد الدينيّ الأعلى لها، وكان يُنظَر إليه كإله. تجدر الإشارة إلى أنّ اسم والد طيباريوس، أوغسطس، لم يكن اسمًا، بل كان لقب «أوغسطس الأوّل» الذي منحه إيّاه مجلس الشيوخ. كان هذا لقبًا دينيًّا، إشارة إلى أنّ جلالَتَه كانت فائقة. ولكن، كان اليهود يستخدمون هذا المُصطلح فقط للإشارة إلى الله، لأنّهم كانوا يعتقدون أنّ تسمية أيّ مخلوق بـ»أوغسطس» هي عبادة للأصنام. لذلك، كان الدينار يُظهِر العمق الكامل لغطرسة قياصرة روما.

ثمّ قال يسوع: «**أَعْطُوا مَا لِقَيْصَرَ لِقَيْصَرَ وَمَا لِلهِ لِلهِ. فَتَعَجَّبُوا مِنْهُ**» (الآية ١٧). بما أنّ صورةَ القيصر ونقشَه كانا على العُملة، فقد كانت مُلكَه بحسب القانون الرومانيّ. كان يسوع يقول لهم: «هذه العملة هي لقيصر. استخدموها لتدفعوا جزية قيصر. لكن أنتم أمام مسؤولية أعظم، إذ يجب أنّ تُعطوا ما لله لله».

يتوسّع العهد الجديد في هذا الموضوع المهمّ المتعلّق بدفع الجزية. ففي رومية ١٣، يوضّح الرسول بولس أنّ الله خلق مؤسّستَيْن في العالم، هما الكنيسة والدولة. لديهما مسؤوليّات مُنفصلة، ولديهما مهامّ مُنفصلة

يقومان بها. الكنيسة مُكلّفة بإعلان كلمة الله وتقديم الأسرار المقدّسة. أمّا قوّة السلاح لشنّ الحروب والمحافظة على السلام فهذا من مهامّ الدولة. إذن، تُعتبر الحكومات شرعيّة، ويجب على المسيحيّين أنّ يدعموها. لهذا السبب، يكتب بولس: «فَأَعْطُوا ٱلْجَمِيعَ حُقُوقَهُمُ: ٱلْجِزْيَةَ لِمَنْ لَهُ ٱلْجِزْيَةُ. ٱلْجِبَايَةَ لِمَنْ لَهُ ٱلْجِبَايَةُ. وَٱلْخَوْفَ لِمَنْ لَهُ ٱلْخَوْفُ. وَٱلْإِكْرَامَ لِمَنْ لَهُ ٱلْإِكْرَامُ (رومية ١٣: ٧).

كتب بولس هذه الكلمات في وقت كانت فيه حكومة الإمبراطوريّة الرومانيّة فاسدة وبعيدة عن الله. بالتالي، من الواضح أنّ لا علاقة لسلوك الدولة الأخلاقيّ على ما إذا كان ينبغي على المسيحيّين دفع ضرائبهم أم لا. المسيحيّون مدعوّون إلى مستوى خاصّ من الطاعة المدنيّة، وهذا يتضمّن دفع الضرائب مهما كانت مُرهِقة أو ظالمة. بالطبع، التزامنا بالطاعة المدنيّة لا يعني أنّنا لا نستطيع التحدّث علنًا ضدّ الضرائب أو أيّ شيء آخر تفعله الحكومة، لكن لا يحقّ لنا أنْ نرفضَ دفع الضرائب.

فخّ عصريّ

مسألة دفع الضرائب ليست بسيطة في عصرنا. علينا الحذر بألّا نُسيء استخدام امتيازنا في التصويت لدعم فرض الضرائب غير العادلة.

زار المفكّر والمؤرّخ الفرنسيّ ألكسيس دي توكفيل أمريكا في أوائل القرن التاسع عشر، وخرج متأثّرًا بشدّة من نظام الحكومة. ومع ذلك، ذكر في كتابه «الديمقراطيّة في أمريكا» الخطرَ الذي يُمكن أنْ يصيبَ الجمهوريّة الفتيّة. لقد توقّع إمكانيّة أنْ يفهمَ الناسُ بعد فترة أنّ لأصواتهم قيمة ماليّة. ماذا كان يعني بذلك؟ كان يحذّر من أنّ الأشخاص الذين يريدون الوصول إلى مقاعد السلطة السياسيّة، سيكونون قادرين على استخدام الثروة لرشوة الناس بهدف انتخابهم. قالَ إنّه يُمكن لرشوةٍ مثل هذه أنْ تقضي على

استقامة الأمّة المدنيّة.

أمّا اليوم، فقد أصبحت المشكلة أعمق ممّا تخيّله توكفيل في أيّ وقت مضى. يمكننا استخدام أوراق الاقتراع لإطلاق السهام. تنهى الوصيّة العاشرة من الوصايا العشر عن الطمع بممتلكات الآخرين الخاصّة. أمّا في أمريكا، فقد شهدنا انتشار سياسات الحسد التي دفعت الناس ألّا تُبالي في السماح للحكومة بأنْ تأخذَ مِن مجموعة وتُعطي لمجموعة أخرى. نفعلُ ذلك عندما نصوّت لبرامج تُفيد بعض المواطنين وليس كلّهم. هذا ما نسميّه بالعدالة الاجتماعيّة، رغم أنّها ظلم واضح. بعبارات بسيطة، إنّها سرقة، لأنّه يجب على الجميع أنْ يدفعوا بينما يستفيد من ذلك البعض فقط. يذهب الناس إلى صناديق الاقتراع كلّ يوم ولا يأبهون بالاستفادة من الحكومة من خلال تصويتهم، ولا يفكّرون أو يهتمّون بأنّهم يطلبون من الحكومة استخدام سلطتها لتأخذ من شخص آخر لتعطيهم. يصوّت الناسُ كلّ يوم لصالح أنْ يدفعَ الآخرون الضرائب، ولا يصوّتون لدفعهم الضرائب نفسها. هذا غير عادل وغير أخلاقيّ.

حتّى لو فعل العالم كلّه هذا، فلا يجب على المؤمن المسيحيّ أنْ يفعله أبدًا. حتّى لو وجدنا أنفسنا مستغَلّين ومُضطهَدين بهذه الممارسة، يجب ألّا نفعلَها بأنفسنا. لا ينبغي علينا أبدًا أنْ نطلبَ من الحكومة إجبارَ جيراننا على إعطائنا شيئًا يخصّهم. أحثّكم على التفكير في أخلاقيّات الكتاب المقدّس فيما يخصّ موضوع الضرائب. يجب أنْ ندفعَ ضرائبَنا حتّى لو كانت الحكومة فاسدة، لكن لا يحقّ لنا أنْ نشاركَ في فساد النظام.

قال يسوع للفرّيسيّين والهيرودسيّين: «أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله». كانت عُملة الدينار مُلكًا للقيصر طيباريوس؛ لأنّ صورته كانت منقوشة عليه. صورة مَن تحمل؟ لقد ختمت السلطة العليا في السماء والأرض كلّ واحد منّا بصورة. لقد وضع الله صورتَه علينا. امتلك القيصر

ذلك الدينار، لكنّ الشعب في عصره لم يكن مُلكًا له. وبالطريقة نفسها، فإنّ الدولة لا تملكنا، بل الله هو الذي يملكنا، وله الحقّ المُطلق في المطالبة بحياتنا على أنّها ملكه. إذن، علينا أن نُعطي ما لله لله، بما في ذلك حياتَنا وحريّتَنا وممتلكاتِنا وعواطفَنا. هذا هو واجب كلّ مؤمن مسيحيّ.

٤٢

سؤال
عن القيامة

مَرْقُس ١٢: ١٨-٢٧

وَجَاءَ إِلَيْهِ قَوْمٌ مِنَ ٱلصَّدُّوقِيِّينَ، ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَيْسَ قِيَامَةٌ، وَسَأَلُوهُ قَائِلِينَ: يَا مُعَلِّمُ، كَتَبَ لَنَا مُوسَى: إِنْ مَاتَ لِأَحَدٍ أَخٌ، وَتَرَكَ ٱمْرَأَةً وَلَمْ يُخَلِّفْ أَوْلَادًا، أَنْ يَأْخُذَ أَخُوهُ ٱمْرَأَتَهُ، وَيُقِيمَ نَسْلًا لِأَخِيهِ. فَكَانَ سَبْعَةُ إِخْوَةٍ. أَخَذَ ٱلْأَوَّلُ ٱمْرَأَةً وَمَاتَ، وَلَمْ يَتْرُكْ نَسْلًا. فَأَخَذَهَا ٱلثَّانِي وَمَاتَ، وَلَمْ يَتْرُكْ هُوَ أَيْضًا نَسْلًا. وَهَكَذَا ٱلثَّالِثُ. فَأَخَذَهَا ٱلسَّبْعَةُ، وَلَمْ يَتْرُكُوا نَسْلًا. وَآخِرَ ٱلْكُلِّ مَاتَتِ ٱلْمَرْأَةُ أَيْضًا. فَفِي ٱلْقِيَامَةِ، مَتَى قَامُوا، لِمَنْ مِنْهُمْ تَكُونُ زَوْجَةً؟ لِأَنَّهَا كَانَتْ زَوْجَةً لِلسَّبْعَةِ. فَأَجَابَ يَسُوعُ وقَالَ لَهُمْ: أَلَيْسَ لِهَذَا تَضِلُّونَ، إِذْ لَا تَعْرِفُونَ ٱلْكُتُبَ وَلَا قُوَّةَ ٱللهِ؟ لِأَنَّهُمْ مَتَى قَامُوا مِنَ ٱلْأَمْوَاتِ لَا يُزَوِّجُونَ وَلَا يُزَوَّجُونَ، بَلْ يَكُونُونَ كَمَلَائِكَةٍ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ. وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ ٱلْأَمْوَاتِ إِنَّهُمْ يَقُومُونَ: أَفَمَا قَرَأْتُمْ فِي كِتَابِ مُوسَى، فِي أَمْرِ ٱلْعُلَّيْقَةِ، كَيْفَ كَلَّمَهُ ٱللهُ قَائِلًا: أَنَا إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِلَهُ إِسْحَاقَ وَإِلَهُ يَعْقُوبَ؟ لَيْسَ هُوَ إِلَهَ أَمْوَاتٍ بَلْ إِلَهُ أَحْيَاءٍ. فَأَنْتُمْ إِذًا تَضِلُّونَ كَثِيرًا.

بعد أنْ أحبطَ يسوع محاولة الفرّيسيّين والهيرودسيّين لإيقاعه بسؤال عن الضرائب، أطلق السنْهدرين ضربتَهم الثانية بإرسالهم إليه مُمثّلين عن الصدّوقيّين. جاءَوْا بسؤال حول عقيدة قيامة الأموات، والتي كانت محور جدال خطير في القرن الأوّل بين الفرّيسيّين والصدّوقيّين.

كانت هاتان المجموعتان، اللتان يبدو أنّ بدايتهما تعود إلى القرن الثاني قبل الميلاد، متّحدتَيْن في معارضتهما ليسوع، لكن كان هذا هو الأمر الوحيد الذي استطاعا أن يتّفقا عليه تقريبًا. أوّلًا، شدّد الفرّيسيون على سيادة الله. كانوا بمثابة الأوغسطينيين والكالفينيين في عصرهم. آمن الصدّوقيّون أنّ كلّ ما يتعلّق بالبشر والتاريخ لا تُحدّده سيادة الله، إنّما تُحدّده فقط الإرادة غير المقيّدة والحرّة للكائنات البشريّة. كانوا بيلاجيين قبل بيلاجيوس. ثانيًا، آمنَ الفرَيسيَون بالملائكة والشياطين، بينما أنكرَ الصدّوقيّون بشكل قاطع وجودهما. كانت نقطة الخلاف الثالثة بينهما تتعلّق بقانونيّة الأسفار الكتابيّة، فقد كان يعتقد الفرّيسيّون أنّ الكتاب المقدّس يحتوي على التوراة، وهي الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم، بالإضافة إلى الأنبياء والكتابات، وأسفار الحكمة وما إلى ذلك. أمّا الصدّوقيّون فكان لديهم نظرة أضيق للأسفار القانونيّة، واعترفوا فقط بالتوراة على أنّها كلمة الله. لذلك لا يمكن بالنسبة للصدّوقيّين استخدام أيّ سفر بعد سفر التثنية لوضع عقائد لاهوتيّة.

ساهمت خلافات الفرّيسيّين والصدّوقيّين حول الأسفار القانونيّة في خلافهم حول موضوع القيامة. تنصّ هذه العقيدة على أنّ أرواح البشر تستمرّ بالحياة بعد الموت، وأنّه عندما يضع الله نهايةً للتاريخ، سيُقيم أجساد جميع البشر من القبر، ويُعيد إليها أرواحهم، فيدخل الأبرار إلى الحياة الأبديّة مع الله، ويُرسل غير الأبرار إلى العذاب الأبديّ. وبما أنّ الصدّوقيّين لم يروا أيّ تعليم عن الحياة بعد الموت في التوراة، فقد كانوا مقتنعين بأنّه لن تكون هناك قيامة في نهاية الزمان. أمّا الفرّيسيّون، فقد بنَوْا قضيّتهم

إلى حدّ كبير على تعاليم الأنبياء، واعترفوا بوجود قيامة وحياة بعد الموت.

بناءً على إنكارهم لقيامة الأموات، طرح الصدّوقيّون على يسوع سؤالًا حول قضيّة غريبة لها علاقة بالقيامة والزواج. يخبرنا مَرْقُس: **وَجَاءَ إِلَيْهِ قَوْمٌ مِنَ ٱلصَّدُّوقِيِّينَ، ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَيْسَ قِيَامَةٌ، وَسَأَلُوهُ قَائِلِينَ: يَا مُعَلِّمُ، كَتَبَ لَنَا مُوسَى: إِنْ مَاتَ لِأَحَدٍ أَخٌ، وَتَرَكَ ٱمْرَأَةً وَلَمْ يُخَلِّفْ أَوْلَادًا، أَنْ يَأْخُذَ أَخُوهُ ٱمْرَأَتَهُ، وَيُقِيمَ نَسْلًا لِأَخِيهِ. فَكَانَ سَبْعَةُ إِخْوَةٍ. أَخَذَ ٱلْأَوَّلُ ٱمْرَأَةً وَمَاتَ، وَلَمْ يَتْرُكْ نَسْلًا. فَأَخَذَهَا ٱلثَّانِي وَمَاتَ، وَلَمْ يَتْرُكْ هُوَ أَيْضًا نَسْلًا. وَهَكَذَا ٱلثَّالِثُ. فَأَخَذَهَا ٱلسَّبْعَةُ، وَلَمْ يَتْرُكُوا نَسْلًا. وَآخِرَ ٱلْكُلِّ مَاتَتِ ٱلْمَرْأَةُ أَيْضًا. فَفِي ٱلْقِيَامَةِ، مَتَى قَامُوا، لِمَنْ مِنْهُمْ تَكُونُ زَوْجَةً؟ لِأَنَّهَا كَانَتْ زَوْجَةً لِلسَّبْعَةِ** (الآيات ١٨–٢٣).

يتعلّق هذا السؤال بما يُسمّى بقانون زواج الأخ بأرملة أخيه، الذي أعطاه الله لإسرائيل القديمة. تمّ وضع هذا القانون لإنجاب أطفال لرجل مات بدون أطفال، حتّى يتمكّن نسل عائلته من الحفاظ على أراضيهم. شرحُ هذا القانون موجود في سفر التثنية:

> «إِذَا سَكَنَ إِخْوَةٌ مَعًا وَمَاتَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ وَلَيْسَ لَهُ ٱبْنٌ، فَلَا تَصِرِ ٱمْرَأَةُ ٱلْمَيْتِ إِلَى خَارِجٍ لِرَجُلٍ أَجْنَبِيٍّ. أَخُو زَوْجِهَا يَدْخُلُ عَلَيْهَا وَيَتَّخِذُهَا لِنَفْسِهِ زَوْجَةً، وَيَقُومُ لَهَا بِوَاجِبِ أَخِي ٱلزَّوْجِ. وَٱلْبِكْرُ ٱلَّذِي تَلِدُهُ يَقُومُ بِٱسْمِ أَخِيهِ ٱلْمَيْتِ، لِئَلَّا يُمْحَى ٱسْمُهُ مِنْ إِسْرَائِيلَ». (٢٥: ٥–٦)

أخبر الصدّوقيّون يسوعَ حالة يوجد فيها سبعة إخوة، تزوّج جميعهم المرأة نفسها على التوالي لحماية حقوق إخوانهم الآخرين. ولكن لم ينجب أيّ منهم أطفالًا منها، وفي النهاية، ماتت المرأة بدون أطفال. ربّما نتوقّع أنْ يستخدمَ الصدّوقيّون هذه الحالة التي تبدو افتراضية جدًّا، لطرح سؤال

غامض حول الناموس، لكنّهم في الواقع استخدموه ليطرحوا عليه سؤالًا عن حقيقة العقيدة التي تقول إنّ الأموات سيقومون مرّة أخرى في نهاية الزمان. عندما سألوه لمن ستكون المرأة عند قيامتهم جميعًا، يبدو أنّ الصدّوقيّين كانوا يقترحون أنّ القيامة ستخلق مشاكل غير قابلة للحلّ. ربّما كانوا يأملون أنْ يجعلَ يسوع نفسه يبدو موضع سخرية بمحاولته الدفاع عن عقيدة القيامة أمام المشكلة التي طرحوها.

معرفة الكتاب المقدّس وقوة الله

أجابَ يسوع سؤال الصدّوقيّين مُنتهرًا إيّاهم. كتب مَرْقُس: **فَأَجَابَ يَسُوعُ وقَالَ لَهُمْ: أَلَيْسَ لِهَذَا تَضِلُّونَ، إِذْ لَا تَعْرِفُونَ ٱلْكُتُبَ وَلَا قُوَّةَ ٱللهِ؟** (الآية ٢٤). إنْ نظرنا إلى الوراء من خلال منظورنا في القرن الحادي والعشرين، سنخلُص إلى أنَ القادة الدينيّين اليهود كانوا جاهلين أو متعجرفين، لكنّ يسوع قال إنّ مشكلتهم كانت بسيطة جدًّا، ألا وهي أنّهم لم يفهموا الكتاب المقدّس. ونحن أيضًا نُعاني من المشكلة نفسها. أعتقد أنّ ١٠٠٪ من أخطائنا اللاهوتيّة هي بسبب عدم معرفتنا للكتاب المقدّس. كلّنا نقرأ الكتاب المقدّس نفسه، إلّا أنّنا لا نتّفق دائمًا على ما يعلّمه؛ لأنّنا لا نأخذ الوقت الكافي لكي نفهمه بحقّ. على كلّ مؤمن أنْ يجاهدَ بكلّ ما أوتي من قوّة لتُصبح لديه معرفة جيّدة بكلمة الله، لئلا نسمع الانتهار نفسه من يسوع: «أنت تضلّ، لأنّك لا تعرف كلمة الله».

قال يسوع إنّهم لا يعرفون أيضًا «قوّة الله». أعتقد أنّنا نعاني من هذه المشكلة أيضًا. نعيش أحيانًا كما لو أنّ حياتَنا بالكامل تحت قبضة قوى هذا العالم. لم نُدرك بعد قوّة الله الفائقة، الله الذي قال: «ليكن نور»، فكان نور. هذا هو الإله الذي تجلّت قوّته عندما جال يسوع في الأرض يشفي المرضى، ويُهدّئ العاصفة، ويُقيم الموتى. وقد صلّى الرسول بولس أنْ

يعرفَ شعبُ الله «مَا هِيَ عَظَمَةُ قُدْرَتِهِ ٱلْفَائِقَةُ نَحْوَنَا نَحْنُ ٱلْمُؤْمِنِينَ» (أفسس ١: ١٩أ). نحن بحاجة أنْ نعرفَ إلهنا القويّ ونثقَ به.

بعد أنِ انتهرَ يسوع الصدّوقيّين، انتقل إلى تصحيح تفكيرهم. قال لهم: «**لِأَنَّهُمْ مَتَى قَامُوا مِنَ ٱلْأَمْوَاتِ لَا يُزَوِّجُونَ وَلَا يُزَوَّجُونَ، بَلْ يَكُونُونَ كَمَلَائِكَةٍ فِي ٱلسَّمَاوَاتِ**» (الآية ٢٥). لاحظ الكلمات الأولى التي نطق بها هنا: «مَتَى قَامُوا مِنَ ٱلْأَمْوَاتِ». لم يقل يسوع: «إنْ قاموا..». لقد كان كلامه هذا تأكيدًا على حقيقة القيامة. إلى جانب ذلك، قال إنّ الذين قاموا «يكونون كملائكة في السماوات». هنا أيضًا، ناقضَ يسوع عقيدة الصدّوقيّين، لأنّهم لم يؤمنوا بالملائكة؛ أمّا هو فقد أكّد على وجودهم.

الجزء الذي يُزعج العديد من المؤمنين اليوم في هذه الآية هو تصريح يسوع بأنّ الذين قاموا ثانية هم كالملائكة من حيث إنّهم «لَا يُزَوِّجُونَ وَلَا يُزَوَّجُونَ». يبدو واضحًا أنّ يسوع علّم هنا أنّ الزواج لن يكون موجودًا بعد قيامة الأموات. ومع ذلك، يرى بعض العلماء معنى مُختلفًا في هذه الكلمات. أوّلًا، لاحظوا أنّه عندما تحدّث يسوع عن مجيئه الثاني، قال: «وَكَمَا كَانَتْ أَيَّامُ نُوحٍ كَذَلِكَ يَكُونُ أَيْضًا مَجِيءُ ٱبْنِ ٱلْإِنْسَانِ. لِأَنَّهُ كَمَا كَانُوا فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلَّتِي قَبْلَ ٱلطُّوفَانِ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ وَيَتَزَوَّجُونَ وَيُزَوِّجُونَ، إِلَى ٱلْيَوْمِ ٱلَّذِي دَخَلَ فِيهِ نُوحٌ ٱلْفُلْكَ، وَلَمْ يَعْلَمُوا حَتَّى جَاءَ ٱلطُّوفَانُ وَأَخَذَ ٱلْجَمِيعَ، كَذَلِكَ يَكُونُ أَيْضًا مَجِيءُ ٱبْنِ ٱلْإِنْسَانِ» (متى ٢٤: ٣٧-٣٩). ثانيًا، يفسّرون عبارة «يَتَزَوَّجُونَ وَيُزَوِّجُونَ» بأنّها تُشير إلى أنّ قدسيّة الزواج في زمن نوح قد تلطّخت؛ لأنّ الناس كانوا يتزوّجون ويطلّقون، ثمّ يتزوّجون ويطلّقون مرّة أخرى. هذا يُشبه لعبة الدوّامة. لم يُحترم عهد الزواج على الإطلاق، وكان هذا أحد الأسباب الذي من أجله أرسلَ الله الطوفان. استنتج هؤلاء العلماء أنّ يسوع كان يقول ببساطة: «سيكون الأمر كذلك عندما أعود للدينونة مرّة أخرى». بعبارة أخرى، سيكون عدم احترام الزواج من علامات عودة يسوع.

أوافق أنّ هذا تفسير مُحتمل لما قاله يسوع للصدوقيّين، لكنّني لست مقتنعًا بهذه الحجّة شخصيًّا. أحد الأسباب هو أنّني لا أرى كيف ستكون هذه الإجابة ردًّا على سؤال الصدّوقيّين. أعتقدُ أنّ يسوع كان يتحدّث بصراحة هنا، قائلًا إنّه لن يكون في السماء زواج؛ لأنّنا سنكون كالملائكة الذين لا يتزوّجون.

كما ذكرت أعلاه، هذه الآية تُزعجُ الكثير من المؤمنين الذين يجدون السعادة في شريك الحياة، ولا تُعجبهم فكرة أنّ اتّحادهم في هذا العالم لن يستمرّ في الحياة الآتية بعد أنْ يقوما من بين الأموات. أنا أقدّر صراعَهم هذا، لكنّني أتذكّر تصريحًا لمُرشدي، الدكتور جون غيرستنر (Dr. John Gerstner)، قاله لي مرّة بعد اجتماع العبادة في المعهد حيث هاجم أحد المتحدّثين كلّ شيء تقريبًا يُعتبر ثمينًا في اللاهوت المُصلح الكلاسيكيّ. عند مغادرتنا للكنيسة، التقيت بالدكتور غيرستنر، ولأنّني كنت حزينًا جدًّا لما سمعته من ذلك المتحدّث، صرخت قائلًا: «لو سمع جون كالفن هذه الرسالة، لارتعشَ في قبره». توقّف الدكتور غيرستنر، ثمّ التفت إليّ وقال: «أيّها الشاب، ألا تعلم أنّه لا يوجد شيء يستطيع أنْ يدمّرَ السعادة التي يتمتّع بها جون كالفن في هذه اللحظة؟» فوجئت بردّه، لكنّني سرعان ما فهمت قصده. نحن لا نُدرك عمق السعادة والبهجة اللذَيْن أعدّهما الله لشعبه في السماء. إنِ استخدمتَ خيالَك، وحاولتَ التفكير في أعظم تجربة ستختبرها في السماء، ثمّ ضَاعِف الفرح الذي ستشعر به في تلك اللحظة مليون مرّة، فلن تكون قد بدأت في تقدير ما يُعدّه الله لشعبه في السماء. سوف يمتلئ وجودنا هناك بالبهجة التي تفوق بكثير ما تُقدّمه علاقة الزواج في هذا العالم الساقط.

إله الأحياء

أخيرًا، أخذ يسوع وقتًا كافيًا لتعليم الصدّوقيّين عن حقيقة القيامة. قال: **«وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ ٱلْأَمْوَاتِ إِنَّهُمْ يَقُومُونَ: أَفَمَا قَرَأْتُمْ فِي كِتَابِ مُوسَى،**

فِي أَمْرِ ٱلْعُلَّيْقَةِ، كَيْفَ كَلَّمَهُ ٱللهُ قَائِلًا: أَنَا إِلَهُ إِبْرَاهِيمَ وَإِلَهُ إِسْحَاقَ وَإِلَهُ يَعْقُوبَ؟ لَيْسَ هُوَ إِلَهَ أَمْوَاتٍ بَلْ إِلَهُ أَحْيَاءٍ. فَأَنْتُمْ إِذًا تَضِلُّونَ كَثِيرًا» (الآيات ٢٦-٢٧). سألهم يسوع: «أفما قرأتم...؟» وقال لهم في وقت سابق إنّهم لا يعرفون الكُتب. أمّا هنا، فقد قام بفتح الأسفار المقدّسة أمامهم.

كان عدم أخذه لهم إلى أيّ من الكتب التاريخيّة أو إلى أيّ من الكتب النبوية أو الكتابات أمرًا ذات أهميّة كُبرى. أخذهم إلى التوراة، إلى جزء واحد من الكتاب المقدّس في العهد القديم الذي قبِلَ به الصدّوقيّون، والذي، بحسب رأيهم، لم يذكر شيئًا عن القيامة.

أخذهم بالتحديد إلى خروج ٣: ١-٦، إلى قصّة ظهور الله لموسى في العلّيقة المشتعلة، وهي المناسبة التي عرّف الله فيها عن نفسه لموسى قائلًا له: «أنا إله أبيك وإله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب،» هؤلاء هم آباء إسرائيل. لم يقل له: «كنتُ إلهَ إبراهيم والآخرين». لذلك قال يسوع للصدّوقيّين: «ليس هو إله أموات، بل إله أحياء، وبالتالي أنتم مُخطئون جدًّا». ولإثبات وجود قيامة في المستقبل، كانت حُجّة يسوع ببساطة أنّ الله لن يتحدّث عن نفسه بهذه الطريقة لو لم يكن إبراهيم وإسحاق ويعقوب أحياءً ما بعد القبر. كانت حياتهم ولا تزال بين يدَيْ إله الأحياء، الذي لا يسمح للموت أنْ يُنهي وجودَنا الشخصيّ.

هذا النصّ هو أكثر من مجرّد دحض فلسفيّ رائع لآراء أولئك الذين سعَوْا إلى إيقاع يسوع في الفخّ. إنّها إجابة جريئة وقويّة من سيّدنا على السؤال الأقدم للبشريّة: «إِنْ مَاتَ رَجُلٌ أَفَيَحْيَا؟» (أيوب ١٤: ١٤). وبدون تردّد، وبدون غموض، أجاب ربّنا على هذا السؤال بالإيجاب. لدينا حياة، وهي لنا إلى الأبد. قال يسوع إنّ عدم الإيمان بذلك لا يعني فقط أنْ تكون مُخطئًا، بل أنْ تكونَ «مخطئًا جدًّا». صلاتي ألّا نرتكبَ هذا الخطأ أبدًا.

٤٣

سؤال
عن الوصايا

مَرْقُس ١٢: ٢٨-٣٤

فَجَاءَ وَاحِدٌ مِنَ ٱلْكَتَبَةِ وَسَمِعَهُمْ يَتَحَاوَرُونَ، فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ أَجَابَهُمْ حَسَنًا، سَأَلَهُ: أَيَّةُ وَصِيَّةٍ هِيَ أَوَّلُ ٱلْكُلِّ؟ فَأَجَابَهُ يَسُوعُ: إِنَّ أَوَّلَ كُلِّ ٱلْوَصَايَا هِيَ: ٱسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ. ٱلرَّبُّ إِلَهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ. وَتُحِبُّ ٱلرَّبَّ إِلَهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ، وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ، وَمِنْ كُلِّ فِكْرِكَ، وَمِنْ كُلِّ قُدْرَتِكَ. هَذِهِ هِيَ ٱلْوَصِيَّةُ ٱلْأُولَى. وَثَانِيَةٌ مِثْلُهَا هِيَ: تُحِبُّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ. لَيْسَ وَصِيَّةٌ أُخْرَى أَعْظَمَ مِنْ هَاتَيْنِ. فَقَالَ لَهُ ٱلْكَاتِبُ: جَيِّدًا يَامُعَلِّمُ. بِٱلْحَقِّ قُلْتَ، لِأَنَّهُ ٱللهُ وَاحِدٌ وَلَيْسَ آخَرُ سِوَاهُ. وَمَحَبَّتُهُ مِنْ كُلِّ ٱلْقَلْبِ، وَمِنْ كُلِّ ٱلْفَهْمِ، وَمِنْ كُلِّ ٱلنَّفْسِ، وَمِنْ كُلِّ ٱلْقُدْرَةِ، وَمَحَبَّةُ ٱلْقَرِيبِ كَٱلنَّفْسِ، هِيَ أَفْضَلُ مِنْ جَمِيعِ ٱلْمُحْرَقَاتِ وَٱلذَّبَائِحِ. فَلَمَّا رَآهُ يَسُوعُ أَنَّهُ أَجَابَ بِعَقْلٍ، قَالَ لَهُ: لَسْتَ بَعِيدًا عَنْ مَلَكُوتِ ٱللهِ. وَلَمْ يَجْسُرْ أَحَدٌ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَسْأَلَهُ!

بعد ردّه على أسئلة ذات طبيعة مُعادية وجّهها الفرّيسيّون والهيرودسيّون إليه، ثمّ من الصدوقيّين، طرح ممثّلٌ عن الكتبة سؤالًا على يسوع، وهم

المجموعة الرئيسة الثالثة التي تُشكّل السنْهدرين. الكتبة هم اللاهوتيّون الخبراء في تفسير الكتاب المقدّس بين اليهود، فلا عجب إذًا أنْ يختارَ أحدُ الكتبة أنْ يطرحَ سؤالًا على يسوع حول الكتاب المقدّس. ولكن، لا يبدو أنّ سؤالَه كان يقطر سُمًّا. لم يكن معاديًا، بل جاء إلى يسوع لأنّه تأثّر بعمق بينما كان يستمع إلى الطريقة التي تعامل بها يسوع مع الأسئلة المخادعة التي طرحَها الفرّيسيّون والهيرودسيّون والصدّوقيّون عليه.

سؤال أحد الكَتَبة

يخبرنا مَرْقُس: **فَجَاءَ وَاحِدٌ مِنَ ٱلْكَتَبَةِ وَسَمِعَهُمْ يَتَحَاوَرُونَ، فَلَمَّا رَأَى أَنَّهُ أَجَابَهُمْ حَسَنًا، سَأَلَهُ: «أَيَّةُ وَصِيَّةٍ هِيَ أَوَّلُ ٱلْكُلِّ؟»** (الآية ٢٨). لم يكن الكاتب يسأل عن التسلسل الزمنيّ للوصايا. لم يكن يسأل: «ما هي الوصيّة الأولى التي أعطاها الله؟» بل كان يطرح سؤالًا له علاقة بالأولويّة. كان يسأل: «ما هي الوصيّة الأكثر أهميّة التي أعطاها الله لهذا العالم؟» أرادَ أنْ يعرفَ الواجبَ الرئيس ليس لبيت إسرائيل فحسب، ولا للمجتمع المسيحيّ لاحقًا، بل للعالم بأسره، لكلّ إنسان مخلوق على صورة الله.

كان أمرًا شائعًا في كتابات العهد القديم، وكذلك في التعاليم اليهوديّة في زمن يسوع، أنْ يحاولَ المعلّمون إيجازَ واجبات الإنسان الرئيسة نحو الله. مثلًا، قال النبيّ ميخا: «قَدْ أَخْبَرَكَ أَيُّهَا ٱلإِنْسَانُ مَا هُوَ صَالِحٌ، وَمَاذَا يَطْلُبُهُ مِنْكَ ٱلرَّبُّ، إِلَّا أَنْ تَصْنَعَ ٱلْحَقَّ وَتُحِبَّ ٱلرَّحْمَةَ، وَتَسْلُكَ مُتَوَاضِعًا مَعَ إِلَهِكَ» (٦: ٨). وقال الله للنبيّ حبقوق: «وَٱلْبَارُّ بِإِيمَانِهِ يَحْيَا» (٢: ٤ب). المعلّم اليهودي هليل، الذي علّم قبل عشرين سنة من خدمة يسوع، أوجز الأمرَ بهذه الطريقة: «ما لا تريد أنْ يُفعلَ بك، لا تفعلْه بقريبك»، وهذه كانت ببساطة القاعدة الذهبيّة، ولكنّها لم تكنْ مُصاغة بكلمات إيجابيّة كما فعل يسوع. وأضافَ هليل: «هذا هو جوهر الناموس، وكلّ شيء آخر ليس

سوى تفسير له». ما هذه إلّا محاولة بسيطة من محاولات إيجاز واجبات الإنسان الكاملة.

عندما طلب أحدُ الكتبةِ من يسوع أنْ يفعلَ هذا، كتب مَرْقُس: **فَأَجَابَهُ يَسُوعُ: إِنَّ أَوَّلَ كُلِّ ٱلْوَصَايَا هِيَ: ٱسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ. ٱلرَّبُّ إِلَهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ. وَتُحِبُّ ٱلرَّبَّ إِلَهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ، وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ، وَمِنْ كُلِّ فِكْرِكَ، وَمِنْ كُلِّ قُدْرَتِكَ. هَذِهِ هِيَ ٱلْوَصِيَّةُ ٱلْأُولَى** (الآيتان ٢٩–٣٠). لفتَ يسوعُ انتباهَ الرجل إلى الخُلاصات الأكثر أساسيّة لواجبات الإنسان التي أوصى الله بها شعبه في العهد القديم، وهي **Shema**، الموجودة في تثنية ٦. ويبدأ هذا الإصحاح بالكلمات التالية:

> «وَهَذِهِ هِيَ ٱلْوَصَايَا وَٱلْفَرَائِضُ وَٱلْأَحْكَامُ ٱلَّتِي أَمَرَ ٱلرَّبُّ إِلَهُكُمْ أَنْ أُعَلِّمَكُمْ لِتَعْمَلُوهَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي أَنْتُمْ عَابِرُونَ إِلَيْهَا لِتَمْتَلِكُوهَا، لِكَيْ تَتَّقِيَ ٱلرَّبَّ إِلَهَكَ وَتَحْفَظَ جَمِيعَ فَرَائِضِهِ وَوَصَايَاهُ ٱلَّتِي أَنَا أُوصِيكَ بِهَا، أَنْتَ وَٱبْنُكَ وَٱبْنُ ٱبْنِكَ كُلَّ أَيَّامِ حَيَاتِكَ، وَلِكَيْ تَطُولَ أَيَّامُكَ. فَٱسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ وَٱحْتَرِزْ لِتَعْمَلَ، لِكَيْ يَكُونَ لَكَ خَيْرٌ وَتَكْثُرَ جِدًّا، كَمَا كَلَّمَكَ ٱلرَّبُّ إِلَهُ آبَائِكَ فِي أَرْضٍ تَفِيضُ لَبَنًا وَعَسَلًا» (الآيات ١–٣).

بعد هذه المقدّمة، نصل إلى الاستدعاء الإلهيّ، مع الدعوة التي تبدأ بالكلمة العبريّة **shema**، والتي تعني «اسمعْ» أو «أمِلْ أذنك». أمر الله شعب إسرائيل: «اسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ: ٱلرَّبُّ إِلَهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ. فَتُحِبُّ ٱلرَّبَّ إِلَهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ وَمِنْ كُلِّ قُوَّتِكَ» (الآيتان ٤–٥). أعتقد أنّه من الأهميّة بمكان أنّ يسوع اختارَ اقتباس هذا المقطع عندما طُلب منه تحديد الوصيّة ذات الأولويّة القصوى.

عندما نطق الله **Shema**، طالبًا من اليهود تركيز عواطفهم في الله،

لم يكن الهدف أنْ يوجّهوا عاطفتهم نحو قوّة كونيّة غير شخصيّة، أو نحو قوّة عُليا غير معروفة. لقد أوضحَ النصّ هُويّة الله: «الربّ إلهُنا». إنّه إله إبراهيم وإسحق ويعقوب، إنّه إله موسى، الإله الذي خلّص إسرائيل من عبوديّة مصر.

بالطبع، لم يوصِ الله بني إسرائيل أنْ يُحبّوه ببساطة بسبب ما فعله من أجلِهم، تمامًا كما لا ينبغي علينا أنْ نحبَّ الله ببساطة طمعًا بالمنافع التي ننالها من يدَيْه. ولا ينبغي علينا أنْ نُحبَّه ببساطة من أجل صفاته، كحكمته اللامحدودة، وقوّته اللامحدودة، وعدله الذي لا نظير له، وما إلى ذلك من صفات أخرى. بل ينبغي علينا أنْ نحبَّه لما هو عليه في ذاته. لن ننموَ حقًّا في الحياة المسيحيّة إلى أنْ نُدركَ أنّنا يجب أنْ نحبَّ الله لمجرّد أنّه محبوب ورائع، ويستحقّ أنْ ينالَ عاطفةً غير مشروطة من كلّ مخلوق.

محبّة شاملة لله

هذا هو السبب في أنّ **Shema** تأمر شعب الله أنْ يتمتّع بمحبّة شاملة له. أوّلًا، لقد أوصانا الله أنْ نحبَّه من كلّ قلوبِنا. الفكرة هي أنّ على محبّتنا لله أنْ تنبعَ من أعماقِ كياننا. يجب أنْ تكونَ محبّتنا لله عاطفة ليس بعدها عاطفة أخرى. عليها أنْ تكونَ محبّة نقيّة وخالصة لله.

ثانيًا، أوصانا الله أنّ نحبَّه من كلّ النفس. بمعنى آخر، لا يجب أنْ تكونَ محبّتُنا له باردة أو فاترة، بل نارًا مُستعرة داخل أرواحِنا. من الجيّد أنْ نتذكّرَ التحذيرَ الذي وجّهه يسوع لكنيسة لاودكيّة في سفر الرؤيا. قال لها: «أَنَا عَارِفٌ أَعْمَالَكَ، أَنَّكَ لَسْتَ بَارِدًا وَلاَ حَارًّا. لَيْتَكَ كُنْتَ بَارِدًا أَوْ حَارًّا! هَكَذَا لِأَنَّكَ فَاتِرٌ، وَلَسْتَ بَارِدًا وَلاَ حَارًّا، أَنَا مُزْمِعٌ أَنْ أَتَقَيَّأَكَ مِنْ فَمِي» (٣: ١٥-١٦). يجب أنْ تكونَ محبّتُنا لله حارّة، لا باردة ولا حتّى فاترة.

أخيرًا، تطلب منّا **Shema** أنْ نحبَّ الله «من كلِّ قدرتنا». لا يجب أنْ تكونَ عاطفتنا نحو الله ضعيفة أو واهنة. يجب أنْ نجمع كلّ القوّة التي يمكننا جَمْعها للتعبير عن عاطفتنا القويّة نحوه.

من المثير للاهتمام أنْ نجدَ في **Shema** ثلاثة أبعاد لمحبّتنا لله: القلب والنفس والقدرة. لكن! يسوع ذَكَر أربعة: القلب، والنفس، والعقل، والقدرة. يقول بعض علماء اللغة العبريّة إنّ فكرة العقل مُضمّنة في الكلمة التي تُرجمت إلى «قدرة» في **Shema**. لكن يسوع لم يترك الأمر غامضًا. فعندما اقتبس من **Shema**، قالَ: «تحبّ الربّ إلهك... من كلّ عقلك». علينا أنْ نحبَّ الله بملء إدراكنا. ينفَدُ صبري أحيانًا عندما أسمعُ الناسَ يقولون: «لا أريد أنْ أدرسَ، بل أريد فقط أنْ يكون لي إيمان بسيط». لم يعطِنا اللهُ الكتابَ المقدّس لنتعاملَ معه كما لو أنّه قصّة للأطفال، بل يدعونا إلى استخدام عقولنا إلى أقصى حدٍّ لها، لفهم غنى وعُمق وحيه عن نفسه في كلمته. هذا هو معنى أنّ نحبّ الله من عقولنا.

إنْ أردنا أنْ نكونَ صادقين مع أنفسِنا، علينا جميعًا أنْ نعترفَ بأنّنا لم نحفظ الوصيّة العظمى حتّى ليوم واحدٍ من حياتنا. ومع ذلك، نشعر بالارتياح نحو هذا الواقع. نحن في الواقع لا نشعر بأيّ تبكيت من نحو هذا الأمر، لأنّنا نرى أنّ لا أحدَ يحبّ الربّ الإله من كلّ قلبه أو روحه أو عقله أو قدرته. وبالتالي، نظنّ أنّه ليس من الأهمّية بمكان أنْ نحفظَ هذه الوصيّة أيضًا. نحنُ مخطئون جدًّا في التفكير بهذه الطريقة.

أخطر خطية

سأل أحد الكتبة يسوع، ما هي الوصيّة العظمى والأولى من حيث الأهميّة. كان هذا سؤالًا طبيعيًّا بالنسبة إليه. علّم اليهود أنّه يوجد في التوراة ٦١٣ وصيّة، وميّز الكتبة بين «الوصايا الثقيلة» و«الوصايا الخفيفة»،

والثقيلة هي أهمّ الوصايا. حتّى أنّ يسوع فعل ذلك إلى حدّ ما عندما تحدّث عن الوصايا الصُغرى (متّى ٥: ١٩) وأثقل الناموس (متّى ٢٣: ٢٣). نرى هذا التمييز أيضًا في الطريقة التي يتكلّم فيها العهد الجديد عن الخطية. يعترف العهد الجديد بالمحبّة التي تستر كثرة من الخطايا (١بطرس ٤: ٨)؛ أي الخطايا التي لا تتطلّب تأديبًا كنسيًّا علنيًّا. وفي أماكن أخرى، نجد لوائح بالخطايا البشعة التي بإمكانها تدمير الكنيسة، وتتطلّب تأديبًا كنسيًّا (١كورنثوس ٦: ٩–١٠؛ ١تيموثاوس ١: ٩–١٠). ومع ذلك، لا توجد خطية صغيرة إلى درجة أنْ تكونَ غير خطيرة. قال جون كالفن، ردًّا على تمييز الكنيسة الكاثوليكيّة بين الخطية المميتة والخطية العرضيّة، إنّه لا توجد خطية بسيطة جدًّا لدرجة أنّها لا تستحقّ الموت، ولكن لا توجد خطية كبيرة لدرجة أنّها قادرة على تدمير نعمة الله في أرواحنا.

لو قُدّر لي أنْ أسألَكَ: «ما هي أخطر خطية على الإطلاق؟» ماذا ستقول؟ هل هي القتل؟ الزنى؟ عبادة الأصنام؟ عدم الإيمان؟ يبدو لي أنّه لو كانت الوصيّة العظمى هي أنْ نحبّ الربّ إلهنا من كلّ قلوبنا ونفوسنا وعقولنا وقدرتنا، فإنّ التعدّي الأعظم هو الفشل في حِفظ هذه الوصيّة. هذا يُرعبني، لأنّني لم أحفظ الوصيّة العظمى لخمس دقائقَ متواصلة في حياتي. لم أحبّ الله أبدًا من كلّ قلبي. لم تفض روحي أبدًا بالحبّ نحو الله. لقد كان عقلي كسولًا بفهم كلمة الله، وغالبًا ما أهتمّ أكثر أنْ أتعلّمَ أشياء هذا العالم. أخيرًا، لقد استخدمت جزءًا فقط من قُدرتي في محبّتي لله. لولا يسوع، لهلكت بسبب هذه الخطية، وأنا أستحقّ ذلك بحقّ.

لكن تأمّل في يسوع. هل كان أيّ جزء من قلب الربّ غير مُكرّس لمحبّة الآب بشكل كامل؟ هل مَنَع يسوع روحَه من محبّة أبيه؟ هل كشف له الآب أيّ شيء وقام يسوع بتجاهله لأنّه لا يستحقّ أنْ يُعيرَه اهتمامه؟ هل كانت محبّته لأبيه واهنة وضعيفة، أم أنّه أظهر أقوى محبّة على الإطلاق

للآب؟ أنت تعرف الأجوبة عن هذه الأسئلة. لقد حَفظ الربّ يسوع الوصيّة العظمى بالتمام والكمال. لقد أحبّ الآب في كلّ ثانية من حياته من كلّ قلبه، ومن كلّ روحه، ومن كلّ عقله، ومن كلّ قدرته. لو فشل في ذلك، لما أكمل ناموس الله، ولما كان يستحقّ أنْ يُخلّص نفسه، ناهيك عن خلاصِنا.

بعد تحديد ما هي الوصيّة العظمى إجابةً على سؤال أحد الكتبة، أضاف يسوع: «**وَثَانِيَةٌ مِثْلُهَا هِيَ: تُحِبُّ قَرِيبَكَ كَنَفْسِكَ. لَيْسَ وَصِيَّةٌ أُخْرَى أَعْظَمَ مِنْ هَاتَيْنِ**» (الآية ٣١). اقتبسَ يسوع هنا لاويين ١٩: ١٨ لتحديد الوصيّة العظمى الثانية. يبدو جليًّا أنّ يسوع كان مُحقًّا في تصنيف محبّة الله على أنّها أعظم الوصايا، ولكن من المهمّ أنّ يسوع شعرَ أنّه من الضروريّ ذِكْر محبّة القريب. محبّة الآخرين أيضًا أمر في غاية الأهميّة. في الواقع، كما قال يسوع في المقطع الموازي في إنجيل متّى، بهاتين الوصيّتَين يتعلقّ «ٱلنَّامُوسُ كُلُّهُ وَٱلْأَنْبِيَاءُ» (متّى ٢٢: ٤٠)، أي كلّ الكتاب المقدس.

من الجدير مُلاحظة الوصايا التي أتت بعد **Shema**: «وَلْتَكُنْ هَذِهِ ٱلْكَلِمَاتُ ٱلَّتِي أَنَا أُوصِيكَ بِهَا ٱلْيَوْمَ عَلَى قَلْبِكَ، وَقُصَّهَا عَلَى أَوْلَادِكَ، وَتَكَلَّمْ بِهَا حِينَ تَجْلِسُ فِي بَيْتِكَ، وَحِينَ تَمْشِي فِي ٱلطَّرِيقِ، وَحِينَ تَنَامُ وَحِينَ تَقُومُ، وَٱرْبُطْهَا عَلَامَةً عَلَى يَدِكَ، وَلْتَكُنْ عَصَائِبَ بَيْنَ عَيْنَيْكَ، وَٱكْتُبْهَا عَلَى قَوَائِمِ أَبْوَابِ بَيْتِكَ وَعَلَى أَبْوَابِكَ (تثنية ٦: ٦-٩). لا ينبغي علينا أبدًا أن ننسى الوصيّة العظمى، وكذلك الوصايا الأخرى في كلمة الله. ولكي نحمي أنفسَنا من ذلك، يجب أنْ تكونَ الكلمة المقدّسة جزءًا لا يتجزّأ من حياتِنا، وأنْ نجتهدَ في تعليمها لأولادنا.

قريب من الملكوت

بعد أنْ أعطى يسوع هذه الإجابات، تأثّر الكاتبُ بحقّ. يكتب مَرْقُس:

فَقَالَ لَـهُ ٱلْكَاتِبُ: جَيِّدًا يَا مُعَلِّمُ. بِٱلْحَقِّ قُلْتَ، لِأَنَّـهُ ٱللهُ وَاحِدٌ وَلَيْسَ آخَرُ سِوَاهُ. وَمَحَبَّتُـهُ مِنْ كُلِّ ٱلْقَلْبِ، وَمِنْ كُلِّ ٱلْفَهْمِ، وَمِنْ كُلِّ ٱلنَّفْسِ، وَمِنْ كُلِّ ٱلْقُدْرَةِ، وَمَحَبَّةُ ٱلْقَرِيبِ كَٱلنَّفْسِ، هِيَ أَفْضَلُ مِنْ جَمِيعِ ٱلْمُحْرَقَاتِ وَٱلذَّبَائِحِ. (الآيتان ٣٢-٣٣). لا أظنّ أنّ الكاتبَ كان يتعالى أو يتفاخر على يسوع، بل كان يقصد ما قاله. لقد اعترف حتّى بأنّ محبّة الله والقريب هي أكثر أهميّة من نظام الذبائح الذي كان مُهمًّا جدًّا في نظر السلطات اليهوديّة.

ثمّ يخبرنا مَرْقُس: **فَلَمَّا رَآهُ يَسُوعُ أَنَّـهُ أَجَابَ بِعَقْلٍ، قَالَ لَهُ: لَسْتَ بَعِيدًا عَنْ مَلَكُوتِ ٱللهِ** (الآية ٣٤أ). اعتبرَ يسوع أنّ الكاتبَ أجابه بحكمة. ومع ذلك، لاحظْ أنّه لم يقلْ: «أنتَ في ملكوت الله». بل قال له: «لستَ بعيدًا عن ملكوت الله. لقد بدأت ترى. لقد بدأت تُدرك معنى أنّ الربّ الإله كليّ القدرة هو الملك السيّد، ومعنى أنْ تحبَّه لشخصِه». لا يزال الكاتب بحاجةٍ إلى أنْ يولدَ من جديد للإيمان بيسوع.

ثمّ يضيف مَرْقُس كلمة أخيرة: **وَلَمْ يَجْسُرْ أَحَدٌ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَسْأَلَهُ** (الآية ٣٤ب). أعداء يسوع كانوا يتمتّعون بالحسّ الكافي ليروا أنّهم فشلوا تمامًا في إيقاعه بكلماته. كان قادرًا على رؤية أفخاخهم، الأمر الذي أدّى إلى إحراجهم. وهكذا، تخلَّوْا عن محاولاتهم في الإيقاع به. في النهاية، سيدينونه بناء على شهادة زور ومحاكمة غير قانونيّة (١٤: ٥٣-٦٥).

٤٤

ابن داود
هو ربّ داود

مَرْقُس ١٢: ٣٥-٣٧

ثُمَّ أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ وَهُوَ يُعَلِّمُ فِي ٱلْهَيْكَلِ: كَيْفَ يَقُولُ ٱلْكَتَبَةُ إِنَّ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنُ دَاوُدَ؟ لِأَنَّ دَاوُدَ نَفْسَهُ قَالَ بِٱلرُّوحِ ٱلْقُدُسِ: قَالَ ٱلرَّبُّ لِرَبِّي: ٱجْلِسْ عَنْ يَمِينِي، حَتَّى أَضَعَ أَعْدَاءَكَ مَوْطِئًا لِقَدَمَيْكَ. فَدَاوُدُ نَفْسُهُ يَدْعُوهُ رَبًّا. فَمِنْ أَيْنَ هُوَ ٱبْنُهُ؟ وَكَانَ ٱلْجَمْعُ ٱلْكَثِيرُ يَسْمَعُهُ بِسُرُورٍ.

كان يُحبّ أحد أساتذتي في كليّة اللاهوت أنْ يتذكّرَ عالِمَ دفاعيّات مسيحيّ مشهور. بحسب أستاذي، عندما دخل عالِم الدفاعيّات هذا في مناظرة لم ينتصر فيها فحسب، بل أطاح بموقف خصمه. وقد عبّر أستاذي عن ذلك بقوله: «لقد نفضَ الغبار» حيث كان خصمه واقفًا.

تذكّرْتُ هذا التعبير الجميل عندما تأمّلت بالاستجوابات التي تحمّلها يسوع من وفود الفرّيسيّين والهيرودسيّين والصدّوقيين، وأخيرًا من أحد الكتبة (الآيات ١٣-٣٤). سعى هؤلاء إلى إيقاع يسوع في شرك كلماته، ليتسنّى

لهم اتّهامَه وإسكاتَه. ومع ذلك، إنْ استطاع أحد أنْ يقضيَ على خصوم الحقيقة في أيّ مناظرة في الماضي، فقد كانوا هؤلاء الوفود؛ لقد نفضَ يسوع حقًّا الغبار عن المكان الذي كان كلّ واحد منهم واقفًا فيه. هم لم يُفلحوا في إيقاعه بالشرك فحسب، بل أظهرَ حكمة وبصيرة لا مثيل لهما، وصحّح معتقدات مستجوبيه بالكامل، بحيث «لَمْ يَجْسُرْ أَحَدٌ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَسْأَلَهُ» (الآية ٣٤ب).

بعد أنْ أسكتَ مستجوبيه، أخذ يسوع موقف المهاجم وأصبح هو المحقّق. يخبرنا مَرْقُس: **ثُمَّ أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ وَهُوَ يُعَلِّمُ فِي ٱلْهَيْكَلِ: كَيْفَ يَقُولُ ٱلْكَتَبَةُ إِنَّ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنُ دَاوُدَ؟** (الآية ٣٥). من الواضح أنَّ يسوع كان يتحدّث إلى عامّة الناس، لكن من المرجّح أيضًا أنْ يكونَ عددًا من الفرّيسيّين والصدوقيّين والكتبة أيضًا يسمعونه. في الواقع، طَرَح يسوع سؤالًا حول نظرة الكَتَبة إلى المسيح. كان يسألهم: «لماذا استنتجَ المثقّفون واللاهوتيّون ومعلّمو إسرائيل أنّ المسيحَ الآتي سيكون ابن داود؟»

كان معظم الناس يعرفون جيّدًا نصوص العهد القديم الكثيرة التي تشير إلى أنّ المسيح سيكون من نسل داود. كان داود بالطبع أشهر ملوك إسرائيل. كان راعيًا ومرنّمًا ومحاربًا وإداريًّا لامعًا. لقد وسّع حدود الأمّة، وكان أعظم عبقريّ عسكريّ في تاريخ إسرائيل، وكان لديه أفضل برنامج للأشغال العامّة من أيّ ملك حَكَم قبله الشعبَ اليهوديّ. وهكذا، اعتبر اليهودُ أنّ عهدَ داود كان العصر الذهبيّ لإسرائيل.

بعد موت داود، انتقلت مملكته إلى ابنه سليمان. خلال فترة حكمه، على الرغم من حكمته العظيمة (وبسبب حماقته الشديدة في بعض الأحيان)، بدأ العصر الذهبيّ لإسرائيل يتلاشى. في الجيل التالي، قُسّمت المملكة بين يربعام ورحبعام، وتحوّل العصر الذهبيّ إلى صدأ. استمرّ الانهيار مع تغلغل الفساد عند الملوك في المملكتّين الشماليّة والجنوبيّة. لذلك، ظهر

اشتياق في قلوب الناس لسنوات حكم داود الذهبيّة، فأعطاهم الله الوعدَ بإعادة بيت داود وبأنّ نسلَ داود سيثبت إلى الأبد. جيلًا بعد جيل، علّق الشعب اليهوديّ آماله على المسيح القادم الذي سيكون من نسل داود.

مَن هو ربّ داود؟

طرحَ يسوع هذا السؤال فيما يتعلّق بالأسباب التي لجأ إليها الكتبة لتعليم أنّ المسيح سيأتي من نسل داود. يبدو من الخارج أنّ الإجابة عن السؤال سهلة من خلال الاستشهاد بعدد من مقاطع العهد القديم. لكنّ يسوع قدّم بعد ذلك وصفًا من مقطع كتابيّ يبدو متناقضًا. قال: «**لِأَنَّ دَاوُدَ نَفْسَهُ قَالَ بِٱلرُّوحِ ٱلْقُدُسِ: قَالَ ٱلرَّبُّ لِرَبِّي: ٱجْلِسْ عَنْ يَمِينِي، حَتَّى أَضَعَ أَعْدَاءَكَ مَوْطِئًا لِقَدَمَيْكَ. فَدَاوُدُ نَفْسُهُ يَدْعُوهُ رَبًّا. فَمِنْ أَيْنَ هُوَ ٱبْنُهُ؟**» (الآيتان ٣٦–٣٧أ). جوهر هذا السؤال هو اقتباس من مزمور ١١٠: ١، حيث أشار داود إلى المسيح أنّه «ربّه». يسأل يسوع، كيف يمكن لداود العظيم أنْ يصفَ شيئًا بهذه الطريقة المُبهمة عن المسيح. لاكتشاف معنى هذه العبارة، سأقوم بتحليلها كلمة بكلمة.

قبل أنْ أتعمّقَ في هذا الموضوع أكثر، من الجدير أنْ أذكرَ وجهة نظر يسوع من نحو الكتاب المقدّس، فهو لم يعتبر قصائد داود الغنائيّة كوحي من الناحية الفنيّة فحسب، بل عندما اقتبس من المزمور ١١٠، قال إنّ داود كتب «بالروح القدس»، أي بوحي إلهيّ. لم يكتب أولئك الذين كانوا أدوات بين يدَيّ الله بحكمتهم الشخصيّة، إنّما كتبوا تحت إشراف وتأثير الروح.

لم يعترض ربّنا أبدًا على عقيدة الوحي الإلهيّ للكتاب المقدّس، ولا ينبغي لنا ذلك أيضًا. إلّا أنّنا نعيش في يوم وصفَه عالِم اللاهوت الهولّندي العظيم أبراهام كويبر، مؤسّس الجامعة الحرّة في أمستردام، بأنّه ليس وقت للنقد الكتابيّ فحسب، إنّما للتخريب الكتابيّ، حيث يبدو أنّه تمّ إطلاق كلّ

الهجمات العدائيّة التي يمكن تخيّلها ضدّ سلطة الكتاب المقدّس. أولئك الذين يؤمنون بوحي الكتاب المقدّس غالبًا ما يُعتبرون أصوليّين منعزلين، أو لاهوتيين مُبهَمين لا يتمتّعون بأيّ مصداقيّة أكاديميّة أو علميّة. لا يهمّ، فليكن الامر كذلك، لأنّه ينبغي علينا أنْ نثبتَ في موقفنا ونقول مع مارتن لوثر: **Spiritus Sanctus non est scepticus** أو «الروح القدس ليس مُشكّكًا». لأنّ ما يعلنه الروح هو أكثر يقينًا من الحياة نفسِها.

من المدهش بعض الشيء أنْ يكون المزمور ١١٠ هو نصّ العهد القديم الذي يُستشهد به بشكل متكرّر في العهد الجديد. بالإضافة إلى الاقتباسات والتلميحات المباشرة، تُشير أسفار العهد الجديد إلى المزمور ١١٠ بما لا يقلّ عن ثلاث وثلاثين مرّة. لقد فهم كتبةُ العهد الجديد بوضوح مدى أهميّة هذا النصّ لنفهم ونُدرك شخصَ يسوع وعملَه.

إذن، بعد أن انتهى يسوع من إجابة خصومه وإسكاتهم، أخذهم إلى هذا النصّ، الذي كان النصّ الأعظم بينها عن التوقّع بمجيء المسيح. قال لهم: «لاحظوا ما قاله داود عن ابنه، الابن الذي تنتظرونه كمسيحكم».

قال داود بالروح القدس: «قال الربّ لربّي». هذا هو الجزء الأوّل من المُعضلة. هنا نجد كلمة «الربّ»، وتشير كتابة الحرف الأوّل من كلمة «ربّ» باللغة الإنجليزيّة إلى أنّ الكلمة تُشير إلى يهوه، أو إلى الله نفسه. هذا هو الاسم المقدّس لله، الاسم الرسميّ، الاسم الفائق الوصف، الاسم الذي به أعلنَ اللهُ نفسه لموسى في بريّة مديان عندما قال: «أَهْيَهِ ٱلَّذِي أَهْيَهْ» (خروج ٣: ١٤). في هذه الآية من المزمور ١١٠، يُجري الربّ محادثة مع شخص لُقّب بـ أدوناي، أو «الربّ». في معظم الحالات في العهد القديم، يُعتبر لقب أدوناي **Adonai**، اللقب الأعظم والأسمى ليهوه. إنّه يعني «صاحب السيادة المطلقة». لهذا السبب، ترد أحيانًا كلمتي ربّ وسيّد مع بعضهما في الكتاب المقدّس. مثلًا، نقرأ في المزمور ٨، «أَيُّهَا ٱلرَّبُّ سَيِّدُنَا، مَا أَمْجَدَ ٱسْمَكَ فِي

كُلِّ ٱلْأَرْضِ». (الآية ١أ). يقول هذا النصّ حرفيًّا: «يا يهوه، أدوناي». أي: «يا يهوه، السيّد المُطلق، ما أمجدَ اسمك».

إذن، عادةً ما تشير كلمة يهوه (الربّ) وأدوناي (الربّ) إلى الشخص نفسه، أي إلى الله. ومع ذلك، نجد هنا في مزمور ١١٠ أنّ الربّ يدعو شخصًا آخر بلقب أدوناي. من المؤكّد أنّ داود لا يقول: «قال الربّ لنفسه». بل يقول: «قال الربّ لربي» أو «قال الربّ لأدوناي». من الواضح أنّه يفكّر في شخصَيْن مختلفَيْن. إذن، من هو أدوناي داود؟ من هو السيّد على ملك إسرائيل؟ في المفهوم العبريّ، إنّه الله. إذن، يبدو أنّ الله يتحدّث إلى شخص آخر يحمل لقب الله، لهذا قال يسوع لرجال الدين: ما رأيكم في هذا؟ ماذا يقول الروح القدس هنا؟»

جلسة الربّ

قال الله لربّ داود: «ٱجْلِسْ عَنْ يَمِينِي حَتَّى أَضَعَ أَعْدَاءَكَ مَوْطِئًا لِقَدَمَيْكَ». عندما ندرس الروايات الكتابيّة عن حياة يسوع وعمَلِه، وكذلك ما قاله الرسل عن تلك الروايات، نكتشف لحظات هامّة جدًّا من حيث تاريخ الفداء. وتشمل هذه اللحظات ولادته، وموته على الصليب، وقيامته، ويوم الخمسين، وعودته. إنّما يوجد عنصر نتغاضى عنه بالكامل تقريبًا في عمل المسيح، وهو جلوس يسوع.

يقود الكنائس التي تستخدم الشكل المشيخيّ لإدارة الكنيسة شيوخٌ يشكّلون مُجتمعين ما يسمّى بالجلسة **session**. يُعرَف تجمّع الشيوخ بالجلسة، لأنّهم عندما يجتمعون للتداول ووضع السياسات والإشراف على الحياة الروحيّة لأعضاء الكنيسة الذين يرعونهم، يجلسون ويناقشون هذه الأمور. وبالطريقة نفسها، عندما نقول إنّ مجلس الشيوخ أو الكونجرس مُنعقد، فإنّنا نعني أنّ ممثّلينا مجتمعون وجالسون في مقاعدهم، ومستعدّون لتيسير أعمال الولايات

المتّحدّة الأمريكية. كلمة جلسة مناسبة لوصف هذه المواقف لأنّها مشتقّة من الكلمة اللاتينيّة **sessio**، والتي تعني ببساطة «فعل الجلوس».

إنّ أهمّ جلسة على الإطلاق هي جلوس يسوع المسيح في السماء. عندما قال الربّ لداود: «اجلس عن يميني»، كان يقول: «اجلس في أعلى مكان للسلطة في الكون». المزمور ١١٠ هو مزمور نبويّ، وكان داود يقول بالروح القدس إنّه عندما ينتهي المسيح من عمله في هذا العالم، سيرتفع إلى السماء ويُتوَّج عن يمين الله. نعلن أنَّ هذه الأمور حدثت عندما نتلو قانون إيمان الرسل، الذي يؤكّد أنَّ يسوع «صعد إلى السماء وجلس عن يمين الله». كان هذا هو اعتراف الكنيسة الأولى بأهميّة جلوس المسيح.

ماذا يعني هذا بالنسبة إلينا؟ بعبارة بسيطة، إنّه يعني كلّ شيء. نفتخر نحن الأميركيّون بأنفسنا لأنّنا نعيش في نظام ديمقراطيّ، ولكنّنا نعيش كمسيحيين في ملكوت، يحكمه بشكلٍ فعّال ملك الملوك. حُكمه مستمرّ. يسوع هو الملك في هذه اللحظة تحديدًا. إنّه الآن جالس على عرشه.

تُعجبني أسطورة روبن هود. في إحدى النُسخ لهذه القصّة، يغادر الملك ريتشارد قلب الأسد إنجلترا للقتال في الحروب الصليبيّة، تاركًا شقيقَه الأمير جون مسؤولًا عن المملكة. أساءَ جون إدارة المملكة لمصلحته الخاصّة، فوجد روبن نفسَه وآخرين غيرَه مُجبرين على الخروج عن القانون. عاش روبن ورفاقه، المعروفون بـ«رجاله المرحين»، في غابة شيروود، هاربين من جون ومناصره، عُمدة مدينة نوتنغهام. اشتهر هؤلاء الرجال المرحون بفرحهم، لكنّهم اشتهروا بشكل خاصّ بولائهم. أرادوا حماية المملكة حتّى يعود ملكهم إليها. تقع أحداث الجزء المفضّل عندي من القصّة قبل نهايتها، عندما يعود ريتشارد إلى إنجلترا متخفّيًا على شكل راهب. سمع في إحدى الحانات كلامًا عن روبن هود ومعارضته للأمير جون، لذلك تعمّد السفر عبر غابة شيروود. فجأة، قام روبن ورجاله بوضع كمين لريتشارد ورفاقه

المسافرين، وحاولوا أخذ محفظة الملك. سأل الملكُ روبن: «لماذا تفعل هذا؟» فأجابه روبن: «بسبب ولائي لملكي». ثمّ خلع ريتشارد ثياب الراهب عنه، مُظهرًا الأسد والصليب على صدره. عرفه روبن فسقط على ركبتَيْه قائلًا له: «سيّدي ومولاي». في النهاية، منح الملك ريتشارد روبن مرتبة فارس بسبب إخلاصِه أثناء غياب الملك.

تُعجبني هذه القصّة كتشبيه للكنيسة. مَلِكُنا جالس عن يمين الله. إنّه يتوقّع منّا، نحن شعبه، أنْ نظلَّ أوفياء له بينما يسير العالم بأسره وراء الأمير جون. لكنّه سيعود في الوقت المناسب، ويصوّب كلّ الأمور.

سيعترف كلّ لسان

إذن، كتب داود في المزمور ١١٠ عن حوار دعا فيه الله ربَّ داود للجلوس على أعلى كرسيّ للسلطة. هذا كلّه واضح. ومع ذلك، لم نُقدّم إجابة عن سؤال يسوع: «فَدَاوُدُ نَفْسُهُ يَدْعُوهُ رَبًّا. فَمِنْ أَيْنَ هُوَ ٱبْنُهُ؟» (الآية ٣٧أ). بمعنى آخر، كيف يمكن لداود أنْ يصفَ واحدًا من ذرّيتّه بأنّه أعظم منه؟ في المفهوم اليهوديّ، الابن دائمًا أدنى من أبيه. لا يُمكن أنْ يكونَ الابن أعظم من أبيه أبدًا. بهذا المنطق، وبقدر روعة المسيح، لو كان ابن داود، فلن يكونَ أعظم من داود. ومع ذلك، فإنّ داود نفسه يدعو ابنه «ربّي»، مُشيرًا إلى أنّ يسوع ليس مُجرّد ابن داود، إنّما هو سيّد داود. إنه أدوناي داود. إنّه ملك داود، وهو الذي يجب أنْ ينحني أمامه داود.

كتب بولس في فيلبي ٢: ٥-١١ ما يُعرف بترنيمة **Kenotic**، لأنّها تتحدّث عن **Kenosis** المسيح، أو إخلاء المسيح نفسه. يقول بولس:

فَلْيَكُنْ فِيكُمْ هَذَا ٱلْفِكْرُ ٱلَّذِي فِي ٱلْمَسِيحِ يَسُوعَ أَيْضًا، ٱلَّذِي إِذْ كَانَ فِي صُورَةِ ٱللهِ، لَمْ يَحْسِبْ خُلْسَةً أَنْ يَكُونَ مُعَادِلًا لِلهِ. لَكِنَّهُ أَخْلَى نَفْسَهُ،

> آخِذًا صُورَةَ عَبْدٍ، صَائِرًا فِي شِبْهِ ٱلنَّاسِ. وَإِذْ وُجِدَ فِي ٱلْهَيْئَةِ كَإِنْسَانٍ، وَضَعَ نَفْسَهُ، وَأَطَاعَ حَتَّى ٱلْمَوْتَ، مَوْتَ ٱلصَّلِيبِ. لِذَلِكَ رَفَّعَهُ ٱللهُ أَيْضًا، وَأَعْطَاهُ ٱسْمًا فَوْقَ كُلِّ ٱسْمٍ، لِكَيْ تَجْثُوَ بِٱسْمِ يَسُوعَ كُلُّ رُكْبَةٍ مِمَّنْ فِي ٱلسَّمَاءِ، وَمَنْ عَلَى ٱلْأَرْضِ، وَمَنْ تَحْتَ ٱلْأَرْضِ، وَيَعْتَرِفَ كُلُّ لِسَانٍ أَنَّ يَسُوعَ ٱلْمَسِيحَ هُوَ رَبٌّ، لِمَجْدِ ٱللهِ ٱلْآبِ.

يستنتجُ بولس أنّ يسوعَ قد أُعطِي الاسم الذي هو فوق كلّ اسم، وبهذا الاسم ستنحني كلّ ركبة، وسيعترف كلّ لسان بأنّه ربّ. اللقب الأسمى، اللقب الذي كان محجوزًا لله في العهد القديم، يُمنح الآن لابنه، ويومًا ما، سيعرفه كلّ إنسان أنّه ربّ.

٤٥

الكَتَبَةُ والأرملة

مَرْقُس ١٢: ٣٨-٤٤

وَقَالَ لَهُمْ فِي تَعْلِيمِهِ: تَحَرَّزُوا مِنَ ٱلْكَتَبَةِ، ٱلَّذِينَ يَرْغَبُونَ ٱلْمَشْيَ بِٱلطَّيَالِسَةِ، وَٱلتَّحِيَّاتِ فِي ٱلْأَسْوَاقِ، وَٱلْمَجَالِسَ ٱلْأُولَى فِي ٱلْمَجَامِعِ، وَٱلْمُتَّكَآتِ ٱلْأُولَى فِي ٱلْوَلَائِمِ. ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ بُيُوتَ ٱلْأَرَامِلِ، وَلِعِلَّةٍ يُطِيلُونَ ٱلصَّلَوَاتِ. هَؤُلَاءِ يَأْخُذُونَ دَيْنُونَةً أَعْظَمَ. وَجَلَسَ يَسُوعُ تُجَاهَ ٱلْخِزَانَةِ، وَنَظَرَ كَيْفَ يُلْقِي ٱلْجَمْعُ نُحَاسًا فِي ٱلْخِزَانَةِ. وَكَانَ أَغْنِيَاءُ كَثِيرُونَ يُلْقُونَ كَثِيرًا. فَجَاءَتْ أَرْمَلَةٌ فَقِيرَةٌ وَأَلْقَتْ فَلْسَيْنِ، قِيمَتُهُمَا رُبْعٌ. فَدَعَا تَلَامِيذَهُ وَقَالَ لَهُمُ: ٱلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ هَذِهِ ٱلْأَرْمَلَةَ ٱلْفَقِيرَةَ قَدْ أَلْقَتْ أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِ ٱلَّذِينَ أَلْقَوْا فِي ٱلْخِزَانَةِ، لِأَنَّ ٱلْجَمِيعَ مِنْ فَضْلَتِهِمْ أَلْقَوْا، وَأَمَّا هَذِهِ فَمِنْ إِعْوَازِهَا أَلْقَتْ كُلَّ مَا عِنْدَهَا، كُلَّ مَعِيشَتِهَا.

يبدو أنّ الكَتَبةَ، أي مُفسّري الكتاب المقدّس في زمن يسوع، قد أصبحوا يركّزون عليه أكثر فأكثر بينما كان يُعلّم في أورشليم. بعد أنْ أجابَ يسوع عن سؤال أحدهم حول أعظم الوصايا (الآيات ٢٨–٣٤)، طرح بعد ذلك سؤالًا حول تعليم الكَتَبَة عن المسيح (الآيات ٣٥–٣٧). ثمّ أصبح أكثر

تحديدًا إذْ حذّر الشعب بشكل مباشر من الكَتَبَة.

يكتب مَرْقُس: **وَقَالَ لَهُمْ فِي تَعْلِيمِهِ: تَحَرَّزُوا مِنَ ٱلْكَتَبَةِ، ٱلَّذِينَ يَرْغَبُونَ ٱلْمَشْيَ بِٱلطَّيَالِسَةِ، وَٱلتَّحِيَّاتِ فِي ٱلْأَسْوَاقِ، وَٱلْمَجَالِسَ ٱلْأُولَى فِي ٱلْمَجَامِعِ، وَٱلْمُتَّكَآتِ ٱلْأُولَى فِي ٱلْوَلَائِمِ. ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ بُيُوتَ ٱلْأَرَامِلِ، وَلِعِلَّةٍ يُطِيلُونَ ٱلصَّلَوَاتِ. هَؤُلَاءِ يَأْخُذُونَ دَيْنُونَةً أَعْظَمَ** (الآيات ٣٨-٤٠). فيما بعد، أعطى الرسول يعقوب تحذيرًا مماثلًا للمعلّمين في الكنيسة المسيحيّة: «لَا تَكُونُوا مُعَلِّمِينَ كَثِيرِينَ يَا إِخْوَتِي، عَالِمِينَ أَنَّنَا نَأْخُذُ دَيْنُونَةً أَعْظَمَ» (٣: ١). يتمتّع أيّ شخص يُعيَّن في منصب قيادي في الكنيسة، ويُعطى مسؤوليّة إطعام خراف المسيح بقوّة هائلة لتضليل قطيع الله، لذلك يتحمّل المعلّمون مسؤوليّة مراقبة عقيدتهم عن كثب، وتعليم ما هو صحيح فقط. لكن لا يأخذ جميع المعلّمين هذه المسؤوليّة على محمل الجدّ، وهنا ينطبق تحذير يسوع، إذ تحتاج الخراف أنْ تعرفَ متى يُضلّلها رعاتها. كما ينبغي عليهم أيضًا أن يراقبوا عقيدة معلّميهم، وكذلك سلوكهم.

فلنتأمّل في بعض خصائص إنذار يسوع. قال إنّ الكَتَبَة: «يَرْغَبُونَ ٱلْمَشْيَ بِٱلطَّيَالِسَةِ». كان من عادة اليهوديّ أنْ يرتديَ وشاحَ الصلاة عند تلاوة الصلوات، لكن، كان للكَتَبَة أوشحة خاصّة بهم للصلاة، وقد كانت طويلة جدًّا لدرجة أنّها كانت تلامس الأرض. كانت هذه الأوشحة مُزخرفة بأهداب على نهاياتها، إشارة إلى المركز السامي الذي يتمتّع به هؤلاء المعلّمين في المجتمع.

بعض الأشياء لا تتغيّر أبدًا، ففي العالم الأكاديميّ، نجدُ أحيانًا شعورًا قويًّا بالحسد بين الأساتذة فيما يتعلّق بالمكانة والوظيفة والألقاب، وحتّى الملابس التي يرتدونها عندما يسيرون في المناسبات الأكاديميّة. غالبًا ما يبذل الأكاديميّون طاقة كبيرة للحصول على ألقاب أعلى. تبدأ كمساعد أو مُدرّس، ثُمّ تصبح أستاذًا مساعدًا، وأخيرًا أستاذًا كاملًا بمنصب ثابت. في

عالم الكنيسة، لا تبدأ بأيّ شيء سوى اسمك. وعندما تنتهي من الدراسة في معهدٍ للاهوت وتتثبّت دعوتك، تُصبح المُحترم فلان وفلان. ربّما تذهب بعد ذلك إلى كليّةٍ للاهوت لتحصل على درجة متقدّمة، فيبدأ الناس بمناداتك بالدكتور فلان الفلاني. إلّا أنّك لا تُعتبر بعدُ أنّك وصلت إلى العالَم اللاهوتيّ حتّى تُعرَف ببساطة باسمك الأخير، مثل لوثر أو كالفن. ربّما يكون أعظم تكريم لأيّ عالم لاهوتيّ عندما يتمّ تسمية نظام لاهوتيّ بأكمله باسمه؛ وما الأوغسطينيّة والكالفينيّة إلّا مثالَيْن عن ذلك.

إلى جانب ذلك، قال يسوع إنّ الكَتَبَة «يحبّون التحيّات في الأسواق». كان من عادة اليهود أنْ يقفوا احترامًا عند حضور عالم جليل مثل الكاتب. كما كانوا يحبّون «المجالس الأولى في المجامع والمتّكآت الأولى في الولائم». كانت أفضل المقاعد في المجامع هي المقاعد الموضوعة على جانبَيْ المجمع. كان عامّة الشعب يجلسون على الأرض، بينما كان للكتبة مكان مريح للجلوس. وفي الولائم، كانوا يجلسون في مقدّمة الموائد. كانوا يُحبّون التشريفات ورموز الاحترام هذه كثيرًا.

تقييم مُروِّع

قال يسوع بطريقة أعنف إنَّ الكَتَبَة «يأكلون بيوت الأرامل». ماذا كان يقصد بذلك؟ يكشف الكتاب المقدّس أنّ اللهَ يهتمّ بشكل خاصّ بالأرامل والأيتام الذين كانوا الأكثر ضعفًا بين اليهود، والأكثر اعتمادًا على الآخرين، والأكثر استغلالًا. وقد كان بعض الكَتَبَة يذهبون بلا حياء إلى الأرامل الضعيفات ليخدعوهنّ بسحب مدّخراتهنّ.

قبل سنوات، عندما كنت أدرّس في جاكسون، ميسيسيبي، نشرَتْ الصحيفة المحليّة بحثًا حول ممارسات غير أخلاقيّة كانت تحدث في سلسلة من استوديوهات الرقص. كان معلّمو الرقص يدعون الأرامل المسنّات لأخذ

دروس في الرقص، ويفرضون عليهنّ دفع مبالغ باهظة. كان أصحاب الاستوديو يَعِدون بمرافقة الأرامل إلى مسابقات الرقص في نيو أورلينز عدّة مرّات في السنة، فأصبحت حياةُ هؤلاء الأرامل تدور حول هذه النشاطات. ذكرت الصحيفة أنّ أحد مدرّبي الرقص ذهب إلى منزل امرأة، وشرح لها أنّها بحاجة إلى دروس في الرقص بقيمة آلاف الدولارات. لم يكن لديها المال، فعرض عليها اصطحابها إلى المصرف لكي تتمكّن من الحصول على قرضٍ من خلال رهن منزلها مرّة ثانية لتدفع كلفة دروس الرقص، ووافقت على ذلك. يمكن أنْ تقعَ الأراملُ في عمليّات احتيال من هذا القبيل لأنّهن خائفات ولا يشعرن بالأمان. وإنْ وعَدَهنّ أيّ شخص بعائد ماليّ جذّاب من خلال استثمار ما، فغالبًا ما يقعن في هذا الفخّ حتّى لو كان الاستثمار مُكلِفًا. هذا ما كان يفعله الكَتَبَة في زمن يسوع.

قال يسوع إنّ الكَتَبَة يُخفون رياءَهم برفعهم صلوات طويلة في الأماكن العامّة. لم يرفعوا هذه الصلوات لتكريم الله، بل لكي يرى الناس تقواهم. كان الأمر كما لو أنّهم كانوا يختلسون النظر خلال الصلاة، ليرَوْا مَن كان ينظر إليهم حتّى يفرحوا بالصيت الحسن.

إنّه تقييم مريع لمجموعة من الناس، وقد وصل يسوع إلى استنتاج مُخيف: «هَؤُلَاءِ يَأْخُذُونَ دَيْنُونَةً أَعْظَمَ». كان هؤلاء الرجال، بصفتهم مُعلّمين للكتاب المقدّس، مُكلَّفين بمسؤوليّة جسيمة، لكنّهم لم يكونوا على قدر المسؤوليّة. لقد فشلوا في قيادة الناس إلى الحقيقة، كما فشلوا في خدمتهم بتواضع. وبما أنّهم مؤتَمنون على حقائق الله، فسيتعرّضون لإدانة أشدّ.

تباين صارخ

بعد روايته لتحذير يسوع من الكَتَبَة، يسجّل مَرْقُس حادثة توضّح التناقض بين أولئك الذين يخدمون الله برياء، والذين يخدمونه بتعبّد روحيّ حقيقيّ.

يُخبرنا مَرْقُس: **وَجَلَسَ يَسُوعُ تُجَاهَ ٱلْخِزَانَةِ، وَنَظَرَ كَيْفَ يُلْقِي ٱلْجَمْعُ نُحَاسًا فِي ٱلْخِزَانَةِ. وَكَانَ أَغْنِيَاءُ كَثِيرُونَ يُلْقُونَ كَثِيرًا** (الآية ٤١). كانت الخزانة تتكوّن من ثلاث عشرة أوانٍ للتبرّعات أو الصدقات. كانت موجودة في فناء الهيكل المخصّص للنساء، وسُمّيت بهذا الاسم لأنّه كان يحقّ للرجال والنساء على حدّ سواء دخولَ ذلك الفناء؛ وهكذا، كان بإمكان الجميع تقديم التبرّعات.

نشأت ممارسة تقديم العطايا إلى مقدس الله في الأيّام والأسابيع التي تلت إخراج الله للشعب من مصر. في الواقع، الله هو الذي أمرَ الشعب بإحضار العطايا لاستخدامها في بناء خيمة الاجتماع، المَقْدِس الأوّل:

> وَكَلَّمَ ٱلرَّبُّ مُوسَى قَائِلًا: كَلِّمْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَأْخُذُوا لِي تَقْدِمَةً. مِنْ كُلِّ مَنْ يَحِثُّهُ قَلْبُهُ تَأْخُذُونَ تَقْدِمَتِي. وَهَذِهِ هِيَ ٱلتَّقْدِمَةُ ٱلَّتِي تَأْخُذُونَهَا مِنْهُمْ: ذَهَبٌ وَفِضَّةٌ وَنُحَاسٌ، وَأَسْمَانْجُونِيٌّ وَأُرْجُوَانٌ وَقِرْمِزٌ وَبُوصٌ وَشَعْرُ مِعْزَى، وَجُلُودُ كِبَاشٍ مُحَمَّرَةٌ وَجُلُودُ تُخَسٍ وَخَشَبُ سَنْطٍ، وَزَيْتٌ لِلْمَنَارَةِ وَأَطْيَابٌ لِدُهْنِ ٱلْمَسْحَةِ وَلِلْبَخُورِ ٱلْعَطِرِ، وَحِجَارَةُ جَزْعٍ وَحِجَارَةُ تَرْصِيعٍ لِلرِّدَاءِ وَٱلصُّدْرَةِ. فَيَصْنَعُونَ لِي مَقْدِسًا لِأَسْكُنَ فِي وَسَطِهِمْ. (خروج ٢٥-١-٨)

في وقت لاحق، أعطى الله الشعبَ تعليماتٍ عن العشور. وبما أنّ إسرائيل كانت مُجتَمَعًا يعتمد على الزراعة، طُلب منهم تعشيرَ حنطتهم وخمرهم الجديدة وزيتهم، وأبكار قطعانهم ومواشيهم (تثنية ١٤: ٢٢-٢٩). وإنْ كانت المسيرة إلى المَقْدِس طويلة، كان بإمكانهم القدوم واستبدال عطاياهم بالمال. كانت هذه الأموال لدعم خدمة الكهنة واللاويّين، كما كانت العشور تُقدّم لمساعدة الغرباء والأيتام والأرامل بانتظام (تثنية ٢٦: ١٢).

كانت التبرّعات في زمن يسوع تُقدَّم إلى الهيكل، وكان يُقدّم الكثير منها وتوزّع، فكان الهيكل بمثابة المصرف المركزيّ للأمّة. في الواقع، كان يُعتبر الشخص الذي يقوم بإدارة خزانة الهيكل أحد أهمّ المسؤولين في إسرائيل.

بينما كان يسوع جالسًا في فناء النساء، رأى أثرياء يتبرّعون بتقدمات كبيرة جدًّا لخزانة الهيكل. لكنّه رأى أيضًا تبرّعًا من نوع مختلف: **فَجَاءَتْ أَرْمَلَةٌ فَقِيرَةٌ وَأَلْقَتْ فَلْسَيْنِ، قِيمَتُهُمَا رُبْعٌ** (الآية ٤٢). هذا هو التبرّع الأكثر شهرة في التاريخ، فهو معروف أكثر من جميع المساهمات الخيريّة التي قدّمها بيل جيتس، ومئات الملايين من الدولارات التي وهبتها عائلتَي كارنيجي وروكفلر، أو أيّ شخص آخر أظهر سخاءً عظيمًا. كانت أشهر تقدِمة، وقد قدّمتها هذه الأرملة المسكينة في الهيكل بينما كان يسوع ينظرُ إليها.

كانت تقدمة الأرملة باهرة بشكل خاصّ لأنّها تُمثّل تناقضًا صارخًا مع سلوك الكَتَبَة، الذين أرادوا أنْ يرى الناس تقواهم. في أغلب الظنّ، كان آخر ما تريدُه هذه المرأة الفقيرة هو أنْ يتمّ ملاحظتها. ربّما كانت تشعر بالخجل من التقدمة الهزيلة التي قدّمتها. يُخبرنا مَرْقُس أنّها جاءَت بفلسَيْن، كان مجموعُهما يساوي ٠,٠٣ من الدينار، وكان الدينار الواحد متوسّط أجر يوم عمل للعامل.

نظام استثنائي للقيمة

لاحظَ يسوع ذلك، **فَدَعَا تَلَامِيذَهُ وَقَالَ لَهُمُ: ٱلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ هَذِهِ ٱلْأَرْمَلَةَ ٱلْفَقِيرَةَ قَدْ أَلْقَتْ أَكْثَرَ مِنْ جَمِيعِ ٱلَّذِينَ أَلْقَوْا فِي ٱلْخِزَانَةِ، لِأَنَّ ٱلْجَمِيعَ مِنْ فَضْلَتِهِمْ أَلْقَوْا، وَأَمَّا هَذِهِ فَمِنْ إِعْوَازِهَا أَلْقَتْ كُلَّ مَا عِنْدَهَا، كُلَّ مَعِيشَتِهَا** (الآيتان ٤٣–٤٤). لم يستطعْ يسوع أنْ يمنعَ نفسَه من الإشارة إلى هذه المقارنة مع تلاميذه، فقد كان الأغنياء الذين كانوا يُلقون الكثير يتبرّعون من فضلتهم. لقد أعطَوا اللهَ ما استطاعوا الاستغناء عنه.

أمّا الأرملة، فلم يكن لديها ما تستغني عنه، بل أعطت كلّ ما كان عندها. بالنسبة إلى الغالبيّة العظمى من الذين جاءَوْا إلى الخزنة، لم يكن هناك ما يُضحّون به على الإطلاق، لأنّه بالكاد كانت تقدماتهم تكلّفهم أيّ شيء من معيشتهم. في المقابل، قدّمت الأرملة الفقيرة تضحية مُكلفة جدًّا، رغم أنّ ما قدّمته كان مُجرّد فلسَيْن. عندما لاحظ يسوع ذلك، قال لتلاميذه إنّ الأرملة ألقت أكثر من أيّ شخصٍ آخر.

أرادَ يسوعُ أنْ يُخبرَ تلاميذَه ويُخبرَنا شيئًا ما عن ميزانيّة الله. نعم، كان يسوع يعرف كيف يَحْسِب. كان يعلمُ أنّ الأغنياء كانوا يُقدّمون مبالغ أكبر بكثير ممّا قدّمته الأرملة الفقيرة. لكن ليس المال ما كان يسوع يُقدّره أكثر من غيره. لقد لاحظَ فعلَ التقوى الذي قامت به، واعترفَ بعبادتها الحقيقيّة. لقد أحبّت إلهَها، وأرادت أنْ تطيعَه وتكرمَه. لهذا السبب، ألقت كلّ ما لديها وكلّ معيشتها.

هذه هي العبادة المُضحّية التي نحن مدعوّون إليها. يدعونا ربّنا الذي ضحّى بكلّ ما لديه من أجل شعبه، أنْ نُعطيَ من ذواتنا، لا بل أكثر من ذلك، إنّه يطلب منّا أنْ نفعلَ ذلك بصمت:

> اِحْتَرِزُوا مِنْ أَنْ تَصْنَعُوا صَدَقَتَكُمْ قُدَّامَ ٱلنَّاسِ لِكَيْ يَنْظُرُوكُمْ، وَإِلَّا فَلَيْسَ لَكُمْ أَجْرٌ عِنْدَ أَبِيكُمُ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَاوَاتِ. فَمَتَى صَنَعْتَ صَدَقَةً فَلَا تُصَوِّتْ قُدَّامَكَ بِٱلْبُوقِ، كَمَا يَفْعَلُ ٱلْمُرَاؤُونَ فِي ٱلْمَجَامِعِ وَفِي ٱلْأَزِقَّةِ، لِكَيْ يُمَجَّدُوا مِنَ ٱلنَّاسِ. اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّهُمْ قَدِ ٱسْتَوْفَوْا أَجْرَهُمْ. وَأَمَّا أَنْتَ فَمَتَى صَنَعْتَ صَدَقَةً فَلَا تُعَرِّفْ شِمَالَكَ مَا تَفْعَلُ يَمِينُكَ، لِكَيْ تَكُونَ صَدَقَتُكَ فِي ٱلْخَفَاءِ. فَأَبُوكَ ٱلَّذِي يَرَى فِي ٱلْخَفَاءِ هُوَ يُجَازِيكَ عَلَانِيَةً. (متّى ٦: ١–٤)

لا يهتمّ اللهُ بما نقدّمه، بقدر ما يهتمّ بالطريقة التي نُقدّم بها. علينا أنْ نحترزَ من العطاء بهدفِ أنْ يرانا الناس. يمكننا أنْ نطمئنَّ بأنّ الله يرى كلّ ما نقدّمه، وبأنّه يجازي الذين يُقدّمون بقلبٍ متعبّد له.

٤٦

العظة على جبل الزيتون، الجزء ١

مَرْقُس ١٣: ١-٨

وَفِيمَا هُوَ خَارِجٌ مِنَ ٱلْهَيْكَلِ، قَالَ لَهُ وَاحِدٌ مِنْ تَلَامِيذِهِ: يَا مُعَلِّمُ، ٱنْظُرْ! مَا هَذِهِ ٱلْحِجَارَةُ! وَهَذِهِ ٱلْأَبْنِيَةُ. فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ: أَتَنْظُرُ هَذِهِ ٱلْأَبْنِيَةَ ٱلْعَظِيمَةَ؟ لَا يُتْرَكُ حَجَرٌ عَلَى حَجَرٍ لَا يُنْقَضُ. وَفِيمَا هُوَ جَالِسٌ عَلَى جَبَلِ ٱلزَّيْتُونِ، تُجَاهَ ٱلْهَيْكَلِ، سَأَلَهُ بُطْرُسُ وَيَعْقُوبُ وَيُوحَنَّا وَأَنْدَرَاوُسُ عَلَى ٱنْفِرَادٍ: قُلْ لَنَا مَتَى يَكُونُ هَذَا؟ وَمَا هِيَ ٱلْعَلَامَةُ عِنْدَمَا يَتِمُّ جَمِيعُ هَذَا؟ فَأَجَابَهُمْ يَسُوعُ وَٱبْتَدَأَ يَقُولُ: ٱنْظُرُوا! لَا يُضِلُّكُمْ أَحَدٌ. فَإِنَّ كَثِيرِينَ سَيَأْتُونَ بِٱسْمِي قَائِلِينَ: إِنِّي أَنَا هُوَ! وَيُضِلُّونَ كَثِيرِينَ. فَإِذَا سَمِعْتُمْ بِحُرُوبٍ وَبِأَخْبَارِ حُرُوبٍ فَلَا تَرْتَاعُوا، لِأَنَّهَا لَابُدَّ أَنْ تَكُونَ، وَلَكِنْ لَيْسَ ٱلْمُنْتَهَى بَعْدُ. لِأَنَّهُ تَقُومُ أُمَّةٌ عَلَى أُمَّةٍ، وَمَمْلَكَةٌ عَلَى مَمْلَكَةٍ، وَتَكُونُ زَلَازِلُ فِي أَمَاكِنَ، وَتَكُونُ مَجَاعَاتٌ وَٱضْطِرَابَاتٌ. هَذِهِ مُبْتَدَأُ ٱلْأَوْجَاعِ.

نجدُ في مَرْقُس ١٣ أطولَ تعليمٍ متواصل ليسوع في هذا الإنجيل. هذا التعليم، المعروف باسم عظة جبل الزيتون لأنّه أُلقيَ على جبل الزيتون،

يَظهرُ أيضًا في متّى ٢٤ ولوقا ٢١. وقد تكلّم يسوع فيه عن الدمار العتيد لهيكل أورشليم وعن مجيئِه.

لو كان أيّ نصّ يُثبت ادّعاءَ يسوع بالألوهيّة، فلا بدّ أنْ يكونَ هذا هو. فقد تنبّأ بشكل واضح عن دمار الهيكل وأورشليم، إلى جانب العديد من الأحداث المصاحِبة لهذا الدمار، قبل سنوات طويلة من وقوعها. إنّها نبوءَة (تكهّنيّة) استباقيّة من المعيار الثقيل. وما هذه الدقّة إلّا برهان قويّ على الوحي الإلهيّ للكتاب المقدّس. ومع ذلك، لم يستخدم علماءُ النقدِ العالي والمشكّكين أيّ نص آخر من نصوص العهد الجديد أكثر من هذا النصّ لإثارة أسئلة حول هُويّة المسيح ومصداقيّة العهد الجديد. لذلك، هذا النصّ من جهة، هو أقوى دفاع لدينا عن علم لاهوت المسيح والأسفار المقدّسة. من جهة أخرى، إنّه نصّ مثير للجدل، يُستخدم كذلك في الحجج ضدّ مزاعم المسيحيّة الحقّة.

المشكلة هي كالآتي: بالإضافة إلى تنبّؤ يسوع بدمار الهيكل وأورشليم وبالعديد من الأحداث المتّصلة بهما (الآيات ٢–٢٣)، تحدّث يسوع عن مجيئه في سحاب المجد (الآيات ٢٤–٢٧). ثمّ قال قُرب نهاية كلامه: «اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لَا يَمْضِي هَذَا ٱلْجِيلُ حَتَّى يَكُونَ هَذَا كُلُّهُ» (الآية ٣٠). وهكذا، بدا أنّ يسوعَ يقول إنّ جيل الأحياء في ذلك الزمان، لن يموتَ قبل عودته. لكنّ عودتَه المجيدة لإنهاء التاريخ لم تحدث قبل موت الجيل الأوّل. في الواقع، هذا لم يحدث حتّى الآن، بعد ما يناهز الألفي عام.

تنبّأ يسوع بحدوث أمور أخرى في إطار زمنيّ مماثل. ناقشنا في الفصل ٢٧ من هذا الكتاب العبارة التالية التي قالها يسوع: «ٱلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ مِنَ ٱلْقِيَامِ هَهُنَا قَوْمًا لَا يَذُوقُونَ ٱلْمَوْتَ حَتَّى يَرَوْا مَلَكُوتَ ٱللهِ قَدْ أَتَى بِقُوَّةٍ» (مَرْقُس ٩: ١). كما تأمّلنا في هذا التأكيد الجازم: «فَإِنِّي ٱلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لَا تُكَمِّلُونَ مُدُنَ إِسْرَائِيلَ حَتَّى يَأْتِيَ ٱبْنُ ٱلْإِنْسَانِ» (متّى ١٠: ٢٣).

ينتهز النقّاد هذه النبوءَات، وكذلك النبوءَة الموجودة في مَرْقُس ١٣، ليقولوا إنّ يسوع توقّع تحقيق ملكوتِه ضمن إطارٍ زمنيّ من أربعين عامًا، وبما أنّ ملكوته لم يتحقّق بعد، فقد أخطأ يسوع بذلك. لم يكن يمرّ أسبوع واحد في كليّة اللاهوت قبل أنْ يسعى بعض علماء الكتاب المقدّس إلى إقحامنا في صعوبات العظة على جبل الزيتون، محاولين استخدامَ هذا النصّ لدحض الوحي الكتابيّ. عندما كتبَ برتراند راسل مقالته بعنوان «لماذا لستُ مسيحيًّا»، استشهد بالعظة على جبل الزيتون كأحد الأسباب الرئيسة لرفضه للمسيحيّة، مُعلنًا أنّه رغم أن نبوءَات يسوع عن دمار الهيكل وأورشليم كانت دقيقة إلى حدّ مُذهل، إلّا أنّ مصداقيّته ومصداقيّة العهد الجديد بأكمله انهارت بعد أنْ فشلَ في العودة خلال جيل واحد من العظة على جبل الزيتون.

أعتقدُ أنّ أكثر ما فشل به علماءَ اللاهوت الإنجيليّين المحافظين الذين واجهوا صعوبة مع هذا النصّ هو الشعور بالأهميّة الحقيقيّة لهذه المشكلة. إنّها برأيي أخطر مُعضلة نواجهها فيما يتعلّق بمسألتَي طبيعة المسيح والكتاب المقدّس.

جرت محاولات كثيرة للتعامل مع هذه الصعوبة. فقد اقترح بعضهم أنّ يسوعَ لم يشمل مجيئه ضمن الأحداث التي قال إنّها ستقع خلال جيل واحد. واقترح البعض الآخر أنّه لا ينبغي فهم كلمة **جيل** بالمعنى الحرفيّ للكلمة، إنّما بطريقة مجازيّة. وقال آخرون إنّ هذه النبوءَة تتبع نمط نبوءات كثيرة في العهد القديم، التي كان لها في الوقت نفسه تحقيق قصير الأمد، وآخر طويل الأمد. وبقي آخرون يؤكّدون أنّ يسوع لم يكن يتحدّث عن مجيئه الأخير في نهاية الزمان، إنّما عن مجيئه بدينونة على إسرائيل في عام ٧٠ ميلاديًّا. وقد أصبح هذا الرأي أكثر تداولًا مع اشتداد النقد في أيّامنا هذه.

إنّها مسألة مُعقّدة للغاية، لكنها مهمّة جدًّا في الوقت نفسه. لذلك، من

المهمّ المكافحة مع هذا النصّ لمحاولة فهمه. بينما نقوم بتحليل رواية مَرْقُس عن العظة على جبل الزيتون في هذا الفصل والفصلَيْن التاليَيْن، سأجتهد في التنبيه إلى المشاكل التي يطرحها هذا النصّ، وبنعمة الله، سوف أقترح بعض السُبل لحلّ هذه الصعوبات. إنّ دافعي الرئيس هو إظهار أنّه يُمكن فهم العديد من تفاصيل هذه العظة، إنْ لم يكن كلّها، من منظور أحداث القرن الأوّل.

عجيبة من العالم القديم

يكتب مَرْقُس: **وَفِيمَا هُوَ خَارِجٌ مِنَ ٱلْهَيْكَلِ، قَالَ لَهُ وَاحِدٌ مِنْ تَلَامِيذِهِ: يَا مُعَلِّمُ، ٱنْظُرْ! مَا هَذِهِ ٱلْحِجَارَةُ! وَهَذِهِ ٱلْأَبْنِيَةُ!** (الآية ١). كان يسوع في الهيكل حيث أجابَ عن الأسئلة، وعلّم الشعب، ورأى الأرملة الفقيرة وهي تُلقي فلسَيْها في خزانة الهيكل (مَرْقُس ١٢). بينما كان يغادر مع تلاميذه مُتّجهين إلى جبل الزيتون، التفت أحد التلاميذ ونظر إلى الهيكل المهيب، الذي كان بالفعل من عجائب العالم القديم. من الصعب أنْ نتخيّل أنّه لم يرَ الهيكل من قبل، ورغم ذلك اندهش وعبّر عن دهشته ليسوع.

لم يكن الهيكل الذي رآه هذا التلميذ هو الهيكل نفسه الذي بناه سليمان في القرن العاشر قبل الميلاد. كان ذلك الهيكل قد دُمّر في عام ٥٨٧ قبل الميلاد عندما احتلّ البابليّون أورشليم، بقيادة الملك نبوخذنصّر. بعد عودة الإسرائيليّين من السبي البابليّ، أُعيد بناء الهيكل، واكتمل بناؤه حوالي ٥١٦ قبل الميلاد. حوالي عام ١٩ قبل الميلاد، بدأ هيرودس الكبير في إعادة ترميم وتصميم الهيكل، ثمّ أصبح يُعرف بعد ذلك باسم هيكل هيرودس. وكانت أعمال الترميم لا تزال قائمة في زمن يسوع.

يُعرفُ عن هيرودس بناؤه لمشاريع معماريّة ضخمة، وقد كان هذا المعبد مثالًا بارزًا عن ذلك. كان بناء الهيكل يُغطّي حوالي خمسة وثلاثين

فدّانًا، وكان ارتفاعه مئة وخمسين قدمًا وكذلك سور الهيكل. كانت أعمدة الأروقة ضخمة جدًّا، لدرجة أنّه بالكاد يستطيع ثلاثة رجال كبار من الإحاطة بها والتقاء أطراف أصابعهم بعضها ببعض. يُخبرنا يوسيفوس أنّ طول بعض حجارة الهيكل كان يبلغ ستّين قدمًا، وكان ارتفاعها أحد عشر قدمًا بعُمق ثمانية أقدام، ويزن كلّ واحد منها أكثر من مليون رطل. وقال مؤرّخون آخرون في العصور القديمة إنّ هيكل هيرودس يشبه جبلًا من الرخام مُزخرفًا بالذهب. كان بناء الهيكل ساحرًا من الناحية المعماريّة، ولا بدّ أنّه كان يبدو متينًا بما يكفي ليصمد لألف عام أو أكثر.

نبوءة عن دمار

بعد أن عبّر التلميذ عن رهبته من الهيكل، ربّما استدار يسوع والتلاميذ الآخرون وحدّقوا في الهيكل أيضًا وبُهتوا مثله. ثمّ قال يسوع شيئًا لا بدّ أنّه أبهتهم بطريقة مختلفة. يكتب مَرْقُس: **فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ: أَتَنْظُرُ هَذِهِ ٱلْأَبْنِيَةَ ٱلْعَظِيمَةَ؟ لَا يُتْرَكُ حَجَرٌ عَلَى حَجَرٍ لَا يُنْقَضُ** (الآية ٢).

لا يذكر لنا مَرْقُس ردّ فعل التلاميذ الفوريّ عندما أدلى يسوع بهذا الإعلان المذهل. لكنّه يقول مُلاحظًا: **وَفِيمَا هُوَ جَالِسٌ عَلَى جَبَلِ ٱلزَّيْتُونِ، تُجَاهَ ٱلْهَيْكَلِ، سَأَلَهُ بُطْرُسُ وَيَعْقُوبُ وَيُوحَنَّا وَأَنْدَرَاوُسُ عَلَى ٱنْفِرَادٍ: قُلْ لَنَا مَتَى يَكُونُ هَذَا؟ وَمَا هِيَ ٱلْعَلَامَةُ عِنْدَمَا يَتِمُّ جَمِيعُ هَذَا؟** (الآيتان ٣-٤). تقدّمت نحوه مجموعة صغيرة من التلاميذ يسألونه عن نبوءَته المتعلّقة بدمار الهيكل. لم يسألوا عمّا إنْ كانوا قد سمعوه بشكل صحيح، بل قَبِلوا كلّ ما قاله. كان سؤالهم الأوّل عن الوقت: هل سيصمد الهيكل ألفَ سنة قبل أنْ يحلّ الدمار عليه؟ أو هل يُمكن أنْ يقعَ هذا الحدث الفظيع بزمن أقرب بكثير؟ كما طلبوا منه تحديد علامة تنبّههم إلى أنّ تحقيق النبوءَة أصبحَ قريبًا.

لاحِظْ أنّ السؤالَيْن احتويا كلمة «هذا». استخدم يسوع المصطلح نفسه عندما نطق بالعبارة الحاسمة المسجّلة في الآية ٣٠: «اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لَا يَمْضِي هَذَا ٱلْجِيلُ حَتَّى يَكُونَ هَذَا كُلُّهُ». السؤال الذي يَكمن في قلب صعوبات هذا المقطع هو ما إذا كان يسوع قصدَ الشيء نفسه الذي قصدَه التلاميذ عندما قال: «هذا كلّه». لا يبدو ظاهريًّا أنّه قصدَ ذلك. كان التلاميذ قد سمعوا أنّ يسوع ذَكَر فقط دمار الهيكل عندما سألوه عن «جميع هذا»، ولكن بحلول الوقت الذي تحدّث فيه يسوع عن «هذا كلّه»، كان قد سبق وذَكَر دمار الهيكل وأورشليم نفسها، بالإضافة إلى عودته.

بدأ يسوع إجابَته للتلاميذ بتحذير مثير للانتباه. يكتب مَرْقُس: **فَأَجَابَهُمْ يَسُوعُ وَٱبْتَدَأَ يَقُولُ: ٱنْظُرُوا! لَا يُضِلُّكُمْ أَحَدٌ** (الآية ٥). كانت أولى أولويّاته إخطار تلاميذه إلى أنّ موضوع الأخرويات مشحون بإمكانيّة للخداع. بأيّ طريقة؟ تابع يسوع وقال: «**فَإِنَّ كَثِيرِينَ سَيَأْتُونَ بِٱسْمِي قَائِلِينَ: إِنِّي أَنَا هُوَ! وَيُضِلُّونَ كَثِيرِينَ**» (الآية ٦). إذن، كانت العلامة الأولى للتحقيق الوشيك لنبوءَته التي حدّدها يسوع لتلاميذه هي ظهور المُسحاء الكذبة. لقد تحقّق هذا الجانب من النبوءَة بالتأكيد في القرن الأوّل. يُخبرنا المؤرّخون أنّ مسحاء كذبة كثيرين ظهروا قبل دمار الهيكل، وقد وثّق يوسيفوس بشكل خاصّ أولئك الأشخاص الذين ادّعوا أنّهم المسيح العائد.

حروب وزلازل ومجاعات

تابع يسوع مُقدّمًا سلسلة من العلامات الإضافيّة: «**فَإِذَا سَمِعْتُمْ بِحُرُوبٍ وَبِأَخْبَارِ حُرُوبٍ فَلَا تَرْتَاعُوا، لِأَنَّهَا لَابُدَّ أَنْ تَكُونَ، وَلَكِنْ لَيْسَ ٱلْمُنْتَهَى بَعْدُ. لِأَنَّهُ تَقُومُ أُمَّةٌ عَلَى أُمَّةٍ، وَمَمْلَكَةٌ عَلَى مَمْلَكَةٍ، وَتَكُونُ زَلَازِلُ فِي أَمَاكِنَ، وَتَكُونُ مَجَاعَاتٌ وَٱضْطِرَابَاتٌ. هَذِهِ مُبْتَدَأُ ٱلْأَوْجَاعِ**» (الآيتان ٧–٨). لا بدّ أنْ يكونَ التلاميذُ الذين كانوا يستمعون إلى يسوع قد فهموا من عبارة

«حروب وأخبار حروب» على أنّها نذير بدمار الهيكل. ولا بدّ أنّهم أعاروا انتباهًا شديدًا في السنوات اللاحقة مع احتدام صراعات مختلفة. مثلًا، في عام ٤٠ ميلاديًّا، حاول الإمبراطور المعتوه كاليجولا تشييدَ نُصبٍ لنفسه في باحة الهيكل المقدّس، الأمر الذي أشعل احتجاجات عنيفة في أورشليم. ثمّ سرت شائعات تُفيد بأنّ الرومان كانوا على وشك استخدام القوّة لكبح تلك الاحتجاجات، وتنفيذ انتهاك وتدنيس كاليجولا للهيكل. في تلك الحالة، كانت الشائعات مُجرّد شائعات، ولم يقع أيّ نزاع فعليّ حتّى قيام الثورة اليهوديّة ضدّ الرومان في عام ٦٦ ميلاديًّا، الأمر الذي أفضى إلى تدمير الهيكل وأورشليم في عام ٧٠ ميلاديًّا. لا شكّ أنّ التلاميذ أعاروا انتباهًا شديدًا لمُجريات هذه الأحداث، لكنّ يسوع كان قد نصحهم ألّا يرتاعوا من الحروب وأخبار الحروب، «لِأَنَّهَا لَابُدَّ أَنْ تَكُونَ، وَلَكِنْ لَيْسَ ٱلْمُنْتَهَى بَعْدُ».

ذكر يسوع أيضًا الزلازل والمجاعات و«الاضطرابات» كعلامات. ضرب زلزال ضخم منطقة فريجية في عام ٦١ ميلاديًّا، وأدّى آخر إلى تدمير مدينة بومباي في عام ٦٣. وبين عامي ٤١ و٥٤ ميلاديًّا، خلال حُكم كلوديوس، أثّرت عدّة مجاعات خطيرة على الشرق الأدنى. كانت هذه أيضًا علامات على الدمار العتيد أنْ يُصيبَ الهيكل.

إذن، في ذلك الجيل الأوّل، انتشرت حروب وأخبار حروب خلال حياة معظم التلاميذ، ووقعت زلازل ومجاعات. أعتقد أنّ ربَّنا كان يُلفت الانتباه إلى الأحداث التي كانت ستقع في القرن الأوّل، وقد حدثت بالفعل في القرن الأوّل. كانت هذه العلامات، كما قال يسوع، «مُبْتَدَأُ ٱلْأَوْجَاعِ».

في كلّ مرّة تندلع فيها حرب، يميل العديد من الإنجيليّين إلى القول: «إنّها علامة أخرى من علامات انتهاء الزمان؛ لا بدّ أنّ يسوع سيعود قريبًا». الزلازل والمجاعات وما إلى ذلك تجذب الانتباه الإنجيليّ. من الجليّ أنّ السبب وراء مُراقبة الإنجيليّين لهذه العلامات يعود إلى ما يبدو بأنّه لم

يحدث في القرن الأوّل، أي مجيء يسوع على السحاب بمجدٍ عظيم. ولكن، كما بدأنا نكتشف، فإنّ الأحداث التي ذكرها يسوع في عظته على جبل الزيتون قد تحقّقت خلال حياة التلاميذ الذين سمعوه يتكلّم. وبينما نتقدّم في هذا الكتاب، سوف نتأمّل في الأحداث العديدة الأخرى التي ذكرها، وآثار ما قد تحقّق من أحداث في القرن الأوّل.

٤٧

العظة على جبل الزيتون، الجزء ٢

مرقس ١٣: ٩-٢٣

فَٱنْظُرُوا إِلَى نُفُوسِكُمْ. لِأَنَّهُمْ سَيُسَلِّمُونَكُمْ إِلَى مَجَالِسَ، وَتُجْلَدُونَ فِي مَجَامِعَ، وَتُوقَفُونَ أَمَامَ وُلَاةٍ وَمُلُوكٍ، مِنْ أَجْلِي، شَهَادَةً لَهُمْ. وَيَنْبَغِي أَنْ يُكْرَزَ أَوَّلًا بِٱلْإِنْجِيلِ فِي جَمِيعِ ٱلْأُمَمِ. فَمَتَى سَاقُوكُمْ لِيُسَلِّمُوكُمْ، فَلَا تَعْتَنُوا مِنْ قَبْلُ بِمَا تَتَكَلَّمُونَ وَلَا تَهْتَمُّوا، بَلْ مَهْمَا أُعْطِيتُمْ فِي تِلْكَ ٱلسَّاعَةِ فَبِذَلِكَ تَكَلَّمُوا. لِأَنْ لَسْتُمْ أَنْتُمُ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ بَلِ ٱلرُّوحُ ٱلْقُدُسُ. وَسَيُسْلِمُ ٱلْأَخُ أَخَاهُ إِلَى ٱلْمَوْتِ، وَٱلْأَبُ وَلَدَهُ، وَيَقُومُ ٱلْأَوْلَادُ عَلَى وَالِدِيهِمْ وَيَقْتُلُونَهُمْ. وَتَكُونُونَ مُبْغَضِينَ مِنَ ٱلْجَمِيعِ مِنْ أَجْلِ ٱسْمِي. وَلَكِنَّ ٱلَّذِي يَصْبِرُ إِلَى ٱلْمُنْتَهَى فَهَذَا يَخْلُصُ. فَمَتَى نَظَرْتُمْ «رِجْسَةَ ٱلْخَرَابِ» ٱلَّتِي قَالَ عَنْهَا دَانِيآلُ ٱلنَّبِيُّ، قَائِمَةً حَيْثُ لَا يَنْبَغِي –لِيَفْهَمِ ٱلْقَارِئُ– فَحِينَئِذٍ لِيَهْرُبِ ٱلَّذِينَ فِي ٱلْيَهُودِيَّةِ إِلَى ٱلْجِبَالِ، وَٱلَّذِي عَلَى ٱلسَّطْحِ فَلَا يَنْزِلْ إِلَى ٱلْبَيْتِ وَلَا يَدْخُلْ لِيَأْخُذَ مِنْ بَيْتِهِ شَيْئًا، وَٱلَّذِي فِي ٱلْحَقْلِ فَلَا يَرْجِعْ إِلَى ٱلْوَرَاءِ لِيَأْخُذَ ثَوْبَهُ. وَوَيْلٌ لِلْحَبَالَى وَٱلْمُرْضِعَاتِ فِي تِلْكَ ٱلْأَيَّامِ! وَصَلُّوا لِكَيْ لَا يَكُونَ هَرَبُكُمْ فِي شِتَاءٍ. لِأَنَّهُ يَكُونُ فِي تِلْكَ ٱلْأَيَّامِ ضِيقٌ لَمْ يَكُنْ مِثْلُهُ مُنْذُ ٱبْتِدَاءِ

ٱلْخَلِيقَةِ ٱلَّتِي خَلَقَهَا ٱللهُ إِلَى ٱلْآنَ، وَلَنْ يَكُونَ. وَلَوْ لَمْ يُقَصِّرِ ٱلرَّبُّ تِلْكَ ٱلْأَيَّامَ، لَمْ يَخْلُصْ جَسَدٌ. وَلَكِنْ لِأَجْلِ ٱلْمُخْتَارِينَ ٱلَّذِينَ ٱخْتَارَهُمْ، قَصَّرَ ٱلْأَيَّامَ. حِينَئِذٍ إِنْ قَالَ لَكُمْ أَحَدٌ: هُوَذَا ٱلْمَسِيحُ هُنَا! أَوْ: هُوَذَا هُنَاكَ! فَلَا تُصَدِّقُوا. لِأَنَّهُ سَيَقُومُ مُسَحَاءُ كَذَبَةٌ وَأَنْبِيَاءُ كَذَبَةٌ، وَيُعْطُونَ آيَاتٍ وَعَجَائِبَ، لِكَيْ يُضِلُّوا لَوْ أَمْكَنَ ٱلْمُخْتَارِينَ أَيْضًا. فَٱنْظُرُوا أَنْتُمْ. هَا أَنَا قَدْ سَبَقْتُ وَأَخْبَرْتُكُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ.

بينما كان يسوع يتابع حديثَه في العظة على جبل الزيتون، مُقدّمًا لائحة بالعلامات الدالّة إلى التحقيق الوشيك لنبوءَته فيما يتعلّق بدمار الهيكل في أورشليم، انتقلَ من العلامات العامّة كالحروب والزلازل والمجاعات إلى علامات أكثر شخصيّة. بدأ يُخبرُ تلاميذَه عن أشياءَ ستحدث لهم، وكيف ينبغي عليهم أنْ يتجاوبوا معها. بينما نتأمّل في هذه العلامات، أريدُ الاستمرار في استكشاف طرق قد تكون هذه العلامات قد تحقّقت من خلالها في القرن الأوّل.

يُخبرنا مَرقُس أنّ يسوع قال: «**فَٱنْظُرُوا إِلَى نُفُوسِكُمْ. لِأَنَّهُمْ سَيُسَلِّمُونَكُمْ إِلَى مَجَالِسَ، وَتُجْلَدُونَ فِي مَجَامِعَ، وَتُوقَفُونَ أَمَامَ وُلَاةٍ وَمُلُوكٍ، مِنْ أَجْلِي، شَهَادَةً لَهُمْ. وَيَنْبَغِي أَنْ يُكْرَزَ أَوَّلًا بِٱلْإِنْجِيلِ فِي جَمِيعِ ٱلْأُمَمِ. فَمَتَى سَاقُوكُمْ لِيُسَلِّمُوكُمْ، فَلَا تَعْتَنُوا مِنْ قَبْلُ بِمَا تَتَكَلَّمُونَ وَلَا تَهْتَمُّوا، بَلْ مَهْمَا أُعْطِيتُمْ فِي تِلْكَ ٱلسَّاعَةِ فَبِذَلِكَ تَكَلَّمُوا. لِأَنْ لَسْتُمْ أَنْتُمُ ٱلْمُتَكَلِّمِينَ بَلِ ٱلرُّوحُ ٱلْقُدُسُ**» (الآيات ٩-١١). يبدو لنا عند قراءَة هذا الجزء من إنجيل مرقس كما لو أنّه نظرة عامّة إلى سفر أعمال الرسل. يُخبرنا لوقا في ذلك السفر، بينما يقوم بسرد انتشار الإنجيل في القرن الأوّل، كيف كان الرسل عُرضة للاضطهاد مرارًا وتكرارًا، أوّلًا من السلطات اليهوديّة، ثمّ لاحقًا من السلطات الرومانيّة. في الواقع، اقتيدوا أمام المجالس، كما حدث عندما استجوب السنْهدرين بطرس ويوحنا (أعمال الرسل ٤). ضُربوا في المجامع،

وقد اعترف بولس أنّه هو نفسه ضرب المؤمنين قبل تجديده (أعمال الرسل ٢٢: ١٩). وسِيقوا أمام حُكّام وملوك، كما حدث عندما وقف بولس أمام الملك أغريباس (أعمال الرسل ٢٦). قال أغريباس: بِقَلِيلٍ تُقْنِعُنِي أَنْ أَصِيرَ مَسِيحِيًّا. فَقَالَ بُولُسُ: كُنْتُ أُصَلِّي إِلَى ٱللهِ أَنَّهُ بِقَلِيلٍ وَبِكَثِيرٍ، لَيْسَ أَنْتَ فَقَطْ، بَلْ أَيْضًا جَمِيعُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَنِي ٱلْيَوْمَ، يَصِيرُونَ هَكَذَا كَمَا أَنَا، مَا خَلَا هَذِهِ ٱلْقُيُودَ (الآيتان ٢٨-٢٩).

يبدو أنّ الرسلَ كانوا يتمتّعون بوعي قويّ لكلمات يسوع، لذلك وضعوا ثقتهم في حضور وقوّة الروح القدس لإعطائهم الكلمات المناسبة ليقولوها في مناسبات مختلفة. غالبًا ما يذكر لوقا في اللحظات الحاسمة من الاضطهاد الشديد، أنّ الرسلَ «امتلأوا من الروح القدس» وقدّموا شهادات مؤثّرة عن عمل المسيح الخلاصي (٤: ٨؛ ٧: ٥٥؛ ١٣: ٩).

كيف ينبغي علينا أنْ نفهمَ الآية ١٠: «وَيَنْبَغِي أَنْ يُكْرَزَ أَوَّلًا بِٱلْإِنْجِيلِ فِي جَمِيعِ ٱلْأُمَمِ»؟ علينا أنْ نتذكّرَ أنّ يسوع كان يجيب عن هذا السؤال: «مَا هِيَ ٱلْعَلَامَةُ عِنْدَمَا يَتِمُّ جَمِيعُ هَذَا؟» (الآية ٤)، أي دمار الهيكل الذي تنبّأ عنه يسوع سابقًا (الآية ٢). وهكذا، كان يسوع يشارك بالعلامات التي يجب على التلاميذ الانتباه إليها، والأحداث التي ستشير إلى أنّ دمار الهيكل أصبح وشيكًا. قال إنّ واحدة من هذه العلامات هي أنّه سيُكرَز بالإنجيل في جميع الأمم، بين جميع الـ**ethnoi**. لقد حدث هذا في القرن الأوّل، فقد قال بولس في إحدى رسائله اللاحقة إنّ «كَلِمَةِ حَقِّ ٱلْإِنْجِيلِ... قَدْ حَضَرَ إِلَيْكُمْ كَمَا فِي كُلِّ ٱلْعَالَمِ أَيْضًا» (كولوسي ١: ٥ب-٦).

بالتأكيد لم يُكرز بالإنجيل في كلّ أرجاء المعمورة في القرن الأوّل. فالإنجيل لم يصل إلى جنوب إفريقيا أو شرق آسيا أو أستراليا أو أمريكا الشماليّة والجنوبيّة. فكيف استطاع بولس أنْ يكتبَ أنّ الإنجيل قد وصل إلى العالم كلّه؟ كان يتحدّث عن عالم البحر الأبيض المتوسّط، العالم

المعروف في ذلك الوقت، وقد تمّت الكرازة بالإنجيل في جميع أنحاء ذلك العالم في القرن الأوّل.

خيانات عائليّة

تابع يسوع وقال: «**وَسَيُسْلِمُ ٱلْأَخُ أَخَاهُ إِلَى ٱلْمَوْتِ، وَٱلْأَبُ وَلَدَهُ، وَيَقُومُ ٱلْأَوْلَادُ عَلَى وَالِدِيهِمْ وَيَقْتُلُونَهُمْ. وَتَكُونُونَ مُبْغَضِينَ مِنَ ٱلْجَمِيعِ مِنْ أَجْلِ ٱسْمِي. وَلَكِنَّ ٱلَّذِي يَصْبِرُ إِلَى ٱلْمُنْتَهَى فَهَذَا يَخْلُصُ**» (الآيتان ١٢-١٣). كانت مسألة أولئك الذين نكروا إيمانهم تحت الاضطهاد من أصعب المشاكل التي كان على الكنيسة الأولى أنْ تتصارعَ معها. في الواقع، يعتقد بعض مفسّري الرسالة إلى العبرانيّين أنّ معالجة هذه المشكلة كانت من أحد الأسباب الرئيسة لكتابتها. بالطبع، نحن نسمع بالعادة عن أولئك الذين رفضوا التراجع تحت الاضطهاد اليهوديّ والرومانيّ. نسمع عن الشهداء الذين كانوا أمناء حتّى الموت، الذين جعلوا منهم مشاعل بشريّة لإضاءة حدائق نيرون، وأصبحوا طعامًا للأُسود في الملاعب، أو لاقوا مصيرًا مشؤومًا آخر. يُقال إنّ دماءَ الشهداء هي بذار الكنيسة، وهذا صحيح إلى حدّ بعيد، لأنّ الكنيسة انتعشت في كلّ مكان وقف الناس فيه بحزم ضدّ معارضة الإنجيل. ومن الحقائق التاريخيّة الثابتة أيضًا أنّ ليس كلّ المسيحيّين الذين تعرّضوا للاضطهاد في القرن الأوّل توجّهوا إلى حتفهم وهم يُرنّمون الترانيم. فهنالك مَن اختبأوا وأنكروا إيمانَهم، والبعضُ الآخر خانوا أصدقاءَهم وآباءَهم وإخوانَهم وأخواتِهم لإنقاذِ أنفسِهم. ببساطة، كان في القرن الأوّل أشخاص خانوا الإيمان، تمامًا كما حذّر يسوع.

بين الآونة والأخرى، كان يسعى هؤلاء غير المُخلِصين إلى أنْ تتمَّ إعادتهم وقبولهم في الكنيسة بعد انحسار الاضطهاد. بطبيعة الحال، وَجدَ الذين ثبتوا في الكنيسة صعوبةً في مسامحة هؤلاء الخوَنة الذين تسبّبوا في

فقدان الآخرين لحياتِهم.

لقد اختبرتُ كيف يمكن للشعور بالمرارة من نحو هؤلاء الخوَنَة أنْ يطولَ، خلال مُتابعتي لدراساتي العليا في هولّندا عام ١٩٦٥. كنّا نُقيم في قرية صغيرة خارج أمستردام. ذات يوم، بينما كنت عائدًا من السوق حاملًا كيس البقالة، رأيتُ امرأةً تقترب منّي على الرصيف. ألقيتُ التحيّةَ عليها بدافع المجاملة، وقلت لها: «مساء الخير». أضاءَ وجهُها وتوقّفتْ مكانَها. لم تكن تحيّة «مساء الخير» كافية بالنسبة إليها، بل بدأت تطرح عليّ أسئلةً وتُحادثني. رغم عدم معرفتي بها، وقفتُ هناك على الرصيف وتحدّثت معها حوالي خمس عشرة دقيقة.

أخيرًا، عندما انتهت المحادثة، توجّهتُ إلى المنزل الذي كنّا قد استأجرْنا غرفة فيه. عندما وصلتُ، كانت صاحبة المنزل تنتظرني عند الباب والغضب بادٍ عليها. بدأت توبّخني لأنّني كُنتُ أتحدّث مع المرأة التي التقَيْت بها في الشارع. لم أستطعْ في البداية أنْ أدركَ الخطأ الذي ارتكبْتُه، لكن سرعان ما كشفت لي صاحبة المنزل أنّ المرأة كانت من الأشخاص الذين تعاونوا مع النازيّين خلال الحرب العالميّة الثانية. كانت الحرب قد انتهت منذ عشرين عامًا، ولكن حتّى بعد مرور كلّ ذلك الوقت، لم يرضَ أحد في تلك القرية أنْ يتكلّم مع تلك المرأة بسبب خيانتِها. بسبب ما فعلَتْه، سيق بعض شباب القرية إلى معسكرات الاعتقال في ألمانيا. وهكذا اختبرت بشكل مباشر الألمَ الذي يمكن أنْ يدفعَ الناسَ إلى منع الغفران عن أولئك الذين يخونونهم، وهذا هو نوع الخيانة الذي حدث في القرن الأوّل.

تنبّأ يسوع أيضًا أنّ الانتشار الواسع للكراهيّة ضدّ التلاميذ سيكون علامة أخرى عن قُرب دمار الهيكل. هذه هي الكراهيّة نفسها التي أدّت إلى اضطهاد الكنيسة في القرن الأوّل. قَبِل التلاميذ بهذا الموقف من العالم، وتعاملوا معه بهدوء. ونَصَح يوحنَا بالتالي: «لَا تَتَعَجَّبُوا يَا إِخْوَتِي إِنْ كَانَ

ٱلْعَالَمُ يُبْغِضُكُمْ» (١ يوحنا ٣: ١٣).

أخيرًا، قال يسوع: «وَلَكِنَّ ٱلَّذِي يَصْبِرُ إِلَى ٱلْمُنْتَهَى فَهَذَا يَخْلُصُ». فالذين يقفون بثبات وحزم خلال الاضطهاد وحتّى عند الاستشهاد سيخلصون، ولكن ليس بسبب أمانتهم. لقد وُهبوا نعمة الصمود، وما الثبات إلّا دليل على أنّهم نالوا إيمانًا حقيقيًّا بالمسيح.

رجسة الخراب

استمرّ يسوع في تحديد العلامات التي يجب على التلاميذ الانتباه إليها لمعرفة ما إذا كان دمار الهيكل وشيكًا أم لا، ثمّ ذكر تحقيقًا لنبوءة معيّنة من نبوءات العهد القديم. يُخبرنا مرقس أنّه قال: «فَمَتَى نَظَرْتُمْ رِجْسَةَ ٱلْخَرَابِ ٱلَّتِي قَالَ عَنْهَا دَانِيآلُ ٱلنَّبِيُّ، قَائِمَةً حَيْثُ لَا يَنْبَغِي (لِيَفْهَمِ ٱلْقَارِئُ) فَحِينَئِذٍ لِيَهْرُبِ ٱلَّذِينَ فِي ٱلْيَهُودِيَّةِ إِلَى ٱلْجِبَالِ (الآية ١٤).

أشار يسوع هنا إلى نبوءة أعطاها رئيس الملائكة جبرائيل للنبي دانيال (دانيال ٩: ٢٠–٢٧). من الواضح أنّها نبوءة مسيانيّة، لكنّها تتحدّث أيضًا عن دمار الهيكل وأورشليم نفسها. تقول الآيات الأخيرة:

> «وَبَعْدَ ٱثْنَيْنِ وَسِتِّينَ أُسْبُوعًا يُقْطَعُ ٱلْمَسِيحُ وَلَيْسَ لَهُ، وَشَعْبُ رَئِيسٍ آتٍ يُخْرِبُ ٱلْمَدِينَةَ وَٱلْقُدْسَ، وَٱنْتِهَاؤُهُ بِغَمَارَةٍ، وَإِلَى ٱلنِّهَايَةِ حَرْبٌ وَخِرَبٌ قُضِيَ بِهَا. وَيُثَبِّتُ عَهْدًا مَعَ كَثِيرِينَ فِي أُسْبُوعٍ وَاحِدٍ، وَفِي وَسَطِ ٱلْأُسْبُوعِ يُبَطِّلُ ٱلذَّبِيحَةَ وَٱلتَّقْدِمَةَ، وَعَلَى جَنَاحِ ٱلْأَرْجَاسِ مُخَرَّبٌ حَتَّى يَتِمَّ وَيُصَبَّ ٱلْمَقْضِيُّ عَلَى ٱلْمُخَرِّبِ». (الآيتان ٢٦–٢٧)

آراء العلماء كثيرة ومختلفة حول المعنى الدقيق لعبارة «رجسة الخراب»،

على الرغم من وجود اتّفاق عامّ على أنّها تشير إلى نوع من التدنيس الوثنيّ للهيكل. يعتقد البعضُ أنّ هذه النبوءَة تحقّقت في القرن الثاني قبل الميلاد، عندما قام أنطيخوس إبيفانيس، حاكم الإمبراطوريّة السلوقيّة، باحتلال أورشليم وتدنيس الهيكل بالتضحية بخنزير على مذبح وثنيّ في قُدس الأقداس. يعتقد البعض الآخر أنّ رؤيةَ دانيال لها علاقة بمحاولة كاليجولا إقامة نُصب لنفسه في حرم الهيكل في عام ٤٠ ميلاديًّا. ولكن بحسب المؤرّخ اليهوديّ يوسيفوس، وقع التدنيس الأكبر لهيكل الله حين كان تحت سيطرة وإدارة الجنرال الروماني تيطس، الذي أصبح فيما بعد إمبراطورًا في وقت دمار أورشليم.

تستند رواية يوسيفوس على معرفته المباشرة لما حدث. فقد كان من قادة المقاومة اليهوديّة إلى أنْ أسرَه الرومان. بسبب شجاعته ومعرفته الكبيرة، أصبح صديقًا لتيطس، الذي قاد الاجتياح الروماني لفلسطين، بعد أنْ استُدعي والده إلى روما ليتوّج إمبراطورًا. توسّل يوسيفوس إلى تيطس أنْ يُنقذَ المدينة. في الواقع، استخدمه تيطس للتفاوض مع اليهود، وطلب منهم الاستسلام بينما كان يحاصر الرومان المدينة. لم يقصد يوسيفوس أنْ يخونَ شعبه بتعاونه مع الرومان بهذه الطريقة؛ بل كان يعلم ببساطة أنّ جميع الناس في المدينة سيموتون إنْ لم يستسلموا، بالإضافة إلى أنّ الهيكل المقدّس سيُدمَّر هو الآخر. رفض اليهود الاستسلام، وفي الوقت المُحدّد، تحقّقت أسوأ مخاوف يوسيفوس. كان يؤمن أنّ اجتياح تيطس وتدميره للهيكل والمدينة في عام ٧٠ ميلاديًّا هو تحقيق لنبوءَة دانيال.

نصحَ يسوع تلاميذَه أنْ «يهربوا إلى الجبال» عندما يرَوْن «رجسة الخراب». كانت نصيحته هذه مُناقضة للحكمة السائدة في العالم القديم. فعند الاجتياح، لم يهرب الناس إلى الجبال، إنّما إلى المدن المسوّرة، والتي كانت تُعتبر من أكثر الأماكن أمانًا. هذا ما حدث عندما قام الرومان

باجتياح أورشليم ومُحاصرتها. كانت أورشليم مُكتظّة بالأشخاص الهاربين من الريف والقرى. وعندما سقطت أورشليم في أيدي الرومان، ذُبح ١،١ مليون يهوديّ. لكن لم يكن بينهم مسيحيّين، لأنّهم كانوا قد انتبهوا للعلامة وأولوا انتباهًا لتحذير يسوع.

حاجة للعجَلة

أوضحَ يسوع أنّه عندما تظهر العلامة، تُصبح العجَلة أمرًا ضروريًّا. قال: «**وَٱلَّذِي عَلَى ٱلسَّطْحِ فَلَا يَنْزِلْ إِلَى ٱلْبَيْتِ وَلَا يَدْخُلْ لِيَأْخُذَ مِنْ بَيْتِهِ شَيْئًا، وَٱلَّذِي فِي ٱلْحَقْلِ فَلَا يَرْجِعْ إِلَى ٱلْوَرَاءِ لِيَأْخُذَ ثَوْبَهُ. وَوَيْلٌ لِلْحَبَالَى وَٱلْمُرْضِعَاتِ فِي تِلْكَ ٱلْأَيَّامِ! وَصَلُّوا لِكَيْ لَا يَكُونَ هَرَبُكُمْ فِي شِتَاءٍ**» (الآيات ١٥–١٨). عندما يرى التلاميذ تدنيس الهيكل، لا ينبغي عليهم العودة لأخذ ملابسهم أو أيّ أمتعة أخرى، بل عليهم الرحيل حالًا. ليس واضحًا ما إذا كان يسوع قصدَ حرفيًّا أنّه ينبغي عليهم التخلّي عن كلّ شيء والهروب، ولكن من الواضح أنّه كان ينصحهم بالعجَلَة. أوضحَ يسوع أيضًا أنّ الوقتَ سيكون صعبًا، خاصّة بالنسبة إلى النساء الحوامل والأمّهات وأطفالهنّ الصغار. نصحَ التلاميذ أنْ يُصلّوا حتّى لا يُضطرّوا إلى الهروب في ظروف الشتاء الأكثر صعوبة.

وأضاف: «**لِأَنَّهُ يَكُونُ فِي تِلْكَ ٱلْأَيَّامِ ضِيقٌ لَمْ يَكُنْ مِثْلُهُ مُنْذُ ٱبْتِدَاءِ ٱلْخَلِيقَةِ ٱلَّتِي خَلَقَهَا ٱللهُ إِلَى ٱلْآنَ، وَلَنْ يَكُونَ. وَلَوْ لَمْ يُقَصِّرِ ٱلرَّبُّ تِلْكَ ٱلْأَيَّامَ، لَمْ يَخْلُصْ جَسَدٌ. وَلَكِنْ لِأَجْلِ ٱلْمُخْتَارِينَ ٱلَّذِينَ ٱخْتَارَهُمْ، قَصَّرَ ٱلْأَيَّامَ**» (الآيتان ١٩–٢٠). من هنا يأتي أصل عبارة «الضيقة العظيمة»، التي يتوقّع العديد من الإنجيليّين بأنْ تحدثَ في نهاية الزمان. ولكن، عندما ننظر إلى هذا التعليم في سياق العظة على جبل الزيتون، يبدو واضحًا أنّ يسوع كان يتكلّم عن الأحداث المرافقة لدمار أورشليم. قال إنّها ستكون

فترة سيّئة، لا بل ستكون أسوأ فترة في التاريخ. في الواقع، قال إنّ الوضعَ سيكون سيّئًا للغاية في ذلك الوقت بحيث لن يقدر أحد أنْ يَخْلُصَ منه لو لم يكن الله قد قرّر تقصير هذه الفترة الأصعب. من أجل المختارين، من أجل شعبه المختار، قصّر الله وقتَ الضيقة لكي يقدر البعض منهم على النجاة.

أخيرًا قال يسوع: «**حِينَئِذٍ إِنْ قَالَ لَكُمْ أَحَدٌ: هُوَذَا ٱلْمَسِيحُ هُنَا! أَوْ: هُوَذَا هُنَاكَ! فَلَا تُصَدِّقُوا. لِأَنَّهُ سَيَقُومُ مُسَحَاءُ كَذَبَةٌ وَأَنْبِيَاءُ كَذَبَةٌ، وَيُعْطُونَ آيَاتٍ وَعَجَائِبَ، لِكَيْ يُضِلُّوا لَوْ أَمْكَنَ ٱلْمُخْتَارِينَ أَيْضًا. فَٱنْظُرُوا أَنْتُمْ. هَا أَنَا قَدْ سَبَقْتُ وَأَخْبَرْتُكُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ**» (الآيات ٢١–٢٣). هنا يذكر مرّة أخرى (انظر الآية ٦) أنّ ظهور مُسحاء كذبة كثيرين، وأنبياء كذبة سيكون علامة على أنّ دمار الهيكل أصبح قريبًا جدًّا. سيتمتّع هؤلاء المسحاء والأنبياء الكذبة بالقدرة على صُنع معجزات عظيمة مُدهشة جدًّا، لدرجة أنّ المختارين أنفسَهم قد ينخدعون بها.

بعد أنْ قال كلّ هذه الأشياء، وبعد أنْ قدّم علامات كثيرة يجب على التلاميذ الانتباه إليها، قال لهم: «فانظروا أنتم. ها أنا قد سبقت وأخبرتكم بكلّ شيء». بعبارةٍ أخرى، كان يسوع يقول لهم: «أصبحتم تعرفون الآن. أنتم تعرفون الأمور التي ينبغي عليكم ملاحظتها. لا تنسَوْا كلامي. احفظوها في قلوبكم. استمرّوا في المراقبة». لقد أجابَ عن سؤالِهم باستفاضة.

حتّى هذه النقطة، يبدو واضحًا أنّه لا يجب علينا أنْ نبحثَ ما بعد عام ٧٠ ميلاديًّا لنجدَ تحقيقًا لكلّ ما تكلّم عنه يسوع في العظة على جبل الزيتون. لقد ظهرت كلّ هذه العلامات في السنوات والأيّام التي سبقت سقوط أورشليم. ولكن ماذا عن كلامه حول مجيئه في المجد؟ سنتأمّل في هذا الجزءِ من العظة على جبل الزيتون في الفصل التالي.

٤٨

العظة على جبل الزيتون، الجزء ٣

مرقس ١٣: ٢٤-٣٧

«وَأَمَّا فِي تِلْكَ ٱلْأَيَّامِ بَعْدَ ذَلِكَ ٱلضِّيقِ، فَٱلشَّمْسُ تُظْلِمُ، وَٱلْقَمَرُ لَا يُعْطِي ضَوْءَهُ، وَنُجُومُ ٱلسَّمَاءِ تَتَسَاقَطُ، وَٱلْقُوَّاتُ ٱلَّتِي فِي ٱلسَّمَاوَاتِ تَتَزَعْزَعُ. وَحِينَئِذٍ يُبْصِرُونَ ٱبْنَ ٱلْإِنْسَانِ آتِيًا فِي سَحَابٍ بِقُوَّةٍ كَثِيرَةٍ وَمَجْدٍ، فَيُرْسِلُ حِينَئِذٍ مَلَائِكَتَهُ وَيَجْمَعُ مُخْتَارِيهِ مِنَ ٱلْأَرْبَعِ ٱلرِّيَاحِ، مِنْ أَقْصَاءِ ٱلْأَرْضِ إِلَى أَقْصَاءِ ٱلسَّمَاءِ. فَمِنْ شَجَرَةِ ٱلتِّينِ تَعَلَّمُوا ٱلْمَثَلَ: مَتَى صَارَ غُصْنُهَا رَخْصًا وَأَخْرَجَتْ أَوْرَاقًا، تَعْلَمُونَ أَنَّ ٱلصَّيْفَ قَرِيبٌ. هَكَذَا أَنْتُمْ أَيْضًا، مَتَى رَأَيْتُمْ هَذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ صَائِرَةً، فَٱعْلَمُوا أَنَّهُ قَرِيبٌ عَلَى ٱلْأَبْوَابِ. اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: لَا يَمْضِي هَذَا ٱلْجِيلُ حَتَّى يَكُونَ هَذَا كُلُّهُ. اَلسَّمَاءُ وَٱلْأَرْضُ تَزُولَانِ، وَلَكِنَّ كَلَامِي لَا يَزُولُ. وَأَمَّا ذَلِكَ ٱلْيَوْمُ وَتِلْكَ ٱلسَّاعَةُ فَلَا يَعْلَمُ بِهِمَا أَحَدٌ، وَلَا ٱلْمَلَائِكَةُ ٱلَّذِينَ فِي ٱلسَّمَاءِ، وَلَا ٱلِٱبْنُ، إِلَّا ٱلْآبُ. اُنْظُرُوا! اِسْهَرُوا وَصَلُّوا، لِأَنَّكُمْ لَا تَعْلَمُونَ مَتَى يَكُونُ ٱلْوَقْتُ. كَأَنَّمَا إِنْسَانٌ مُسَافِرٌ تَرَكَ بَيْتَهُ، وَأَعْطَى عَبِيدَهُ ٱلسُّلْطَانَ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ عَمَلَهُ، وَأَوْصَى ٱلْبَوَّابَ أَنْ يَسْهَرَ. اِسْهَرُوا إِذًا، لِأَنَّكُمْ لَا تَعْلَمُونَ مَتَى يَأْتِي رَبُّ ٱلْبَيْتِ، أَمَسَاءً،

أَمْ نِصْفَ ٱللَّيْلِ، أَمْ صِيَاحَ ٱلدِّيكِ، أَمْ صَبَاحًا. لِئَلَّا يَأْتِيَ بَغْتَةً فَيَجِدَكُمْ نِيَامًا! وَمَا أَقُولُهُ لَكُمْ أَقُولُهُ لِلْجَمِيعِ: ٱسْهَرُوا».

بناءً على طلب أربعةٍ من تلاميذه، تنبّأ يسوع في الأجزاء الأولى من العظة على جبل الزيتون عن عددٍ من العلامات التي لا بدّ لهم مراقبتها لمعرفة متى أصبح دمار الهيكل وشيكًا. رأينا أنّ كلّ هذه العلامات قد تحقّقت في السنوات التي سبقت حصار روما لأورشليم، والذي بلغ ذروته عند تدمير المدينة والهيكل في عام ٧٠ ميلاديًّا.

لكنّ الآيات التي تجعل من تفسير العظة على جبل الزيتون أمرًا صعبًا للغاية تأتي بالقرب من النهاية، عندما تحدّث يسوع عن «مجيئه في سحاب» وقال: «لَا يَمْضِي هَذَا ٱلْجِيلُ حَتَّى يَكُونَ هَذَا كُلُّهُ» (الآية ٣٠). كما رأينا، تُفهم إشارة يسوع إلى مجيئه بالعادة على أنّها تُشير إلى مجيئه الأخير في نهاية الزمان، ولكن عندما نفهمها بهذه الطريقة يُصبح تأكيده على أنّ «هذا كلّه» –أي دمار الهيكل وأورشليم، وكذلك عودته– سيحدث في غضون جيل واحد أمرًا غير دقيق. تحمل هذه المشكلة في طيّاتها تَبِعات هائلة فيما يتعلّق بمصداقيّة يسوع والكتاب المقدّس.

مجيء الابن

يُخبرنا مرقس أنّ يسوع قال: **«وَأَمَّا فِي تِلْكَ ٱلْأَيَّامِ بَعْدَ ذَلِكَ ٱلضِّيقِ، فَٱلشَّمْسُ تُظْلِمُ، وَٱلْقَمَرُ لَا يُعْطِي ضَوْءَهُ، وَنُجُومُ ٱلسَّمَاءِ تَتَسَاقَطُ، وَٱلْقُوَّاتُ ٱلَّتِي فِي ٱلسَّمَاوَاتِ تَتَزَعْزَعُ. وَحِينَئِذٍ يُبْصِرُونَ ٱبْنَ ٱلْإِنْسَانِ آتِيًا فِي سَحَابٍ بِقُوَّةٍ كَثِيرَةٍ وَمَجْدٍ، فَيُرْسِلُ حِينَئِذٍ مَلَائِكَتَهُ وَيَجْمَعُ مُخْتَارِيهِ مِنَ ٱلْأَرْبَعِ ٱلرِّيَاحِ، مِنْ أَقْصَاءِ ٱلْأَرْضِ إِلَى أَقْصَاءِ ٱلسَّمَاءِ»** (الآيات ٢٤–٢٧).

ما الذي يقصده يسوع هنا؟ يبدو من الخارج أنّه يُشير إلى مجيئه

الثاني. ما يدعم هذا الرأي هو حقيقة أنّ هذا المقطع يُشبه مقطعًا آخر من العهد الجديد، والذي يُعتبر عمومًا كمرجع عن المجيء الثاني:

> لِأَنَّ ٱلرَّبَّ نَفْسَهُ بِهُتَافٍ، بِصَوْتِ رَئِيسِ مَلَائِكَةٍ وَبُوقِ ٱللهِ، سَوْفَ يَنْزِلُ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَٱلْأَمْوَاتُ فِي ٱلْمَسِيحِ سَيَقُومُونَ أَوَّلًا. ثُمَّ نَحْنُ ٱلْأَحْيَاءَ ٱلْبَاقِينَ سَنُخْطَفُ جَمِيعًا مَعَهُمْ فِي ٱلسُّحُبِ لِمُلَاقَاةِ ٱلرَّبِّ فِي ٱلْهَوَاءِ، وَهَكَذَا نَكُونُ كُلَّ حِينٍ مَعَ ٱلرَّبِّ. (١تسالونيكي ٤: ١٦–١٧)

ولكن، قبل أنْ نُتابعَ بفرضيّة أنّ يسوع كان يتكلّم في العظة على جبل الزيتون عن المجيء الثاني، الأمر الذي يعني أنّه كان مُخطئًا حين قالَ إنّ «هذا كلّه» سيحدث في غضون جيل واحد، دعونا نستكشف ما إنْ كانَ هذا الجزء من العظة على جبل الزيتون قد تحقّق أيضًا في القرن الأوّل.

لاحظ قبلَ أيّ شيء آخر اللغةَ الفريدةَ التي اعتمدَها يسوع في هذا المقطع: «ٱلشَّمْسُ تُظْلِمُ، وَٱلْقَمَرُ لَا يُعْطِي ضَوْءَهُ، وَنُجُومُ ٱلسَّمَاءِ تَتَسَاقَطُ، وَٱلْقُوَّاتُ ٱلَّتِي فِي ٱلسَّمَاوَاتِ تَتَزَعْزَعُ». يمكن تفسير هذه اللغة إمّا بطريقة مجازيّة، أو بطريقة حرفيّة.

يُمكن اللجوء إلى التفسير المجازيّ، لأنّ أنبياء العهد القديم قد تميّزوا باستخدام هذا النوع من اللغة للتحذير من دينونة الله العتيدة. مثلًا:

> «وَلْوِلُوا لِأَنَّ يَوْمَ ٱلرَّبِّ قَرِيبٌ، قَادِمٌ كَخَرَابٍ مِنَ ٱلْقَادِرِ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ. لِذَلِكَ تَرْتَخِي كُلُّ ٱلْأَيَادِي، وَيَذُوبُ كُلُّ قَلْبِ إِنْسَانٍ. فَيَرْتَاعُونَ. تَأْخُذُهُمْ أَوْجَاعٌ وَمَخَاضٌ. يَتَلَوَّوْنَ كَوَالِدَةٍ. يَبْهَتُونَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ. وُجُوهُهُمْ وُجُوهُ لَهِيبٍ. هُوَذَا يَوْمُ ٱلرَّبِّ قَادِمٌ، قَاسِيًا بِسَخَطٍ وَحُمُوِّ غَضَبٍ، لِيَجْعَلَ ٱلْأَرْضَ خَرَابًا وَيُبِيدَ مِنْهَا خُطَاتَهَا. فَإِنَّ نُجُومَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَجَبَابِرَتَهَا لَا

تُبْرِزُ نُورَهَا. تُظْلِمُ ٱلشَّمْسُ عِنْدَ طُلُوعِهَا، وَٱلْقَمَرُ لَا يَلْمَعُ بِضَوْئِهِ».
(إشعياء ١٣: ٦-١٠)

هذا النصّ الذي هو جزء من إعلان الدينونة على بابل هو نصّ نموذجيّ لنبوءَات العهد القديم عن الهلاك. غالبًا ما تتضمّن مقاطع مثل هذه إشارات إلى اختلالات فلكيّة. من مبادئ التفسير الكتابيّ، أنّه عندما يستخدم الكتاب المقدّس باستمرار نوعًا معيّنًا من المفردات في سياق معيّن، علينا في كلّ مرّة نرى فيها هذه اللغة أنْ نبحثَ عن هذا السياق عينه. يبدو في مرقس ١٣ أنّ المفردات تُشير إلى دينونة إلهيّة. كان دمار الهيكل ومدينة أورشليم حتمًا دينونة إلهيّة. لذلك، يُمكننا فهمُ مجيء المسيح، الذي تحدّث عنه يسوع هنا، على أنّه مجيئه بالدينونة على أورشليم في عام ٧٠ ميلاديًّا.

للتفسير الحرفيّ قليل من التبرير بسبب بعض التقارير غير العاديّة التي وصلَتْنا منذ زمن سقوط أورشليم. ففي عام ٧٠ ميلاديًّا وصلت تقارير عن اضطرابات فلكيّة، بما في ذلك مُذنّب ينساب عبر السماء، والذي اعتبره الناس في ذلك الوقت علامة على الدينونة القادمة. والأغرب من ذلك هو تقرير المؤرّخ اليهوديّ يوسيفوس:

> بعد أيّام قليلة من ذلك العيد، في اليوم الحادي والعشرين من شهر أرتميسيوس، لاحت ظاهرة استثنائيّة وعجيبة. أتخيّل أنّ سردَها سيوحي بأنّها أسطورة خياليّة، لولا أنّ من رآها هو الذي أخبر بها، ولولا الأحداث التي تلتها والتي كانت ذات طبيعة توافق هذه الإشارات؛ لأنّه قبل غروب الشمس، شوهد جنود مدرّعون وعربات تجري بين السحب وتحيط بالمدن. بالإضافة إلى ذلك، في العيد الذي نسمّيه

عيد الخمسين، بينما كان الكهنة يدخلون ليلًا إلى [ساحة الهيكل] الداخليّة كما جرت العادة، لأداء خدمتهم المقدّسة، قالوا إنّهم شعروا أوّلًا بارتعاش، ثمّ سمعوا ضجيجًا عظيمًا، وبعد ذلك سمعوا صوتًا كما لو كان صادرًا عن حشد كبير قائلين: «لنبتعد من هنا».١

ملاحظة في الحاشية: فلافيوس يوسيفوس، الحروب اليهوديّة، ٦,٥,٣.

إذن، شهادة يوسيفوس هي أنّه في وقت دمار أورشليم، رأى حشدٌ من الناس مركباتٍ وجنودًا مدرّعين يتحرّكون حول السُحُب. تذكّرنا هذه الرواية بقصّة كتابيّة من حياة النبيّ أليشع. عندما أرسل ملك أرام جيشًا لإلقاء القبض على أليشع، رأى خادم النبيّ خيولًا ومركبات وجنودًا فأُصيب بالذعر. صلّى أليشع بهدوء قائلًا: «يَا رَبُّ، ٱفْتَحْ عَيْنَيْهِ فَيُبْصِرَ». وعندما استجاب الله تلك الصلاة، رأى خادم أليشع أنّ «ٱلْجَبَلُ مَمْلُوءٌ خَيْلًا وَمَرْكَبَاتِ نَارٍ حَوْلَ أَلِيشَعَ» (٢ملوك ٦: ١٧). من المحتمل أنّ يكون بعض الناس في أورشليم في عام ٧٠ ميلاديًّا قد رأوا رؤية مماثلة –رؤية عن جنود الربّ الذين لم يأتوا لحماية نبيّ الله، بل لتحقيق دينونة الله.

ثانيًا، أحد الأسباب الرئيسة لتفسير هذا المقطع على أنّه يتحدّث عن نهاية الزمان هو الطريقة التي صِيغت بها أسئلة التلاميذ في إنجيل متّى. في متّى ٢٤، بعد أنْ أخبرَ يسوع التلاميذ أنّه لن يبقى حجر على حجر في الهيكل، سألوه: «قُلْ لَنَا مَتَى يَكُونُ هَذَا؟ وَمَا هِيَ عَلَامَةُ مَجِيئِكَ وَٱنْقِضَاءِ ٱلدَّهْرِ؟ (الآية ٣). حقيقة أنّ التلاميذَ سألوا بحسب رواية متّى عن علامة «انقضاء الدهر»، يقود البعض إلى الافتراض بأنّهم كانوا يسألون عن نهاية التاريخ البشريّ، وأنّ يسوع كان يتنبّأ عنها.

١ فلافيوس يوسيفوس، الحروب اليهوديّة، ٦,٥,٣.

لكن الكتاب المقدّس يشير أحيانًا إلى نهاية زمن اليهود وبداية زمن الأمم. مثلًا، في نسخة لوقا عن العظة على جبل الزيتون، يذكر أنّ يسوع قال: «وَتَكُونُ أُورُشَلِيمُ مَدُوسَةً مِنَ ٱلْأُمَمِ، حَتَّى تُكَمَّلَ أَزْمِنَةُ ٱلْأُمَمِ» (٢١: ٢٤). وفي رسالة رومية، يتحدّث بولس عن «مِلْؤُ ٱلْأُمَمِ» (١١: ٢٥) الذي دخل ملكوت الله قبل انتهاء الأزمنة. يقف زمن الأمم في تناقض صارخ مع زمن اليهود. لهذا يتكلّم بولس عن «أواخر الدهور» (١كورنثوس ١٠: ١١). إذن، من المحتمل أنّ يسوع لم يكن يذكر علامات نهاية الزمن البشريّ، إنّما نهاية الزمن اليهوديّ، والذي يتوافق مع دمار أورشليم في عام ٧٠ ميلاديًّا.

ماذا نستخلص من الآية ٢٧، عندما تحدّث يسوع عن إرسال «ملائكته» لجمع «مختاريه» من جميع أنحاء العالم؟ نعم، قد يبدو هذا كما لو أنّه يشير إلى المجيء الثاني للمسيح وحشد المؤمنين، كما هو موضّح في ١تسالونيكي ٤. ومع ذلك، فإنّ الكلمة اليونانيّة المترجمة إلى «ملاك» هنا، **angelos**، تعني حرفيًّا «رسول»، لذلك، من الممكن أيضًا أنّ يسوع كان يتحدّث عن الإنجيل المُرسل من قِبَل رُسل بشريّين سيكونون أدوات الله لجمع مُختاريه بعد سقوط أورشليم.

لا شكّ في أنّ هذا المقطع صعب التفسير في سياقه، وقد كان مصدر خلاف بين المسيحيّين لعدّة قرون، وسيبقى كذلك. ومع هذا، أؤكّد على أنّه لا يجب أن يُفسَّر كإشارة إلى نهاية الزمان. يمكن فهمه كإشارة إلى الأحداث الكارثيّة التي وقعت في عام ٧٠ ميلاديًّا.

ترقّب الإشارات

تابع يسوع وقال: «**فَمِنْ شَجَرَةِ ٱلتِّينِ تَعَلَّمُوا ٱلْمَثَلَ: مَتَى صَارَ غُصْنُهَا رَخْصًا وَأَخْرَجَتْ أَوْرَاقًا، تَعْلَمُونَ أَنَّ ٱلصَّيْفَ قَرِيبٌ. هَكَذَا أَنْتُمْ أَيْضًا، مَتَى رَأَيْتُمْ هَذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ صَائِرَةً، فَٱعْلَمُوا أَنَّهُ قَرِيبٌ عَلَى ٱلْأَبْوَابِ. اَلْحَقَّ أَقُولُ**

لَكُمْ: لَا يَمْضِي هَذَا ٱلْجِيلُ حَتَّى يَكُونَ هَذَا كُلُّهُ. اَلسَّمَاءُ وَٱلْأَرْضُ تَزُولَانِ، وَلَكِنَّ كَلَامِي لَا يَزُولُ» (الآيات ٢٨-٣١). كانت النقطة الجوهريّة في هذا الجزء من العظة يهدف إلى طمأنة التلاميذ بأنّه بإمكانهم الاعتماد على العلامات التي قدّمها لهم يسوع. يبدو الأمر كما لو أنّ يسوع كان يقول: «بالحقّ أقول لكم» بعد أنْ حدثَ ما حدث. وكما تشير بعض الأحداث في الطبيعة إلى شيء آخر قادم، هكذا تشير العلامات التي ذكرها بشكل موثوق إلى دمار الهيكل. علاوة على ذلك، قال إنّه متى بدأت العلامات تظهر، سيكون دمار الهيكل وشيكًا جدًّا.

هنا نجد العبارة التي تجعل العظة على جبل الزيتون في غاية الصعوبة: «لَا يَمْضِي هَذَا ٱلْجِيلُ حَتَّى يَكُونَ هَذَا كُلُّهُ». هل كان يسوع يتكلّم حرفيًّا عن الأحياء آنذاك؟ أم أنّه كان يستخدم كلمة **جيل** بالمعنى المجازيّ الذي يشمل في الوقت نفسه المجيء الثاني في المستقبل؟ قد لا نجد حلًّا لهذا السؤال في هذه الحياة، لكنّنا لم نرَ أيّ سبب في دراستنا لهذه العظة يجعلنا نستبعد المعنى الحرفيّ. يبدو بشكل أساسيّ، أنّ يسوع كان يُشدّد مرّة أخرى على أنّ دمار الهيكل سيحدث قريبًا جدًّا.

وبالطريقة نفسها، عندما أعلن يسوع: «ولكن كلامي لا يزول»، كان يقول إنّ كلماتَه ثابتة أكثر من ثبات الخليقة، وهي أكثر صلابة، ويمكن الاعتماد عليها، ويُمكن الوثوق بها أكثر. حقًّا، إنْ قالَ يسوع شيئًا، فالأمر محسوم. وقد كان هذا هو حال نبوءَاته عن دمار الهيكل وأورشليم.

أخيرًا، قال يسوع: «**وَأَمَّا ذَلِكَ ٱلْيَوْمُ وَتِلْكَ ٱلسَّاعَةُ فَلَا يَعْلَمُ بِهِمَا أَحَدٌ، وَلَا ٱلْمَلَائِكَةُ ٱلَّذِينَ فِي ٱلسَّمَاءِ، وَلَا ٱلِٱبْنُ، إِلَّا ٱلْآبُ. اُنْظُرُوا! اِسْهَرُوا وَصَلُّوا، لِأَنَّكُمْ لَا تَعْلَمُونَ مَتَى يَكُونُ ٱلْوَقْتُ. كَأَنَّمَا إِنْسَانٌ مُسَافِرٌ تَرَكَ بَيْتَهُ، وَأَعْطَى عَبِيدَهُ ٱلسُّلْطَانَ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ عَمَلَهُ، وَأَوْصَى ٱلْبَوَّابَ أَنْ يَسْهَرَ. اِسْهَرُوا إِذًا، لِأَنَّكُمْ لَا تَعْلَمُونَ مَتَى يَأْتِي رَبُّ ٱلْبَيْتِ، أَمَسَاءً، أَمْ**

نِصْفَ ٱللَّيْلِ، أَمْ صِيَاحَ ٱلدِّيكِ، أَمْ صَبَاحًا. لِئَلَّا يَأْتِيَ بَغْتَةً فَيَجِدَكُمْ نِيَامًا! وَمَا أَقُولُهُ لَكُمْ أَقُولُهُ لِلْجَمِيعِ: ٱسْهَرُوا» (الآيات ٣٢-٣٧). هذا المقطع مُزعج لكثيرٍ من المسيحيين الذين يتساءَلون: إنْ كان يسوع هو الله، فلماذا قالَ إنّه لا يعرف بالضبط متى ستحدث الأشياء التي ذكرَها؟ ببساطة، كان لمعرفته حدود أثناءَ تجسّده. كما رأينا في الفصل ١٥، لم تكن طبيعته البشريّة كليّة المعرفة، أمّا طبيعته الإلهيّة فلم تنقص. ولكن في هذه الحالة، يبدو ببساطة أنّ الآب لم يُعلن الوقت للابن.

يشير آخرون إلى هذا المقطع ويسألون: إنْ لم يكن يسوع يعرف اليوم والساعة، فكيف استطاع أنْ يقولَ إنّ ذلك سيحدث خلال جيل واحد. أنا لست نبيًّا، لكنّني أعتقد أنّني أستطيع أنْ أتوقّع بكلّ ثقة أنّ فريق بيتسبرغ ستيلرز سيفوز بلقب سوبر بول آخر خلال الأربعين عامًا القادمة. لا أعرف في أيّ عام سيفوزون باللقب، لكن ليس لهذا أيّ تأثير على تنبّؤاتي. عرفَ يسوع العلامات التي تشير إلى دمار الهيكل، وكان يعرف الفترة التي سيحدث فيها ذلك، ولكنّه لم يكن يعرف التاريخ المحدّد، وهذا في أقلّ تقدير، لا يُبطل نبوءَته.

إنّ الزخمَ المركزيّ لهذا المقطع الأخير من العظة على جبل الزيتون هو حثّ على السهر واليقظة. كان يسوع يقول إنّ نبوءَته يمكن أنْ تتحقّق فجأةً مع قليل من الإنذار. لذلك، كان على التلاميذ أن يُعيروا انتباههم إلى العلامات التي أعطاهم إيّاها.

المجازي والحرفي

في النهاية، هنالك طريقتان أساسيّتان للتعامل مع العظة على جبل الزيتون. الأوّل هو تفسير اللغة التي استخدمها يسوع عن مجيئه بالمعنى المجازيّ، وتفسير الإشارة إلى الإطار الزمنيّ بالمعنى الحرفيّ المباشر. أو

يمكننا أنْ نعتبرَ الإطار الزمنيّ مجازيًّا، وأنْ نتعاملَ مع التعاليم حول مجيء يسوع بالمعنى الحرفيّ. بعبارة أخرى، إمّا أن تكون لغة عودته رمزيّة، أو أنّ الإشارة إلى الإطار الزمنيّ هي إشارة رمزيّة.

اختار مسيحيّون كثيرون عبر التاريخ اعتبار مراجع الإطار الزمنيّ على أنّها مجازيّة. اعتبروا أنّ يسوعَ استخدم كلمة جيل بطريقة مجازيّة وبأنّه لم يكن يُحدّد إطارا زمنيًّا على الإطلاق. بالأحرى، ربّما كان يقول إنّ نوعًا مُعيّنًا من الأشخاص، أي غير المؤمنين الذين نتعامل معهم كلّ يوم في كرازتنا لهم بالإنجيل سيبقون موجودين حتّى تحقيق هذه النبوءَة. كانت هذه مُقاربة شائعة لهذا النصّ، ومحاولةً لإنقاذه من التعرّض إلى النقد. ومع ذلك، أعتقدُ أنّ هذه الطريقة لمعالجة النصّ تجعل المسيحيّين يبدون ساذجين أو من الذين يتقصّدون حجز المعرفة عن الآخرين، لأنّ النصّ لا يتحمّل مقاربة مثل هذه.

أعتقد شخصيًّا أنّه لا بدّ لنا أنْ نفهمَ مراجع الإطار الزمنيّ في العظة على جبل الزيتون بالمعنى الحرفيّ، وعودة يسوع بالمعنى المجازيّ. باختصار، أعتقدُ أنّ يسوعَ لم يكن يتحدّث عن مجيئه الأخير في نهاية الزمان، إنّما عن مجيئه بالقوّة والدينونة على شعبه، وهذا ما حدث في عام ٧٠ ميلاديًّا. بحسب تقديري، هذه هي طريقةُ التفسير الأكثر طبيعيّةً ومتانةً لتفسير هذا النصّ، وتُثبت بأنّ يسوع هو نبيّ صادق، وبأنّه يُمكن الوثوق بالكتاب المقدّس تمامًا.

٤٩

يسوع، حَمَلُ الفِصْح

مَرْقُس ١٤: ١-٩

وَكَانَ ٱلْفِصْحُ وَأَيَّامُ ٱلْفَطِيرِ بَعْدَ يَوْمَيْنِ. وَكَانَ رُؤَسَاءُ ٱلْكَهَنَةِ وَٱلْكَتَبَةُ يَطْلُبُونَ كَيْفَ يُمْسِكُونَهُ بِمَكْرٍ وَيَقْتُلُونَهُ، وَلَكِنَّهُمْ قَالُوا: لَيْسَ فِي ٱلْعِيدِ، لِئَلَّا يَكُونَ شَغَبٌ فِي ٱلشَّعْبِ. وَفِيمَا هُوَ فِي بَيْتِ عَنْيَا فِي بَيْتِ سِمْعَانَ ٱلْأَبْرَصِ، وَهُوَ مُتَّكِئٌ، جَاءَتِ ٱمْرَأَةٌ مَعَهَا قَارُورَةُ طِيبِ نَارِدِينٍ خَالِصٍ كَثِيرِ ٱلثَّمَنِ. فَكَسَرَتِ ٱلْقَارُورَةَ وَسَكَبَتْهُ عَلَى رَأْسِهِ. وَكَانَ قَوْمٌ مُغْتَاظِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ، فَقَالُوا: لِمَاذَا كَانَ تَلَفُ ٱلطِّيبِ هَذَا؟ لِأَنَّهُ كَانَ يُمْكِنُ أَنْ يُبَاعَ هَذَا بِأَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِمِئَةِ دِينَارٍ وَيُعْطَى لِلْفُقَرَاءِ. وَكَانُوا يُؤَنِّبُونَهَا. أَمَّا يَسُوعُ فَقَالَ: ٱتْرُكُوهَا! لِمَاذَا تُزْعِجُونَهَا؟ قَدْ عَمِلَتْ بِي عَمَلًا حَسَنًا. لِأَنَّ ٱلْفُقَرَاءَ مَعَكُمْ فِي كُلِّ حِينٍ، وَمَتَى أَرَدْتُمْ تَقْدِرُونَ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِمْ خَيْرًا. وَأَمَّا أَنَا فَلَسْتُ مَعَكُمْ فِي كُلِّ حِينٍ. عَمِلَتْ مَا عِنْدَهَا. قَدْ سَبَقَتْ وَدَهَنَتْ بِٱلطِّيبِ جَسَدِي لِلتَّكْفِينِ. اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: حَيْثُمَا يُكْرَزْ بِهَذَا ٱلْإِنْجِيلِ فِي كُلِّ ٱلْعَالَمِ، يُخْبَرْ أَيْضًا بِمَا فَعَلَتْهُ هَذِهِ، تَذْكَارًا لَهَا.

كان أهمّ عيد في اليهوديّة في العهد القديم هو الاحتفال بعيد الفصح. يُحتفل بهذا العيد بذكرى إنقاذ الله لشعب إسرائيل من العبوديّة في مصر،

وحمايته لهم من المُهلِك الذي قتل كلّ أبكار المصريّين (خروج ١٢: ٢٣). أمرَ الله شعبَه أنْ يمسحوا دماء الحمل على عتبة الباب العليا والقائمتَيْن، وعندما مرّ المُهلِك فوق المنازل التي عليها علامة الدمّ، كانت العائلة تنجو من الدينونة التي حلّت على المصريّين.

ليس من باب الصُدفة أنّه في تاريخ الفداء كان عيد الفصح قد اقترب عندما جاء يسوع المسيح، حمل الله، إلى أورشليم ليتألّم ويموت. بدمه، تعبر دينونة الله فوق شعبه.

لهذا السبب، تغيّرت نبرة إنجيل مَرْقُس بشكل كبير في الإصحاح ١٤. يحتوي الإصحاح ١٣ على خطاب جبل الزيتون، حيث علّم يسوع من جبل الزيتون عن العلامات التي ستسبق دمار الهيكل، بما في ذلك مجيئه على سُحب المجد. ينتقل مَرْقُس في الإصحاح ١٤ من مشهد الانتصار والبهجة هذا، إلى إنذار مشؤوم عن آلام ربّنا من أجل خطايا شعبه.

الإصحاح ١٤ هو أطول إصحاح في إنجيل مَرْقُس، ويركّز على ما يسمّيه اللاهوتيّون باللغة الإنجليزيّة بـ **Passion of Christ**، أي آلام المسيح. تعود كلمة **passion** في جذرها إلى مفهوم المعاناة. عندما نقول باللغة الإنجليزيّة: لدينا **passion** أو شغف بشيء ما، فإنّنا بالعادة لا نُشير بذلك إلى شيء ينتج عنه معاناة، بل نقصد أنّه يُنشئ فينا مشاعر قويّة تجاهه. آلامُ يسوع، أي معاناته، استثارت في روحه وجسده مشاعر معاناة مُبرّحة.

لنُلقِ نظرة على هذا النصّ بهذه الخلفيّة في أذهاننا. يُخبرنا مَرْقُس: **وَكَانَ ٱلْفِصْحُ وَأَيَّامُ ٱلْفَطِيرِ بَعْدَ يَوْمَيْنِ** (الآية ١أ). أي أنّ هذه الأحداث المهمّة في التقويم اليهوديّ وقعت بعد يومَيْن من العظة على جبل الزيتون. لقد تزامنت آلام يسوع العظيمة مع الفصح وعيد الفطير.

قبل سنوات عديدة، أمرَ الله شعب إسرائيل بالاحتفال بهذا العيد السنويّ بتناول الأعشاب المرّة، ليتذكّروا مرارة تجربتهم في العبوديّة، وأمرهم أيضًا بالتضحية بحَمَلٍ في فترة بعد الظهر، ثمّ بتناوله مساءً (خروج ١٢؛ سفر العدد ٩). كما أمرهم بالاحتفال بهذا العيد بتناول الفطير. كان الخبز غير مُختمر للاحتفال بالظروف التاريخيّة للفصح الأصليّ. أمرَ الله الشعبَ أنْ يكونوا مُستعدّين للتحرّك في أيّ لحظة للخروج من مصر. لم يكن لديهم الوقت الكافي ليختمر العجين، لذلك صنعوا فطيرًا (خروج ١٢: ١٨-٢٠، ٣٣-٣٤).

يُمكن أنْ تكونَ روايات العهد الجديد عن الاحتفال بعيد الفصح مُحيّرة قليلًا. كان عيد الفصح يستمرّ لمدّة أسبوع كامل. وكان يُحتفل بعيد الفطير خلال عطلة نهاية الأسبوع الطويلة، وليس خلال الأيّام السبعة بأكملها. كانت وجبة عيد الفصح نفسها تُقام بعد ظُهر ومساء يوم واحد. لذلك، يُشار أحيانًا إلى عيد الفصح بذلك اليوم عينه، وأحيانًا أخرى إلى الأسبوع بأكمله.

بعد أنْ أخبرَنا مَرْقُس الوقت الذي ستقع فيه هذه الأحداث، أصبحت روايته تُنذر بالسوء: **وَكَانَ رُؤَسَاءُ ٱلْكَهَنَةِ وَٱلْكَتَبَةُ يَطْلُبُونَ كَيْفَ يُمْسِكُونَهُ بِمَكْرٍ وَيَقْتُلُونَهُ** (الآية ١ب). عندما يذكر مَرْقُس «رؤساء الكهنة والكتبة»، فهو يشير بذلك إلى السنْهدرين، أي إلى الهيئة الحاكمة لليهود. انضمّت هذه المجموعات معًا لحبك مؤامرة للقبض عليه حتّى يتمكّنوا من قتله. **وَلَكِنَّهُمْ قَالُوا: لَيْسَ فِي ٱلْعِيدِ، لِئَلَّا يَكُونَ شَغَبٌ فِي ٱلشَّعْبِ** (الآية ٢). أرادوا كثيرًا التخلّص من يسوع، لكنّهم خافوا من انتفاضة شعبيّة، لذلك كانوا يرسمون خططهم آخذين بعين الاعتبار الرأي العامّ.

إسراف بدهن الزيت

فجأة يحدث تغيير في سرد القصّة، ويقاطع مَرْقُس روايته عن مؤامرة

القبض على يسوع وإعدامه. يستخدم مَرْقُس في كلّ إنجيله ما يسمّيه البعض بـ«تقنية الشطيرة». فهو «يشطر» الرواية في منتصفها، ليُسقط خبرًا آخر يرتبط مباشرة بالرواية الأوسع، ويسرد لقرّائه حدثًا وقع في بيت عنيا.

يُخبرنا أنّ يسوع كان **فِي بَيْتِ عَنْيَا فِي بَيْتِ سِمْعَانَ ٱلْأَبْرَصِ** (الآية ٣أ). لا بدّ أنّ سمعان كان مُصابًا بالبرص ثمّ شُفي منه، لأنّه لم يكن مسموحًا للمصابين بالبَرَص أنْ يستضيفوا أشخاصًا غير مُصابين بالبَرَصِ على وجبات طعام. ربّما استضاف سمعان هذه المائدة لأنّ يسوع شفاه.

في كلّ الأحوال، كان يسوع موجودًا في ذلك المنزل يتناول طعامًا. **وَهُوَ مُتَّكِئٌ، جَاءَتِ ٱمْرَأَةٌ مَعَهَا قَارُورَةُ طِيبِ نَارِدِينٍ خَالِصٍ كَثِيرِ ٱلثَّمَنِ** (الآية ٣ب). رغم عدم ذكر مَرْقُس لاسم المرأة، فإنجيلَ يوحنّا يعرّفها بأنّها مريم، أخت مرثا ولعازر، التي كانت تعيش في بيت عنيا. كان لقارورة طيب الناردين هذه البيضاء والشفّافة قيمة ماليّة في حدّ ذاتها. كانت قيمة عطر الناردين الثمين الموجود داخل القارورة أكثر من ثلاثمائة دينار. كما رأينا سابقًا، كان الدينار الواحد بالعادة يساوي أجر يوم واحد لعامل في إسرائيل. كان الناس يعملون ستّة أيّام في الأسبوع. لذلك، كانت قيمة محتوى هذه القارورة تساوي أجرَ عام كامل.

كانت كميّة هذا الطيب اثنتي عشرة أونصة على الأقلّ، وربّما كان ستّة عشر، مقارنةً مع أونصة واحدة في قوارير العطور التي تُباع اليوم. في أغلب الظنّ، لم تكن الغالبيّة العظمى من النساء اللائي يعشن في ذلك اليوم يكسبن ما يكفي من المال لشراء مثل هذه الكميّة الثمينة من الطيب. من المحتمل أنْ تكونَ قارورة الطيب هذه مُلكًا لعائلة المرأة، وربّما كانت إرثًا عائليًّا.

عندما كان يسوع يأكل مع سمعان، تقدّمت مريم وقاطعته، الأمر الذي

كان يُعتبرُ خرقًا للأعراف اليهوديّة. كان يُسمح للمرأة أنْ تُقاطعَ الرجال خلال تناولهم الطعام، فقط إنْ كانت هي مَن تقوم بتقديم الطعام لهم، وليس للقيام بزيارة أو للانضمام إلى المحادثة. لكن مريم لم تتردّد، ويخبرنا مَرْقُس: **فَكَسَرَتِ ٱلْقَارُورَةَ وَسَكَبَتْهُ عَلَى رَأْسِهِ** (الآية ٣ج).

أحد التناقضات المزعومة بين الأناجيل التي يحبّ البعض أنْ يذكرَها هو أنّ إنجيل يوحنّا ذكر أنّ مريم دهنت قدمَيْ يسوع، ثمّ مسحتهما بشعرها (يوحنّا ١٢: ٣). فهل دُهِن يسوع على رجلَيْه، أم على رأسه؟ بالنظر إلى كميّة الطيب الذي سكبته مريم على يسوع، من المحتمل أنْ يكونَ قد غطّى جسده من هامة رأسه حتّى قدمَيْه. كان ذلك بمثابة استحمام بسيط بطيب ثمين.

يُخبرنا مَرْقُس أنّه عندما فعلت ذلك، **كَانَ قَوْمٌ مُغْتَاظِينَ فِي أَنْفُسِهِمْ، فَقَالُوا: لِمَاذَا كَانَ تَلَفُ ٱلطِّيبِ هَذَا؟** (الآية ٤). بحسب النصّ اليونانيّ، لم ينزعجوا فحسب، بل انتقل انزعاجهم إلى مستوى الغيظ عندما شاهدوا ما حدث. لم يكن لديهم أدنى فكرة أنّهم كانوا يعاينون مسح ربّ المجد وهو يدخل في مرحلة آلامه. في نظر معاصري يسوع، كان عمل العبادة الذي قامت به مريم إسرافًا لا مُبرّر له.

وتابعوا قائلين: «**لِأَنَّهُ كَانَ يُمْكِنُ أَنْ يُبَاعَ هَذَا بِأَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِمِئَةِ دِينَارٍ وَيُعْطَى لِلْفُقَرَاءِ. وَكَانُوا يُؤَنِّبُونَهَا**» (الآية ٥). استخدمت الترجمة الإنجليزيّة كلمة **sharply**، أي «بشدّة»، لوصف التأنيب، لكنّها لا تقدّم وصفًا دقيقًا له. في مصارعة الثيران، عندما يسخر المصارع من الثور، يضربُ الثورُ الأرضَ بحافرَيْه، ويتّقد أنفُه بغضبٍ شديد. هذه هي الصورة المُستخدَمة هنا. شعر هؤلاء الناس بالغضب الشديد من مريم لإهدارها الطيب، لدرجة أنّ أنوفهم كانت تتّقد بانتقاداتهم.

التحضير للدفن

كان ردّ ربّنا مُختلفًا تمامًا: **أَمَّا يَسُوعُ فَقَالَ: ٱتْرُكُوهَا! لِمَاذَا تُزْعِجُونَهَا؟ قَدْ عَمِلَتْ بِي عَمَلًا حَسَنًا. لِأَنَّ ٱلْفُقَرَاءَ مَعَكُمْ فِي كُلِّ حِينٍ، وَمَتَى أَرَدْتُمْ تَقْدِرُونَ أَنْ تَعْمَلُوا بِهِمْ خَيْرًا. وَأَمَّا أَنَا فَلَسْتُ مَعَكُمْ فِي كُلِّ حِينٍ** (الآيتان ٦-٧).

دُعيتُ منذ عدّة سنوات لإلقاء عظة في المنطقة الداخليّة من مدينة كليفلاند، في كنيسةٍ كان القسّ قد خدم فيها لمدّة خمسة وعشرين عامًا. كان مبنى الكنيسة مُحاطًا بإشارات تُشير إلى الفقر وتجارة المخدّرات والجريمة والإنسانيّة المحطّمة. تبادلتُ الحديثَ مع الخادم حول الأمور المُحبطة في خدمته. ذكر أنّ العديد من مساعدي الخدّام اليافعين جاءَوْا للخدمة في تلك الكنيسة مباشرة بعد تخرّجهم من كليّة اللاهوت. كان كلّ واحد منهم يبقى حوالي عامَيْن، ثمّ يستسلمون بسبب إصابتهم بالإحباط. سألته لماذا بقي في الكنيسة خمسة وعشرين عامًا. أجابني: «بسبب ما قاله يسوع: «لأنّ الفقراء معكم دائمًا»». يستخدمُ بعض الناس هذه الآية لتبرير تجاهلهم للفقراء، لكنّها شجّعته على المثابرة في خدمته في ذلك الحيّ المُعدَم. قال: «خرجَ مساعديّ الشباب من كليّة اللاهوت وبريق المثاليّة يشعّ من أعينِهم. كانوا يأتون إلى هنا كفرسان مدرّعين للقضاء على الفقر. لكن، عندما أدركوا أنّ ذلك لم يتحقّق خلال عاميْن، كانوا يشعرون بالتعب الشديد ويغادرون. لكنّني كنتُ أعلم عندما جئت إلى هنا أنّ الفقراء سيظلّون دائمًا هنا، وأنّ مَهمّتي لم تكن القضاء على الفقر، بل خدمة الناس وسط فقرهم».

أعتقد أنّ ذلك الخادم فَهِم كلمات يسوع هذه بشكل صحيح. لن يتمّ القضاء على الفقر أبدًا في عالم ساقط، مع أنّنا مدعوّون لفعل ما في وسعنا للتخفيف من معاناته. ومع ذلك، فإنّ مشكلة الفقر المستمرّة لا تعني عدم السماح بإظهار مبادرات كبيرة من التقوى.

ثمّ قال يسوع: «**عَمِلَتْ مَا عِنْدَهَا. قَدْ سَبَقَتْ وَدَهَنَتْ بِٱلطِّيبِ جَسَدِي لِلتَّكْفِينِ**» (الآية ٨). سوف ندرس لاحقًا تفاصيل دفن يسوع، وكيف حقّق دفنه نبوءَات مُحدّدة من العهد القديم. سنرى أنّ جسدَ يسوع لم يُلقَ في مكبّ نفايات **Gehenna** كما كان يُفعل بجثث المجرمين الذين تمّ إعدامهم؛ بدلًا من ذلك، دُفن يسوع في قبر رجل غنيّ. ومع ذلك، سنرى أيضًا أنّه بسبب العجلة التي دُفن بها بعد موته، لم يُمسح جسده بالطيب بالطريقة اليهوديّة النموذجيّة. إذن، كانت هذه المسحة هي المسحة الوحيدة التي حصل عليها للدفن.

أتت مريم بما لا يُقدّر بثمن، وقدّمته كلّه لمسحه قبل موته. إنّها واحدة من أكثر الهدايا تضحية وكرمًا وتأثيرًا في القلب في كلّ العصور.

أنهى يسوع المناقشة حول مائدة الطعام بهذه الكلمات: «**اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: حَيْثُمَا يُكْرَزْ بِهَذَا ٱلْإِنْجِيلِ فِي كُلِّ ٱلْعَالَمِ، يُخْبَرْ أَيْضًا بِمَا فَعَلَتْهُ هَذِهِ، تَذْكَارًا لَهَا**» (الآية ٩). لم يكن ليتركَ العالم ينسى ما شهده ضيوف العشاء للتوّ– فِعْل مريم الطيّب والتكريس والتضحية. لقد فعلت شيئًا رائعًا يجب أنْ نشيدَ به ونتمثّل له.

٥٠

عشاء الفصح الأخير ليسوع

مَرْقُس ١٤: ١٠-٢٦

ثُمَّ إِنَّ يَهُوذَا ٱلْإِسْخَرْيُوطِيَّ، وَاحِدًا مِنَ ٱلِٱثْنَيْ عَشَرَ، مَضَى إِلَى رُؤَسَاءِ ٱلْكَهَنَةِ لِيُسَلِّمَهُ إِلَيْهِمْ. وَلَمَّا سَمِعُوا فَرِحُوا، وَوَعَدُوهُ أَنْ يُعْطُوهُ فِضَّةً. وَكَانَ يَطْلُبُ كَيْفَ يُسَلِّمُهُ فِي فُرْصَةٍ مُوافِقَةٍ. وَفِي ٱلْيَوْمِ ٱلْأَوَّلِ مِنَ ٱلْفَطِيرِ. حِينَ كَانُوا يَذْبَحُونَ ٱلْفِصْحَ، قَالَ لَهُ تَلَامِيذُهُ: أَيْنَ تُرِيدُ أَنْ نَمْضِيَ وَنُعِدَّ لِتَأْكُلَ ٱلْفِصْحَ؟ فَأَرْسَلَ ٱثْنَيْنِ مِنْ تَلَامِيذِهِ وَقَالَ لَهُمَا: ٱذْهَبَا إِلَى ٱلْمَدِينَةِ، فَيُلَاقِيَكُمَا إِنْسَانٌ حَامِلٌ جَرَّةَ مَاءٍ. اِتْبَعَاهُ. وَحَيْثُمَا يَدْخُلْ فَقُولَا لِرَبِّ ٱلْبَيْتِ: إِنَّ ٱلْمُعَلِّمَ يَقُولُ: أَيْنَ ٱلْمَنْزِلُ حَيْثُ آكُلُ ٱلْفِصْحَ مَعَ تَلَامِيذِي؟ فَهُوَ يُرِيكُمَا عِلِّيَّةً كَبِيرَةً مَفْرُوشَةً مُعَدَّةً. هُنَاكَ أَعِدَّا لَنَا. فَخَرَجَ تِلْمِيذَاهُ وَأَتَيَا إِلَى ٱلْمَدِينَةِ، وَوَجَدَا كَمَا قَالَ لَهُمَا. فَأَعَدَّا ٱلْفِصْحَ. وَلَمَّا كَانَ ٱلْمَسَاءُ جَاءَ مَعَ ٱلِٱثْنَيْ عَشَرَ. وَفِيمَا هُمْ مُتَّكِئُونَ يَأْكُلُونَ، قَالَ يَسُوعُ: ٱلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ وَاحِدًا مِنْكُمْ يُسَلِّمُنِي. اَلْآكِلُ مَعِي. فَٱبْتَدَأُوا يَحْزَنُونَ، وَيَقُولُونَ لَهُ وَاحِدًا فَوَاحِدًا: هَلْ أَنَا؟ وَآخَرُ: هَلْ أَنَا؟ فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُمْ: هُوَ وَاحِدٌ مِنَ ٱلِٱثْنَيْ عَشَرَ، ٱلَّذِي يَغْمِسُ مَعِي فِي ٱلصَّحْفَةِ. إِنَّ ٱبْنَ ٱلْإِنْسَانِ مَاضٍ كَمَا هُوَ

مَكْتُوبٌ عَنْهُ، وَلَكِنْ وَيْلٌ لِذَلِكَ ٱلرَّجُلِ ٱلَّذِي بِهِ يُسَلَّمُ ٱبْنُ ٱلْإِنْسَانِ. كَانَ خَيْرًا لِذَلِكَ ٱلرَّجُلِ لَوْ لَمْ يُولَدْ. وَفِيمَا هُمْ يَأْكُلُونَ، أَخَذَ يَسُوعُ خُبْزًا وَبَارَكَ وَكَسَّرَ، وَأَعْطَاهُمْ وَقَالَ: خُذُوا كُلُوا، هَذَا هُوَ جَسَدِي. ثُمَّ أَخَذَ ٱلْكَأْسَ وَشَكَرَ وَأَعْطَاهُمْ، فَشَرِبُوا مِنْهَا كُلُّهُمْ. وَقَالَ لَهُمْ: هَذَا هُوَ دَمِي ٱلَّذِي لِلْعَهْدِ ٱلْجَدِيدِ، ٱلَّذِي يُسْفَكُ مِنْ أَجْلِ كَثِيرِينَ. اَلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنِّي لَا أَشْرَبُ بَعْدُ مِنْ نِتَاجِ ٱلْكَرْمَةِ إِلَى ذَلِكَ ٱلْيَوْمِ حِينَمَا أَشْرَبُهُ جَدِيدًا فِي مَلَكُوتِ ٱللهِ. ثُمَّ سَبَّحُوا وَخَرَجُوا إِلَى جَبَلِ ٱلزَّيْتُونِ.

عندما تُرتكب جريمة قتلٍ في أمريكا اليوم، يسعى المحقّقون أوّلًا إلى التمييز ما إذا كانت ناتجةً عن مشاعر غضب فُجائيّة، أو ما إذا كان مُخطّطًا لها مع سابق إصرار وتصميم. للجريمة المتعمّدة تبعات كبيرة على التحقيق والعقوبة المُحتملة التي قد تفرضها المحكمة إنْ تمّ أخيرًا إدانة المشتبه به.

عندما نتأمّل في رواية العشاء الأخير هذه، نعلم أنّ كلّ واحد من التلاميذ الاثني عشر الذين جلسوا مع يسوع سيخونه قريبًا. خانه معظمهم بدافع الخوف والضعف وضغط تلك اللحظة. لكنّ واحدًا منهم سيخونه عن سابق إصرار وتصميم. سوف يرتكب خيانة عن سابق إصرار وتصميم ضدّ ملك الملوك. كانت الخيانة موجودة في قلبه بينما كان يكسر الخبز مع الربّ.

أوضح مَرْقُس ذلك عندما كتب: **ثُمَّ إِنَّ يَهُوذَا ٱلْإِسْخَرْيُوطِيَّ، وَاحِدًا مِنَ ٱلِٱثْنَيْ عَشَرَ، مَضَى إِلَى رُؤَسَاءِ ٱلْكَهَنَةِ لِيُسَلِّمَهُ إِلَيْهِمْ** (الآية ١٠). لاحِظ أنّ يهوذا هو الذي بادر بالقيام بهذه العمليّة، وقد بذل كلّ ما في وسعه ليلتقي بالذين عرف أنّهم يتشاورون معًا لإيجاد طريقة للتخلّص من يسوع. ذهب إلى رؤساء الكهنة لكي يُسلّمهم يسوع. لا عجب، **لَمَّا سَمِعُوا فَرِحُوا، وَوَعَدُوهُ أَنْ يُعْطُوهُ فِضَّةً** (الآية ١١أ). توضّح الأناجيل الأخرى أنّ المبلغ

كان ثلاثين قطعة من الفضّة. لقد باع حياة يسوع بسعر زهيد نسبيًّا.

يتابع مَرْقُس ليخبرنا أنّ يهوذا **كَانَ يَطْلُبُ كَيْفَ يُسَلِّمُهُ فِي فُرْصَةٍ مُوافِقَةٍ** (الآية ١١ب). لم يقلْ ببساطة: «طلب يهوذا كيف يُسلّمه»، بل قال كيف يُسلّمه **في فُرصة موافقة**. لم يكن كافيًا أنّه كان ينوي تسليم يسوع إلى أيدي الذين سيقتلونه. لم يفعل هذا لتحقيق مكسبًا ماليّاً فحسب، بل سعى أيضًا إلى تنفيذه بطريقة توافقه.

الاستعدادات لعشاء الفصح

بعد ذلك، يُقدّم لنا مَرْقُس روايته عن الفصح الفعليّ، كما خطّط له يسوع. كتب: **وَفِي ٱلْيَوْمِ ٱلْأَوَّلِ مِنَ ٱلْفَطِيرِ. حِينَ كَانُوا يَذْبَحُونَ ٱلْفِصْحَ، قَالَ لَهُ تَلَامِيذُهُ: أَيْنَ تُرِيدُ أَنْ نَمْضِيَ وَنُعِدَّ لِتَأْكُلَ ٱلْفِصْحَ؟** (الآية ١٢). كما رأينا، كان تلاميذ المعلّم اليهودي يلبّون احتياجاته، وفي هذه الحالة، قام تلاميذ يسوع بهذه المهمّة بشكل جيّد.

يوجد تشابه بين التعليمات المحدّدة التي قدّمها يسوع لتلاميذه في هذه المناسبة، والتعليمات التي أعطاهم إيّاها لدخوله المنتصر إلى المدينة (١١: ١-٦). يكتب مَرْقُس: **فَأَرْسَلَ ٱثْنَيْنِ مِنْ تَلَامِيذِهِ وَقَالَ لَهُمَا: ٱذْهَبَا إِلَى ٱلْمَدِينَةِ، فَيُلَاقِيَكُمَا إِنْسَانٌ حَامِلٌ جَرَّةَ مَاءٍ. اِتْبَعَاهُ. وَحَيْثُمَا يَدْخُلْ فَقُولَا لِرَبِّ ٱلْبَيْتِ: إِنَّ ٱلْمُعَلِّمَ يَقُولُ: أَيْنَ ٱلْمَنْزِلُ حَيْثُ آكُلُ ٱلْفِصْحَ مَعَ تَلَامِيذِي؟ فَهُوَ يُرِيكُمَا عِلِّيَّةً كَبِيرَةً مَفْرُوشَةً مُعَدَّةً. هُنَاكَ أَعِدَّا لَنَا** (الآيات ١٣-١٥).

لئلّا نغفل عن أهميّة توجيهات يسوع، دعونا نتأمّل في المنظور والسياق التاريخيّ. أوّلًا، اسمحوا لي أنْ ألفتَ انتباهَكم إلى تعليمات يسوع للتلاميذ للبحث عن رجل يحمل الماء. كان من غير المعتاد أنْ يحملَ رجل ماء في أورشليم في عيد الفصح. أوّلًا، اعتبر الإسرائيليّون أنّ حمل جرار الماء

هو من أعمال النساء. الرجال الوحيدون الذين كانوا يحملون جرار الماء هم العبيد– باستثناءٍ واحد. اشتهر الأسينيّون بعد قرون عند اكتشاف مخطوطات البحر الميّت، وقد كانوا مجموعة من النسّاك الساكنين في الصحراء. كانت هذه الطائفة اليهوديّة قد انفصلت عن الاتّجاه العامّ السائد في إسرائيل، وقد ادّعى البعض أنّ يسوع تأثّر بهم. وقد عزّز هذا النصّ المزيد من التخمينات، لأنّه لم يكن بين الأسينيّين نساء، فكان عليهم أنْ يحملوا مياهَهم بأنفسهم. وهكذا، على الأرجح أنْ يكونَ الرجلُ الذي كان يحمل جرّة الماء في أورشليم عبدًا، أو من جماعة الأسينيّين.

ثانيًا، كان ليسوع دافع وجيه ليطلبَ من التلاميذ أنْ يبحثوا عن مشهد فريد مثل هذا. كانت أورشليم مزدحمة جدًّا في فترة العيد. جاءَ يهود من جميع أنحاء المعمورة إلى أورشليم للاحتفال بالفصح، لأنّها كانت المكان الوحيد الذي يحقّ لهم القيام بذلك. يُخبرنا يوسيفيوس أنّه في عام ٦٦ ميلاديًّا احتشد أكثر من مليوني شخص في أورشليم للاحتفال بعيد الفصح.

بعناية الله، يُخبرنا مَرْقُس: **خَرَجَ تِلْمِيذَاهُ وَأَتَيَا إِلَى ٱلْمَدِينَـةِ، وَوَجَدَا كَمَا قَالَ لَهُمَا. فَأَعَدَّا ٱلْفِصْحَ** (الآية ١٦).

ثمّ ركّز مَرْقُس على بعض المحادثات والتفاعلات التي جرت خلال تناول الطعام: **وَلَمَّا كَانَ ٱلْمَسَاءُ جَاءَ مَعَ ٱلِٱثْنَـيْ عَشَرَ. وَفِيمَا هُمْ مُتَّكِئُونَ يَأْكُلُونَ، قَالَ يَسُوعُ: ٱلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنَّ وَاحِدًا مِنْكُمْ يُسَلِّمُنِي. اَلْآكِلُ مَعِي** (الآيات ١٧–١٨). كان التلاميذ مجتمعين حول يسوع للاحتفال بأكثر الأعياد قداسة في الأمّة اليهوديّة، عندما قاطع يسوع جوّ العبادة والشكر بنبوءَة صاعقة. لا يسعنا إلّا أنْ نتخيّلَ الرعبَ الذي وقع على التلاميذ، ويُخبرنا مَرْقُس أنّهم **ٱبْتَدَأُوا يَحْزَنُونَ، وَيَقُولُونَ لَـهُ وَاحِدًا فَوَاحِدًا: هَلْ أَنَـا؟ وَآخَرُ: هَلْ أَنَـا؟** (الآية ١٩). نظروا إلى يسوع وبدأوا يسألونه على التوالي عن احتمال تورّطهم.

نبوءات تتحقّق

يكتب مَرْقُس: **فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُمْ: هُوَ وَاحِدٌ مِنَ ٱلِٱثْنَيْ عَشَرَ، ٱلَّذِي يَغْمِسُ مَعِي فِي ٱلصَّحْفَةِ. إِنَّ ٱبْنَ ٱلْإِنْسَانِ مَاضٍ كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ عَنْهُ** (الآيات ٢٠-٢١أ). كان يسوع على دراية بالنبوءات المسيانيّة المختصّة بِعَبْدِ الربّ في إشعياء ٥٢-٥٣. كان يعلم أنّه مُحتّمٌ عليه أنْ يتعرّض للخيانة، وأنّها لم تكن ابتكارًا مفاجِئًا ليهوذا. عندما قال: «كَمَا هُوَ مَكْتُوبٌ عَنْهُ»، ترك يسوع تلاميذه المصدومين والمكتئبين يعرفون أنّ الأحداثَ كانت تجري تمامًا كما أعدّها الآب منذ تأسيس العالم.

قرأ كثيرون هذا النصّ وتساءَلوا: لو كان الله قد سبقَ وعيّنَ خيانة يهوذا، فكيف يُمكن تحميله مسؤوليّة هذا العمل الشرّير؟ يمكننا أنْ نتخيّل يهوذا وهو يقول في يوم القيامة: «يا ربّ، كنت فقط أنفّذ مشيئتك. في الواقع، لولا خيانتي، لما كانت الكفّارة موجودة، وكان سيظلّ شعبك في خطاياهم. لكنّك استخدمتني لأُحضرَ يسوع إلى الصليب الذي افتدى شعبَك بواسطته. لذلك، أظنّ أنّني أستحقّ أنْ أنالَ وسام الشرف السماويّ».

سيكون يهوذا مُخطئًا لو تفوّه بمثل هذه الكلمات. حقيقة أنّ اللهَ أمَرَ بخيانة يهوذا ليسوع لا تُعفيه من تحمّل مسؤوليّة هذا العمل الشرّير. تعرّض يوسف لخيانة إخوته، ولكن عندما التقوا به في وقت لاحق، خافوا من نقمتِه. لم يُنكر يوسف أنّهم قصدوا له شرًّا، لكنّه أدرك أيضًا أنّ الله قصد ذلك للخير (تكوين ٥٠: ٢٠). لهذا تابع يسوع وقال: «**وَلَكِنْ وَيْلٌ لِذَلِكَ ٱلرَّجُلِ ٱلَّذِي بِهِ يُسَلَّمُ ٱبْنُ ٱلْإِنْسَانِ. كَانَ خَيْرًا لِذَلِكَ ٱلرَّجُلِ لَوْ لَمْ يُولَدْ**» (الآية ٢١ب). كان يسوع مُستمرًّا في طاعته لتعيين الله المُسبق، لكن اللعنات ستحلّ على الرجل الذي خانه بِيَدَيْه. ولو قُدّر لأيّ إنسانٍ أنْ يلعنَ اليوم الذي وُلد فيه، فلا بدّ أن يكون يهوذا الإسخريوطي.

نرى في هذه الوقائع تقاطعًا بين مشورة الله الخفيّة، ومؤامرات الإرادة

البشريّة. تحت عناية الله، حدث ما نُسمّيه بسرّ التزامن، حيث اتّفق واجتمع أمران معًا: إرادة الله صاحب السيادة المُطلقة، والإرادة الأرضيّة للجسد البشريّ. ليس الأمر كما لو أنّ الله في سيادتِه قد أرغم يهوذا على ارتكاب شرّ خيانة يسوع، بل أجرى الله بسيادته مشيئَته في وعبر اختيارات مخلوقاته. لقد فعل يهوذا بالضبط ما أرادَ يهوذا أنْ يفعلَه، لكنّ الله أخرج الخيرَ من الشرّ، والفداءَ من الخيانة.

تأسيس العشاء الربّاني

بعد أنْ سردَ مَرْقُس ترتيبات الخيانة، وجّه انتباهَه إلى تأسيس يسوع للعشاء الربّاني: **وَفِيمَا هُمْ يَأْكُلُونَ، أَخَذَ يَسُوعُ خُبْزًا وَبَارَكَ وَكَسَّرَ، وَأَعْطَاهُمْ وَقَالَ: خُذُوا كُلُوا، هَذَا هُوَ جَسَدِي. ثُمَّ أَخَذَ ٱلْكَأْسَ وَشَكَرَ وَأَعْطَاهُمْ، فَشَرِبُوا مِنْهَا كُلُّهُمْ. وَقَالَ لَهُمْ: هَذَا هُوَ دَمِي ٱلَّذِي لِلْعَهْدِ ٱلْجَدِيدِ، ٱلَّذِي يُسْفَكُ مِنْ أَجْلِ كَثِيرِينَ** (الآيات ٢٢-٢٤). لو نطق هذه الكلمات باللغة الآراميّة، وهذا ما فعله على الأرجح، فقد قالَ بشكل أساسيّ: «كُلوا هذا جسدي».

لا نقدر أنْ نتخيّلَ عددَ النزاعات اللاهوتيّة التي حدثت في تاريخ الكنيسة حول كيفيّة تفسير الآيات الثلاث هذه. من المآسي الكُبرى للإصلاح البروتستانتيّ أنّ المُصلِحين، تحت قيادة جون كالفن وأولريش زوينجلي، لم يتمكّنوا من الاتّفاق مع مارتن لوثر والبروتستانت الألمان حول مسألة ما إنْ كانت الطبيعة البشريّة ليسوع حاضرة جسديًّا خلال العشاء الربّاني. أصرّ كالفن على أنّ طبيعتَه البشريّة مُقيّدة بالمكان والزمان، لذلك لا يمكن أنْ تكونَ في أماكن مُختلفة في آن واحد. هذا ينطبق على طبيعته الإلهيّة وليس على طبيعته البشريّة المحدودة دائمًا بسماتها البشريّة. وبالتالي، لا يُمكن أن يكون المسيح حاضرًا جسديًّا في العشاء الربّاني. ومع ذلك، أصرّ لوثر على أنّ صفة الوجود الكليّ الإلهيّة قد نُقِلت إلى طبيعة يسوع البشريّة، فأصبح بإمكانه أنْ يكون موجودًا في الجسد في أماكن مُختلفة في الوقت نفسه،

لذلك أصرّ، بناء على الكلمات التي من خلالها أسّس يسوع العشاء الربّاني، على أنَّ حضورَ يسوع فيه، هو بطريقة ما، حضور جسديّ أو مادّيّ.

في مرحلة ما خلال هذه المناقشات، فَقَدَ لوثر أعصابَه وضرب بقبضة يدَيْه على الطاولة وقال: Hoc est corpus meum، hoc est corpus meum وهي عبارة لاتينيّة تعني: «هذا هو جسدي». أجابَ المصلِحون أنّ يسوعَ قال أيضًا: «أنا هو الباب»، إلّا أنّنا لا نأخذ ذلك بمعناه الحرفيّ، وأصرّوا على أنّ يسوع قَصَدَ بأنّ الخبزَ والخمرَ يرمزان إلى جسدِه ودمِه. أمّا لوثر، فكان يعتقد أنّه كان لكلمات يسوع هذه معنى أعمق من ذلك.

أعتقدُ أنّ الحقيقة تكمن في مكان ما بينهما. إنْ جعلنا الخبزَ والخمرَ يتساويان مع جسد يسوع المادّي، فلن نقدر أنْ نستبعدَ مُعضلات تتعلّق بلاهوت المسيح. أدركَ كالفن أنّ يسوع لم يقل إنّ العناصرَ هي فقط شخصه المادّيّ، إنّما هي شخصه بالذات. في الاحتفال بعشاء الربّ واقعٌ أبعد من مُجرّد ذكرى. نعم، يسوع موجود في بشريّته في السماء، لكنّه غير مُقيّد بالزمان والمكان في ألوهيّته. لذلك، فليكن لدينا كامل الثقة عندما نأتي إلى مائدة الربّ، بأنّنا نأتي إلى محضره الحقيقيّ. هو موجود فيها.

صحيح أنّه موجود معنا في كلّ مرّة نمارس فيها العبادة، وفي كلّ مرّة نجتمع معًا. إذن، ما هو الفرق؟ عندما يدعونا إلى مائدته، إنّما يدعونا إلى عِشْرَةٍ حميمة. إنّه يدعونا لنتغذّى به ومنه، ولنتقوّى فيه.

قالَ لتلاميذه: **ٱلْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: إِنِّي لَا أَشْرَبُ بَعْدُ مِنْ نِتَاجِ ٱلْكَرْمَةِ إِلَى ذَلِكَ ٱلْيَوْمِ حِينَمَا أَشْرَبُهُ جَدِيدًا فِي مَلَكُوتِ ٱللهِ. ثُمَّ سَبَّحُوا وَخَرَجُوا إِلَى جَبَلِ ٱلزَّيْتُونِ (الآيتان ٢٥-٢٦).** أشار يسوع بهذه الكلمات الحزينة إلى أنّ موتَه أصبحَ وشيكًا. ومع ذلك، هو يلتقي اليوم بكلّ مَن يؤمنون به ربًّا ومُخَلِّصًا ويتقدّمون إلى مائدته ليتغذَّوا منه.

٥١

طبيعتا يسوع

مَرْقُس ١٤: ٢٧-٤٢

وَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: إِنَّ كُلَّكُمْ تَشُكُّونَ فِيَّ فِي هَذِهِ ٱللَّيْلَةِ، لِأَنَّهُ مَكْتُوبٌ: أَنِّي أَضْرِبُ ٱلرَّاعِيَ فَتَتَبَدَّدُ ٱلْخِرَافُ. وَلَكِنْ بَعْدَ قِيَامِي أَسْبِقُكُمْ إِلَى ٱلْجَلِيلِ. فَقَالَ لَهُ بُطْرُسُ: وَإِنْ شَكَّ ٱلْجَمِيعُ فَأَنَا لَا أَشُكُّ. فَقَالَ لَهُ يَسُوعُ: ٱلْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ فِي هَذِهِ ٱللَّيْلَةِ، قَبْلَ أَنْ يَصِيحَ ٱلدِّيكُ مَرَّتَيْنِ، تُنْكِرُنِي ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. فَقَالَ بِأَكْثَرِ تَشْدِيدٍ: وَلَوِ ٱضْطُرِرْتُ أَنْ أَمُوتَ مَعَكَ لَا أُنْكِرُكَ!». وَهَكَذَا قَالَ أَيْضًا ٱلْجَمِيعُ. وَجَاءُوا إِلَى ضَيْعَةٍ ٱسْمُهَا جَثْسَيْمَانِي، فَقَالَ لِتَلَامِيذِهِ: ٱجْلِسُوا هَهُنَا حَتَّى أُصَلِّيَ. ثُمَّ أَخَذَ مَعَهُ بُطْرُسَ وَيَعْقُوبَ وَيُوحَنَّا، وَٱبْتَدَأَ يَدْهَشُ وَيَكْتَئِبُ. فَقَالَ لَهُمْ: نَفْسِي حَزِينَةٌ جِدًّا حَتَّى ٱلْمَوْتِ! اُمْكُثُوا هُنَا وَٱسْهَرُوا. ثُمَّ تَقَدَّمَ قَلِيلًا وَخَرَّ عَلَى ٱلْأَرْضِ، وَكَانَ يُصَلِّي لِكَيْ تَعْبُرَ عَنْهُ ٱلسَّاعَةُ إِنْ أَمْكَنَ. وَقَالَ: يَا أَبَا ٱلْآبُ، كُلُّ شَيْءٍ مُسْتَطَاعٌ لَكَ، فَأَجِزْ عَنِّي هَذِهِ ٱلْكَأْسَ. وَلَكِنْ لِيَكُنْ لَا مَا أُرِيدُ أَنَا، بَلْ مَا تُرِيدُ أَنْتَ. ثُمَّ جَاءَ وَوَجَدَهُمْ نِيَامًا، فَقَالَ لِبُطْرُسَ: يَا سِمْعَانُ، أَنْتَ نَائِمٌ! أَمَا قَدَرْتَ أَنْ تَسْهَرَ سَاعَةً وَاحِدَةً؟ اِسْهَرُوا وَصَلُّوا لِئَلَّا تَدْخُلُوا فِي تَجْرِبَةٍ. أَمَّا ٱلرُّوحُ فَنَشِيطٌ، وَأَمَّا ٱلْجَسَدُ فَضَعِيفٌ. وَمَضَى أَيْضًا وَصَلَّى قَائِلًا ذَلِكَ ٱلْكَلَامَ بِعَيْنِهِ. ثُمَّ رَجَعَ وَوَجَدَهُمْ أَيْضًا نِيَامًا، إِذْ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ

ثَقِيلَةً، فَلَمْ يَعْلَمُوا بِمَاذَا يُجِيبُونَهُ. ثُمَّ جَاءَ ثَالِثَةً وَقَالَ لَهُمْ: نَامُوا ٱلْآنَ وَٱسْتَرِيحُوا! يَكْفِي! قَدْ أَتَتِ ٱلسَّاعَةُ! هُوَذَا ٱبْنُ ٱلْإِنْسَانِ يُسَلَّمُ إِلَى أَيْدِي ٱلْخُطَاةِ. قُومُوا لِنَذْهَبَ! هُوَذَا ٱلَّذِي يُسَلِّمُنِي قَدِ ٱقْتَرَبَ.

أقلقتِ اللاهوتيّينَ على مدى تاريخ الكنيسة أسئلةٌ صعبة حول طبيعة يسوع المسيح؛ الله الإنسان. كانت هذه الأسئلة في بعض الحالات تقود إلى هرطقات واضحة، نتج عنها لاحقًا بيانات من مجالس الكنيسة لتصويبها. سيثير هذا الفصل من الكتاب بعضًا من هذه الأسئلة، لذلك سأنحرف عن طريقتي المعتادة بتفسير الآيات واحدة تلو الأخرى، لأفسّر بطريقة لاهوتيّة المسائل البارزة في هذا النصّ. أحيانًا وفي بعض الحالات، يكون فيها التفسير اللاهوتيّ ضروريًّا جدًّا لحماية القدّيسين من الانحرافات والأخطاء وحتّى البدع، وأعتقد أنّنا هنا أمام أحد تلك الأوقات.

أريدُ أنْ أتطرّقَ على وجه التحديد إلى العلاقة القائمة بين طبيعتَي يسوع الإلهيّة والبشريّة. تنشأ أسئلة حول هذه العلاقة من حادثتَيْن على الأقلّ في هذا النصّ.

أوّلًا، أنبأ يسوع عن قيامته عندما قال لتلاميذه: «**وَلَكِنْ بَعْدَ قِيَامِي أَسْبِقُكُمْ إِلَى ٱلْجَلِيلِ**» (الآية ٢٨). كما قال لبطرس: «**ٱلْحَقَّ أَقُولُ لَكَ: إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ فِي هَذِهِ ٱللَّيْلَةِ، قَبْلَ أَنْ يَصِيحَ ٱلدِّيكُ مَرَّتَيْنِ، تُنْكِرُنِي ثَلَاثَ مَرَّاتٍ**» (الآية ٣٠). أظهر يسوع معرفةً خارقة للطبيعة عن المستقبل، وهذا تمامًا ما نتوقّع أنْ يكونَ موجودًا في الله الإنسان. ومع ذلك، يجب أنْ نتذكّر أنّ يسوع قال قبل ذلك بقليل: «وَأَمَّا ذَلِكَ ٱلْيَوْمُ وَتِلْكَ ٱلسَّاعَةُ فَلَا يَعْلَمُ بِهِمَا أَحَدٌ، وَلَا ٱلْمَلَائِكَةُ ٱلَّذِينَ فِي ٱلسَّمَاءِ، وَلَا ٱلِٱبْنُ، إِلَّا ٱلْآبُ» (مَرقُس ١٣: ٣٢). استطاع يسوع أنْ يتنبّأ بدمار الهيكل وأورشليم (١٣: ٢)، حتّى أنّه أعلن مُسبقًا وبدقّة مُتناهية عن قيامته وإنكار بطرس له. ومع ذلك، كان

هنالك بعض الأمور التي يجهلها. كانت معرفتُه محدودة بشهادته الخاصّة. ربّما تعلّمتَ سابقًا أنّ الله كلّيّ المعرفة، وأنّه يعرف كلّ شيء سواء كان في الماضي أو الحاضر أو المستقبل، وحتّى كلّ الأحداث التي **يُحتمل** أنْ تحدثَ في المستقبل، وهذا صحيح. ولكن، لا يبدو أنّ هذا ينطبق على الله الابن، على الأقلّ خلال تجسّده. فكيف نُفسّر هذا؟

ثانيًا، عندما ذهب يسوع إلى بستان جثسيماني، رفع صلاةً مثيرةً للاهتمام. قَالَ: «**يَا أَبَا ٱلْآبُ، كُلُّ شَيْءٍ مُسْتَطَاعٌ لَكَ، فَأَجِزْ عَنِّي هَذِهِ ٱلْكَأْسَ. وَلَكِنْ لِيَكُنْ لَا مَا أُرِيدُ أَنَا، بَلْ مَا تُرِيدُ أَنْتَ**» (الآية ٣٦). ماذا كان يجري عندما صلّى يسوع بهذه الطريقة؟ إنْ كان يسوع هو الله المتجسّد، فكيف يتضرّع إلى الله لتغيير قضاء الله؟

مجمع خلقيدونيّة

عقدت الكنيسة في عام ٤٥١ مَجْمَع خلقيدونيّة العظيم، أحد أهمّ المجامع المسكونيّة على مرّ العصور، بهدف محاربة بِدَعٍ وهرطقات كثيرة، كان أهمّها بدعة تُدعى **Monophysite**. هذا المُصطلح مُركّب من بادئة وجذر. البادئة هي **mono**، وتعني «واحد»، والجذر هو **phusis**، وترجمته «طبيعة». لذا فإنّ مُصطلح **monophusis** أو **monophysite** يعني ببساطة «طبيعة واحدة».

زَعَمَ أصحابُ نظريّة الطبيعة الواحدة أنّ يسوع لم يكن له طبيعتان، طبيعة إلهيّة وطبيعة بشريّة، إنّما كان له طبيعة واحدة لا غير. لم تكن تلك الطبيعة الواحدة إلهيّة بالكامل، ولم تكن بشريّة بالكامل، بل كانت بحسب طريقة النظر إليها، طبيعة بشريّة مؤلّهة، أو طبيعة إلهيّة مؤنّسة. كانت هذه البدعة بغاية الخطورة لسببَيْن، فقد أنكرت من جهةٍ ألوهيّة المسيح الكاملة، ومن جهة أخرى، أنكرت إنسانيّة يسوع الحقّة. لذلك أعلن مجمع خلقيدونيّة

ردًّا عليها بأنّ المسيح هو **vere homo, vere Deus**، أي هو إنسان حقّ وإله حقّ، له طبيعتان في أقنوم واحد.

كيف يُمكننا فهم اتّحاد الطبيعة البشريّة مع الطبيعة الإلهيّة؟ يقول الكتاب المقدّس إنّه في التجسّد، أخذ الأقنوم الثاني من الثالوث طبيعةً بشريّة. ولكن، عندما أخذَ جسدًا، أي عندما أخذ طبيعةً بشريّة، لم يؤلِّه تلك الطبيعة البشريّة، بل بقيت الطبيعة البشريّة بشريّة.

في معالجتِه لسرّ التجسّد وتأكيده على طبيعتَيْ يسوع، قال مَجْمَع خلقيدونيّة إنّ الطبيعتَيْن متّحدّتان بالكامل، بحيث لا يُمكن مزجهما أو خلطهما، أو تقسيمهما أو فصلهما. لا يُمكننا أنْ نمزجهما ببعضهما كما فعل أصحاب نظريّة الطبيعة الواحدة، حيث قاموا بتأليه الجسد، أو بتأنيس الروح. في الوقت نفسِه، يجبُ ألّا نفصلَ بينهما أبدًا. هما متّحدّتان في كلّ آن وفي كلّ مكان. تَمَّ فيما بعد إضافة عبارةٍ توضيحيّة إلى عبارات النفي الأربعة هذه الصادرة عن مجمع خلقيدونيّة: «لقد احتفظت كلّ طبيعة بصفاتها الخاصّة». أي، في التجسّد، لم يتخلَّ الابن عن أيّ من صفاته. لا تزال طبيعتُه الإلهيّة أبديّة، وأزلية، وكلّية المعرفة، وكلّية الوجود، وكلّية القدرة، وتتمتّع بجميع الصفات الإلهيّة. لم يتوقّف الله عن كونه الله عندما أخذ الطبيعة البشريّة في يسوع. في الوقت نفسه، احتفظت الطبيعة البشريّة بصفاتها الخاصّة، فكانت محدودة، وغير أبديّة، ومحصورة، وغير قادرة أنْ تكونَ في أكثر من مكان واحد في وقت واحد، ومعرفتها محدودة، وقوّتها محدودة. بقيت كلّ هذه الصفات الإنسانيّة صفاتَ بشريّةِ يسوع.

انتقال الصفات؟

تأمّلنا في الفصل الأخير في تأسيس يسوع للعشاء الربّاني عندما قال: «هذا هو جسدي». رأينا أنّ هذه الكلمات أثارت جدلًا واسعًا، في القرن

السادس عشر، حول ما إذا كانت الطبيعة البشريّة الماديّة ليسوع قادرة أنْ تكونَ موجودة في أكثر من مكان واحد. أثبتَ مجمع خلقيدونيّة أنّ الطبيعة البشريّة ليسوع لا يمكن أنْ تكونَ موجودة في أكثر من مكان واحد في الوقت نفسه. يُمكن أنْ يكونَ ذلك مُمكنًا، فقط عندما تُنقل صفة إلهيّة إلى الطبيعة البشرية ليسوع. وما يُثير الدهشة، هو أنّ هذا هو تمامًا ما بدأت الكنيسة الكاثوليكيّة تُعلّمه في نهاية المطاف.

انبثقت هذه الفكرة من تعاليم توما الأكويني، «العالم (المعلّم) الملائكيّ» في الكنيسة الكاثوليكيّة، وأحد ألمع اللاهوتيّين الذين عرفهم التاريخ على الإطلاق. رفض الأكويني بشكل أساسيّ فكرة محدوديّة معرفة يسوع. قال: لأنّ يسوع هو الله الإنسان، وله طبيعة إلهيّة وطبيعة بشريّة بوحدة كاملة، فلا بدّ أنّه كان يعرف يوم وساعة مجيئِه. إلّا أنّه أصرّ على أنّ هذه المعرفة كانت ببساطة سامية جدًّا، ومُقدّسة جدًّا، ورائعة جدًّا، لدرجة أنّه لم يقوَ على مُشاركتها مع الأنفس الفانية مثل تلاميذه. لذلك، لكي يتشبّه بضعفهم، قال لهم بكلّ بساطة إنّه لا يعرف. هذا التحليل لا ينزع صفة كليّ العلم عن يسوع، إنّما يُثير مُشكلة أخطر بكثير. فلو بالفعل قال يسوع لتلاميذه إنّه لا يعرف شيئًا ما، في الوقت الذي هو يعرف هذا الشيء، فقد نطق (تكلّم) بالكذب، وهذا يُفقده الأهليّة بأنْ يكونَ مُخلّصنا.

على أثرِ نظريّة التشبّه للأكويني، طوّرت روما مفهومًا عُرف بانتقال الصفات، وباللاتينيّة **communication idiomata**. يعلن هذا التعليم أنّه في التجسّد تمّ مشاركة الصفات الإلهيّة مع طبيعة يسوع البشريّة. وتقول روما إنّ هذا يُتيح لجسد يسوع أنْ يكونَ موجودًا في أماكن مُختلفة في آن واحد، كما ناقشنا في الفصل الأخير. إلّا أنّه ليس بإمكاننا نحن البشر بلوغَه، لأنّ بشريّتنا مُقيّدة أبدًا بالمكان والزمان. صفة كليّ المعرفة هي صفة لم تُنقل إلى طبيعتنا البشريّة.

صحيح أنه في التجسّد حدث انتقالٌ للمعرفة من الطبيعة الإلهيّة إلى الطبيعة البشريّة. الأشياء التي لا يعرفُها إلّا الله وحده نُقلت إلى طبيعة يسوع البشريّة، فأصبح قادرًا على التنبؤ بالمستقبل بدقّة متناهية. بالتأكيد، لم يكن هذا أمرًا جديدًا، فقد حدث انتقالٌ مثل هذا للمعرفة من الله إلى الإنسان بطريقة خارقة للطبيعة في الكثير من المرّات مع أنبياء العهد القديم. وصلتْهم معلومات لم يكن من الممكن أنْ يكونوا قد عرفوها بجهودهم الخاصّة. بطريقة مُشابهة، أخذ الرسل في العهد الجديد، وبالأخصّ الرسول بولس، دورَ وسطاء الوحي، ونقلوا إلينا أشياء لم يكن من الممكن أنْ يكونوا قد عرفوها من تلقاء أنفسهم، إنّما الله هو الذي نقلها إليهم.

لكنّ نقل المعرفة من الطبيعة الإلهيّة إلى الطبيعة البشريّة يختلف عن قولنا بأنّ الله ينقل صفة إلهيّة. لو كان يسوع يعلم المستقبل لأنّ صفة المعرفة الكلّيّة قد نُقِلت إلى طبيعته البشريّة، فبإمكاننا أنْ نتوقّع بأنْ تعرفَ طبيعتُه البشريّة كلّ شيء. لكنّه أشار بنفسه إلى وجود حدود لمعرفته. إذن، إنِ استنتجنا بأنّ الطبيعةَ الإلهيّة تنقل المعلومات بدون أنْ تنقلَ صفة المعرفة الكلّيّة، فلن نتعثّر في هذه النصوص.

تمييز، لا انفصال

أعلن مجمع خلقيدونيّة أيضًا أنّه لا يجوز قَسِم أو فصل طبيعتَيْ يسوع الإلهيّة والبشريّة. نفعل هذا عندما نُنكر الوحدة الكاملة بين الطبيعتَيْن. ولكن، في الوقت الذي لا ينبغي علينا التشكيك في وحدة الطبيعتَيْن، إلّا أنّه من المقبول تمامًا التمييز بينهما.

عندما نميّز بين الطبيعة البشريّة والإلهيّة، من الواضح أنّ طبيعةَ يسوع البشريّة قد اختبرت العذاب في جثسيماني. لقد كان الإنسان يسوع يصلّي إلى الله الآب ليريحَه من العذاب، لكنّه يشير في الوقت نفسه إلى التزامه

الكامل بطاعة مشيئة الآب. بقيت الطبيعتان سليمتَيْن، بدون اختلاط، أو امتزاج، أو انقسام، أو انفصال، ولكن كان هنالك أشياء معيّنة تُظهر الطبيعة الإلهيّة، وأشياء أخرى كانت تُظهر الطبيعة البشريّة. لم تلتمس طبيعتُه الإلهيّة من الآب أنْ يُبدلَ رأيه. نحن نعلمُ أنّ الآبَ والابنَ والروحَ القدس، أقانيم الثالوث الثلاثة، كانوا في اتّفاق تامّ منذ الأزل حول كيفيّة تتميم فدائنا، لكنّ طبيعتَه البشرية التمست أنْ تجتازَ الكأسُ عنه. عندما بدأ يسوع في عذابه يتصبّب عرقًا، هل كانت قطرات العرق إلهيّة؟ أم أنّ هذا التعرّق أظهر طبيعة يسوع البشريّة؟ من الواضح أنّ عرقه لم يكن يُظهر الطبيعة الإلهيّة، بل الطبيعة البشريّة، وكذلك كانت صلاتُه.

يسوع موجود في هذه اللحظة بالذات في السماء بطبيعته البشرية. لكن شخص يسوع متّحد تمامًا بطبيعته الإلهيّة حتّى هنا على الأرض. تستطيع الطبيعة الإلهيّة أنْ تكونَ في كلّ مكان وفي كلّ الأوقات. أينما كانت الطبيعة الإلهيّة موجودة، هناك يكون يسوع الإنسان، حتّى وإنْ كان الجسد المادّي في السماء.

أنا أقضي وقتًا كافيًا لمناقشة هذه الفكرة، لأنّه يُقال إنّ كلّ البدع التي حاربتها الكنيسة في الثمانمائة عام الأولى تتكرّر في كلّ جيل. إنْ شاهدتَ برامج المحطّات التلفزيونيّة المسيحيّة ليوم واحد، ستسمع هذه البدع تُعلَّم كما لو أنّها حقائق كتابيّة. لهذا السبب، ينبغي علينا أنْ نحترزَ في كلّ جيل ألّا نقعَ في أفكار تعوّج الحقيقة.

نحن لا نعرف بالطبع كلّ المعرفة عن سرّ التجسد، لكنّ مجمع خلقيدونيّة رَسَم بعض الحدود. فقد وضع الرجال الذين اجتمعوا هناك حدودًا لتكهّناتنا. في الواقع، قالوا: «إنْ تجاوزتَ هذه الحدود، فسوف ينتهي بك المطاف في بدعة الطبيعة الواحدة. إنْ تجاوزتَ هذه الحدود، فسوف ينتهي بك المطاف بفصل الطبيعتَيْن». لقد أرادوا توخّي الحذر ليبقوا ضمنَ حدود التفكير

المشروع. لقد اعترفوا بشكل أساسيّ أنّهم لم يفهموا كيفيّة اتّحاد الطبيعة الإلهيّة بالطبيعة البشريّة، لكنّهم عرفوا أنّهما مُتّحدتان بدون اختلاط، أو امتزاج، أو انقسام، أو انفصال. لقد عرفوا أنّه بغضّ النظر عن كيفيّة اتّحاد الطبيعة الإلهيّة مع الطبيعة البشريّة، فإنّ كلّ واحدة منهما حافظت على صفاتها الخاصّة في هذا الاتّحاد الكامل. لا تتوقّف الطبيعة الإلهيّة عن كونها إلهيّة، ولا تتوقّف الطبيعة البشريّة عن كونها بشريّة.

أشعر أحيانًا بالاستياء من بعض الترانيم التي تتحدّث عن موت الله على الصليب. مات الله الإنسان على الصليب، لكنّ الطبيعة الإلهيّة لم تَمُت. لو كان الله قد مات فعلًا على الصليب، فلن يموت يسوع فحسب، بل سيكون الآب أيضًا قد مات وكذلك الروح القدس، ولن يعود الكون موجودًا فيما بعد، لأنّه يعتمد في استمراره من لحظة إلى أخرى على يدِ الله المُمسكة به. إنْ فَنِيَ الله، فسيفنى كلّ شيء آخر. لا، لقد مات الله الإنسان بطبيعته البشريّة. وحتّى عندما كان جثّة هامدة في القبر، بقي مُتّحدًا بالطبيعة الإلهيّة. لقد سلّم روحَه البشريّة للآب عندما تلفّظ أنفاسه الأخيرة. لم يتحطّم الاتّحاد الإلهيّ والبشريّ. لهذا السبب، نحن لا نفصلُ بين الطبيعتَيْن، بل يجب علينا التمييز بينهما لنتجنّب الوقوع في البدع والهرطقات.

٥٢

قُبلةُ الخيانة

مَرْقُس ١٤: ٤٣-٥٢

وَلِلْوَقْتِ فِيمَا هُوَ يَتَكَلَّمُ أَقْبَلَ يَهُوذَا، وَاحِدٌ مِنَ ٱلِٱثْنَيْ عَشَرَ، وَمَعَهُ جَمْعٌ كَثِيرٌ بِسُيُوفٍ وَعِصِيٍّ مِنْ عِنْدِ رُؤَسَاءِ ٱلْكَهَنَةِ وَٱلْكَتَبَةِ وَٱلشُّيُوخِ. وَكَانَ مُسَلِّمُهُ قَدْ أَعْطَاهُمْ عَلَامَةً قَائِلًا: ٱلَّذِي أُقَبِّلُهُ هُوَ هُوَ. أَمْسِكُوهُ، وَٱمْضُوا بِهِ بِحِرْصٍ. فَجَاءَ لِلْوَقْتِ وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ قَائِلًا: يَا سَيِّدِي، يَا سَيِّدِي. وَقَبَّلَهُ. فَأَلْقَوْا أَيْدِيَهُمْ عَلَيْهِ وَأَمْسَكُوهُ. فَٱسْتَلَّ وَاحِدٌ مِنَ ٱلْحَاضِرِينَ ٱلسَّيْفَ، وَضَرَبَ عَبْدَ رَئِيسِ ٱلْكَهَنَةِ فَقَطَعَ أُذْنَهُ. فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: كَأَنَّهُ عَلَى لِصٍّ خَرَجْتُمْ بِسُيُوفٍ وَعِصِيٍّ لِتَأْخُذُونِي. كُلَّ يَوْمٍ كُنْتُ مَعَكُمْ فِي ٱلْهَيْكَلِ أُعَلِّمُ وَلَمْ تُمْسِكُونِي. وَلَكِنْ لِكَيْ تُكْمَلَ ٱلْكُتُبُ. فَتَرَكَهُ ٱلْجَمِيعُ وَهَرَبُوا. وَتَبِعَهُ شَابٌّ لَابِسًا إِزَارًا عَلَى عُرْيِهِ، فَأَمْسَكَهُ ٱلشُّبَّانُ، فَتَرَكَ ٱلْإِزَارَ وَهَرَبَ مِنْهُمْ عُرْيَانًا.

لقد وقعَ أحد أكثر الأعمال شرًّا في التاريخ، وكان مُلائمًا له ألّا يقع في نور النهار، بل في ظلام الليل. إنّه خيانة يسوع بقبلة يهوذا، المعروفة في التاريخ بقبلة الموت. يخبرنا مَرْقُس أنهّ **لِلْوَقْتِ فِيمَا هُوَ يَتَكَلَّمُ أَقْبَلَ يَهُوذَا،**

وَاحِدٌ مِنَ ٱلِٱثْنَيْ عَشَرَ، وَمَعَهُ جَمْعٌ كَثِيرٌ بِسُيُوفٍ وَعِصِيٍّ مِنْ عِنْدِ رُؤَسَاءِ ٱلْكَهَنَةِ وَٱلْكَتَبَةِ وَٱلشُّيُوخِ (الآية ٤٣). لم يتفاجأ يسوع بذلك، فهو الذي قال للتوّ إن الذي سيخونه قد اقترب (الآية ٤٢).

يُفترض أنّ الجمعَ الذي أقبل بسيوف وعصيّ كان خليطًا من حرس الهيكل التابعين للسنْهدرين وجنود من الرومان المتمركزين في أورشليم. جاءَوْا تحت جنح الظلام، إلى هذا المكان المُحدّد، لإلقاء القبض على يسوع بعيدًا عن الجموع. كان يُشير كلّ جزء ممّا جرى إلى عمل يرتكبه أبناء الظلمة.

يكتب مَرْقُس أنّ يهوذا **قَدْ أَعْطَاهُمْ عَلَامَةً قَائِلًا: ٱلَّذِي أُقَبِّلُهُ هُوَ هُوَ. أَمْسِكُوهُ، وَٱمْضُوا بِهِ بِحِرْصٍ** (الآية ٤٤). عندما طلب يهوذا من الجنود أنْ يمضوا بيسوع «بحرص»، لم يكن يطلب ألّا يتعرّض يسوع للأذى، بل كان بكلّ بساطة يطلب أنْ يعتقلَه الجنودُ بدون أنْ يُعرّضوا أنفسَهم للخطر كثيرًا.

يتابع مَرْقُس قائلًا: **فَجَاءَ لِلْوَقْتِ وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ قَائِلًا: يَا سَيِّدِي، يَا سَيِّدِي. وَقَبَّلَهُ** (الآية ٤٥). يا لهذه المفارقة العجيبة! ما فَعَله ليس سوى مبادرة احترام وعاطفة عميقَيْن، كان التلاميذ قد اعتادوا على تقديمها لمعلّمهم، وقد تصرّف يهوذا بهذه الطريقة لتحقيق مهمّته الشرّيرة. تصف اللغة المستخدَمة هنا قُبلةَ يهوذا على أنّها ليست قُبْلة سريعة على الخدّ، بل قُبلة مُنحت بسخاء، وهي إشارة على وجود إحساس عميق بالعاطفة والاحترام. إلّا أنّها لم تكن سوى قبلة رياء وانتقام.

تكرار الاسم

تأمّل أيضًا بالطريقة التي تكلّم بها يهوذا مع يسوع. هذا يذكّرني بوصف يسوع في نهاية العظة على الجبل لموقف سيحدث في اليوم

الأخير. قال: «كَثِيرُونَ سَيَقُولُونَ لِي فِي ذَلِكَ ٱلْيَوْمِ: يَارَبُّ، يَارَبُّ! أَلَيْسَ... وَبِٱسْمِكَ صَنَعْنَا قُوَّاتٍ كَثِيرَةً؟ فَحِينَئِذٍ أُصَرِّحُ لَهُمْ: إِنِّي لَمْ أَعْرِفْكُمْ قَطُّ! ٱذْهَبُوا عَنِّي يا فَاعِلِي ٱلْإِثْمِ!» (متّى ٧: ٢٢-٢٣). احتوى إنذار يسوع على شكل من التعبير الثقافيّ غير المألوف، فقد وصفَ الذين يتقدّمون منه للتعبير عن حنانهم نحوه بترداد هذه الكلمة: «يَا رَبُّ، يَا رَبُّ». ذُكرت هذه العادة العبريّة بمخاطبة الناس عن طريق تكرار أسمائهم حوالي خمس عشرة مرّة فقط في كلّ الكتاب المقدّس، لكنّ لها دلالة مُهمّة.

نرى ذلك في العهد القديم، في تلك اللحظة الحاسمة على جبل المريا، عندما وضع إبراهيم ابنه إسحاق على المذبح، وفي اللحظة الأخيرة نادى عليه الله قائلًا: «إِبْرَاهِيمُ! إِبْرَاهِيمُ!... لَا تَمُدَّ يَدَكَ إِلَى ٱلْغُلَامِ... لِأَنِّي ٱلْآنَ عَلِمْتُ أَنَّكَ خَائِفٌ ٱللهَ» (تكوين ٢٢: ١١-١٢). لاحقًا، عندما خاف يعقوب أنْ يذهبَ مع عائلته إلى أرض جاسان، جاء الله وكلّمه قائلًا: « يَعْقُوبُ، يَعْقُوبُ!... لَا تَخَفْ مِنَ ٱلنُّزُولِ إِلَى مِصْرَ... أَنَا أَنْزِلُ مَعَكَ» (تكوين ٤٦: ٢-٤). بعد ذلك، في بريّة مديان، عندما دعا الله موسى ليقود شعب إسرائيل في الخروج، تحدّث إليه من العُلّيقة المشتعلة قائلًا: «موسى، موسى!» (خروج ٣: ٤). وفي مُنتصف الليل، دعا الله صموئيل قائلًا له: «صَمُوئِيلُ، صَمُوئِيلُ». فأجابه الغلام: «تَكَلَّمْ لِأَنَّ عَبْدَكَ سَامِعٌ» (١صموئيل ٣: ١٠). وعندما صعد إيليّا إلى السماء في مركبة من نار، وقفَ أليشع هناك ينظر إليه وصرخ: «يَا أَبِي، يَا أَبِي» (٢ ملوك ٢: ١٢). وعندما سمع داود خبر مقتل ابنه، قال نائحًا: «يَا ٱبْنِي أَبْشَالُومُ، يَا أَبْشَالُومُ ٱبْنِي، يَا ٱبْنِي!» (٢صموئيل ١٩: ٤).

في العهد الجديد، تكلّم يسوع بلطف إلى مرثا عندما اشتكت إليه قائلةً: «مرثا، مرثا» (لوقا ١٠: ٤١). عندما قال سمعان بطرس ليسوع إنّه لن يُنكره أبدًا، قال له يسوع: «سِمْعَانُ، سِمْعَانُ! هُوَذَا ٱلشَّيْطَانُ طَلَبَكُمْ

لِكَيْ يُغَرْبِلَكُمْ كَٱلْحِنْطَةِ، وَلَكِنِّي طَلَبْتُ مِنْ أَجْلِكَ» (لوقا ٢٢: ٣١–٣٢). وقد رثى يسوع المدينة قائلًا: «يَا أُورُشَلِيمُ، يَا أُورُشَلِيمُ... كَمْ مَرَّةٍ أَرَدْتُ أَنْ أَجْمَعَ أَوْلَادَكِ كَمَا تَجْمَعُ ٱلدَّجَاجَةُ فِرَاخَهَا تَحْتَ جَنَاحَيْهَا، وَلَمْ تُرِيدُوا!» (لوقا ١٣: ٣٤). وقال يسوع لشاول على طريق دمشق: «شَاوُلُ، شَاوُلُ! لِمَاذَا تَضْطَهِدُنِي؟» (أعمال الرسل ٩: ٤). بالطبع، جاء الاستخدام الأكثر دراماتيكيّة لهذا التكرار من الصليب نفسه، عندما صرخ يسوع: «إِلَهِي، إِلَهِي، لِمَاذَا تَرَكْتَنِي؟» (مَرْقُس ١٥: ٣٤).

هل لاحظتَ ما كان يجري في هذه المواقف؟ في كلّ مرّة يتكرّر فيها الاسم، كان ذلك للتعبير عن إحساس شديد وعميق بالمودّة الشخصيّة. كان يسوع يقول إنّه في اليوم الأخير سيأتي أشخاص إليه، أشخاص لا يعرفهم ولا ينتمون إليه، لكنّهم سيدّعون بأنّهم ينتمون إليه. لن يذكروا اسمه فحسب، بل سيكرّرونه كما لو أنّه تربطهم به علاقة حميمة. قال يسوع إنّه سيقول لهم بشكل أساسيّ: «اذهبوا من هنا. أنا لا أعرف مَن أنتم. أنا لا أعرف أسماءَكم. ابتعدوا عنّي يا فاعلي الإثم».

يقول الناس بعضهم لبعض في المجتمع المسيحيّ: «هل تعرف يسوع؟» لكنّ المسألة لا تتعلّق بمدى معرفتنا بيسوع، بل بمدى معرفة يسوع بنا. حسنًا، لم يكن يهوذا يعرف يسوع، ولم يكن يسوع يعرفه، رغم أنّه جاء إلى يسوع وقال له: «يا سيّدي، يا سيّدي!» لم يكن يسوع مُضطرًّا أنْ ينتظرَ حتّى اليوم الأخير ليرى تحقيق نبوءَته في يهوذا.

القبض على يسوع

يواصل مَرْقُس روايته قائلًا: **«فَأَلْقَوْا أَيْدِيَهُمْ عَلَيْهِ وَأَمْسَكُوهُ. فَٱسْتَلَّ وَاحِدٌ مِنَ ٱلْحَاضِرِينَ ٱلسَّيْفَ، وَضَرَبَ عَبْدَ رَئِيسِ ٱلْكَهَنَةِ فَقَطَعَ أُذْنَهُ»** (الآيتان ٤٦–٤٧). الشخص الذي استلّ سيفَه مجهول في رواية مَرْقُس.

يُخبرنا التقليدُ أنّ مَرْقُس كان كاتب الرسول بطرس، وأنّ رسوليّة بطرس هي التي كانت تقف وراء إنجيل مَرْقُس. يُعرّف يوحنّا في إنجيله هذا الشخص المجهول على أنّه بطرس، التلميذ المتسرّع والمندفع (يوحنّا ١٨: ١٠). لا يُخبرنا مَرْقُس أيضًا أنّ يسوع وبّخ بطرس لأنّه هاجم الخادم، ولا أنّه لمسَ أذنَه وأبرأها (لوقا ٢٢: ٥١).

هذا الرجل الذي قُطعت أذنُه للتوّ شفاه الشخص نفسه الذي كان يحاول القبضَ عليه لإعدامه.

يخبرنا مَرْقُس: **فَأَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُمْ: كَأَنَّهُ عَلَى لِصٍّ خَرَجْتُمْ بِسُيُوفٍ وَعِصِيٍّ لِتَأْخُذُونِي! كُلَّ يَوْمٍ كُنْتُ مَعَكُمْ فِي ٱلْهَيْكَلِ أُعَلِّمُ وَلَمْ تُمْسِكُونِي. وَلَكِنْ لِكَيْ تُكْمَلَ ٱلْكُتُبُ** (الآيتان ٤٨–٤٩). قال لهم يسوع إنّه لا داعي لاستخدام القوّة. كان مُستعدًّا للذهاب معهم بهدوء، لأنّه كان يعلم أنّ ما كان يحدث هو مشيئة الآب، التي كان قد تنبّأ بها منذ زمن طويل.

ما حدث بعد ذلك كان تحقيقًا لما تنبّأ به يسوع سابقًا، كما هو مكتوب في الآية ٢٧: **فَتَرَكَهُ ٱلْجَمِيعُ وَهَرَبُوا** (الآية ٥٠). لم يتركه يهوذا فقط، ولا بطرس، بل كلّ واحد منهم فعل ذلك. في لحظة إلقاء القبض عليه، استدار التلاميذ وهربوا في الظلام.

ثمّ يُضيف مَرْقُس إلى روايته تفصيلًا غير اعتياديّ: **وَتَبِعَهُ شَابٌّ لَابِسًا إِزَارًا عَلَى عُرْيِهِ، فَأَمْسَكَهُ ٱلشُّبَّانُ، فَتَرَكَ ٱلْإِزَارَ وَهَرَبَ مِنْهُمْ عُرْيَانًا** (الآية ٥١). يمكننا تمييز بعض الأمور من هذا النصّ حول هذه الحادثة الغريبة. يُفترض ألّا يكون هذا الشابّ من الاثنيّ عشر. من الواضح أنّه كان رجلًا غنيًّا، لأنّ الأثرياء فقط هم الذين كانوا يرتدون أقمشة من الكتّان تحت ثيابهم. وبما أنّه كان يرتدي قطعة من الكتّان فقط بدون الملابس الداخليّة، فهذا يُشير إلى أنّه ارتدى ملابسه بسرعة ليتابع ما كان يجري. ربّما كان

يعيش في مكان قريب، ربّما كان ذلك في أورشليم.

إنّها معلومة مثيرة لعلماء اللاهوت وقد استرعت انتباههم، والعديد منهم يفعلون ذلك متسائلين: «لماذا تضمّن هذا الإنجيل هذه الرواية عن هذا الشخص المجهول، في هذا الموقف المُحرج؟» قد يكون هذا الشابّ هو مَرْقُس نفسه، وقد كان من عائلة ثريّة. وربّما تكون هذه هي الطريقة التي أدخل فيها مَرْقُس نفسه في الرواية، للإشارة إلى أنّه كان شاهد عيان على هذه الأحداث التي وقعت تلك الليلة. لو كان الأمر كذلك، فقد كانت تلك لحظة مروّعة بالنسبة إليه، لأنّه كاد أن يتمّ القبض عليه هو الآخر. لقد أمسك أحد الجنود بثوبه الكتّاني، لكنّه انطلق بسرعة تاركًا ثوبه وراءه، تمامًا كما هرب يوسف من زوجة فوطيفار عندما أمسكت بثوبه، فهرب تاركًا ثوبه خلفه (تكوين ٣٩: ١١-١٦).

العري يضاهي العار

منذ عدّة سنوات، ألّفت كتابًا كان عنوانه في البداية «علم نفس الإلحاد» **The Psychology of Atheism**، ثمّ وضعت له لاحقًا عنوانًا آخر هو «إن كان الله موجودًا، لماذا يوجد مُلحدين؟» **If There Is a God, Why Are There Atheists?** ضمّنت هذا الكتاب فصلًا عن موضوع العريّ في الكتاب المقدّس وفي الفلسفة الغربيّة. قمت بدراسة كلمة **gumnos**، وهي كلمة يونانيّة تعني «عري». كان الرجل والمرأة في جنّة عدن عريانَيْن، ولكن لم يشعرا بالخجل من ذلك إلى أنْ دخلت الخطية حياتَهما. كان الوعي الذاتي النفسيّ بالذنب والعار هو الوعي غير المريح بالشعور بالعري. منذ ذلك الحين، أصبح البشر هم الكائنات الوحيدة التي تتزيّن وتغطّي أجسادها بملابسَ اصطناعيّة، لأنّ مساواة الشعور بالخزي والعار مع العري متأصّل في بشريّتنا الساقطة.

في كلّ الكتاب المقدّس، عندما يتحدّث الله عن إيقاع دينونة على المذنبين، يفعل ذلك عن طريق كشف خطاياهم وتجريدهم من ثيابهم. وخير مثال على ذلك من سفر النبي عاموس. يُقدّم عاموس للربّ قائمة بتجاوزات موآب ويهوذا وإسرائيل، ثمّ يعطي إجابة الله: «هَأَنَذَا أَضْغَطُ مَا تَحْتَكُمْ كَمَا تَضْغَطُ ٱلْعَجَلَةُ ٱلْمَلآنَةُ حِزَمًا». كان هذا توبيخ الله لشعبه. ثم يتابع ويقول: «وَيَبِيدُ ٱلْمَنَاصُ عَنِ ٱلسَّرِيعِ، وَٱلْقَوِيُّ لَا يُشَدِّدُ قُوَّتَهُ، وَٱلْبَطَلُ لَا يُنَجِّي نَفْسَهُ، وَمَاسِكُ ٱلْقَوْسِ لَا يَثْبُتُ، وَسَرِيعُ ٱلرِّجْلَيْنِ لَا يَنْجُو». كان الله يتنبأ عن حالتهم عندما حلّت دينونته على شعبه. ثمّ يقول: «وَٱلْقَوِيُّ ٱلْقَلْبِ بَيْنَ ٱلْأَبْطَالِ يَهْرُبُ عُرْيَانًا فِي ذَلِكَ ٱلْيَوْمِ، يَقُولُ ٱلرَّبُّ» (٢: ١٣-١٦). ومثال آخر على ذلك موجود في سفر الرؤيا حيث دينونة الله على الأشرار مُرتبطة أيضًا بالعري (رؤيا يوحنّا ٣: ١٧؛ ١٦: ١٥؛ ١٧: ١٦).

إنّ موضوع الثياب والعري هو أساسيّ في فهمنا للفداء. مكتوب أنّ برَّنا يشبه ثوب العدّة البالي (إشعياء ٦٤: ٦). الطريقة الوحيدة التي يمكن لأيّ واحد منّا أنْ يقفَ فيها أمام الله هي عن طريق تجريده من تلك الخرق البالية، وإلباسه من جديد ثياب برّ المسيح. هذا هو الإنجيل. لا نستطيع أنا وأنتَ أبدًا أنْ نقفَ أمام الله القدّوس ما لم نرتدِ بِرًّا ليس لنا من السماء.

لقد وهبنا الله غطاءً لخِزينا وعُرْينا. لقد دعانا إلى محضره الذي يفدينا لنختبرَ من جديد هذا الشعور بالأمان الذي نحصل عليه عند معرفتنا بأنّ ابنه قد غطّى خطايانا بدمه على الصليب، وغطّى عُرْيَنا ببرّه الكامل في حياته.

٥٣

مُحاكمة يسوع

مَرْقُس ١٤: ٥٣-٧٢

فَمَضَوْا بِيَسُوعَ إِلَى رَئِيسِ ٱلْكَهَنَةِ، فَٱجْتَمَعَ مَعَهُ جَمِيعُ رُؤَسَاءِ ٱلْكَهَنَةِ وَٱلشُّيُوخُ وَٱلْكَتَبَةُ. وَكَانَ بُطْرُسُ قَدْ تَبِعَهُ مِنْ بَعِيدٍ إِلَى دَاخِلِ دَارِ رَئِيسِ ٱلْكَهَنَةِ، وَكَانَ جَالِسًا بَيْنَ ٱلْخُدَّامِ يَسْتَدْفِئُ عِنْدَ ٱلنَّارِ. وَكَانَ رُؤَسَاءُ ٱلْكَهَنَةِ وَٱلْمَجْمَعُ كُلُّهُ يَطْلُبُونَ شَهَادَةً عَلَى يَسُوعَ لِيَقْتُلُوهُ، فَلَمْ يَجِدُوا. لِأَنَّ كَثِيرِينَ شَهِدُوا عَلَيْهِ زُورًا، وَلَمْ تَتَّفِقْ شَهَادَاتُهُمْ. ثُمَّ قَامَ قَوْمٌ وَشَهِدُوا عَلَيْهِ زُورًا قَائِلِينَ: نَحْنُ سَمِعْنَاهُ يَقُولُ: إِنِّي أَنْقُضُ هَذَا ٱلْهَيْكَلَ ٱلْمَصْنُوعَ بِٱلْأَيَادِي، وَفِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ أَبْنِي آخَرَ غَيْرَ مَصْنُوعٍ بِأَيَادٍ. وَلَا بِهَذَا كَانَتْ شَهَادَتُهُمْ تَتَّفِقُ. فَقَامَ رَئِيسُ ٱلْكَهَنَةِ فِي ٱلْوَسْطِ وَسَأَلَ يَسُوعَ قَائِلًا: أَمَا تُجِيبُ بِشَيْءٍ؟ مَاذَا يَشْهَدُ بِهِ هَؤُلَاءِ عَلَيْكَ؟ أَمَّا هُوَ فَكَانَ سَاكِتًا وَلَمْ يُجِبْ بِشَيْءٍ. فَسَأَلَهُ رَئِيسُ ٱلْكَهَنَةِ أَيْضًا وَقَالَ لَهُ: أَأَنْتَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱلْمُبَارَكِ؟ فَقَالَ يَسُوعُ: أَنَا هُوَ. وَسَوْفَ تُبْصِرُونَ ٱبْنَ ٱلْإِنْسَانِ جَالِسًا عَنْ يَمِينِ ٱلْقُوَّةِ، وَآتِيًا فِي سَحَابِ ٱلسَّمَاءِ. فَمَزَّقَ رَئِيسُ ٱلْكَهَنَةِ ثِيَابَهُ وَقَالَ: مَا حَاجَتُنَا بَعْدُ إِلَى شُهُودٍ؟ قَدْ سَمِعْتُمُ ٱلتَّجَادِيفَ! مَا رَأْيُكُمْ؟ فَٱلْجَمِيعُ حَكَمُوا عَلَيْهِ أَنَّهُ مُسْتَوْجِبُ ٱلْمَوْتَ. فَٱبْتَدَأَ قَوْمٌ يَبْصُقُونَ عَلَيْهِ، وَيُغَطُّونَ وَجْهَهُ وَيَلْكُمُونَهُ وَيَقُولُونَ لَهُ: تَنَبَّأْ. وَكَانَ ٱلْخُدَّامُ يَلْطِمُونَهُ. وَبَيْنَمَا كَانَ

بُطْرُسُ فِي ٱلدَّارِ أَسْفَلَ جَاءَتْ إِحْدَى جَوَارِي رَئِيسِ ٱلْكَهَنَةِ. فَلَمَّا رَأَتْ بُطْرُسَ يَسْتَدْفِئُ، نَظَرَتْ إِلَيْهِ وَقَالَتْ: وَأَنْتَ كُنْتَ مَعَ يَسُوعَ ٱلنَّاصِرِيِّ. فَأَنْكَرَ قَائِلًا: لَسْتُ أَدْرِي وَلَا أَفْهَمُ مَا تَقُولِينَ! وَخَرَجَ خَارِجًا إِلَى ٱلدِّهْلِيزِ، فَصَاحَ ٱلدِّيكُ. فَرَأَتْهُ ٱلْجَارِيَةُ أَيْضًا وَٱبْتَدَأَتْ تَقُولُ لِلْحَاضِرِينَ: إِنَّ هَذَا مِنْهُمْ! فَأَنْكَرَ أَيْضًا. وَبَعْدَ قَلِيلٍ أَيْضًا قَالَ ٱلْحَاضِرُونَ لِبُطْرُسَ: حَقًّا أَنْتَ مِنْهُمْ، لِأَنَّكَ جَلِيلِيٌّ أَيْضًا وَلُغَتُكَ تُشْبِهُ لُغَتَهُمْ! فَٱبْتَدَأَ يَلْعَنُ وَيَحْلِفُ: إِنِّي لَا أَعْرِفُ هَذَا ٱلرَّجُلَ ٱلَّذِي تَقُولُونَ عَنْهُ. وَصَاحَ ٱلدِّيكُ ثَانِيَةً، فَتَذَكَّرَ بُطْرُسُ ٱلْقَوْلَ ٱلَّذِي قَالَهُ لَهُ يَسُوعُ: إِنَّكَ قَبْلَ أَنْ يَصِيحَ ٱلدِّيكُ مَرَّتَيْنِ، تُنْكِرُنِي ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. فَلَمَّا تَفَكَّرَ بِهِ بَكَى.

بعد إلقاء القبض على يسوع، أوقفوه أمام أقوى القادة اليهود في ذلك الزمان. يكتب مَرْقُس: **فَمَضَوْا بِيَسُوعَ إِلَى رَئِيسِ ٱلْكَهَنَةِ، فَٱجْتَمَعَ مَعَهُ جَمِيعُ رُؤَسَاءِ ٱلْكَهَنَةِ وَٱلشُّيُوخُ وَٱلْكَتَبَةُ** (الآية ٥٣). لا يمكن تخيّل المسيح، سيّد الكون والمُمسِك به، وهو يخضع لمحاكمة من البشر، ولكن هذا ما حدث تحت عناية الله الصالحة. بالطبع، لم يجدوا شيئًا يدينونه به، لذلك، كانت محاكمته صُوَريّة.

يُخبرنا مَرْقُس أيضًا: **وَكَانَ بُطْرُسُ قَدْ تَبِعَهُ مِنْ بَعِيدٍ إِلَى دَاخِلِ دَارِ رَئِيسِ ٱلْكَهَنَةِ، وَكَانَ جَالِسًا بَيْنَ ٱلْخُدَّامِ يَسْتَدْفِئُ عِنْدَ ٱلنَّارِ** (الآية ٥٤). عاد بطرس من هروبه في الظلام، وبدأ يتابع ما كان يحدث كمراقب، على أمل ألّا يكشف أحد عن هُوّيته. حاول البقاء على مسافة آمنة بينه وبين يسوع. كان يأمل أنْ يُحافظَ على سلامته، فهو لم يكن يريد أنْ يُعدَم مع المسيح. هذا هو بطرس نفسُه الذي قال ليسوع إنّه سيتبعه حتّى الموت.

هل تتبع يسوع من مسافة بعيدة؟ هل يعرف الذين تتعامل معهم بشكل يوميّ أنّك مسيحيّ؟ أنا لا أسأل إنْ كنتَ تتكلّم باستمرار عن إيمانك

المسيحيّ حتّى عندما لا يكون الأمر مُزعجًا لأصدقائك وزملائك في العمل. أنا أسألُ ببساطة إنْ كانوا يعرفون أين يكمن ولاؤك. وإنْ كانوا لا يعرفون ذلك، فربّما تتبع مُخلّصك من مسافة آمنة.

تَبِعَ بطرس يسوع بهذه الطريقة، محاولًا البقاء على مسافة آمنة. كان جريئًا بما يكفي للدخول إلى الفناء المحيط بمنزل قيافا، والانضمام إلى مجموعة من الخدم وهم يستدفئون قرب النار. كما ترى، لم يكن يريد فقط أنْ يُحافظَ على سلامته، بل أرادَ أيضًا أنْ يكون مرتاحًا وهو يتبع يسوع.

محاكمة مُلفّقة

يكتب مَرْقُس: **وَكَانَ رُؤَسَاءُ ٱلْكَهَنَةِ وَٱلْمَجْمَعُ كُلُّهُ يَطْلُبُونَ شَهَادَةً عَلَى يَسُوعَ لِيَقْتُلُوهُ، فَلَمْ يَجِدُوا** (الآية ٥٥). تشير اللغة المُستخدَمة إلى أنّ القادة الدينيّين اليهود لم يكونوا يسعون وراء الحقيقة. لم يكونوا بصدد جمع الحقائق. تُشير اللغة اليونانيّة إلى أنّهم كانوا يتقصّدون محاولة العثور على أيّ شيء لإدانة يسوع بارتكاب جريمة عُظمى. في الحقيقة، كان هذا أشبه بمطاردة السحرة المتّهمين زورًا بأعمال السحر والشعوذة.

تخبرنا رواية مَرْقُس القصيرة عن بطرس أنّ يسوع لم يؤخذ إلى قاعة Hewn Stone، وهي القاعة التي اعتاد مجلس السنهدرين، الجسم الحاكم لليهود، أنْ يجتمعَ فيها. بل تمّ نقله إلى منزل رئيس الكهنة، قيافا، صهر حنانيا، الذي كان أقوى شخصيّة يهوديّة في البلاد آنذاك. حَكَم قيافا في الفترة الممتدّة من ١٨ إلى ٣٦م. وهذا هو المثال الوحيد المسجّل لمحاكمة يهوديّة تُجرى ليلًا، وكان هذا مُخالفًا للقانون. من الواضح أنّ السنهدرين لم يشأ أنْ يعرفَ سكّان أورشليم ما كان يحدث، خوفًا من خروجهم في مظاهرات احتجاجيّة. كما نصّ القانون اليهوديّ على أنّه لا يمكن إجراء أيّ محاكمة يوم السبت، أو يوم العيد، أو عشيّة يوم السبت أو عشيّة يوم العيد،

لذلك يُعتبر ما حدث انتهاكًا لهذا الترتيب أيضًا.

وقعت مُخالفات كثيرة خلال سير المحاكمة، فشريعة العهد القديم تشترط وجود شاهدَي عيان على الجريمة في أيّ قضيّة جوهريّة، وينبغي أن تتّفق شهادتهما، أمّا الشهادات في مُحاكمة يسوع فلم تكن متطابقة. وفوق كلّ هذا، تشترط الشريعة اليهوديّة أنّه في حالة إدانة المجرم بجريمة يُعاقَب عليها بالإعدام، يجب على السنهدرين أنْ يجتمعَ مرّة أخرى في اليوم التالي لتثبيت الحكم بالإعدام. وُضع هذا القانون لمنع الأحكام التعسّفيّة والمفاجئة في قضايا الإعدام، الأمر الذي لم يتمّ مراعاته في محاكمة يسوع. كلّ ما حدث تقريبًا في هذه المُحاكمة كان مُعاكسًا للقوانين اليهوديّة.

يكتب مَرْقُس: **لِأَنَّ كَثِيرِينَ شَهِدُوا عَلَيْهِ زُورًا، وَلَمْ تَتَّفِقْ شَهَادَاتُهُمْ** (مَرْقُس ١٤: ٥٦). لم يتمكّن هؤلاء الشهود من ترتيب رواياتهم. بعد ذلك، بدأ أعضاء السنهدرين يُدلون بما عندهم: **ثُمَّ قَامَ قَوْمٌ وَشَهِدُوا عَلَيْهِ زُورًا قَائِلِينَ: نَحْنُ سَمِعْنَاهُ يَقُولُ: إِنِّي أَنْقُضُ هَذَا ٱلْهَيْكَلَ ٱلْمَصْنُوعَ بِٱلْأَيَادِي، وَفِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ أَبْنِي آخَرَ غَيْرَ مَصْنُوعٍ بِأَيَادٍ. وَلَا بِهَذَا كَانَتْ شَهَادَتُهُمْ تَتَّفِقُ** (الآيات ٥٧-٥٩). لقد شهد أعضاء السنهدرين وقادة اليهود زورًا ضدّ يسوع، وبذلك تعدّوا على الوصيّة التاسعة (خروج ٢٠: ١٦). لكن هم أيضًا لم يتمكّنوا من تقديم رواية واحدة ثابتة.

الكلمة اليونانية المترجمة إلى «شهدوا» في الآية ٥٦ هي marturia، وهي تعني «شهادة، شاهد». وهذه الكلمة مرتبطة بكلمة martur، ومنها نحصل على كلمة martyr باللغة الإنجليزية أو شهيد باللغة العربيّة. أُطلقت تسمية شهداء في الكنيسة الأولى على الذين قدّموا أكثر الشهادات بلاغة، أو الذين شهدوا عن يسوع وكانوا على أهبّ الاستعداد للموت من أجله. لقد شهدوا لحقيقة المسيح بحياتهم، لذلك دُعوا بالشهداء، أي الذين شهدوا. في المقابل، إنّ الكلمة اليونانيّة التي تُرجمت إلى «شهدوا زورًا» في الآية ٥٧،

هو شكل من أشكال الفعل pseudomartureo، والذي يعني «أدلوا بشهادة زور».

أسئلة رئيس الكهنة

أخيرًا، وقف رئيسُ الكهنة وسأل يسوع سؤالًا: **أَمَا تُجِيبُ بِشَيْءٍ؟ مَاذَا يَشْهَدُ بِهِ هَؤُلَاءِ عَلَيْكَ؟ أَمَّا هُوَ فَكَانَ سَاكِتًا وَلَمْ يُجِبْ بِشَيْءٍ** (الآيتان ٦٠-٦١أ). يمكننا أنْ نتخيّل انفعال قيافا عندما رفض يسوع الإجابة بكلمة. كان يسوع يتمّم بذلك نبوءَة إشعياء ٥٣: ٧: «وَلَمْ يَفْتَحْ فَاهُ. كَشَاةٍ تُسَاقُ إِلَى ٱلذَّبْحِ». إضافة إلى هذا، كان يعلم ما يحاول هؤلاء الأشخاص أنْ يفعلوا، وكان يعلم أنّه مهما قال، ومهما كان دقيقًا أو صادقًا، فسوف يُحرّفون كلامه ويستخدمونه ضدّه. كان من الأفضل أنْ يتركَ شهود الزور يُدلون بما عندهم، وألّا يقول يسوع شيئًا، بدلًا من أنْ يقول شيئًا يُمكنهم استخدامه ضدّه.

في هذه اللحظة، كان قيافا واقفًت بجانبه، لذلك ضغط عليه وقال: **فَسَأَلَهُ رَئِيسُ ٱلْكَهَنَةِ أَيْضًا وَقَالَ لَهُ: أَأَنْتَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱلْمُبَارَكِ؟** (الآية ٦١ب). وكلمة «المبارك» هي نوع من التورية، وهي كلمة يستخدمها اليهود لئلّا يسيئوا إلى اسم الله المقدّس، أو ليتجنّبوا قوله. في الواقع، كان قيافا يسأل: «هل أنت المسيح، ابن الله؟»

رأينا في كلّ إنجيل مَرْقُس أنّه كلّما أدرك شخص ما أنّ يسوع هو المسيح، كان يقول له بشكل أساسيّ: «لا تُخبر أحدًا». عند جلسة الاستماع إليه، لم يعد هنالك من حاجة للتكتّم، لذلك عندما سأله قيافا إنْ كان هو المسيح، ابن الله، أجابه يسوع: «**أَنَا هُوَ. وَسَوْفَ تُبْصِرُونَ ٱبْنَ ٱلْإِنْسَانِ جَالِسًا عَنْ يَمِينِ ٱلْقُوَّةِ، وَآتِيًا فِي سَحَابِ ٱلسَّمَاءِ**» (الآية ٦٢). وقد استخدم المسيح أيضًا التورية حين قال «القوّة» بدلًا من أن يستخدم كلمة «الله».

ولكن، عندما قال يسوع: «وَسَوْفَ تُبْصِرُونَ ٱبْنَ ٱلْإِنْسَانِ جَالِسًا عَنْ يَمِينِ ٱلْقُوَّةِ، وَآتِيًا فِي سَحَابِ ٱلسَّمَاءِ»، قصد بقوله هذا أنْ يخطو خطوة إضافية في كلامه. كان يُشير بشكل واضح إلى دانيال ٧، وما قاله كان مألوفًا لدى جميع الموجودين في المحكمة. إنّه يصف كائنًا سماويًّا جاءَ إلى عرش قديم الأيّام. كان يسوع يقول بشكل أساسيّ: «نعم، أنا ابن الله. لقد جئت من السماء وسأعود إليها. أنا مُعيّن لأدين الأرضَ». أرادَهم أنْ يُدركوا أنّها لن تكون هذه المرّة الأخيرة التي سيلتقون به في إطار المحاكمة، بل سيعود بكلّ سلطان السماء، وسوف يدينهم. كان هذا ما يفترضه بوضوح.

عندئذ، فَقَدَ قيافا كلّ رباطة جأش أو ضبطٍ للنفس كان يتمتّع بهما. يكتب مَرْقُس: **فَمَزَّقَ رَئِيسُ ٱلْكَهَنَةِ ثِيَابَهُ وَقَالَ: مَا حَاجَتُنَا بَعْدُ إِلَى شُهُودٍ؟ قَدْ سَمِعْتُمُ ٱلتَّجَادِيفَ! مَا رَأْيُكُمْ؟** (الآيتان ٦٣-٦٤أ). في العهد القديم، حين كان يمزّق أحدهم ثيابَه، كان ذلك دلالة على حزن عميق أو غضب عميق. كان قيافا مُغتاظًا.

لماذا اعتبر قيافا ما قاله يسوع تجديفًا؟ لقد حدّد القانون اليهوديّ بدقّة هذه الخطية. لكي يكون الشخص مذنبًا بتُهمة التجديف، كان عليه أنْ يلعنَ اسم الله بشكل مباشر، أمّا يسوع فلم يفعل ذلك، بل بارك اسم الله. لكنّ القادة الدينيّين اليهود اعتقدوا أنّ قوله عن نفسه إنّه ابن الله هو تجديف. كانت هذه تهمة بلا أسس قانونيّة يهوديّة. ومع ذلك، **ٱلْجَمِيعُ حَكَمُوا عَلَيْهِ أَنَّهُ مُسْتَوْجِبُ ٱلْمَوْتَ** (الآية ٦٤ب).

يكتب مَرْقُس: **فَٱبْتَدَأَ قَوْمٌ يَبْصُقُونَ عَلَيْهِ، وَيُغَطُّونَ وَجْهَهُ وَيَلْكُمُونَهُ وَيَقُولُونَ لَهُ: تَنَبَّأْ. وَكَانَ ٱلْخُدَّامُ يَلْطِمُونَهُ** (الآية ٦٥). تذكّرنا هذه الأفعال بوصف إشعياء لعبد الله المتألّم: «ٱلسَّيِّدُ ٱلرَّبُّ فَتَحَ لِي أُذُنًا وَأَنَا لَمْ أُعَانِدْ. إِلَى ٱلْوَرَاءِ لَمْ أَرْتَدَّ. بَذَلْتُ ظَهْرِي لِلضَّارِبِينَ، وَخَدَّيَّ لِلنَّاتِفِينَ. وَجْهِي لَمْ أَسْتُرْ عَنِ ٱلْعَارِ وَٱلْبَصْقِ» (إشعياء ٥٠: ٥-٦). إنْ حاولَ أحدهم البصقَ في وجهك

فستقوم بحماية نفسك. أمّا يسوع، فقد قَبِل أن يُبصق عليه تحقيقًا لكلام إشعياء النبويّ لما سيحدث بعد قرون طويلة لعبد الربّ. ضُرِب وبُصِق عليه، وتحمّل كلّ ذلك.

إنكار بطرس ليسوع

في هذه الأثناء، يخبرنا مَرْقُس: **وَبَيْنَمَا كَانَ بُطْرُسُ فِي ٱلدَّارِ أَسْفَلَ جَاءَتْ إِحْدَى جَوَارِي رَئِيسِ ٱلْكَهَنَةِ** (الآية ٦٦). بينما كانت محاكمة يسوع تجري في الأعلى، كانت محاكمة أخرى تجري في الأسفل، في الفناء، ولم يكن رئيس المحكمة هناك من حكّام اليهود أو نبلاء المجتمع أو أعضاء السنهدرين، بل كانت جارية لا تتمتّع بأيّ مكانة اجتماعيّة أو قوّة أو سلطة.

جرت المحاكمة بسرعة: **فَلَمَّا رَأَتْ بُطْرُسَ يَسْتَدْفِئُ، نَظَرَتْ إِلَيْهِ وَقَالَتْ: وَأَنْتَ كُنْتَ مَعَ يَسُوعَ ٱلنَّاصِرِيِّ! فَأَنْكَرَ قَائِلًا: لَسْتُ أَدْرِي وَلَا أَفْهَمُ مَا تَقُولِينَ! وَخَرَجَ خَارِجًا إِلَى ٱلدِّهْلِيزِ، فَصَاحَ ٱلدِّيكُ** (الآيتان ٦٧-٦٨). حالما أنكرَ بطرس يسوع للمرّة الأولى، انتقل إلى مكان آخر ظنًّا منه يعتقد بأنه أكثر أمانًا، بعيدًا عن تلك الخادمة. في تلك اللحظة، صاحَ الديك. لا يذكر مَرْقُس ما إذا كان بطرس قد لاحظ الصياح الأوّل. ثمّ يُخبرنا مَرْقُس: **فَرَأَتْهُ ٱلْجَارِيَةُ أَيْضًا وَٱبْتَدَأَتْ تَقُولُ لِلْحَاضِرِينَ: إِنَّ هَذَا مِنْهُمْ! فَأَنْكَرَ أَيْضًا** (الآيتان ٦٩-٧٠أ). في هذه اللحظة، كان بطرس قد أنكر يسوع مرّتين، لكن لا يبدو أنّه تأثّر بذلك. يتابع مَرْقُس: **وَبَعْدَ قَلِيلٍ أَيْضًا قَالَ ٱلْحَاضِرُونَ لِبُطْرُسَ: حَقًّا أَنْتَ مِنْهُمْ، لِأَنَّكَ جَلِيلِيٌّ أَيْضًا وَلُغَتُكَ تُشْبِهُ لُغَتَهُمْ! فَٱبْتَدَأَ يَلْعَنُ وَيَحْلِفُ: إِنِّي لَا أَعْرِفُ هَذَا ٱلرَّجُلَ ٱلَّذِي تَقُولُونَ عَنْهُ** (الآيتان ٧٠ب-٧١). في المرّة الثالثة، ضمّن إنكارَه باللعن. ربّما نطق بكلمات بذيئة، أو ربّما، كما يقترح بعض المفسّرين، أقسم قائلًا: «أقسم باسم الله، إنّي لا أعرف الرجل». من المثير للسخرية أنّ يسوع أُدين بالتجديف، ولكن في الغالب،

كان الشخص الذي يُجدّف موجودًا في الفناء الخارجيّ– إنّه سمعان بطرس.

ثمّ نقرأ: **وَصَاحَ ٱلدِّيكُ ثَانِيَةً، فَتَذَكَّرَ بُطْرُسُ ٱلْقَوْلَ ٱلَّذِي قَالَهُ لَهُ يَسُوعُ: إِنَّكَ قَبْلَ أَنْ يَصِيحَ ٱلدِّيكُ مَرَّتَيْنِ، تُنْكِرُنِي ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. فَلَمَّا تَفَكَّرَ بِهِ بَكَى** (الآية ٧٢). لم يبكِ بطرس حتّى تذكّر ما كان قد قاله يسوع. وعندما بدأ يتفكّر بما فعله، بكى بكاء مُرًّا.

غالبًا ما لا يشعر الناس بالفعل بقوّة الشعور بالذنب عندما يكونون مُحاطين بأشخاص آخرين. إنّهم بالعادة يختبرون ثقل شعورهم بالذنب عندما يُلقون برؤوسهم على وسائدهم في الليل، بعد أن تُزال كلّ دفاعاتهم ويُصبحون وحدهم أمام الله. عندها يخترقُ الحقّ ضمائرَهم ويُحطِّم قلوبَهم.

كان هذا هو بطرس نفسه الذي قال إنّه مستعدّ أنْ يموتَ مع يسوع. قال يسوع بشكل أساسيّ: «لا، لن تموتَ معي. سوف تنكر أنّك تعرفني، وستفعل ذلك ثلاث مرّات». هذا بالضبط ما فعلَه بطرس. وهذا ما يفعله أغلب الناس عندما يحاولون اتّباع يسوع من بعيد ليبقوا في مكان آمن كمسيحيّين.

إن أدركَتْك لحظة الحقيقة هذه، تلك اللحظة التي يجب أنْ تقفَ فيها وتُعرّفَ عن نفسك كشخص ينتمي إلى يسوع، تذكّر أنّ يسوع قال: «لِأَنَّ مَنِ ٱسْتَحَى بِي وَبِكَلَامِي فِي هَذَا ٱلْجِيلِ ٱلْفَاسِقِ ٱلْخَاطِئِ، فَإِنَّ ٱبْنَ ٱلْإِنْسَانِ يَسْتَحِي بِهِ مَتَى جَاءَ بِمَجْدِ أَبِيهِ مَعَ ٱلْمَلَائِكَةِ ٱلْقِدِّيسِينَ» (مَرْقُس ٨: ٣٨). لا أستطيع أنْ أتخيّلَ أمرًا أكثر إحراجًا من الوقوف في السماء وأنْ أسمعَ يسوع يقول لي: «أنا أستحي من هذا الرجل،» وأنْ ينظرَ إليَّ يسوع ويقول: «عار عليك». صلاتي إلى الله أنْ تحفظَني وتحفظَك نعمةُ الله وقوّة الروح القدس من فعل ذلك ليسوع.

٥٤

يسوع وبيلاطس

مَرْقُس ١٥: ١-١٥

وَلِلْوَقْتِ فِي ٱلصَّبَاحِ تَشَاوَرَ رُؤَسَاءُ ٱلْكَهَنَةِ وَٱلشُّيُوخُ وَٱلْكَتَبَةُ وَٱلْمَجْمَعُ كُلُّهُ، فَأَوْثَقُوا يَسُوعَ وَمَضَوْا بِهِ وَأَسْلَمُوهُ إِلَى بِيلَاطُسَ. فَسَأَلَهُ بِيلَاطُسُ: أَنْتَ مَلِكُ ٱلْيَهُودِ؟ فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُ: أَنْتَ تَقُولُ. وَكَانَ رُؤَسَاءُ ٱلْكَهَنَةِ يَشْتَكُونَ عَلَيْهِ كَثِيرًا. فَسَأَلَهُ بِيلَاطُسُ أَيْضًا قَائِلًا: أَمَا تُجِيبُ بِشَيْءٍ؟ أُنْظُرْ كَمْ يَشْهَدُونَ عَلَيْكَ. فَلَمْ يُجِبْ يَسُوعُ أَيْضًا بِشَيْءٍ حَتَّى تَعَجَّبَ بِيلَاطُسُ. وَكَانَ يُطْلِقُ لَهُمْ فِي كُلِّ عِيدٍ أَسِيرًا وَاحِدًا، مَنْ طَلَبُوهُ. وَكَانَ ٱلْمُسَمَّى بَارَابَاسَ مُوثَقًا مَعَ رُفَقَائِهِ فِي ٱلْفِتْنَةِ، ٱلَّذِينَ فِي ٱلْفِتْنَةِ فَعَلُوا قَتْلًا. فَصَرَخَ ٱلْجَمْعُ وَٱبْتَدَأُوا يَطْلُبُونَ أَنْ يَفْعَلَ كَمَا كَانَ دَائِمًا يَفْعَلُ لَهُمْ. فَأَجَابَهُمْ بِيلَاطُسُ قَائِلًا: أَتُرِيدُونَ أَنْ أُطْلِقَ لَكُمْ مَلِكَ ٱلْيَهُودِ؟ لِأَنَّهُ عَرَفَ أَنَّ رُؤَسَاءَ ٱلْكَهَنَةِ كَانُوا قَدْ أَسْلَمُوهُ حَسَدًا. فَهَيَّجَ رُؤَسَاءُ ٱلْكَهَنَةِ ٱلْجَمْعَ لِكَيْ يُطْلِقَ لَهُمْ بِٱلْحَرِيِّ بَارَابَاسَ. فَأَجَابَ بِيلَاطُسُ أَيْضًا وَقَالَ لَهُمْ: فَمَاذَا تُرِيدُونَ أَنْ أَفْعَلَ بِٱلَّذِي تَدْعُونَهُ مَلِكَ ٱلْيَهُودِ؟ فَصَرَخُوا أَيْضًا: ٱصْلِبْهُ! فَقَالَ لَهُمْ بِيلَاطُسُ: وَأَيَّ شَرٍّ عَمِلَ؟ فَٱزْدَادُوا جِدًّا صُرَاخًا: ٱصْلِبْهُ!

فَبِيلَاطُسُ إِذْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ لِلْجَمْعِ مَا يُرْضِيهِمْ، أَطْلَقَ لَهُمْ بَارَابَاسَ، وَأَسْلَمَ يَسُوعَ، بَعْدَمَا جَلَدَهُ، لِيُصْلَبَ.

يعترف المسيحيّون منذ آلاف السنين بإيمانهم باستخدام قانون إيمان الرسل. قانون الإيمان هذا الذي نتوقّع أنْ يكونَ موجودًا في بيان إيمان مستقيم، يذكر أقانيم الثالوث الثلاثة. وهو يذكر شخصَين بالإضافة إلى ذلك. أوّلًا، يُخبرنا قانون الإيمان أنّ ربّنا يسوع «وُلِد من مريم العذراء». لا نستغرب ذكر العذراء، لأنّ حقيقة كونها والدة يسوع، تُشير إلى الحَمَل به بطريقة فائقة للطبيعة، كما وتُشير إلى إنسانيّته. ثانيًا، وهو الأمر الأكثر إثارة للدهشة، أنّ قانون الإيمان هذا يقول إنّ يسوع «تألّم في عهد بيلاطس البنطيّ». أتساءَل أحيانًا، أنّه عندما وضع المؤمنون القدامى قانون الإيمان هذا معًا، لماذا اختاروا إدراج اسم بيلاطس البنطيّ فيه. كان بإمكانهم أن يذكروا أنّ «يهوذا الإسخريوطي خان يسوع»، أو «أنكره سمعان بطرس»، أو «سُلّم إلى رئيس الكهنة قيافا». لماذا كرّسوا ذكرَ شخصيّة سياسيّة رومانيّة من الدرجة الثالثة، في أحد أهمّ قوانين إيمان الكنيسة؟

السبب البسيط طبعًا، وهو أنّ بيلاطس كان الحاكم الذي ترأس المحاكمة التي أدانت يسوع الإدانة الأخيرة وحكمت بصلبه. في هذا الدور، كما يتّفق مؤرّخو الكنيسة وعلماء اللاهوت، لم يكن يمارس دوره كحاكم رومانيّ فحسب، بل كـ persona pubblica، أي كـ «شخصيّة عامّة»، أصدرَ حُكمًا هامًّا من الناحية التاريخيّة، أكثر منه رأيًا شخصيًّا.

كعادته، يُقدّم لنا مَرْقُس مُلخّصًا موجزًا جدًّا عن المناقشة التي جرت بين يسوع وبيلاطس – هذا إنْ كان بالإمكان وصفها بأنّها مناقشة. ومع ذلك، هو مليء بالسخرية.

تسليم يسوع إلى بيلاطس

يكتب مَرْقُس: **وَلِلْوَقْتِ فِي ٱلصَّبَاحِ، تَشَاوَرَ رُؤَسَاءُ ٱلْكَهَنَةِ وَٱلشُّيُوخُ وَٱلْكَتَبَةُ وَٱلْمَجْمَعُ كُلُّهُ، فَأَوْثَقُوا يَسُوعَ وَمَضَوْا بِهِ وَأَسْلَمُوهُ إِلَى بِيلَاطُسَ** (الآية ١). كما رأينا، عندما أوقفت السلطات اليهوديّة يسوع، أخضعوه لمحاكمة في وقت متأخّر من الليل، لكنّ الشهود لم يتمكّنوا من التوفيق بين رواياتهم بشكل صحيح. أخيرًا، سألَ رئيس الكهنة يسوع: «هل أنتَ المسيح؟» فأجابه يسوع: «أنا هو» (١٤: ٦١-٦٢). ثمّ أدانه المجمع، واعتبر أنّ ادعاءَه بأنّه المسيح هو تجديف (١٤: ٦٤).

في الصباح، ناقش السنهدرين خطوتهم التالية. كان أمامهم أمر واحد ليقوموا به. كانت إسرائيل تحت السيطرة الرومانيّة، لهذا السبب، لم تقدر السلطات اليهوديّة إعدامَ أيّ إنسان. كان عليهم أنْ يأخذوا يسوع إلى بيلاطس، وأنْ يحاولوا إقناعَه بأنّ يسوع يستحقّ الموت. ربّما اجتمعوا لابتداع اتّهامات مدنيّة ستكون في نظر بيلاطس أقبح من تُهمة التجديف بحسب القوانين اليهوديّة.

ثمّ قيّدوا يسوع ومضَوْا به بعيدًا. لم يكن من داع لتقييده؛ فعندما أوقفوه، قال لهم: «كَأَنَّهُ عَلَى لِصٍّ خَرَجْتُمْ بِسُيُوفٍ وَعِصِيٍّ لِتَأْخُذُونِي» (١٤: ٤٨). لقد ذهب معهم بملء إرادته.

أمّا القادة الدينيّون اليهود، فقد أرادوا إذلال يسوع وتصويره كرجل خطير في نظر الحاكم. لهذا أخذوه إلى بيلاطس باكرًا في الصباح، في الوقت الذي كان بيلاطس معتادًا أنْ يستمع إلى مثل هذه الحالات.

كان من عادة الرومان تعيين حُكّام على الأراضي التي سيطرت عليها الفيالق الرومانيّة. كان بيلاطس الحاكم الخامس على اليهوديّة، وبقي في منصبه هذا أحد عشر عامًا، من عام ٢٦ إلى عام ٣٧ بعد الميلاد، وهي

أطول فترة لشخصٍ يخدم في هذا المنصب. لم تكن حاكميّة يهوذا منصبًا سياسيًّا مرغوبًا؛ فقد كانت من أدنى المرتبات في سلّم المناصب بالنسبة إلى مسؤول رومانيّ، لذا لم يكن البقاء في تلك القاعدة لمدّة أحد عشر عامًا علامةَ نجاحٍ بقدر ما كان علامة فشلٍ. انتهت ولاية بيلاطس أخيرًا، عندما طرده ونفاه الإمبراطور كاليجولا من الحُكم.

يخبرنا المؤرّخان القديمان فيلو ويوسيفوس، أنّ بيلاطس كان شخصًا غير مرن وعنيدًا ومتوحّشًا. خلال فترة ولايته في اليهوديّة، قمع عدّة تمرّدات أو احتجاجات يهوديّة بطريقة وحشيّة. كان يتعمّد أحيانًا استفزازهم. مثلًا، قام مرّة بدعوة فيالق رومانيّة لدخول أورشليم ومنطقة الهيكل رافعين أعلامًا تُبجّل قيصر روما، الأمر الذي كان يُعتبر كُفرًا بالنسبة إلى الشعب اليهوديّ. وفي مناسبة أخرى، قام بتشييد قناة مياه امتدّت على طول ثلاثة وعشرين ميلًا، لجرّ المياه إلى أورشليم. كان هذا خبرًا مُفرحًا، أمّا الخبر السيّئ فكان مصادرته أموالًا تعود إلى الهيكل من أجل تنفيذ أعمال القناة.

لاحظ أنّ مَرْقُس يقول إنّ اليهود «أسلموه» إلى بيلاطس. كان يسوع قد أخبر تلاميذه أنّه سيُسلّم إلى الأمم (١٠: ٣٣)، لكنّ العهد القديم كان قد تنبّأ عن هذا الخلاص منذ قرون طويلة. تنبّأ بأنّه سيُحكم على المُخلِّص ويُقتل خارج المحلّة. وكما كانت خطايا إسرائيل القديمة تُنقل بشكل رمزيّ إلى تيس الكفّارة، والذي كان يُرسل خارج المحلّة إلى البريّة، إلى الظلمة الخارجيّة (لاويين ١٦)، كان على المسيح أنْ يموتَ على يد الأمم خارج مدينة الله، وهذا يرمز إلى قطعه عن حضور الله وشعب الله. وهكذا، في أحد المزامير الأكثر مسيانيّة، يصرخ كاتب المزمور: «لِأَنَّهُ قَدْ أَحَاطَتْ بِي كِلَابٌ. جَمَاعَةٌ مِنَ ٱلْأَشْرَارِ ٱكْتَنَفَتْنِي» (مزمور ٢٢: ١٦)، وقد تحقّقت هذه النبوءَة عندما سُلِّم يسوع إلى بيلاطس.

ملك الملوك

عندما اقتيد يسوع إلى بيلاطس، تلا ذلك نقاش بينهما حول سلسلة من المواضيع. ذُكرت بعضها في بعض الأناجيل، والبعض الآخر في أناجيل أخرى، وتختلف الروايات بحسب التفاصيل التي ذكرها الكتّاب. لذلك، سوف أتأمّل في الأناجيل الأربعة، وليس فقط في مَرْقُس، لمعالجة أجزاء ذلك النقاش. أوّلًا، تحدّثا عمّا إذا كان يسوع ملكًا. ثانيًا، ناقشا طبيعة الحقيقة. ثالثًا، تحدّثا عمّا إذا كان يسوع مُذنبًا أم بريئًا. رابعًا، دار نقاش حول إمكانيّة الحصول على عفو.

أوّلًا، بالنسبة إلى كون يسوع ملكًا، كتب مَرْقُس: **فَسَأَلَهُ بِيلَاطُسُ: أَنْتَ مَلِكُ ٱلْيَهُودِ؟ فَأَجَابَ وَقَالَ لَهُ: أَنْتَ تَقُولُ. وَكَانَ رُؤَسَاءُ ٱلْكَهَنَةِ يَشْتَكُونَ عَلَيْهِ كَثِيرًا. فَسَأَلَهُ بِيلَاطُسُ أَيْضًا قَائِلًا: أَمَا تُجِيبُ بِشَيْءٍ؟ أُنْظُرْ كَمْ يَشْهَدُونَ عَلَيْكَ. فَلَمْ يُجِبْ يَسُوعُ أَيْضًا بِشَيْءٍ حَتَّى تَعَجَّبَ بِيلَاطُسُ** (الآيات ٢–٥). يُخبرنا لوقا أنّ السلطات اليهوديّة وجّهت هذا الاتّهام عندما أحضروا يسوع إلى بيلاطس: «إِنَّنَا وَجَدْنَا هَذَا يُفْسِدُ ٱلْأُمَّةَ، وَيَمْنَعُ أَنْ تُعْطَى جِزْيَةٌ لِقَيْصَرَ، قَائِلًا: إِنَّهُ هُوَ مَسِيحٌ مَلِكٌ» (٢٣: ٢). كان واضحًا أنّ هذه الاتّهامات المزيّفة صُمّمت لتصوير يسوع كشخص ثائر لإثارة غضب بيلاطس. فسأله بيلاطس: «هل هذا صحيح؟ هل أنتَ ملك اليهود؟»

كانت إجابة يسوع في رواية مَرْقُس المقتضبة بسيطة جدًا: «أنتَ تقول». أعتقدُ أنّ كلّ ترجمات هذه العبارة لا تعبّر عن قوّة ردّ يسوع. عندما سأل بيلاطس إنْ كان ملكًا، أجابَه بشكل أساسيّ: «أنتَ قلتها!» لم يكن يقصد: «حسنًا، أنت تقول إنّني ملك، ولست أنا من قال ذلك». لا، بل كان يؤكّد بقوّة أنّه ملك.

عندما نقرأ رواية يوحنّا، نجده يستخدم هذه العبارة: «مَمْلَكَتِي لَيْسَتْ مِنْ

هَذَا ٱلْعَالَمِ. لَوْ كَانَتْ مَمْلَكَتِي مِنْ هَذَا ٱلْعَالَمِ، لَكَانَ خُدَّامِي يُجَاهِدُونَ لِكَيْ لَا أُسَلَّمَ إِلَى ٱلْيَهُودِ. وَلَكِنِ ٱلْآنَ لَيْسَتْ مَمْلَكَتِي مِنْ هُنَا» (١٨: ٣٦). كان يسوع يقول لبيلاطس: «لا داعي أنْ تخافَ منّي فيما يختصّ بسلطتك السياسيّة. مملكتي ليست من هذا العالم. إنّها مملكة تفوق وتتجاوز هذا العالم». كان بإمكانه أنْ يقولَ له: «مملكتي أعلى من الإمبراطوريّة الرومانيّة. مملكتي هي المملكة المطلقة لأنّي ملك الملوك وربّ الأرباب. وذات يوم، سيقف كلّ إمبراطور وملك وأمير وحاكم أمامي للدينونة».

بالطبع، هو لم يقل كلّ ذلك. في الواقع، يخبرنا مَرْقُس أنّه لم يقل شيئًا على الإطلاق، ورفض أنْ يردّ على اتّهامات اليهود. كان يشعر بسلام عميق في وجه هذه الاتّهامات لدرجة أن بيلاطس اندهش منه. لم يسبق له أنْ رأى سلوكًا مثل هذا عند أيّ سجين.

الحقيقة المتجسّدة

بحسب يوحنّا، بعد أنْ قالَ يسوع: «مملكتي ليست من هذا العالم،» أجابَه بيلاطس: «أفأنت إذًا ملك؟» أجابه يسوع: «أنتَ تقول إنّ ملك»، ولكن بعد ذلك قدّم موضوعًا آخر: «لِهَذَا قَدْ وُلِدْتُ أَنَا، وَلِهَذَا قَدْ أَتَيْتُ إِلَى ٱلْعَالَمِ لِأَشْهَدَ لِلْحَقِّ. كُلُّ مَنْ هُوَ مِنَ ٱلْحَقِّ يَسْمَعُ صَوْتِي» (١٨: ٣٧). المثير للاهتمام هو أنّ يسوع غيّر التركيز في المناقشة بهذه الطريقة. قال بشكل أساسيّ لبيلاطس: «أتريد أنْ تعرف حقًّا ما أنا؟ هل تريد أنْ تعرفَ ما هي مهمّتي؟ هل تريد أنْ تعرفَ لماذا جئت إلى العالم؟ سأقول لك لماذا – لقد جئت لأشهدَ للحقّ».

شرح يسوع رسالَته خلال خدمته بطرق متنوّعة. مثلًا، قال: «وَأَمَّا أَنَا فَقَدْ أَتَيْتُ لِتَكُونَ لَهُمْ حَيَاةٌ وَلِيَكُونَ لَهُمْ أَفْضَلُ» (يوحنّا ١٠: ١٠ب). وفي وقت سابق في مَرْقُس، رأينا أنّ يسوع قال: «لِأَنَّ ٱبْنَ ٱلْإِنْسَانِ أَيْضًا لَمْ يَأْتِ

لِيُخْدَمَ بَلْ لِيَخْدِمَ وَلِيَبْذِلَ نَفْسَهُ فِدْيَةً عَنْ كَثِيرِينَ» (١٠: ٤٥). ولكن، عندما كان يحاكم، قال: «قَدْ أَتَيْتُ إِلَى ٱلْعَالَمِ لِأَشْهَدَ لِلْحَقِّ».

نحن بأمسّ الحاجة أنْ نسمعَ شهادة يسوع عن الحقّ. لا أعرف أيّ وقت آخر في التاريخ المسيحيّ، كانت فيه الكنيسة أقلّ اهتمامًا بالحقّ ممّا هي عليه اليوم. موقفهم تجاه العقيدة واللاهوت موقف سلبيّ. يقول بعضهم: العقيدة تُفرّق. المسيحيّة هي علاقة شخصيّة». إلّا أنّنا لا نقدر أنْ نقولَ عن علاقة شخصيّة إنّها جيّدة بدون فهمٍ للحقيقة. العهد القديم هو تاريخ يُسجّل الحربَ بين الناطقين بالحقّ والأنبياء الكذبة الذين كذبوا. مكتوب أنّه عندما كانت اليد العليا للأنبياء الكذبة في إسرائيل، «ٱرْتَدَّ ٱلْحَقُّ إِلَى ٱلْوَرَاءِ» (إشعياء ٥٩: ١٤). وهذا ما نحن عليه اليوم، إذ يبدو أنّ لا أحد تقريبًا يريد معرفة الحقّ.

عندما قال يسوع: «قَدْ أَتَيْتُ إِلَى ٱلْعَالَمِ لِأَشْهَدَ لِلْحَقِّ،» سأله بيلاطس: «مَا هُوَ ٱلْحَقُّ» (يوحنّا ١٨: ٣٨). لا يصفُ لنا يوحنّا تعابيرَ وجهِ بيلاطس، أو نبرةَ صوته عندما طرح عليه هذا السؤال. ولكن، بما أنّنا نعرف مدى شخصيّة بيلاطس الساخرة، وحقيقة كونه سياسيًّا فاسدًا، ربّما كان آخر شخص على الأرض مُهتمّ بمعرفة الحقّ. إذن، هل كان سؤاله ينمّ عن سُخرية، أم عن إرهاق، أم عن إحباط؟ في الواقع، أعتقد أنّه في تلك اللحظة الواحدة في حياته، بعد أنْ تفاعل مع هذا الرجل الاستثنائيّ، كان بيلاطس بالفعل يشعر بالفضول لمعرفة الحقّ. ومن السخرية بمكان، أنّ الحقّ المتجسّد كان واقفًا هناك أمامه مباشرة.

إنسان بلا علّة

يُخبرنا لوقا أنّه بعد أنْ سمعَ بيلاطس كلّ الاتّهامات الموجّهة من اليهود، وبعد أنِ استجوبَ يسوع بنفسه، توصّل إلى حكم: «إِنِّي لَا أَجِدُ عِلَّةً

فِي هَذَا ٱلْإِنْسَانِ» (٢٣: ٤). ويسجّل متّى بالمثل كلامًا مُثيرًا للاهتمام: «وَإِذْ كَانَ جَالِسًا عَلَى كُرْسِيِّ ٱلْوِلَايَةِ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِ ٱمْرَأَتُهُ قَائِلَةً: إِيَّاكَ وَذَلِكَ ٱلْبَارَّ، لِأَنِّي تَأَلَّمْتُ ٱلْيَوْمَ كَثِيرًا فِي حُلْمٍ مِنْ أَجْلِهِ» (٢٧: ١٩). حتّى بعد خضوعه لرغبة الجموع في صلب يسوع، بقي بيلاطس يشعر أنّ يسوع بريء. يُخبرنا متّى: «أَخَذَ مَاءً وَغَسَلَ يَدَيْهِ قُدَّامَ ٱلْجَمْعِ قَائِلًا: إِنِّي بَرِيءٌ مِنْ دَمِ هَذَا ٱلْبَارِّ» (متّى ٢٧: ٢٤ب). لم ينطق بيلاطس بالصدق أبدًا كلّ حياته أكثر من هذه المرّة حين قال عن يسوع: « إِنِّي لَا أَجِدُ عِلَّةً فِي هَذَا ٱلْإِنْسَانِ».

لماذا لم يقدر بيلاطس أنْ يجدَ علّة في يسوع؟ هل حدث هذا لأنّه لم يُدقّق جيّدًا بما فيه الكفاية؟ لا! لم يكن هنالك فعلًا أيّ علّة فيه ليجدها. لا أحد يستطيع أنْ يجدَ أمرًا غير موجود، ولم يكن في يسوع علّة ولا عيبًا.

ابن الآب

ثمّ يكتب مَرْقُس: **وَكَانَ يُطْلِقُ لَهُمْ فِي كُلِّ عِيدٍ أَسِيرًا وَاحِدًا، مَنْ طَلَبُوهُ. وَكَانَ ٱلْمُسَمَّى بَارَابَاسَ مُوثَقًا مَعَ رُفَقَائِهِ فِي ٱلْفِتْنَةِ، ٱلَّذِينَ فِي ٱلْفِتْنَةِ فَعَلُوا قَتْلًا. فَصَرَخَ ٱلْجَمْعُ وَٱبْتَدَأُوا يَطْلُبُونَ أَنْ يَفْعَلَ كَمَا كَانَ دَائِمًا يَفْعَلُ لَهُمْ. فَأَجَابَهُمْ بِيلَاطُسُ قَائِلًا: أَتُرِيدُونَ أَنْ أُطْلِقَ لَكُمْ مَلِكَ ٱلْيَهُودِ؟ لِأَنَّهُ عَرَفَ أَنَّ رُؤَسَاءَ ٱلْكَهَنَةِ كَانُوا قَدْ أَسْلَمُوهُ حَسَدًا** (الآيات ٦–١٠). كان بيلاطس يتبع تقليدًا غريبًا، فخلال عيد الفصح، كان يمنح عفوًا كاملًا لسجين طالبَ اليهود بإطلاق سراحه. لأنّه حَكَمَ أنّ يسوع كان بريئًا، ولأنّه علم أنّ القادة اليهود قد أحضروا يسوع إليه بسبب حَسَدِهم من شُهرة وشعبيّة يسوع، افترض أنّ الجمعَ سيدعم يسوع ويكون مُنفتحًا مع اقتراحه بمنحه يسوع عفوًا.

إلّا أنّ بيلاطس أغفلَ قدرة القادة اليهود على التلاعب بالشعب. يقول مَرْقُس: **فَهَيَّجَ رُؤَسَاءُ ٱلْكَهَنَةِ ٱلْجَمْعَ لِكَيْ يُطْلِقَ لَهُمْ بِٱلْحَرِيِّ بَارَابَاسَ** (الآية ١١). ليس واضحًا كيف استطاع الكهنة فعل ذلك. هل قاموا بتهديد الناس؟

هل وعدوهم بشيء ما؟ بأيّة حال، نجحوا في تحفيز الناس بأنْ يرفضوا عرض بيلاطس بالعفو عن يسوع، والمطالبة بإطلاق سراح باراباس بدلًا منه.

هذا الجزء من الرواية مليء بالمفارقات الساخرة. أوّلًا، يُشير العهد الجديد اليوناني إلى أنّ باراباس كان الاسم الأخير لهذا الرجل؛ في الواقع، كان اسمه الأوّل يسوع. لذلك، كان الخيار الذي قدّمه بيلاطس للجمع هو يسوع باراباس، أو يسوع الناصريّ. ثانيًا، اسم باراباس نفسه مثير للسخرية. عندما يجعلنا الروح القدس قادرين من مخاطبة الله كأب، نصرخ: «يَا أَبَا ٱلْآبُ» (رومية ٨: ١٥)، وهذا تكرار بشكل أساسيّ، على الرغم من أنّ كلمة «أبَا» تحمل قدرًا أكبر من التحبّب أو التودّد. في الأسماء اليهوديّة، كلمة «بار» تعني «ابن». لذلك، كان يسوع يُدعى يسوع بار يوسف. وبالطريقة نفسها، كان الاسم باراباس يعني «ابن الأب». لذلك عرض بيلاطس للشعب أن يختاروا إمّا يسوع ابن الأب، أو يسوع الناصري الذي كان الابن الحقيقي للآب.

يُقال إنّ باراباس كان شخصًا ثوريًّا كان قد «ارتكب جريمة خلال ثورته». يبدو أنّه كان ثائرًا مُسلّحًا ضدّ روما في انتفاضة لم يذكر اسمها. وهنا أيضًا نجد مفارقةً أخرى: لقد عرضَ بيلاطس على الجمع رجلًا أراد أنْ يمنحَهم الحريّة السياسيّة، ورجلًا قادرًا أنْ يمنحَهم الحريّة الروحيّة.

ربما كان الشعب يعتبر باراباس بطلًا لمعارضتِه لروما (وهذا ما كانوا يتأمّلونه من يسوع). ربّما كان الكهنة قادرين على بذل ما يكفي من نفوذهم على الجمع بمعنى من المعاني. ولكن، بأيّة حال من الأحوال، أحبط الجمع خطّة بيلاطس لإطلاق سراح يسوع وطالبوا أنْ يمنحَ عفوه لباراباس. لم يريدوا الابن الحقيقيّ للآب. لقد أرادوا يسوعًا آخرَ، يسوعًا يمكنهم التعايش معه ولا يجعلهم يشعرون بالذنب، أرادوا يسوعًا من هذا العالم. لقد صرخ

العالم منذ ألفي عام مُطالبًا بيسوع مختلف يُشبهنا.

يكتب مَرْقُس: **فَأجَابَ بِيلَاطُسُ أَيْضًا وَقَالَ لَهُمْ: فَمَاذَا تُرِيدُونَ أَنْ أَفْعَلَ بِٱلَّذِي تَدْعُونَـهُ مَلِكَ ٱلْيَهُودِ؟ فَصَرَخُوا أَيْضًا: ٱصْلِبْهُ. فَقَالَ لَهُمْ بِيلَاطُسُ: وَأَيَّ شَرٍّ عَمِلَ؟ فَٱزْدَادُوا جِدًّا صُرَاخًا: ٱصْلِبْـهُ. فَبِيلَاطُسُ إِذْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ لِلْجَمْعِ مَا يُرْضِيهِمْ، أَطْلَقَ لَهُمْ بَارَابَاسَ، وَأَسْلَمَ يَسُوعَ، بَعْدَمَا جَلَدَهُ، لِيُصْلَبَ** (الآيات ١٢–١٥). بعد أنْ أدركَ بيلاطس أنّ رغبةَ الجموع كانت في إطلاق سراح باراباس، طلب من الجمع بحماقة، وبطريقة يتعذّر علينا فهمها، أنْ يدينوا يسوع. ربّما مارس الكهنة نفوذهم هنا مرّة أخرى، لأنّ الجمعَ صرخ مطالبًا بصلب يسوع. حاول بيلاطس أنْ يُقنعهَم، لكنّ صراخَهم علا عليه. في النهاية، «إِذْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَعْمَلَ لِلْجَمْعِ مَا يُرْضِيهِمْ،» أعلن بيلاطس حكم الإعدام، حين أطلق سراح باراباس، ثمّ أمر بجَلْدِ يسوع وأسلمه ليُصلب.

فَشِل بيلاطس في قيادته عندما رضخَ للقيام بأمر صحيح من الناحية السياسيّة. كان هذا بمثابة تحريف للعدالة ومن أحد أبشع الجرائم في تاريخ البشريّة. ولكن، حتّى في تلك اللحظة بالذات، كان بيلاطس كالطين بين يدَي الله، وأداة لتحقيق الفداء الذي عيّنه الله منذ الأزل.

٥٥

إساءَة وسُخرية وعذاب

مرقس ١٥: ١٦-٣٣

فَمَضَى بِهِ ٱلْعَسْكَرُ إِلَى دَاخِلِ ٱلدَّارِ، ٱلَّتِي هِيَ دَارُ ٱلْوِلَايَةِ، وَجَمَعُوا كُلَّ ٱلْكَتِيبَةِ. وَأَلْبَسُوهُ أُرْجُوَانًا، وَضَفَرُوا إِكْلِيلًا مِنْ شَوْكٍ وَوَضَعُوهُ عَلَيْهِ، وَٱبْتَدَأُوا يُسَلِّمُونَ عَلَيْهِ قَائِلِينَ: ٱلسَّلَامُ يَا مَلِكَ ٱلْيَهُودِ. وَكَانُوا يَضْرِبُونَهُ عَلَى رَأْسِهِ بِقَصَبَةٍ، وَيَبْصُقُونَ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَسْجُدُونَ لَهُ جَاثِينَ عَلَى رُكَبِهِمْ. وَبَعْدَمَا ٱسْتَهْزَأُوا بِهِ، نَزَعُوا عَنْهُ ٱلْأُرْجُوانَ وَأَلْبَسُوهُ ثِيَابَهُ، ثُمَّ خَرَجُوا بِهِ لِيَصْلِبُوهُ. فَسَخَّرُوا رَجُلًا مُجْتَازًا كَانَ آتِيًا مِنَ ٱلْحَقْلِ، وَهُوَ سِمْعَانُ ٱلْقَيْرَوَانِيُّ أَبُو أَلَكْسَنْدَرُسَ وَرُوفُسَ، لِيَحْمِلَ صَلِيبَهُ. وَجَاءُوا بِهِ إِلَى مَوْضِعِ جُلْجُثَةَ ٱلَّذِي تَفْسِيرُهُ مَوْضِعُ جُمْجُمَةٍ. وَأَعْطَوْهُ خَمْرًا مَمْزُوجَةً بِمُرٍّ لِيَشْرَبَ، فَلَمْ يَقْبَلْ. وَلَمَّا صَلَبُوهُ ٱقْتَسَمُوا ثِيَابَهُ مُقْتَرِعِينَ عَلَيْهَا: مَاذَا يَأْخُذُ كُلُّ وَاحِدٍ؟ وَكَانَتِ ٱلسَّاعَةُ ٱلثَّالِثَةُ فَصَلَبُوهُ. وَكَانَ عُنْوَانُ عِلَّتِهِ مَكْتُوبًا: مَلِكُ ٱلْيَهُودِ. وَصَلَبُوا مَعَهُ لِصَّيْنِ، وَاحِدًا عَنْ يَمِينِهِ وَآخَرَ عَنْ يَسَارِهِ. فَتَمَّ ٱلْكِتَابُ ٱلْقَائِلُ: وَأُحْصِيَ مَعَ أَثَمَةٍ. وَكَانَ ٱلْمُجْتَازُونَ يُجَدِّفُونَ عَلَيْهِ، وَهُمْ يَهُزُّونَ رُؤُوسَهُمْ قَائِلِينَ: آهِ يَا نَاقِضَ ٱلْهَيْكَلِ وَبَانِيَهُ فِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ! خَلِّصْ

نَفْسَكَ وَٱنْزِلْ عَنِ ٱلصَّلِيبِ. وَكَذَلِكَ رُؤَسَاءُ ٱلْكَهَنَةِ وَهُمْ مُسْتَهْزِئُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ مَعَ ٱلْكَتَبَةِ، قَالُوا: خَلَّصَ آخَرِينَ وَأَمَّا نَفْسُهُ فَمَا يَقْدِرُ أَنْ يُخَلِّصَهَا! لِيَنْزِلِ ٱلْآنَ ٱلْمَسِيحُ مَلِكُ إِسْرَائِيلَ عَنِ ٱلصَّلِيبِ، لِنَرَى وَنُؤْمِنَ! وَٱللَّذَانِ صُلِبَا مَعَهُ كَانَا يُعَيِّرَانِهِ. وَلَمَّا كَانَتِ ٱلسَّاعَةُ ٱلسَّادِسَةُ، كَانَتْ ظُلْمَةٌ عَلَى ٱلْأَرْضِ كُلِّهَا إِلَى ٱلسَّاعَةِ ٱلتَّاسِعَةِ.

فورَ قبولِ بيلاطس طلبَ الحشود وتسليمه يسوع ليُصلب، ساءَت الأمور بشكل سريع جدًّا، إذْ تعرّض يسوع للإساءَة والسُخرية بينما كان أعداؤه يشمتون به.

تنبأ إشعياء مُلمّحًا عن هذه الأشياء عندما كتب عن العبد المتألّم:

مُحْتَقَرٌ وَمَخْذُولٌ مِنَ ٱلنَّاسِ، رَجُلُ أَوْجَاعٍ وَمُخْتَبِرُ ٱلْحَزَنِ، وَكَمُسَتَّرٍ عَنْهُ وُجُوهُنَا، مُحْتَقَرٌ فَلَمْ نَعْتَدَّ بِهِ. لَكِنَّ أَحْزَانَنَا حَمَلَهَا، وَأَوْجَاعَنَا تَحَمَّلَهَا. وَنَحْنُ حَسِبْنَاهُ مُصَابًا مَضْرُوبًا مِنَ ٱللهِ وَمَذْلُولًا. وَهُوَ مَجْرُوحٌ لِأَجْلِ مَعَاصِينَا، مَسْحُوقٌ لِأَجْلِ آثَامِنَا. تَأْدِيبُ سَلَامِنَا عَلَيْهِ، وَبِحُبُرِهِ شُفِينَا. كُلُّنَا كَغَنَمٍ ضَلَلْنَا. مِلْنَا كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى طَرِيقِهِ، وَٱلرَّبُّ وَضَعَ عَلَيْهِ إِثْمَ جَمِيعِنَا. ظُلِمَ أَمَّا هُوَ فَتَذَلَّلَ وَلَمْ يَفْتَحْ فَاهُ. كَشَاةٍ تُسَاقُ إِلَى ٱلذَّبْحِ، وَكَنَعْجَةٍ صَامِتَةٍ أَمَامَ جَازِّيهَا فَلَمْ يَفْتَحْ فَاهُ. (٥٣: ٣–٧)

رغم هذه النبوءَة، فلا يزال يصعب علينا قراءَة سوء المعاملة التي تعرّض إليها ربّ المجد. كان ينبغي عليهم تكريمه وعبادته، لكنّهم أساءَوا إليه وسخروا منه. لكنّ إشعياء يوضّح أنّ هذه الآلام لم تكن بلا هدف، فقد اجتاز المسيح في هذه الآلام ليحملَ أحزانَنا. هو مجروح لأجل معاصينا، ومسحوق لأجل آثامنا، وبواسطة آلامه وموته كفّر عن خطايا شعبه.

في هذا الفصل، سأتناول قصّة صلب يسوع في مَرقُس حتّى موته. وفي الفصل التالي، سأتأمّل في موتَه ودفنه، وأتطرّق إلى أهميّة الصلب.

جَلْدٌ وسُخرية

رأينا في الفصل السابق أنّ بيلاطس البنطيّ قام بجَلْد يسوع قبل أنْ يُسلّمَه إلى الجنود ليُصلب. كان الجَلْد شيئًا مروّعًا، فقد كان يُربَط السجين بعمود وظهره مكشوف، ثم يبدأ أحد الحرّاس بجَلْدِ السجين بواسطة سَوْط من الجِلْد المجدول المُطعّم بقِطَع من العظام والمعدن. كان جَلْدُ السجين يُمزّق حرفيًّا أجزاءَ من الجِلْدِ من جَسد السجين. كان القصد من الجَلْد إذلالَ السجين وإضعافه أيضًا حتّى لا يطول صلبه طويلًا. في كثير من الحالات، لم يكن السجين المحكوم بالصلب قادرًا على الصمود حيًّا بعد جَلْده. هذا ما تحمّله يسوع قبل أنْ يُسلّم إلى الجنود.

لم يكتفِ الجنود ببساطة بتنفيذ الصلب. يُخبرنا مَرْقُس: **مَضَى بِهِ ٱلْعَسْكَرُ إِلَى دَاخِلِ ٱلدَّارِ، ٱلَّتِي هِيَ دَارُ ٱلْوِلَايَةِ، وَجَمَعُوا كُلَّ ٱلْكَتِيبَةِ. وَأَلْبَسُوهُ أُرْجُوَانًا، وَضَفَرُوا إِكْلِيلًا مِنْ شَوْكٍ وَوَضَعُوهُ عَلَيْهِ، وَٱبْتَدَأُوا يُسَلِّمُونَ عَلَيْهِ قَائِلِينَ: ٱلسَّلَامُ يَا مَلِكَ ٱلْيَهُودِ! وَكَانُوا يَضْرِبُونَهُ عَلَى رَأْسِهِ بِقَصَبَةٍ، وَيَبْصُقُونَ عَلَيْهِ، ثُمَّ يَسْجُدُونَ لَهُ جَاثِينَ عَلَى رُكَبِهِمْ. وَبَعْدَمَا ٱسْتَهْزَأُوا بِهِ، نَزَعُوا عَنْهُ ٱلْأُرْجُوانَ وَأَلْبَسُوهُ ثِيَابَهُ، ثُمَّ خَرَجُوا بِهِ لِيَصْلِبُوهُ** (الآيات ١٦–٢٠).

اقتادَ الجنودُ يسوع إلى دار الولاية، التي ربّما كانت جزءًا من قصر هيرودس، واستدعوا كلّ الجنود المتمركزين فيها، وكانوا يُشكّلون عُشر كتيبة رومانيّة، أو ستمائة جنديّ. لذلك، لم يكن مصدرُ الاستهزاء وسوء المعاملة اللذَيْن تحمّلهما يسوع مجموعةً صغيرة، بل حشدًا كبيرًا من الناس.

أَلبَسَ الجنودُ يسوع ثوبًا أرجوانيًّا، وهو اللون المُخصّص لملابس الملوك؛ كانوا يسخرون منه لأنّه ادّعى أنّه مَلِك. كما صنعوا له تاجًا مؤقّتًا من الشوك من نبات يحتوي على أشواك حادّة جدًّا، وغرزوه في رأسه. ثمّ بدأوا يحيّونه بطريقة ساخرة، كما كان يتمّ إلقاء التحيّة على الإمبراطور بهذه الكلمات: «السلام يا قيصر!» سلّم الجنود على يسوع قائلين: «السلام يا ملك اليهود». بعد ذلك، ضربوه على رأسه بقصَبَة، وبصقوا عليه، وجثَوا على رُكَبهم وتظاهروا بالسجود له. أخيرًا، ضاقوا ذرعًا من هذا اللهو ثمّ خرجوا به ليصلبوه.

يُقدّم لنا مَرْقُس تفصيلًا مثيرًا للاهتمام: **فَسَخَّرُوا رَجُلًا مُجْتَازًا كَانَ آتِيًا مِنَ ٱلْحَقْلِ، وَهُوَ سِمْعَانُ ٱلْقَيْرَوَانِيُّ أَبُو أَلَكْسَنْدَرُسَ وَرُوفُسَ، لِيَحْمِلَ صَلِيبَهُ** (الآية ٢١). صادفَ أنّ سمعان القيروانيّ كان مارًّا من هناك، فأرغمه الجنود على حمل صليب يسوع. كان السجين المحكوم عليه بالصلب يُجبر بالعادة على حمل صليبه إلى مكان الإعدام. في الواقع، لم يكن المُدان يحمل عارضتَي الصليب، بل كان يحمل فقط العارضة الأفقيّة التي كان يتمّ تثبيتها لاحقًا على العارضة العموديّة في موقع الصلب. في جميع الأحوال، من الواضح أنّ يسوع أصبح ضعيفًا جدًّا بسبب الجَلد الذي تعرّض له، لدرجة أنّه لم يكن قادرًا على حمل العارضة بنفسه، لذلك طلبَ الجنود من سمعان أن يساعده في ذلك. إلّا أنّهم لم يطلبوا منه المساعدة، بل كما يخبرنا مَرْقُس، «سخّروه» للقيام بذلك. والكلمة التي استخدمها مَرْقُس كانت تُستخدَم لإلزام الحيوانات لتسير إلى الذبح. ومن السخرية بمكان، أنّ يسوع طلب من تلاميذه أن يحملوا صليبهم ويتبعوه (٨: ٣٤)، وكان على سمعان أنْ يفعلَ ذلك بكلّ ما للكلمة من معنى.

عرّف مَرْقُس أيضًا سمعان بأنّه والد روفوس. أرسلَ بولس تحيّاته إلى روفوس في الكنيسة في روما (رومية ١٦: ١٣)، ويُظَنّ أنّها كُتبت في

مُنتصف الخمسينيّات من القرن الأوّل. يتّفق العلماء إلى حدّ بعيد على أنّ مَرْقُس ذَكَرَ روفوس لأنّه كان يكتب للمسيحيّين في روما، الذين كانوا يعرفون روفوس ووالدَه سمعان القيروانيّ.

صلبُ الملك

يتابع مَرْقُس قائلًا: **وَجَاءُوا بِهِ إِلَى مَوْضِعِ جُلْجُثَةَ ٱلَّذِي تَفْسِيرُهُ مَوْضِعُ جُمْجُمَةٍ** (الآية ٢٢). الموقع الدقيق للجلجثة غير معروف، لكنّه لم يكنْ بعيدًا جدًّا عن أسوار أورشليم. كما أنّ سبب تسميته بـ«موضع الجمجمة» غير واضح؛ اقترح البعض أنّه كان على تلّ صخريّ يشبه الجمجمة. في الجلجثة، استعدادًا للصلب، **أَعْطَوْهُ خَمْرًا مَمْزُوجَةً بِمُرٍّ لِيَشْرَبَ، فَلَمْ يَقْبَلْ** (الآية ٢٣). كان مزيج الخمر والمرّ مُخدّرًا يُعطى للسجناء المُدانين للتخفيف من شعورهم بالألم الذي كانوا على وشك تحمّله. كان هذا أحد المظاهر الإنسانيّة القليلة جدًّا التي سمح بها الرومان. لكنّ يسوع لم يشربها، بل تحمّل بملء إرادته كلّ آلام الصلب. ويُخبرنا مَرْقُس أيضًا: **ٱقْتَسَمُوا ثِيَابَهُ مُقْتَرِعِينَ عَلَيْهَا: مَاذَا يَأْخُذُ كُلُّ وَاحِدٍ** (الآية ٢٤). ويوجد نبوءة عن هذا في مزمور ٢٢: ١٨.

انتهت أخيرًا جميع التحضيرات. يقول مَرْقُس بكلّ بساطة: **وَكَانَتِ ٱلسَّاعَةُ ٱلثَّالِثَةُ فَصَلَبُوهُ** (الآية ٢٥). لا يُقدّم لنا مَرْقُس أيّ تفاصيل إضافيّة عن هذا العمل الشنيع بحدّ ذاته، ولكنّه يُشير ببساطة إلى أنّه حدث في الساعة الثالثة، أي عند الساعة التاسعة صباحًا. ثمّ سُمّر ربّنا على الصليب ودخل في مستوى جديد من الآلام من أجل شعبه، بعد أنْ كان جسمه واهنًا بسبب تعرّضه لجَلْد رهيب.

كتب مَرْقُس: **وَكَانَ عُنْوَانُ عِلَّتِهِ مَكْتُوبًا: مَلِكُ ٱلْيَهُودِ** (الآية ٢٦). كان من عادة الرومان عندما يُصلَب شخص ما أنْ يُعلّقوا التهمة الموجّهة

للشخص المُدان على العارضة العموديّة للصليب. نقرأ في إنجيل يوحنّا أنّ بيلاطس نفسه هو الذي أرسل هذا النقش، وقد كُتبَ بالعبريّة واليونانيّة واللاتينيّة ليتمكّن أكبر عدد ممكن من الناس قراءَته (١٩: ١٩–٢٠). ليس لدينا دليل على أنّ بيلاطس صدّق ما كتبه، ومع ذلك، رفض تغييره عندما طلب منه رجال الدين اليهود أنْ يكتبَ، بدلًا من ذلك: «قَالَ: أَنَا مَلِكُ ٱلْيَهُودِ» (الآيات ٢١–٢٢).

لم يكن يسوع هو الرجل الوحيد الذي صُلب في ذلك الصباح: **وَصَلَبُوا مَعَهُ لِصَّيْنِ، وَاحِدًا عَنْ يَمِينِهِ وَآخَرَ عَنْ يَسَارِهِ، فَتَمَّ ٱلْكِتَابُ ٱلْقَائِلُ: وَأُحْصِيَ مَعَ أَثَمَةٍ** (الآيات ٢٧–٢٨) يشير مَرْقُس هنا إلى كيف أنّ هذا الجانب الآخر من جوانب الصليب قد تمّ النبوءة، وتحديدًا النبوءَة الموجودة في إشعياء ٥٣: ١٢.

ثمّ يخبرنا مَرْقُس: **وَكَانَ ٱلْمُجْتَازُونَ يُجَدِّفُونَ عَلَيْهِ، وَهُمْ يَهُزُّونَ رُؤُوسَهُمْ قَائِلِينَ: آهِ يَا نَاقِضَ ٱلْهَيْكَلِ وَبَانِيَهُ فِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ! خَلِّصْ نَفْسَكَ وَٱنْزِلْ عَنِ ٱلصَّلِيبِ. وَكَذَلِكَ رُؤَسَاءُ ٱلْكَهَنَةِ وَهُمْ مُسْتَهْزِئُونَ فِيمَا بَيْنَهُمْ مَعَ ٱلْكَتَبَةِ، قَالُوا: خَلَّصَ آخَرِينَ وَأَمَّا نَفْسُهُ فَمَا يَقْدِرُ أَنْ يُخَلِّصَهَا! لِيَنْزِلِ ٱلْآنَ ٱلْمَسِيحُ مَلِكُ إِسْرَائِيلَ عَنِ ٱلصَّلِيبِ، لِنَرَى وَنُؤْمِنَ! وَٱللَّذَانِ صُلِبَا مَعَهُ كَانَا يُعَيِّرَانِهِ** (الآيات ٢٩–٣٢).

كان يسوع قد تحمّل منذ قليل سُخرية الجنود. وبينما كان مُعلّقًا على الصليب وهو يتألّم، كان عليه أنْ يتحمّلَ استهزاء الآخرين منه. أوّلًا، شتمه العديد من المارّة لأنّه قال مرّة: «ٱنْقُضُوا هَذَا ٱلْهَيْكَلَ، وَفِي ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ أُقِيمُهُ» (يوحنّا ٢: ١٩). لم يُدركوا أنّه لم يكن يتحدّث عن الهيكل بل عن جسده، وبالتالي، كان يتنبّأ عن قيامته من القبر بعد ثلاثة أيّام (الآيتان ٢١–٢٢). ثمّ سَخِر منه رؤساء الكهنة لأنّه بدا لهم أنّه غير قادر على إنقاذِ نفسه من الموت. لكن يسوع لم يكن مُهتمًّا بخلاصِ نفسه، بل أرادَ أنْ يُخلّصَ شعبَه،

وهذا الأمر تطلّب منه أنْ يبقى مُعلّقًا على الصليب حتّى الموت. ألحّ الكهنة أنْ ينزلَ يسوع مِن على الصليب ليكون هذا دليلًا نهائيًّا على هوّيته. لقد رأَوْا من قبلُ آية بعد الأخرى، ومُعجزة بعد الأخرى، لكنّهم لم يؤمنوا به. أخيرًا، يُخبرنا مَرْقُس أنّ اللصَيْن المصلوبَيْن كانا يُعيّرانه. لكن شُكرًا لله، لأنّنا نعلم من إنجيل لوقا أنّ أحدَهما قَبِلَ الإيمان قبلَ أنْ يموت في ذلك اليوم (٢٣: ٣٩-٤٣).

يتابع مَرْقُس ويقول: **وَلَمَّا كَانَتِ ٱلسَّاعَةُ ٱلسَّادِسَةُ، كَانَتْ ظُلْمَةٌ عَلَى ٱلْأَرْضِ كُلِّهَا إِلَى ٱلسَّاعَةِ ٱلتَّاسِعَةِ** (الآية ٣٣). من ظُهر ذلك اليوم، حتّى الثالثة مساءً، اختفى نور الشمس وحلّ ظلام على كلّ الأرض. كثيرًا ما كان الناس في العصور القديمة يرتعبون عند حدوث كسوف للشمس، لأنّهم لم يفهموا ما كان السبب وراءَ ذلك. ولكنّ الكسوف الطبيعيّ كان يستمرّ لدقائق معدودة فقط، ولم يكن الظلام الناتج عنه دامسًا. أمّا الظلام الذي غطّى به الله منطقة أورشليم، فقد استمرّ لساعات، وكان الظلام شديدًا ومُغمًّا، ولا يسعنا إلّا أنْ نتخيّلَ كم كان خوفُ الناسِ عظيمًا.

في هذا الوقت بالتحديد، أبعدَ الله نورَ مُحيّاه، رافضًا للمرّة الأولى على الإطلاق أنْ ينظر إلى ابنه وهو يحمل ملء دَنَسِ شرّنا، الأمر الذي لا يسمح لقداسته من أنْ ينظرَ إليه. في أوجّ تلك الفترة المُظلمة، صرخ يسوع بألم شديد– ليس بسبب آلام الجَلْدِ أو الأشواك والمسامير، إنّما بسبب ألم الهجر والتخلّي.

إذن، هذه هي الإساءَة، وهذا هو العذاب المُبرح الذي قاساه ربّنا. نشكر الله، لأنّ الله الآب أنقذ ابنه الحبيب من آلامه في اللحظة المناسبة.

٥٦

موت يسوع ودفنه

مرقس ١٥: ٣٤-٤٧

وَفِي ٱلسَّاعَةِ ٱلتَّاسِعَةِ صَرَخَ يَسُوعُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ قَائِلًا: إِلُوِي، إِلُوِي، لَمَا شَبَقْتَنِي؟ اَلَّذِي تَفْسِيرُهُ: إِلَهِي، إِلَهِي، لِمَاذَا تَرَكْتَنِي؟ فَقَالَ قَوْمٌ مِنَ ٱلْحَاضِرِينَ لَمَّا سَمِعُوا: هُوَذَا يُنَادِي إِيلِيَّا. فَرَكَضَ وَاحِدٌ وَمَلَأَ إِسْفِنْجَةً خَلًّا وَجَعَلَهَا عَلَى قَصَبَةٍ وَسَقَاهُ قَائِلًا: ٱتْرُكُوا. لِنَرَ هَلْ يَأْتِي إِيلِيَّا لِيُنْزِلَهُ. فَصَرَخَ يَسُوعُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ وَأَسْلَمَ ٱلرُّوحَ. وَٱنْشَقَّ حِجَابُ ٱلْهَيْكَلِ إِلَى ٱثْنَيْنِ، مِنْ فَوْقُ إِلَى أَسْفَلُ. وَلَمَّا رَأَى قَائِدُ ٱلْمِئَةِ ٱلْوَاقِفُ مُقَابِلَهُ أَنَّهُ صَرَخَ هَكَذَا وَأَسْلَمَ ٱلرُّوحَ، قَالَ: حَقًّا كَانَ هَذَا ٱلْإِنْسَانُ ٱبْنَ ٱللهِ! وَكَانَتْ أَيْضًا نِسَاءٌ يَنْظُرْنَ مِنْ بَعِيدٍ، بَيْنَهُنَّ مَرْيَمُ ٱلْمَجْدَلِيَّةُ، وَمَرْيَمُ أُمُّ يَعْقُوبَ ٱلصَّغِيرِ وَيُوسِي، وَسَالُومَةُ، ٱللَّوَاتِي أَيْضًا تَبِعْنَهُ وَخَدَمْنَهُ حِينَ كَانَ فِي ٱلْجَلِيلِ. وَأُخَرُ كَثِيرَاتٌ ٱللَّوَاتِي صَعِدْنَ مَعَهُ إِلَى أُورُشَلِيمَ. وَلَمَّا كَانَ ٱلْمَسَاءُ، إِذْ كَانَ ٱلِٱسْتِعْدَادُ، أَيْ مَا قَبْلَ ٱلسَّبْتِ، جَاءَ يُوسُفُ ٱلَّذِي مِنَ ٱلرَّامَةِ، مُشِيرٌ شَرِيفٌ، وَكَانَ هُوَ أَيْضًا مُنْتَظِرًا مَلَكُوتَ ٱللهِ، فَتَجَاسَرَ وَدَخَلَ إِلَى بِيلَاطُسَ وَطَلَبَ جَسَدَ يَسُوعَ. فَتَعَجَّبَ بِيلَاطُسُ أَنَّهُ مَاتَ كَذَا

سَرِيعًا. فَدَعَا قَائِدَ ٱلْمِئَةِ وَسَأَلَهُ: هَلْ لَهُ زَمَانٌ قَدْ مَاتَ؟ وَلَمَّا عَرَفَ مِنْ قَائِدِ ٱلْمِئَةِ، وَهَبَ ٱلْجَسَدَ لِيُوسُفَ. فَٱشْتَرَى كَتَّانًا، فَأَنْزَلَهُ وَكَفَّنَهُ بِٱلْكَتَّانِ، وَوَضَعَهُ فِي قَبْرٍ كَانَ مَنْحُوتًا فِي صَخْرَةٍ، وَدَحْرَجَ حَجَرًا عَلَى بَابِ ٱلْقَبْرِ. وَكَانَتْ مَرْيَمُ ٱلْمَجْدَلِيَّةُ وَمَرْيَمُ أُمُّ يُوسِي تَنْظُرَانِ أَيْنَ وُضِعَ.

نصل في دراستنا لمَرْقُس الآن إلى الساعة التي مات فيها يسوع، وإلى اللحظة التي جاءَ من أجلها إلى العالم، والتي من أجلها جعلَ وجهه كالصوّان لكي يُطيع إرادةَ أبيه. ما نقرأه أمر رهيب، ولكنّه مصدر ذلك الخلاص العظيم الذي يتمتّع به كلّ الذين يؤمنون به. في يوم الجمعة العظيمة، صنع الله أمرًا صالحًا للغاية من خلال خطايا وشرّ البشر.

يكتب مَرْقُس: **وَفِي ٱلسَّاعَةِ ٱلتَّاسِعَةِ صَرَخَ يَسُوعُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ قَائِلًا: إِلُوِي، إِلُوِي، لَمَا شَبَقْتَنِي؟ اَلَّذِي تَفْسِيرُهُ: إِلَهِي، إِلَهِي، لِمَاذَا تَرَكْتَنِي؟** (الآية ٣٤).

لم يكن شهود العيان متيقّنين ممّا قاله يسوع. يقول مَرْقُس: **فَقَالَ قَوْمٌ مِنَ ٱلْحَاضِرِينَ لَمَّا سَمِعُوا: هُوَذَا يُنَادِي إِيلِيَّا. فَرَكَضَ وَاحِدٌ وَمَلأَ إِسْفِنْجَةً خَلًّا وَجَعَلَهَا عَلَى قَصَبَةٍ وَسَقَاهُ قَائِلًا: ٱتْرُكُوا. لِنَرَ هَلْ يَأْتِي إِيلِيَّا لِيُنْزِلَهُ** (الآيتان ٣٥-٣٦). انتظروا، لكنّ أحدًا لم يأتِ. **فَصَرَخَ يَسُوعُ بِصَوْتٍ عَظِيمٍ وَأَسْلَمَ ٱلرُّوحَ** (الآية ٣٧).

يرتبط موقع الصلب تقليديًّا مع جَبَلِ المريّا، المكان الذي أُمرَ فيه إبراهيم أن يُضحّي بابنه إسحاق. عندما أطاع إبراهيم وربط ابنه ورفع السكّين ليغرسها في قلبه، ناداه ملاك الله في اللحظة الأخيرة قائلًا له: «لَا تَمُدَّ يَدَكَ إِلَى ٱلْغُلَامِ وَلَا تَفْعَلْ بِهِ شَيْئًا، لِأَنِّي ٱلْآنَ عَلِمْتُ أَنَّكَ خَائِفٌ ٱللهَ، فَلَمْ تُمْسِكِ ٱبْنَكَ وَحِيدَكَ عَنِّي» (تكوين ٢٢: ١٢). ثمّ رأى إبراهيم كَبْشًا عالقًا

في الغابة بقرنَيْه، فضحّى بالكبش على المذبح كبديل عن ابنه (الآية ١٣). بعد مئات السنين، وعلى الجبل نفسه، ضحّى الله بابنه، لكن لم يأتِ ملاك ليوقِفَه. تمّ التضحية بيسوع على الصليب كبديل عن شعب الله.

يُخبرنا مَرْقُس أيضًا عن نتيجتَيْن فوريّتَيْن لموت يسوع: **وَٱنْشَقَّ حِجَابُ ٱلْهَيْكَلِ إِلَى ٱثْنَيْنِ، مِنْ فَوْقُ إِلَى أَسْفَلُ** (الآية ٣٨). كان الحجاب يفصل البشرَ الساقطين عن قدس الأقداس في الهيكل. في الحقيقة، كان يفصل الرجال عن الله. لقد كان حجابًا سميكًا منسوجًا، لكنّ الأناجيل الإزائيّة الثلاثة جميعها تشير إلى أنّه في اللحظة التي مات فيها يسوع، انشقّ الحجاب فجأة من أعلى إلى أسفل، وَنَقَضَ حَائِطَ ٱلسِّيَاجِ ٱلْمُتَوَسِّطَ هذا.

أيضًا، **وَلَمَّا رَأَى قَائِدُ ٱلْمِئَةِ ٱلْوَاقِفُ مُقَابِلَهُ أَنَّهُ صَرَخَ هَكَذَا وَأَسْلَمَ ٱلرُّوحَ، قَالَ: حَقًّا كَانَ هَذَا ٱلْإِنْسَانُ ٱبْنَ ٱللهِ!** (الآية ٣٩). كان الرومان يعيّنون بالعادة أربعة جنود لحراسة السجناء أثناء عمليّات الإعدام، وهؤلاء كانوا تحت إمرَةِ قائد المئة.

رأى قائد المئة الذي كان يُشرف على الرجال الذين يحرسون يسوع شيئًا غريبًا بطريقة موت يسوع، ممّا جعله يعترف بأنّ يسوع هو ابن الله. يبدو أنّه كان أوّل مَنْ أدركَ أنّ أمرًا بغاية الأهمّية كان يحدث بعد ظُهر ذلك اليوم خارج أورشليم.

معنى الصليب

أنا متأكّد من أنّ الذين عاينوا صلبَ يسوع لم يفهموا ما كان يجري، باستثناء قائد المئة. ببساطة، أنا لا أعتقد أنّ المتفرّجين أدركوا حالًا أنّ ما كان يجري في الجلجثة في ذلك اليوم، كانَ أكثر من مُجرّد حدث يوميّ آخر. بالنسبة إليهم، كانوا فقط يشاهدون صلبَ الرومان لأحد الرجال.

ولكن، ما كان يحدث في ذلك المكان وفي ذلك الوقت، لم يكن أقلّ من حدث كونيّ بالغ الأهميّة لا يُمكن للعقل البشريّ تخيّله. تعطينا رسائل العهد الجديد المكتوبة بوحي إلهيّ الأهميّة اللاهوتيّة لهذا الحدث، فالذي حدثَ كان كفّارة أشبعت عدالة الله وغضبه من خلال بديل.

الكفّارة هي «مصالحة بين الأطراف المتباعدة، واستعادة العلاقة المُحطّمة. تتحقّق الكفّارة بالتعويضات، ومحو الإساءات، والتعويض عن الأخطاء التي ارتُكبت».١ باختصار، انفصل الإنسان عن الله بسبب خطيئته، وبالتالي هو تحت دينونته. لكن الإنسان غير قادر على التعويض عن خطاياه، بل هو بحاجة إلى مَنْ يحلّ مكانه كبديل، ليحلّ غضب الله عليه بدلًا منه.

كتب أنسيلم أوف كانتربري (Anselm of Canterbury) (حوالي ١٠٣٣–١١٠٩) كتابًا صغيرًا بعنوان Cur Deus Homo؟ (لماذا صار الله إنسانًا؟) ليفسّر لماذا لا يستطيع الإنسان التكفير عن نفسه، ولماذا كان لا بدّ لله أن يأتي إلى الأرض على شكل إنسان ليقف مكان الإنسان تحت غضبه الشخصيّ. شرح أنسلم أنّ الإنسان الكامل أخلاقيًّا هو الوحيد المناسب ليأخذ دور البديل. لهذا وُلِد يسوع وعاش كإنسان قبل أنْ يُصلب. لقد كان الحَمَل الذي بلا عيب لأنّه حَفِظ ناموس الله بشكل كامل.

عَلِمت المسيحيّة المستقيمة دائمًا أنّ موتَ المسيح الكفّاري كان ضروريًا جدًّا، وأنّه لا يُمكن للخطأة أنْ يخلصوا بمعزل عن ذلك. بالطبع فالهالكون في خطاياهم يرفضون قبولَ أنّهم بحاجة إلى مُخلّص أو إلى كفّارة. من المُحزن أنّ كثيرين في الكنيسة شكّكوا في ضرورة الكفارة أيضًا. في السنوات الأولى للكنيسة، علّم البيلاجيّون أنّ موتَ المسيح وكفّارته ليستا ضروريّتَيْن إطلاقًا،

---

١ «الكفّارة» في The Reformation Study Bible (لايك ماري، فلوريدا: خدمات ليجونير، ٢٠٠٥)، ١٧٧٢.

وأنّ بإمكان الله أنْ يفدي شعبَه بمجرّد التلويح بعصا الرحمة والنعمة، وإعلان الغفران عن المذنبين، من دون اللجوء إلى الصلب المروّع. وقال آخرون إنّ الصليبَ كان ضروريًّا من الناحية الافتراضيّة فقط، لأنّه كان بإمكان الله أنْ يُخلّصَ الإنسان بطرق مُختلفة، لكنّه اختار منذ الأزل أنْ يصالحَ العالم لنفسه عن طريق الموت الكفّاري. كان ذلك ضروريًّا فقط لأنّ الآب توصّل إلى إبرام عهد بينه وبين الابن؛ وبمجرّد إبرامه، كان لا بدّ من تنفيذه.

اختبرتُ هذا النفور من ناحية الكفّارة في السنة الأولى لي في معهد اللاهوت. ذات يوم، ألقى أحد الطلّاب عظة مؤثّرة وبليغة في صفّ علم الوعظ حول نظرية الكفّارة البديلة. كان من المُعتاد عندما يُلقي طالب عظة في ذلك الصفّ أنْ ينقدها معلّم المادة، وأنْ يكونَ النقدُ بنّاءً، لكنّ الأستاذَ كان مُحتدًّا في ذلك اليوم. نظر إلى الطالب وقال له: «كيف تجرؤ أن تعظ عن نظريّة الكفّارة البديلة في هذا اليوم وهذا العصر». احتقرَ هذا الأستاذ فكرةَ أنَ يسوعَ مات كبديلٍ، إرضاءً لغضب الله الذي كان لا بدّ أن يقع على الآخرين.

أعتقد أنّه يُمكن لهذا الموقف أنْ يحدثَ فقط عندما تغيبُ شخصيّةُ الله عن بال الإنسان. نميل إلى رؤيته كجدّ سماويّ، أو كخادم كونيّ يعمل على مدار الساعة لتلبية جميع احتياجاتِنا ورغباتِنا. نسمح لمحبّة الله أنْ تلتهمَ عدالَته وبرَّه وقداسَته. نحن لا نؤمن فقط بأنّ الله سيغفر لنا كلّ ذنوبنا دون كفّارة، بل يجب عليه أنْ يفعلَ ذلك إنْ كان حقًّا صالحًا ومُحبًّا. هذه هي النزعة التي نميل إليها. نستبدل إله السماء والأرض بصنم، ونصنع لأنفسنا إلهًا لا يحتاج إلى إرضاء، ولا يطالب بأيّ بديل مقابل الخطية.

اسمحوا لي ببساطة أنْ أذكّركم بكلمات الرسول بولس: «لِأَنِّي لَمْ أَعْزِمْ أَنْ أَعْرِفَ شَيْئًا بَيْنَكُمْ إِلَّا يَسُوعَ ٱلْمَسِيحَ وَإِيَّاهُ مَصْلُوبًا» (١كورنثوس ٢: ٢). ركّز بولس على الصليب. تلاقى كلّ ما كان يعرفه، وكلّ ما علّمه في

الرسالة الأساسيّة لما حدث في ذلك اليوم على الصليب.

في يومٍ وعصرٍ يعظ فيه كثيرون أنّ محبّة الله لجميع الناس غير مشروطة، مَنْ يحتاج إلى الكفّارة؟ أنتَ وأنا نحتاج إليها. كان لا بدّ من إرضاء عدالة الله. بنعمة الله، عندما صرخ يسوع: «قد أُكمل!» (يوحنّا ١٩: ٣٠)، كانت الكفّارة كاملة وتمّ إرضاء العدالة الإلهيّة.

النسوة عند الصليب

يذكر مَرْقُس أيضًا: **وَكَانَتْ أَيْضًا نِسَاءٌ يَنْظُرْنَ مِنْ بَعِيدٍ، بَيْنَهُنَّ مَرْيَمُ ٱلْمَجْدَلِيَّةُ، وَمَرْيَمُ أُمُّ يَعْقُوبَ ٱلصَّغِيرِ وَيُوسِي، وَسَالُومَةُ، ٱللَّوَاتِي أَيْضًا تَبِعْنَهُ وَخَدَمْنَهُ حِينَ كَانَ فِي ٱلْجَلِيلِ. وَأُخَرُ كَثِيرَاتٌ ٱللَّوَاتِي صَعِدْنَ مَعَهُ إِلَى أُورُشَلِيمَ** (الآيتان ٤٠-٤١). ما زلت مُصرًّا على أنّه لا يمكن لأيّ شخص أنْ يكون من الأتباع المُخلصين ليسوع من مسافة بعيدة، إلّا أنّني أُثني على تلك النساء لأنّهن كنّ هناك في الجلجثة. هرب التلاميذ لإنقاذ حياتهم، لكن تلك النساء اللائي أحطن يسوع أثناء خدمته الأرضيّة، بقين على الأقلّ قريبات منه بدرجة كافية كمراقِبات لموته. لقد تبعن يسوع وخدمْنَه أثناء خدمته في الجليل، وذهبْن معه إلى أورشليم.

مريم المجدليّة هي المرأة التي أخرج منها يسوع سبعة شياطين (لوقا ٨: ٢). يعتقد البعض أنّها كانت مومسًا، لكن لا يوجد في الكتاب المقدّس ما يدلّ على ذلك. والأكثر من ذلك، هو الفكرة التي لا مسوّغ لها، بأنّ يسوع كان متزوّجًا من مريم المجدليّة، أو أنّه كانت تجمعه بها علاقة حُبّ من نوع ما، وهي الفكرة التي روّجت لها رواية **The Da Vinci Code**، والفيلم الذي حَمَل الاسم نفسه. يُظهر الكتاب المقدّس أنّها كانت من أتباع المسيح المُخْلِصين، فقد كانت عند الصليب، وكانت أوّل أو من أحد الأوائل الذين رأوا المسيح فور قيامته. يَذْكُر مَرْقُس أيضًا امرأة أخرى اسمها مريم، والتي

عُرِّف بها بأنّها «أُمُّ يَعْقُوبَ ٱلصَّغِيرِ وَيُوسِي». أخبرنا مَرْقس من قبلُ أنّه كان ليسوع إخوة ومنهم يعقوب ويوسي (٦: ٣)، لذلك يعتقد الكثيرون أنّ مريم المذكورة هنا هي أمّ يسوع. ولكن ليس واضحًا سبب عدم تحديد مَرْقُس لها بأنّها كذلك. لا نستطيع التأكّد بالضبط مَن كانت سالومي؛ فهذا المقطع والمقطع الموجود في متّى ٢٧: ٥٦ يذكران مريم المجدليّة ومريم والدة يعقوب ويوسي، ولكن، في الوقت الذي يذكر فيه مرقس بعد ذلك سالومي، يُحدّد متّى المرأة الثالثة على أنّها «أُمُّ ٱبْنَيْ زَبْدِي». وهكذا، من الممكن أنْ تكون سالومي هي والدة يعقوب ويوحنّا. ويُخبرنا مَرْقُس أيضًا أنّه كان هناك العديد من النساء الأخريات من الجليل يبحثن مع هؤلاء النسوة الثلاث.

شجاعة يوسف

يكتب مَرْقُس: **وَلَمَّا كَانَ ٱلْمَسَاءُ، إِذْ كَانَ ٱلِٱسْتِعْدَادُ، أَيْ مَا قَبْلَ ٱلسَّبْتِ، جَاءَ يُوسُفُ ٱلَّذِي مِنَ ٱلرَّامَةِ، مُشِيرٌ شَرِيفٌ، وَكَانَ هُوَ أَيْضًا مُنْتَظِرًا مَلَكُوتَ ٱللهِ، فَتَجَاسَرَ وَدَخَلَ إِلَى بِيلَاطُسَ وَطَلَبَ جَسَدَ يَسُوعَ** (الآيتان ٤٢–٤٣). نحن نعلم أنّ يسوع ماتَ عند الساعة الثالثة مساءً من يوم الجمعة. يبدأ يوم السبت اليهوديّ عند غروب شمس يوم الجمعة؛ ويُفترض أنْ يكونَ يوسف الرامي قد ذهب في وقت متأخّر من بعد الظهر إلى بيلاطس، طالبًا أنْ يُسمحَ له باستلام جسد يسوع ليدفنه. كان أمامه وقت قصير لرفع جسد يسوع عن الصليب ليُدفنَ بشكل لائق.

يُعرِّف مَرْقُس بيوسف كعضو بارز في المجلس. يُمكن أنْ يكونَ هذا المجلس الذي يذكُره مَرْقُس هو السنْهدرين، وهو مجلس اليهود نفسه الذي أسلَم يسوع إلى بيلاطس مُطالبًا بصلبه. يُشير هذا إلى أنّه لم يكن كلّ أعضاء مجلس القيادة اليهوديّة معارِضين ليسوع؛ في الواقع، يقول لوقا إنّ يوسف «لَمْ يَكُنْ مُوافِقًا» مع قرار المجلس بشأن مصير يسوع (٢٣: ٥١).

نعلم أيضًا أنّ نيقوديموس شكّك في مرحلة ما في إجراءَات السنْهدرين ضدّ يسوع (يوحنّا ٧: ٥٠)، وأنّه ساعد يوسف في تحضير جسد يسوع للدفن (يوحنّا ١٩: ٣٩). ويقول مَرْقُس إنّ يوسف كان ينتظر مجيء ملكوت الله، وهذا دليل قويّ على أنّه كان مؤمنًا بيسوع.

«فَتَجَاسَرَ» يوسف ودخل إلى بيلاطس وطلب جسدَ يسوع. تطلّبَ الأمر شجاعةً لكي يذهبَ إلى الرجل الذي أمرَ بقتل يسوع كمجرم ويطلب إذنًا بأخذ الجسد، لأنّ الرومان لا يُفرجون بالعادة عن جثث السجناء المعدومين بهذه الطريقة. لم تُسلّم الجُثث إلى العائلات، ولم تُقام مراسم دفن تقليديّة لها، بل كانت تُلقى في جهنّم، وهو مكبّ للنفايات خارج أورشليم، وهو الاسم الذي استخدمه يسوع كرمز للجحيم (راجع الفصل ٣١). كان إلقاء جثّة إنسان في مكبّ للنفايات إشارة إلى احتقاره. لكنّ الرومان كانوا يتركون الجثثَ أحيانًا على الصلبان لفترة طويلة من الزمن لدرجة التحلّل، كتحذير للآخرين الذين قد يفكّرون في ارتكاب نفس الجرائم. كانت هذه هي الطريقة التي تعامل بها الرومان مع جثث المحكوم عليهم بالإعدام.

الدفن العاجل

يتابع مَرْقُس ليقول: **فَتَعَجَّبَ بِيلَاطُسُ أَنَّهُ مَاتَ كَذَا سَرِيعًا. فَدَعَا قَائِدَ ٱلْمِئَةِ وَسَأَلَهُ: هَلْ لَهُ زَمَانٌ قَدْ مَاتَ؟** (الآية ٤٤). عندما سأل يوسف عن جسد يسوع، تفاجأ بيلاطس عندما سمع أنّه مات. لم يكن غريبًا أنْ يبقى المجرم المصلوب يومَيْن أو ثلاثة على قيد الحياة وهو مُعلّق على الصليب. كان الموت في نهاية المطاف يحدث نتيجةً لفقدان الدمّ والجفاف والتعرّض للعوامل الطبيعيّة والجوع. كان الرومان أحيانًا يكسرون رجلَي المصلوب لتسريع موته. وعندما لا يَعُدْ بإمكان الضحيّة دفعَ الجسد المعلّق للتنفّس براحة أكبر، كان الموت يأتي سريعًا بواسطة الاختناق. نجا يسوع من هذه

المذلّة لأنّه مات قبلَ أنْ يبدأ الرومان بكسر أرجل المصلوبين في ذلك اليوم (يوحنّا ١٩: ٣١–٣٣).

لهذا السبب، استدعى بيلاطس قائد المئة الذي كان مسؤولًا عن السَرِيّة المُفرَزة لحراسة يسوع، الذي أكّد أنّ يسوع قد مات فعلًا. يكتب مرقس: **وَلَمَّا عَرَفَ مِنْ قَائِدِ ٱلْمِئَةِ، وَهَبَ ٱلْجَسَدَ لِيُوسُفَ** (الآية ٤٥).

يُخبرنا مَرْقُس أنّ يوسف **ٱشْتَرَى كَتَّانًا، فَأَنْزَلَهُ وَكَفَّنَهُ بِٱلْكَتَّانِ، وَوَضَعَهُ فِي قَبْرٍ كَانَ مَنْحُوتًا فِي صَخْرَةٍ، وَدَحْرَجَ حَجَرًا عَلَى بَابِ ٱلْقَبْرِ** (الآية ٤٦). بذل يوسف جهدًا كبيرًا ليدفن يسوع بطريقة تليق به. كفّن جسد يسوع بكتّان ناعم، ثم وضعه في قبر مَهيب منحوتًا في صخر. يُخبرنا يوحنّا أنّ هذا القبر كان في بستان قريب من الجلجثة، وأنّه كان جديدًا (١٩: ٤١). ويخبرنا متّى أنّ القبرَ كان مُلكًا ليوسف نفسه (٢٧: ٦٠).

الأمر الوحيد الذي لم يكن يوسف قادرًا على فعله هو دهن الجسد بالأطياب بشكل مُناسب؛ لم يكن لديه الوقت الكافي قبل غروب الشمس. وهذا ما أتت النساء للقيام به في صباح اليوم التالي ليوم السبت، كما سنرى في الفصل التالي. لهذا السبب، **كَانَتْ مَرْيَمُ ٱلْمَجْدَلِيَّةُ وَمَرْيَمُ أُمُّ يُوسِي تَنْظُرَانِ أَيْنَ وُضِعَ** (الآية ٤٧).

٥٧

القيامة

مَرْقُس ١٦: ١-٨

بَعْدَمَا مَضَى ٱلسَّبْتُ، ٱشْتَرَتْ مَرْيَمُ ٱلْمَجْدَلِيَّةُ وَمَرْيَمُ أُمُّ يَعْقُوبَ وَسَالُومَةُ، حَنُوطًا لِيَأْتِينَ وَيَدْهُنَّهُ. وَبَاكِرًا جِدًّا فِي أَوَّلِ ٱلْأُسْبُوعِ أَتَيْنَ إِلَى ٱلْقَبْرِ إِذْ طَلَعَتِ ٱلشَّمْسُ. وَكُنَّ يَقُلْنَ فِيمَا بَيْنَهُنَّ: «مَنْ يُدَحْرِجُ لَنَا ٱلْحَجَرَ عَنْ بَابِ ٱلْقَبْرِ؟ فَتَطَلَّعْنَ وَرَأَيْنَ أَنَّ ٱلْحَجَرَ قَدْ دُحْرِجَ! لِأَنَّهُ كَانَ عَظِيمًا جِدًّا. وَلَمَّا دَخَلْنَ ٱلْقَبْرَ رَأَيْنَ شَابًّا جَالِسًا عَنِ ٱلْيَمِينِ لَابِسًا حُلَّةً بَيْضَاءَ، فَٱنْدَهَشْنَ. فَقَالَ لَهُنَّ: لَا تَنْدَهِشْنَ! أَنْتُنَّ تَطْلُبْنَ يَسُوعَ ٱلنَّاصِرِيَّ ٱلْمَصْلُوبَ. قَدْ قَامَ! لَيْسَ هُوَ هَهُنَا. هُوَذَا ٱلْمَوْضِعُ ٱلَّذِي وَضَعُوهُ فِيهِ. لَكِنِ ٱذْهَبْنَ وَقُلْنَ لِتَلَامِيذِهِ وَلِبُطْرُسَ: إِنَّهُ يَسْبِقُكُمْ إِلَى ٱلْجَلِيلِ. هُنَاكَ تَرَوْنَهُ كَمَا قَالَ لَكُمْ. فَخَرَجْنَ سَرِيعًا وَهَرَبْنَ مِنَ ٱلْقَبْرِ، لِأَنَّ ٱلرِّعْدَةَ وَٱلْحَيْرَةَ أَخَذَتَاهُنَّ. وَلَمْ يَقُلْنَ لِأَحَدٍ شَيْئًا لِأَنَّهُنَّ كُنَّ خَائِفَاتٍ.

في اليوم والعصر اللذَيْن نعيش فيهما، يُعلَن دومًا من على منابر الكنائس الإنجيليّة موتُ يسوع المسيح على الصليب. وهكذا ينبغي أنْ تكونَ الحال. ولكن، نادرًا ما يتمّ تناول قيامةَ يسوع من بين الموت الذي

اختبره على الصليب إلّا في أحد الفصح. هذا أمر غريب نظرًا لحقيقة أنّ الإنجيليّين يجتمعون للعبادة الجماعيّة في اليوم الأوّل من كلّ أسبوع، بدلًا من اليوم السابع، لأنّ يسوع قام يوم الأحد، وبالتالي، أصبحَ يوم الربّ هو يوم الراحة عند الطوائف المسيحيّة. وهكذا يُحتفل كلّ يوم أحد بشكل ضمنيّ بقيامة المسيح، ويجدر بنا أنْ نحتفلَ بها بجهارة أكثر.

يبدأ مَرْقُس روايته المختصرة عن القيامة بهذه الكلمات: **بَعْدَمَا مَضَى ٱلسَّبْتُ، ٱشْتَرَتْ مَرْيَمُ ٱلْمَجْدَلِيَّةُ وَمَرْيَمُ أُمُّ يَعْقُوبَ وَسَالُومَةُ، حَنُوطًا لِيَأْتِينَ وَيَدْهُنَّهُ. وَبَاكِرًا جِدًّا فِي أَوَّلِ ٱلْأُسْبُوعِ أَتَيْنَ إِلَى ٱلْقَبْرِ إِذْ طَلَعَتِ ٱلشَّمْسُ** (الآيتان ١–٢). انتهى يوم السبت الأسبوعيّ لليهود عند غروب الشمس يوم السبت. في ذلك الوقت، ذهبت مريم المجدليّة ومريم أمّ يعقوب ويوسى وسالومي إلى السوق واشترين حنوطًا لدهن جسد يسوع. كما رأينا في الفصل السابق، لم يكن لديهنّ ما يكفي من الوقت للقيام بذلك يوم الجمعة، لأنّ يوم السبت كان على وشك أنْ يبدأ. كان من المهمّ بالنسبة إليهنّ أنْ يدهنّ جسد يسوع بالمرّ والأطياب الأخرى، لأنّ هذه العادة كانت تُمارَس ليس للمحافظة على الجثّة، إنّما لإظهار الاحترام والتقدير للمحبوب الراحل. كانت تلك النساء اللواتي شهدن صلب يسوع ودفنه حريصات على إظهار هذا النوع من الاحترام والإخلاص لربّهنّ.

في الفصل ٤٩، تأمّلنا في قصّة مَرْقُس عن مَسْح يسوع في بيت عنيا. رأينا أنّ امرأةً أحضرتْ قارورةً من طيب الناردين وسكبتها على رأس يسوع. عندما انتقدها البعض لإهدارها هذا الطيب النفيس، طلب منهم يسوع أنْ يتركوها، مضيفًا: «قَدْ سَبَقَتْ وَدَهَنَتْ بِٱلطِّيبِ جَسَدِي لِلتَّكْفِينِ» (١٤: ٣–٩). كانت تلك المسحة قبل أوانها، لكنّها كانت المسحة الوحيدة التي سيحصل عليها جسده. أرادت مريم المجدليّة ومريم وسالومة أنْ يُحنّطنَ جسده بشكل لائق، لكنّهن لم يجدن الجسد في القبر لدهنه بالطيب.

القبر الذي فتحه الله

في وقت مبكّر جدًّا من صباح الأحد، انطلقت النساء إلى القبر بعد بزوغ الفجر مباشرة. في الطريق إلى هناك، **كُنَّ يَقُلْنَ فِيمَا بَيْنَهُنَّ: مَنْ يُدَحْرِجُ لَنَا ٱلْحَجَرَ عَنْ بَابِ ٱلْقَبْرِ؟** (الآية ٣). كما رأينا، كان يسوع قد دُفن في قبر محفور في جبل صخريّ. كان كهفًا بشكل أساسيّ. كانت هذه القبور هي الشكل التقليديّ للدفن عند اليهود. لم يضعوا الأموات في توابيت، ثمّ يدفنونها في الأرض، بل كانوا يقومون بحفر كهوف في الصخور يجعلون في داخلها رفوفًا أو ركائز لوضع الميت عليها. كانت مداخل معظم هذه الكهوف مُغطّاة بحجارة مربّعة لحماية المقابر من سارقي القبور. أمّا قبور العائلات الميسورة، مثل قبر يوسف الرامي، فقد كان على مدخله حجر دائريّ الشكل. كان الحجر موضوعًا في شقوق عند مدخل القبر، لذا، كان لا بدّ من بذل جهد كبير لدحرجته جانبًا. أدركت النسوة بأنّهن لم يكنّ يتمتّعن بما يكفي من قوّة لدحرجة الحجر عن قبر يسوع، فكنّ يتساءَلن عمّن يمكنهنّ الاستعانة به، لأنّه يبدو أنّ جميعَ التلاميذ الرجال كانوا لا يزالون مختبئين.

إلّا أنّ مشكلتهم هذه تمّ حلّها فور وصولهنّ إلى القبر. يكتب مَرْقُس: **فَتَطَلَّعْنَ وَرَأَيْنَ أَنَّ ٱلْحَجَرَ قَدْ دُحْرِجَ! لِأَنَّهُ كَانَ عَظِيمًا جِدًّا** (الآية ٤). وجدن القبر مفتوحًا بشكل غير متوقّع. يخبرنا متّى كيف حدث ذلك: «وَإِذَا زَلْزَلَةٌ عَظِيمَةٌ حَدَثَتْ، لِأَنَّ مَلَاكَ ٱلرَّبِّ نَزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَجَاءَ وَدَحْرَجَ ٱلْحَجَرَ عَنِ ٱلْبَابِ، وَجَلَسَ عَلَيْهِ» (٢٨: ٢). كان الله قد فتح القبر بنفسه.

ثمّ يُخبرنا مَرْقُس: **وَلَمَّا دَخَلْنَ ٱلْقَبْرَ رَأَيْنَ شَابًّا جَالِسًا عَنِ ٱلْيَمِينِ لَابِسًا حُلَّةً بَيْضَاءَ، فَٱنْدَهَشْنَ** (الآية ٥). هذه اللغة هي وصف واضح لملاك. يذكر مَرْقُس فقط أنّه كان يرتدي حلّة بيضاء، لكن كتّاب الأناجيل الأخرى قدّموا وصفًا أكثر. يقول متّى: «كَانَ مَنْظَرُهُ كَٱلْبَرْقِ، وَلِبَاسُهُ أَبْيَضَ كَٱلثَّلْجِ

(٢٨: ٣)، بينما تحدّث لوقا عن «ثِيَابٍ بَرَّاقَةٍ» (٢٤: ٤). كان واضحًا بالنسبة إلى النسوة أنّ هذا كائن خارق للطبيعة.

شعرن بالخوف، وهو ليس بالأمر المُستغرب. الكلمة التي تُرجمت في اللغة الإنجليزيّة إلى «alarmed» وباللغة العربيّة إلى «اندهشن» تشير إلى وجود خوف وقلق عميقَيْن. إنّها الكلمة نفسها المستخدمة لوصف الصراع الداخليّ الذي اختبره ربّنا في بستان جثسيماني. بطبيعة الحال، كلّ مرّة يظهر فيها ملاك لشخص ما في الكتاب المقدّس، يكون الردّ الأوّليّ هو الشعور بالذعر من التواجد في حضرة كائن قادم من عالم خارق للطبيعة.

لقد سمعتُ أشخاصًا يقولون إنّه لا يُمكن أنْ يكونَ العهد الجديد موحًى به أو معصومًا عن الخطأ، لأنّ روايات القيامة غير مُتّفقة مع بعضها، وأحد الخلافات الرئيسيّة التي تمّ ذكرها هي عدد الملائكة الذين كانوا عند القبر. يَذْكُرُ كلّ من متّى ومَرْقُس ملاكًا واحدًا، بينما يتحدّث لوقا ويوحنّا عن ملاكَيْن، وهذا يُعتبر تناقض بحزب زعمهم. أحاولُ تذكير الناس بمبادئ المنطق الأساسيّة. إنْ كان ملاكان حاضرَيْن، وقالَ أحدُهم إنّه كان هناك ملاك، فهذا لا يُعتبر تناقضًا، لأنّه من المنطقيّ أنّه إنْ كان في ذلك المكان ملاكَيْن، فلا بدّ أنْ يكون هناك ملاك واحد أيضًا. لو قال مَرْقُس: «كان ملاك واحد لا غير»، وقال الآخرون: «كانا ملاكَيْن»، لثبُت وجود التناقض. لكن مَرْقُس لا يذكر إلّا ما رأته النسوة على الجانب الأيمن من القبر، حيث رأين شابًّا يرتدي حلّة بيضاء.

الله أقام يسوع

يخبرنا مَرْقُس: **فَقَالَ لَهُنَّ: لَا تَنْدَهِشْنَ! أَنْتُنَّ تَطْلُبْنَ يَسُوعَ ٱلنَّاصِرِيَّ ٱلْمَصْلُوبَ. قَدْ قَامَ! لَيْسَ هُوَ هَهُنَا. هُوَذَا ٱلْمَوْضِعُ ٱلَّذِي وَضَعُوهُ فِيهِ** (الآية ٦). طلب الملاك من النسوة ألّا يَخَفْن. بعد ذلك، جاء الإعلان غير المتوقّع

والأكثر روعة في تاريخ العالم: «قَدْ قَامَ!» كان الملاك واضحًا جدًّا في أنّه كان يقصد يسوع، لأنّه عرَّفه بأنّه «يَسُوعَ ٱلنَّاصِرِيَّ ٱلْمَصْلُوبَ». كما أوضح الملاك أيضًا أنّ النساء كُنّ في المكان الذي وُضع فيه جسد يسوع، لأنّه شجّعهنّ على النظر إلى المكان المحدّد الذي كان جسده موضوعًا.

لديّ اعتراض واحد صغير على الطريقة التي يُترجَم بها إعلان الملاك في العديد من كتبنا المقدّسة، لكنّه بحسب اعتقادي اعتراض مهمّ. في اللغة الأصليّة، لا يقول النص: «قد قام!» الفعل في اليونانيّة هو في صيغة المبني للمجهول، والنصّ يقول في الحقيقة: «قد أُقيم!» يوحي تعبير «قد قام» بأنّ يسوع عاد إلى الحياة بذاته، لكنّ الشهادة الكتابيّة ليست أنّ يسوع استطاع بشكل خارق للطبيعة الانتصار على براثن الموت والخروج من القبر؛ بل إنّ الله هو الذي أقامه من الموت. فكما دحرج اللهُ الحجرَ، أقام يسوع أيضًا من الموت. القيامة هي بالكامل عمل الله.

أكمل الملاك وقال: **لَكِنِ ٱذْهَبْنَ وَقُلْنَ لِتَلَامِيذِهِ وَلِبُطْرُسَ: إِنَّهُ يَسْبِقُكُمْ إِلَى ٱلْجَلِيلِ. هُنَاكَ تَرَوْنَهُ كَمَا قَالَ لَكُمْ** (الآية ٧). أرسل الملاكُ النساءَ وهن يحملن الأخبار السارّة. طلب منهنّ أنْ يذهبن إلى التلاميذ لإخبارهم بأنّ يسوع حيّ وبأنّه سيقابلهم في الجليل، كما وعدهم تمامًا (١٤: ٢٨).

تسجيل مَرْقُس تعليمات الملاك الخاصّة للنساء بأنْ يُخبرن بطرس له دلالة هامّة جدًّا. كان بطرس بمثابة مُعلّم ومصدر لمَرْقُس، وعندما ذكره بهذه الطريقة، أظهر الملاك بشكل حاسم أنّ بطرس لم يُرفَض لاحقًا من الخدمة في كنيسة المسيح بسبب إنكاره للمسيح.

نعلم أنّ يسوع ظهر للتلاميذ قبل مغادرتهم أورشليم. نقرأ في لوقا ٢٤: ٣٦-٤٩ عن زيارته المفاجئة لهم في العليّة. ولكن الأناجيل الأخرى تُظهر لنا أيضًا أنّه بقي معهم في الجليل لأسابيع عديدة. يتضمّن الإصحاح

الأخير من يوحنّا روايات تُخاطب المشاعر عن ظهوره لهم بالقرب من بحيرة طبرية (٢١: ١-١٤) ولاحقًا عودة بطرس (الآيات ١٥-١٩).

لا عجبَ أنّ النساء **خَرَجْنَ سَرِيعًا وَهَرَبْنَ مِنَ ٱلْقَبْرِ، لِأَنَّ ٱلرِّعْدَةَ وَٱلْحَيْرَةَ أَخَذَتَاهُنَّ. وَلَمْ يَقُلْنَ لِأَحَدٍ شَيْئًا لِأَنَّهُنَّ كُنَّ خَائِفَاتٍ** (الآية ٨). يا لخليط المشاعر هذا الذي لا بدّ أنّه طغى عليهم: مشاعر الخوف، والفرح، والصدمة، والأمل، والدهشة، وغيرها من المشاعر الكثيرة. تُخبرنا الأناجيل الأخرى أنّهنّ ذهبن على جناح السرعة للعثور على التلاميذ، وعندما وجدوهم، أخبروهم بما رأوه وسمعوه. وهكذا، عندما قال مَرْقُس: «وَلَمْ يَقُلْنَ لِأَحَدٍ شَيْئًا»، يبدو واضحًا أنّه قصد بذلك أنّهن لم يقلن شيئًا وهنّ في طريقهنّ إلى بطرس والآخرين.

لذلك جاءَ الخبر الأوّل عن القيامة للتلاميذ من هؤلاء النساء، وتستند سجلّاتنا الكتابيّة عمّا حدث في ذلك الصباح إلى تقاريرهن، وبرأيي، كان لهذا الأمر أهميّة قصوى. في زمن يسوع والسنوات التي تلت ذلك بوقت قصير، لم يكن اليهود يولون اهتمامًا كبيرة لمصداقيّة شهادة النساء في المحاكم، وكانوا يصنّفون شهادة النساء بشهادة العبيد والمجرمين. لم يظنّوا أنّه يُمكن أنْ تكونَ النساء شاهدات عيان جديرات بالثقة. على ضوء هذا التحيّز، من المُلفت للانتباه أنّ سجلّات العهد الجديد عن قيامة المسيح تعتمد بشكل وثيق على شهادة النساء. بالتأكيد، لو أرادَ أحدُهم تزوير شهادة قيامة يسوع، فإنّ آخر شيء سيفعله هو أنْ يوردَ التقارير الأولى عن القيامة من أفواه النساء. لكن مَرْقُس لا تهمّه المحاكم القانونيّة، بل هو مُهتمّ بالحقّ وبنقل ما حدث بالضبط، لذلك يذكر لنا شهادة النساء حتّى آخر تفصيل منها عن مكان وقوف الملاك.

من الأهميّة بمكان أنْ نؤمنَ وأنْ نثقَ بهذه الروايات، لأنّ الكتاب المقدّس يقول إنّ يسوع «أُسْلِمَ مِنْ أَجْلِ خَطَايَانَا وَأُقِيمَ لِأَجْلِ تَبْرِيرِنَا» (رومية

٤: ٢٥). رأينا مُخلّصَنا يستوفي مطالب برّ الله على الصليب، فقد سدّد المبلغ المتوجّب علينا كبديل عنّا. لم يكن الله مُلزمًا بأنْ يَقبلَ هذا السداد، ولكن، بإقامته للمسيح من بين الأموات، أعلنَ الله للعالم أجمع أنّ تبريرَنا أصبح مضمونًا، لأنّه قَبِلَ بالكامل الكفّارة التي قدّمها يسوع عن شعبه. الآب الذي أرسل يسوع إلى الصليب، أقامه أيضًا من القبر لتبريرنا. بقوّة الله، يسوع حيّ، وبنعمة الله في المسيح، نحن أيضًا كذلك.

٥٨

وداع يسوع

مَرْقُس ١٦: ٩-٢٠

وَبَعْدَمَا قَامَ بَاكِرًا فِي أَوَّلِ ٱلْأُسْبُوعِ ظَهَرَ أَوَّلًا لِمَرْيَمَ ٱلْمَجْدَلِيَّةِ، ٱلَّتِي كَانَ قَدْ أَخْرَجَ مِنْهَا سَبْعَةَ شَيَاطِينَ. فَذَهَبَتْ هَذِهِ وَأَخْبَرَتِ ٱلَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ وَهُمْ يَنُوحُونَ وَيَبْكُونَ. فَلَمَّا سَمِعَ أُولَئِكَ أَنَّهُ حَيٌّ، وَقَدْ نَظَرَتْهُ، لَمْ يُصَدِّقُوا. وَبَعْدَ ذَلِكَ ظَهَرَ بِهَيْئَةٍ أُخْرَى لِٱثْنَيْنِ مِنْهُمْ، وَهُمَا يَمْشِيَانِ مُنْطَلِقَيْنِ إِلَى ٱلْبَرِّيَّةِ. وَذَهَبَ هَذَانِ وَأَخْبَرَا ٱلْبَاقِينَ، فَلَمْ يُصَدِّقُوا وَلَا هَذَيْنِ. أَخِيرًا ظَهَرَ لِلْأَحَدَ عَشَرَ وَهُمْ مُتَّكِئُونَ، وَوَبَّخَ عَدَمَ إِيمَانِهِمْ وَقَسَاوَةَ قُلُوبِهِمْ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يُصَدِّقُوا ٱلَّذِينَ نَظَرُوهُ قَدْ قَامَ. وَقَالَ لَهُمُ: ٱذْهَبُوا إِلَى ٱلْعَالَمِ أَجْمَعَ وَٱكْرِزُوا بِٱلْإِنْجِيلِ لِلْخَلِيقَةِ كُلِّهَا. مَنْ آمَنَ وَٱعْتَمَدَ خَلَصَ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ يُدَنْ. وَهَذِهِ ٱلْآيَاتُ تَتْبَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ: يُخْرِجُونَ ٱلشَّيَاطِينَ بِٱسْمِي، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَةٍ جَدِيدَةٍ. يَحْمِلُونَ حَيَّاتٍ، وَإِنْ شَرِبُوا شَيْئًا مُمِيتًا لَا يَضُرُّهُمْ، وَيَضَعُونَ أَيْدِيَهُمْ عَلَى ٱلْمَرْضَى فَيَبْرَأُونَ. ثُمَّ إِنَّ ٱلرَّبَّ بَعْدَمَا كَلَّمَهُمُ ٱرْتَفَعَ إِلَى ٱلسَّمَاءِ، وَجَلَسَ عَنْ يَمِينِ ٱللهِ. وَأَمَّا هُمْ فَخَرَجُوا وَكَرَزُوا فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَٱلرَّبُّ يَعْمَلُ مَعَهُمْ وَيُثَبِّتُ ٱلْكَلَامَ بِٱلْآيَاتِ ٱلتَّابِعَةِ. آمِينَ.

كان الراحل الدكتور روجر نيكول أحد أعظم علماء اللاهوت في القرن العشرين. كرّس حياتَه للدفاع بإخلاص عن وحي الكتاب المقدّس وعصمته. ذات مرّة، طرحَ السؤال التالي بصيغة الاستفهام التقريري وسط جَدَل قائم حول مصداقيّة أسفار الكتاب المقدّس: لو قُدّر للمبنى الذي يضمّ المعهد الوطنيّ للمعايير والتكنولوجيا في واشنطن العاصمة أنْ يحترقَ، وقضى الحريقُ على عصا مقياس الياردة، وهي المقياس الرسميّ للياردة، هل سنخسر بذلك فهمَنا للياردة كمقياس للمسافة؟ كانت إجابته «لا»، لأنّنا سنكون قادرين على استخدام عدد لا يُعدّ ولا يحصى من نُسخٍ عن عصا المقياس تلك التي بين أيدينا، لإعادة تحديد المقياس الرسميّ للياردة بدقّة متناهية.

اعترفتِ الكنيسة عبر كلّ القرون بثقتها بوحي الكتاب المقدّس وعصمته من الخطأ. ولكن هذا الاعتراف يترافق دائمًا بمُصطلح autographa، أي أنّ المخطوطات الأصليّة هي الموحى بها والمعصومة عن الخطأ. لم تدافع الكنيسة البروتستانتيّة أبدًا عن الوحي فيما يتعلّق بنُسخ الكتاب المقدّس. نُسِخت مخطوطات أسفار الكتاب المقدّس آلاف المرّات، وغالبًا ما كان يفعل ذلك رهبان وكتبة كانت مَهمّتهم الوحيدة نسخ النصوص بدقّة وحرص وعناية. ومع ذلك، نجد من وقت لآخر اختلافات بين النسخ. إذن، إنْ لم يكن لدينا المخطوطات الأصليّة، وليس معنا سوى نُسَخٍ عنها، وهذه النسخ لا تتّفق جميعها مع بعضها، فلماذا ما زلنا ندافع عن وجود كتاب مقدّس معصوم من الخطأ؟

هنا يأتي دور استخدام تشبيه الدكتور نيكول لعصا مقياس الياردة. عِلْمُ النقد النصي، الذي يهتمّ بإعادة بناء الوثائق الأصليّة، هو أحد أدقّ العلوم وأكثرها إثارة للإعجاب في مجال دراسة الكتاب المقدّس. من خلال الفحص الدقيق لآلاف المخطوطات التي تمّ نسخها من القرن الأوّل فصاعدًا، تمكّن

نُقّاد النصوص من إعادة بناء الوثائق الأصليّة بدرجة عالية من الدقّة. كانت وجهة نظر الدكتور نيكول، أنّه على الرغم من أنّ الكتاب المقدّس الذي بين أيدينا اليوم لا يحتوي على المخطوطات الأصليّة التي كتبها الأنبياء والرسل، وآخرون غيرهم من الذين تلقّوا الوحي، لدينا ملء الثقة بأنّه قريب جدًّا لما كتبه المؤلّفون الأصليّون.

أقدّم لكم كلّ هذه الخلفيّة لأنّ أحد أصعب أجزاء العهد الجديد فيما يتعلّق بإعادة بناء المحتوى الأصليّ، هو الإصحاح الأخير من مَرْقُس. تكمن المشكلة في النصّ الذي نتأمّل فيه في هذا الفصل، والذي يُعرف باسم «النهاية الطويلة» لإنجيل مَرْقُس (بالمقارنة مع «النهاية القصيرة» الموجودة في بعض المخطوطات المبكّرة الأخرى).

عندما يحاول علماء الكتاب المقدّس تحديد ما كان موجودًا في المخطوطات الأصليّة، فإنّهم يبحثون عن معلومات من خارج هذه المخطوطات، مثل اقتباسات آباء الكنيسة من النصّ الأصليّ في القرنَيْن الأوّل والثاني، ثمّ يأخذون بعين الاعتبار ما في داخل المخطوطات، كالتغييرات المفاجئة في أسلوب الكتابة، الأمر الذي يقود إلى طرح تساؤلات حول هذا المقطع. تبدو الآيات ٩–١١ على وجه التحديد غريبة نوعًا ما في ضوء الآيات ١–٨، إذْ يبدو أنّ مَرْقُس يبدأ روايته عن صباح القيامة من جديد، وهذه المرّة بحضور امرأة واحدة فقط هي مريم المجدليّة.

إذن، التحليل الداخليّ للنصّ، بالإضافة إلى دليل المخطوطة، يقود العلماء إلى الاستنتاج بأنّ النهاية الطويلة لمَرْقُس لم تكن في المخطوطة الأصليّة، إنّما قام شخص آخر غير مَرْقُس بإضافتها إلى هذا الإنجيل، وأنا أتّفق مع هذا الاستنتاج.

إنْ كان الأمر كذلك، فلماذا هذه الآيات موجودة في كتبنا المقدّسة؟

يعتقد المترجمون أنّه على الرغم من الجدل القائم حول صحّة هذا الجزء من الإنجيل، إلّا أنّه يُعتبر خاتمةً مناسبة لإنجيل مَرْقُس. لو لم يكن جزءًا من الإنجيل، لكان انتهى الإصحاح بالآية ٨ التي تقول: «فَخَرَجْنَ سَرِيعًا وَهَرَبْنَ مِنَ ٱلْقَبْرِ، لِأَنَّ ٱلرِّعْدَةَ وَٱلْحَيْرَةَ أَخَذَتَاهُنَّ. وَلَمْ يَقُلْنَ لِأَحَدٍ شَيْئًا لِأَنَّهُنَّ كُنَّ خَائِفَاتٍ». هذه الخاتمة المقتضبة لا تحتوي على معلومات حول لقاءَات التلاميذ مع المسيح المقام من بين الأموات وصعوده. يُعتقد أنّه في أوائل القرن الثاني، أرادت الكنيسة المسيحيّة توفير خاتمة مناسبة للنهاية المفاجئة لمَرْقُس، لذلك تمّ إضافة هذا الجزء بناءً على ما ذكره الرسل وما قاله كُتّاب الأناجيل الآخرون. بأيّ حال من الأحوال، إنّ العقائد الموجودة في هذا المقطع تتوافق مع ما يُعلّم في كلّ العهد الجديد. بالتالي، بإمكاننا قراءَتها ودراستها بثقة وجدوى.

عدم الإيمان بالقيامة

يكتب مَرْقُس في الآيات ٩–١٣: **وَبَعْدَمَا قَامَ بَاكِرًا فِي أَوَّلِ ٱلْأُسْبُوعِ ظَهَرَ أَوَّلًا لِمَرْيَمَ ٱلْمَجْدَلِيَّةِ، ٱلَّتِي كَانَ قَدْ أَخْرَجَ مِنْهَا سَبْعَةَ شَيَاطِينَ. فَذَهَبَتْ هَذِهِ وَأَخْبَرَتِ ٱلَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ وَهُمْ يَنُوحُونَ وَيَبْكُونَ. فَلَمَّا سَمِعَ أُولَئِكَ أَنَّهُ حَيٌّ، وَقَدْ نَظَرَتْهُ، لَمْ يُصَدِّقُوا. وَبَعْدَ ذَلِكَ ظَهَرَ بِهَيْئَةٍ أُخْرَى لِٱثْنَيْنِ مِنْهُمْ، وَهُمَا يَمْشِيَانِ مُنْطَلِقَيْنِ إِلَى ٱلْبَرِّيَّةِ. وَذَهَبَ هَذَانِ وَأَخْبَرَا ٱلْبَاقِينَ، فَلَمْ يُصَدِّقُوا وَلَا هَذَيْنِ.**

يُخبرنا مَرْقُس أنّ مريم المجدليّة قابلت يسوع (كما هو مكتوب في يوحنّا ٢٠: ١١–١٨)، ثمّ انطلقت مباشرة إلى التلاميذ الذين كانوا لا يزالون يبكون وينتحبون. ولكنّ التلاميذ لم يصدّقوها. ظهر يسوع لاحقًا لتلميذَيْن كانا مُنطلقَيْن إلى البريّة، الأمر الذي يشبه بوضوح رواية الرجلَيْن اللذين التقيا بيسوع المقام في الطريق إلى عماوس (لوقا ٢٤: ١٣–٣٥)؛ هما أيضًا،

أبلغا التلاميذ عن قيامة يسوع، وعلى الرغم من ذلك لم يؤمنوا.

لا عجبَ أنْ يُخبرَنا مَرْقُس أنّه **أَخِيرًا ظَهَرَ لِلْأَحَدَ عَشَرَ وَهُمْ مُتَّكِئُونَ، وَوَبَّخَ عَدَمَ إِيمَانِهِمْ وَقَسَاوَةَ قُلُوبِهِمْ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يُصَدِّقُوا ٱلَّذِينَ نَظَرُوهُ قَدْ قَامَ.** (الآية ١٤). وبَّخ يسوع التلاميذ لأنّهم لم يؤمنوا بما أُخبروا به عن قيامته. يُخبرنا لوقا أنّ يسوع ظهر لهم في مساء اليوم الذي قام فيه (٢٤: ٣٦-٤٣). حتّى عندما وقف في وسطهم، آمنوا به بصعوبة. في مرحلة ما، يكتب لوقا أنّهم كانوا «غَيْرُ مُصَدِّقِينَ مِنَ ٱلْفَرَحِ» (الآية ٤١). بغضّ النظر عن حقيقة أنّ البشرَ لا يعودون إلى الحياة، كان من الصعب على التلاميذ أنّ يصدّقوا أنّ يسوع كان على حيًّا لأنّ الخبر بحدّ ذاته كان مُفرحًا جدًّا.

كان هذا أوّل تفاعل يحدث بين يسوع وتلاميذه على مدى عدّة أسابيع. كما رأينا في الفصل السابق، ذهب يسوع وتلاميذه إلى الجليل. يُخبرنا الكتاب المقدّس أنّ مئات الأشخاص شاهدوه حيًّا (١ كورنثوس ١٥: ٦).

تفويض الإنجيل

ثمّ يكتب مَرْقُس: **وَقَالَ لَهُمُ: ٱذْهَبُوا إِلَى ٱلْعَالَمِ أَجْمَعَ وَٱكْرِزُوا بِٱلْإِنْجِيلِ لِلْخَلِيقَةِ كُلِّهَا. مَنْ آمَنَ وَٱعْتَمَدَ خَلَصَ، وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ يُدَنْ** (الآيتان ١٥-١٦). هذه هي نُسخة مَرْقُس من المأموريّة العظمى، والمعروفة بشكل أفضل في متّى ٢٨: ١٨-٢٠. هذه هي المَهمّة التي أعطاها المسيح لكنيسته. علينا أنْ نكرز بالإنجيل. لهذه الأخبار السارّة مضمون مُحدّد، كما نرى في السجل الرسوليّ. ليس الإنجيل أنّ الله يحبّنا وعنده خطّة رائعة لحياتنا. ليس الإنجيل أنّه إنْ أتينا إلى المسيح، فسيكون لحياتنا معنى أو هدف. ليس الإنجيل شهادتي أو شهادتك الشخصيّة. الأمر يتعلّق بإعلان شخص يسوع وخدمته، وكيف يمكن لمُكتسبات حياته وموته أن تُحتسب إلينا بالإيمان. بحسب توجيهات ربّنا، يجب الكرازة بهذا الإنجيل لكلّ إنسان في كلّ العالم.

في اليوم الذي تقرأ فيه هذه الكلمات، سيتحدّد رقم قياسيّ جديد. سيموت المزيد من الناس في هذا اليوم قبل أنْ يسمعوا الإنجيل أكثر من أيّ يوم مضى. سيحطّم هذا الرقم القياسيّ الجديد الرقمَ القياسيّ الذي حُدّد قبل يوم واحد. سيظلّ رقمًا قياسيًّا ليوم واحد فقط، لأنّ رقمًا قياسيًّا جديدًا سيُحدّد غدًا. أدّى الانفجار السكّاني في العالم إلى زيادة احتماليّة أنْ يولد شخص ما ويعيش ويموت من دون أنْ يسمعَ بيسوع. يبدو أنّ الكنيسةَ لا تستطيع مواكبة هذه الأعداد المتزايدة، لكن لا يوجد أمامَنا أيّ خيار سوى الاستمرار في السعي لإيصال الرسالة. كان هذ التكليف الأخير ليسوع، لذلك لا بدّ لنا أنّ نعيرَه انتباهنا.

إنّ تصريح يسوع بأنّ «مَنْ آمَنَ وَٱعْتَمَدَ خَلَصَ» تصريح مُحيّر نوعًا ما. يستنتج البعض هنا أنّ المعموديّة ضروريّة للخلاص. لذلك يستخلصون أنّه كما أنّ الإيمانَ شرط ضروريّ للخلاص، كذلك هي المعموديّة. إنّما يوضّح باقي العهد الجديد أنّ الشرط الوحيد الضروريّ والمطلق لخلاصنا هو الإيمان، وهذا الشرط كافٍ ووافٍ. أيّ شخص يؤمن حقًّا في المسيح، سيُبرَّر في تلك اللحظة بالذات. علاوة على ذلك، نرى أمثلة في الكتاب المقدّس عن أشخاص نالوا الخلاص من دون أنْ يعتمدوا، كاللصّ على الصليب (لوقا ٢٣: ٣٩-٤٣).

أضاف يسوع: «وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ يُدَنْ». لاحظ غياب استخدام مصطلح المعموديّة في هذا الجزء من كلام يسوع. لم يقلْ بطريقة موازية إنّ كلّ من لا يعتمد يُدنْ. الإيمان ضروريّ للخلاص، لذلك، عدم الإيمان يقود إلى الدينونة. يعرف معظمُ المسيحيّين يوحنّا ٣: ١٦، «لِأَنَّهُ هَكَذَا أَحَبَّ ٱللهُ ٱلْعَالَمَ حَتَّى بَذَلَ ٱبْنَهُ ٱلْوَحِيدَ، لِكَيْ لَا يَهْلِكَ كُلُّ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ، بَلْ تَكُونُ لَهُ ٱلْحَيَاةُ ٱلْأَبَدِيَّةُ». ولكن الآية في يوحنّا ٣: ١٨ توجّه أنظارنا إلى نقطة معاكسة: «اَلَّذِي يُؤْمِنُ بِهِ (أي بيسوع) لَا يُدَانُ، وَٱلَّذِي لَا يُؤْمِنُ قَدْ دِينَ، لِأَنَّهُ

لَمْ يُؤْمِنْ بِٱسْمِ ٱبْنِ ٱللهِ ٱلْوَحِيدِ».

أنا أشدّد على هذه المسألة لهذا السبب: لم يأتِ يسوع إلى عالم من الأبرياء، بل إلى عالم كان فيه كلّ إنسان تحت دينونة الله. يعتقد كثيرون من الناس ويعلّمون أنّ الذين لم يسمعوا عن يسوع من قبل، لن يُدانوا لأنّهم لا يستطيعون رفضَ مُخلّصٍ لم يسمعوا به. لكنّ يسوع علّم أنّ كلّ الناس، حتّى الذين لم يسمعوا عنه أبدًا، هم تحت الدينونة لأنّهم رفضوا الإعلان العامّ عن الله الآب، الذي أعلن نفسه لكلّ إنسان (رومية ١: ١٨–٢١). لقد استبدل كلّ إنسان معرفة الله بعبادة الأصنام، واستبدلوا الحقّ بالباطل، وعبدوا وخدموا المخلوقات بدلًا من الخالق (الآيات ٢٢–٢٥). لهذا السبب، أصبح جميع الناس تحت دينونة الله البارّة.

العلامات المرافقة

اختتم يسوع كلماته الأخيرة لتلاميذه قائلًا لهم: **وَهَذِهِ ٱلْآيَاتُ تَتْبَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ: يُخْرِجُونَ ٱلشَّيَاطِينَ بِٱسْمِي، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَةٍ جَدِيدَةٍ. يَحْمِلُونَ حَيَّاتٍ، وَإِنْ شَرِبُوا شَيْئًا مُمِيتًا لَا يَضُرُّهُمْ، وَيَضَعُونَ أَيْدِيَهُمْ عَلَى ٱلْمَرْضَى فَيَبْرَأُونَ** (الآيات ١٧–١٨). ذكر يسوع هنا عددًا من الآيات التي قال إنّها «تتبع» (أي أن تكون كعلامة أو سمة) الذين يؤمنون به. فلنتأمّل فيها واحدة بعد الأخرى. أوّلًا، «يُخْرِجُونَ ٱلشَّيَاطِينَ». لقد حرّر الرسل بالتأكيد الناسَ من المسّ الشيطانيّ، كما نرى في سفر أعمال الرسل (٥: ١٦؛ ٨: ٧؛ ١٦: ١٨؛ ١٩: ١٢). ثانيًا، «يَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَةٍ جَدِيدَةٍ». ظهرت هذه الآية أيضًا خلال الحقبة الرسوليّة (أعمال الرسل ٢: ٤، ١١؛ ١٠: ٤٦؛ ١٩: ٦). ثالثًا، «يَحْمِلُونَ حَيَّاتٍ». وقد تعرّض بولس للسعةٍ من أفعى، غير أنّه لم يتأثّر بها (أعمال الرسل ٢٨: ٣–٥).

بالطبع، تستخدم بعض البدع التي تتعامل مع الأفاعي هذه الآية كنصّ

لدعم ما يقومون به. تؤمن هذه المجموعات أنّ إثبات إيمان الإنسان من خلال التعامل مع الأفاعي السامّة، هو جزء أساسيّ في الإيمان المسيحيّ. يقولون إنّه لو كان عند المؤمنين القدر المناسب من الإيمان، فسيكونون قادرين على التعامل مع مثل هذه الأفاعي من دون الإصابة بجروح مُميتة. أصبح بعضهم بارعًا جدًّا في التعامل مع الأفاعي إلى حدّ عدم إثارة إزعاجها، ثمّ يقومون بالتقاط هذه الأفاعي القاتلة من دون الإصابة بأيّ ضرر. ومع ذلك، نقرأ دائمًا عن أشخاص في بدع تتعامل مع الأفاعي تعرّضوا للسع ويعانون من آثار السمّ. لم يكن القصد من هذه الكلمات التي نطق بها يسوع أنْ تُستخدم كاختبار للإيمان.

رابعًا، «**وَإِنْ شَرِبُوا شَيْئًا مُمِيتًا لَا يَضُرُّهُمْ**». لا يذكر الكتاب المقدّس أيّ شخص شرب السمّ وبقي على قيد الحياة. إلّا أنّه يوجد شهادة من تاريخ الكنيسة الأولى لمسيحيّ واحد أُجبر خلال فترة الاضطهاد على شُرب السمّ ونجا من التجربة بدون أنْ يتعرّض للأذى. خامسًا، «**يَضَعُونَ أَيْدِيَهُمْ عَلَى ٱلْمَرْضَى فَيَبْرَأُونَ**». كانت هذه العلامة شائعة في عصر الرسل (أعمال الرسل ٣: ١–٨؛ ٥: ١٦؛ ٨: ٧؛ ٩: ٣٢–٣٤؛ ١٤: ٨–١٠؛ ١٩: ١٢).

إذن، يمكننا أنْ نستخلص بأنّ هذه الآيات كانت موجودة في عصر الرسل، لكن ليس واضحًا إن كان يجب اعتبارها مقياسًا تحتذي به الكنيسة في كلّ العصور.

الصعود والجلوس

ثمّ يكتب مَرْقُس: **ثُمَّ إِنَّ ٱلرَّبَّ بَعْدَمَا كَلَّمَهُمُ ٱرْتَفَعَ إِلَى ٱلسَّمَاءِ، وَجَلَسَ عَنْ يَمِينِ ٱللهِ** (الآية ١٩). تُغطّي هذه الآية القصيرة اثنين من أهمّ الأحداث في خدمة ربّنا. أوّلًا، يذكر هنا مَرْقُس صعود يسوع، ثمّ بعد عدة أسابيع من التفاعل مع تلاميذه، صعد يسوع إلى السماء ليتمّ تتويجه، محقّقًا بذلك

نبوءَة من دانيال:

كُنْتُ أَرَى فِي رُؤَى ٱللَّيْلِ وَإِذَا مَعَ سُحُبِ ٱلسَّمَاءِ مِثْلُ ٱبْنِ إِنْسَانٍ أَتَى وَجَاءَ إِلَى ٱلْقَدِيمِ ٱلْأَيَّامِ، فَقَرَّبُوهُ قُدَّامَهُ. فَأُعْطِيَ سُلْطَانًا وَمَجْدًا وَمَلَكُوتًا لِتَتَعَبَّدَ لَهُ كُلُّ ٱلشُّعُوبِ وَٱلْأُمَمِ وَٱلْأَلْسِنَةِ. سُلْطَانُهُ سُلْطَانٌ أَبَدِيٌّ مَا لَنْ يَزُولَ، وَمَلَكُوتُهُ مَا لَا يَنْقَرِضُ». (دانيال ٧: ١٣-١٤)

ثانيًا، نرى جلسة يسوع، أي ملكه في القوّة عن يمين الآب، والتي تأمّلنا فيها بشيء من التفصيل في الفصل ٤٤. تنبع هذه الخدمة من صعوده وتتويجه. إنّه يحكم كملك الملوك وربّ الأرباب، ويحكم على كلّ حدث يحدث في هذا العالم، سواء كان صغيرًا أم كبيرًا.

أخيرًا، يقول مَرْقُس: **وَأَمَّا هُمْ فَخَرَجُوا وَكَرَزُوا فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَٱلرَّبُّ يَعْمَلُ مَعَهُمْ وَيُثَبِّتُ ٱلْكَلَامَ بِٱلْآيَاتِ ٱلتَّابِعَةِ. آمِينَ** (عدد ٢٠). فور أنْ غادرَ يسوع هذا العالم، استلم الرسل خدمتَهم المعيّنة إليهم، وبدأوا يكرزون بالإنجيل في كلّ مكان. لكنّ مَرْقُس يُعلن أنّ يسوع كان يعمل معهم. عندما أعلن ربّنا عن رحيله الوشيك لتلاميذه، قال لهم: «بَعْدَ قَلِيلٍ لَا يَرَانِي ٱلْعَالَمُ أَيْضًا» (يوحنّا ١٤: ١٩أ). لكنّه قال أيضًا: «وَهَا أَنَا مَعَكُمْ كُلَّ ٱلْأَيَّامِ إِلَى ٱنْقِضَاءِ ٱلدَّهْرِ» (متّى ٢٨: ٢٠ب). لم يعد يسوع حاضرًا معنا بطبيعته البشريّة، أمّا بطبيعته الإلهيّة، فهو لا يغيب عنّا أبدًا. إذن، إنّ المَهمّة التي أوكلها يسوع إلى الكنيسة ليست مَهمّة يجب على الكنيسة القيام بها بجهودها وحدها، بل يتمّ ذلك بمساعدة الربّ الذي يعمل مع شعبه، ويسير أمامهم. عندما نخرج، سنجد أنّه موجود أمامنا. إنّه لا يتبع خدمة الكنيسة، بل يقودها.

عندما قال مَرْقُس عن يسوع إنّه «يُثَبِّتُ ٱلْكَلَامَ بِٱلْآيَاتِ ٱلتَّابِعَةِ،» فقد كان يتكلّم عن المعجزات والغرض منها. أُعطيت المعجزات للكنيسة

الرسوليّة لتأكيد الحقّ المعلن في شهادة الرسل. كان هذا يتبع نمط العهد القديم، حيث كان يتمّ إثبات من أوحى الله إليهم بأنّهم رسل من الله من خلال المعجزات التي كانوا يصنعونها. يقول الناس أحيانًا: «سأؤمن بالله إنْ رأيتُ معجزة». لكن، لا يمكن لأحد أنْ يُعرّفَ المعجزة على أنّها معجزة قبل أنْ يعترفَ أوّلًا بوجود الله، لأنّ المعجزة بحكم تعريفها هي شيء لا يستطيع فعله إلّا الله وحده.

أخيرًا، ينتهي إنجيل مَرْقُس بكلمة واحدة: «آمين». كما رأينا في الفصل ١٠، هذه الكلمة الصغيرة تعني ببساطة «هذه هي الحقيقة». يقول لوقا إنّه يكتب لكي يعرف ثاوفيلس «صِحَّةَ ٱلْكَلَامِ ٱلَّذِي عُلِّمْتَ بِهِ» (١: ٤). ويقول يوحنّا: «هَذَا هُوَ ٱلتِّلْمِيذُ ٱلَّذِي يَشْهَدُ بِهَذَا وَكَتَبَ هَذَا. وَنَعْلَمُ أَنَّ شَهَادَتَهُ حَقٌّ» (٢١: ٢٤). يتبع مَرْقُس مقاربة أبسط، حيث يقول ببساطة: «آمين»، لكنّه يؤكّد كالآخرين أنّ الأشياء التي كتبها عن يسوع صحيحة. لذلك حريّ بنا أنْ نصدّقَ شهادته.

عن الكاتب

الدكتور آر. سي. سبرول

الدكتور آر. سي. سبرول هو مُؤسِّس هيئة خدمات ليجونير، وهو الراعي المؤسّس لكنيسة القدّيس أندرو في مدينة سانفورد بولاية فلوريدا، كما كان أوّل رئيس لكليَّة الكتاب المقدس للإصلاح، ورئيس تحرير مجلّة تيبولتوك. لا يزال برنامجه الإذاعي «تجديد عقلك» يُبثّ يوميًّا على مئات المحطّات الإذاعيّة حول العالم، ويمكن أيضًا الاستماع إليها عبر الإنترنت. ألّف أكثر من مائة كتاب، بما في ذلك كتاب بعنوان «قداسة الله»، «مُختار من الله»، «كلّ شخص لاهوتيّ.» هو معروف حول العالم بدفاعه الواضح عن عصمة الكتاب المقدّس وضرورة أنْ يتمسّك شعب الله بقناعة بكلمته.

كتابات ليجونير

خدمات ليجونير هي هيئة دوليَّة للتلمذة المسيحيَّة أسَّسها عالم اللاهوت الدكتور أر. سي. سبرول في عام ١٩٧١ من أجل إعلان قداسة الله وشرحها والدفاع عنها في كل ملئها لأكبر عدد ممكن من الناس. أصبحت علامة «كتابات ليجونير» تشير إلى ما هو جدير بالثقة في جميع أنحاء العالم وبالعديد من اللغات.

بدافع من الإرساليَّة العُظمى، تُقدِّم خدمات ليجونير موارد التلمذة حول العالم سواء مطبوعة أو رقميَّة. تتم ترجمة موارد موثوق بها من كتب ومقالات أو دبلجة سلاسل تعليم بالفيديو إلى أكثر من أربعين لغة. رغبتنا هي دعم كنيسة يسوع المسيح من خلال مساعدة المؤمنين على معرفة ما يؤمنون به، ولماذا يؤمنون به، وكيف يعيشونه، وكيف يشاركونه مع الآخرين.

الموقع الإلكتروني لخدمات ليجونير:

https://ar.ligonier.org

ندعوكم للانضمام إلينا عبر وسائل التواصل الاجتماعي التالية:

facebook.com/LigonierAR

twitter.com/LigonierAR

t.me/Ligonier_Arabic

للتواصل معنا:

info@ar.ligonier.org

"أنت هو المسيح"

في عصر الشكّ هذا، يُصرّ كثيرون على أنّ يسوع كان في أحسن الأحوال، مُعلّمًا عظيمًا. يوضّح مَرْقس أنّه كان - ولا يزال - أكثر من ذلك بكثير. في هذا المجلّد، يغوص الدكتور آر. سي. سبرول في إنجيل مَرْقُس المليء بالإثارة والسريع الخُطى. يُخبرنا بتفاصيل دقيقة، أنّ يسوع هزم الشياطين «في الحال»، وبدّد الأمراض وأخضع قوى الطبيعة وأشبع الجياع وأسكت النُقّاد. من معجزة عظيمة إلى أخرى، يبني هذا الإنجيل قضيّة راسخة لهُويّة يسوع الحقيقيّة، ويقودنا إلى الاعتراف مع الرسول بطرس: «أنتَ هو المسيح» (مرقس ٨: ٢٩).

تساعدك التفسيرات المفصّلة للدكتور سبرول على فهم المواضيع اللاهوتيّة الرئيسيّة وتطبيقها على جميع مجالات حياتك. هذه العظات المُستمَدّة من عقود من الدراسات المتأنّية والتي تمّ إلقاؤها من قلب راعٍ، هي عظات سهلة القراءة وعمليّة ومتمحورة تمامًا حول الكتاب المقدّس. هذه هي فرصتك للتعلّم من معلّم وعالم لاهوت موثوق به، بينما يقودك من خلال كلمة الله ويشاركك وجهة نظره حول العيش بأمانة لمجد الله. هذه السلسلة هي لخدمة الرعاة والمجموعات الصغيرة والمسيحيّين الذين يريدون معرفة الكتاب المقدس بشكلٍ أفضل، والذين هم في تزايد مستمرّ.

الدكتور آر. سي. سبرول هو مُؤسِّس هيئة خدمات ليجونير، وهو الراعي المؤسّس لكنيسة القدّيس أندرو في مدينة سانفورد بولاية فلوريدا، كما كان أوّل رئيس لكليَّة الكتاب المقدس للإصلاح، ورئيس تحرير مجلّة تيبولتوك. ألّف أكثر من مائة كتاب، بما في ذلك كتاب بعنوان «قداسة الله».

500 PLUS SPIRITUAL PRODUCTIONS

كتابات ليجونير